بوب وودورد

VEIL الحجاب

الحروب الخفية لوكالة المخابرات المركزية الاميركية CIA





الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م



تليفون : ٨١٤٧١٦
٨١٤٦٩٧
ص. ب : ١٤/٥٦٤٥
بيروت - لبنان

كلمة الناشر

يعرض هذا الكتاب خفايا وأسرار معظم عمليات وكالة المخابرات المركزية الأميركية من أواخر عام ١٩٨٠ حتى مطلع عام ١٩٨٧، وهي الفترة التي كان فيها وليم كايسي مديراً للمخابرات المركزية. ويستند الكتاب في عرضه إلى وثائق ومستندات ومقابلات أجراها المؤلف تكشف عن أسرار تتعلق بأخطر الحروب الخفية في العالم. نذكر منها حرب المخابرات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بجميع أشكالها التكنولوجية والبشرية والتي يشمل مسرح عملياتها أنحاء العالم.

يعرض الكتاب أيضاً للحرب الخفية التي شنتها وكالة المخابرات المركزية على نيكارغوا، ويفصل جميع ما يتعلق بهذه الحرب وخصوصاً تأسيس قوات الكونترا وتأليفها وتنظيمها وتسليحها وتمويلها وإدارة عملياتها وتدريبها. كل هذا كانت تتولاه وكالة المخابرات المركزية بصورة مباشرة.

كما يعرض للحرب الخفية الأميركية ضد ليبيا وضد زعيمها معمر القذافي التي تطورت إلى تدخل عسكري أميركي مباشر، خصوصاً الغارة الشهيرة التي شنتها الطائرات الأميركية على ليبيا عام ١٩٨٦. وفي هذا المجال يعرض لبعض الأساليب العجيبة عند الأميركيين مثل إجراء دراسات نفسية تستند إلى صور العقيد القذافي، لتحديد وضعه النفسي أو بث إشاعات ومعلومات كاذبة عن الأوضاع داخل ليبيا.

جاء في الكتاب أيضاً معلومات هامة عن التدخل الإسرائيلي في لبنان لا سيما اجتياح عام ١٩٨٢ وخلفيات الوجود العسكري الأميركي في بيروت وظروف وخفايا أعمال التفجير ضد المؤسسات الأميركية في بيروت (السفارة الأميركية، مقر قيادة مشاة البحرية الاميركية في بيروت) والتدخل الأميركي المباشر في لبنان وتواجد الأميركيين في القصر الجمهوري اللبناني عن طريق إنشاء مجلس أمن قومي في لبنان عهد برئاسته إلى وديع حداد.

كما يعرض الكتاب نشاطات وكالة المخابرات المركزية في دول الهند الصينية وأفغانستان لا سيما دعم المجاهدين الأفغان وفي شمال افريقيا وغرب افريقيا وأميركا اللاتينية. كما يعرض العمليات التي نفذتها الوكالة لتأمين الحماية الشخصية لرؤساء الدول الصديقة للولايات المتحدة

في العالم والتي تشمل تقديم التجهيزات المعقدة وتدريب العناصر الموكلة بالحماية الشخصية. ويعرض أيضاً للجانب التكنولوجي الأميركي في التجسس وخصوصاً الأقمار الاصطناعية المتطورة وبعض أجهزة التنصت وأجهزة استراق السمع الدقيقة جداً وأجهزة الالتقاط، وهذا ما كانت تتولى أمره وكالة خاصة هي وكالة الأمن القومي.

إضافة إلى المعلومات والأسرار التي يكشف عنها، يتضمن الكتاب أيضاً عرضاً لنمط العمل الداخلي في الإدارة الاميركية، ولآلية اتخاذ القرار، وللصراعات على السلطة بين مختلف أجهزة الادارة، ولتعدد مراكز القوى في البيت الأبيض.

وإن القرار الأميركي يؤثر على جميع دول العالم وشعوبها، ولذلك بات من الضروري الاطلاع على جميع الدراسات التي تتعلق بآلية العمل في الإدارة الأميركية. وهذا الكتاب يعرض أمثلة حية لذلك خلال فترة تزيد عن ست سنوات.

ولا يفوتنا هنا، القول، أننا بترجمتنا هذا الكتاب إلى اللغة العربية، ونشره، ليطلع القارىء العربي على ما يجري في العالم، قد عمدنا إلى حذف بعض المقاطع التي وجدنا فيها دسّاً من المؤلف أو من الوكالة ضد بعض الشخصيات العربية والإسلامية، التي رأينا فيها تجاوزاً لكل الأعراف وتعالياً أميركياً تقوده نزعة الغطرسة المعروفة عمن يظنون أنهم بما توصلوا إليه من تكنولوجيا متطورة باتوا مؤهلين لأن يتحكموا بالشعوب. لكن لا بدّ أنهم عرفوا ـ من خلال تعاملهم مع الشعوب ـ أن هذا بعيد المنال.

وأبقينا على الكثير من الأسرار دون تدخل منا، تاركين للقارىء الحكم على هذه الأقاويل التي إن صح بعضها، فإن معظمها لا يعدو كونه امالاً واوهاماً. هدفنا، في النهاية، إطلاع القارىء على الدور الخطير الذي تضطلع به قوى الاستعمار لوقف نهوض حركات التحرر في العالم الثالث، وفي العالم العربي على وجه الخصوص.

الناشر

المقدمة

تمّ الحصول على معظم المعلومات الواردة في هذا الكتاب من مقابلات كنت قد أجريتها مع أكثر من ٢٥٠ شخصاً اشتركوا مباشرة في جمع المعلومات أو استخدامها. لقد أجريت مقابلات متعددة مع أكثر من ١٠٠ شخص من هؤلاء، ومنهم حوالى ١٥ مصدراً مهماً كنت قد قابلت كل واحد منهم أكثر من ست مرات. كنت أفضّل أن أصرّح عن وظيفة كل مصدر واسمه، ولكن بسبب حساسية الموضوع أجريت جميع المقابلات في الظل مما يعني أني وعدتُ الأشخاص المعنيين بأني لن أذكر أسماءهم. والحقيقة أن هؤلاء الناس لن يبحثوا مواضيع الاستخبارات دون وعد بالمحافظة على السريّة. كان بعض المصادر قد سمح لي بالاطّلاع على مستندات ومذكرات وملاحظات وروزنامات ورسائل ومطبوعات ومفكرات ووثائق مكتوبة أخرى. تبيّن لي أن المباحثات مع المصادر الرفيعة المستوى كانت أفضل من قراءة كوم الأوراق.

إنّ التحقيقات المختلفة المتعلقة بقضية إيران ـ الكونترا ومن ضمنها تحقيقات لجنة استخبارات مجلس الشيوخ وهيئة تاور للمراجعة واللجنة المنتخبة المشتركة من الشيوخ والنواب وتحقيقات المستشار المستقل لورنس ولش أمنت لي معلومات إضافية وتوثيقاً مهماً، وخصوصاً لسنتي ١٩٨٥ و١٩٨٦.

لقد حصلت على الحوار المذكور في الاجتماعات أو المحادثات من مذكرة مكتوبة أو من ملاحظة أو من أحد المشتركين. وفي السرد عندما أقول إن أحداً ما قد فكّر أو اعتقد بوجهة النظر هذه أو تلك فإني قد حصلت على هذه المعلومات من الشخص نفسه أو من مصدر يعرف تمام المعرفة استنتاجات الشخص. لقد حاولت أن أحافظ على لغة الشخصيات الرئيسية والمصادر قدر الإمكان مستعملاً كلماتهم كمقتطف، وهي التي تعكس نكهة حديثهم ومواقفهم بأفضل ما استطعت. وفي تلك الأحوال وعندما لم تكن ذاكرة المصادر واضحة تماماً، لم أستعمل أي مقتطف.

كتب كين أولتا في أحدث كتاب له: «لا يستطيع أي محرّر أن يعيد كتابة الأحداث مئة بالمئة. فالذاكرة تخدع، وهو يحاول أن ينبه إلى عدم الدقة وأن يتحقق من عدة مصادر، ولكن من المفيد للقارئ وللكاتب أن يلتزما بالقيود الصحافية». وأنا أؤيد تماماً هذه الملاحظة المهمة.

بدأت العمل في هذا الكتاب في أواخر عام ١٩٨٤ وكان هدفي تغطية أول أربع سنوات من عمل وكالة المخابرات المركزية في عهد ريغان وكايسي. ولكني خلال إعداد الكتاب كنت أعمل كمراسل وكمدير تحرير لصحيفة واشنطن بوست، وسرعان ما بدا واضحاً من الأحداث المتصلة بنيكاراغوا وليبيا وإيران أن هذا الكتاب سيغطي عامي ١٩٨٥ و١٩٨٦ وقسماً من عام ١٩٨٧. إن هذا الكتاب هو من أوائل الكتب التي تعالج هذه المواضيع، وستكون له الكلمة الأخيرة فيها. هذا الكتاب قريب من الصحافة أكثر من قربه من التاريخ، وخصوصاً في الاستجوابات المتعلقة بإيران ـ الكونترا وفي جميع التحقيقات.

في عدد من الفصول تورطتُ أنا وبعض محرري الواشنطن بوست في اتخاذ قرارات حول نشر أخبار تتعلق بالأمن القومي. في هذه الحالات كنتُ المصدر الوحيد، وأسهبتُ في السرد في محاولة لوصف ما حدث بدقة كما فعلت مع العديد من اجتماعاتي مع كايسي.

لقد حاولتُ أن أسرد قصة الاستخبارات من ثلاثة مصادر: مدير المخابرات المركزية كايسي، والبيت الأبيض، ولجنة استخبارات مجلس الشيوخ.

ولقد أجريتُ أكثر من ٤٠ مقابلة وحواراً مع كايسي منذ عام ١٩٨٣ ولغاية ١٩٨٧. تحدّثنا في مكتبه وفي منزله وفي رحلات الطيران وفي الزوايا أثناء الحفلات والمناسبات الاجتماعية وعلى الهاتف. وفي بعض الأحيان تكلّم بحرية وشرح وجهة نظره، إلاّ أنه تحفّظ في أحيان أخرى. بالإجمال كنتُ قادراً على معرفة رأيه في مختلف مواضيع الاستخبارات التي تم بحثها في هذا الكتاب. وكان هذا أقصى ما يرضاه لنفسه وللآخرين. نادراً ما كان يرغب في أن يكتشف أنه مصدر لكتاباتي في الصحيفة، مع أنه كان يعلم بأني أجمع معلومات من أجل هذا الكتاب. وفي بعض المناسبات كان يشترط أن لا تظهر المعلومات في عدد الغد من الصحيفة بل في الكتاب فقط.

كان كايسي يعتبر نفسه مؤرخاً، ومن حسناته أنه لو عاش ليكتب سيرة حياته لكتبها بطريقة أخرى. ولأمكن أن يعارضني بحدة كما كان يفعل وهو على قيد الحياة. وبالرغم من ذلك فإني متأكد أنه كان سيعترف تقريباً بكل ما كتب هنا.

كان البيت الأبيض ومجلس الأمن القومي من أهم مستخدمي معلومات الاستخبارات، وقد ساعدني عشرات الأعضاء من مساعدي ريغان إلاّ أنني لم أقابل الرئيس.

عام ١٩٧١ قال السناتور جون ستينس ـ وهو من كبار أنصار وكالة المخابرات المركزية ـ في قاعة مجلس الشيوخ: «التجسس هو التجسس. . . عليكم أن تفهموا أن لديكم وكالة مخابرات وأن عليكم أن تدعموها وأن تغمضوا عيونكم وتستقبلوا ما هو قادم من أحداث». وبعدما انكشف سوء استخدام الاستخبارات في السبعينات كانت لجنة استخبارات مجلس الشيوخ أكثر مَن راقب نشاطات الاستخبارات. واستناداً إلى القوانين كانت هي وزميلتها في مجلس النواب تضمنان بقاء عيون الكونغرس مفتوحةً باستمرار. أمّا

في عهد ريغان فقد تعثرت مراقبة السلطة التشريعية للاستخبارات أو فشلت. وقد ساعدني أعضاء لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ وأركانهم في الحصول على هذه المعلومات.

أخيراً كلمة حول الأسرار.

إنه من السهل في جانب اتخاذ موقف من الرهبة والتبجيل حول تصنيف المراسلات والوثائق، وإنه إذا وضع عليها طابع سري أو سري جداً فإن هذا يعني أن الوثيقة حساسة ويجب تصنيفها. وفي جانب آخر، من السهل أن نشكّك في التصنيف، وأن نفترض بأنه لا معنى له، بل هو إجراء أُعِدَّ ليخفي السياسة العاطلة. وبتوجيه من أفضل مصادري حاولتُ اعتماد أسلوب معتدل في انتقاء ما يمكن الكشف عنه.

بوب وودورد

شخصيات الكتاب

مدير المخابرات المركزية فترة وجوده في الوظيفة

وليم ج. كايسي ١٩٨١/١/٢٨ ـ ١٩٨٧/١/٢٩

نائب مدير المخابرات المركزية

روبرت ر. انمان ١٩٨١/٢/١٢ ـ ١٩٨١/٦/١٠

جون ن. مكماهون ١٩٨١/٦/١٠ ـ ١٩٨٦/٣/٢٩

روبرت م. غايتس نيسان ١٩٨٧.

مدير العمليات في وكالة المخابرات المركزية

ماكس س. هوغل ١٩٨١/٥/١١ ـ ١٩٨١/٧/١٤

جون هـ. شتان تموز ١٩٨١ ـ حزيران ١٩٨٤

كلير جورج حزيران ١٩٨٤ ـ

المستشار العام لوكالة المخابرات المركزية

ستانلي سبوركين ١٩٨١/٥/١٨ ـ ١٩٨٦/٢/٧

مدراء سابقون لوكالة المخابرات المركزية

ريتشارد هلمز ١٩٦٦/٦/٣٠ ـ ١٩٧٣/٢/٢

جيمس شليسنغر ١٩٧٣/٢/٢ ـ ١٩٧٣/٧/٢

وليم كولبي ١٩٧٣/٩/٤ ـ ١٩٧٦/١/٣٠

جورج بوش ١٩٧٦/١/٣٠ ـ ١٩٧٧/١/٢٠

ستانسفيلد تورنر ١٩٧٧/٣/٩ ـ ١٩٨١/١/٢٠

رئيس الولايات المتحدة

رونالد ريغان ١٩٨١/١/٢٠

مستشار الأمن القومي

ريتشارد آلن ١٩٨١/١/٢١ ـ ١٩٨٢/١/٤

وليم كلارك ١٩٨٢/١/٤ ـ ١٩٨٣/١٠/١٧
روبرت مكفرلين ١٩٨٣/١٠/١٧ ـ ١٩٨٥/١٢/٤
جون بواندكستر ١٩٨٥/١٢/٤ ـ ١٩٨٦/١٠/٢٥
فرانك كارلوتشي ١٩٨٧/١/٢ ـ

مساعدو الرئيس
جيمس باكر رئيس الأركان ١٩٨١/١/٢١ ـ ١٩٨٥/٢/٢
أدوين ميز مستشار ١٩٨١/١/٢١ ـ ١٩٨٥/٢/٢٤
مايكل ديفر نائب رئيس الأركان ١٩٨١/١/٢١ ـ ١٩٨٥/٥/١٠
دونالد ريغان رئيس الأركان ١٩٨٥/٢/٤ ـ ١٩٨٧/٢/٢٧

وزير الخارجية
ألكسندر هيغ ١٩٨١/١/٢٢ ـ ١٩٨٢/٦/٢٥
جورج شولتز ١٩٨٢/٧/١٦ ـ

معاون وزير الخارجية للشؤون الأميركية
توماس أندرز ١٩٨١/٦/٢٣ ـ ١٩٨٣/٦/٢٧
أنطوني (طوني) موتلي ١٩٨٣/٧/١٢ ـ ١٩٨٥/٧/٣
أليوت أبرامز ١٩٨٥/٧/١٧ ـ

وزير الدفاع
كاسبار وينبرغر ١٩٨١/١/٢١ ـ

لجنة استخبارات مجلس الشيوخ
باري غولدووتر رئيس اللجنة ١٩٨١ ـ ١٩٨٥
ديفيد دورنبرغر رئيس اللجنة ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦
دانييل موتيهان نائب رئيس اللجنة ١٩٨١ ـ ١٩٨٤
باتريك ليهي نائب رئيس اللجنة ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦

تمهيد

عند الساعة السابعة من يوم الخميس ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٠ أيقظ منبه الساعة الأميرال ستانسفيلد تورنر مدير المخابرات المركزية الأميركية. كان يكره أن يستيقظ باكراً. وكان ذلك هو اليوم ٣٨٣ على أزمة الرهائن الأميركية في إيران التي أطاحت برئاسة جيمي كارتر الشهر الفائت، وكان على تورنر أن يقدم إيجازاً للرئيس المنتخب ريغان في النهار نفسه.

منذ مطلع السنة كان قد وضع حرس لمدة ٢٤ ساعة يومياً على الطابق الأرضي لمنزل تورنر وذلك لعدة أسابيع بعدما كان مكتب التحقيق الفدرالي قد ألقى القبض على بعض الإيرانيين مسلحين ببنادق متطورة في إحدى ضواحي واشنطن. ثمّ ألغي الحرس بعدها وأصبح البيت هادئاً. كان تورنر أميرالاً متقاعداً في البحرية ويبلغ السادسة والخمسين من العمر وهو محلل أنظمة ومن المفكرين البحريين المعتبرين وخريج مدرسة رودز. واعتمد في تفكيره على النظر إلى المسائل الأكثر أهمية، إلاّ أنه كان رجلاً انفعالياً. وهو الآن ينتقل من قبضة رئيس إلى قبضة آخر، وينتابه شعور متناقض حول الفترة الانتقالية.

أولاً كان عليه أن يحسب بدقة متى وكيف يمكنه تمرير الأسرار الهامة للرئيس ريغان وخاصة حول عمليات التفجير والعمليات الخطرة وتقنيات التجسس المعقدة التي كان على الرئيس المنتخب أن يتفهمها جيداً. وكان هذا الكلام هو آخر ما لم يتسرب إلى وسائل الإعلام أو إلى الجواسيس السوفيات. إنَّ إفشاء هذه المعلومات يكون عادة بين رجل ورجل وبينهما فقط، وذلك بانتظار أن يعين الرئيس ريغان الأشخاص الذين يضع ثقته فيهم. ولم يكن باستطاعة تورنر أن يفشي هذه الأسرار أمام السياسيين الطفيليين الذين حضروا الإيجازين الماضيين وينتظر حضورهم في إيجاز اليوم. وكان عليه أن يشرح للرئيس المنتخب إحدى أكثر العمليات سرية إذ إنَّ حياة أكثر من مائة شخص كانت في خطر محتم.

وكان عليه أن يجذب انتباه ريغان إلى المسائل الفلسفية في عمل المخابرات وهي فرص وأخطار التجسس والعمليات الخفية، وفي هذا المجال يدع الرئيس يقدم على الخيار المناسب. وأراد هذه المرّة أن يُحَسِّنَ من نوعية الإيجاز، ففي الإيجازات السابقة كان اهتمام ريغان شكلياً ويصعب التأثير فيه وكان يتمتع برشاقة وخفة ويلوح بيديه ضارباً بعرض الحائط مشاكل العالم

التي يزيلها بضحكة منه، وهذا ما يتماشى مع مبدأ المحافظين الأميركيين وتقاليد هوليوود. ما هذا التباين الواضح؟ فغالباً ما كان تورنر يخوض مناقشات مع كارتر. وكلما تعرف أكثر إلى ريغان شكك في عمق تفكيره ووصفه في مجالسه الخاصة بـ «الغبي».

إنَّ آخر ما كان يهتم به تورنر هو مستقبله الشخصي، وقد أبدى رغبة في البقاء مديراً للمخابرات المركزية. أما ريغان والقاعدة الجمهورية فقد اتهموا كارتر بأنه أعاق عمل وكالة المخابرات المركزية وجعل من الصعب عليها القيام بعمليات تجسس فعالة. وتداول الجمهوريون فيما بينهم أنَّ تورنر تجاوب مع حملة الرئيس كارتر لحقوق الإنسان، وكان أيضاً شغوفاً بأحدث ما توصلت إليه الأقمار الاصطناعية والتقنيات الألكترونية التي كان العمل في مجالها نظيفاً وآمناً ولا يفرض القيام بأية مجازفة. واستعمل الجمهوريون تعبير «الوهن» حول نشاط الوكالة. واعتقد تورنر أنَّ بإمكانه أن يرد بالحجة والإقناع إذا ما أصغى الرئيس ريغان إليه فقد قامت الوكالة بعمليات يمكنها أن تنوِّر الرئيس. وأخبر تورنر كبار معاونيه أنَّ ريغان لا يريد تسييس المخابرات التي تسير على الطريق المستقيم. وسخر معاونوه عندما قال إنَّه لم ينته، حتى إنَّ صديقه القديم النقيب البحري المتقاعد هيرب هتيو ـ وهو رئيس قسم الشؤون العامة في الوكالة ـ اعتقد بأنَّ تورنر يحتاج إلى أن يعرف الحقيقة بشكل أوضح. وقال له إنَّ من المستحيل أن يبقوه في مركزه لأنَّهم أمضوا الحملة الانتخابية وهم يشهِّرون بعمل الوكالة.

قبيل الانتخابات الرئاسية جمع تورنر خمسة عشر من كبار معاونيه في حلقة دراسية في كامب بيري وهي مؤسسة التدريب السرية للوكالة في ريف ولاية ڤيرجينيا. وكان يميل إلى المزاح عندما أجرى استفتاء سرياً كانت نتيجته كوقع الماء المثلج على الوجه، وذلك عندما كُتِبَتْ على اللوح: ريغان ١٣ وكارتر ٢. وعَكَسَ ذلك النتيجة النهائية فيما بعد وهي: ريغان ٤٨٩ وكارتر ٤٤.

كان صباح اليوم التالي للانتخابات سيئاً فقد انكشفت اللعبة داخل مبنى الوكالة في لانغلي واحتفل عناصر الوكالة بانتصار ريغان مثلما احْتُفِل بيوم التحرير في باريس!

بعدما أخذ حمّامه، ارتدى تورنر ثيابه وجلس ليقرأ بضع دقائق في مجلة دروس تعليم المسيحية الأسبوعية، فهي الفرصة الوحيدة أمامه للقراءة أثناء النهار. كان يؤمن بأنَّ عقله وروحه يتفرعان من العقيدة المسيحية. وكان موضوع درس الأحد: قل لمريضك أن يستيقظ، وأزح نظرته عن أخطاء الحواس وانظر إلى داخل الإنسان. هكذا قالت الرسالة.

كان تورنر مطيعاً للتعاليم الدينية وهي نقطة غير جيدة في رئيس أكبر وأعقد جهاز استخبارات في العالم. إلاَّ أنَّه شهد قوة هذه التعاليم فقد عاشت والدته مرحلة العشرينات وحيدة عندما خسر والده كل ماله في البورصة ثمّ عاش وحيداً. وبعدما توفي شقيقه الوحيد في حادث سيارة، انغمس تورنر في التدين ليعالج الآلام والمآسي، ووضع خطاً أحمر بقلمه على عبارة: تجارب ومعجزات العناية الإلهية.

نزل الرجل الضخم على الدرج لتناول طعام الفطور وشعره الرمادي يتدلى ويتمايل على جبهته من كثرة تحركه.

عيناه زرقاوان فاتحتان وابتسامته قصيرة مشعة، وبدا كعضو نادي الروتاري الذي تتوقع منه أن يكون أياً كان عدا أن يكون مديراً للمخابرات المركزية.

على مائدة الفطور شرب العصير والماء الساخن مع الليمون لأنَّ تعاليم المسيحية تقضي بعدم تناول المنبهات ولا حتى القهوة، وكان لا يحب حتى الآيس كريم على قهوة. ظهرت أمامه صحيفة الواشنطن بوست وقد كتب في أحد عناوينها: تمّ اختيار وليم كايسي مديراً للمخابرات المركزية.

تناول تورنر الصحيفة بسرعة ولم يكن قد سمع أو ظن أنَّ هناك احتمالاً بتغييره. وكان كايسي هذا، وليم كايسي، الذي يبلغ السابعة والستين من العمر مدير الحملة الانتخابية لريغان. ورأى تورنر أنَّ هذا الاختيار خاطىء تماماً وأنه خطوة إلى الوراء. ففي السابق اختار ريتشارد نيكسون مدير حملته الانتخابية جون ميتشل وزيراً للعدل فهل أصبحت المخابرات من ضمن الوظائف السياسية؟ ثمّ قرأ تورنر: كايسي عمل في مكتب الخدمات الاستراتيجية، وهو المؤسسة السابقة لوكالة المخابرات المركزية، وذلك خلال الحرب العالمية الثانية. وعلى حد اعتقاد تورنر كان هذا المكتب قديم العهد بأساليبه واستمر في الوكالة من تبقى من عناصره وسببوا لها المشاكل. وكان هؤلاء بعض العاملين في «زمرة الإخوة». وفي أثناء الأزمة مع البيت الأبيض والكونغرس استطاعت زمرة الإخوة أن تصمد كما صمدت خلال التحقيقات التي أجريت حول عمل الوكالة في أواسط السبعينات. واستمر هؤلاء المحاربون القدامى لأنَّ هناك حاجة إليهم، فقد احتاجهم كل رئيس جمهورية وكل مدير مخابرات مركزية وكانوا عبارة عن عملاء سريين قاموا بأعمال قذرة وشكلوا فيما بينهم رابطة لا تجتمع! وكانوا مطلقي الولاء لبعضهم البعض ومندفعين في مشاريعهم السريّة، وهم صنف من الناس يستطيع العيش في بيئة تعطى المكافأة فيها بشكل سري. وشكلوا مصدر قوة وضعف للوكالة في آنٍ معاً. وها هو أحد «الأخوة» يظهر من الخلف كما قالت الواشنطن بوست التي أضافت أنَّ كايسي كان يزرع الجواسيس خلف خطوط الألمان خلال الحرب العالمية الثانية أي منذ خمس وثلاثين سنة.

كان تورنر قد توقع أن يكونوا لائقين معه وذلك بإبلاغه أنَّه سيترك منصبه وسيعين بديل عنه قبل أن تعلم الصحافة بذلك؛ وما نشر يمكن أن يكون بالون اختبار أو خاطئاً تماماً. وحتى بدء الحملة الانتخابية لم يكن قد سمع بوليم كايسي، والجدير بالذكر أن ريغان أعلن في مؤتمره الصحافي الأول بعد انتخابه، أي قبل أسبوعين، أنَّ كايسي سيعود إلى مكتبه كمحام.

عزت إقالة تورنر من اعتقاده بأنَّه قاد الوكالة في فترة السبعينات المظلمة، وتتمثل في

مرحلة ما بعد الحرب الفيتنامية وفضيحة واترغيت وتحقيقات الكونغرس التي امتدت إلى أسرار الوكالة والخطط التي كانت موضوعة لاغتيال زعماء أجانب، وخزن كميات من المواد السامة المحظورة بموجب قرار رئاسي، وفتح الرسائل السرية والاطلاع عليها والتجسس على الأميركيين المعارضين للحرب الفيتنامية. لقد نقل الوكالة من عصر الكاوبوي، وواجه ثقافة منغلقة ومتكتمة. وأظهر أنَّه يمكن العمل بفعالية في ظل الإصلاحات التي تطلبت حساب إمكانية مواجهة الكونغرس حتى في أكثر العمليات سرية ودقة.

إنَّ عمليات الوكالة أصبحت سليمة وتتمتع بدعم الكونغرس. واعتقد تورنر بأنَّه لو حظي عناصر المخابرات بالتفهم اللازم لاستطاعوا نيل إعجاب الرئيس ريغان والشعب الأميركي.

قبل شهر من الانتخابات، أخذ تورنر إجازة لمدة أسبوع من الروتين اليومي واستغلها في كتابة تقريرٍ عن خدماته خلال السنوات الأربع الماضية وخطة عمله للسنوات الأربع القادمة. وفي ١٧ تشرين الأول/أوكتوبر ١٩٨٠ وقّع تورنر شخصياً ذلك المشروع «السري جداً»، المؤلف من سبع صفحات وعنوانه «الأهداف والملاحظات». كان تورنر قد واجه متاعب في مراقبة «الكاوبوي» و«زمرة الإخوة» ولكنه استطاع التغلب عليهم وفرّ معظمهم. وظهرت فيما بعد مشكلة كبرى وهي أنَّ الوكالة وتّرت الأعصاب من جراء الجبن الذي انتاب إدارة العمليات والتجسس والتحفظ الذي حكم قواعد عمل الوكالة في الخارج. ولم تنفذ أية أعمال خفية إلاَّ بعد قرار من الرئيس بالتدخل في شؤون الدول الأخرى.

وكان تورنر قد اقترح أعمالاً خفية في عدة مناسبات، إلاَّ أنَّه جوبه بالرفض. وفي إحدى المرات، أخذ على عاتقه ـ دون استشارة البيت الأبيض ـ توجيه رسالة إلى مدير عمليات الوكالة يطلب منه النظر في ما يمكن فعله للإطاحة بثلاثة زعماء كانوا يثيرون المتاعب للمصالح الأميركية، وهم: الرئيس الكوبي فيدل كاسترو والزعيم الإيراني آية اللّه الخميني والزعيم الليبي معمر القذافي. وكان جواب مدير العمليات أنَّه لا يوجد معارضة سياسية فعالة في هذه البلدان وأنَّ الوكالة لا تعلم الكثير كي تدعم حركة سياسية أو حزباً أو زعيماً معارضاً. وكان تورنر يسعى إلى البحث عمن يمكن دعمه مالياً من مجموعات وأحزاب أو زعماء داخل تلك البلاد. أما الاغتيال فقد اشتُرِطَ فيه موافقة الرئيس خطياً، وكان هذا قراراً أصدره الرئيس فورد وسار عليه الرئيس كارتر. ووافق تورنر على الشرط بشكل عام ولكن بعض العاملين تخوفوا من أن يمضي بهم إلى طريق خطر. وفوجئ تورنر بهذا النفور من معاونيه الذين كانوا غير مرتاحين للتدخل في شؤون البلدان الأخرى مع أنَّ هذا كان من صلب عملهم. صحيح أنَّ بعض المبالغ المالية قدمت لقوات معادية للخميني خارج إيران إلاَّ أنَّ ذلك كان من وجهة نظر البيت الأبيض عقاباً للخميني وإقامة اتّصال مع الثورة المضادة.

كما اقترح تورنر على إدارة العمليات أن تبحث عن زعيم سياسي معتدل وتدعمه في غواتيمالا وأن تدرج بعض الغواتيماليين في جدول رواتب الوكالة! وكان العنف السياسي يسود غواتيمالا التي اعتبرت عنصر توازن في أميركا الوسطى: حكومة يمينية في مواجهة ثوار ماركسيين يساريين مما أدى إلى مقتل المئات في تلك السنة. وفي رأي تورنر أنَّ الدعم السياسي والخفي للمعتدلين كان سلبياً، لأنَّه يخدم المصالح الأميركية.

وكان جواب الإدارة كمن يدعو المخابرات السوفياتية إلى اجتماع أركان! ومضمون الرد أنَّ عمليات كهذه من شأنها وضع وكالة المخابرات المركزية في واجهة سياسة الإدارة الأميركية المترددة وغير الواضحة. ولنفترض أنَّ الشخص الذي تمّ اختياره لم يفعل كما يجب، وافترض أنَّه أُعِدَّ إعداداً ممتازاً وبعدها اختار الرئيس كارتر أو غيره من الرؤساء السير باتجاه آخر. إنَّه لمن السهل جداً الوقوع في الخطأ. اعترض الجميع على الاقتراح ولم يجرؤ تورنر حتى على رفعه إلى البيت الأبيض. أما مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي زبغنيو بريجنسكي فقد دعم بعض البرامج السرية، ولكن الرئيس كارتر كان دائماً متردداً، وكان يتأرجح بين النظرة القاسية إلى العالم التي ينقلها إليه بريجنسكي والنظرة الناعمة التي ينقلها وزير الخارجية ڤانس.

في ١٤ تشرين الثاني/نوڤمبر وضع تورنر وجهات نظر إضافية وأفكاراً خاصة في مفكرة أخرى. وتحت عنوان: البيت الأبيض، كتب: مصادر النزاع. وكانت القائمة طويلة إلاً أنَّ معظم المشاكل كانت مع مستشار شؤون الأمن القومي بريجنسكي الذي كان يعتقد بأنَّ وكالة المخابرات المركزية تعمل لصالحه. وفي إحدى قضايا الاستخبارات حول نزع السلاح قال بريجنسكي لتورنر: أنت لست المحكمة العليا وأنت لست فرعاً رابعاً للحكومة وعليك أن تقرر لمصالح من تعمل.

وأحب بريجنسكي الاستعلام الخام، فوكالة الأمن القومي التي كانت تلتقط الاتصالات الأجنبية كانت تزوده بنسخ عن أحاديث بعض رؤساء الدول أو بالأخبار السياسية المشفرة التي كانت ترسلها السفارات الأجنبية في واشنطن إلى عواصمها. وشعر تورنر بأنَّ بريجنسكي كان يرتكب خطأً نموذجياً كمحلل لاعتقاده بأنَّه من الممكن تفسير بعض الأحداث بواسطة التقاط مكالمات أو تجسس على برقيات لأنَّه غالباً ما ركز اهتمامه على أحد المتفاخرين أو على شخص معلوماته خاطئة أو على سفير دولة يفيد دولته أكثر مما يعلم. وكتب تورنر تحت عنوان مستشار الأمن القومي: إنَّ تحليل المعلومات ذات المصدر الواحد خطير جداً.

وكان هناك نزاع مستمر مع بريجنسكي الذي قال مرة أنَّه لم يحصل بعد على معلومات قيّمة عن الاتحاد السوفياتي وذلك بحضور بعض كبار معاوني تورنر. وفي الحقيقة فإن تورنر كان قد زرع ثلاث عملاء مهمين في الاتحاد السوفياتي واعتقد بأنَّ واحداً منهم كان ما يزال على قيد الحياة وبأنَّ الاثنين الآخرين قد فقدا أو قتلا، ولم يتأكد من ذلك.

في بداية عام ١٩٧٧ كان تورنر يوجز للرئيس ثلاث مرات في الأسبوع عن الوضع الاستخباري، ثمّ تراجع ذلك إلى مرة في الأسبوع ومن ثمّ إلى مرة كل أسبوعين، وعزا تورنر هذا التراجع إلى بريجنسكي الذي قال مرة إنَّ خريجي جامعة كولومبيا كانوا يحللون الأحداث أفضل من وكالة المخابرات المركزية.

في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٩، عندما حضر شاه إيران المعزول إلى الولايات المتحدة للمعالجة الطبية، أي قبل أسبوعين من احتجاز الرهائن الأميركية في طهران، طلب البيت الأبيض من الوكالة أن تضع علبة في تجهيزات غرفة الشاه لمعرفة ما كان هذا الرجل المتقلب والمصاب بالسرطان ينوي فعله. قال تورنر إن الشاه يملك حقوق المواطن الأميركي نفسها بحكم القانون ولا يمكن للوكالة أن تجمع معلومات من داخل الولايات المتحدة، ولكنه تلقى أمراً خطياً بذلك. وابتلع ذلك بصعوبة وأمر بمراقبة ألكترونية للغرف الخاصة الثلاث في الطابق السابع عشر في مستشفى نيويورك، ومع ذلك ظلّ يعتقد بأن هذا غير سليم.

نظر كارتر وبريجنسكي إلى الاستخبارات على أنها أداة مثل تمديدات المياه في المباني! فعندما يوضع جهاز التنصت في غير مكانه أو عندما لا تستطيع الوكالة التوقع للمستقبل يكون الثمن غالياً. وأدرك تورنر بشكل باهت أحياناً وبشكل حاد أحياناً أخرى أنه أصبح معزولاً عن الرئيس الذي يعمل له.

وفي محاولة للتقرب من الرئيس المنتخب، أعطى تورنر نسخة عن مذكراته الثانية إلى أحد أعضاء الفريق الانتقالي الذي كان مكلفاً بالإشراف على الوكالة لصالح الإدارة الجديدة، أُعيدت النسخة إليه، وقد عُلِّمَ عليها بقلم رصاص مع اقتراحات تدعو إلى تحوّل مفاجئ وسريع في الوكالة نحو أعمال مضادة للسوفيات وأعمال خفية أخرى. وحيث قدّم تورنر قائمة بالأعمال الإيجابية للوكالة وجد التعليق التالي: ليبرالي أكثر من اللزوم وخائف من الاعتراضات السياسية. وحول نظرته إلى لجان الاستخبارات في الكونغرس وأركانها كتب عضو الفريق الانتقالي: يجب على جناح اليسار أن يبقى ضمن الحد المعقول.

وعلى ما كتب في أن الوكالة لا يمكنها أن تتحمل فضيحة أخرى وجد ملاحظة تقول: إن الجو قد تغيّر وسيتغيّر أكثر وإذا عملنا بخوف فسنعمل قليلاً. وعندما تطرّق إلى الإمكانيات شبه العسكرية للوكالة وهي أكثر الأقسام حيوية وتؤمن سرعة التدخل قال التعليق: يجب إعادة بنائها وحظاً سعيداً.

وعندما أنهى تورنر فطوره وصل سائقه انيس براون ليقله إلى الرئيس المنتخب ليقدّم إيجازه، ولكنه قاد بالاتجاه المعاكس واتجهت الأولدزموبيل السوداء في طريق سكيبويث نحو الطريق ١٢٣. واندفع السائق بسرعة وتجاوز السيارات البطيئة مستفيداً من كل فرصة للمرور.

جلس في المقعد الأمامي أحد الحراس الأربعة وكان يحمل بندقية ويحدق حوله باحثاً عما هو غير طبيعي. وكان النهار خريفياً مشمساً، ولكن الزجاج المضاد للرصاص بقي عالياً في الأولدزموبيل ولهذا لم يتسنَّ لأحد داخل السيارة أن يتمتع بذلك النهار. وكان للسيارة زوائد للحيطة والأمان وكانت مصفحة ومضادة للألغام الأرضية.

كان تورنر يتململ في المقعد الخلفي إذ إنه أراد أن يركز على الإيجابيات وعلى المكتسبات. إن الرئيس ريغان الذي أتى من خارج نطاق الاستخبارات والذي لم يتسلم أي منصب فدرالي لم يكن لديه مفتاح حل جميع المشاكل. وإن عرض تورنر لما قام به في الأشهر الستة الفائتة يساعده حتماً على الاحتفاظ بوظيفته.

كان البرنامج الخاص بالبحرية إحدى أكثر العمليات سرية، حيث قامت الغواصات الأميركية بملاحقة الغواصات السوفياتية ونفذت عمليات في غاية الخطورة وعمليات جمع معلومات على مقربة من الاتحاد السوفياتي وفي بعض الأحيان داخل المياه الإقليمية السوفياتية أو داخل الموانئ السوفياتية بحد ذاتها. ومن نشاطاتها أيضاً زرع أجهزة ألكترونية معقدة للوصول إلى أقنية الاتصال وتسجيل المكالمات في الكوابل الحساسة تحت سطح البحر. وكانت هذه أكثر العمليات حساسية وعرضت حياة جميع العناصر على متن الغواصة من بحارة ورجال وكالة الأمن القومي للخطر المحتم. وكان ذلك بمثابة معجزة للبحرية وكانت كل مهمة تتطلب التصديق عليها من الرئيس. وفي إحدى المرات توجهت غواصة نووية إلى البحر ووضعت آلات التسجيل ثم انسحبت وانتظرت أسابيع ثم عادت وأخذت الأشرطة من آلات التسجيل التي وضعت على الكابل. وأعيدت الأشرطة إلى وكالة الأمن القومي وأعطيت المعلومات لعدد قليل من مسؤولي الوكالة ووزارة الدفاع والبيت الأبيض. واعتقد تورنر بأن المعلومات الجزئية يمكن أن تؤدي إلى المخاطر إلاّ أنه أقرّ بأن الغواصة تعود دائماً بلائحة غنية من البيانات حول القوة العسكرية السوفياتية. وتتطلب هذه العمليات نوعية عالية من العاملين وذكاء حاداً. وتشمل المعلومات مكالمات المسؤولين السوفيات مع بعضهم البعض حيث يكشفون أسرارهم وأكاذيبهم ونقاط ضعفهم. وتعتمد تلك العمليات على أخطاء الجانب الآخر حيث افترض السوفيات أنه لا يمكن التسجيل عن الكوابل الملقاة تحت سطح البحر ولهذا اتبعوا في اتصالاتهم الأساليب العادية في التحضير وفي بعض الأحيان دون تشفير.

والموضوع الآخر هو أنديغو، وهو قمر اصطناعي سري يستخدم للتحقق من تقيد السوفيات باتفاقات نزع السلاح. ويستخدم أنديغو الرادار ويمكنه الكشف من خلال السحب والغيوم والعمل أثناء الظلام عندما تكون بقية الأقمار الاصطناعية التي تستعمل الصور الفوتوغرافية عمياء. وتتجلى فائدة هذا المشروع فوق أوروبا الشرقية حيث تبقى السحب في أجوائها أياماً وفي بعض الأحيان أسابيع.

ومن أفضل عمليات جمع المعلومات تلك التي نفذتها في الخارج فرق خاصة من نخبة عناصر وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي وهي عمليات تنصت بواسطة أحدث المعدات في عواصم أجنبية متعددة. وقامت هذه الفرق بالمعجزات وقدمت النصوص الحرفية لما كان يدور في اجتماعات الحكومات في أوروبا الشرقية والشرق الأوسط وآسيا وفي المحادثات السياسية بين الزعماء السياسيين المهمين. وأكملت عمليات التجسس التي قام بها عملاء الوكالة النظاميون تحت غطاء دبلوماسي في السفارات الأميركية.

وفي مذكرة «عيون المدير وحدها» كتب تورنر: «نحتاج إلى معلومات أكثر عن الأصدقاء وعن الأعداء». التجسس على الأصدقاء كان ثقيلاً إلاّ أنه كان ضرورياً. لقد كان شاه إيران صديقاً كبيراً للولايات المتحدة ولوكالة المخابرات المركزية وكان جهاز استخباراته الرهيب السافاك الوسيلة الأساسية للوكالة في إيران، لذلك أخطأ تورنر ومعاونوه في تقدير الخميني كزعيم روحي واسع النفوذ، وها هو الآن يحتجز رهائن للولايات المتحدة. إن المفاجأة في الصديق صعبة لأنه لو كان الحال مع الأعداء فإن الوكالة في الغالب تتوقع ما يحدث. ومنذ صدمة الثورة الإيرانية بدأ تورنر يعزز شبكة العملاء في الحكومات الأجنبية الصديقة والحليفة وكانت مصر أبرز مثل. ففي عملية أمنية صممت لحماية الرئيس المصري أنور السادات وإنذاره من المحاولات الانقلابية ومحاولات الاغتيال، قدمت الوكالة للرئيس السادات وللحكومة المصرية معدات ألكترونية متطورة وإمكانيات بشرية. تسربت بعض أنباء أن السادات كان مدمناً على تعاطي المخدرات وتنتابه لحظات تلهف للمخدر، إلاّ أن تورنر لم يأبه لهذه الإشاعات التي كانت تدور في أروقة القصر الجمهوري المصري. وتم تركيب أجهزة تنصت في الأماكن الحساسة لتغطية أكبر قدر ممكن من المعلومات.

وردت لتورنر تقارير سرية جداً حول صحة الزعيم السوڤياتي ليونيد بريجينيف كانت مفيدة جداً للبيت الأبيض وخاصة عشية جلسات المفاوضات. وقدمت المخابرات معلومات مهمة في مجال نزع السلاح، وكانت وكالة الأمن القومي قادرة على حل رموز الصواريخ السوڤياتية. إلاّ أن التجسس السياسي حول ما كان يجري في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوڤياتي وهو أعلى هيئة في الاتحاد السوڤياتي كان ضعيفاً جداً، وكان هذا أكثر ما يرغب فيه كارتر وبريجنسكي ولم يستطع تورنر أن يقدّم الكثير منه.

لم يطّلع تورنر خلال خدمته في الوكالة على أي تقرير يستحق المجازفة بحياة أحد العاملين، وخلال السنوات الأربع أوقف مرة مشروع عملية جمع معلومات في ما وراء البحار. وكان هذا المشروع إعادة لعملية ناجحة اعتقد أن تنفيذها يجلب المخاطر. ويتوجب عليه خلال الشهرين المقبلين أن يعرض هذه الحقائق على الرئيس المنتخب ريغان الذي كان يريد الاطّلاع على خطط العمليات الاستخبارية وحدودها ومدى ملاءمتها للأوضاع السياسية.

في عملية سمّيت «سيرڤيكال كاب» وهو اسم مشفّر لجهاز ألكتروني معقد على شكل جذع شجرة صغير، كُلِّف أحد العملاء بغرسه ضمن شجرة خارج قاعدة جوية سوڤياتية في أوروبا الشرقية ومهمته جمع المعلومات حول بيانات الرادارات المتطورة لطائرات الميغ. كانت القاعدة الجوية محاذية لحديقة عامة يؤمها المتنزهون، وكان على العميل أن يذهب إلى سياج الحديقة في نهار أحد ويتسلق الشجرة ويثبت الجهاز. لكن عملية «سيرڤيكال كاب» تأخرت لأن العميل الوحيد المتوفر لم يكن أوروبياً وكان وجوده نهار الأحد بين المتنزهين خطراً عليه حيث يمكن كشفه بسهولة. وبشكل عام كانت عمليات التجسس محظوظة. ويعتبر التجسس على الرادارات السوڤياتية أفضل من التنصت على اجتماعات المكتب السياسي ولكن الوكالة لا يمكنها أن تتنصت على العالم كله.

وصلت الأولدزموبيل إلى لافاييت بارك مقابل البيت الأبيض وانحرفت نحو ساحة جاكسون ثم توقفت مقابل الرقم ٧٢٦ وهو منزل حكومي كان يقيم فيه الرئيس المنتخب، وترجل تورنر من السيارة وصعد ست درجات. كان المقر المؤقت لإقامة ريغان بناء من أربع طبقات بعرض ٢٢ قدماً وعمر البناء ١١٣ سنة. ومنذ ست سنوات استخدمه نائب الرئيس نلسون روكفلر مقراً له نظراً لتجهيزاته ووسائل الأمن فيه، وذلك أثناء عمليات التحقيق التي شملت النشاطات المحلية للوكالة. وكان ريغان واحداً من فريق من ثمانية أعضاء إلاّ أنه لم يكن فعالاً وحضر عشرة اجتماعات فقط من أصل ٢٦ اجتماعاً وعندما نظم تقريره النهائي دافع عن الوكالة قائلاً: «في أي بيروقراطية تحوي على ستة عشر ألف موظف يمكن أن يوجد مَن يرتكب أخطاء ويقوم بأعمال لا ينبغي عليه القيام بها». وبعيد وصول تورنر نزل ريغان وحيّاه بحرارة ولم يظهر الرئيس المنتخب أي حماسة أو تلهف، بل أظهر لطفه العادي. وكانت حاشيته تضم نائب الرئيس جورج بوش وهو مدير الوكالة قبل تورنر وكبير مساعدي ريغان أدوين ميز وأحد المحامين وثلاثة مساعدين وكايسي.

أوجز لهم تورنر عن التوازن العسكري في أوروبا وفي أميركا الوسطى. وتحدّث عن بولونيا التي هدّد السوڤيات بغزوها لسحق انتفاضة نقابات التضامن، وعمّا قدّمته الأقمار الاصطناعية والاتصالات الألكترونية الملتقطة في أماكن مثل برلين وهي «عاصمة جمع المعلومات في العالم» من معلومات في غاية الأهمية، وهناك أيضاً معلومات من مصادر بشرية، وهنا حني وليم كايسي رأسه. وأراد تورنر القول إنه لدى الوكالة عميلاً، ضابطاً برتبة عقيد في الأركان البولونية، كان يؤمن تدفقاً مهماً للمعلومات خارج وارسو دون أن يكتشف من قِبَل السوڤيات أو البولونيين، إلاّ أنه لم يفصل. كانت تقارير العقيد الحساسة تقدم لأعلى السلطات في ملف خاص مع ملاحظة: إن مصدر هذه المعلومات شخص في مركز حساس. وكان الرئيس كارتر ونائبه مونديل وبريجنسكي وحدهم مَن يحق لهم الاطّلاع على هذا الاختراق المهم. إلاّ أن اسم العقيد وهو كوكلنسكي لم يدرج في هذه التقارير وعلم به عدد

قليل جداً من ضباط الوكالة.

أجرى تورنر جولة أفق حول البقع الساخنة في العالم، وكان يحدق بين وقت وآخر بكايسي. كان هناك شيء ما حول كايسي يعطيه نكهة خاصة، كلامه كنشرة أخبار على الموجة القصيرة يعلو صوته، ثم يخفت. ضفائر شعره القليلة على رأسه الأصلع أظهرت أسلوبه العنيد. عيناه جاحظتان، وتتدلى تقعرات من على جانبي أنفه المسطح إلى جوانب فمه لتتجاوز ذقنه ثم تنتهي عند فكه الأسفل. كان يبدو في حالة تشوش ومع هذا شعر تورنر بأن كايسي كان يصغي بانتباه.

مشى كايسي نحوه كالأحدب ورحب به بحرارة، فشعر تورنر بنعومة حقيقية، كانت ذراعه في الهواء ويرتدي قفازات خفيفة وصافحه بصوت عال قائلاً: «هاللو ستان» مع ابتسامة عريضة. وانتحى وإيّاه جانباً وقال وهو يقطّع كلامه: إن الخبر الذي نشر ويقول إني سأخلفك غير صحيح ولم يتقرر شيء حتى الآن. وكان ذلك بمثابة بداية للحديث وربما لاستكشاف اهتمام تورنر، وأضاف كايسي: أنا لست ساعياً وراء وظيفتك.

غادر تورنر وهو غير واثق من مستقبله في إدارة الوكالة. كانت هناك إشارات إلى أنه سيترك منصبه، ولكنها لم تكن قاطعة.

في ذلك اليوم أرسل ميز الذي كان يُعتبر الناطق باسم الرئيس المنتخب رسالة عبر البيت الأبيض إلى تورنر يعلمه فيها أنه لم يسرب نبأ تعيين كايسي إلى الصحافة، ولكنه يعطي انطباعاً بأنَّ تعيين كايسي ليس مستبعداً.

- ١ -

مع أنَّ كايسي لم يكن يسعى فعلاً لمنصب مدير المخابرات المركزية، إلاَّ أنَّ تورنر لم يصدقه. وفي الحقيقة فإن كايسي كان يرغب في وزارة الخارجية أو وزارة الدفاع لأنهما أداتي تنفيذ سياسة ريغان الخارجية والدفاعية. ولكنه أدرك أنَّه إما أن يحصل على القليل أو لا يحصل على شيء. فقد كان أحد الأصدقاء الحميمين للرئيس في كاليفورنيا وكانت سيطرة الكاليفورنيين واضحة على الإدارة. وانضم متأخراً إلى حملة ريغان الانتخابية وأصبح دوره في النهاية مديراً للحملة. وقام بعمله باتقان مع أنَّه لم يكن ريغانياً منذ وقت طويل.

في سنة ١٩٧٩ تلقى كايسي مكالمة من المرشح رونالد ريغان يطلب منه المساعدة، وكان كايسي جمهورياً وغنياً يمارس المحاماة في مكتبه في ٢٠٠٠ بارك أفنيو في نيويورك، وكسب الملايين من التوظيفات المالية الكبيرة وحالفه الحظ والحدس في البورصة. وكسب الكثير أيضاً من الكتب التي ألفها أو أشرف على جمعها وعددها ٢٤ كتاباً وهي تتناول مواضيع في القانون والضرائب والتوظيفات المالية. وأتاح له المال ممارسة لعبة السياسة، وعمل منظماً للحملات الانتخابية، في الإعداد وكتابة الخطابات. وكجمهوري قديم منذ عام ١٩٤٠ شغل مناصب فدرالية هامة في إدارة نيكسون وفورد أهمها رئيس الأمن والتبادل عام ١٩٧٣ و١٩٧٤.

قال كايسي لريغان: «أعتقد أنَّه من المبكر أن أنضم لحملتك» وأفهمه أن عدم تحمسه للمشاركة لا يجوز تفسيرها على أنها عدم تعاطف معه بل على العكس. أمسك كايسي بدفتر الشكات ووقع بسرعة على شك بقيمة ألف دولار لدعم ترشيح ريغان كما فعل مع جميع المرشحين الجمهوريين. وكان هذا أقصى مساهمة فردية. ووقع اسمه على أسفل الشك وكان حرف W في William متدلياً بسخرية وحرف y في Casey مستقيماً وجيلاً وكان توقيعه ينم عن ثقة بالنفس.

تعلم كايسي في صغره في مدرسة الطبقات الوسطى والدنيا في المهرست في نيويورك وحصل على تسع علامات في المجموع النهائي، وعلامة C في السلوك وكانت علامة القواعد هي الوحيدة الأقل من B، ونال على عمله الأكاديمي A. وأطلق عليه رفاق صفه لقب البركان. ومنذ ذلك العام (١٩٢٤) كانت حياته سباقاً نحو الأفضل. وتعلم منذ صغره لعبة

الغولف بواسطة علبة تنك صغيرة وهو ينتمي الآن إلى نادٍ ممتاز في الغولف. عام ١٩٣٤ - ١٩٣٥ دخل المدرسة الكاثوليكية الجامعية للعمل الاجتماعي حيث كان معظم التلامذة من رجال الدين والرهبان المتشددين في معتقداتهم الدينية ثمّ تبين له أنَّ العمل الاجتماعي هو للنساء، فترك هذه المدرسة والتحق بكلية الحقوق. أنشأ مؤسسة خيرية عام ١٩٥٨ كان ينفق فيها معظم مدخوله السنوي الذي قارب ٢١٩٧٠ دولاراً. وكان رجلاً شعبياً يقدم ثروته للناس وكان يطمح لأن يصبح رجلاً مهماً ورجل أعمال ومشاريع كبيرة. تعلم في حياته أن يتقدم على خطين، الأول خط الثروة الفردية والعمل الفردي والثاني الخبرة في العمل الحكومي والأعمال السياسية. ورأى فيه الكثير من الناس رجل أعمال لا يوفر ماله. جمع ثروته من خلال مجموعة استثمارات محظوظة جداً وأعمال تجارية جريئة. وكان يبدو أحياناً أنّه لا يكترث بالانتقادات وأنَّه معتاد على الدعاوى القضائية، إلاَّ أنَّه تمتع باحترام الجميع. وعلى الرغم من تكريس وقته للكنيسة وللحزب الجمهوري وللبورصة، فقد كان مرناً حيال الأفكار بينما كان متصلباً إزاء الأشخاص. وتميز بولائه المطلق لمبادئه مع أنَّه أظهر مئة وجه مختلف لعوالم مختلفة.

اتصل ريغان بكايسي وطلب منه أكثر من ألف دولار وكان قادماً من الشرق في حملة تبرعات في لونغ ايلاند موطن كايسي، وطلب الاجتماع إليه فوافق كايسي وتناول الاثنان طعام الفطور في فندق ماينول قرب منزل كايسي وهو من الطراز الڤيكتوري القديم.

تحدث الرجلان حول آفاق الانتخابات الرئاسية لمدة ساعة ونصف، وكان كايسي قد سمع عن ريغان أنَّه سطحي التفكير، إلاَّ أنَّه وجده ملماً بالمسائل الاقتصادية ومسائل الأمن القومي. لكنَّ ريغان لم يكن عميق النظرة، مع أنَّ غريزته نحو هذه المسائل كانت سليمة واتفقت مع أفكاره حول السوق الحرة والدفاع القوي والسياسة المتشددة حيال الشيوعية.

كان ريغان أكبر سناً من كايسي بسنتين، وكان لهما وجهة نظر أبناء جيل واحد. كلاهما كان فقيراً في طفولته. وكان كايسي معجباً بتنوع حياة ريغان كلاعب رياضي وممثل ونقابي وحاكم ولاية وخطيب محافظ، مثل تنوع حياته كمحامٍ ومؤلف وضابط في مكتب الخدمات الاستراتيجية ومؤرخ هاوٍ (ألّف كتاباً عن مكتب الخدمات الاستراتيجية) وموظف حكومي سابق. شهد الاثنان الحروب الأربع والانهيار وتميزا باللباقة في الحديث وبالضحكات القلبية، والأهم من ذلك، جمعهما الاحتقار المشترك لجيمي كارتر وما شاهدا فيه من ضعف وعدم قدرة على اتخاذ القرار وتردد واضح.

سرعان ما وجهت الدعوة لكايسي للقدوم إلى كاليفورنيا ليكون في اللجنة التنفيذية لحملة ريغان حول المسائل والقضايا. طار إلى كاليفورنيا واطلع على القضايا ثمّ قابل ميز وصديق ريغان المقرب مايكل ديفر. وكان كايسي يقول لكل من أصدقائه الجمهوريين الأغنياء: «أريد منك أن تذهب إلى المدينة وتتناول طعام الغذاء مع رونالد وناني ريغان»

ويدعوه لزيادة الدعم المالي وإذا تردد أحدهم قال له: «لا تكن في الخارج، هذا الصديق سيكسب، هذا الصديق سيصبح رئيساً للولايات المتحدة». عرف كايسي كيف يبتز أموال الجمهوريين النيويوركيين وكان بارعاً في جمع مبلغ نصف مليون دولار لحملة ريغان الانتخابية في أواخر عام ١٩٧٩. وعندما أقال ريغان مدير حملته جون سيرز طلب من كايسي أن يحل مكانه وكان كايسي يرغب في ذلك لأنَّه أحب السياسة كثيراً.

في مؤتمر الحزب الجمهوري عام ١٩٥٢، وكان قد بلغ التاسعة والثلاثين، شاهد كايسي السناتور تافت ينهزم أمام دوايت ايزنهاور مرشحاً للحزب الجمهوري. وبعدها بقليل تعرف إلى وليم بكلي ابن السادسة والعشرين عاماً والذي تميز بكتابه «اللّه والإنسان في يال»، وكان كايسي وبكلي عضوين في نادٍ ضد الشيوعيين وضد الليبراليين في مدينة نيويورك. كان النادي صغيراً جداً لا يتجاوز عدد أعضائه الخمسين وكان هناك سلام سري بين أعضائه، وكان بكلي يمزح مع كايسي ويقول له: «لو أدرت تلك الحملة لربح تافت تسمية الحزب»، وتذكر بكلي هذه الملاحظة بعد سنين عام ١٩٨٠، عندما استدعى ريغان صديقه القديم بكلي ليخبره أنَّه طرد سيرز وعين وليم كايسي مكانه فأبدى سروره لذلك.

كان كايسي مؤمناً حقيقياً مع انحراف بسيط يُسامَحُ عليه، ففي عام ١٩٦٦ أي بعد عامين من خسارة غولدووتر المأساوية لانتخابات الرئاسة سعى كايسي إلى تسميته من قبل الحزب الجمهوري لعضوية الكونغرس عن الساحل الشمالي للونغ ايلاند بدعم من جناح نلسون روكفلر وجاكوب جافيتش إلاَّ أنَّ ستيفان دورنويان وهو من أتباع غولدووتر كسب وعاد كايسي إلى خلف الأضواء حيث اعتقد بكلي وأكثر النيويوركيين أنَّ ذلك مكانه.

قوّم كايسي، كمدير للحملة الانتخابية، مراكز القوة في ريغان: النظرات، الصوت، التحديق، وأخبر قصة مفادها أنَّ الممثل جيمس ستيوارت قال مرة: إذا تزوج رونالد ريغان ونانسي فإنَّه سيفوز بالجائزة الأكاديمية. وكان كايسي يدرك أنَّ نانسي هي الأولى في معرفة مصالح زوجها.

لم يكن كايسي مرتاحاً للجناح المحافظ في الحملة وقال مرة لأحد المشتركين فيها: «هناك بعض المجانين في الحملة إلاَّ أنني عضو في مجلس العلاقات الخارجية» ولم يقل إنَّه قد رفضت عضويته أساساً، ولم يُدع إلاَّ بعدما أصبح معاوناً لوزير الخارجية عام ١٩٧٣. وكان كايسي يميل إلى تمزيق بطاقة الدعوة ورميها في المرحاض، وإلى أن يقول لهم اذهبوا إلى الجحيم، إلاَّ أنَّه قبل ذلك بهدوء وكان ذلك بمثابة تقديم أوراق اعتماد مفيدة وطموحة.

وصف بعض أعضاء الحملة وبعض الصحفيين كايسي بأنَّه «أجوف» وأنَّه لم يغسل ثيابه في لوس انجلوس أو نيويورك. وكان يسافر أحياناً دون حقيبة ويشتري ثياباً جديدة عندما يحتاجها. وفي إحدى المناسبات جلس ديغر إلى جانبه واستنتج من رائحة جسمه أنَّه لم يكن لديه الوقت الكثير لشراء حاجياته الخاصة من السوق. وفي اليوم التالي بدا كايسي نظيفاً

جداً ومعتنياً بمظهره. وكان ديغر يعتقد أنّه عندما يكون كايسي في مهمة ما، لا يدع شيئاً يقف في طريقه، ويعمل في الليل وفي عطلة نهاية الأسبوع، وكانت هذه ميزة خاصة تستحق التقدير.

قبل شهر واحد من الانتخابات،حيث كان من المتوقع فوز ريغان، أنشأ كايسي هيئة استشارية للسياسة الخارجية واختار فريقاً من ١٧ خبيراً بينهم الرئيس السابق فورد وبعض كبار مسؤولي الحزبين الجمهوري والديموقراطي. وترأس كايسي هذا الفريق وأعد له أوراق العمل اللازمة. وظن البعض أنّه وضع نفسه في مركز وزير الخارجية. ويذكر أنّه عندما عمل لفترة قصيرة معاوناً لوزير الخارجية للشؤون الاقتصادية عامي ١٩٧٣ و١٩٧٤ أقاله وزير الخارجية آنذاك هنري كيسنجر، ولم يترك كايسي أي أثر هام يستحق أن يذكره كيسنجر في مذكراته المؤلفة من جزءين كبيرين (٢٦٩٠ صفحة). إلاّ أنّ كايسي عاد ووضع كيسنجر على لائحة مستشاري ريغان.

وضع هذا الفريق أمامه التحدي الهام للإدارة القادمة، وهو الثورة الشيوعية في بلد صغير في أميركا الوسطى. واعتبر كايسي أنّ السلفادور هي أهم بلد في العالم وإذا لم تستطع الولايات المتحدة أن تمسك بزمام الأمور في ساحتها فستهتز مصداقية وفعالية ريغان في سائر أنحاء العالم. ذهل كايسي عندما علم أنّ وكالة المخابرات المركزية كانت قد أغلقت محطتها في السلفادور عام ١٩٧٣ وذلك لتوفير المال ثمّ عادت وفتحتها عام ١٩٧٨ وهذا ما ترك فجوة لمدة خمس سنوات. كيف حصل هذا؟ وماذا جرى للوكالة؟ الاستخبارات هي الخط الدفاعي الأول ولا يمكن تنفيذ أي عمليات هجوم أو دفاع دون جهد استعلامي سابق.

في اليوم التالي لإيجاز تورنر ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر، عاد ريغان إلى كاليفورنيا، وبينما كان ينتظر أن يتولى مسؤولياته بدأت روح الإدارة الريغانية تمسك بزمام الأمور. وأعد له أصدقاؤه استقبال زائر مهم من الخارج وهو الكولونيل الكسندر دي مارانش رئيس الجهاز الفرنسي المماثل لوكالة المخابرات المركزية ويدعى مكتب خدمات التوثيق الخارجي ومكافحة التجسس. وكان مارانش شخصية معروفة في الدوائر المحافظة الأوروبية ويمتاز بشاربيه العريضين، وكانت زوجته أميركية، وترأس هذا الجهاز منذ عشر سنوات وكان لقب هذا الجهاز «حوض السباحة» لأنّ مركز قيادته كان قريباً من حوض سباحة توريل في ضواحي باريس، كما أنّه لعب دوراً هاماً في السياسة الداخلية الفرنسية. وكان مارانش يضع في مكتبه خريطة للعالم ظهرت عليها مناطق انتشار الشيوعية باللون الأحمر. وكان يوزع بعض النسخ الصغيرة عن هذه الخريطة للزائرين الرسميين. ومنذ بضع سنين أعطى نسخة عن هذه الخريطة للأميرال تورنر أثناء اجتماع تنسيق رسمي بين رئيسي الجهازين.

حمل مارانش إلى كاليفورنيا أكثر من خريطة ملونة ليعرضها على ريغان، وكان التجسس برأيه أكثر الأعمال خطورة ويتطلب مجازفاتٍ وحساباً لخط الرجعة. ولم يكترث لعادة

وكالة المخابرات المركزية بتغطية عملائها في الخارج بغطاء دبلوماسي في السفارات الأميركية، مما سهّل التعرف إليهم والاستهزاء بهم. وكان العمل تحت غطاء وكيل شركة طيران أو أي شخص في المجتمع أكثر فعالية لأن التجسس الحقيقي يعتمد على الانغماس الكلي. واستعملت المخابرات الفرنسية أحياناً الصحفيين كغطاء للتجسس ولكن الأميركيين تجنبوا ذلك لأن حرية الكلام كانت أهم من الأمن القومي. إن الجواسيس الذين يتخذون صفة الدبلوماسيين كانوا بنظر مارانش غير جديين. وتكلم مارانش مع الرئيس المنتخب حول أخطار الشيوعية ومخاطر الضعف في الشؤون العسكرية والاستخبارية؛ وبالاجمال تناول في حديثه العموميات.

سأله ريغان، هل تعطيني نصيحة؟ فقد قدم لي الجميع نصائحهم.

أجاب مارانش، وكان يتكلم الأنكليزية بطلاقة ويعتقد بأن اللغات هي أهم شيء لضابط المخابرات، أنه يستطيع أن يقول للرئيس المنتخب من هم الأشخاص الذين يجب أن يقابلهم ومن هم الذين يجب أن لا يقابلهم.

سأل ريغان: من يجب أن أقابله؟

أجاب مارانش: ألكسندر سولجنيستين المؤلف الروسي، لأنه تفهم طبيعة الشر الروسي وجوناس ساخيمبي قائد المقاومة في أنغولا الذي كان يقاتل الشيوعيين، وكانت الولايات المتحدة قد قدمت دعماً خفياً لساخيمبي ولكنها قطعته عندما أقر الكونغرس توصية كلارك بوقف الأعمال الخفية في أنغولا. وأضاف مارانش، عندما تريد أن تعرف شيئاً عن الجحيم عليك أن تسأل من كان هناك.

ومن يجب أن لا أقابله؟ سأل ريغان،

أجاب مارانش: الكثير، ولكني اخبرك عن واحد يمثلهم جميعاً وهو أرمان هامر ـ وكان هذا رئيس شركة اوكسيدنتال بتروليوم وصديقاً قديماً لعدد من القادة السوفيات ويعتبر من رموز الوفاق الدولي.

قال ريغان: مدهش! فكلما أذهب إلى الحلاق أراه هناك.

وقال مارانش: هل تدرك ما أعنيه؟

وكان هامر قد طلب من الحلاق دراكر في بفرلي هيلز أن يحجز له على الكرسي المجاور لريغان، كلما طلب هذا الأخير موعداً.

كانت لمارانش آراء أخرى: لا تثق بوكالة المخابرات المركزية فإنهم ليسوا أشخاصاً جديين. ولم يعنِ المسؤول الفرنسي أن الوكالة تعاني من اختراق أو عيب أو أنها تسرب المعلومات للصحافة وإنما كان يعني النقص في التصميم والحزم.

أعاد ريغان تحذير مارانش «لا تثق بالوكالة» على مسمع جورج بوش الذي كان مديراً للوكالة عام ١٩٧٦ و١٩٧٧. ورأى بوش أن هذا الكلام تافه ولكنه ترك انطباعاً عميقاً

عند ريغان. وكان بوش قد أخبر أحد اصدقائه في الوكالة أنه على الرغم من عدم المام ريغان بالمسائل الاستخبارية فقد كان من المهم أن يكون له مدير وكالة مقرب منه وعلى صلة وثيقة به وخصوصاً لجهة الحزم والتصميم. والآن بعد تحذير مارانش صار ذلك ضرورياً.

راقب كايسي بحذر التعيينات التي كان يصدرها ريغان في إدارته وكان هناك لائحة من ثلاثة أسماء في كل مركز حكومي وكان هو مرشحاً للدفاع وللخارجية. وكان يشارك في التعيين ميز ومطبخ كاليفورنيا وبعض الأشخاص الطموحين وريغان نفسه وهو في منزله في اليساوز في كاليفورنيا. وتطورت الأمور بسرعة مفاجئة عندما قرر ريغان أن يكون جورج شولتز العضو السابق في حكومة نيكسون وفورد (وزير العمل، ومدير مكتب الإدارة، ومدير الموازنة، ووزير المال) مرشحه الأول لوزارة الخارجية. واتصل ريغان بشولتز الذي كان قد أُخبر أنه على لائحة وزارة المال وقال له: «أنا أرغب في أن تكون أحد أعضاء حكومتي» وقالها ريغان لشولتز بغموض غير مقصود. إلا أن شولتز، الذي ظن أنها وزارة المال، لم يقبل. ولم يعلم ديفر، الذي كان إلى جانب ريغان في ذلك الوقت، ما حصل إلا بعد أشهر إذ كان شولتز مستعداً للقبول بوزارة الخارجية.

وكان الاختيار الثاني للخارجية الكسندر هيغ الذي كان في مقدمة الساعين إلى الخارجية وحبّذته نانسي ريغان التي كانت تظن أن له كفاءة النجوم فقد كان وسيماً وقوياً وعسكرياً وكان حاراً وجذاباً ورجلاً قيادياً. وكان جنرالاً بأربع نجوم وقائداً سابقاً لقوات حلف الأطلسي في أوروبا وخبيراً في البيت الأبيض ومعاوناً لكيسنجر ورئيس أركان لنيكسون، ولهذا حصل على الخارجية. وقد أخبر كايسي أحد أصدقائه: نريد أن ندعم هيغ لأننا نريد هيبة ومقاماً لوزارة الخارجية. ثم عين كاسبار وينبرغر الصديق القديم لريغان من كاليفورنيا وزيراً للدفاع.

واستاء كايسي من هذه التعيينات وما كان يجري في واشنطن وكاليفورنيا من اختيار لبقية المراكز الحكومية، وذهب إلى منزله في نيويورك ليقضي بقية حياته. وظل على اتصال مع ميز وأخبره أنه يريد أن يعمل في الحكومة الجديدة ولم يتبق مراكز حكومية شاغرة. لم يكن منصب مدير المخابرات المركزية من المراكز الحكومية، وقال ميز، الذي أدرك شعور كايسي، إنه يمكن أن تصبح الوكالة مركزاً حكومياً. وجرت بينهما مناقشة طويلة حول هذا الأمر.

أخبر ميز ديفر أن وليم كايسي يريد أن يكون مديراً للمخابرات المركزية فأجابه ديفر: «ستكون غلطة ولا يمكننا أن نعطي هذا المنصب لسياسي».

وأوضح ميز أنه على وشك انهاء الاتفاق مع كايسي فهو رجل جيد ويلم بالاستخبارات ويستحق منصباً رئيسياً. ولم يعلق ديفر على ذلك. واقترح ميز على ريغان تعيين كايسي مديراً للمخابرات المركزية على أن تصبح إدارة الوكالة مركزاً حكومياً.

ـ «إنه ممتاز»، أجاب ريغان، أما جواب كايسي فقد كان بارداً وقال إنه يريد أن يفكر

بالموضوع ويستشير زوجته صوفيا. وأجاب ريغان: «حسناً». هل يقبل كايسي وكالة المخابرات المركزية أم لا.

***

في مكتب صغير في الطابق الرابع في شارعK في وسط مدينة واشنطن كان هناك رجل نحيل، ومحترف، نظر باهتمام إلى انتصار ريغان. وكانت نظراته القاسية تعبر عما يفكر. وكان يرتدي بزة أنيقة غامقة اللون وجوارب سوداء ورباطاً قديماً وحذاء غير ملمع. شعره الرمادي يتمايل نحو الخلف ويسرحه على الموضة القديمة ليمنع تجعد ضفائره. على باب المكتب لافتة كتب عليها «شركة سفير» وهي شركة استشارات دولية. وسفير هي الكلمة الفارسية لـ Ambassador الانكليزية. كان سفيراً للولايات المتحدة في إيران من العام ١٩٧٣ إلى ١٩٧٦، وكان رجلاً عصبياً إلا أنه ظهر أمام أصحابه منظماً ومرتباً وكان كله أعين وآذان. أجرى مكالمات هاتفية وتناول طعام الغداء مع رفاقه القدامى وخاض مناقشات كثيرة، وقرأ الصحف بعناية وخصوصاً الأخبار الخارجية مثل مقالات حول وزير الدفاع الجديد في اليونان ونتيجة التصويت في البرلمان النرويجي، والفائض التجاري الياباني. وكان بطبعه ضابط مخابراتٍ ومحللاً حذراً للأخبار.

إنه ريتشارد هلمز، من الرموز الصعبة ومن أساطير وكالة المخابرات المركزية. وتعتبر علاقاته ونفوذه ومعتقداته وماضيه بمثابة وكالة استخبارات بحد ذاتها. عمل في مكتب الخدمات الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية ثم عمل في وكالة المخابرات المركزية عند انشائها عام ١٩٤٧. وتسلم مديرية العمليات بعد أزمة خليج الخنازير ثم عمل مديراً للوكالة من العام ١٩٦٦ إلى العام ١٩٧٣ في أوج الحرب الفيتنامية. وشهد عهده بداية فضيحة واترغيت إلا أن نيكسون نقله إلى وظيفة سفير في طهران قبل نهاية عهده.

والآن عام ١٩٨٠ من المؤكد أن الوكالة ستتحسن أو تتراجع أو تهتز وفقاً لما يريده الرئيس الجديد. وكايسي كان مرشح هلمز لأنه يستطيع أن يحافظ على التقاليد والتراث، هلمز يعرفه منذ خمسة وثلاثين عاماً، منذ أن عملا معاً في مكتب الخدمات الاستراتيجية في لندن. عندما وصل هلمز إلى لندن عام ١٩٤٥ حيث كان معيناً للعمل لدى كايسي ولم يكن لديه منزل، دعاه كايسي للإقامة عنده في شقته في شارع غروسفنور قائلاً: «حقاً تعال واسكن عندنا». وجسّد هذا سرعة في ابتداع الحلول وصداقة. بعدها، لم يعد هلمز يشاهده إلا نادراً، ، خلال سنين الحرب، بسبب عملهما الكثيف. واعتبر أن عمله في مكتب الخدمات الاستراتيجية أمّن له فهماً واسعاً للاستخبارات. فقد درب على أيدي البريطانيين وكانت التقاليد البريطانية: الخدمة السرية والصامتة. وكما قال هلمز: «نحن للخدمة الصامتة والصمت يبدأ هنا» وتفهم كايسي فيما بعد الصدمة التي أصابت هلمز ورفاقه من جراء التحقيقات التي أجرتها لجنتا تشرش وبايك في الكونغرس مع الوكالة.

وفي الوكالة استعد ليركب المخاطر، ولكن لم يتصور أحد أن الخطر سيأتي من حكومته فقد قال هلمز: «إن قفاه انزعجت وهو يستقل الطائرة من طهران إلى واشنطن ليدلي بشهادته». وظل ثلاث سنوات لا يرد على اتهامه بالجنحة «الدعوى ٧٧،٦٢٥ الولايات المتحدة» وذلك بسبب عدم الادلاء بشهادته بشكل كامل وشامل للجنة مجلس الشيوخ حول أعمال الوكالة الخفية في تشيلي خلال رئاسة نيكسون. وحكم عليه بغرامة ٢٠٠٠ دولار وبالحبس لمدة سنتين مع وقف التنفيذ. وذكر القاضي في مقدمة الحكم اتهاماً له بعدم الأمانة في المحكمة. أما محاميه ادوارد بنيت وليامز فقد قال للصحافيين إن هذا الاتهام هو وسام شرف لهلمز. وحاول هلمز في محاكمته أن يحافظ على الأسرار والأعمال الخفية التي أمر بها الرئيس حيال أشخاص ليس من الضروري أن يعرفوها. وكان المعيار في البوح بالمعلومات المتعلقة بقضايا الاستخبارات الحساسة هو ما إذا كان الاطلاع عليها ضرورياً للقيام بواجبات الوظيفة. فالرؤساء ومديرو الوكالة لا يحتاجون إلى التفاصيل غير الهامة ولا إلى أسماء المصادر.

إن ذكرياته حول جوابه في المحكمة ما زالت تثيره وكانت وصمة عار على الرغم من الدعم الواسع الذي تلقاه (بعد ذلك أقام له أربعون ضابطاً متقاعداً من الاستخبارات حفلة استقبال حماسية في نادي كينوود في بيشسيدا في ولاية ماريلاند حيث امتلأت سلات القمامة بشكات وأوراق نقدية لدفع غرامة الـ ٢٠٠٠ دولار)، وجرى نقاش حاد حول المطالبة بالمحافظة على الأسرار أو متابعة التحقيق وكشفها في الكونغرس. كيف كانت القواعد الجديدة في الكونغرس وهل تقضي هذه القواعد على الأسرار الهامة؟

كان كايسي نيويوركياً قاسياً وابن شارع من وجهة نظر هلمز، ومنعزلاً ومتواضعاً ويصعب إرضاؤه ويصمد في إدارة الوكالة. تعلم هلمز من جون وروبرت كينيدي في أزمة خليج الخنازير. الكينيديون يريدون نتائج. كانوا يريدون انهاء كاسترو أو قتله إلا أنهم لم يصرحوا بذلك. وإذ قال هلمز ـ الذي كان يقود أعمالاً خفية ـ إنه لا يمكن فعل ذلك طُرِدَ على الفور.

منذ الحرب العالمية الثانية تغير التجسس، وعلى كايسي أن يتعلم الكثير. تطورت الأقمار الاصطناعية المخصصة للاستطلاع وأصبحت كما أرادها هلمز: «نحن نريد أن نتجسس ليس بالنظر إلى القفا بل بالنظر إلى الرأس». وحافظ هلمز على صمته ولم يقل شيئاً لا بطريقة غير مباشرة ولا من وراء الأضواء.

السناتور باري غولدووتر، وهو من رموز الحزب الجمهوري، هتف بفرح لانتصار ريغان وشعر بعلاقة خاصة معه. بدأ طموح ريغان السياسي عام ١٩٦٤ عندما ألقى خطاباً متلفزاً لمدة نصف ساعة يدعم فيه ترشيح غولدووتر للرئاسة. وكان فوز ريغان بالنسبة إلى ووتر بمثابة انتقال شقيقه الأصغر إلى البيت الأبيض. ورافق فوز ريغان الساحق سيطرة

الجمهوريين على مجلس الشيوخ مما أثار اغتباط غولدووتر.

عمل غولدووتر نائباً لرئيس لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ في عهد كارتر حين كان تورنر هو المدير. كان عمره إحدى وسبعين سنة وكان يستعد لرئاسة اللجنة وهي أداة جديدة نافذة ولّدتها تحقيقات السبعينات. وكان عضواً في لجنة تشرش حول أعمال الوكالة في الأعوام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ورفض توقيع محاضرها النهائية بسبب عدم موافقته على صيغتها غير الملائمة والتعليمية. وشعر بأن عوائق قد وضعت في طريق الوكالة.

كان انتخاب ريغان مناسبة للقيام بالأعمال الصحيحة. لا مهادنة ولا حلول وسط. غولدووتر الأسمر والحسن التكوين وصاحب الشخصية القيادية والحضور القوي انتعش من جديد، وعلى الرغم من المشاكل الصحية في وركيه فقد بدا نشيطاً في حركته.

وكان لديه حل. تعيين مدير للوكالة يكون موضع ثقة تامة ويحفظ الأسرار ويبعد الكونغرس عن الوكالة. وأول خطوة قام بها كرئيس لجنة استخبارات مجلس الشيوخ هي تعيين صديقه الجنرال وليم كوين وهو متقاعد من الجيش مستشاراً في أركان اللجنة دون راتب. وكوين خريج الوست بوينت عام ١٩٣٣ وعمل في الحرب العالمية الثانية كضابط استخبارات ثم عمل نائباً لمدير وكالة الاستخبارات الدفاعية. وكان كوين رجلاً مرحاً وصارماً وصديقاً عائلياً ونديماً لغولدووتر. وكانت زوجته تكره واشنطن ولا تحضر إليها إلاّ نادراً. وحضر غولدووتر حفلات عشاء وكوكتيل مع كوين وزوجته بيت بمعدل يومين في الأسبوع وغالباً ما أمضى عطلة نهاية الأسبوع في مزرعة كوين على الشاطئ الشرقي لولاية ماريلاند. بعد الحرب العالمية الثانية عمل كوين رئيساً لوحدة الاستخبارات الاستراتيجية وأعجب غولدووتر بطريقته في التقرب من الكونغرس عام ١٩٤٦ وطريقة طلبه موازنته الضئيلة (٨ ملايين دولار) من الكونغرس كمصاريف يدفعها إلى مصادره ودون مستندات. وإدراكاً منه أن المشرعين يحبون الاطّلاع على الأسرار، أطلع كوين على بعض المعلومات حول مصادره: (خادمة في مبنى القيادة الروسية في برلين التي حصلت على معلومات مهمة من سلات القمامة. موظف شيفرة في إحدى السفارات سمح للولايات المتحدة بالاطّلاع على وسائل شيفرة دول كبرى وحلّها. موظف في سفارة أخرى قبض مبلغ عشرة آلاف دولار ثمناً لخطة عمليات الأسطول السوفياتي في البلطيق). استغرقت الجلسة عشرين دقيقة؛ واستعمل كوين مبلغ الـ٨ ملايين دولار ليحافظ على نواة عملاء ومصادر لوكالة المخابرات المركزية التي أسّست عام ١٩٤٧.

مع أن خبر تعيين وليم كايسي مديراً جديداً للوكالة ما زال في الصحافة فقد عارض غولدووتر هذا التعيين إذ كان له مرشحه الشخصي وهو بوبي. قال لكوين «إنها ستكون لبوبي». وبوبي هذا هو الأميرال بوبي راي انمان الذي ترأس وكالة الأمن القومي في السنوات الأربع من عهد كارتر. وهذه الوكالة هي من أكثر الوكالات سرية. وكانت ميزانيتها تعادل

أضعاف ميزانية وكالة المخابرات المركزية. وكان مركز قيادتها في فورت جورج ميد في ولاية ماريلاند، يدير مراكز التنصت الأرضية والأقمار الاصطناعية. استطاعت الوكالة حل شيفرة الصديق والعدو وكانت أعمالها تقنية ولم يكن لها أي جاسوس بشري واستطاعت بذلك أن تهرب من الامتحان عند إجراء التحقيقات التي شملت وكالة المخابرات المركزية.

وكان انمان بنظر غولدووتر عبقرياً في الاستخبارات وملماً بالسياسة وبالطبيعة الإنسانية وكان ماهراً في التعامل مع الكونغرس. وعمل انمان ٢٨ عاماً في البحرية رقي خلالها إلى رتبة أميرال بثلاث نجوم وعمل كمساعد تنفيذي ومعاون لرئيس عمليات البحرية ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ وكان هذا المركز مخصصاً للضباط الذين قادوا قطعاً بحرية. ثمّ أصبح في ما بعد مديراً لوكالة الاستخبارات البحرية ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦ ثم نائباً لمدير وكالة الاستخبارات الدفاعية ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ قبل أن يصبح مديراً لوكالة الأمن القومي. وكان يتمتع بذاكرة خرافيّة. وكان أفضل مصدر، حول أي شيء، من آخر قمر اصطناعي للتجسس حتى المناورات البيروقراطية التي يحتاجها لتمرير برامج التجسس. وبدا انمان كأنه طفل نما بسرعة، رأسه كبير وابتسامته كابتسامة الطفل ونظاراته سميكة. وكان من القليلين من ضباط الاستخبارات الذين تكلموا مع الصحافيين وطلبوا منهم عدم نشر بعض الأخبار التي تتعلق بالاستخبارات. وقد رعى العلاقة المهمة مع الكونغرس. ولم يتذكر غولدووتر مناسبة لم يرد فيها انمان على مكالمة هاتفية. واهتم غولدووتر بانمان وحصوله على المركز وقال: لي رأي في هذا، إن أمن البلاد يجب أن يكون فوق السياسة، وبوبي جاهز وهو غير سياسي وبحار محترف.

كان كوين يحب غولدووتر ويتدخل معه بكل راحة عندما يشط عن الحقيقة في آرائه، إلاّ أنه اتفق معه حول انمان. وقال غولدووتر إنه يريد أن يبحث الأمر مع الشخص الأول (الرئيس) وأن يطلعه على رغبته وحماسته لانمان، وهو أقدر شخص على ذلك ويمثل قاعدة جمهورية عريضة. أصغى إليه ريغان لكنه لم يقتنع. وقال غولدووتر إنه سيكون للإدارة الجديدة باع طويل في مجال الاستخبارات إذا عيّن انمان مديراً للمخابرات المركزية.

أجاب ريغان أنه يفضل شخصاً من خارج الاستخبارات وأنه سيكون وليم كايسي، ثم أقفل باب المناقشة بكل مرح ودون مواجهة.

وعاد غولدووتر إلى صديقه كوين وأخبره بما جرى فقال له كوين: «باري ـ لا تقلل من تقدير وليم كايسي فهو ليس ابن البارحة».

وأصيب غولدووتر بخيبة أمل ولم يستطع تقبّل ذلك وبدا متضايقاً. وأخبره كوين أن كايسي كان محامياً للاستخبارات منذ مدة وله خطوط مفتوحة وخاصة مع وكالة الاستخبارات الدفاعية منذ إنشائها في الستينات. وفي عام ١٩٦٤ ساعد كوين في الحصول على جائزة وليم دونوفان تخليداً لذكرى مؤسس مكتب الخدمات الاستراتيجية وأب المخابرات الأميركية.

وقال كوين إن كايسي كان يعرف عن المخابرات وجمع المعلومات ويدرك إمكانيات ضباط المخابرات في التكريس والعمل الدؤوب. وأضاف كوين أنه يحب الغموض ويحب الأقنعة ويحب الخناجر قليلاً.

قال غولدووتر لكوين: «إنهم يحاولون تخريبها».

كان انمان في جانب آخر من العالم في أحد مراكز تنصت وكالة الأمن القومي في نيوزيلاندة، ومن هناك كان يطّلع على ما كان يجري في الفترة الانتقالية، واستساغ احتمال تعيينه مديراً للمخابرات المركزية، وعرف بذكاء أنَّ له نصيراً قوياً هو السناتور غولدووتر. وكان انمان بارد الطبع عاطفياً وطموحاً يعمل كثيراً ويستيقظ كل يوم الساعة الرابعة صباحاً ليقوم بالقراءة والتفكير دون أن يقاطعه أحد. وبرأيه أن أساس أي عمل هو استباق الأمور، ولم يكن هناك مجال لتصور أي عمل بل يجب أن يكون جاهزاً وحتى في نيوزيلاندة.

وكانت وكالة الأمن القومي جزيرة في الإدارة الأميركية. فهي أساساً مؤسسة عسكرية تابعة لوزارة الدفاع وكان لها مسؤوليات أمام وكالة المخابرات المركزية التي كانت تتولى تنسيق موازنة الاستخبارات وتحدد الأفضليات والأهداف. ولأن وكالة الأمن القومي كانت مثل ابنة الزوجة كان على انمان أن يقيم اتصالات مع البيت الأبيض ووزارة الدفاع والكونغرس ووسائل الإعلام.

في نيوزيلاندة تلقى انمان مكالمة من وليم مدندورف رئيس الفريق الانتقالي المعيّن لوكالة المخابرات المركزية في الإدارة الجديدة. وكان مدندورف وزيراً للبحرية عندما كان انمان مديراً للاستخبارات البحرية.

قال مدندورف: يبدو أن كايسي سيعين مديراً للمخابرات المركزية، ولم يعلن ذلك بعد. وكانت لهجته لا توحي بأن الخبر مؤكد إلاّ أنه كان يتصل ليعرف ما إذا كان انمان يقبل أن يكون الشخص رقم ٢ في الوكالة أي نائب مدير الوكالة. قال انمان إنه لا يرغب في ذلك، وإنه يستعد للتقاعد من الخدمة العسكرية الصيف القادم، وهو كاختصاصي بشؤون المخابرات لا يمكن أن يرقى لرتبة أعلى من جنرال بثلاث نجوم. ومنصب نائب المدير ليس كافياً له. ورأى في إدارة ريغان رداً ضرورياً على سنوات كارتر لأن كارتر كانت له أوهام حول السوفيات بينما لم يكن لريغان أي وهم. وبعد أيام قليلة عاد انمان إلى واشنطن وجدد له مدندورف العرض لكنه رفضه بكل تهذيب. وكان قد ناهز الخمسين من عمره ويمكنه أن يبدأ مهنة جديدة في حياته ويجمع المال من مشاريع وأعمال تجارية. سمع هلمز عن انمان وأحب أن يتعرف إليه، ولم يكن قد عرفه لأنه ترك وكالة المخابرات المركزية عام ١٩٧٣ وهي السنة التي سبقت تسلم انمان لوظيفة مدير الاستخبارات البحرية. وطلب هلمز من جاك موري وهو خبير سابق في وكالة المخابرات المركزية بالشؤون السوفياتية أن يعد له لقاء غداء مع انمان. وموري هذا رجل محبوب منشرح الوجه يتحدر من عائلة ڤيرجينية، عمل ٢٨ عاماً

في وكالة المخابرات المركزية. وعمل في السنوات الست الأخيرة ضابط ارتباط مع الكونغرس وذلك قبل التحقيقات مباشرة. وشعر اثمان أنه أصبح عضواً في نادي النخبة. وكان هناك تنافس قوي بين وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي وهو تنافس بين الأعمال البشرية وأعمال الآلة، بين العمليات الجريئة وبين الأساليب المنظمة، أي كمواجهة جيمس بوند للشيفرة بنظارات ذات إطار معدني! وما إن تناولا طعام الغداء حتى أحس الاثنان بأن لهما وجهات نظر متطابقة حول هدف وكالات الاستخبارات، وبأنه قد ارتكبت بعض الأخطاء ومنها في عهد هلمز بسبب عدم تحذير الرئيس أو الكونغرس بأن بعض المشاكل تختمر هنا أو هناك. إن الإنذار المبكر يمنع المفاجآت، واتفقا حول ذلك: «إنه كل شيء ويمثل كل شيء» قالها هلمز بصوته الرشيق مؤكداً أن ذلك كان صحيحاً وأن الرئيس والكونغرس يمشيان مسافة كبيرة مع وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي مهما كانت العوائق، إذا كان لديهم إنذار مبكر.

بات هلمز مقتنعاً بأنّ اثمان ذكي ولامع ويمكن أن يكون عضواً ممتازاً في فريق عمل ريغان في الاستخبارات.

تعرّض اثمان لبعض المضايقات، فقد سعى ريتشارد آلن إلى منصب مستشار الأمن القومي أي مركز بريجنسكي وكيسنجر. وكان آلن يمينياً وشكوكاً، واتهم وكالة الأمن القومي واثمان بالذات بالتنصت على مكالماته الهاتفية خلال الفترة الانتقالية ونقلها إلى البيت الأبيض وكارتر. كانت تهمة كبيرة. وأكد اثمان أن وكالة الأمن القومي لا تجمع المعلومات داخل الولايات المتحدة، وعندما تلتقط المكالمات الهاتفية لما وراء البحار والتي يجريها مواطن أميركي يكون ذلك في ظل القوانين والقواعد المتبعة، أي ضمن التنصت على المكالمات المتعلقة بالتجسس والجرائم السياسية. شعر اثمان أن باستطاعته أن يرد على تهم آلن، لكنه لم يرغب في المواجهة مع المستشار الجديد لشؤون الأمن القومي. وكان آلن صديقاً لبعض أعضاء الفريق الانتقالي لوكالة المخابرات المركزية الذين كانوا يعتقدون بأن القواعد الناتجة عن تحقيقات لجنة تشرش خلال عهد كارتر قد جعلت من الصعب على وكالات الاستخبارات تجنيد الجواسيس وجمع المعلومات.

حذّر جورج بوش، نائب الرئيس المنتخب، اثمان من أن ريغان قد وقع تحت وطأة المتطرفين وأن أكبر تحذير تلقاه الرئيس هو من المسؤول الاستخباري الفرنسي وقوله للرئيس: «لا تثق بوكالة المخابرات المركزية».

وشعر اثمان أنه واقع بين نارين عندما استدعاه واينبرغر وزير الدفاع المعين ليتسلم وظيفة مدير وكالة الاستخبارات الدفاعية. وتردد اثمان إزاء هذا العرض الذي سرعان ما تحوّل إلى أن يتقاعد اثمان من البحرية ويصبح معاون وزير الدفاع لشؤون الاستخبارات. إلاّ أن اثمان رفض ذلك.

كان كايسي ما يزال يفكر بعرض إدارة وكالة المخابرات المركزية. وجال في شوارع نيويورك ليقوِّم الحياة في المدينة، وكان هواء الخريف منشطاً. ومن عادته أن لا يقفز فوق القرارات إلاّ أنه أراد أن يأخذ فرصة لمدة يومين. عام ١٩٧٥ عندما استقال من رئاسة بنك الاستيراد والتصدير لم يكن يتوقع أن يعود إلى واشنطن مجدداً للعمل في الحكومة. وشهد خلال فترة خدماته الحكومية من العام ١٩٧١ إلى العام ١٩٧٥ فضائح كثيرة.

وشعر بأن مجرد وجوده في إدارة نيكسون جعله عرضة للتحقيقات. وذلك بعد الجدال حول الإمساك بملفات البرقيات والاتصالات الهاتفية الدولية خلال انتخابات عام ١٩٧٢. وعندما كان رئيساً لمجلس الأمن والتبادل، استدعي للتحقيق حول نكثه باليمين. ورد في إحدى المذكرات في مكتب المدعي العام لفضيحة واترغيت والتي لم تنشر من قبل أن «التركيز الأساسي في التحقيقات حول النكث باليمين كان على وليم كايسي». وكان كايسي قد دبّر شحن ٣٤ صندوقاً من وثائق البرقيات والاتصالات الهاتفية الدولية وثلاث عشرة مذكرة مكتبية مهمة ورسائل إلى وزارة العدل خارج إطار تحقيقات الكونغرس، وأقسم نائب وزير العدل أنها كانت فكرة كايسي، وأنكر كايسي ذلك، وشهد أن وزارة العدل هي التي طلبت ذلك. وأضافت مذكرة المدعي العام أن إفادة كايسي كانت خادعة تماماً. وعندما وصفت المذكرة شهادته بالمراوغة توصلت إلى استنتاج أن اتهام كايسي له حظ قليل من النجاح. ولم تتم إدانة كايسي.

ثمّ جرت تحقيقات كثيرة وأدين وزير العدل جون ميتشل ورئيس حملة نيكسون الانتخابية موريس ستانز بقبولهما مبلغ ٢٠٠ ألف دولار مساهمة من المحتال الدولي روبرت فسكو، الذي كان يحاول التأثير على وضع كايسي في مجلس الأمن والتبادل. ولم ينزعج كايسي من ذلك. وبعدها عاد وليم وصوفيا إلى نيويورك ومن أقواله المفضلة كان: «هل تعلم أن أفضل ما في واشنطن هو أنها على مسافة ساعة من نيويورك».

بعد سنتين باع كايسي منزله في جادة ماساتشوستس في حي السفارات في واشنطن إلى جمهورية بنغلاذش بمبلغ ٥٥٠ ألف دولار، وإذ عاد إلى واشنطن لم تغفر له زوجته ذلك، وهي قصيرة القامة وبيضاء الشعر.

تركزت حياته في نيويورك حول العائلة، فقد كان يمضي وقته فيماينول على الساحل الشمالي للونغ إيلاند ـ وخاصة عطلة نهاية الأسبوع ـ بين كتبه أو في ملعب الغولف القريب. وكان كايسي لاعب غولف ممتاز ويطلق كرتين على كل حفرة. وكان يَعُدُّ يومه خرافياً عندما يحصل على ١٠٠ في ١٨ حفرة. وأحبّ المشي في الملاعب وخارج البيوت. وكان له أصدقاء قدامى كثيرون، وابنته الوحيدة برناديت وهي الآن في منتصف الثلاثينات كانت متعلقة بأهلها. واشترت العائلة منزلاً بمبلغ ٣٥٠ ألف دولار في بوليفر أوستن في وست بالم بيتش في فلوريدا لأشهر الشتاء. ولم تشهد حياته خلافات زوجية.

وقبل سنتين من اشتراكه بالحملة الانتخابية للرئيس ريغان بدأ كايسي بتأليف كتاب هو المفضل عنده وعنوانه «الحرب السريّة ضد هتلر» وهو كتاب من ٦٠٠ صفحة ويعد من نشاطات مكتب الخدمات الاستراتيجية الاستخبارية في الحرب العالمية الثانية. والشخصيتان الرئيسيتان في هذا الكتاب هما كايسي ومرشده الجنرال وليم دونوڤان (المعروف بوايلد بيل). رسم كايسي صورة محببة لمؤسس مكتب الخدمات الاستراتيجية. رجل عيناه زرقاوان، قد تجاوز الخمسين من عمره، إلاّ أنه ردم الفجوة بين جيله وجيل كايسي كما ردم فرق الرتبة العسكرية والثقافة. أراد دونوڤان أن يعرف إمكانيات كل شخص وكان كايسي مستعداً لأن يمشي في النار من أجل دونوڤان. ألقى دونوڤان مسؤوليات كبيرة على كايسي في آخر ستة أشهر من الحرب. وفي ملاحظاته كتب كايسي: «يجب أن يستعد مكتب الخدمات الاستراتيجية لزيادة عدد الجواسيس في ألمانيا». وأراد دونوڤان إرسال شبكة جواسيس خلف خطوط الألمان وكان يطلق على كايسي لقب: «رئيس الاستخبارات السرية للمسرح الأوروبي». كان الملازم كايسي يأمر ضابطاً برتبة كولونيل ويتعامل مع الجنرالات الأميركيين والبريطانيين على قدم المساواة. لم يكن يرتدي البزة العسكرية، وذهب مرة إلى سلفردج في شارع أوكسفورد في لندن واشترى بزة رمادية يبوخ لونها بسرعة.

اهتم كايسي بجميع تفاصيل إدارة التجسس وكان يختار الجواسيس الموثوق بهم، رغم صعوبة ذلك. كان يخشى أن تكون نهايتهم في مبنى قيادة الغستابو في قلب مدينة برلين! واختار ٤٠ سجين حرب من المعادين للنازية مع أن ذلك كان مخالفاً لاتفاقيات جنيف.

كان الأرشيف في لندن يؤمن ملخصات الصحف حول ما يجري داخل ألمانيا بحيث إن الجواسيس كانوا على اطّلاع على ما يجري في ألمانيا وعلى آخر الأخبار. وتمّ تزوير مستندات ألمانية واستعمال ألبسة عسكرية ألمانية، وطلب كايسي طائرات لإسقاط الجواسيس، وسلمهم جهاز إرسال راديوي بقوة ضئيلة يرسل المعلومات إلى طائرة وضعت خصيصاً لذلك وفي أوقات محددة. تحقق كايسي من أوقات الإنزال ومن الخرائط وحتى من وضع القمر وأنشأ فرقة لإدارة الاستخبارات كانت تحدد المعلومات المطلوبة من الجواسيس. كانت الأفضلية الأولى لتحركات القوات العسكرية الألمانية داخل وخارج المحاور الرئيسية ومحطات سكك الحديد، والأفضلية الثانية لتحديد أهداف للقصف. في شباط ١٩٤٥ كان هناك عميلان داخل برلين وفي الشهر التالي كان لكايسي ١٣ فريقاً وفي الشهر التالي أيضاً كان لديه ٥٨ فريق عمل داخل ألمانيا وأحدها كان يدعى «شوفور» ويستخدم العاهرات في التجسس. إنها الحرب.

والآن، وهو يفكر في منصبه الجديد كمدير للمخابرات المركزية، حاول كايسي أن يلخص استنتاجاته حول الاستخبارات، فقد سماها: «العملية المعقدة لصنع الموزاييك». فالقطع الصغيرة جداً شكلت الارتباك الاستخباري. ومن المعقول أن تتوصل إلى نتائج إذا

كان لديك قطع كثيرة ولكن من الصعب الوصول إلى نتائج بقطع قليلة.

بعد تحرير ألمانيا شاهد كايسي المنظر الصاعق في رحلة بالسيارة من ميونيخ إلى بيلسون، شاهد أعلاماً بيضاء، هنا ورقة بيضاء وهناك منشفة بيضاء وهنالك قميص أبيض. أمّا ألمانيا التي تخيلها عندما كان يرسل الجواسيس فلم يعثر عليها!

كتب في آخر كتبه: «الاستخبارات ما تزال غير حازمة وهشة وبضاعة معقدة». فإلى جانب جمع المعلومات وتقدير دقتها ومدى ملاءمتها فإن الموزاييك يعني أن الاستخبارات تطلبت انتباهاً قوياً وقراراً حاسماً. ورجل المخابرات لا يكون سلبياً، ومن السيّئ جداً تحديد دوره بجمع المعلومات فقط. إن الحصول على المعلومات وتنقيتها وتوزيعها هو مجرد بداية.

ثمّ «بعدها عليك أن تعمل»، ولم ينسَ كايسي أن يكتب عن إدارة كارتر: «حتى الآن نحن متحمسون كالصليبيين لحقوق الإنسان في دول لا تهددنا ولكننا نخفي عن الرأي العام صور معسكرات الأشغال الشاقة الاستعبادية في سيبيريا». وكانت هذه حدوداً أخلاقية للمخابرات لا يمكن تجاوزها. وهناك أيضاً حدود أخلاقية للحياة لا يمكن تجاوزها.

بعد العام ١٩٤٥ ذهب إلى داستو بعد أيام من تحريرها ولم ينسَ أبداً مشهد بقايا الأحذية والعظام والجلود البشرية المعفنة. هل هذا ما فعله البشر بالبشر؟ كان ذلك أمراً يصعب التفكير فيه.

إن كايسي قد أتى ليتحقق من أنه يتوق للعمل في المخابرات، واندفاع ريغان يتطلب السير نحو الأمام لا التراجع إلى الخلف. إن قبوله بإدارة وكالة المخابرات المركزية يعطيه الفرصة ليفهم عالم الأسرار، فالأميرال تورنر كان متطفلاً بينما يذهب هو إلى الوكالة كأخ. واستغرق حديثه مع صوفيا عشر دقائق ثم كان رده على ريغان: نعم.

- ٢ -

قبل بضعة أسابيع من صدور قرار تعيينه رسمياً، انتقل كايسي إلى جناح في فندق جفرسون. كانت هذه الأسابيع مهمة، بعيداً عن الأضواء. كانت عنده فكرة ممتازة عن عمل الوكالة ولكن كانت تنقصه التفاصيل وهي كل شيء طبعاً. أمّا مفهومه حول أسرار الحرب العالمية الثانية فقد كان محدوداً. عام ١٩٦٩ عيّنه الرئيس نيكسون في مجلس استشاري لنزع السلاح في وكالة نزع السلاح. وقّع كايسي على وثيقة قسم بالسرية، تخوّله الدخول إلى مراكز المعلومات الحساسة مهما كانت درجة سرّيتها وبرامج الأقمار الاصطناعية المخصصة للاستطلاع. قبلها كان يعمل في مكتب استشارة الرئيس لشؤون الاستخبارات في الخارج وهي هيئة عليا ذات نفوذ قوي.

حضر لمقابلته صاحب فندق جفرسون إدوارد بنيت وليامز، وكان أحد أشهر المحامين الجنائيين في المدينة وهو الذي دافع عن ريتشارد هلمز المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية. حدّق وليامز بكايسي ولعب معه لعبة المحتال الديمقراطي ضد المحتال الجمهوري. كان وليامز في مكتب استشارة الرئيس لشؤون الاستخبارات في الخارج مع كايسي. كانت له آراء قاسية حول العمل الجديد لكايسي، وكان وليامز شخصية قوية في واشنطن وتدرج زبائنه من النقابي وليم هوف إلى صحيفة الواشنطن بوست.

تناقش وليامز بعنف مع كايسي مدّعياً أن وكالة المخابرات المركزية لم تتراجع في عهد كارتر وإنما في عهد فورد. واستعمل في نقاشه عبارة «تفكّكت» وهي العبارة نفسها التي استعملها برنامج الحزب الجمهوري الانتخابي عام ١٩٨٠. خلال إدارة فورد التقط السوفيات اتصالات هاتفية من ست نقاط في واشنطن. وأطلعت أجهزة الاستخبارات الأميركية على بعض ما حصل عليه الروس. ولكن وزارة العدل منعت مكتب التحقيق الفدرالي ووكالة الأمن القومي من متابعة وملاحقة هذه القضية بحجة حماية الحرية الشخصية للمواطن الأميركي. واعتقد وليامز أن هذا أمر مثير للسخرية، أن يستطيع السوفيات تسجيل المكالمات داخل أميركا ولا تستطيع أجهزة الاستخبارات الأميركية أن تفعل مثله. قال وليامز: كانوا يسرقون ونحن لا نستطيع أن ننظر إلى جيوبنا لنرى ما سُرق منا. وحنى كايسي رأسه موافقاً.

المخابرات، أي معرفة إمكانيات الطرف الآخر وما يخططه، هي أهم عامل لكسب

المعركة. عليك أن تعرف، وإذا لم تعرف فأنت ميّت. وأضاف وليامز: إن وكالة المخابرات المركزية تشبه كلباً كبيراً صدمته شاحنة. وأحال ذلك على كايسي كأنما يقول له: اذهب لهم يا بني. وعقد كايسي العزم على أن كلب وليامز الكبير يجب أن يعيش. اتصل كايسي بصديقه القديم ريتشارد هلمز ليخبره بأن تعيينه أصبح رسمياً.

أجاب هلمز: «جيد، لا بل ممتاز». ثم اتفقا على تناول طعام الغداء في الأول من كانون الأول/ ديسمبر. كانت قد مضت على هلمز سنوات منذ ترك الوكالة، وقد اجتمع مراراً مع زملائه القدامى. في السنة الفائتة صدر كتاب توماس بور: «الرجل الذي حفظ الأسرار: ريتشارد هلمز ووكالة المخابرات المركزية». ولقي ترحيباً كبيراً. وقال بعض مَن قرأ الكتاب بعناية إنه بدا وكأنه من تأليف هلمز. وهذا غير ممكن ولا أحد يعرف ما إذا كان صحيحاً. وحتى عندما أخبرته زوجته سنثيا وثلاثة محررين، بكلي ووليم سفير وجورج ديل، أنه كُتِب بعناية لم يتقبل هلمز ذلك.

وتبيّن لهلمز أن مشكلته كمدير كانت في أنه لا يملك أيّة صلة شخصية مع الرئيس الذي يعمل له. ولاحظ ذلك اعتباراً من ١٥ أيلول/سبتمبر حين اجتمع مع نيكسون من أجل القيام بعمل خفي في تشيلي. أعطى نيكسون أوامره مباشرة وأصرّ على منع وصول المرشح الماركسي سلفادور اليندي إلى السلطة. وغضب نيكسون بعد النتيجة ولم يستطع تقبّل الأمر. قال نيكسون إن الاحتمال كان واحداً إلى عشرة، لكن أنقذ تشيلي وخذ عشرة ملايين دولار أو أكثر إذا كان ذلك ضرورياً، ولا تهتم بالقضايا المالية. كان هلمز يعرف النقص في هذه المذكرات ولم يكتب ما قاله شخصياً حول هذا الموضوع، ثم لخص جوابه للرئيس: «أنت تكلفني بمهمة مستحيلة» وكانت خطة سرية متأخرة وضعيفة التحضير.

وأخبره هنري كيسنجر لاحقاً أنه يجب أن لا يذكر ما قاله نيكسون حرفياً، وعليه أن ينظر إليه على أنه أمر. فغالباً ما كان نيكسون ينفعل ويقول: «إفعل شيئاً يا هنري»، وقال كيسنجر إن نيكسون لا يعني ما يقوله، وكانت هذه حقيقة بسيطة تعلّمها هنري من التجربة. ولسوء الحظ لم يكن هلمز يعرف ذلك. ولم يكن نيكسون متعلقاً بمدير المخابرات المركزية وكانت ثقته بالوكالة ضعيفة. كان يفكر بمؤسسة قوامها مجموعة من الجامعيين والليبراليين. ولأنه لا يعرف رئيسه جيداً ترك هلمز المكتب البيضاوي في ذلك اليوم من عام ١٩٧٠ وهو يحسب أن لديه مهمة، وأدلى لاحقاً بشهادته: «كان ذلك النهار كأني حملت عصا الماريشالية في حقيبة الظهر خارج المكتب البيضاوي» وكان عليه أن يعتذر عن هذه الكلمات. وعلم هلمز أكثر من ذلك لأن مفتاح الأمر كان في علاقة نيكسون مع دونالد كيندال رئيس شركة بيبسي كولا والمدير التنفيذي لها. وكان للشركة مركز تعبئة في تشيلي. وكان كيندال قد اتخذ نيكسون محامياً للشركة عندما كان يمارس المحاماة في مكتبه في نيويورك. إن التحرك ضد اليندي كان قراراً. كيندال والمتشددون لا يريدون رئيساً ماركسياً في تشيلي ولذلك أُسيئ

استعمال وكالة المخابرات المركزية. وصمت هلمز أمام لجنة مجلس الشيوخ خفف من إرباك الوكالة والرئيس وحتى من إرباكه أيضاً. وفشل في أن يمنع أبشع عمل خفي منذ خليج الخنازير وخرق مبدأه الخاص: «إن العمل الخفيّ مثل دواء جهنمي ناجع، ينفع ولكن إذا أخذت الكثير منه فإنه يقتلك». وقال ألين دالاس مدير وكالة المخابرات المركزية في عهد إيزنهاور: «إذا أردت وكالة صغيرة في زاوية بعيدة يعلوها الغبار، اترك الأعمال الخفية». كان الرؤساء يريدون دائماً طريقة غير ظاهرة لأعمالهم. وهكذا كانت الوكالة ترقع أمورها مع البيت الأبيض على حد قول دالاس.

كان هلمز من أنصار الرئيس وكل الرؤساء، وعلى الرغم من هذا فإن محاولة مناقشة نيكسون كانت كالحديث في العاصفة. وطلب نيكسون من هلمز أن لا تقوم الوكالة برسم السياسة، ووافق هلمز على ذلك. فالوكالة أنشئت لتخدم الرؤساء الذين يرسمون السياسة الخارجية والدفاعية. وكان جيل هلمز وكايسي يدرك أن الأوامر يجب أن تطاع. ولاحظ هلمز أنه تلقى الكثير من الأوامر من الرؤساء ولكنه أطاعها جميعاً.

وإذا كان ذلك يعني أن الحرارة يجب أن تعود إلى الوكالة، فليكن. وإذا كان ذلك يعني أن على ضباط الوكالة أن يحترقوا فليكن. لم يكن هناك طريقة أخرى لإدارة الأمور. وهكذا اختار هلمز الحرارة، وجاء دوره، وكان ذلك بطاقة استدعاء للإدلاء بشهادته. أليس كذلك؟ المدير السابق للوكالة جيمس شليسنجر أعطى إدليامز وسام شرف، ووصف الاستدعاء للمحكمة على أنه نوع من إثارة الصراع.

سيأخذ كايسي احتياطاته طبعاً كمدير للمخابرات المركزية. وتخيّل هلمز أن كايسي يعرف تاريخ «الشركة» ويعرف رئيسه ولم يكن بحاجة إلى أن يتداول معه في ذلك على الغداء. وهكذا، عندما حضر هلمز للغداء مع كايسي قرر أن يتجنب أي حديث يُشتمُّ منه أنه «يعطي دروساً» ولم يرد أن يعلم كايسي كيف يأكل البيضة ولم يرد تصحيح طريقة العمل. وكان من الأفضل أن يتكلّم قليلاً.

ولكن كان هناك قضية واحدة شعر هلمز أنَّ بإمكانه تقديم المساعدة فيها دون أن يظهر مزايدة. وكانت هذه قضية الأشخاص في وكالة المخابرات المركزية. انخرط ابنه دينيس في الوكالة لصيف كامل عندما كان في الجامعة. وذات ليلة أخبره دينيس أنَّه كان محظوظاً لأنَّه عمل في الوكالة. لماذا؟ لأنَّ الناس هناك كانوا متحضرين جداً. وكانت تلك حقيقة. كان هناك حسٌّ من اللياقة واستبعاد الغلاظة والخداع. الجميع داخل الوكالة مثل زوجة قيصر، معاملة صريحة خالية من الأكاذيب.

يوم الإثنين في أول كانون الأول/ديسمبر ظهر هلمز على باب جناح كايسي في فندق جفرسون وتصافحا بحرارة. كان كايسي مسروراً لأنَّه ركب أكبر موجة انتصار في التاريخ وأنَّه كان أداة في الثورة الريغانية.

«بيل أنت طبيعي وهذا مدهش» قال هلمز ذلك وهو يبتسم، وغالباً ما يغلق عينيه عندما يضحك أو يبتسم، ثم طلب طعام الغداء.

لم يكن هلمز بحاجة لأن يذكر كايسي بأنَّ الوكالة مرت في وقت عصيب في العقد الماضي، من واترغيت إلى التحقيقات إلى تورنر. وكانت نتيجة ذلك أنَّ أحداً لم يُردْ أن يتخذ مبادرات أو أن يخاطر بحياته لأنَّ عمليات الاستخبارات الكبيرة كانت تتطلب المبادرة والمخاطرة معاً. وافق كايسي على ذلك. وبما أنَّ المراكز الكبرى في الوكالة كانت هامة، سأله كايسي عن رأيه بتعيين اثمان نائباً للمدير.

قال هلمز: «لن يكون الكونغرس طريقاً سهلاً ولم تعد الحالة كما كانت قبل التحقيقات. ويجب أن تقوم ببعض التعاون». وأضاف هلمز أنَّه التقى اثمان منذ أسابيع ويمكن أن يكون ملائماً وله علاقة ممتازة مع غولدووتر وخبرة واسعة من وكالة الأمن القومي ويتمتع بجانب تقني كان يحتاج إليه كايسي. وكان اثمان ملماً بالاستخبارات العسكرية. وكانت وزارة الدفاع لهايد في كل عملية استخبارات. إنَّه من المعقول والمنطقي اختيار اثمان. وكان رد كايسي إنَّه ليس متأكداً من هذا الاختيار وعليه أن يفكر بعد. وشعر هلمز أنَّه لا يستطيع أن يقول المزيد واحسَّ بنفور كايسي. «لماذا لا تأتي ببعض المستشارين» قال هلمز. من السهل الوقوع في الخطأ خصوصاً إذا كانت النصيحة خاطئة ويجب أن يُعتمد المستشار الجيد. ووافق كايسي على ذلك، نعم رجل ذو آفاق تاريخية. وكان لهلمز صديق جيد عرفه كايسي خلال الحرب وهو ناضج وسليم ولا يسرب شيئاً عن كايسي. إنَّه جون بروس.

عندها أشرق وجه كايسي. إنَّه الرجل المناسب. عرفه كايسي من أيام مكتب الخدمات الاستراتيجية ووصفه في مخطوطة كتابه حول الحرب السرية ضد هتلر بأنَّه ناعم وحضاري وكان مظلياً وخبيراً في عمليات التخريب والقتال بالسلاح الأبيض.

اقترح هلمز بروس لأنَّه عمل في الوكالة لمدة عشرين عاماً وكان رئيس فرقة في مديرية العمليات وعمل مراقباً للحسابات وفي مجموعة الاستخبارات، وكان لا ينحني أمام الصعاب وهو محامٍ والمهم جداً أنَّه غير محسوب على اليمين أو على اليسار. وكان هلمز يدرك مدى الخطر الذي يهدد الوكالة من اليمين ومن اليسار معاً. ومن الممكن أن يكون اليسار قد أخذ مداه في السبعينات وفي التحقيقات وسبب لهم المشاكل إلاَّ أنَّ اليمين ما زال بإمكانه أن يؤذي. وكان لهلمز قلق آخر لم يذكره كي لا يظهر بمظهر الواعظ وهو أنَّه عندما عين مديراً للوكالة عام ١٩٦٦ استدعاه ليندون جونسون وطلب منه أن يذهب إلى لانغلي، وأن يكسر بعض الآنية الفخارية ويهز الأشياء أمامه ويرفس أحداً على قفاه! وجد هلمز أنَّ ذلك غير ضروري. وكان يؤمن بإعادة التنظيم، إلاَّ أنَّها كانت عام ١٩٦٦ نوعاً من الهراء، شكك هلمز من أن تكون في عام ١٩٨٠ نوعاً من الهراء أيضاً. سيرى بروس ذلك وسيأخذ وقته. كان بروس غنياً ويعيش على نهر بوتوماك على بعد أميال من مركز الوكالة. كتب كايسي اسم

بروس على فوطة صغيرة وقال إنّه سيتصل به في الحال. ولم يتطرقا إلى المواضيع الحساسة. وانتهى الغداء.

شعر هلمز أنَّ كايسي كان خليطاً من المتناقضات ولم يكن فيه أي جانب مثير. وتكوّن لديه انطباع بأنّه كان يريد فعلاً وزارة الخارجية.

انتقل كايسي بعد ذلك من فندق جفرسون بعد إلحاح جهاز الأمن في الوكالة، فالسفارة السوڤياتية كانت على مسافة قريبة منه وللسوڤيات تقنية الكترونية تمكنهم من التنصت على أحاديثه. واعتبر هلمز أنَّ الانذار مضحك وقال لكايسي مازحاً إنّه لم يكن للسوڤيات أي حظ في حل شيفرة حركات شفاهه.

في منزله القديم على نهر بوتوماك تلقى بروس مكالمة من كايسي الذي أكد له أنّه سيصبح مديراً للمخابرات المركزية في عهد ريغان، ودعاه للانضمام إلى الفريق الانتقالي، وأن يقدم المساعدة في الأشهر القادمة. وكان بروس قد بلغ التاسعة والستين من العمر وقبل العرض في الحال. كانت المهمة حساسة لأنَّ الإدارة الجديدة لها دائماً أفكار جديدة وبعض هذه الأفكار يمكن أن يكون خطراً. وكان بروس مرحاً وهو عضو في نادي قدامى ضباط المخابرات وهي جمعية قوية حافظت على وجودها في الوكالة بصورة غير رسمية وكانت تسعى دائماً لتقدمها. وعمل على سبيل التطوع في هيئات السياسة الخارجية لمسؤولين سابقين وكان يحسب حسابه دائماً في الحفلات الخاصة.

كان كايسي خياراً صلباً برأي بروس، فقد عرفه منذ العام ١٩٤٣ وبقي الاثنان على اتّصال. وفي الستينات دعا بروس بعض المهتمين بالسياسة الخارجية إلى العشاء مع كايسي، وبعد العشاء أخذ أحد الحضور من معارضي السياسة حيال السوڤيات بروس جانباً وقال له: ذلك الرجل يفهم حقيقة ما أقول. وفي اليوم التالي أخبره ضيف معتدل أنّه كان مسروراً لأنَّ كايسي تفهم مناقشاته. ولم يكن كايسي متعصباً. كان بروس خريج معهد الحقوق في هارفرد، وكان كايسي محارباً ايرلندياً وكان صلة الوصل بينهما قائدهما العزيز دونوڤان. قرر بروس أن يكون تحت تصرف كايسي بشكل تام وكان يعلم أنَّ كايسي سيفتح له قلبه. تلك هي طريقة دونوڤان: إبْنِ وازْرَعْ.

التحق بروس بالفريق الانتقالي وسرعان ما تبين له أنَّ رئيس الفريق مدندورف لا حاجة إليه. أما المساعدون الثلاثة من لجنة استخبارات مجلس الشيوخ ومن ضمنهم المتطرف المحافظ انجيلو كوديفيلا فقد كانت خطتهم تقضي بتقسيم الوكالة إلى ثلاثة أقسام. الأول: النخبة، وهي فرقة الأعمال الخفية التي تشن حروباً خفية لتهديد الاتحاد السوڤياتي وتزيد من عدد الجواسيس بشكل دراماتيكي وتعمل خارج السفارات وفي غطاء غير رسمي كرجال أعمال أو مستشارين. والقسم الثاني كان فرقة تحليل تثير المنافسة بين المجموعات الاستخبارية لتأكيد الحماسة والحزم في العمل. والقسم الثالث المدعوم من مدندورف يكون وكالةً عليا

تجمع في صلاحياتها عمليات مكافحة التجسس في مكتب التحقيق الفدرالي ووكالة المخابرات المركزية. وكان يمكن لهذا القسم في نظر بروس أن يجر الوكالة إلى كارثة التدخل في الاستخبارات الداخلية.

كان الجناح اليميني من المساعدين في الفريق الانتقالي معارضاً، ووضع عناصره خططاً تؤدي إلى تدمير وحدة الوكالة. لم يرحب كايسي بهم لأنّه وصل كمحارب قديم غارق في نظرة الخمسينات حين كانت الحرب الباردة «في نشوب دائم» وكان الفريق الانتقالي يخطط ليربح الحرب دون أن يخاف من الذهاب بعيداً في الأمور. وبذل كايسي جهده ليؤكد أنّه كمدير لم يكن واقعاً تحت تأثير الجناح اليميني.

ثمّ اتّصل كايسي بوليم كولبي الذي عمل مديراً لوكالة المخابرات المركزية لمدة ثلاثين شهراً في أصعب أيامها عن عام ١٩٧٣ و١٩٧٥ وهي آخر أيام واترغيت ونهاية نيكسون وسنة كاملة من التحقيقات. كان كولبي منبوذاً في أوساط الاستخبارات فقد كان مديراً للوكالة بشكل سياسي وليبيرالي. وعمل كولبي في ظل تدفق المستندات والأسرار إلى الكونغرس. وكان بإمكانه أن ينتهز الفرص، لكنه اقتنع بخيانة مبدأ الصمت وارتكب خطأً فادحاً عندما حوّل نفسه إلى زميل وأعطى معلومات إلى وزارة العدل أثناء التحقيقات الرسمية كانت العامل المحرك لاستدعاء هلمز إلى التحقيق. وبالنسبة إلى القدامى كان هذا غير ضروري، وبدا كأنّ أحد البابوات يخون سلفه.

لم يجتمع كايسي مع كولبي في الحرب العالمية الثانية، إلاّ أنّه تعرف عليه من خلال قدامى محاربي مكتب الخدمات الاستراتيجية، وكان الاثنان من أعضاء النادي. كان كولبي قد سقط بالمظلة خلف خطوط العدو في اليوم «ي» كعضو في فريق جديورغ ومهمته إثارة المقاومة الفرنسية خلف خطوط الألمان. (جديورغ مدينة في سكوتلاندة مشهورة بحرب الحدود. وعدالة جديورغ تعني اشنقهم أولاً ثمّ حاكمهم). أخبر كايسي كولبي أنّه سيتسلّم الوظيفة وأنّه يرغب في أن يتحدث معه ووافق كولبي على الحضور إلى مكتب فريق ريغان الانتقالي في شارع (م) وصمم على أن يكون فظاً. كان خارج الوكالة منذ خمس سنوات عندما أقاله الرئيس فورد لأنّه كان القبطان عندما تزحلقت الوكالة بالتحقيقات، وتسريب الأسرار. كان كولبي رجلاً لائقاً يرد على المكالمات ويفتح الأبواب ويتحرك ويبتسم للجميع. رجل صغير الحجم متواضع ذو ملامح عسكرية، ولم يكن يظهر بأي طريقة كعنصرٍ من عناصر المخابرات. أعطه مشطاً وزوج مقصات ورداء أبيض وعندها يصلح لأن يكون حلاقاً في المدينة! كان أنيقاً (خريج جامعة برنستون ـ الحقوق) وعندما ينزع نظاريته تتغير ملامحه. كانت أطراف عينيه قاسية وكانت عدالة جديورغ إلى جانبه.

وعندما يسأله شخص ما ليست له صفة أمنية عن أسرار الوكالة يصبح وجهه صغيراً، ويبدو أنّه يخفت وكأنه يختبئ وراء نظاريته أو وراء رموش عينيه. لم يتذكر. ولا يستطيع أن

يقول إنّه تنصل من المسؤولية. لا انتهاك حرمات ولا تفنن في الأسئلة، وكان يبدو مراوغاً. وعندما تظهر ملامح جسمه ما يخفي من القول كان كولبي يخلد للصمت. المشاعر كانت العدو الحقيقي لرجل المخابرات. ففي قصة حياته: «الرجال الشرفاء» وضع نفسه بين الرجال الرماديين للوكالة الذين لم يكترثوا بأنفسهم بل كرسوها لإنجاز أعمالهم بدقة.

أثناء التحقيقات حول عمل الاستخبارات، اهتم كولبي بحماية وكالة الأمن القومي التي كانت قادرة على حل أي شيفرة أو أي اتّصال بأكثر مما يتصور الكثيرون. وأصبحت «قلب الإنتاج» لوكالات الاستخبارات كما قال كولبي. وكانت حماية وكالة الأمن القومي الفصل غير المكتوب من التحقيقات. أما وكالة الأمن القومي بحد ذاتها فقد كانت لها قواعد صارمة للعمل وكان تدخلها بالشؤون الخاصة لدول العالم غير مفهوم بكامله. واعتقد كولبي أنّ لكايسي فرصة طيبة لتسلم إدارة وكالة المخابرات المركزية فله رصيد «أفضل من أي واحد منا». ويعني بذلك العناصر الداخلية في الاستخبارات. وكان كايسي في نظر كولبي خليطاً جيداً فهو مؤرخ جيد (كان كولبي قد قرأ كتابه حول الحروب الثورية الأميركية وعنوانه أين ومتى يجب أن نخوض الحرب) وهو محامٍ ممتاز وملم بالسياسة الخارجية ومجازف في التجارة. وسيكون له اتصال شخصي وسياسي مع الرئيس.

في المكتب الانتقالي للرئيس المنتخب وفي غرفة قديمة حيّا كايسي كولبي بحرارة.

قال كولبي: أنت أهل لهذه المهمة لأنّ صلتك مع الرئيس هي مكسب كبير.

وظهر كايسي كأنه يريد أن يصغي: ما كانت أخطاء كولبي؟ وما نصائحه؟ وما تقويمه للوضع؟

أنظر، قال كولبي: أنت تنظم المكان كما تريد وهو لخدمتك. ومجمل العمل تقديم النصائح للرئيس. وستنحصر اجتماعات مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض. وعليك أن تعرف ما يجري وأن تملك التقدير الصحيح للأزمات والأحداث، والنصيحة الجيدة في الأزمة هي الأساس، والتحليل الجيد في وقت الضيق هو كل شيء.

ظهر كايسي كأنه مأخوذ بالماضي إلاّ أنّه ركز بعناية على كلام كولبي.

قال كولبي: أنت ضابط استخبارات الرئيس، هذه هي وظيفتك. إفعل ذلك جيداً والباقي يُصبح سهلاً. أما الأعمال البيروقراطية فيقوم بها الآخرون. يجب أن لا تكون الاستخبارات جامدة في البيت الأبيض عندما تكون الخيارات السياسية موضع نقاش. إنّ مدير الوكالة ليس لاعباً رئيسياً في تحديد السياسة ولكن من الضروري أن يتكلم.

«أنت بحاجة إلى مركز تحليل يسأل السؤال الصحيح»، ثمّ أضاف كولبي: «الوكالة الآن منظمة بشكل خاطئ من ناحية الانضباط والارتباط السياسي والاقتصادي والعسكري والمسائل الاستراتيجية النووية ـ مثل أية جامعة».

قال كولبي: «لن أقول لك كيف تركب القطار، ولكن إن عدت إلى إدارة الوكالة فإنّي

سأعيد تنظيم فرقة التحليل على قاعدة جغرافية، عندها سأجد خبراء يمكنهم تقدير ووزن وتحليل الوضع في كل بلد أو منطقة» وكان كولبي قد حضر اجتماعاً مع ١٦ خبيراً من الوكالة في قاعة وكل خبير مختص بمنطقة معينة، وكان هو الوحيد الذي ينظر إلى الصورة الشاملة، ولم يشجع أحد هؤلاء الأشخاص الأذكياء كي تتمكن عقولهم من تجاوز الممرات الضيقة بين المكاتب.

قال كولبي: إنَّ نوعية النصيحة تعتمد على التحليل الدقيق. وإن قسماً كبيراً من العناصر الضرورية للتحليل موجود في الصحافة، وإذا قاطعتها مع الاستخبارات يمكنك أن تستنتج الكثير. فالاستخبارات الجيدة والمشاريع المدروسة بدقة وعناية يمكن أن تحرك صانعي السياسة بحيث يتجنبون المشاكل والكوارث في أعمالهم. يقولون إنَّه لا يمكنك التنبؤ بالمستقبل ولكن الوكالة تقوم بذلك العمل يومياً.

الأركان والمساعدون في الوكالة ممتازون، قال كولبي، وأضاف: هم موهوبون ومخلصون ولكن لا ترتبك فبإمكانك تجاهلهم. ثم قال إنَّ هناك انقسامات بين المديريات الثلاث في الوكالة: التحليل والعمليات والتقنية، ويمارس رؤساء هذه المديريات عروضهم الخاصة. وقد حاول كولبي أن ينهي هذا الأمر إلاَّ أنَّه لم يستطع.

وعن مديرية العمليات التي أتى منها وترأسها فترة من الزمن وهي منغلقة وضيقة، قال كولبي: إنَّ إخلاص الفريق كان ممتازاً، ولكن قوة الوكالة تأتي من المحطات الخارجية التي يشرف عليها مدير العمليات. ورؤساء المحطات من الخارج هم غالباً في الثلاثينات ويقومون بجميع المهام، الأمن والعمليات الخفية والدبلوماسية. وليسوا مثل موظفي وزارة الخارجية الذين يشرف كل واحد منهم على سكرتيرة فقط ولا يقومون بأي عمل إلاَّ بناءً لبرقية من وزارة الخارجية!

العمل الخفي ضروري ويساعد كثيراً. إنَّ العمليات الإعلامية أو عمليات الدعم السياسي الخفية لزعيم معتدل مثلاً غالباً ما يكون لها معنى كبير. إنَّ خطة خفية تتطابق مع سياسة الإدارة المعلنة يمكن أن تنجح، وإذا تسربت لا تحدث مفاجأة، ويكون الانتقاد قليلاً. ولكن يجب أن يكون هناك دعم سياسي حقيقي في البلد الذي ينفذ فيه العمل الخفي أي معارضة سياسية حقيقية أو مقاومة حقيقية لأنَّه لا يمكن لوكالة المخابرات المركزية أن تخلق ذلك.

لم يكن كولبي محامياً بارعاً عن الأعمال الخفية لأنها كانت تعتبر أعمالاً قذرة عندما كان مديراً للوكالة. في الخمسينات أخذت الأعمال الخفية نصف موازنة الوكالة، وعندما ترك عمله أخذت ٤٠٪ من الموازنة. واتفق كولبي وكايسي على أنَّ إدارة كارتر قد زادت فعاليتها في الأعمال الخفية في آخر سنتين أو سنة من عهده.

وعاد كولبي للحديث عن الكونغرس الذي عرفه جيداً. لقد أخذ نصف وقته في آخر

سنة. إن لجنة الاستخبارات الجديدة ممتازة وكان من المهم أن يتفهم الكونغرس من خلال هذه اللجان عمل الاستخبارات. وكان من المعقول تغيير عملية اعلام اللجنة بطريقة تخفف من مخاطر تسريب المعلومات وتحصل على تفهم الكونغرس الدائم.

وبقي موضوع واحد، وهو الأهم: الاتحاد السوفياتي وهو الهدف الاستخباري الصعب. أدرك كولبي أن السوفيات لن يستطيعوا ترك بلادهم مغلقة كما في الماضي. ففي رحلة الأسبوع الجوية بين موسكو وواشنطن كانت الصحف والمجلات الأميركية تعبر بانتظام حاملة معها معلومات هامة وأسراراً عسكرية. وكانت هذه فرصة لا تعوض بالنسبة إلى السوفيات. قال كولبي: «مع أننا نملك تكنولوجيا متطورة ومتفوقة فعلينا أن نسعى دائماً للحصول على اختراقات هامة. حاولْ أن تدخل إلى الدائرة المقدسة في القيادة السوفياتية. لم يستطع أحد ذلك ولكن يمكنك أن تقوم به». وكان كولبي يعرف أنه يتكلم إلى رجل مشهور بالمجازفات في عالم المال والتجارة. وتابع كولبي وهو يرهق كايسي بأحاديثه: إنها تؤدي إلى خسائر قليلة. وبدا كأن كايسي فهم ما يعنيه.

إن أي جاسوس يخترق الاتحاد السوفياتي بواسطة وكالة المخابرات المركزية يمكن أن يتحول إلى عميل مزدوج. وإذا كان هناك واحد سيئ فيمكن الحصول على خمسة ممتازين في القريب العاجل وستحترق مدة إلا أنك ستستمر. هذه العمليات ضرورية وحيوية وتستطيع بواسطتها إظهار الفوارق. كايسي كان الرجل وهذا هو الوقت.

أومأ كايسي برأسه وكان يجلس هادئاً وعيناه تركزان على كولبي.

قال كولبي: «لا تقلق من اواسط السبعينات» وشعر بأنه أخذ الماضي من طريقه وطرد منه الأرواح الشريرة. اذهب إلى العمل.

أجاب كايسي أنه سيستدعيه في وقت ما في المستقبل، وكان منشرحاً، ولم يكن هناك تباعد بينهما. غادر كولبي وهو يشعر بالإرادة القوية وبأن كايسي كان متصلباً.

تذكر كايسي أنه مدين لستان تورنر بمكالمة هاتفية. ستان، قال كايسي، إن الاشاعات التي دارت منذ اسبوعين حول تعييني مديراً للوكالة لم تكن صحيحة وهي الآن صحيحة وسأكون المدير الجديد لها. «حسناً» قال تورنر، ولم يقدم تهانيه.

أخذ كايسي بالجواب الفاتر، واتفق الرجلان على لقاء قريب. وشعر كايسي بأن تورنر رجل غريب ومن الأفضل أن يتجنبه خلال الفترة الانتقالية ما أمكنه ذلك.

في ٩ كانون الأول/ ديسمبر وصل كايسي إلى مكتب تورنر في المكتب التنفيذي وخطا خطوات قليلة غير ثابتة، كأنما قدماه كانتا تؤلمانه أو كأنما وضع أحد حصًى في حذائه ولكنه كان يتمتع بروح عالية.

بدأ كايسي الحديث قائلاً: أراد رونالد ريغان أن يكون رئيساً وهو ابن ٦٩ سنة، أما أنا فلن أكون وزيراً للخارجية ولي من العمر ٦٧ سنة ولن أقوم برحلات وأعمال دبلوماسية.

ـ حسناً، أجاب تورنر ـ إن عليك كمدير للوكالة أن تقابل عدداً كبيراً من الناس، وجميع المبعوثين الأمنيين الذين يحضرون إلى الولايات المتحدة سيطلبون مقابلتك. وتعجب كايسي، هل كان هؤلاء كثر؟

أضاف تورنر: «الفرنسيون مثلاً ليس لديهم رئيس استخبارات مثلنا، إن مارانش رئيس مكتب التوثيق الخارجي ومكافحة التجسس، ولكن ليس لديهم وظيفة موازية لمدير المخابرات المركزية أو منسق عام للمخابرات. لذلك يطلب رئيس مكافحة التجسس مقابلتك ورئيس مكتب التحقيق الفرنسي يطلب أيضاً مقابلتك وجميعهم يحسبون أنفسهم نداً لك».

لم يحضر كايسي معه أية ملاحظات أو لائحة أسئلة وبدا قليل الاهتمام.

ـ هل ترى أي مانع في أن أكون عضواً في الحكومة؟

سأله كايسي بوضوح وكان تعيينه عضواً في الحكومة شرطاً من شروط قبوله بالمنصب مع أنه لم يذكر ذلك لتورنر. قال تورنر إن في استطاعة ريغان أن يجعل منصب مدير المخابرات المركزية مركزاً حكومياً وإن كان الراتب أقل من راتب وزير بعشرة آلاف دولار إلا إذا زادها الكونغرس. وكان كايسي يطلب درجة وزير إلا أنه لم يكترث بالعشرة آلاف دولار.

وبينما كانا يتحادثان وردت مكالمة من مجلس الأمن القومي من المستشار بريجنسكي ولم يشأ تورنر أن يظهر الجو القذر لإدارة كارتر، لذلك استأذن وقام ليتلقى المكالمة من مكان آخر، واستغرب كايسي ذلك. كان هناك خلاف كبير بين تورنر وبريجنسكي، كان تورنر يتوقع أن السوفيات سوف يغزون بولونيا تحت ستار مناورات عسكرية. وكانت لديه صور من الأقمار الاصطناعية تظهر حشوداً للقوات السوفياتية على الحدود. وكان لديه عميل سري داخل بولونيا. شن بريجنسكي حملة إعلامية يحذر فيها العالم من الغزو السوفياتي ويحاول اخافة السوفيات، كما أنه أرسل للسوفيات تحذيراً عبر القنوات الدبلوماسية مع الهند وفرنسا ولكنه كان يطلب معلومات أكثر، وتورنر يرفض اعطاءه ذلك، لأنه في كل مرة كان بريجنسكي يكشف التفاصيل ويظهر كأنه واثق من معلوماته، كان يُعرِّضُ مصادر المعلومات للخطر. ولكن بريجنسكي كان مصراً على أن الادعاءات الأميركية يجب أن تكون معتبرة وصحيحة وأن لا يقوم الرئيس بتدابير سلبية. يجب حرمان السوفيات من السرية والمفاجأة.

(كان عنوان صحيفة الواشنطن بوست في اليوم التالي: القلق يتنامى حول الخطط السوفياتية في بولونيا) كما أن بريجنسكي هيأ مكالمات لعناصر نقابات التضامن في بولونيا يحذرهم فيها من الغزو المحتمل. وبدأ اعضاء النقابات يقفلون مصانعهم ويقطعون خطوط المواصلات.

انتظر كايسي وقتاً طويلاً في مكتب تورنر وشعر الإثنان بالحرج عندما عاد تورنر ولم يخف أحدهما مشاعره على الآخر.

قال تورنر: يمكن أن تجعل نفسك رمز البطولة في الوكالة. أخرج الفريق الانتقالي من مبنى الوكالة لأنهم يتحدثون عن وظائف مدنية في الوكالة وهذا شيء مخيف. لم يتجاوب كايسي وأوضح أنه يعرف الكثير عن الاستخبارات من خلال خبرته في مكتب الخدمات الاستراتيجية ومن السنة التي امضاها في مكتب استشارة الرئيس لشؤون الاستخبارات في الخارج.

ابتسم تورنر وفوجىء بأن كايسي لم يكن لديه أي ميل نحو الفلسفة. ألا يريد كايسي أن يعرف أن الاداة التنفيذية يمكن أن تقاوم الأعمال الخفية؟ وطرح كايسي أسئلة قليلة حول معدل العمل اليومي وميكانيكية العمل، وبعد ساعة وعشرين دقيقة وقف لينصرف.

بعد يومين (الخميس ١٠ كانون الأول/ ديسمبر) توجه تورنر إلى بلير هاوس وهو بيت الضيافة الرئاسي ليقدم إيجازاً حول الاستخبارات إلى ريغان وكايسي. وصل تورنر إلى غرفة في الطابق الأرضي وكان موضوع الإيجاز التوازن الاستراتيجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. طلب ميز من تورنر أن يسقط الموضوع بكامله لأن ريغان قال في حملته الانتخابية أن السوفيات متفوقون نووياً أو كانوا على مقربة من تحقيق التفوق، ووافق تورنر لأن إعادة تمثيل الحملة لا تعني شيئاً.

وهكذا صار الموضوع الأول الاقتصاد السوفياتي. قال تورنر إن الاقتصاد السوفياتي يعاني من مشاكل عديدة وإن السوفيات يعانون من المشكلة الديموغرافية وكثرة اليد العاملة، وتوقع تراجع معدل النمو السنوي من ٥٪ إلى ٢٪ وهذا يعتبر سقوطاً مذهلاً. ثم انتقل إلى العلاقات الصينية السوفياتية وبقي متلهفاً لإعادة الحديث عن التوازن الأميركي السوفياتي. وقال للرئيس المنتخب إن أهم قضية في التوازن الاستراتيجي ليست في عدد الصواريخ والقنابل أو القوة التدميرية للصواريخ والقنابل السوفياتية، بل في كيفية تأثير الأسلحة وعملها. إن هذا ليس مجرد حسابات وليس مجرد أرقام، لنحاولْ أن نعرف ما يحدث بعد تبادل الضربات النووية. بشكل عام، إذا وجه الروس الضربة النووية الأولى ثم انتقمنا لها بضربة نووية فإن القوى المتبقية في الجانبين ستكون متوازية. ثم قال: في الحقيقة أنه بعد الضربة الأولى من الاتحاد السوفياتي تبقى للولايات المتحدة أسلحة استراتيجية نووية كافية لتدمير جميع المدن السوفياتية التي يزيد عد سكان الواحدة منها عن مئة ألف نسمة.

وهذا يعني أن التفوق السوفياتي لم يكن حقيقياً وأن نقطة الضعف الوحيدة في هذا الحكم قد يكون في تقليل المحللين من إمكانيات التدمير السوفياتي في الضربة الأولى. ولكن تورنر شعر بأن تقدير المحللين كان صحيحاً، وهذه رسالة لنا لنقلق على سلامة صواريخنا الاستراتيجية وليس على عددها.

وكان هذا بمثابة هرطقة بالنسْبة إلى رونالد ريغان الذي قاد الحملة الانتخابية على أساس أن الولايات المتحدة متراجعة في هذا المجال بشكل خطير وأنه لا بد من زيادة الانفاق في المجال العسكري.

جلس ريغان وميز وآلن صامتين، والتزم كايسي الصمت أيضاً. إن نزع السلاح الذي كان يخفض عدد الأسلحة النووية إلى النصف كان هراء. ما هو الفرق؟ أن النصف الباقي يكفي لتدمير كل العالم. ثم عرض تورنر للدفاع المدني الذي كان هواية ريغان المفضلة، وقال في حملته الانتخابية إن السوفيات يبنون الملاجىء وإنهم يستعدون للحرب النووية. نعم أجاب ريغان: نحتاج إلى المزيد من ذلك (أي من الدفاع المدني).

ـ لا ياسيدي أنا لا أوافق. قال تورنر. لقد استنتجت وكالة المخابرات المركزية أن أقل من ١٠٪ من سكان الاتحاد السوفياتي يمكن تأمينهم في ملاجىء. وأن الخطط السوفياتية للاخلاء لم تكن مجربة. تخيل إخلاء ثمانية ملايين نسمة من موسكو في فصل الشتاء!

بعد الإيجاز وقف ريغان لينصرف وتوجه نحو الدرج فلحقه تورنر. نعم! قال ريغان وهو يبتسم ويقف على الدرج، إنه كان دائماً يصغي ويستمع.

سيدي، بدأ تورنر، هناك أشياء حساسة نقوم بها، وركز في عيون ريغان. كل رئيس منتخب عليه أن يتخيل أن هذه الأشياء موجودة. وكان ريغان ينظر إليه باهتمام. تابع تورنر: الرئيس كارتر حصر ذلك في البيت الأبيض بشخصين أو ثلاثة مثلاً هاملتون جوردان لا يعرف هذه الأشياء (كان جوردان أعلى مستشاري كارتر الاستراتيجيين ورئيس أركان البيت الأبيض). سيدي لم أتعرض لهذا بعد. أود أن أعطيك أنت ونائب الرئيس بوش فقط إيجازاً حول المواضيع الثمانية الحساسة التي نعالجها.

ـ بكل تأكيد، قال ريغان.

قال تورنر: «إن هذه الأمور ليست الأكثر أهمية بل الأكثر حساسية ويمكن أن تؤذي إذا تسربت». وتابع: «يمكنك أن تقرر مَن في البيت الأبيض مِن أركانك يُسمح له بالتعاطي بهذه المواضيع». وافق ريغان وانصرف تورنر.

تقدم كايسي نحوه وسأله: متى سيصدر التعيين، أجاب: في غضون ثلاث ساعات.

أسرع تورنر إلى سيارته الأولدزموبيل وعاد إلى مكتبه وشعر بأن من المهم أن يعرف أركانه المعلومات منه. وكان من عادته أن يستدعي في وقت واحد أربعة عشر معاوناً من كبار معاونيه مرة كل ثلاثة اسابيع الساعة التاسعة صباحاً، يجتمعون في غرفة مؤتمرات صغيرة مقابل مكتبه. ولم يكن تورنر معجباً بغرفة المؤتمرات لأن له فيها ذكريات مزعجة حيث عرض عليه معاونوه قرارات صعبة حول أمور هامة. ونادراً ما كان أحد الحضور يلم بالموضوع بشكل كافٍ.

انتقل تورنر إلى غرفة المؤتمرات وتلا بيانه وكان حزيناً.

في ذلك اليوم بعد الظهر وصل كايسي إلى قاعة اجتماعات فندق ماي فلاور في مدينة واشنطن ووقف مع سبعة من الذين عينهم ريغان في حكومته أمام شاشة زرقاء وأدلى جيمس برادي الناطق باسم الفريق الانتقالي بتصريح الرئيس المنتخب.

في ذلك المساء دعت كاترين غراهام رئيسة شركة الواشنطن بوست إلى عشاء على شرف الرئيس في منزلها في جورج تاون. وكان بيل وصوفيا كايسي من ضمن المدعوين السبعين. وجلس كايسي مع ماري غراهام زوجة ناشر الواشنطن بوست دونالد غراهام وجلست نانسي كيسنجر زوجة وزير الخارجية السابق هنري كيسنجر إلى الجانب المقابل. كان مليئاً بالحيوية والحماسة وتكلم قليلاً عن الحملة الانتخابية.

- ٣ -

توجه كايسي لمقابلة مدير وكالة الأمن القومي بوبي انمان. كانت هذه الوكالة دائرة صغيرة من الأسرار: التقاط اتصالات وحلّ شيفرة. قال كايسي في بداية الحديث: «أنا أعرف أنك كنت على وشك أن تصبح نائب المدير وأنك رفضت ذلك». أجاب انمان: «أنا أعتذر» وأضاف إنه لم يكن مرتاحاً في الأسابيع التي تلت الانتخابات لا شخصياً ولا في عمله لأن غولدووتر وآخرين دفعوا به إلى منصب مدير المخابرات المركزية.

وأشاد انمان بمديرية الأمن القومي فهي مؤلفة من ٤٠ ألف رجل منتشرين حول العالم في مراكز تنصت وفي مركز القيادة في فورت ميد في ولاية ماريلاند.

وتعتبر مديرية العمليات من الأقسام الحساسة ومن ضمنها مجموعة السوفيات وهي مؤلفة من ألف عنصر معظمهم من المدنيين ومركزها فورت ميد. معظم هؤلاء يتكلمون اللغة الروسية ويقرأونها. وتوصلت الوكالة إلى أفضل معلومات حول السوفيات عن طريق التقاط المكالمات، وبالإجمال يمكن للوكالة أن تعلم عندما يخطط السوفيات لعمل عسكري رئيسي. وهناك مجموعة أخرى لالتقاط المكالمات في آسيا ومجموعة للالتقاط في جميع أنحاء العالم. وكانت لائحة البلدان المطلوب التنصت عليها تزداد، وكل وزير خارجية أو مستشار لشؤون الأمن القومي كان يريد المزيد، ويطلب أن يعرف ماذا يفعل الطرف الآخر.

وركز انمان على استثمار هذه الالتقاطات. كانت هناك مناطق كثيرة من العالم غير مغطاة، وكانت الوكالة تواجه طرق تشفير جديدة ومعقدة يستعملها السوفيات وغيرهم. ويتوجب انتظار الوقت الملائم لالتقاط المكالمات وحل الشيفرة وتوصيل المعلومات إلى مستعمليها. كما ركبت معدات تنصت على الأقمار الاصطناعية يمكنها إرسال المعلومات الملتقطة فوراً. وقال انمان إنه في الأزمات يمكن للاستخبارات أن تعتمد على آلة التسجيل أو الكومبيوتر أو أن تنتظر الترجمة. لم يكن هناك وقت استماع دائم كأن يكون هناك شخص ما في مكان ما مع هاتف وهو جاهز دائماً لإرسال المعلومات الملتقطة. لم يكن هناك عدد كاف من العناصر لذلك. يتم اختيار الالتقاطات المتدفقة بواسطة كومبيوتر مبرمج على الكلمات الهامة والأسماء الهامة.

سأل كايسي أسئلة عديدة وكان متأهباً دائماً على الرغم من مظهره المبعثر. ولم تكن

أسئلته حشراً في الزاوية كما كان يفعل تورنر. ترك كايسي اثمان وفي ذهنه تخوف من أن يحدث فشل في الاستخبارات مماثل للذي حدث في بيرل هاربور عندما لم يطلع الرؤساء المسؤولون على الرسائل الملتقطة من اليابانيين لأنها لم تُسلَّم إليهم. في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ذهب كايسي إلى شارع F حيث مكاتب تورنر في مجموعة الاستخبارات. قال تورنر إن لديه بعض المواضيع الهامة يودُّ أن يشرحها، عندها اعتقد كايسي أن تورنر ما يزال يقاتل في معركة خاسرة ومال إلى عدم الاصغاء إليه.

قال تورنر إنه يريد أن يتحدث عن الكلمات المشفرة. إن نظام تقسيم المعلومات الحساسة إلى فئات كان مربكاً، وقد استعملت عشرات الكلمات المشفرة لتعبر عن العمليات وعن الإمكانيات في الوقت نفسه. واتبع نظام التشفير نفسه في وكالة الأمن القومي وفي الاستخبارات البحرية وحتى في مديرية العمليات في وكالة المخابرات المركزية. وقال تورنر إن حوالي ٥٠ ألف شخص كانوا يعرفون سر الشيفرة، أضف إليهم جميع عناصر مصنع أجهزة الاتصال والتشفير، والمتعهدين العشرة الذين ركبوا الأجهزة، وجميع عناصر الاتصالات. ورقم ٥٠ ألف لا يشمل الذين عرفوا سر الشيفرة ثم نُقلوا إلى وظائف أخرى.

قال تورنر إن لديه طريقةً لخفض المعلومات إلى خمس كلمات مشفرة تكون سرية جداً، وكان لهذه الطريقة اسم Apex وكلمات الشيفره الخمس هيPhotint وتشمل الأقمار الاصطناعية وطائرات التجسس وComint وتشمل جميع الاتصالات الملتقطة وHumint وتشمل جميع المصادر البشرية وTechint وتشمل جميع المسائل التقنية وRoyal وهي كلمة شيفرة مخصصة للتقنيات الخاصة أو العمليات الخاصة والحساسة والتي تحصر بأقل من مئة مسؤول كبير.

تعجب كايسي كيف أن ذلك يمنع الاختراق. فهل أن عمل أي شخص مع المصادر البشرية في أحد البلاد يسمح له أن يتعرف إلى المصادر البشرية في مختلف البلدان؟ لم يسأل كايسي هذا، وكان تورنر يثور ويتحمس وهو يعرض Apex وكأنه اكتشف الوصايا العشر.

قال تورنر إن وكالة الأمن القومي كانت تحاربه لأن Apex تعطي مدير وكالة المخابرات المركزية السيطرة على جميع الاتصالات الملتقطة. ورأى كايسي في تورنر رجلاً جعل حياته صعبة وظهرت عليه علائم الهزيمة وعدم الاستقرار، وبدأ يروج أنه لم يفقد السيطرة على الوضع، حتى ولو أنه ما زال، بعد سنواتٍ أربع، على خلاف مع وكالة الأمن القومي حول العناوين وساحات الصراع.

لم يكترث كايسي للعناوين، ولم تكن هذه مسألة استخبارية بالنسبة إليه. وتخيل أنه يحتاج إلى مزيد من تجزئة الأسرار ومزيد من الكلمات المشفرة للمحافظة على الأسرار، وهكذا أربك تورنر نفسه، وضحك كايسي لذلك.

وتابع الأميرال تورنر: «لقد طلبت جعل الاستخبارات الاقتصادية علنية»، وكان له

مساعدان في المجموعة الاستخبارية وحوالى مئتي موظف أركان، وأحد المساعدين كان للموازنة والآخر لوضع أفضلية العمل.

كان كايسي يود أن يعرف المزيد: حسناً من برأيك سيكون نائبي؟ وكانت معه لائحة من ثلاثة أشخاص: فريد ايكل (خبير بالدبابات وبنزع السلاح). ألا تعرفه؟ قال تورنر.

وهانك نوش؟ أجاب تورنر: لايقدر على القيام بالوظيفة. وكان نوش مساعداً لتورنر لبعض الوقت.

اغمان؟ رجل قادر، قال تورنر. ولكن هناك سيئتان بعيدتان فيه. الأولى أنه كان يقاوم بصلابة وجود مدير قوي لوكالة المخابرات المركزية وأنت ستكون مديراً قوياً وهذه هي المشكلة، والثانية إذا أخذت بعين الاعتبار التنافس القوي بين وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي فإن لوكالة المخابرات المركزية شكوكاً حوله.

شكر كايسي تورنر ثم انصرف. وكان انطباع تورنر أن كايسي مستمع جيد.

لم يقرر كايسي بعد من سيكون نائب المدير. وركز في مباحثاته مع تورنر على أن اغمان هو مدير قوي وصلب لوكالة الأمن القومي وإذا جاء اغمان إلى وكالة المخابرات المركزية يمكن بسهولة أن تتحول سيئاته إلى حسنات. إن اللاعب النجم في الفريق المنافس يمكن أن يصبح بطلاً في فريقك. قرر كايسي أن يجتمع مع فرانك كارلوتشي وهو مساعد بيروقراطي قديم وعمل ضابط خدمات خارجية، ونائباً لوزير الصحة والتعليم والرخاء، ونائباً لمدير مكتب الموازنة، وسفيراً في البرتغال.

تساءل كايسي: من سيكون نائب المدير؟ وكان يعلم أن كارلوتشي سيترك الوكالة ليصبح مساعداً لوزير الدفاع وينبرغر. قال كارلوتشي: هناك شخص واحد فقط هو بوبي اغمان وإذا لم تختره فسأقوم أنا وكاسبار وينبرغر بإعادة تنظيم وكالات الاستخبارات في وزارة الدفاع ومن ضمنها وكالة الأمن القومي لوضعه أمام الأمر الواقع. وكان كايسي يريد أن يكون اغمان تحت سلطته في وكالة المخابرات المركزية.

قبل الميلاد ذهب كايسي إلى لانغلي ليقابل تورنر مرة ثانية، وسلمه تورنر نسخة عن تقرير للوكالة حول سوء معاملتها لأحد عناصر المخابرات السوفياتية KGB يوري نوسنكو في الستينات. كان تورنر يعتقد بأن هذه هي من أكبر جرائم الوكالة. فقد اشتبه فيه عناصر الوكالة وظنوه عميلاً مزدوجاً، أرسل إلى وكالة المخابرات المركزية ليزودها بمعلومات تثبت عدم وجود أي علاقة للمخابرات السوفياتية بقاتل جون كينيدي لي هارفي أوزوالد. وسجن نوسنكو في زنزانة (ثمانية أقدام بثمانية أقدام) لمدة ١٢٧٧ يوماً، أي أكثر من ثلاث سنوات، سجنته مجموعة خبراء مكافحة التجسس التي كان العميل السوفياتي مزروعاً فيها. قال تورنر: «من المهم أن تقرأ هذا التقرير ومن المهم ما يمكن أن يحدث وما يحدث خطأً». ولم يكن تورنر واثقاً من أن ذلك لن يحدث ثانية.

تقبل كايسي التقرير، وتبين له أن تورنر يريد الإسهاب في شرح أحداثٍ مضى عليها عقدان من الزمن. وأعطاه تورنر لائحة بأعلى عشرين أو خمس وعشرين وظيفة في الوكالة، وبتوصياته حول الموظفين، وبمرشحيه الأول والثاني والثالث لكل وظيفة، وخاصة وظيفة مدير العمليات. وقال تورنر إنه سيقوم بآخر رحلة له إلى الخارج كمدير لوكالة المخابرات المركزية، وستكون رحلته إلى الصين لإنهاء اتفاق سري جداً لتركيز نظام لمراقبة الصواريخ السوفياتية بدلاً من الذي فقد في إيران. وكان يسافر باسم مستعار وتقرر أن يرتدي أزياء مموهة ومن ضمنها شوارب مستعارة.

واصل كايسي اجتماعاته مع الفريق الانتقالي لوكالة المخابرات المركزية. وعلى الرغم من نزعته نحو الأفكار الجديدة وحبه للمخاطر إلا أنه تعلم من المناصب الحكومية التي شغلها أن يتحرك ببطء وأن يفكر ملياً قبل أن يقرر. وهذا ما نصحه به صديقه المقرب وزميله القديم في الحقوق ليونارد هول الذي كان رئيساً للجنة الجمهوريين القومية خلال عهد ايزنهاور، وكان مدير حملة إعادة انتخاب ايزنهاور عام ١٩٥٦. وكان هول قد توفي السنة الفائتة، ولكن خلال الأعوام الخمسة عشر الماضية كان لهما لقاء مشترك على الغداء في مطعم ايطالي في لوكاست ڤالي في لونغ ايلاند كل نهار سبت. علمه هول أن يتصل بالناس، العمال، والسكرتيرين، والجميع إذا أمكن. ولكن الدرس الحقيقي كان «الحذر والتعقل». والآن وبعد رحيل هول، من سيشير عليه بالحذر والتعقل؟

اتجه كايسي نحو جون بروس الذي كان يعتقد بأن اقتراحات الفريق الانتقالي تافهة، وأن التغطية غير الرسمية للعملاء السريين في الخارج ستحولهم إلى مجموعة من المسافرين ولن يكون لهم أي اعتبار أو أي مصداقيّة لدى الرسميين الأجانب. يجب أن تقاد عمليات التجسس من مركز قوة. إن هيبة حكومة الولايات المتحدة يجب أن تكون موجودة، وذلك لن يكون إلا إذا كان للجواسيس غطاء دبلوماسي. كيف يمكنك أن تجري اتصالاً مع واشنطن بشكل آمن من دون تغطية من السفارات؟ وكيف ستحفظ الملفات السرية في غرفة في فندق هيلتون في المدينة؟ وقال بروس إن البلهاء من الفريق الانتقالي كانوا يحاولون أن يبيعوا لكايسي فاتورة بضاعة من رواية حول التجسس أو من رواية رومنطيقية من العصر الذهبي الماضي للتجسس. حسناً، إنها غير موجودة، ولن توجد. إنها ليست قضية تدمير مركز قيادة الدكتور نو. الروس موجودون في جميع الانحاء، وسوف يبقون. إنها لعبة دائمة وماكرة.

تراجع كايسي ورأى صحة آراء بروس ولكنه قرر أن يختبر الأمور أولاً.

قال له بروس: تعال يا بيل (بيل اسم الدلع لوليم)، من المؤكد أنك ستجد حلاً شاملاً.

انتهى آخر تقرير انتقالي في ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر وفي يوم الميلاد أخبر كايسي بروس أن صفحة الفريق الانتقالي قد طويت وصار مجمعاً للنقاش وأنه حان الوقت ليرسم خطة عمله.

وارتاح بروس فقد ماتت الساحرة الشريرة.

بعد رأس السنة الجديدة التقى كايسي وبروس على الغداء في نادي المتروبوليتان وهو من أكبر أندية واشنطن.

قال كايسي إن الأفضلية المطلقة هي للتقدير بشكل دقيق في ما يتعلق باستحقاقات المستقبل، أن نقدِّر كل شيء، وليس فقط حاجتنا إلى التحسين. الاستخبارات تؤدي إلى التقدير وسيحدد ذلك نقطة الضعف في مصادرنا ونقطة الضعف في العاملين. والتقديرات هي صلة الوصل مع البيت الأبيض ومع الرئيس أي مع صانعي السياسة. وافق بروس.

قال كايسي: لقد دفع لي مرة ٦٠٠ ألف دولار في السنة لكي أنظم ملخصات ضرائب ويوميات. (كان يغالي في مدخوله السنوي). أن آخذ المعلومات أغليها وأصفيها إلى الضروري، هذا ما أقوم به جيداً.

آه فكّر بروس، وصعق لأن كايسي شعر بحاجة إلى التفاخر. قال كايسي إن التركيز على التقدير يسمح له بإقامة علاقات شخصية مع رؤساء الاستخبارات في الدولة، الاستخبارات العسكرية ووكالة الأمن القومي، ومكتب التحقيق الفدرالي، لأن تورنر كان على خلاف مع كل منها، قال ذلك بسخرية.

الأفضلية الثانية كانت للحصول على أمر تنفيذي من الرئيس يحدّ من القيود على جمع المعلومات. الأفضلية الثالثة هي للحصول على مال أكثر وأشخاص أكثر للمخابرات، والمشكلة الآنية كانت العنصر البشري. كان كايسي يريد أن يطلع على وجهة نظر بروس حول المراكز الأساسية؟

قال بروس إن انمان يجب أن يكون نائب المدير لأنك تحتاج إلى شخص يحافظ على نفسه في مباحثاته مع وزارة الدفاع، وسيُجري ذلك ببرودة، وفي وزارة الخارجية سيكون له الاحترام كعسكري معتدل. وغولدووتر في جيبه وهو بحكم الولد المدلل في الكونغرس.

أومأ كايسي برأسه، لكنه كان واضحاً أنه ما يزال متردداً.

ـ لِمَ لا؟ سأل بروس

ـ لسبب واحد، هو أنه لا يريد الوظيفة

ـ إن بوبي رجل عسكري وسيفعل ما يُطلب منه. قال بروس. ويمكن لنجمة رابعة أن تجعل ذلك مرغوباً لديه.

تمتم كايسي بكلمات وتحوّلت المحادثة إلى وظائف أخرى. ما رأيك بمساعد تنفيذي لي؟

ـ إنه أفضل اختيار يمكنك اعتماده. قال بروس، وأنت تحتاج إلى شخص يعرف كيف تجري الأمور، إلى مَن يعرف مجلس الأمن القومي والأركان ومراكز القوى والأوراق ويعرف وزارة الدفاع ووزارة الخارجية معرفة وثيقة.

طلب كايسي من بروس أن يبحث له عن الشخص المناسب. لاحظ بروس أن كايسي

بدأ يعاني من مرض سماه «سأنعش المكان بإحضار رجالي» وكان هذا دونوڤان الحقيقي. لقد أبعد بعض الرجال الظرفاء وبعض مَن كان في المراكز الثانوية. وعلم بروس أن شخصيات غريبة ستظهر على السطح وأن بعض غريبي الأطوار سينجزون العمل، فمعظم العظماء لا يتخرجون من المدارس الكبرى.

نريد أناساً لهم خبرة واسعة في التجارة والأعمال. قال كايسي، نريد أن نحضر أناساً من الخارج وسأدبر وظيفة لهوغل وهو يختصر اسم ماكس هوغل.

وسأله بروس: مَن هو هذا؟

أجاب كايسي: هوغل.

ولم يكن بروس قد سمع بهذا الاسم من قبل.

وقرّر كايسي أن يفتش عن وظيفة لماكس هوغل في وكالة المخابرات المركزيـة، وهو رجل أعمال ناجح عمل معه عن قرب في الحملة الانتخابية الرئاسيّة. وجنّد هوغل عدداً من العمال من الأقليات ومجموعات كبيرة من الناخبين. هنالك وظائف كثيرة قال بروس.

واتفقا على أن ينتقل بروس إلى مكتب بجوار مكتب كايسي بعد أن يتسلم الوظيفة رسمياً حيث يمكن أن يراقب ويساعد على تعيين المساعد التنفيذي المثالي لكايسي.

عاد كايسي إلى لانغلي، وطلب أن يوجز له عن بعض كبار مساعدي تورنر. وسأل كايسي: ما كان يجري خلال سنوات كارتر؟

هل كانت مديرية العمليات مهترئة؟ وطلب التفاصيل.

قال الموجزون: كان هناك ثلاثة أوجه للعمل الخفي خلال السنوات الأربع الماضية. الوجه الأول كان الإعلام، وهو أول شكل من الأعمال الخفية وهـو الأكثر ضراوة. كـان بريجنسكي مولعاً بشحن الكتب إلى البلدان الشيوعية. وشمل برنامج الكتب تهريب آلاف الكتب والمنشورات إلى ما وراء الستار الحديدي. وهذا ما لم يُغيّر وجهة سير التاريخ، ولكن كان هنالك شعور بأن تعاليم الديموقراطية يجب أن تكون متوفرة.

ذهل كايسي من هذا العمل ولاحظ أن تورنر توسّع بشكل دراماتيكي في الـبرامج الإعلامية. وسأل: ماذا أيضاً؟

الوجه الثاني من الأعمال الخفية كان توطيد العلاقات مع الدول الصديقة وبخـاصة بريطانيا والسعودية. والعملية الأساسية في ذلك كانت عملاً شبه عسكري لدعم برنامج الإطاحة بالحكومة الماركسية في اليمن الجنوبية المدعومة من الاتحاد السوڤياتي. وكانت العملية في طريقها إلى التنفيذ، وبدأ تدريب فرق اليمنيين على نسف الجسور، ووصف تورنر العملية بأنها طائشة، وكلّف نائبه فرانك كارلوتشي بالإشراف عليها.

ـ لماذا؟ سأل كايسي.

شعر كايسي أن كارتر كان متلهفاً لإرضاء خواطر البريطانيين الذين كانوا وراء عملية

اليمن الجنوبي. وقلق لأن وكالة المخابرات المركزية كانت تشارك جهاز الاستخبارات الخارجية البريطانية، الذي كان مخترقاً، بعض المعلومات السرية.

ـ وماذا أيضاً؟

الوجه الثالث كان دخول إدارة كارتر في مواجهة الغزو السوفياتي لأفغانستان عام ١٩٧٩، في برنامج سري وعملية دعم شبه عسكرية واسعة النطاق. وكان بريجنسكي المتشدد يعتقد بأن السوفيات تمددوا زيادة عن اللزوم، وكانت أفغانستان بمثابة فيتنام لهم، وأراد بريجنسكي استغلالها بجرأة ودون رحمة قائلاً: دعْهم ينزفون.

ـ وما كان موقف تورنر؟

تعجّب تورنر وقال: هل من المسموح أن نستعمل حياة الناس لتحقيق المصالح الجيوبوليتيكية للولايات المتحدة. لأول مرة تقتل أسلحة وكالة المخابرات المركزية وحدات نظامية من الجيش السوفياتي. بلغ عدد السوفيات في أفغانستان ٩٠ ألفاً، وقلق تورنر من أن الولايات المتحدة كانت تريد أن تقاتل حتى آخر أفغاني! ولكنه دعم العملية حتى النهاية. ودعمت كل من السعودية ومصر وباكستان والصين المقاومة الأفغانية وكانت كلفة هذا الدعم حوالى ١٠٠ مليون دولار.

حُدِّد موعد لكايسي في لجنة استخبارات مجلس الشيوخ يوم الثلاثاء في ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨١ للاستماع إليه وتثبيته في وظيفته. وكانت هذه خامس جلسة تثبيت له. وتعلّم أن لا يستعمل الأمكنة العامة لعرض آرائه وأن لا يذهب دون تحضير مسبق. قبل عشر سنوات وخلال جلسة تثبيته كرئيس للأمن والتبادل تعرض تعيينه للخطر عندما اضطر إلى الإدلاء بشهادة حول دعوى انتحال أقيمت ضده. كانت ذكريات غير سارة.

هذه المرة، حضّر كايسي نفسه جيداً، ذلك أن منصب مدير المخابرات المركزية كان أساسياً، وأعَدَّ خطابه بعناية وقسّمه إلى ٤٠ مقطعاً ليتجنب الارتباك. وهذا ما يؤدي إلى التخفيف من التعهدات، والتأكيد للشيوخ أن الأمور لم تقرّر بعد. من السهل أن تقول القليل لأن الشيوخ يحبون أن يستمعوا إلى أنفسهم وهم يتكلمون.

وصل كايسي ذلك الصباح وهو يرتدي بزةً غامقة اللون غالية الثمن. ودعا غولدووتر اللجنة إلى الاجتماع الساعة العاشرة صباحاً. تولى نائب رئيس اللجنة السناتور دانييل باتريك مونيهان وهو ديموقراطي من ولاية نيويورك، تقديم كايسي. بدأ مونيهان الأكاديمي الطبع كلامه المعسول. كن مخلصاً لدولتك يا ابن نيويورك. وأضاف: إن كايسي خدم بشكل أو بآخر جميع رؤساء أميركا منذ فرانكلين روزفلت. وهدفه في الحياة معروف ويشيد به الفرنسيون، وإن بيل كايسي سيكون بالتأكيد آخر عضو في مكتب الخدمات الاستراتيجية يدير وكالة المخابرات المركزية.

جلس كايسي على المقعد المخصص للشاهد وهو غير مرتاح، وحدّق بحذر، وحرّك

يديه باحثاً عن أي شيْ يشغله. وتكلم غولدووتر. هناك خطأ ما، لم يكن هناك استخبارات كافية، ولم تكن جيدة. إن تحقيقات الكونغرس كبحت نشاطات الاستخبارات في العالم. وخصوصاً لجهة استغلال بعض الفرص والأهداف، وأمضى عدد من العاملين وقتاً كبيراً في تنظيم مذكرات للدفاع عن أنفسهم عند أي تحقيق أو انتقاد لأعمالهم.

وبعدما تكلّم ثلاثة شيوخ آخرين، تكلّم كايسي، وحدد أهدافه بإعادة البناء وإنجاز الأعمال والأمن. تعاني وكالة المخابرات المركزية بشكل خاص من التشكيك فيها ومن أن كثيراً من ضباطها تقاعدوا أو هم على مقربة من التقاعد. إن معنويات الوكالة متدهورة. تحدّث عن التردد والطرق الملتوية في التعبير، وعن الأسلوب الدفاعي، وعن العلاقات والثقة والشرف. وأضاف هذا ليس وقت هزة بيروقراطية أخرى للوكالة، قال ذلك بقوة. إن ما قيل عن فشل الاستخبارات في السنين الماضية كان من جراء السياسة الخاطئة. ووعد بأن يقدم المعلومات وجميع الآراء للرئيس وتعهد بالعمل بشكل وثيق مع الكونغرس. وأعطى كايسي إعادة البناء لليمين والحريات المدنية لليسار. كان انتصار ريغان الساحق قد أربك الديموقراطيين، وقد عرض مونيهان ذلك، فكان عليهم أن يمشوا على الخط بنعومة. لم تعد هناك أية محاولة لنزع أحشاء الوكالة، ولا اتهامات كاتهامات فرانك تشرش الذي قال عنها إنها فيل متوحش. لم يؤمن مونيهان بهذا الأسلوب. إن وجود وكالة مخابرات مركزية فعالة كان ضرورياً وأساسياً للأمن القومي، وشعر مونيهان بأن ليس لديه أوهام حول السوفيات الذين يلعبون بقذارة.

أبدى مونيهان بعض القلق حول أعمال الوكالة. عندما كان سفيراً في الهند من عام ١٩٧٣ إلى ١٩٧٥ انغمس رئيس محطة الوكالة عنده مع الحكومة الهندية في الملفات الخاصة والمهمة، إلاّ أن القادة الهنود كانوا ينفذون أشياء غير مكتوبة في الملفات وكانت الوكالة بحاجة إلى تعامل سليم. وعندما أتى دوره للسؤال، أعاد مونيهان الأذهان إلى القانون الذي يطلب من مدير الوكالة الاستمرار في إطلاع اللجنة على نشاطات الاستخبارات. وقال مونيهان إنه في بعض الحالات يمكن للمدير إطلاع رئيس لجنة الاستخبارات ونائبه في مجلسي الشيوخ والنواب، وذلك في الظروف غير العادية التي تؤثر على المصالح الحيوية للولايات المتحدة، وللمحافظة على سرية القضايا الحساسة.

قال مونيهان: «هناك الآن، على أي حال، منطقة رمادية» ورفع صوته وانحنى إلى الأمام ونوّه بأن القانون يقول إن ذلك من واجبات الرئيس في ظل الدستور، ويشترك الكونغرس في المسؤولية التنفيذية للحماية من خطر كشف المعلومات السرية أمام أشخاص لا علاقة لهم بها، أو البوح بمصادر وطرق الاستخبارات.

وهكذا بما أننا نعرف ما يجب فعله، وكيفية تكامل هذا الفعل، فإن الخطر يكون حيث لا يكون هناك تكامل. قال مونيهان: «إن بعض الملاحظات يجب الأخذ بها ويجب إطلاعنا

عليها». ما هو موقف كايسي من هذا الوضع الغامض؟ لأنه كما تعلم ـ والكلام لمونيهان ـ قد اتهمتَ سابقاً بعدم تقديم مواد للكونغرس مطلوبة منك، وهي ملفات البرقيات والمكالمات الهاتفية ونحن نظرنا إلى هذه المسألة قبل الجلسة. واتّصلت بالسيد سبوركين، وأخرج من جيبه رسالة من سبوركين الذي كان المدّعي العام في جهاز الأمن والتبادل. وكان مونيهان ينتظر القذارات من سبوركين لأنه خصم كبير للديمقراطيين. وتحدّث سبوركين في رسالته عن تحليل كايسي المتفهم وقراره الحكيم. وهكذا أصبح كايسي خارج الصنارة ولم يسأل مونيهان أي سؤال آخر عن الماضي، وتحدث عن المستقبل. كيف تشعر إزاء إبلاغ اللجنة أشياء نحتاج إلى معرفتها ولا يعرفها أكثر من شخصين في العالم.

ـ «حسناً أيها السناتور» أجاب كايسي: «لا أستطيع أن أتخيّل نفسي في أي ظرف يمكن أن يؤدي إلى عدم قدرتي على تزويد اللجنة بما تحتاجه من المعلومات». قال مونيهان: حسناً، شكراً. وهو يعتقد أنه حصل على الاعتراف الكامل. سمعتك تقول إنك لا تتخيل أيَّ فرصة لا يمكنك أن تشاركنا فيها بالمعلومات.

وأعاد كايسي الكلام بلطف. لقد قلت إنني لا أستطيع الآن أن أتخيّل. وابتسم مونيهان وقال: لِمَ تقول إنّك لا تتخيَّل الآن، هل ذهبت إلى مدرسة الحقوق في فوردهام؟ وجاء دور كايسي في الابتسام. لقد ذهب إلى فوردهام كطالب لم يتخرج بعد وكانت مدرسة الحقوق في سان جون، لكنه لم يصحح للسناتور.

وأجاب كايسي بذكاء عن بقية الأسئلة. وحاول أن يبقي إجاباته ضمن كلمة أو جملة. وجواباً عن سؤال حول التعبير الرائج: «حان الوقت لإطلاق العنان لوكالة المخابرات المركزية» قال: إنه لم يستعمل ذلك التعبير. وحول أمر تنفيذي جديد محتمل قال إنه لم يقرر بعد. وحول ما فعله منذ الانتخابات قال إنه أمضى وقته باستعادة خبراته القانونية وتقدير خسارته المالية في دعم الحملة. وحول الفريق الانتقالي المختص بوكالة المخابرات المركزية قال إنه مخلوق ذو خلية واحدة. وعن قضايا التدبير أجاب بأنَّ أسلوبي العام في ذلك هو أن نضع الأهداف ونعطي الناس صلاحيات للسعي وراء هذه الأهداف والتمسك بتحقيقها، وعدم التطرّق لتفاصيل التدبير، وإذا لم ينجزوا أعمالهم يجب عندها استبدالهم.

عندما ألمح السناتور جوزيف بايدن وهو ديموقراطي من ولاية ديلاوارا إلى أنّهم لا يفهمون عليه، وطلب من كايسي أن يقرّب الميكروفون إلى فمه، فعل كايسي ذلك وقال إنّه الآن في حضني.

وكان لغولدووتر بعض الأسئلة. هل تفكر الآن بنائبك؟ ثمّ أضاف: من الواجب إعلامك بأنَّ الأميرال انمان يتمتع باحترام وتقدير لجنتنا. ثمّ وجه كلامه إلى اللجنة: لا نريد أن نرى سياسياً في منصب نائب المدير وأظن أنَّ الأميرال انمان سيكون إضافة ممتازة. قال كايسي: آمل أن يجد طريقه ليأتي، وهو يعني بذلك أنَّ الوظيفة له إذا أراد.

قال غولدووتر: أنا أثير هذه النقطة لأني قرأت أنَّ هناك بضعة مرشحين لمنصب نائب المدير ولم أسمع كلمة عن أي منهم. ونحن نعرف بو بي اتمان.

ـ لم أر هذه القائمة، قال كايسي وهو يرد على غولدووتر، أريد الحصول عليها، يمكن أن يكون أحدهم جيداً. وأجابه غولدووتر: «حسناً، لن أخبرك أين قرأتها».

وشدد بايدن على محاسبة العناصر، فرد عليه كايسي بأنَّ المحاسبة القاسية والدقيقة تؤدي إلى الكمال وأظن أنّه يجب تنظيم ذلك. وتحولت أسئلة بايدن إلى مقاطع ناقشها كايسي بسرعة. وعندما تطرق بايدن إلى موضوع انمان قال: هو الشخص المحترم الذي لم يمثل أمام هذه اللجنة، وأضاف: إذا حصل انمان على منصب نائب المدير، عندها لن تحصل أية مشكلة، أرسله إلى هنا فهو يعرف طريقه إلينا.

يمكن لكايسي أن يحصل على انمان وهو الرجل الصالح لمواجهة اللجنة إلاَّ أنَّه لم يقرر ذلك حتى أمام اللجنة لأنَّه ركز على تحسين صورته وخاصة في المجال المالي.

قبل أن يذهب ريغان إلى مكتبه تابع كايسي يوميات الاستخبارات وخاصة قضية الرهائن الأميركية في طهران. وعرف أهمية وكالة الأمن القومي التي كانت تلتقط الرسائل بين الجزائر وإيران. فالجزائر دخلت في المفاوضات كوسيط ومن المهم أن لا يحصل سوء تفاهم، وأن يتلقى الإيرانيون والجزائريون معلومات دقيقة حول موقف الولايات المتحدة. وكان هدف الالتقاط هو التأكد من أنَّ الإيرانيين والجزائريين كانوا يعرفون بالضبط ما تقوله الولايات المتحدة. وكان الوسطاء غالباً ما يعمدون إلى تغيير المواقف، فيعود المفاوض الأميركي ليصححها.

أعجب كايسي بهذا النوع من الدعم الاستخباري للبيت الأبيض، ولاحظ أنَّ مدير وكالة الأمن القومي كان على اتّصال مباشر بالرئيس والآخرين في البيت الأبيض.

وكان كايسي يراقب بولونيا كبقية عناصر المجموعة الاستخبارية. لم يتحقق الغزو السوفياتي المنتظر. وقدمت وكالة المخابرات المركزية تفاصيل حول خطة التحرك السوفياتية تتضمن لوائح عن الوحدات التي كان من المفترض أن تغزو بولونيا. وبعض هذه اللوائح سر بها الكولونيل الذي يعمل في الأركان البولونية. ومن المعروف أنَّ التحرك يتطلب شاحنات ووسائل نقل من روسيا باتجاه الغرب. إلاَّ أنَّ صور الأقمار الاصطناعية لم تظهر شاحنات تصل إلى الحدود البولونية. ربما كان حشد القوى عملية إظهار قوة أو ابتزاز الغاية منه إرغام الحكومة البولونية على التشدد في سياستها إزاء نقابات التضامن. ومن المحتمل أيضاً أن يكون تحذير بريجنسكي العلني والتحذيرات السرية عبر القنوات الدبلوماسية قد أخافت السوفيات. وعلى الرغم من صور الأقمار الاصطناعية ومعلومات الكولونيل البولوني ومعلومات أخرى فإنّه ما يزال هناك بعض الغموض.

راقب كايسي بذعر كيف تغلب تورنر على المصاعب الاستخبارية الباقية في عهده.

وكان ذلك في التقرير السري جداً حول التوازن الاستراتيجي والذي عرض إمكانيات ونوايا الاتحاد السوفياتي. أرسل تورنر نسخة إلى كل الأشخاص المهمين في مجلس الأمن القومي ومسؤولي الاستخبارات ومن ضمنهم الرئيس. هذه التقديرات كانت وثائق لمدير الوكالة ولأن مدير وكالة المخابرات المركزية هو مدير المخابرات المركزية لم تخرج الوكالة أبداً من سيطرة المدير. وجد كايسي أنَّ وجهة نظر تورنر خطياً ليست أفضل منها شفهياً. كما أنَّه وجد خطأً في آراء تورنر، فعلى الرغم من أنَّه يمكن أن يكون للولايات المتحدة قوة نووية كافية بعد الضربة السوفياتية الأولى، فإنَّ الردع الأميركي أيضاً سيكون فعالاً.

شعر كايسي بأنَّ تورنر كان يحلل، ويبعد السيئات الأميركية. إنَّ الأفكار الخطية والشفهية لم تكن بدائل للتفوق العسكري. إنَّ تأثير أي تقدير في صنع السياسة يكون بالاشتراك مع آراء وكالات الاستخبارات ومدير المخابرات المركزية.

أراد كايسي أن يتحمل آخر مواجهة مع المدير الذاهب، يوم الخميس في ١٥ كانون الثاني/يناير أي قبل خمسة أيام من حفلة التسلم والتسليم. عرض تورنر الأسرار النهائية لريغان وبوش وكايسي. ولم يكن الاجتماع بناء لطلب ريغان بل بناء لإصرار تورنر.

كان ذلك الصباح بارداً، وانضم بوش وكايسي إلى ريغان في غرفة خاصة في بلير هاوس للاستماع إلى الإيجاز. قال تورنر إنَّ أهم عمل خفي هو الدعم الخفي للمقاومة الأفغانية. وكانت الوكالة قد وضعت بعض الخطط لإيران عند الإطاحة بآية اللّه الخميني، أو إذا بدأ بقتل الرهائن في طهران. وأضاف تورنر أنَّ العملية الحقيقية ليست العملية الخفية.

الأسرار الحقيقية كانت من المعلومات الحساسة وبعضها كان سرياً جداً وهاماً، وكل يوم يمضي ولا تنكشف فيه هذه المعلومات يعتبر يوماً ناجحاً.

أولاً يمكن أن تتعرض المصادر البشرية للموت المحتم إذا انكشفت بعض الأسرار. وكشف عن بعضهم، ومنهم مسؤول كبير في الحكومة الهندية كان مصدراً ثميناً للوكالة، وسرب معلومات حول الأسلحة السوفياتية للهند وكان اختصاصه في مجال الدفاع الجوي.

وهناك مصدر بشري هام في الاتحاد السوفياتي يعمل في مؤسسة الفضاء السوفياتية واسمه تولكاشيف يعمل في قسم توثيق الخطط والأعمال اليومية لنظام الأسلحة السوفياتية وبعض الأنظمة الأخرى، وكانت معلوماته جوهرة الجواهر وأعطى نظرة هامة عن عالم الأسلحة السوفياتية والتي تعذر الحصول عليها من أي مصدر آخر. صفحات كثيرة حول الطائرات المقاتلة والقاذفات والصواريخ. وحصلت الاستخبارات على تقارير حول الإمكانيات. والأكثر أهمية كانت التقارير عن مناطق التعرض ونقاط الضعف في الترسانة السوفياتية، وخاصة في مجال الرادارات والتكنولوجيا. وقد قُدِّرَتْ معلوماته بمليارات الدولارات.

قال تورنر إنَّ ريغان يجب أن يقرر هو ونائبه ومدير المخابرات المركزية من يجب أن يعرف أنَّ هذا المصدر موجود.

وهناك نوع آخر من التجسس وهو التجسس على الأصدقاء والحلفاء وهي مشكلة مزمنة. كان رأيه أنَّ هذه العمليات ضرورية، وتمّ تطوير الوسائل التقنية وصور الأقمار الاصطناعية وتسجيلات من ميكروفونات تركز في أمكنة حساسة. إنَّ خطر التعرض والانكشاف يأتي من وجود عميل داخل إحدى وكالات الاستخبارات. إنَّ عناصر الجمع وهي فرق مؤلفة من عنصرين أو ثلاثة من وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي في عشرات السفارات قدمت معلومات مذهلة. وقدم تورنر بعض الأمثلة. وكان كايسي قد قام ببعض الأبحاث وفوجئ بأنَّ عدد عمليات جمع المعلومات بالميكروفون أو بالمصادر البشرية كان قليلاً، وحسب تعداده كان ٣٦ فقط.

وهناك فئة ثالثة من العمليات الخاصة اشتركت فيها مصادر هامة واستخدمت أساليب حيوية يؤدي فقدانها إلى خلل في الأمن القومي. وشرح تورنر بالتفصيل عمليات التسجيل بكابل الغواصة في إطار برنامج السيطرة البحري الخاص. عندما كان بوش مديراً للمخابرات المركزية كان على الغواصات أن تبقى مباشرة فوق الكابل، وذلك كان يزيد من الأخطار ويعرض الغواصة للخطر لعدة أسابيع. والآن هناك معدات تكنولوجية متطورة في البحرية يمكن تركيزها على الكابلات البحرية، وتترك لمدة أسابيع أو أشهر حيث تسجل جميع المكالمات ثمّ تسترجع. ويتم ذلك بواسطة غلاف ولولب وليس من الضروري أن تتصل مادياً مع أسلاك الاتّصال داخل الكابل الكبير. وإذا نزع السوفيات الكابل للتفتيش أو للصيانة فإنَّهم لن يعثروا على أي أثر أو دليل يوحي بأنَّ الكابل تعرض للتسجيل. هذا ويجب أن يقر الرئيس كل عملية تجسس داخل المياه الإقليمية السوفياتية. وقد استعملت وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي أجهزة التسجيل هذه على الأرض لتسجيل المكالمات وذلك بوضعها إما قرب السلك الظاهر بين مراكز الهاتف أو حول الكوابل المطمورة.

إنَّ عملية حل الشيفرة في وكالة الأمن القومي كانت حساسة. وبإمكانها حل الشيفرة لعشرين دولة اعتبرت أهدافاً أساسية، وذلك لبعض الوقت وليس بشكلٍ دائم. قال تورنر إنَّ هناك عشرات البلدان التي لم تكن أهدافاً أساسية، واستطاعت الوكالة حل شيفرتها. والمفتاح هنا كان تسجيل الإشارات والاتّصالات لمختلف البلدان وخاصة الاتحاد السوفياتي. ولم يتوقع أحد أن تكون الولايات المتحدة قادرة على الوصول إلى الكوابل البحرية. وخلاصة الحديث، قال تورنر، إنَّ هناك فرصاً لا حصر لها وقد استغلينا الكثير منها والأكثر لم نتخيله بعد.

غادر كايسي وهو يشعر أنَّ هذا لم يكن كافياً. لماذا؟ ولماذا تبقى هذه الآلة الاستخبارية الكبيرة بحالة ترقب وحذر؟

(٤)

في ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٨١ وهو اليوم ٤٤٤ على أزمة الرهائن الأميركية في إيران، كان اثمان يراقب المعلومات حول آخر مهلة أعطاها الإيرانيون للرئيس كارتر الذي كان في طريقه إلى حفلة التسلم والتسليم. وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين ظهراً أي بعد نصف ساعة من تسلم ريغان مقاليد الرئاسة، غادرت طائرتان مطار مهرباد في طهران وعلى متنهما الرهائن.

في اليوم التالي رتّب كايسي اتصالاً من الرئيس بالأميرال اثمان، وكان صوت ريغان مسرحياً ناعماً، وقال له إنَّ كايسي والجميع في مجموعة الاستخبارات يريدونه نائباً لمدير المخابرات المركزية، ثمّ قال ريغان وهو القائد الأعلى بلهجة حميمة: «أنا أحتاج إليك». وسرعان ما وجد اثمان نفسه يقول: «سيكون لي الشرف» مأخوذاً بالطلب الشخصي من الرئيس. وفي نفس اليوم أي في ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٨١ وهو أول يوم عمل كامل لإدارة ريغان، حدد كايسي الشخص الذي يمثل القطب المعاكس لإثمان، لأنَّ تنظيم الوكالة يتطلب تنوعاً في الأشخاص، فإثمان كان من داخل المجموعة الاستخبارية لذلك كان كايسي بحاجة إلى شخص من خارج الاستخبارات. إنَّه ماكس هوغل الذي ذكره لبروس منذ أسابيع.

وهوغل هذا، هو رجل أعمال من بروكلين عمره ٥٦ سنة وكان أقصر من كايسي بنصف قدم، ويتمتع بنفس القدرة والحيوية. وشعر كايسي بانجذاب نحوه لأنَّه كان يتكلم قليلاً وإنما بسرعة وبحزم. هو مقاول اعتمد على نفسه، ومثل كايسي، كان يعجن كلامه عجناً غير آبه بقواعد اللغة، ويخطئ دائماً في لفظ الكلمات الصغيرة. وكسب هوغل الملايين لأنَّه كان سريعاً أكثر من غيره في تنفيذ أعماله. وعينه كايسي مساعده الخاص في وكالة المخابرات المركزية.

خلال حملة ١٩٨٠ تقاسم الاثنان العيش في شقة في مارينا ديل راي، وهي ملاذ للعازبين، ولهواة اليخوت. وكان هوغل يستيقظ الساعة الخامسة صباحاً ليتلقى الاتصالات الهاتفية من الساحل الشرقي حيث تكون الساعة الثامنة صباحاً. وكان كايسي وهوغل يعملان حتى ساعة متأخرة من الليل. وشكلا منظمة من المؤيدين لريغان من ثلاثين مجموعة، لكل منها مصالحها الخاصة من دينية ومهنية وعرقية. كان كايسي وهوغل ثنائياً

غريباً. في بدء الحملة لم يدرِ أحد كيف يبدأ العمل، ووجد كايسي في هوغل المثابرة والتكريس وكان حلو المعشر ويحب الموز كثيراً! وذات مرة طيّرت هبة نسيم قبعة كايسي من على رأسه فجرى هوغل وراءها وأمسك بها، وفي هبة أخرى أمسك بخصلة من الشعر المستعار الذي وضعه كايسي على رأسه! كان هذا من ذكريات الحملة.

عمل هوغل في الاستخبارات العسكرية للولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، يجيد اليابانية وله عشرون عاماً من الخبرة في الأعمال التجارية مع اليابان ومع المصانع التي تنتج آلات الحياكة وآلات الطباعة. وسرعان ما بدأ هوغل يملأ كمية كبيرة من النماذج والكلمات المشفّرة، وأخضع كل مظهر من حياته للتحقيق. وبراءة الذمة كانت تحتاج لاختبار كشف الكذب على آلة البوليغراف.*

بعد بضعة أيام جلس هوغل أمام آلة كشف الكذب ووضع الأسلاك على جسمه. وبدأ المحقق أسئلته المدروسة. سأله المحقق: هل سبق أن سرقت مالاً؟

أجاب هوغل. كلاً. وكان يعرف كيف يحدد أجوبته بنعم أو لا.

ـ هل سبق وأن تورطت بنشاط من الشذوذ الجنسي؟

ـ كلاً.

ـ هل سبق أن تعاطيت المخدرات من الماريوانا والكوكايين؟

ـ كلاً. وتخيّل أنه إذا كذب فإن الإبرة الصغيرة في الآلة، والتي ترسم البيان، سوف تقفز فوق الخط.

ـ هل سبق أن ابتزّك أحد؟

ـ كلاً.

كانت الأسئلة كثيرة. وذهبت بعيداً نحو الماضي وشملت كل المواضيع، واقتضت أجوبة محددة بنعم أو لا.

إعتمدت الوكالة على نتيجة هذا الاختبار. إلاّ أن المحاكم لا تقبل بها كإثبات. وأخيراً قال له المحقق إنه اجتاز الاختبار بتفوق.

بدأ كايسي عهده فوق أمبراطورية التجسس الأميركية. وظهرت بعض الملامح المهمة في الإدارة الأميركية الجديدة. كان مستشار الأمن القومي ريتشارد آلن يفيد ريغان من خلال ميز وهو المستشار الجديد للبيت الأبيض، ويعتبر هذا انتقاصاً من صلاحيات مستشار شؤون الأمن القومي. وتم تعيين جيمس باكر المحامي من تكساس، والذي كان نائباً لكايسي في إدارة الحملة الانتخابية، رئيساً لأركان البيت الأبيض، مما يدعم نفوذ كايسي.

(*) هي آلة تشبه آلة تخطيط القلب، ترسم بياناً بالانفعالات العصبية تجاه كل سؤال، يمكن من خلال البيان استنتاج صدق أو كذب الشخص موضوع الاختبار. (المترجم).

جيمس باكر الذي كان مديراً لحملة جورج بوش الانتخابية كان قوياً ومديراً جيداً بعكس ميز الذي يمكن أن يختفي أيُّ شيء داخل حقيبته! وعرف كايسي ديفر جيداً من خلال الحملة الانتخابية. وكان ميز وباكر وديفر ترويكا سيطرت على البيت الأبيض. وكان لكايسي خطوط مع الثلاثة وسهَّلوا جميعاً اتصالاته، والأهم من ذلك أنه كان بإمكانه أن يأخذ موعداً للقاء الرئيس مباشرة. وكانت علاقاته مع هيغ ووايبنرغر جيدة، ولم ينافس أيّاً من الوزراء الأساسيين على وظيفته. واتسمت سياسة وزيري الدفاع والخارجية بالضراوة والاقتحامية في الأعمال المضادة للشيوعية ونفذت من خلال الاستخبارات.

عقد كايسي اجتماعاً مع انمان لوضع الخطوط العامة لخطة العمل. قال كايسي: أريد فرض سيطرتي على مديرية التحليل لتحسين التقارير والتقديرات، وكذلك على مديرية العمليات. إن العمليات الخفية معقدة جداً. وفوجئ انمان بذلك لأن المديريتين كانتا القسمين الرئيسيين في الوكالة.

أمّا الناحية العلمية والتقنية في الوكالة فكانت لانمان إذا أراد ذلك، بالإضافة إلى أعمال الإدارة والأشخاص والقضايا التي لم يهتم كايسي بها.

مدير المخابرات المركزية المنسق العام للاستخبارات في جميع أجهزة الحكومة كان ينظر إليه على أنه «رجل الخارج». إلاّ أن كايسي كان «رجل الداخل»، واطّلع على جميع التقارير، وكانت شخصيته ثابتة وحازمة، وكان له حضور قوي وطلّة وهيبة.

سيطر كايسي على مؤسسة وكالة المخابرات المركزية، وعهد إلى انمان بالقضايا الداخلية في جميع الوزارات والدوائر ما عدا البيت الأبيض الذي تولى شؤونه شخصياً، وسمّى نفسه ضابط استخبارات الرئيس، وهو الشخص الذي يزوده بالمعلومات ويتأكد من أنه على اطّلاع دائم. لذلك أصيب انمان بنوع من خيبة الأمل.

في ٢٦ كانون الثاني/يناير وهو أول نهار إثنين للإدارة الجديدة، استدعي أعضاء الحكومة إلى البيت الأبيض، واستدعي كايسي كمنسق للمخابرات المركزية، وانمان كمدير لوكالة الأمن القومي، لأن الكونغرس لم يكن قد ثبّت تعيينهما، وكان الموضوع: الإرهاب.

وزير الخارجية المثير الذي سبق له العمل تحت رعاية كيسنجر، ثمّ عمل قائداً لقوات حلف الأطلسي، ودعي بعرّاب سياسة التشدد، تكلّم بانفعال عن الإرهابيين. كانت إيران المثل. وقال هيغ إنه يجب إظهار حزم الإدارة الجديدة، وكان إلى جانبه خبير الإرهاب في وزارة الخارجية أنطوني كويتتون الذي قال: «من المحتمل أن يضرب الإرهاب في داخل الولايات المتحدة. إن الولايات المتحدة معرّضة جداً».

كانت لحظة مكهربة، لأن البعض اعتبر أن مشكلة الإرهاب انتهت بعد إطلاق سراح الرهائن. وأثار ميز بعض ما ورد في خطابات الحملة: كارتر وتورنر زادا من مشاكل الاستخبارات ووضعا قيوداً على عمل جميع وكالات الاستخبارات حول الإرهاب ومكافحة

التجسس. مدير مكتب التحقيق الفدرالي FBI وليم وبستر قال إنه لا يوافق على ذلك، وهو قاضٍ سابق، أسلوبه مرح وله هيئة صغير. ركّز وبستر على أنه من المهم أن نعرف ما جرى داخل الولايات المتحدة من أجل وقف الأعمال الإرهابية، والقبض على الجواسيس. تكلّم بنعومة وكان جهازه، مكتب التحقيق الفدرالي، موكلاً بمهمة مكافحة الإرهاب والتجسس داخل الولايات المتحدة، وله الأدوات اللازمة لذلك ويعمل وفقاً لقواعد وقوانين مرعيّة الإجراء، فأطفأ بذلك نار حملة ميز.

ساند اغمان وبستر وقال إن المشكلة أكبر من مشكلة مصادر، وأهم شيء هو كيف نوصل المعلومات إلى الذين يحتاجونها وفي الوقت المناسب.

لم يكن لكايسي الكثير ليقوله، ولم يكن وبستر واغمان من نخبة المجتمعين. أراد أن يعالج الإرهاب كمسألة استخبارية أساسية. وفي نهاية الاجتماع تمّ الاتفاق على أن يدرس كايسي أمر كارتر التنفيذي حول الاستخبارات والذي كان مستمداً من القوانين، ويرى ما إذا كانت هناك حاجة إلى تغييرات، وما إذا كانت كبيرة، ليصدر الرئيس ريغان أمر استخبارات جديداً ومعدّلاً.

في اليوم التالي أقرّ مجلس الشيوخ تعيين كايسي مديراً للمخابرات المركزية بأغلبية ٩٥ صوتاً ضد لا أحد. وأقسم اليمين في اليوم التالي. ولكن هيغ كان نجم الأخبار في ذلك اليوم ووقف أمام الصحافة بثبات في أول مؤتمر صحافي كوزير للخارجية واتهم الاتحاد السوفياتي بتدريب وتمويل وتجهيز الإرهابيين الدوليين. وتهكم على إدارة كارتر قائلاً: إن الإرهاب الدولي حل مكان حقوق الإنسان، وهو أكبر مشكلة في حقوق الإنسان! وأضاف إن السوفيات متورطون في سياسة جدية وبرامج لدعم النشاطات الإرهابية.

كان لهذه القنبلة وقع إعلامي كبير وأخذ بعض كبار مساعدي هيغ يكثرون من كلامهم، وقال له رونالد سبيرز رئيس قسم الاستخبارات في وزارة الخارجية إن تصريحاته لن تقف في وجه تقارير الاستخبارات الأخيرة.

ـ «إنتظر» قال هيغ، وأضاف: لقد قرأت عن الدور السوفياتي في مسودة كتاب ما زال قيد الطبع حول شبكة الإرهاب، ومؤلفه كلير سترلنغ وهو مراسل صحافي أميركي في إيطاليا. وقد اتّهم سترلنغ الروس مباشرة. واعتقد سبيرز بأنه يحتمل أن يكون هناك جديد في هذا المجال، وبأن المشكلة تستحق الاهتمام، لذلك أرسل طلباً رسمياً إلى كايسي لوضع «تقدير استخباري قومي خاص»، وهو يعطي التقدير الأفضل لكل ما تعلمه وتتوقعه أجهزة الاستخبارات.

رحّب كايسي بالطلب، فهذه التقديرات كانت بمثابة الغذاء المفضل له. والتقدير النهائي يذهب إلى الرئيس ومجلس الأمن القومي والوزراء المعنيين. هذه النشرات كانت جهاز الإنذار المبكر للمجموعة الاستخبارية.

في يومه الثالث، تلقى كايسي في مكتبه تقريراً من اثني عشرة صفحة تحت طابع سري نُظِّم قبل أن يقسم اليمين، وعنوانه، ليبيا: الأهداف والأخطار، وهو عبارة عن تقدير لنشاط القذافي في الأشهر القادمة. إهتمّ كايسي بالقذافي الذي لم يعد مشكلة غامضة. وحمل التقرير عبارة: «تحذير، مصادر الاستخبارات والطرق المتبعة، تقدير صادر عن مدير المخابرات المركزية».

أحكام أساسية: ملخص الاستنتاجات:

أولاً: إن نجاح القذافي الأخير في تشاد يؤكد أن سياسته الهجومية تشكل تحدياً للولايات المتحدة الأميركية ولمصالح الغرب. فمنذ أشهر أرسل القذافي آلاف الجنود إلى تشاد المجاورة له. وهي جنوب ليبيا، مباشرة وكانت مستعمرة فرنسية لغاية سنة ١٩٦٠. وهي واحدة من عدة دول إفريقية جديدة معرضة للحركات الانقلابية. وأشار التقدير إلى أن مشكلة القذافي لن تنتهي، وساد الاعتقاد بأنه سيقوم بمزيد من المغامرات.

ثانياً: لم تكن المعارضة الداخلية والخارجية لنظام القذافي منظمة أو فعالة. وهذا يعني أن أي عمل خفي يحتاج لأكثر من مال وسلاح. وتعاني المعارضة من مشكلة التنظيم والمعنويات.

ثالثاً: إن سياسة القذافي تخدم الأهداف السوفياتية وذلك بعدائها للغرب، كما أن السوفيات يكسبون العملات الصعبة من جراء بيع السلاح إلى ليبيا، وأشار التقدير في هذا المجال إلى حوالى مليار دولار في السنة. وكانت علاقاته مع السوفيات ممتازة، إلاّ أنه لم يكن رهينة لهم.

وأضاف التقدير أن القذافي مارس من قبل التدخل السياسي والنشاط الدبلوماسي والإرهاب وعمليات الاغتيال، وها هو الآن في تشاد يمارس الاحتلال العسكري. وعهدت الوكالة إلى اختصاصيين في علم النفس وإلى أطباء نفسيين لتحليل شخصية القذافي، وزودتهم بمعلومات أولية حوّلت إلى جوانب نفسية على طريقة فرويد. قال التقدير إنه بسبب بعض الظروف الخاصة في طفولته اكتسب القذافي الأخلاق البدوية بشكل واضح، وهي المثالية والتعصب الديني والتكبر والمفاخرة والقسوة وكره الأجانب والاستخفاف بهم.

وكان القذافي ابناً لراعٍ بدوي، وعانى، خلال أوائل حياته من التمييز العنصري من قِبَل الأجانب، ومن المتمدنينَ الليبيين. ونما لديه شعور بازدراء شديد للنخبة المهيمنة على البلاد، وتعاطف قوي مع أساليب البدو، وساوى نفسه بالمسحوقين والمحرومين، فكانت النتيجة كما يقول التقدير، ثورته الشخصية ضد السلطة، ودعمه غير المحدود لقضايا الثوار في جميع أنحاء العالم.

وتابع التقدير غوصه في نظريات التحليل النفسي فقال: زاد القذافي من إحساسه

بالمجد والعظمة والأهمية، وذلك ليدافع عن نفسه سيكولوجياً، وسعى إلى المحافظة على النقاء والبساطة، اللذين كانا موجودين في التاريخ العربي القديم، في بلاده.

وتطرّق التقدير إلى بلدان أخرى كان القذافي يتدخل فيها: «لقد تورطت ليبيا في أعمال خفية في إفريقيا السوداء مثل رشوة بعض الزعماء»، وفي تونس التي يتقاسم معها ٢٠٠ ميلاً من الحدود البرية، أفادت المعلومات أنه درَّب وجنَّد عدداً من المنشقين التونسيين.

وأعلن القذافي منذ سنوات خليج سرت، وهو فجوة بعرض ٢٧٥ ميلاً تنفتح مباشرة على البحر المتوسط ويبلغ طوله ٨٠٠ ميلاً، مياهاً إقليمية ليبية، على الرغم من أن الحد الدولي للمياه الإقليمية كان ١٢ ميلاً عن الشاطئ. وتساءل المراقبون حول ما إذا كان القذافي يجازف بانتقام الولايات المتحدة. وتابع التقدير: «أعطى أوامر عسكرية واضحة لمهاجمة السفن والطائرات التي تخترق ذلك الخط». وقالت وكالات الاستخبارات: «إن فرص حصول حادث بين ليبيا والولايات المتحدة عالية جداً».

وتابع التقدير، أن حوالى «١٠٪ من واردات الولايات المتحدة من النفط تأتي من ليبيا». وتعتبر ليبيا مصدراً رئيسياً للنفط المتميز بكثافة قليلة ونسبة قليلة من الكبريت. إن قطع النفط الليبي عن الولايات المتحدة يؤدي إلى أزمة وقود حقيقية على الساحل الشرقي للولايات المتحدة.

وبالإجمال، قال التقدير إن إمساك القذافي بالسلطة لم يكن شديداً، وهناك دليل على أن محاولة انقلابية جرت في أيار الماضي ومحاولة أخرى في آب الماضي. واعتمد القذافي نظاماً من المخبرين لحماية نفسه. لكن المبعدين في الخارج تلقوا الدعم من مصر والمغرب والعربية السعودية والعراق. وبعض المبعدين لهم قواعد داخل ليبيا، وإذا لم يتعرض القذافي للاغتيال، يمكنه الاستمرار في السلطة لسنوات عديدة.

أتى المقطع ٥١ من التقدير على ذكر وزير الدفاع التشادي السابق حسين حبري. وحبري هذا هو مقاتل صحراوي قاتل القذافي في تشاد (أظهرت ملفات وكالة المخابرات المركزية أن الرئيس السوداني جعفر النميري حثّ الوكالة سراً على دعم حبري لأن النميري كان خائفاً من أن يكون السودان، وهو أكبر دولة إفريقية من حيث المساحة، الثاني على لائحة طعام القذافي). وأضاف التقدير أن المغرب ومصر والسودان وفرنسا قدمت دعماً خفياً لثورة حسين حبري.

رأى كايسي أنه من الممكن الإطاحة بالقذافي، مع أن ذلك لم يكن بسيطاً. وقد جرت محاولات انقلابية سابقة. وكان التقدير مليئاً بكلمات «ممكن» و «يحتمل» و«من المعقول». وحسب رأي كايسي كان مكتوباً من مراوغين إلى مراوغين. ولكنه كان مسروراً لكيفية تعبيره عن أخطار محاربة القذافي.

ـ «في الحقيقة يمكن أن ينعكس التحدي الغربي الواسع للقذافي لمصلحته وأن يحوله

من منبوذ إلى شهيد إسلامي». إن الأنظمة العربية التي لا تعارض الأعمال العسكرية الأميركية ضد ليبيا يمكن أن تتعرض لتهديد شعوبها. وخاف الأميركيون من هذا الاحتمال أيضاً عندما هددوا إيران بعمل عسكري.

وجاء في المقطع ٧١ والأخير من التقدير «إن أي عمل يمكن أن ينعكس ضدهم في أوطانهم وفي العالم العربي».

إنها كانت مراوغة. القذافي صدّر الاضطرابات إلى الجميع، إلى الغرب والولايات المتحدة، والدول العربية، إلى الصديق والعدو، وحتى إلى نفسه. وضع التقدير وكالات الاستخبارات في موقف أمين من الناحية البيروقراطية، بحيث يمكنها ومهما حدث، أن تنفث الغبار عن التقدير وتقول: «أنظر لقد أخبرناك. وقلنا إن هذا يمكن أن يحدث» واعتبر كايسي ذلك مثل الذي يقول كلَّ شيء وكأنه لا يقول شيئاً. وأثارت آخر جملة من آخر مقطع إعجابه وهي تعني الدول العربية بالقول: «ومن مظاهر دهائهم ركز أعداء القذافي الاقليميين، ومن ضمنهم الرئيس السادات على أن ينزف القذافي في أهم واصعب نقطة: التوسع الكبير في تشاد وما يؤدي إلى أخطار في الداخل». هذه الجملة الأخيرة قرعت الجرس، فإذا تم التركيز عليها أمكن اعتبار التقدير وثيقةً هامة ودعوة إلى العمل وتحديد الوسيلة الأقل خطراً. إن مغامرة تشاد كانت علاج آخيل بالنسْبة إلى القذافي. يجب محاربته في تشاد. واتفق هذا الكلام مع استراتيجية كايسي الذي لن يترك وكالة المخابرات المركزية تقف مكتوفة الأيدي.

بعد قليل، تم التخطيط لمشروع دعم خفي لحبري بين وزير الخارجية هيغ ومدير المخابرات المركزية كايسي. وسمي المشروع: الخط الثاني، وذلك لتمييزه عن الخط الأول أي خط الدبلوماسية. وقال هيغ: «إن الهدف كان تمريغ أنف القذافي، وزيادة تدفق صناديق الأناناس إلى ليبيا»، ودعم كايسي هذه السياسة. وشكلت الدول المحيطة بليبيا وهي مصر والسودان وتشاد سوراً للمقاومة وكانت بحاجة للدعم.

عقدت اجتماعات بين وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية حول هذا الموضوع، وتوجت باجتماع في البيت الأبيض لوضع القواعد الفلسفية لعمل الكبار. وكان هناك إجماع ليس على عمل خفي فقط، بل على إعادة هيبة الولايات المتحدة إلى المسرح الدولي. ووقع الرئيس بسرعة أمر مخابرات سمي «التفتيش» صرف بموجبه بضعة ملايين من الدولارات للدعم الخفي لحبري. وكان هذا أول عمل خفي لكايسي.

وجد كايسي في الأسابيع الأولى ما توقعه: وكالة المخابرات المركزية مؤسسة متراجعة إلى قوقعتها، وعليه أن يخرجها بلطافة من هذه القوقعة. ولن يستطيع إخراج هؤلاء الناس إلا بسبب وجيه. لم تظهر كفاءاتهم بسبب كارتر وتورنر، إلا أن بذور الجرأة كانت فيهم، وتقدير ليبيا أكبر مثل على ذلك. كان عليه أن يحدد نقطة الانطلاق لإخراج رجاله. وإذا كان

تورنر يرغب في تقليل الخطر، فها هو يرغب في المجازفة وكسر الجمود ليثبت أن الادارة والرئيس يريدان التحرك.

وصل الجنرال يوجين تاي من القوات الجوية في الموعد المحدد الساعة ١١،٠٠ صباحاً من يوم الإثنين ٢ شباط /فبراير ليلتقي مدير المخابرات المركزية. وكان قد التقى كايسي مرة قبل ذلك في إحدى الحفلات الاجتماعية. وتعلم تاي من خبرة ٣٦ سنة في عمل الاستخبارات أن السياسة والاستخبارات صنوان لايفترقان. وتاي رجل كبير مجعد الشعر يضع نظارتين وله ابتسامة قوية تستمر طويلاً بعد ضحكاته. واجه في حياته إدارات كثيرة ووزراء دفاع ومدراء مخابرات يأتون ويذهبون، وتغييراً في نوع وشكل الاستخبارات. ولكنه وجد أن الخلافات تنشب عندما لا تكون هناك معلومات واضحة وكافية، بينما لا تحصل خلافات بين المسؤولين عندما يكون هناك معلومات.

كان تاي رئيساً لوكالة الاستخبارات الدفاعية حوالى ٤ سنوات خلال عهد كارتر، ورغب البقاء في منصبه، وكانت مهمته تنسيق المعلومات الواردة من استخبارات الجيش والبحرية والقوات الجوية وقوات مشاة البحرية. واطلع تاي على المعلومات الملتقطة من وكالة الأمن القومي والصور التي تأخذها الاقمار الاصطناعية التابعة لمكتب الاستطلاع القومي، وهو مكتب سري جداً، وعلى معلومات وكالة المخابرات المركزية. وكانت مسؤوليته الأولى إعطاء الإنذار المبكر لدى أي تحرك عسكري سوفياتي. قامت وكالة المخابرات المركزية بتدبير الثورات والحركات السياسية والاضطرابات مما يعني أن إنتاجها كان على طاولة البيت الأبيض يومياً، عند أي توتر أو أزمة في أي مكان في العالم. كانت هناك ألعاب حرب ومناقشات في دوائر الاستخبارات وفي البيت الأبيض ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع والصحافة، لكنها كانت نظرية، وهذا ما أثار قلقه، فصمم على أن يجعل الوكالة تقف على قدميها.

لم يكن تاي من الصيادين. وفلسفته كانت بسيطة: كلما علمت أكثر قل خطر الحرب. وعمله كان الحصول على المعلومات التي تمكن الولايات المتحدة من أن تتصرف كدولة مسالمة. وأدرك تاي أن وكالة الاستخبارات الدفاعية كانت بمثابة الصف الخلفي في وكالات الاستخبارات، وهي جهاز له تعقيدات خفيفة. ولكنه كان مهتماً بالعبء الملقى على عاتق وكالته وعلى الـ ٤٥٠٠ شخص الذين عملوا معه. نفذت هذه الوكالة حوالى ٩٥٪ من أعمال الاستخبارات العسكرية، وشمل عملها تحليل المعدات والتجهيزات والتهديدات والنوايا العسكرية والخطط والأهداف السوفياتية. وقدمت معلومات حاسمة «لخطة العمليات المتكاملة المنفردة»، وهي الخطة العسكرية للمعركة النووية الكبرى مع الاتحاد السوفياتي.

اعتقد تاي بأن وكالة الاستخبارات الدفاعية كانت الأساس في الاستخبارات العسكرية، فقد اكتشف الرئيس جون كينيدي ووزير الدفاع روبرت مكنمارا أنه لم يكن هناك هوة في مجال الصواريخ مع السوفيات كما أعلن كينيدي مراراً في حملته الانتخابية عام

١٩٦٠، ولذلك أنشئت في عهدهما وكالة الاستخبارات الدفاعية للتأكد من استثمار ومعالجة المعلومات وعدم إهمالها وإعطاء سلطة متكاملة لوزارة الدفاع التي تعمل بمعزل عن المنافسات الداخلية. الرسالة كانت بسيطة. العرب يهاجمون أو لا يهاجمون. الروس قادمون أو غير قادمين . . . إلخ.

هذا الإثنين كان الاجتماع الأول لهيئة الاستخبارات الخارجية القومية التي يرأسها كايسي، وأعضاؤها رؤساء وكالة الأمن القومي ووكالة الاستخبارات الدفاعية وبقية وكالات الاستخبارات وقسم الاستخبارات في وزارة الخارجية وقسم الاستخبارات في مكتب التحقيق الفدرالي، وممثل عن وزارة المال. كان هناك حوالي ١٢ رئيس وكالة أو ممثلاً ينتظرون المدير.

شعر تاي بأن مدير المخابرات المركزية يجب أن يكون محترفاً، ولكن بعد تجارب هلمز وكولبي استنتج أنه لن يصل إلى هذا المنصب أشخاص من الرتب الدنيا. تحرك كايسي بثقل وجلس على مقعده وبدا عجوزاً. لم تكن مشيته مستقيمة، وبدا شاحباً بعكس تورنر الشاب وذو المظهر العسكري.

بدأ كايسي بكلام متفائل، كان سعيداً وواضحاً. وأعلن أنه تفهم الاستخبارات وعرف أهميتها، وسيبذل جهده ليبقى على اطلاع دائم على جميع الأمور. شعر تاي بأنها إشارات حسنة. وعلم كايسي الاعتراضات على الطريقة التي كان تورنر يترأس بها اجتماعات الهيئة، إذ كان يحدد مدة ساعة فقط للاجتماع متأكداً أنها تنتهي وفقاً للجدول المحدد. وبما أن تورنر كان الرقم واحد فقد كان بإمكانه المتابعة وحيداً واتخاذ القرارات، وكان في الغالب قاسياً ومذهلاً.

بينما كان كايسي يتابع عرضه، فوجىء تاي بأنه يجيد استعمال تعابير ومصطلحات الاستخبارات، وبأن تفكيره متجانس مع تفكير الآخرين، وخصوصاً عندما قال إنه سيزور كل رئيس وكالة شخصياً.

ذكر كايسي أن عدد الحضور كبير جداً في القاعة، وأنه في بعض القضايا الحساسة سيستثني بعض الأشخاص الذين لا يريد حضورهم من لائحة المجتمعين. وكرّر أن الأمن هو من الأولويات المهمة.

بعد بضعة أيام اتصل كايسي بتاي وسأله: ما رأيك بتناول طعام الغداء عندك؟ وعندما أجابه تاي بأنه لايوجد قاعة طعام خاصة، اقترح كايسي تناول الطعام في مكتب تاي. وبعد بضعة أيام وصل كايسي إلى مكتب تاي في مبنى وزارة الدفاع المعروف بالبنتاغون في الغرفة رقم ٣هـ ٢٥٨. وطلب الاثنان سلطة القريدس (الجمبري)، وفي الحال طلب كايسي التفاصيل عن مهمات تاي الاستخبارية وكان لديه سؤالان: ماذا تعمل؟ وماذا تعرف عما يجري في العالم؟ وهنا بدأ تاي بجولة أفق.

بدأ تاي من جنوب المحيط الهادىء، وقال إن السوفيات يشترون الصوف من

نيوزيلاندة، وهي طريقة سوڤياتية، ويستخدمونه لوضع أقدامهم في البلاد. شمال المحيط الهادىء كان الموقف في كوريا سيئاً، فقد توقفت مصادر الاستخبارات عن عملها عندما زاد الكوريون الشماليون من عدد قواتهم المسلحة. وحاول السوڤيات زيادة نفوذهم في كل مكان تنسحب منه الولايات المتحدة، وخصوصاً في جنوب شرقي آسيا وڤييتنام.

سحب كايسي من جيبه بطاقة ملاحظات صغيرة وبدأ يكتب ويشجع تاي على المتابعة. كوريا، ڤييتنام، المشاكل القديمة، الحروب القديمة التي لا يمكن أن تنتهي. لم يحل المشكلة انفتاح نيكسون وكيسنجر على الصين. ويمكن للسياسة الصينية أن تتغير ١٨٠ درجة في ليلة واحدة. إن الأسلحة النووية الصينية والغواصات والأقمار الاصطناعية والصواريخ العابرة للقارات تجعل من الصين قوة عالمية. هناك خطأ جسيم في نظرتنا إلى الصين واعتبارها قوة عملاقة في العالم الثالث، والتركيز عليها كمصدر تهديد سكاني. تعتبر مراكز التنصت التي سمح الصينيون للأميركيين بتركيزها على الحدود الصينية علامة صداقة، ولكنْ لا توجد ضمانة لهذه الصداقة.

أضاف تاي أن المكسيك مصدر قلق كبير. هناك ثورة في الريف. في مدينة مكسيكو العاصمة يسيطر البوليس المحلي على بعض الأحياء، ولا تستطيع القوات المركزية الحكومية دخولها. ويسود البلاد فقر مدقع لدرجةٍ يحتمل معها أن يظهر زعيم آخر مثل الخميني. إن أميركا الوسطى هي بحر من عدم الاستقرار وأرض خصبة لليسار. كوبا تتقدم ومن المحتمل أن تبسط سيطرتها على مناطق إقليمية أخرى.

في الشرق الأوسط تسير الأمور نحو الأسوأ. لم تشهد إيران في ظل قيادة الإمام الخميني حرباً أهلية بعد ولكن لا يمكن تجنب هذه الحرب. والوساطة الأميركية في الشرق الأوسط تجلب لنا المتاعب.

الهند بلد هام والسلطة هناك منقسمة بين حكومة غاندي ووزارة الدفاع التي يهيمن عليها السوڤيات. وهذه الحكومة المنقسمة تجعل الأمور صعبة بالنسبة إلى الولايات المتحدة.

هناك عامل حيوي وأساسي: البيت الأبيض لا يصغي غالباً، بصراحة كان من الممكن أن يصغي الرئيس كارتر للمخابرات وهي تطلعه على أن السوڤيات كانوا يحضرون لغزو أفغانستان. قبل الغزو بستة أشهر نُقل جنرال سوڤياتي معروف بخبرته في التمدد العسكري من ڤييتنام الشمالية إلى أفغانستان. وحاول تاي الاتصال بالرئيس كارتر في البيت الأبيض شخصياً ليحذره. وبدا كأنه لم يكن أحد في ذلك البيت! لم يصغ إليه أحد. صور الأقمار الاصطناعية وإشارات المخابرات جميعها أوضحت النوايا السوڤياتية. وكان البيت الأبيض واقعاً تحت وطأة الهواجس في إيران ولم يرغب في أي مشاكل أخرى. والآن وبعد أكثر من سنة، ما زال الخطر السوڤياتي موجوداً في أفغانستان.

- «أنظر» قال كايسي، ونقل عينيه بين بطاقاته، «إذا كانت لديك أية رسالة تريد

توصيلها فتعال إلي مباشرة وسندخل». وكان متحمساً في ذلك.

أضاف تاي: إنَّ للعسكريين نفوذ هام في الاتحاد السوفياتي لا يدركه الكثيرون، وإنَّ تحليلات الاستخبارات وخصوصاً وكالة المخابرات المركزية لم تعطهم الحظ باستلام السلطة. كان الجنرالات السوفيات يستعدون لعصرهم. كان الإصلاح أداتهم وظهروا أكثر حداثة وعصرية. كما أفادت تقارير الاستخبارات أنَّ جناحاً من العسكريين كان ضد معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية سالت ٢.

وافق كايسي على أنَّ الروس غشاشون ولا يمكن الوثوق بهم. وأضاف تاي: بل أسوأ من ذلك لأنَّ القيادة السوفياتية بدأت تصبح عدوانية شيئاً فشيئاً. والروس صاروا طبقة في المجتمع السوفياتي. كان هناك حوالى ثلاثة آلاف عائلة من النخبة الذي أرادوا أن يبقوا نخبة ويحافظوا على امتيازاتهم. كانت لهم أملاكهم الخاصة وقصورهم الريفية التي يمكنهم أن يورثوها إلى أولادهم. وهم لن يتخلوا عن هذه المكتسبات.

لم يثق السوفيات بالقوة العسكرية لدول أوروبا الشرقية ربما باستثناء بلغاريا. وساد الاستياء في أوروبا الشرقية عندما ألزم الروس قادة هذه الدول بشراء المعدات العسكرية الروسية القديمة. وكان الوجود العسكري السوفياتي يتنامى في أوروبا الشرقية ويشكل مصدر تهديد هام.

وأضاف تاي إنَّه زار تركيا منذ فترة وجيزة ووجد أنَّ الاضطرابات تختمر.

في كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٨ أي قبل ستة أسابيع من الإطاحة بشاه إيران زار تاي طهران. وكان رئيس المحطة في طهران يطلب عملاء للمحطة يجيدون اللغة الفارسية ولم يلبِّ أحد طلبه. ولم يستطع أحد أن يعرف ما يجري. وارتدى تاي لباساً مدنياً وزحف على شباك السفارة ونزل أرضاً إلى الشارع وتمشى لمدة ثلاث ساعات. في الحادية عشرة صباحاً فتحت جميع المحلات وعند الظهر أقفلت وتدفق مليون متظاهر إلى الشوارع وبدأوا بالهياج والهتافات ضد الأميركيين. وكان عرضاً مثيراً أظهر انفعالاً قوياً، أو دقة في التخطيط، أو الأمرين معاً، وكان واضحاً أنَّ إعصاراً سيضرب المنطقة.

اجتمع تاي مع رئيس السافاك، أي الاستخبارات السرية الإيرانية، الجنرال ناصر موغادوم لمدة ثلاث ساعات. كيف كان الاتّصال بين الحكومة الإيرانية وحكومة الولايات المتحدة؟ كانت العلاقات معلقة ويسودها الشلل. وكان لإيران استخبارات فاشلة.

أحنى كايسي رأسه موافقاً وغادر بعدها بقليل باتجاه الممر هـ إلى سيارته. يا للعنة! كان هناك الكثير للعمل، كوريا، فيتنام، الصين، المكسيك، بقية دول أميركا الوسطى، الشرق الأوسط، الهند، الاتحاد السوفياتي وإيران طبعاً.

إنَّ صورة مدير الاستخبارات الدفاعية يزحف على شباك السفارة الأميركية في طهران تدعو إلى التعجب. قرر كايسي أنَّ هناك طريقة واحدة للقيام بوظيفته وهي أن ينظم لائحة

بالبلدان الرئيسية ويقوم بجولة تفتيشية ويزور محطات الوكالة بنفسه ويرى ماذا يفعلون وماذا يعرفون.

بحث كايسي وجون بروس في الملفات الشخصية عن سكرتير تنفيذي لكايسي وأخيراً تمّ اختيار روبرت غايتس الذي كان يقوم بوظيفة ضابط استخبارات الأمن القومي لشؤون الاتحاد السوفياتي كانت علاقته مباشرة مع مدير المخابرات المركزية. كانت وظيفته حساسة ومن المراكز الرئيسية الأولى. ولكن بالنسبة إلى كايسي، كانت خبرة غايتس في البيت الأبيض هي الأكثر أهمية، فقد كان منذ ربيع ١٩٧٤ إلى كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٩ في أركان مجلس الأمن القومي وعرف حسنات الاستخبارات وكيف أسيْ استعمالها في عهود نيكسون وفورد وكارتر. وكان غايتس قد بلغ السابعة والثلاثين من عمره، وله خبرة ١٤ سنة في وكالة المخابرات المركزية وهو قصير القامة، رمادي الشعر، لامع، ذو ابتسامة قصيرة. إنه الشخص الذي يبحث عنه كايسي.

في عهد كارتر عمل غايتس في مكتب نائب بريجنسكي في مجلس الأمن القومي ديفيد هارون الذي سماه غايتس «إوزّة ستراسبورغ» لأنَّ قدمه تتثبت في الأرض وهو يركز على المسائل المطروحة أمامه. وفي جلسات بعد الظهر قدم غايتس لهارون آخر معلومات الاستخبارات واستخلص القرارات المطلوب اتخاذها خلال النهار.

تحقق كايسي من حياة غايتس. عندما عين للعمل في وكالة المخابرات المركزية عام ١٩٦٦ كان يشكو من أنَّ الوكالة مليئة بعناصر الحرب العالمية الثانية وقدامى مكتب الخدمات الاستراتيجية الذين لم يجدوا طريقاً أمامهم للوصول إلى القمة إلاَّ بإجراء اتّصالات سياسية. ووجد غايتس طريقه بعد أن اشتكى إلى زميله في وكالة المخابرات المركزية وهو ضابط يدعى جون سميث وكان والده جيرالد سميث كبير مفاوضي نزع السلاح في عهد نيكسون. تعرف غايتس إلى سميث الكبير وبعد وقت قصير عين محللاً في وكالة المخابرات المركزية وعضواً في وفد نزع السلاح. والأكثر أهمية أنَّه كان لغايتس بعض الملاحظات التي وجدها كايسي جذابة. ومع أنَّه كان حائزاً على شهادة الدكتوراه في الأدب الروسي، فقد كان يقول إنَّ وكالة المخابرات المركزية أكاديمية في عملها بشكل كبير لدرجة أنها خجلت من المواجهة. وإذا لم يدل أحد بأي هراء حول ما تقوله التحليلات فلن يكون هناك مواجهات ولا ضغوطات ولا اهتمام. المواجهة والضغط جعلا محللي الوكالة أقرب إلى صانعي السياسة. على رجال المخابرات أن يفهموا قلق صانعي السياسة لا أن يحيكوا تقديراتهم لتلائم البيت الأبيض، وعليهم تحديد العوائق وإعطاء الإنذار المبكر.

مع أنَّ غايتس كان محللاً، فإنَّه قد خاض تجربة عملانية واحدة أظهرت رغبته في عدم اتباع قواعد العمل المألوفة، وكان كايسي يحب هذا الأسلوب. أراد البيت الأبيض أن يقيم علاقة مع كوبا وأوفد ديفيد هارون ليعقد اجتماعاً سرياً مع اثنين من كبار ضباط مخابرات

كاسترو. واعتقاداً منه أنَّ الوقاحة كانت أفضل غطاء، اجتمع هارون وغايتس بالكوبيين في مطعم فرنسي في الجادة الخامسة. ووافق غايتس على أن يضع آلة تسجيل في ثوب قدمه له مكتب التحقيق الفدرالي. وبينما كان هارون يتناقش مع الموفدين الكوبيين حول الوجود العسكري الكوبي في انغولا واثيوبيا جلس غايتس صامتاً وعمل كميكروفون بشري.

اجتمع كايسي مع مدير العمليات في عهد تورنر جون مكماهون لبعض الوقت يتناقشان. كان مدير العمليات منصباً حساساً ومديرية العمليات كانت أداة التغيير، ومكماهون الإيرلندي ذو الشوارب القديمة على طراز الستينات خدم في الوكالة ثلاثين سنة، وعينه تورنر مديراً للعمليات ليسيطر على المديرية التي لم يثق بها. انخرط في الوكالة عام ١٩٥١ بصفة محلل شيفرة وشق طريقه من خلال الأعمال الإدارية وعمل ضابطاً مسؤولاً عن طياري 42. وحين تأثرت سمعة الوكالة في السبعينات رقي مكماهون وعين مديراً لمكتب الاستخبارات الالكترونية وهو نوع غامض وهام من الاستخبارات ويعمل بواسطة الرادارات والتقاط الاتصالات. وقبل تعيينه مديراً للعمليات كان مكماهون يدير مجموعة أركان تورنر ويفكر في التقاعد. والمعروف عنه أنَّه رجل حذر. منذ بضعة سنوات عندما وضعت الوكالة يدها على ما اصطلح على تسميته «من يدعم ويمول عشرات المجموعات المعادية لوكالة المخابرات المركزية» وعلى بعض المنشورات مثل نشرة «المعلومات حول الأعمال الخفية» التي حاولت كشف عمليات وعملاء وكالة المخابرات المركزية، ثار مكماهون «أغبياء! أبناء الكلاب!» ودعا إلى اجتماع على مستوى عال وبدا عصبياً وقال: «نتجسس على الأميركيين.... وإذا تمسك أحدهم بهذا... ألا ترى؟ ما هذا المفاهيم»؟

ولم يحب كايسي مكماهون شخصياً مع أنَّه كان يبدو منفتحاً ومطيعاً للأوامر.

سأله كايسي: ما رأيك بالغطاء غير الرسمي؟ مثل إرسال بعض الشباب كرجال أعمال ومستشارين وإخراجهم من السفارات. واعترض مكماهون: الأمن والسيطرة وحاجة ضباط الوكالة إلى غطاء دبلوماسي.

ـ ما رأيك بعملية افغانستان؟

ـ إنها عملية مشتركة لشحن الأسلحة عبر مصر. إنَّ باكستان هي طريق المقاومة الأفغانية، والعربية السعودية قدمت المساعدات أكثر من وكالة المخابرات المركزية.

قال كايسي إنَّه يعتقد بأنَّها أهم عملية في عهد كارتر. وبأنَّ الرئيس ريغان يريد الاستمرار فيها وتعزيزها، وبأنَّها كانت نقطة احتكاك مع السوفيات.

ـ نعم، قال مكماهون بجفاف، كان الغزو السوفياتي خطأ جسيماً، ولكنه تعجب من أن تكون سياسة الولايات المتحدة بحاجة إلى إعادة تقييم؟ الجيش السوفياتي لن ينهزم وكل حركة أميركية ستواجه بحركة سوفياتية مضادة. هل تنجح السياسة الأميركية التي صممت

لتستنزف السوفيات؟ هل يمكن دعمها؟ هل نمارس ضغطاً دبلوماسياً على السوفيات لينسحبوا من أفغانستان؟

كلف كايسي زميله في الحملة الانتخابية ماكس هوغل بمهمة تقصي الحقائق وحضور المحاضرات وبأن يتعلم منها ما أمكن. وبعد ثلاثة أسابيع سأله كايسي. حسناً ماذا تريد ان تفعل؟ أجاب هوغل: سأترك ذلك لك. قال كايسي: هذا ما أريدك أن تفعله: مدير الشؤون الإدارية، وهو أحد المراكز الرئيسية الثلاثة: العمليات والتحليل والشؤون الإدارية.

في ١٣ شباط/فبراير أعلن تعيين هوغل مديراً للشؤون الإدارية، وسرعان ما تبين له أنَّ هذه وظيفة رجل أعمال تنحصر مهماتها بالإمداد واللوجستية والاتّصالات بين مركز قيادة الوكالة ومحطاتها في الخارج. إنَّها وظيفة هامة إلاَّ أنَّها لم تكن عمل مخابرات بالمعنى الحقيقي.

في أواخر شباط/فبراير حضر كايسي جنازاً لصديق قديم هو ريموند ديكي وهو جمهوري قديم ومحامٍ في واشنطن، وبعد الجناز عاد إلى سيارته وأرسل أحد حراسه ليطلب من أحد المعزين وهو ستانلي سبوركين أن يحضر لمقابلته.

كان سبوركين رجلاً بديناً اشعث الشعر، ولما حضر فتح سيارة المدير، فبادره كايسي: ستان شكراً على رسالة المديح والإطراء التي أرسلتها إلى لجنة استخبارات مجلس الشيوخ لم لا تعود معي في السيارة؟

قال كايسي: «أنظر، لقد خذلتني مرتين» ـ وهو يقصد عرضين لوظيفتين قدمهما له عندما كان في بنك الاستيراد والتصدير عام ١٩٧٤ و١٩٧٥ ـ والآن أريدك أن تعمل في وكالة المخابرات المركزية بوظيفة مستشار. وافق سبوركين بكل سرور وقال إنَّه ملّ الخدمة في جهاز الأمن والتبادل بعد ١٩ عاماً.

قال كايسي: «إنَّ عمليات الاستخبارات مختلفة، هي قاسية وفيها سفك دماء».

قال سبوركين: «لماذا تفعل ذلك؟»

قال كايسي: «هذا ما أريد أن أفعله. لا أريد أن أكسب بضعة ملايين أخرى من الدولارات. وإذا رأيت شيئاً تعترض عليه، مخالفاً لمبادئك فلا تفعله. نريد أن نعيد المياه إلى مجاريها بهدوء وعناية».

وصلت السيارة إلى مبنى قيادة الوكالة، وبعدما نزل كايسي أعادت سبوركين إلى الكنيسة. أحب كايسي سبوركين الذي كان معروفاً بنشاطه الكبير، وسأله مرة عندما كان رئيس جهاز الأمن والتبادل سؤالاً بسيطاً: ستان، ماذا تحتاج لتقوم بوظيفتك؟ وكان يريد إبقاء أو إنهاء تحقيقات جهاز الأمن والتبادل وأعطي السلطة لذلك. وبالنتيجة، كشف سبوركين عن رشاوى وأخطاء في الأعمال التجارية في ما وراء البحار.

وبرصانة واضحة قلل سبوركين من عدد أعضاء في فريق محاميه في بارك أفنيو. واعجب كايسي بالطريقة التي كان سبوركين يدير بها جلسات المفاوضات. كان ينحني على

كرسيه ويغمض عينيه ثمّ يفتحهما، ويقف ثمّ يختال في أنحاء القاعة ويرفع أصابعه ويصرخ: «لا يُصدّق» ثمّ يتسلل إلى الظلمة ويحدق ويبتسم. ويعود بعدها إلى طريقة التحري كولومبو الذي يسأل أسئلة بسيطة ويظهر أنّه مرتبك. إنّه مسرح حقيقي عرفه كايسي.

كانت الأسابيع الأولى لكايسي رائعة. وعومل كأحد عناصر مكتب الخدمات الاستراتيجية الذي عاد مظفراً! ولم يعرف أحد أنّه كان يرغب في وزارة الخارجية. ونظر الجميع إليه في الوكالة على أنّه كان مدير حملة الانتخابات وأنّ بإمكانه اختيار أية وظيفة. وناداه عناصر الوكالة «المدير» أو «المدير كايسي» أو «مدير المخابرات المركزية مختصراً DCI» أو «سيدي».! وهكذا كان سياق العمل. كان الموظفون يشاهدونه في الممرات ويزيحون من طريقه ويحيونه عن قرب.

وفي كل يوم كان المزيد من المواد المتراكمة والرسائل في مركز عمليات لانغلي يُلقي الأضواء على ما حدث في الليلة الماضية، ويُقدم إليه في ملف خاص، وكان هناك ملف آخر - يحتوي على تقارير السفارات ومحطات الوكالة كان عليه أن يوليه اهتماماً.

وكانت هناك نسخة مطبوعة عن الإيجاز اليومي للرئيس من عشر صفحات تحتوي على أفضل المعلومات، وترسل يومياً إلى ريغان وهيغ وواينبرغر و«يومية الاستخبارات القومية» وهي نشرة سرية جداً ومشفرة إلاّ أنها أقل حساسية وتعمم على مئات الموظفين في الحكومة.

وكانت ملفات حمراء كبيرة ترد إليه تحت طابع «سري جداً حساس ومهم» وهو الاسم المشفر لأعمال المراقبة، وتحتوي على التقارير الواردة من الأقمار الاصطناعية وبعض الاستطلاعات المصوّرة الأخرى. ومعظم تقارير الاستخبارات كانت ترد من عدة مصادر وهذا يعني أن بعضها يرد من صور الأقمار الاصطناعية ومصادر بشرية ليؤدي مع تقارير أخرى إلى استنتاج واحد.

حدث انقطاع مفاجئ في الأوراق وتعجب كايسي لذلك. وسأل: ما يجري هناك؟ وهناك تعني محطات الوكالة في الخارج. وأظهرت التقارير أن محطات كثيرة قدمت معلومات مهمة حول الدولة المضيفة والسفارة السوفياتية فيها. ولكن بعض المحطات أرسلت هراء. وزاد شوقه وتلهفه لزيارة محطاته.

في أوائل أذار/مارس طار كايسي إلى الشرق الأقصى وزار محطاته هناك، التي وضعت أنظمة مراقبة للوجود السوفياتي المتزايد. ورصدت المحطات بدقة دخول وخروج جميع المواطنين السوفيات وذلك عن طريق استخدام البوليس المحلي والجمارك والأمن العام والمخابرات الصديقة. وكانت المحطات تحصل على صور عن جواز سفر كل سوفياتي. وكان فريق مراقبة يلاحق ويراقب الأشخاص المهمين. وأمّن ذلك معلومات مهمة عن تحركات المسؤولين السوفيات. وعملوا على مراقبة الاتصالات الهاتفية للسوفيات وتسجيلها. وكان للمحطات عملاء يعرفون الأهداف السوفياتية. وبعض المحطات كان لها قيادات كبرى في

الحكومة المضيفة. لكن الاستخبارات السياسية كانت هزيلة.

وتدرج تقييم ضباط العمليات من ممتاز إلى مقبول ولم يرغب أحد منهم القيام بدور كبير، ولم يبذل أيٌ منهم جهداً في تنظيم لوائح بالأهداف المحددة أو في تجنيد عملاء بشريين وتركيز معدات تجسس ألكترونية. كانت المحطات تنتظر الفرص دون أن تبحث عنها. وسادها الشك والتردد. وفي كل مكان ذهب إليه اجتمع كايسي برئيس المحطة وضباط الأمن وقنوات الاتصال الخاصة. أراد كايسي أن يضرب المثل ويعطي الانطباع بأنه كرئيس لحملة ريغان الانتخابية، يمثل ريغان في سياسته الدفاعية والخارجية.

عاد كايسي إلى الوطن بانطباع مهم: إن حلفاء الولايات المتحدة وأصدقاءها يطلبون منها أن تتولى القيادة. ومحطاته كانت تتطلع إليه بأمل كبير.

- ٥ -

قرأ كايسي جميع المستندات المتعلقة بإيران في الوكالة منذ أن كسر كارتر وتورنر كرة الثلج فيها. وتعجب مثل الكثيرين. ماذا كانت تفعل وكالة المخابرات المركزية؟ هل فشلت المخابرات الأميركية كما قال مدير وكالة الاستخبارات الدفاعية تاي؟ ألم تعلم الوكالة شيئاً عن وضع الشاه المتقلب وحالته الصحية؟ إن واحدة من مهمات كايسي الأساسية تجنب حدوث مثل ذلك في إيران وفي سائر أنحاء العالم.

درست الوكالة عملية الإنقاذ الفاشلة للرهائن في ربيع ١٩٨٠ عندما أدى عطل في طائرات الهلكوبتر إلى وقف العملية. إن صور الحطام في الصحراء كانت رمزاً لضعف إدارة كارتر. ولم يكن من المفترض أن تنفذ هذه العملية. جون مكماهون مدير العمليات في الوكالة أرسل ستة عملاء إلى داخل إيران للمساعدة، وكان هذا العدد برأي كايسي قليلاً. وبعد مضي ستة أشهر على احتجاز الرهائن لم يكن لدى الوكالة عدد أكبر من العملاء داخل إيران كما كان ينبغي. قدم كايسي تقريراً سرياً جداً إلى الرئيس ريغان حول عملية الإنقاذ أظهر عدم كفاءة المصادر البشرية.

وهناك دراسة أخرى تحت طابع سري جداً اقتصر تعميمها على تورنر وعدد قليل من معاونيه بعنوان «إيران بعد الوفاة». كانت عبارة عن تحليل من مائة صفحة وموضوعها كيف ولماذا خسرت الوكالة الثورة الإيرانية.

نظم هذه الدراسة روبرت جرفيس وهو باحث في الوكالة وخريج جامعة كولومبيا في العلوم السياسية. وسمح له بالاطّلاع على كل ما لدى محللي الوكالة من تقارير من المصادر البشرية واتصالات وزارة الخارجية وصور والتقاطات وكالة الأمن القومي. وأمضى مدة شهرين بين أدراج الملفات، وقابل أربعة محللين رئيسيين في الوكالة من الذين أعدّوا تقارير الاستخبارات التي كانت تعمم على البيت الأبيض ووزارة الخارجية وغيرهما.

بدأت دراسة «إيران بعد الوفاة» بنقطة ناعمة. كانت إيران حالة صعبة ومن الممكن بسهولة لأي شخص أن يقع في الخطأ. لم يكن هناك مجال آخر لأن ثواراً غير مسلحين أطاحوا بحاكم قوي هو شاه إيران وقوته العسكرية والأمنية. ثم تابعت الدراسة طرحها لطريقة معالجة الوكالة للوضع في إيران، مشاكل المخابرات:

ـ لم يتسنَّ للوكالة أن تقفز فوق الأوضاع المتحركة والسريعة ووقع المحللون في شرك تلخيص الاتصالات اليومية الملتقطة والتي تنشر في «يومية الاستخبارات القومية» و«إيجاز الرئيس اليومي».

ـ قال المحلل الرئيسي لإيران وهو أرنست أوني إنه سمع أربع ملاحظات أو خمس من بعض مَن قرأوا التقارير ولكنه لم يتلق أي سؤال. لم يكن هناك جو مشكلة تحتاج إلى حل. وتراجعت الاستخبارات إلى عملية التفتيش على بعض الوقائع ورميها للناس. وإذا كانت مهمة الاستخبارات أن تتوقع ما يحصل في المستقبل فعليها أن تطرح بعض الافتراضات وهذا لم يحصل، بل اقتصر العمل على تخمينات دون أي أساس.

ـ إكتفت وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية بتقارير الصحف اليومية ونشرات التلفزيون. ولكن بعض الصحف مثل لوموند الفرنسية وأيكونوميست البريطانية كانت تخميناتها أفضل وأكثر، إلاّ أنها وصلت إلى الوكالة بالبريد العادي متأخرة أسبوعاً واعتبر ما نشر فيها أخبار قديمة ولم يكترث بها أحد. كانت عناصر قليلة تجذب انتباه المحللين ولم يظهر هناك ما يشير إلى أنهم على الطريق الخطأ.

ـ كانت محطة وكالة المخابرات المركزية في طهران منقسمة حول نفسها بشأن ما يجري في إيران، إلاّ أن هذه الانقسامات لم تظهر في التقارير التي كانت ترسلها.

ـ كانت الأولويات الرسمية لمحطة إيران أولاً السوفيات، وثانياً جهود إيران للحصول على أسلحة نووية، وأخيراً الوضع السياسي الداخلي، وقبل التغيير ببضعة أشهر بدأت الوكالة بتغيير الأولويات ولكن كان هناك شعور بأن ثورة سياسية تأخذ طريقها.

ـ لم يكن هناك أدوات تنصت ألكترونية في مكتب شاه إيران. ولم تتنصت الوكالة على اتصالاته الهاتفية. ولم يكن هناك معدات استخبارات ذات تقنية عالية داخل إيران ورفض السفير الأميركي وليم سوليڤان اقتراحاً لوكالة الأمن القومي بتركيز مركز تنصت متطور في السفارة على أن تدفع الحكومة الإيرانية ثلث تكاليفه لأنه كان يعتقد بأنه لن يتلقى معلومات مهمة من التنصت على الشاه، وبأن السافاك كان بمتناول يديه ويؤمن معلومات مهمة. لم يكن لوكالة المخابرات المركزية أي عميل براتب شهري! وكان هذا وضعاً خطيراً.

ـ إختارت الوكالة مجموعات من المعارضة بشكل خاطئ لتجمع منهم المعلومات، وكان لها عملاء في جبهة المعارضة الوطنية التي ينتمي عناصرها للطبقة المتوسطة. وفشل الأميركيون في فهم ضعف هؤلاء المعتدلين. والسؤال الذي كان يجب أن يطرح هو كم كانت قوة المعتدلين؟ ولو طرح هذا السؤال لاستطاع عناصر المحطة الوصول إلى رجال الدين وهم المعارضة القوية الحقيقية.

ـ كان هناك الكثير من الاتصالات داخل وكالة المخابرات المركزية وداخل وكالة الأمن القومي وداخل أجهزة الاستخبارات العسكرية حول إيران، بينما كانت الاتصالات قليلة

جداً بين وكالة الأمن القومي ووكالة المخابرات المركزية مثلاً، حول إيران.

ـ لم يكن هناك أي تفسير بديل للبيانات والتقارير ولم يجبر المحللون على إظهار الدليل الذي يدعم البدائل. ولم يكن هناك مراجعة صحيحة لأي دليل ولم يكن هناك نظام لمناقشة الافتراضات.

ـ إفترض عناصر محطة الوكالة في طهران أنه في أيامنا هذه لا يمكن للمعارضة الدينية أن تتحول إلى معارضة سياسية. ولم يتوقع السفير الأميركي في طهران أو محطة الوكالة أن يتحول الشعور القومي في إيران إلى شعور ضد الولايات المتحدة. مع أنه كان يمكن التوصل إلى هذا الاستنتاج من خلال رجال الدين الذين اعتبروا أن الشاه من صنع الولايات المتحدة بنسبة ١٠٠٪ وأنه دمية تحركها واشنطن ووكالة المخابرات المركزية.

ـ إعتمد تحليل الوكالة الطريقة الدائرية. بدأ بواقع أن الشاه يملك القوى الأمنية والعسكرية. مفترضاً أنه يمكنه أن يستعمل هذه القوة عندما يجد ذلك ضرورياً، ولأن الشاه لم يستعمل هذه القوة، اعتبرت المعارضة غير مهمة ولا تشكّل أي تهديد. وهذه دائرة منطقية لا يمكن اختراقها. واعتبر فشل الشاه في أن يقوم بعمل حاسم دليلاً على أن الأمور تجري على ما يرام. أمّا السؤال المطروح، فقد كان: ما الذي منع الشاه من استعمال القوة ليحافظ على سلطته؟ فشلت وكالة المخابرات المركزية في أن تعلم أن الشاه كان مصاباً بالسرطان، وأنه كان يأخذ علاجاً أدى إلى الحد من قدرته على اتخاذ القرار. وكان هذا جزءاً من المشكلة.

ـ كانت الكلمات والتعابير التي استعملت في التقارير تعني أشياء مختلفة، مثلاً عبارة «سيقوم الشاه بعمل حاسم» تعني للبعض أنه سيستعمل القوة لقمع أي انتفاضة شعبية، وتعني للبعض الآخر أنه سيجري إصلاحات في النظام ليحد من حكمه الاستبدادي!

ـ ورد في أحد تقارير وكالة المخابرات المركزية في آب/ أغسطس عام ١٩٧٨: «إن إيران ليست في وضع الثورة أو في وضع ما قبل الثورة»، وتوصل تقرير آخر في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٨ إلى نتيجة محددة هي «أن الشاه لم يصل إلى مرحلة الشلل وعدم تمكنه من اتخاذ القرار» وأنه كان بشكل عام «على اتصال وثيق بالواقع» وبينما بدأ الوضع في إيران ينهار لم يكمل أي تقدير استخباري قومي في تلك السنة. إلاّ أنه ورد تعليق لتورنر يقول: «ماذا يحدث إذا غزا الاتحاد السوفياتي إيران؟».

ما حدث في ايران، كان بمثابة إثبات لصحة وجهة نظر كايسي وهي أنه لا يجوز للاستخبارات أن تبقى كسولة، ويجب بذل جميع الجهود لحث صانعي القرار السياسي على التحرك. أراد مستشار الأمن القومي زبغنيو بريجنسكي من الشاه أن يستعمل القوة ليقمع ثورات وانتفاضات الشوارع، إلاّ أن وزير الخارجية سايروس ڤانس عارض استخدام القوة. ولم يستطع الرئيس كارتر أن يتخذ قراراً. والمحيّر في هذا الوضع أن شاه إيران كان ينتظر الإشارة من رئيس الولايات المتحدة، ليقول له ما يفعل. إن تردّد كارتر وتردّد الشاه كانا كل ما يحتاج إليه الثوار لتحقيق انتصارهم.

قال كايسي إن الجانب التحليلي في الوكالة بحاجة إلى هزة ويجب قطع بعض الرؤوس ودحرجتها. كان عليه أن يغيّر مدير العمليات جون مكماهون لأن طريقته في إدارة العمليات لم تكن تتناسب مع ما يريده البيت الأبيض. في اجتماع بين مكماهون وريتشارد آلن ومساعده باد نانس وهو أميرال بحري متقاعد، اقترح نانس على الوكالة أن تقوم بعملية خفية لنسف وتدمير حوض عائم لبناء السفن في أثيوبيا، لأن صور الأقمار الاصطناعية أظهرت أن لدى الاتحاد السوفياتي مدمرة أو طراداً في الحوض. أجاب مكماهون: لن نتورط في ذلك أبداً، إنه عمل حربي. وبعد الاجتماع قال آلن لنانس: «لقد أصبح الفيل البري صوصاً». وقرّر كايسي فصل مكماهون للقيام بمهام مديرية التحليل.

كان الخميني موضوع تداول في أحاديث البيت الأبيض وكان هناك شعور بوجوب الإطاحة به. وبعد مباحثات مع الرئيس، الذي أبدى اهتماماً بالموضوع، طلب من كايسي ما إذا كان هناك خطة للإطاحة بالخميني وإحلال رضا بهلوي ابن الشاه مكانه. وعندما عرض كايسي هذه الفكرة في لانغلي امتعض الجميع. «كانت إيران طفلاً ملوثاً». إن عائلة بهلوي كانت أسوأ. ولم يوافق أحد في مديرية العمليات على القيام بذلك. وعارضت وزارة الخارجية أيضاً. ولكن كايسي الذي كان يعرف ماذا يريد الرئيس شعر بأن على الإدارة الأميركية أن تقوم بعمل ما. وأفضل عمل هو الاتصال بالجماعات المعادية لنظام الخميني وإجراء مفاوضات معهم لمعرفة ما يمكن أن يقوموا به من أعمال معارضة. قدّم كايسي هذا الحل للرئيس ريغان وحظي بالموافقة عليه.

قرأ كايسي بإمعان معلومات المخابرات والملفات القديمة التي طالما أحب قراءتها واسترعى انتباهه الدولة الزراعية الصغيرة والفقيرة: السلفادور. السلفادور أي «المخلّص» كما سماها الفاتحون الاسبان يبلغ عدد سكانها ٤،٥ مليون نسمة وهي أصغر دولة في أميركا الوسطى وبحجم وشكل ولاية ماساتشوستس تقع على ساحل المحيط الهادىء وتبدو مختبئة في بطن اميركا الوسطى ولم تكن على اتصال بكوبا إلا عبر قناة باناما. وكان فيها ثورة شيوعية متنامية، ومن غير المسموح، كما قال الرئيس ريغان، أن نخسر ساحتنا الخلفية والأمامية.

أراد كايسي أجوبة. من يدعم الثورة اليسارية في السلفادور؟ ما مصدر الدعم العسكري والدعم السياسي؟ أين كانت خطوط مواصلات هذا الدعم؟ كيف يحصل ذلك رغم أنف الولايات المتحدة؟ وكيف يمكن وقفه؟

أمر ريغان بزيادة عدد الخبراء العسكريين الأميركيين في السلفادور من ٢٠ إلى ٥٠ وذلك لمساعدة الحكومة السلفادورية. وركزت الصحافة على الرقم، وكأنما تم قياس درجة حرارة وحماسة الإدارة، غير أن حرارة الارقام كانت عاملاً يثير المخاوف وينذر الولايات المتحدة بفيتنام جديدة.

لم تكن هذه هي المسألة بالنسبة إلى كايسي، فقد أظهرت التقارير أن ثوار السلفادور

يتلقون الأسلحة من جارتهم نيكاراغوا. وكان الدليل واضحاً في التقارير التي كان يتلقاها الرئيس كارتر. وقبل يومين من تركه الرئاسة كان هناك مذكرة تحتاج إلى توقيعه وتقضي بوقف المساعدات الأميركية إلى نيكاراغوا لأنها كانت تدعم ثوار السلفادور. والدليل كان تسرب مفكرة وأوراق الأمين العام للحزب الشيوعي السلفادوري شفيق حنظل. وتبين من المفكرة أن ثوار السلفادور ذهبوا عدة مرات إلى الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية وكوبا وعقدوا اتفاقات لتموينهم بالذخيرة والمساعدات الطبية، التي شحنت عبر كوبا ونيكاراغوا. وصودرت من ثوار السلفادور بنادق أميركية الصنع من طراز م ١٦ تبين من أرقامها أنها فقدت في فيتنام الشمالية خلال الحرب. وتكونت صورة واضحة عن مؤامرة شيوعية، وظهرت أيدي الاتحاد السوفياتي وكوبا وفيتنام واوروبا الشرقية ونيكاراغوا في إمداد ثوار السلفادور.

لم يوقع كارتر المذكرة وترك البت بالقضية للرئيس ريغان. في السنة الأخيرة، تمكنت الإدارة الأميركية من الحصول بصعوبة على موافقة الكونغرس على تقديم مساعدة لنيكاراغوا بقيمة ٧٥ مليون دولار. ولكن الكونغرس ذكر في موافقته أن على الرئيس أن يتأكد من أن نيكاراغوا لا تساعد ولا تدعم الثورات في أميركا الوسطى.

تحول الإهتمام الرئيسي إلى نيكاراغوا وفيها حكومة ماركسية عمرها ١٨ شهراً. وكان القادة النيكاراغويون أعضاء في الحزب السانديني والذي سمي بهذا الاسم تخليداً لذكرى الشهيد القائد الثائر أوغستو ساندينو، الذي قتل على يد أول حاكم من عائلة سوموزا. وتتمتع نيكاراغوا بموقع استراتيجي إذ إن لها سواحل على المحيط الهادىء غرباً وساحل على البحر الكاريبي شرقاً وتبلغ مساحتها سبعة أضعاف مساحة السلفادور.

اهتم كايسي بالاطلاع على المذكرة التي وقعها الرئيس كارتر بعد ستة أشهر من سيطرة الساندينيين على الحكم والتي تسمح لوكالة المخابرات المركزية بتقديم الدعم السياسي والمالي لمعارضي الساندينيين، وتقديم الأموال اللازمة للمحافظة على استمرار إصدار صحيفة لابرنسا. وكان هذا تحركاً ضد حكم الحزب الواحد وعملاً سياسياً وبرنامجاً لدعم القوى الديموقراطية تمهيداً لطرحها بديلاً للساندينيين.

كان الهدف من الأعمال الخفية بناء علاقات وروابط للوكالة، والتأكد من أن لها اتصالات واصدقاء بين القادة الجدد والحكومة الجديدة، وأنفقت آلاف الدولارات بصورة سرية لهذا الغرض مما يظهر أن الإدارة السابقة تنبهت لخطر الساندينيين.

تبين لكايسي أنه ليس لدى وكالة المخابرات المركزية اختراقات أو مصادر بشرية بين الساندينيين. أما الدكتاتور اليميني انشازو سوموزا فقد كان لجهاز مخابراته اختراقات بينهم، ولكنه ترك ملفات المخابرات وفرّ إلى خارج البلاد، ووقعت هذه الملفات في أيدي الساندينيين. عندها تخلص الساندينيون من المتعاونين مع سوموزا والذين كانوا المصدر الأساسي لمعلومات وكالة المخابرات المركزية.

هذا الوضع ذكّر كايسي باعتماد وكالة المخابرات المركزية على السافاك في إيران. واكتشف أن الوكالة كانت تدعم أجهزة مخابرات الدول في العالم الثالث وتعتمد عليها. كان يريد مصادر بشرية خاصة بالوكالة، تدفع لها وتتحكم بها. يريد أشخاصاً لا يُغرَّرون بثروات السلطة وخاصة في الأنظمة غير المستقرة في أميركا اللاتينية وافريقيا.

أظهرت معلومات الاستخبارات أن كوبا اخترقت الحكومة الساندينية. وكان هناك نحو ٥٠٠ كوبي يتولون مناصب عسكرية واستخبارية ويشرفون على مراكز الاتصال الهامة. وكانت منظمة التحرير الفلسطينية فاعلة في البلاد وزار رئيسها ياسر عرفات نيكاراغوا. وتبين لكايسي كذلك أن كل العالم الشيوعي: السوفيات والكوريون الشماليون ودول الكتلة الشرقية، كان له حضور فاعل.

هكذا أصبحت نيكاراغوا ملاذاً للثوار السلفادوريين فتمكنوا من ممارسة نشاطهم بصورة طبيعية داخل البلاد وكانت لهم مراكز استراحة وتجمع وملاجىء وقواعد انطلاق إلى داخل السلفادور للقيام بعمليات عسكرية ينسحبون بعدها.

بعد شهرين من انتصارهم عقد القادة الساندينيون جلسات متواصلة لمدة ثلاثة أيام لوضع الخطط العامة. وانتهت هذه الاجتماعات بتقرير داخلي من سبع عشرة صفحة عرف بوثيقة الـ ٧٢ ساعة. وردت فيه تعابير «الصراع الطبقي»، و «الحزب الطليعي»، و«البورجوازية الخائنة»، و «الثورة الأممية» بكثرة. وكان الساندينيون يقاتلون ضد «الامبريالية الأميركية عدوة الشعوب المناضلة من أجل التحرير»، وتضمنت هذه الوثيقة تصريحاً هاماً من الساندينيين بأنهم سيساندون حركات التحرر الوطني في أميركا الوسطى. وكان لديهم، حسب رأي كايسي، العقيدة والإيمان والوسائل لتحقيق ذلك.

في ماناغوا عاصمة نيكاراغوا رأى السفير الأميركي بوزيلو أنه يمكن التحكم بالمشكلة الساندينية وحلها دبلوماسياً. بوزيلو دبلوماسي محترف عمره ٥٥ عاماً، اعتبر أن الساندينيين مجموعة من الأولاد غير قادرين على حكم زاوية في محل تجاري. وكان معظم القادة الساندينيين من المراهقين عندما تطوعوا للقتال ضد سوموزا. وحققوا انتصاراً لم يتوقعوه وتسلّموا السلطة دون مخطط عمل. وكان بوزيلو يعلم، وهو اختصاصي في شؤون أميركا اللاتينية، أن معظم الانتلجنسيا في أميركا اللاتينية لها ميول ماركسية. ولكن يمكن التعامل معهم. من المهم بالنسبة إلى الدبلوماسي أن لا يحمل ادعاءاتهم الثقافية والأدبية على محمل الجد. وعلى الولايات المتحدة أن تكون متسامحة بأدبياتها وإعلامها، و خصوصاً ما كان يصدر عن وزير الخارجية الجديد هيغ. وشبه بوزيلو مشكلة الساندينيين بالعصا والجزرة. وضغط بشدة عام ١٩٨٠ من أجل منح مساعدة اميركية بقيمة ٧٥ مليون دولار، فأعطاهم بذلك الجزرة. وراقب عن كثب تقارير وكالة المخابرات المركزية، ولم يكن هناك أدنى شك في أنهم يساعدون الثورات في أميركا الوسطى وخصوصاً ثورة السلفادور. وتحدث في ذلك مع وزير

الإصلاح الزراعي جيم ديلوك وهو عضو مجلس قيادة البلاد والذي قال لبوزيلو: «إنه ليس من شغلك».

أجابه بوزيلو: «أنظرْ. أريد أن أتكلم بصراحة تامة» وها هو يسحب العصا: «لقد أمضيت عشرة أشهر أحارب من أجل ذلك المبلغ الملعون من المال (٧٥ مليون دولار) وإذا كان ذلك موقفكم فإني أطلب منكم أن تتوقفوا عن ذلك».

وأجاب ديلوك بأن لنيكاراغوا الحق بأن تكون لها سياستها الخارجية الخاصة، يجب أن لا تستعمل المساعدة الأميركية كابتزاز. وكان ديلوك حسب رأي بوزيلو الأكثر ثقافة وتعلماً في القيادة الساندينية، ولهذا كان له نفوذ داخل الحكم.

ويرى بوزيلو أن ديلوك كان المتضرر الأكبر. وأضاف قائلاً له: لك الحق في أن تفعل ما تريد ولنا الحق في أن نفعل ما نريد، فلا نعطيكم المال.

وشعر بوزيلو بأن محطة الوكالة كانت في حوار معه ومع لانغلي كما لو كان هناك شيء يشبه الديك ويمشي مثل الديك فهذا يعني أنه الديك. ولذلك إذا كانت الساندينية حركة شيوعية فستكون حتماً تحت سيطرة كوبا وموسكو. وكانت معلومات الاستخبارات الأولية عام ١٩٨٠ حول الثورة الساندينية ومدى انتشارها ما وراء الحدود متفاوتة. لا مصادر محددة. لاصور. لا وثائق.

بعد انتصار ريغان في الانتخابات الرئاسية وعندما وقعت مفكرة زعيم الحزب الشيوعي السلفادوري حنظل في أيدي وكالة المخابرات المركزية، ذهب بوزيلو إلى وزير الداخلية النافذ توماس بورج وسأله عمن يدعم ثوار السلفادور؟

أجابه بورج: «أنت تعرف يا بوزيلو أن هؤلاء أصدقاء» وصرخ بوزيلو: «أصدقاء !!..»، وبدأت بينهما مشادة كلامية وحاول بوزيلو أن ينتزع اعترافاً من الساندينيين بأنهم كحكومة متورطون في دعم ثورة السلفادور، ثم يدعهم يرون نتائج هذا العمل. إن تورطهم هناك يعتبر خطيئة مميتة بالنسبة إلى إدارة ريغان الجديدة وانحيازاً يضعهم في مصاف الروس والكوبيين.

في منتصف شباط/ فبراير استدعى وزير الخارجية الكسندر هيغ بوزيلو إلى واشنطن للتشاور، وأبلغه أنه قد جمّد مبلغ الـ ١٥ مليون دولار الباقي من المساعدة لكنه لم يلغ. وكان برأي بوزيلو أن هذا الإجراء يمكن أن يجذب انتباه الساندينيين. واطلع بوزيلو في واشنطن على بطاقة اختيار سرية في وزارة الخارجية تضمنت ثلاثة خيارات دعت جميعها إلى إلغاء المساعدة. قال بوزيلو لهيغ إن الخيارات الثلاثة مماثلة لبعضها البعض وطلب البحث عن خيار آخر. واقترح الخيار صفر أي عدم تغيير الوضع الراهن ثم زيادة الضغط الدبلوماسي والمحافظة على شدته. وردت بعض الاشارات إلى أن تدفق السلاح إلى السلفادور قد توقف. وبعد مناقشة طويلة قال هيغ: «فليكن الخيار صفر».

اصطحب هيغ السفير بوزيلو إلى البيت الأبيض حيث تباحث مع ريغان وقال له إنه ما يزال ممكناً التعامل مع الساندينيين، وشجعه الرئيس على ذلك. واقتطف ريغان حديثاً لصديق مكسيكي قال له: «لا ترتكب غلطة أمركة مشكلة اميركا الوسطى».

فيما بعد قال بوزيلو لهيغ إنه يجب عدم الاختباء من الحقائق الأساسية. شعر الساندينيون بأنهم قريبون من ثوار السلفادور وهذا لن يتغير. لن يبيع الساندينيون صداقتهم بمبلغ ١٥ مليون دولار. ولكن يمكن للولايات المتحدة أن تغير موقفها وتعمل لوقف دعم الثوار بالسلاح. قال هيغ إنه تفهم الوضع.

أضاف بوزيلو: يلزم مجهود كبير للإطاحة بهؤلاء الصبية. وكان يلمح إلى البديل وهو عمل شبه عسكري وخفي للإطاحة بالنظام. ولكي تقوم بذلك عليك أن تتحمل مصاعب كبيرة. إنهم صبية قساة وعليك أن تقوم بعملية جهنمية للإطاحة بهم، ولا أعتقد أن بإمكاننا ذلك. ثم أضاف أن رصيد الإدارة الجديدة المحافظ والمعادي للشيوعية له تأثير كبير. واقتنع الساندينيون أن الولايات المتحدة جادة ولن تنحني.

هيغ الذي تدرب على أيدي نيكسون وكيسنجر عرف أصول لعبة الاستمرار. وشهد وهو ضابط صغير تعثر الولايات المتحدة في كوريا وبعدها في فييتنام. يمكن أن تكون معلومات الاستخبارات ضعيفة والنصائح فارغة ولكن المشكلة الحقيقية كانت في انهيار الإدارة. والآن ها هو الموجه لرئيس غير ملم في الشؤون الخارجية. يجب فرض آرائه على الرئيس.

كان هيغ ينظر إلى ما وراء نيكاراغوا وكان يقول إنه يجب القيام بشيء ما من أجل وقف تصدير السلاح من كوبا. أراد حظراً وكما قال في أحد اجتماعات البيت الأبيض: «عد إلى المصدر».

قلق مساعدو ريغان ميز وباكر وديفر من أن هيغ ربما يخلق حمى حرب ويخيف الرأي العام ويدفعه إلى الاعتقاد بأن ريغان سيورط الولايات المتحدة عسكرياً في أميركا الوسطى. أرادوا أن تبقى عين الرئيس على الكرة المحلية. الاصلاحات الاقتصادية وإصلاحات الضرائب. إن أي أزمة خارجية أو مواجهة عسكرية وخصوصاً مع كوبا، مع كل ما تعنيه أزمة الصواريخ في كوبا عام ١٩٦٢، ستؤدي إلى وقف العمل في البرنامج الداخلي.

آن الأوان لاتخاذ إجراء معتدل. اقترح كايسي شيئاً ما في الوسط، بين عدم القيام بأي شيء والعمل العسكري، كالحظر البحري على كوبا. وأعد العمل الخفي لهذا الغرض ببطء وقوة وحزم وسرية. وحصل على مسودة نتيجة بحث، لم تكن موجهة نحو مركز الاضطرابات أي كوبا، ولا حتى نيكاراغوا، بل نحو الدولة المهددة وهي السلفادور. ودعت نتيجة البحث إلى حملة دعم إعلامي وسياسي ومالي للديموقراطيين المسيحيين وضباط الجيش في السلفادور.

في ٤ آذار/مارس وقع الرئيس نتيجة البحث تحت طابع سري جداً. واقترحت الوكالة

مهندساً مدنياً يبلغ ٥٥ سنة من العمر كان قد درس في الولايات المتحدة في جامعة نوتردام ويدعى جوزيه نابليون دوارت لوضعه على لوائح الوكالة كشخص مهم مع أعطائه اسماً مموهاً. وكان الأشخاص المهمون في الوكالة يتدرجون من مخبرين عاديين قد لا يعرفون بأنَّهم يعطون معلومات لها عبر أشخاص لهم سيطرة تامة عليهم. وكان هناك فجوة واسعة بين الواقع وبين ما هو عليه دورات. كان مصدراً ممتازاً للمعلومات خلال سنين عديدة ولكنه كان مستقلاً يصعب السيطرة عليه، ومن المحتمل أنَّه لم يكن يعرف أنَّه يعطي معلومات لوكالة المخابرات المركزية. وفضل كايسي هذه الطريقة. زعيم قوي يُحرّك من مكتب الوكالة. وفيما بعد ترأس دورات المجلس العسكري المدني الذي حكم السلفادور والذي دعمته الولايات المتحدة.

في لانغلي تركز الأميرال بوبي انمان في مكتب نائب المدير في الطابق السابع قرب مكتب المدير. وكان المكتبان يشرفان على ريف فرجينيا الأخضر. كل ما حولك أخضر ويوحي بأنَّ الوكالة معزولة وسط غابة كثيفة.

صباح الثلاثاء في العاشر من آذار/مارس اهتم انمان بعنوان الصفحة الأولى لصحيفة نيويورك تايمز: «المجموعات الاستخبارية تبحث عن صلاحية لتحصل على معلومات عن المواطنين الأميركيين». وتحدث الخبر عن مشروع أمر تنفيذي لرفع بعض القيود عن الوكالة حول التجسس ومكافحة التجسس في الوكالة المتحدة. تسرب مشروع أمر تنفيذي من ١٦ صفحة وضعت مسودته في وكالة المخابرات المركزية وأطلع عليه انمان في اليوم الماضي. لقد كانت هذه المسودة برأيه كارثة. وخلال الأيام الأولى لتسلمه الإدارة كلف كايسي المستشارين القانونيين في الوكالة العمل على إصدار أمر تنفيذي جديد. وكانت هذه أول مسودة اقترحت إلغاء بعض القيود على أعمال الوكالة كان قد فرضها فورد وكارتر. ألغت المسودة دور وزارة العدل في مراجعة العمليات السرية وأعطت لوكالة المخابرات المركزية الصلاحية في إدارة الأعمال الخفية داخل الولايات المتحدة. وعرف انمان أنَّه ليس من السهل تمرير هذه المسودة لأنَّ دعاة الحقوق المدنية كانوا يقفون بالمرصاد وهذا ما يدفع بعض المتشددين في الإدارة إلى التمسك بمواقفهم.

شاهد انمان كوماً من الأوراق على مكتب كايسي في الغرفة المجاورة. كما تبين له أنَّ كايسي وقع بالأحرف الأولى على مسودة الأمر التنفيذي مما يعني أنَّه قد اطلع عليه وأقرّه. أَوَ لَمْ يُخفِ المدير قلقه من أنَّ الأوامر التنفيذية القديمة كانت تستخدم أوصافاً مذلة مثل «فضائح» و«سرية» لوصف نشاطات الوكالة؟ أراد استعمال كلمات إيجابية. وقرر انمان أن يتصرف بناءً على أنَّ المسودة ذهبت بعيداً في طروحاتها، وأنَّه سيستقيل إذا أُقرَّت. لا يمكن القضاء على مسودة الأمر إلاَّ بموقف دراماتيكي عام من عناصر الوكالة. كان كايسي في الشرق الأقصى وانمان يقوم بوظيفة مدير بالوكالة، وهكذا، ودون أن يستشير أحداً، دعا الصحافيين إلى لانغلي لحضور مؤتمر صحافي نادر الحصول.

ظهر اثمان مرتدياً ملابسه العسكرية وتناول المسودة وقال للصحافيين إنَّه لا يوجد نية للمتابعة تحت هذا الخط. وتخوف مستشار شؤون الأمن القومي ريتشارد آلن من ذلك وأعلن ميز أنَّ الإدارة لا تنوي أن تكلف وكالة المخابرات المركزية بالتجسس داخل البلاد، متفقاً مع اثمان في ذلك. واستنتج اثمان أنَّ ميز هو أفضل حليف له في الإدارة. ولما عاد كايسي من رحلته، لام اثمان لعدم الاتّصال به، حول مسألة المؤتمر الصحافي. وكان اثمان يعتقد بأنَّه يحاول التأثير على الجماهير بواسطة الصحافة وذلك بإظهار قلق وكالة المخابرات المركزية من التجسس على الأميركيين. وأضاف أنَّه لم يرغب في القيام بأي عمل لأنَّ التجسس على الأجانب لم يكن كافياً.

في ١٧ آذار/مارس ألقى كايسي خطاباً في يوم القديس باتريك في نيويورك حول اللّه والعواطف والوطنية. وصرح بأنَّ «هناك أشياء صحيحة وأشياء خاطئة، صحيحة إلى الأبد وخاطئة إلى الأبد».

اعتقد جون بروس الذي كان ما يزال يساعد كايسي بأنَّه كان يعني ما يقول. هناك لحظة يتكلم فيها الإنسان بعقله ولحظة يتكلم بقلبه ولحظات نادرة يتكلم بالاثنين معاً. وأدرك بروس أنَّ تلك كانت طريقة كايسي. إنَّ الإيرلندي القاسي والبارد كان يعرف الصواب من الخطأ.

بعد أيام دعا كايسي بوزيلو الذي حضر مرة ثانية إلى واشنطن، إلى مكتبه للحديث حول الساندينيين. وكان بوزيلو قد أبلغ بأنَّ المساعدات الأميركية لنيكاراغوا ستقطع نهائياً. ولم يكن سعيداً بذلك. وأعلن في جولته في وزارة الخارجية أنَّ الولايات المتحدة تبعد أوراقها وأنَّ إقفال باب المفاوضات كارثة. أراد كايسي التحدث إليه لأنَّه أكثر من عرف الساندينيين وأميركا اللاتينية.

عندما وصل بوزيلو إلى مركز قيادة وكالة المخابرات المركزية استقبله جون مكماهون الذي كان ما يزال مديراً للعمليات ونستور سانشيز الخبير بشؤون أميركا اللاتينية وهو من دبلوماسيي السفارة الأميركية في ماناغوا وعمل رئيس محطة الوكالة في السفارة.

قال سانشيز لبوزيلو إنَّ المدير نادراً ما يصرف أكثر من ١٥ دقيقة من وقته في هذه الإيجازات، لذلك قل ما عندك ببساطة فإنَّه قد يفقد صبره وينزعج، وإذا تابعت فإنَّه سينعس.

هل تستطيع العمل مع الساندينيين؟ ماذا يشبهون؟ قال كايسي. وأجابه بوزيلو نعم . . إنَّهم يستجيبون لضغوطاتنا ولكنهم مراوغون. إنَّ القيادة الساندينية غير مستقرة ويمكن استغلال خلافاتهم الداخلية.

قال كايسي: إذا كنت كاسترو من كنت تدعم داخل الفريق الحاكم؟ أجابه بوزيلو: الإخوة أورتيغا وهو يعني دانييل أورتيغا وشقيقه همبرتو أورتيغا وزير الدفاع.

وكان الكوبيون يحيطون ببورغ وهو رجل فاسد ومتقلب الرأي حسب قول بوزيلو. الكوبيون كانوا في كل مكان. إنَّهم مثل «مرض المؤخرة» ولكن كانت تعوزهم البراعة. واشتكى بورغ مرة لبوزيلو حول وضع الكوبيين وهزئ بهم. وعندما حضر أحد أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي إلى ماناغوا احتج بورغ إليه من أنَّهم كانوا يتلقون الأوامر مثل أي أداة حزبية.

سأل كايسي: ماذا يريد الساندينيون؟

أجاب بوزيلو: إنهم يريدون إقامة علاقات طبيعية مع الولايات المتحدة والدليل هو أن تدفق السلاح إلى السالفادور قد توقف. سأل كايسي: هل توقف فعلاً؟

أجاب بوزيلو: بكل تأكيد، لم يخرج أي شيء من حدود نيكاراغوا منذ إغلاق المطار الرئيسي. ولم يسمح للطائرات بالهبوط، كما أنَّ مجموعة الطيارين الكوستاريكيين تفرقت. ووافق مكماهون وسانشيز ورئيس محطة الوكالة على ذلك.

أحد الطيارين الكوستاريكيين الذي تحطمت طائرته ونجا، كشف الكثير عن عمل شبكة التموين. ورحل المنسق الكوبي للشبكة، والأثر الوحيد الباقي كان إحدى شبكات الراديو التي ما زالت تعمل وربما وضعت في مكان غير ظاهر.

انزعج بوزيلو وقال إنَّ وكالة المخابرات المركزية لم تظهر في تقاريرها أي شيء يتحرك أو ينتقل براً أو بحراً أو جواً. وافق الجميع ومن ضمنهم كايسي على ذلك إلاَّ أنَّ بوزيلو قال. لا أريد أن أمزح معكم، ستبقى قلوب وعواطف الساندينيين مع ثوار السلفادور. سيتفقون معهم ويؤمنون لهم الملاذ والعناية بالمرضى والانتقال عبر نيكاراغوا إلى كوبا وبالعكس، وبالنسبة إلى تدفق السلاح فإنَّه يمكن أن يبقى متوقفاً إذا استمرينا بدفع الثمن.

قال كايسي: إنَّ هذا البلد يتحول إلى عش للسوفيات وللكوبيين.. وهذا مصدر القلق.

يجب أن نحافظ على برودة أعصابنا، قال بوزيلو ثم أضاف: كما يجب أن نقوم بما تمليه علينا مصلحتنا دون أن نتأثر بالخطابات الرنانة من عندنا أو من عندهم.

سأل كايسي: ما هو مدى سيطرة الساندينيين؟

أجاب بوزيلو: إنها تتهاوى وتتآكل ولم يكن ذلك في مجال السيطرة على الثورة، ولكن من بعض القادة الذين فقدوا احترام الناس. ويخطئ من يعتبر الثورة غير شعبية فللثورة شعبيتها القوية، وهؤلاء الرفاق يستخدمون الثورة غطاء لهم، وكلما هوجمت الثورة ازدادت قوتها. إنَّ عهد سوموزا هو عهد الذل والهوان. وانتقاد الولايات المتحدة للثورة يفسر على أنَّه دعم للماضي أي لسوموزا. لذلك كان الساندينيون على استعداد لأن يدافعوا عن أنفسهم ضد أي ثورة مضادة. إنهم حذرون. إنَّهم جنود. لقد كان تسليحهم ضعيفاً في السنوات الماضية، ولذلك أحبوا الدبابات والمدفعية كثيراً لأنَّها تشعرهم بالأمان. أرادوا أن يزيدوا من قوتهم. أقنعهم الكوبيون بأنَّ ذلك هو الطريق الصحيح، طريق المحافظة على الثورة.

سأل كايسي بوزيلو: هل نزيح هؤلاء الصبية؟ وهل تؤيد أي عمل خفي للإطاحة بهم؟

كرر بوزيلو ما قاله هيغ. «إذا مشيت في هذا الطريق فإنّك ستضيع أكثر مما تظن. الساندينيون هم أفضل المقاتلين في أميركا الوسطى».

بعد حوالى ساعة أشار كايسي إلى أنّه سمع بما فيه الكفاية. غادر بوزيلو. أبدى مكماهون سروره، كان مسروراً لأنَّ كايسي أبدى سروره. لم يحبذ مكماهون أي عملية خفية، وبعض آراء بوزيلو كانت من ضمن الأفكار التي يؤمن بها.

اعتقد بوزيلو بأنَّ كايسي كان مستمعاً جيداً وأدرك أنَّ المعلومات الأولية يمكن أن تؤدي إلى استنتاجات خاطئة. ما قيل في تلك الجلسة، أثار قلق كايسي حول الوجود الكوبي في نيكاراغوا. وأعطيت توجيهات لوكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي ووكالات الاستخبارات العسكرية بجمع المعلومات حول هذه المسألة.

في بعض الأحيان، يؤدي عمل المخابرات إلى استنتاجات خاطئة. مثلاً كان عدد الكوبيين كبيراً، ويجب التحقق منه. بعد إيران لم يرغب أحد بكارثة تالية.

عاد بوزيلو إلى ماناغوا وأعلنت وزارة الخارجية وقف المساعدات الأميركية لنيكاراغوا، ومع ذلك أشادت وزارة الخارجية بوقف تدفق الأسلحة إلى السلفادور.

أثار وقف المساعدات الأميركية العداء للولايات المتحدة. واعتبرت صحف الساندينيين القرار بأنّه: «اعتداء اقتصادي يانكي(*)» وقال تلفزيونهم «إنَّ الهدف النهائي لمثيري الحرب هو إنهاء السلطة الشعبية في بلادنا». واعتقد بوزيلو بأنَّ الإدارة الأميركية أزالت نفوذها بهذا القرار وأنّه لم يعد هناك مبرر لوجوده، ولم تعد أمامه أي فرصة للعمل.

بعد شهرين وعشرة أيام من تسلمه الرئاسة، أطلق جون هينكلي النار على ريغان وأصابه بطلقة استقرت على بعد إنش واحد من قلبه وأزيلت بعملية جراحية. وقال ريغان لزوجته فور إصابته «يا عزيزتي نسيت أن أحني رأسي». وقال للأطباء: «أرجوكم قولوا لي هل أنتم جمهوريون». وقد أكسبه مظهر الشجاعة ورباطة الجأش ثناء واحتراماً محلياً وعالمياً. وبعد أسبوعين أي في ١١ نيسان/أبريل غادر المستشفى وسمح للصحافيين بتغطية أنباء الشفاء العجيب للرئيس البالغ من العمر ٧٠ سنة. وكان وجهه أنحف إلاَّ أنّه بدا مشرقاً. وكان يرتدي كنزة حمراء ووضع يده على يد نانسي ورفعها عالياً. في مثل هذه الليلة منذ تسعة أشهر تقرر تسمية الحزب الجمهوري لرونالد ريغان مرشحاً لرئاسة الجمهورية. الابتسامة الشهيرة كانت سليمة كما كانت الرئاسة تماماً.

في صباح اليوم التالي قام الرئيس من غرفة النوم إلى الغرفة المجاورة ومشى ببطء

(*) تعبير عامي يعني الأميركي الشمالي.

وبخطوات مترددة. كان شاحباً وبدا ضائعاً وتخوف الذين راقبوه من وضعه وعرَّج على المكتب البيضاوي الأصفر ولما هم بالجلوس وقع في منتصف الطريق وإنهار على كرسي.

تكلّم كلمات قليلة وكان يصدر معها صفيراً مزعجاً. كان يتوقف ليلهث. وأمسك بجهاز التنفس الموجود إلى جانبه وتنشق الأوكسجين وعلا صفيره في الغرفة. لم يستطع ريغان تركيز تفكيره إلاّ بضع دقائق ليتعب بعدها عقلياً وجسدياً. وكانت رئته المجروحة تعتمد على جهاز التنفس. وفي الأيام التالية أصبح قادراً على العمل أو البقاء بحالة انتباه دائم لمدة ساعة واحدة فقط في اليوم. وقلق ميز وباكر وديفر من وضعه وهم من بين القلائل الذين سمح لهم بالدخول إليه. من المفترض أن يكون ذلك بداية لرئاسة ريغان ولكن بدا للحظات أنها نهاية لرئاسة ريغان أي ريغان الذي عرفوه. عندما يشتد عليه الألم كان يصيح وينطق بكلمات غير واضحة. وساور القلق مساعديه من أن تصبح الرئاسة مشلولة!

كان في نيّة جميع المساعدين الكبار المحافظة على السر الخطير، وذلك حتى يصبح بالإمكان التكهن حول وضعه الصحي. وشعر هؤلاء بضرورة اتخاذ جميع الإجراءات للحفاظ على البلاد ومؤسساتها. وأحسوا بأن الذي جُرِح يتجاوز شخص الرئيس ويمتد إلى الوطن بكامله.

في يوم محاولة الاغتيال ٣٠ آذار/مارس ١٩٨١ تعطلت أشياء كثيرة وسأل أحد الصحافيين على التلفزيون: مَن يدير الحكومة؟ فأجابه لاري سبيكس الناطق باسم البيت الأبيض: لا أستطيع أن أجيب الآن. أما هيغ الذي كان يراقب الأوضاع فمشى أمام الكاميرا وقال واضعاً نفسه في سلسلة نواب الرئيس، أنا أتولى الحكم هنا في البيت الأبيض، مخالفاً بذلك الدستور الأميركي.

في المستشفى حيث كان يعالج الرئيس ريغان، خاض المساعد العسكري للرئيس وضابط الأوامر في الحرب الطارئة الذي كان يحمل الشيفرة والأوامر التي يستعملها الرئيس ليطلق الأسلحة النووية، معركة خاسرة مع رجال مكتب التحقيق الفدرالي حول مصادرة ثياب ريغان ومحتوياتها لاستعمالها كدليل جرمي. وحمل عناصر مكتب التحقيق الفدرالي بطاقة الشيفرة الخاصة بالرئيس والتي كانت في محفظته. وتحوي هذه البطاقة على الشيفرة التي تستعمل لإصدار الأوامر لضربة نووية في حالة الطوارئ. وأصرّ المسؤولون الرسميون في إعلامهم على أنه لم تفقد السيطرة على الأسلحة النووية الأميركية، ولكن كان هناك ارتباك في إدارة هذه الأسلحة.

وساد القلق حول وضع السلطة التنفيذية بعد الحادث. وبعد عشرة أيام من الاستراحة في البيت الأبيض، والتي كانت مفيدة أي في ٢٢ نيسان/أبريل أدلى ريغان بحديث يعرض فيه خططه لخفض الضرائب. وفي اليوم التالي سمح لكبار المراسلين بمقابلته، وبدا بحالة جيدة، ولكنه لم يستطع أن يتحمل كثيراً واستمر مساعدوه في القلق على وضعه الصحي.

يوم السبت في ٢٥ نيسان/أبريل ذهب آل ريغان إلى كامب ديڤيد في ولاية ماريلاند لتمضية عطلة نهاية الأسبوع. وأيام الربيع في الطبيعة تصنع المعجزات! وعندما عاد إلى واشنطن بدا لاذعاً في كلامه وكأن الأزمة قد انتهت.

لم تكن رئاسة ريغان طبيعية من الداخل. كان هناك إحساس بالخطر من أي شيء يمكن أن يضرب (الإرهاب، السوڤيات) وأصبح ذلك علامة مميزة لسياسة ريغان. أدرك كايسي أن جزءاً من عمله كان حماية الرئيس، وكان يتابع كل تقرير يتلقاه حول مؤامرة مدبّرة ضد ريغان مهما كان تافهاً، على الرغم من أن المحللين وضباط العمليات أشاروا إلى أنه يجب أن لا تحمل هذه الأخبار على محمل الجد. وبشكل عام، كان يقال: هناك صبي في ملهى في تنزانيا يريد أن يغتال ريغان.

بعد كل تقرير كان كايسي يقول: «أريد فريق عمل حول هذا التقرير». أجرى كايسي تدقيقاً في ملفات الوكالة حول جون هينكلي. بعد عشرين عاماً على اغتيال جون كينيدي طرحت أسئلة حول علاقة لي هارفي أوزوالد بالمخابرات السوڤياتية. أراد كايسي أن يتأكد الآن. لم يكن هناك أي شيء. وجعلت محاولة الاغتيال هذه كايسي أكثر قلقاً في عمله وخصوصاً لجهة تنظيم تقدير خاص حول السوڤيات والإرهاب. وتأكد من أن الوكالة لم تترك أي حجر دون أن تقلبه حول ذلك الموضوع.

وتأثر كايسي بمقال نشرته صحيفة نيويورك تايمز في ١١ آذار/مارس عنوانه: «الإرهاب: تقصي الشبكة الدولية» بقلم كلير سترلنغ مقتبس عن كتابه حول شبكة الإرهاب وهو الكتاب الذي تأثر به هيغ. وبدأ المقال بمقتطف من كلام هيغ يؤكد فيه تورط السوڤيات في الإرهاب الدولي.

قال سترلنغ إن خبراء وكالة المخابرات المركزية اعتبروا أن تهم هيغ لم تكن أكثر من «نشيد المحارب» ولم يكن فيها أي دليل. وذهل كايسي لاستنتاج سترلنغ «إن هناك دليلاً قوياً على أن الاتحاد السوڤياتي وأتباعه قدموا الأسلحة والتدريب والملاذ للإرهابيين الدوليين خلال العقد الماضي بهدف زعزعة استقرار المجتمع الديموقراطي الغربي»، وحدد الإرهاب الدولي بأنه الكوبيون والمخابرات السوڤياتية والفلسطينيون والألوية الحمراء الذين تعاونوا في مؤامراتهم وعقدوا المؤتمرات والاجتماعات وكانت لهم مخيمات تدريب مختلفة.

أخذ كايسي نسخة عن المقال وطلب من جون بروس أن يعلق على الموضوع. وبدا أن استرلنغ قد احتفظ بالأسماء والتواريخ وعناوين أولئك الذين خططوا ونفذوا عمليات القتل وتفجير القنابل وأن الحالات الثلاث التي اعتمدت عليها الدراسة كانت الإرهابيين الأتراك والجيش الجمهوري الإيرلندي والألوية الحمراء الإيطالية وتبيّن أن للمخابرات السوڤياتية صلة مباشرة بكل منها.

وجاء في المقال أن الصحافة سبقت وكالة المخابرات المركزية في هذا المجال. وطلب

كايسي من خبراء الوكالة أن يضعوا شرحاً وافياً للمقال. ووضع الخبراء خطوطاً تحت المقاطع المهمة للصفحات التسع وحاولوا أن يعرفوا ما كان منها موجوداً في ملفات وكالة المخابرات المركزية وأن يخترقوا بذلك طريقة سترلنغ.

كتب سترلنغ: هناك مدرسة لتدريب عناصر الإرهاب الدولي في اليمن الجنوبية. والعناصر الأجانب في المدرسة كانوا من الألوية الحمراء. وكانت اليمن الجنوبية عبارة عن قمر اصطناعي سوفياتي تتحكم به المخابرات السوفياتية. وكان واضحاً أن الألوية الحمراء تدور في الفلك السوفياتي.

وعثر في ملفات الوكالة على تقرير يفيد بأن أحد أعضاء الألوية الحمراء زار معسكراً في اليمن الجنوبية. وأكد مقال سترلنغ أن الألوية الحمراء على صلة بالمخابرات السوفياتية أين؟ كيف؟ متى؟ إن زيارة أحد عناصر الألوية الحمراء تدل على ذلك. إلاّ أنه لم يكن هناك أكثر من ذلك. وكانت النتيجة صفراً. ليس أكثر من صبيان التقيا في الطريق أو على الطاولة نفسها في البار. وبقيت الأسئلة حول الإرهابيين. ماذا يفعلون؟ ماذا يقولون؟ والأهم، ماذا يخططون؟

في هذه الأثناء أنهى ضابط الاستخبارات القومية لشؤون الاتحاد السوفياتي وهو أعلى محلل للشؤون السوفياتية في وكالات الاستخبارات مسودة تقدير حول تورط السوفيات في الإرهاب. وجاء في المسودة عكس ما جاء في مقال سترلنغ. وتعجب كايسي وقال: «اقرأوا كتاب سترلنغ»، وانسوا هذا العمل الواهي. ثم أضاف متهكماً بشكل لاذع: «لقد دفعت ١٣،٩٥ دولار ثمن هذا الكتاب وأخبرني أكثر منكم أيها الأوغاد الذين أدفع لكم ٥٠ ألف دولار في السنة. وقال إن اليد السوفياتية لم تظهر مباشرة كدليل يقدّم إلى المحاكم. وانطلاقاً من تصاريح بعض المسؤولين السوفيات حول النية في دعم الإرهابيين وأن الإرهاب قد أربك الغرب فعلاً فإنه كما قال كايسي يعتبر هراء أن نفكر في أن الدليل يقدم على طبق من فضة. واتفق معه اثمان واعتقد بأن مسودة الوكالة كانت خاطئة. تلقى كايسي رسالة من رئيس الاستخبارات الدفاعية تشكو من هذه المسودة. إعتقد تاي بأن السوفيات متورطون في الإرهاب ولو لم يثبت ذلك عليهم. وبالنسبة إلى تاي، كان هذا سبباً لاستنتاج العكس. وأضاف تاي بأن هناك مشكلة مكافحة تجسس حقيقية. لماذا نصدق المصادر التي تقول إن السوفيات غير متورطين؟ هل لدى هذه المصادر أسباب لتبعد ذلك عن السوفيات؟ أعجب كايسي بخط تاي المتشدّد. مع أنه ليس هيئة محكمة ولا يوجد أي سبب لافتراض براءة السوفيات. وطلب كايسي من الجنرال تاي أن تعد وكالة الاستخبارات الدفاعية مسودة حول ذلك. وأبدى تاي سروره وكلف أحد المحللين المتشددين بتنظيم المسودة. وهكذا تحفظ كايسي، هناك مسودتان متناقضتان. وكالة المخابرات المركزية ترى أن السوفيات غير متورطين، ووكالة الاستخبارات الدفاعية أعلنت أنهم مذنبون! وبعد عدة أسابيع تلقى

كايسي مذكرة من لنكولن غوردن وهو رئيس سابق لجامعة جونز هوبكنز وكان أحد ثلاثة أعضاء من لجنة دراسات عليا في الوكالة.

كتب غوردن أن مسودة الوكالة أعطت تعريفاً ضيقاً للإرهاب وتعاملت فقط مع الإرهابيين الصرف مثل عصابة بادرماينهوف في ألمانيا الغربية والألوية الحمراء في إيطاليا والجيش الأحمر الياباني. هذه المجموعات تحب العنف وكانت تتألف من عناصر عبثية. إن محاولة تعريف الإرهاب بواسطة دوافعه لم تكن كافية. وقال إنه يجب تعريف الإرهاب بالأعمال. إن انفجار قنبلة في إحدى ساحات باريس كان مشكلة استخبارية، هل قام بذلك العبثيون؟ أو هل تدخل في الصراعات الداخلية في منظمة التحرير الفلسطينية؟ أو إنها نفذت لتحقيق أغراض دعائية أو لأهداف سياسية. في المقابل قال غوردن، ورد في مسودة وكالة الاستخبارات الدفاعية أن أي عمل عنف ضد سلطة شرعية يعتبر شكلاً من أشكال الإرهاب، وهذا يعني أن جورج واشنطن وروبرت لي كانا إرهابيين!

طلب كايسي من غوردن أن يتولى تنظيم مسودة تقدير حول الإرهاب السوفياتي. وجمع غوردن كل المعلومات الأولية ومحص فيها، ومعظمها ورد من وكالة الأمن القومي، وكانت عبارة عن التقاطات لاتصالات هاتفية وراديوية وعن حل الشيفرة. وأعطيت المعلومات الواردة من حل الشيفرة لقب أمبرا وكانت الأكثر حساسية. وكذلك الاستخبارات التقنية ومن ضمنها صور الأقمار الاصطناعية، إنما لم تقدم مساعدة بشكل كبير. تبيّن لغوردن أن الاستخبارات البشرية كانت ضعيفة، ومن الصعب التحقق من مصداقية المخبرين، وكثير منهم يقبضون أجراً عن معلوماتهم. واعتمد قاعدة عدم تصديق أي خبر إلاّ بعد تأكيده من مصدر ثان أو ثالث. ووردت حالات كثيرة عن مخبرين يعطون معلومات غير صحيحة.

في ١٣ أيار/مايو أطلقت النار على البابا يوحنا بولس الثاني وأصيب بجراح وذلك في ساحة القديس بطرس. إشمأز كايسي الكاثوليكي من محاولة اغتيال قداسة البابا. منذ العام ١٩٧٨،عندما انتخب الكاردينال كارول ويتيلا من بولونيا بابا للكنيسة الكاثوليكية في العالم لم يظهر أي رمز مضاد للشيوعية أكثر منه. إن روح يوحنا بولس الثاني زرعت البذور التي أدت إلى إنشاء التضامن في آب/أغسطس عام ١٩٨٠.

في اليوم التالي ١٤أيار/مايو جمع كايسي هيئة الاستخبارات القومية الخارجية في مركز القيادة في شارع [ف] في قلب مدينة واشنطن قرب البيت الأبيض، وكان موضوع الاجتماع التقدير المنتظر حول السوفيات والإرهاب. أراد جواباً. إن محاولتي الاغتيال للرئيس ريغان وللبابا في فترة ستة أسابيع أثارت القلق من تعرض زعماء آخرين للإرهاب. ماذا كان يجري؟ لم يكن هناك أي دليل على أي رابط بين الحادثين. أو أن للسوفيات دوراً فيهما. ولكن شيئاً ما كان يثير الريبة. أراد أن يتأكد أن الاستخبارات كانت فوق كل احتمال. وأمر بإعلامه عن كل صلة أو احتمال صلة بأحد ومتابعتها وملاحقتها على الفور.

أراد كايسي أن يعرف ما إذا كان السوڤيات يحضرون لشيء ما، وإذا كان ذلك صحيحاً فإنه سيكون مشكلة كبيرة أمام صانعي السياسة في البيت الأبيض.

عممت نسخ عن مسودة غوردن الجديدة وتقع في حوالى عشرين صفحة، واستدعي غوردن لتقديم إيجاز للهيئة. وسمى غوردن مسودته SNIE وهي الحروف الأولى من كلمات: الدعم السوڤياتي للإرهاب الدولي، وتوصل إلى منزلة بين تقدير وكالة المخابرات المركزية وتقدير وكالة الاستخبارات الدفاعية، وقال إن جزءاً من المشكلة كان الارتباك الحاصل حول تعريف الإرهاب.

وبكلام أوضح فقد دعم الاتحاد السوڤياتي شعوب العالم الثالث في كفاحها ضد الأنظمة الاستبدادية والأوتوقراطية أو الأنظمة المتعاطفة مع الغرب. إن استعداد السوڤيات لتأمين المال اللازم للسلاح والتدريب والمساعدات الأخرى يعني أنه سيكون هناك عنف وإرهاب. وبالتأكيد فإن الإرهاب يقل إذا أرادت القوة الكبرى السوڤياتية وقف تصدير الثورات إلى الخارج. لكنه قال إن الاستخبارات لم تقدّم أي دليل على أن السوڤيات كانوا يلعبون دور ورليتزر العظيم في الإرهاب. كان هناك بعض الحالات لم يشجعوا فيها على الإرهاب. لقد حذر السوڤيات سفير الولايات المتحدة في النيبال من أن أربعة من العرب كانوا يخططون لخطفه. وسمح البلغاريون لبوليس ألمانيا الغربية بأن يلقي القبض على أحد أفراد عصابة بادرماينهوف عام ١٩٧٨. وظهر في بعض الأوقات أن السوڤيات قرروا منع الإرهاب، وفي أوقات أخرى قدموا مساعدة من خلال الأقمار الاصطناعية لألمانيا الشرقية وبلغاريا اللتين كانتا تساعدان العناصر المتطرفة مثل منظمة التحرير الفلسطينية.

ما قاله غوردن، يعني أنّ السوڤيات لم يستعملوا الإرهاب لزعزعة استقرار العالم الثالث والدول الغربية. وشعر غوردن بأنّ الانطباع العام كان دحضاً لتهم هيغ العلنية ولمقالة سترلنغ. لم يكن هناك أي دليل. لم يقتنع تاي الذي حضر ومعه عدد من البرقيات التي ورد فيها أنّ هناك دوراً للسوڤيات في عشرة أو اثنتي عشرة حادثة إرهاب تملص غوردن منها وبعضها حدث منذ وقت قصير.

شعر غوردن بأنَّه قد اتُهم بإهمال الدلائل. وأعقب ذلك نقاش حاد، وقال كايسي: «لا أعرف ما إذا كان ذلك يؤثر على الاستنتاج» وأضاف «دعنا نراجعها» ولم تقر مسودة غوردن ولم تطبع، ورُدَّت لإعادة صياغتها.

بعد أربعة أيام في ١٨ أيار/مايو، دعا غوردن فريق العمل في كل وكالة إلى اجتماع، وتفحصوا بدقة التقارير التي اعتمدتها وكالة الاستخبارات الدفاعية، ورفضت جميع التقارير بعد مراجعتها ما عدا ثلاثة لأنها كانت تعتمد على مصدر واحد فقط.

في ٢٧ أيار/مايو عمم التقدير السري على البيت الأبيض والوزارات وورد فيه أنَّ السوڤيات لم يكونوا اليد الخفية وراء الإرهاب الدولي. وفي النهاية وضعت لوائح بحاجة

الاستخبارات في المستقبل. وورد في الاستنتاج أنّه يجب تقوية الاستخبارات البشرية ويجب اختراق منظمات الإرهاب.

شعر غوردن بأنّ كايسي كان منفتحاً على المسألة ولم يدع أية ايديولوجية تتحكم بالاستنتاج. وكان واضحاً أنّه لم يصب بخيبة أمل من التقدير لأنّه رأى آثاراً سوڤياتية على منظر الإرهابيين.

اكتشف غوردن مفارقة طريفة، وهي أنّ قسماً من معلومات كلير سترلنغ كان يستند إلى مقال نشر في صحيفة إيطالية حول الألوية الحمراء، وهذا المقال كان جزءاً من حملة إعلامية خفية لوكالة المخابرات المركزية. والظاهر أنّ كلير سترلنغ اقتبس عنها كتابه! وجد غوردن النتيجة، من حملة إعلامية خفية للوكالة إلى كتاب سترلنغ، إلى قراءة هيغ لهذا الكتاب، إلى مؤتمر هيغ الصحافي، إلى تعليقات هيغ حول ما نشر في صحيفة النيويورك تايمز بقلم سترلنغ. في النهاية شعر غوردن بأنّ الوكالة كانت تعمل بحكمة وتعقل، ووضع هذا التقدير تحت طابع سري، ولم يعلن شيئاً عنه ولا عن نتائجه. ولأنّ الموضوع يتعلق باهتمامات الجمهور الأميركي، فإنّ السوڤيات يبرزون في الحملات الإعلامية كما وصفهم وزير الخارجية داعمين للإرهاب. هذه الاسطوانة لم تصحَّحْ.

تساءل غوردن متعجباً: ما موقف السوڤيات من كل هذا؟

كم من التآكل كان يسود العلاقات الأميركية السوڤياتية؟ وما كان موقف السوڤيات من التصاريح العلنية للولايات المتحدة؟ هل أنّ الحرب العلنية بين القوتين العظميين تعني الكثير، وما الثمن الذي دفع من أجل المصداقية إذا كان هناك ثمن؟

٦

غادر كايسي واشنطن في رحلة إلى محطات الشرق الأوسط وكلف رئيس المحطة في السعودية بأن يؤمن له حضور قداس كاثوليكي يوم أحد الفصح. وأعِدَّ القداس بحراسة الاستخبارات السعودية. هنا وحدة الاستخبارات تقوم بكل شيء، تنفق الأموال للاستخبارات وللعمليات. في إسرائيل كان كايسي معجباً بالموساد وهو جهاز الاستخبارات الخارجية وكان له اختراقات بشرية هامة. وعرف كايسي أهمية الاعتماد على المصادر البشرية لأنَّها كانت مفيدة جداً. ويعتبر المصدر البشري بمثابة المراقب ٢٤ ساعة يومياً ويعطي الانذار المبكر. إنَّ وحدات الاستخبارات مع مصادرها البشرية ليست بحاجة إلى تضبيط الترددات! أو إلى قناة اتّصال في اللحظة المناسبة أو انتظار وصول القمر الاصطناعي إلى النقطة الملائمة. كما أنَّ المصدر البشري يستطيع أنْ يقيِّم المعلومات.

عندما عاد إلى واشنطن قرر كايسي أن يركز على اختيار مدير جديد للعمليات أي الرجل الذي يدير الجواسيس. وتبين له أنَّ عناصر مديرية العمليات أكاديميون أكثر من اللازم (معظمهم من خريجي هارفرد ويال وبرنستون)، ثيابهم أنيقة أسلوبهم صافٍ. كانوا أشخاصاً ممتازين كرسوا أنفسهم للخدمة، غير أنَّه وجدهم محدودين ولم يكن هناك نار في داخلهم لتحركهم.

لم يكن لأحد منهم خبرة واسعة في الشؤون الدولية أو أي تفهم لعصر الحرب العالمية الثانية. ولم يضع كايسي اسماً في تصوره. إلاَّ أنَّ ماكس هوغل قال له إنَّه يريد عملاً أكثر من مدير الشؤون الإدارية. وألمح إلى أنَّ أحداً اقترح عليه أن يكون مديراً للعمليات وأنَّ بإمكانه أن يقدم الكثير من المساعدة.

قال كايسي إنَّه سيقرر قريباً. وتكلم مع جون بروس حول تعيين ماكس هوغل. عارض بروس بشدة، وكان بروس سابقاً في مديرية العمليات وقال له: «صدقني إنَّه شيء مخيف لا يمكن لأحد من الخارج أن يفهمه».

طلب منه بروس أن يستشير ريتشارد هلمز. وافق هلمز على الحضور وإعطاء رأيه شخصياً لكايسي. قال كايسي لهلمز إنَّ ماكس هوغل هو الرجل المناسب لهذه الوظيفة فهو يجيد اللغة اليابانية وله تجارة واسعة في اليابان، وسبق له أن اخترق ثقافتهم واستورد الآلات الكاتبة وآلات الحياكة.

قال هلمز: «دعه يصبح عضواً في الفريق أولاً»، إنَّ مدير الشؤون الإدارية منصب هام لماذا لا يبقى فيه سنة أو سنتين وترقيه بعدها إلى مدير عمليات؟ لماذا السرعة؟ وذكّره بأنَّ مدير العمليات في الماضي كان يعيّن من داخل المديرية. ومكماهون له خبرة ٣٠ سنة في الوكالة، وعلى كايسي أن يهتم بالحيطة والأمن ليس لأنَّ هوغل لا يوثق به بل لأنَّه بدون خلفية. الأمن كان من طبيعة المحارب القديم في مديرية العمليات. أتضع كل هذه الأسرار في يد هذا المبتدئ؟

شعر كايسي بأنَّ هلمز تركه وهو يظن أنَّه غيّر رأيه.

صباح ١١ أيار/مايو قال كايسي لبروس إنَّه ما زال يدرس بجدية تعيين هوغل لتلك الوظيفة، واستمر بروس في المعارضة ولكنه شعر بأنَّ هذه هي المسألة الوحيدة التي لن يصغي إليه كايسي بشأنها. في نهاية ذلك النهار أعلن كايسي في اجتماع مع كبار معاونيه تعيين ماكس هوغل مديراً للعمليات دون شرح أو تفسير. كان هناك حوالى ١٤ شخصاً في قاعة الاجتماعات. وساد صمت غريب بحيث يمكن سماع صوت مغص المعدة! فهم بالكاد تقبلوا هوغل مديراً للشؤون الإدارية. لم يلفظ أحد أي كلمة. ماذا كان هناك للقول؟ لم يفسح كايسي المجال لأحد للتعليق. ضرب ضربة واحدة ثمّ انتقل إلى الموضوع التالي.

هناك دعابة في كواليس الوكالة تقول إنَّ هوغل يقول لكايسي كل صباح: «رئيسي رئيسي الطائرة الطائرة» مثل القزم تاتو في برنامج تلفزيوني عن جزيرة الخرافات الذي كان ينذر ريكاردو مونتلبان عن الزائرين الجدد. بعد الاجتماع انتشر كلام في لانغلي: كايسي عيّن بائع آلات حياكة وآلات طباعة مديراً للعمليات.

في يوم عمله الثاني دعا هوغل كبار مساعديه في مديرية العمليات إلى اجتماع وحضّر النقاط الرئيسية لحديثه. دعا إلى العمل من أجل المديرية وبنائها ودعمها. قال إنَّ رواتبهم قليلة وإنَّه يريد زيادتها وذكرهم بأنَّ كثيراً من زملائهم ترك الوكالة لأنَّه لم يتحمل نفقات تعليم أبنائه في الجامعات باهظة التكاليف.

اعتبر المساعدون أنَّ هذا وعداً كلامياً، فالكونغرس حدّد الإنفاق الحكومي ولا يمكنه الحصول إلاّ على القليل لا سيما أنَّه معاون لمدير الوكالة.

قال هوغل إنَّ الناس يجب أن تتقدم فقط عندما تستحق ذلك، وإنَّه يجب إعطاء فرصة للصغار. وإنهم بحاجة إلى تدرب على اللغات الأجنبية، وإلى مزيد من الاستخبارات البشرية وفعالية أكبر في مكافحة التجسس.

عندما أنهى كلامه لم يكن هناك ردة فعل. نظر هوغل في الغرفة. كل هؤلاء عرفوا كيف يخفون نواياهم ومشاعرهم. لم تظهر أي علامة على وجوههم. هاي صرخ هوغل، هل قلت شيئاً خطأ؟ لكنَّ هؤلاء الناس اعتبروا أنَّ عدم التعبير كان فناً بحد ذاته.

واجه هوغل التحدي بمزيد من العمل، وأُعطي اسماً مشفراً وهاتفاً آمناً وسيارة وسائقاً

ومنزلاً آمناً يمكنه أن يحفظ فيه الوثائق السرية. وعندما تفحص تقارير العملاء السريين والخطوط العامة لبعض العمليات تبين له أنَّ معظم المعلومات السرية كان مصدرها أشخاص يخونون بلادهم. لم يكن ذلك سهلاً. وسأل لماذا هؤلاء الناس يبيعون المعلومات؟ وهل يمكن الوثوق بها؟

أجرى هوغل مكالمة مجاملة مع السناتور غولدووتر رئيس لجنة استخبارات مجلس الشيوخ. ثمّ حضر إليه، وكان واضحاً أنَّ غولدووتر لا يعرفه. جلس ولم يسأل غولدووتر أي سؤال، ثمّ ترك هوغل وهو يشعر ببرود. لم يحصل أي تقدم في علاقة الوكالة مع الكونغرس وطريق هوغل لم تكن معبدة.

في ١٥ أيار/مايو وبعد أربعة أيام على تعْيينه تناول هوغل صحيفة الواشنطن ستار وفيها زاوية يكتبها كورد ماير الذي سبق أن خدم في وكالة المخابرات المركزية ٢٦ عاماً، وهو معادٍ للشيوعية وصديق جون بروس وخريج جامعة يال. وكان محارباً قاسياً، وخسر إحدى عينيه خلال الحرب العالمية الثانية. وترقى في وكالة المخابرات المركزية ليصبح الرجل الثاني في مديرية العمليات قبل أن يترك الوكالة عام ١٩٧٧. وكان يعكس تفكير القدامى في تعليقاته. كان يتلقى الكثير من المكالمات ودعوات الغداء من قبل المتقاعدين الذين لم يتركوا واشنطن.

قرأ هوغل عنوان زاوية ماير بدهشة: «كايسي يعين هاوياً في أهم منصب حساس في وكالة المخابرات المركزية» قرأ هوغل: «رفض كايسي نصائح قدامى رجال المخابرات» وذلك حول تعيين هوغل مديراً للعمليات. وأضاف: «إنَّ هذه الوظيفة الحكومية وصفها مرة أحد المعلقين ستيوارت السون بشيء من المبالغة قائلاً إنَّها أصعب وأخطر عمل بعد رئاسة الجمهورية».

آلن دالاس، ريتشارد هلمز، وليم بكلي عملوا في هذه الوظيفة قبل أن يصبح كل منهم مديراً للمخابرات المركزية، وترقوا بعد سنوات من عملهم في المخابرات، وأضاف: «سيجد رئيس المخابرات السوڤياتية KGB ذلك غير معقول».

ولاحظ ماير أنَّ هناك حالة واحدة عين فيها مدير العمليات من الخارج وذلك عندما عين ريتشارد بيسيل وهو اقتصادي لامع مديراً للعمليات. وأصبح المهندس الفاشل لعملية خليج الخنازير. إنَّ تعيين هوغل مقامرة مثيرة وقد تدفع البلاد ثمناً باهظاً إذا أخطأ كايسي. وشعر هوغل بالأذى العميق من جراء هذا المقال.

في اليوم التالي كان عنوان الصفحة الأولى في الواشنطن بوست «سيد الجواسيس»، وكتب جورج كارفرد وهو أحد قدامى الوكالة وخريج جامعة يال: «إن هذا التعيين يشبه تعيين فتى لا يجيد السباحة رئيساً للعمليات البحرية». إنه مثل تعيين شخص عادي لا يفهم بالطب مسؤولاً عن وحدة مراقبة القلب في مستشفى رئيسي!

قال كايسي مدافعاً عن هوغل: إن الانتقاد أتى من مجموعة رفاق يظنون أنه بإمكانك فهم العمل فقط إذا أمضيت ٢٥ سنة هنا.

وهاجمت صحيفة نيويورك تايمز تعيين هوغل في مقال بعنوان: «الشركة التي يحافظ عليها كايسي».

بحث كايسي الموضوع مع هوغل وقال إن الوضع على ما يرام. وأن ما يجري هو تحدٍ للوضع القائم. وكتب كايسي رسالة إلى صحيفة نيويورك تايمز نشرت في ٢٤ ايار/ مايو يمدح فيها هوغل ويصفه بأنه واضح التفكير ويتمتع بقدرات تنفيذية هائلة.

وبينما كان تورنر في منزله يمارس حياته الجديدة ككاتب، قرأ المقالات وتفهم تهجم القدامى، وشعر بالتعاطف مع كايسي ثم كتب مقالة إلى الواشنطن بوست نشرت في ٢٥ أيار/ مايو يدعم فيها كايسي في قضية تعيين هوغل: «إن السيد كايسي هو المسؤول كلياً عن عمل مديرية العمليات وهو مكلف باختيار فريقه الخاص ويكون الحكم عليه من خلال النتائج وليس من خلال التعيينات».

«عام ١٩٧٧ تلقيت انتقادات كثيرة عندما أجريت تغييرات في مديرية العمليات أظهرت فيما بعد نجاحها. دعونا نعطي المدير الجديد كايسي فرصة دون انتقادات».

في البيت الأبيض قلق ميز وباكر وديفر من الانتباه الذي تركز على رجل كايسي ماكس هوغل الذي كان ما يزال في أول الطريق في عمل المخابرات الحساس. وإذا كان هوغل سيئاً فإنه يمكن أن يجلب المتاعب لريغان. لقد كانوا مرتابين من عمل كايسي وهوغل في الحملة الانتخابية وتساءلوا هل أن المهرجين يديرون الوكالة؟

كتب كايسي رسالة شخصية إلى الرئيس يذكر فيها أن هوغل يتمتع بكفاءات عالية في العمل، ويلمح إلى جهوده في الحملة الانتخابية وخصوصاً في تنظيم المجموعات الخاصة والمجموعات الاثنية (العرقية).

قرر مساعدو ريغان أن لا مجال ولا مبرر للتدخل في هذا الموضوع.

استقبل الرئيس ريغان توماس أندرز معاون وزير الخارجية لشؤون أميركا اللاتينية بحضور كايسي وهو رجل بطول ستة أقدام، قدم عرضاً عن الوضع: قال الرجل بصوت واثق: «السيد الرئيس، لقد كنا نعتمد الايديولوجية الدفاعية ثم تابع كلامه حول السلفادور: من الصعب أن ندافع عن المجلس العسكري الحاكم، الذي تدعمه الولايات المتحدة. هناك خرق كثير لحقوق الإنسان على الرغم من أن دوارت كان يبذل جهده لمنع ذلك. على الإدارة الأميركية أن تعود للهجوم ليس ببرنامج عسكري أو سياسي بل بإجراء انتخابات حرة في السلفادور. كما أن التقدير الاستخباري القومي الخاص الذي صدر في ذلك الشهر عن المدير كايسي استنتج أن هناك مازقا عسكرياً بين المجلس العسكري والثوار

وأن المجلس العسكري بحاجة إلى مدة سنتين ليكسب الحرب. لذلك يجب أن تكون الديموقراطية هدفنا».

وشاهد كايسي الرئيس يتهج ويتحرك على كرسيه ثم يقول: «إنها فكرة بسيطة وبالتأكيد بعيدة في المستقبل دعنا نعتمد هذا المشروع».

تأثر كايسي بهذا العرض وكان اندرز قد تسلم مسؤولية دبلوماسية وسياسية منذ أشهر في منطقة أميركا اللاتينية وأظهر رغبة واندفاعاً في العمل. وتفهم الخلافات داخل الإدارة حيث سعت كل من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ومجلس الأمن القومي ووكالة المخابرات المركزية لفرض نفوذها. ووفقاً للتقاليد ترأس اجتماعات الممثلين العاديين التي سميت مجموعة «القلب» وكانت تنعقد يومياً وربما مرتين في اليوم وعلم أندرز أنه كان بحاجة إلى إجماع وكان يعمل على إعداد خطة متماسكة.

عرف كايسي أندرز من مجلس الأمن والتبادل ووزارة الخارجية. وهو أفضل عناصر الساحل الشرقي وخريج جامعة يال، والداه أوستردوم أندرز وآليس دادلي تالكوت من كونكتيكت، عمره ٥٣ سنة. عندما عين معاوناً لوزير الخارجية لم يكن أندرز يعرف اللغة الاسبانية ولكنه استطاع تعلمها في بضعة أشهر. كان له أسلوب مميز ولكنه كان نافذ الصبر ويحاول دائماً أن يخفي ذلك، وكان موضع شكّ من اليمين واليسار معاً. من اليمين لأنه كان من اتباع كسينجر ومن اليسار لدوره في حرب ڤييتنام وفي سفارة الولايات المتحدة في كمبوديا. وهو الذي طلب الاذن «بتنفيذ عملية» للقاذفات الثقيلة.

اجتمع كايسي وأندرز وشكا له أندرز: «لا يوجد هيكلية لصنع القرار في البيت الأبيض»، لقد حاول رئيسه هيغ أن يسيطر ولكنه فشل ولم يربح احد. هنا سجل كايسي بعض الملاحظات.

وأضاف أندرز: «لكي أستطيع أن أجعل فريق «القلب» الداخلي يعمل».

أجاب كايسي أن وكالة المخابرات المركزية ستتعاون ولن تكون هناك خلافات جانبية معه. ولكنه تعجب مما إذا كان هذا الطرح حول السلفادور كافياً. الانتخابات الحرة والديموقراطية كانت البداية. الإدارة بحاجة إلى خطة لجميع دول أميركا اللاتينية وفي الحقيقة إلى خطة لجميع دول العالم.

وافق أندرز. إن توزيع الصلاحيات في السياسة الخارجية يجعل الأمور صعبة: «الجميع يصرخ ولا أحد يقدم خطة للعمل».

انغمس كايسي في الاطلاع على مذكرات الوكالة. الملفات والايجازات. وسبر أغوار كبار الموظفين وكان يدون ملاحظاته على بطاقة صغيرة. لقد سادت في السنوات الست الماضية نزعة سيطرة السوڤيات. كسب السوڤيات نفوذاً جديداً. وحققوا نفوذاً كاملاً في تسعة بلدان. ڤييتنام الجنوبية، كمبوديا، لاوس في جنوب شرقي آسيا. أنغولا والموازمبيق واثيوبيا

في افريقيا. اليمن الجنوبية وأفغانستان في الشرق الأوسط وجنوب آسيا. ونيكاراغوا.

كيف تم هذا؟ من الواضح أن السوڤيات استغلوا مرحلة ما بعد الانسحاب الأميركي من ڤييتنام واستعملوا الثورات والانقلابات العسكرية.

هل هناك طريقة للرد على الشيوعيين؟

ليس بالتقرب البطيء مثل استغلال غزو أفغانستان لدعم الثوار أو الارتقاء بالديموقراطية في السلفادور.

في السنوات الست نفسها خسر السوڤيات نفوذاً هاماً في ستة بلدان هي بنغلادش - غينيا - الهند - الصومال - العراق - الكونغو ولكن هذا كان غامضاً حسب رأي كايسي الذي سعى إلى انتصار واضح ونظيف!

أين يمكن أن نرد؟ سأل هيغ.

أريد أن أكسب واحدة؟ قال الرئيس.

أدرك كايسي أن هذا الكلام يعني شن حرب عصابات وكان مطلعاً على حرب العصابات ويعرف أهميتها وذلك منذ خمس سنوات حين كان يبحث في تأليف كتابه عن الحرب الثورية الأميركية الذي صدر عام ١٩٧٦ وعنوانه «كيف ومتى نخوض الحرب»؟ وجاء الكتاب بعد مطالعات مكثفة. واستعان في تأليف كتابه بمجلدات دوغلاس فريمان السبعة حول جورج واشنطن. قال كايسي إنه لا غنى عن المجلدين الثالث والسابع. وهو قارىء سريع يقرأ عدة صفحات في الدقيقة، ويفهم المبادىء ووجهات النظر بسرعة، ويتباطأ عندما يريد ويتصفح بسرعة عندما يفقد الرغبة. وسماه أصدقاؤه «لص الكتب» لأنه يستعير الكتب ولا يردها. وكان لديه كوماً من الكتب، أدبيات عمليات الاستخبارات الثورية وحروب الخداع والكتب السياسية. من هذه الكتب «جواسيس الجنرال واشنطن» تأليف بنياكر و«الخدمة الخاصة» لفورد و «التاريخ السري للثورة الاميركية» لكارل فان دورين.

كان يستمتع بأبحاثه في عطل نهايات الأسبوع حيث قام برحلات في الطبيعة مع صوفيا وبرناديت وطالما أحب السفر مع زوجته وابنته. كانوا ثلاثياً مرحاً. ومرة في يوم خميس قاموا برحلة جوية في الليل إلى ولاية ماين وتابعوا خلال أربعة أيام في طريق بندكس ارنولد عبر النهر إلى كويبك وبعدها عبر سان لورنس إلى مونتريال ثم ريسيليو وبحيرة شامبلاين. ومرة أمضى عطلة نهاية الأسبوع لثلاثة أيام حيث اقتفى أثر رحلة جورج واشنطن من وادي فورج عبر ديلاوار إلى أماكن معارك نيوجرسي وبوسطن وفيلادلفيا ونيويورك وكارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية وجورجيا وفي جولة أخرى من انابوليس إلى يوركتاون حتى خليج شيسبيك وكان كايسي يصطحب معه كتبه وملاحظاته والخرائط المصورة وكتاب يوردز: «علامات حدود الثورة الأميركية». لقد صعد إلى أعالي التلال ومشى على الطرق غير المعبدة، ونظر إلى الآثار بعناية وتبعته برناديت وصوفيا في كل خطوة.

كتب كايسي: لقد شعرت بالحيوية لكوني هناك وكنت أرى المدلول التكتيكي والاستراتيجي لطريق ارنولد. أراد كايسي دائماً الذهاب إلى البقعة المحددة. تعرف على جغرافية الثورة التي كانت مخبأة غالباً تحت المدن الكبيرة والأرصفة.

في رحلاته القصيرة وبينما كان كايسي يطالع كتبه طرح السؤال الأساسي: كيف ولماذا ربح الأميركيون؟ كيف تسنى لهذه المجموعة من الرعاع أن تهزم قوة عظمى مثل بريطانيا؟ انتصر الثوار لأنهم اعتمدوا على حرب العصابات وحرب الانصار. لقد كانوا مثل الفيتكونغ أو مثل ثوار أفغانستان. الروح والمبادرة والتكتيكات كانت بجانب القوى غير النظامية. يمكنك أن تثمن المقاومة الوطنية. إنه كان الجانب الذي يجب أن يكون فيه. وكان هذا نقطة استمرار بين القرن الثامن عشر والقرن العشرين. والآن عليه أن يطبق ذلك عملياً فإذا لم تأت المقاومة الوطنية لتقرع باب وكالة المخابرات المركزية كما فعل الأفغان عندها على الوكالة أن تبحث عنها وتكتشفها.

ولتجنب المزيد من المفاجآت بدأ كايسي يفتش عن شخص آخر من الخارج. أراد رجلاً يكون بمثابة جهاز إنذار ينذره بالكوارث الخارجية. ربما كان واحداً من محللي الوكالة. دعا إلى مكتبه الدكتور قسطنطين منج وهو رجل طويل القامة يرتدي نظارات ويبلغ ٤١ عاماً من عمره ويعمل في مؤسسة هدسون. ساعد في حملة ريغان الانتخابية ويتمتع بصوت إذاعي ويتكلم بلهجة الواثق من نفسه.

عندما سأله كايسي عن المشاكل الرئيسية في السياسة الخارجية أبرز له منج نسخاً عن مقالات صغيرة نشرها في صحيفة نيويورك تايمز. في مقاله عام ١٩٨٠ تحدّث منج عن الأحداث في إيران وأفغانستان ونيكاراغوا ولاحظ نقطة تحوّل في الحرب الخفية بين القوى الراديكالية والقوى المعتدلة وذلك للسيطرة على النفط وعلى الشرق الأوسط وأميركا الوسطى. في مقالة أخرى بعنوان: «الديموقراطية للاثنيين» دعا إلى إعداد استراتيجية شاملة لهزيمة السوفيات في أميركا اللاتينة، عن طريق الارتقاء بالديموقراطية. إن دعم الأنظمة الدكتاتورية اليمينية وحده لن يؤدي إلى أي نتيجة. وفي مقالة أخرى: «المكسيك الباب المجاور لإيران» توقع منج المشاكل من الجنوب.

نظر كايسي إلى هذه المقالات التي أظهرت تفكيراً استراتيجياً وربطاً للأحداث التي تجري في أجزاء مختلفة من العالم. لقد حسب منج حساباً للتمدد الشيوعي وأحضر ورقة من صفحتين ووصف كيف أن الشيوعيين ساهموا مع الآخرين في ما يسمى «حلف زعزعة الاستقرار».

الحرب السياسية وشبه العسكرية ضد الولايات المتحدة
المصالح في ثلاث ساحات استراتيجية

البلد الهدف	التحالف لزعزعة الاستقرار
ـ أميركا اللاتينية	
كولومبيا	كوبا
فنزويلا	الحزب الشيوعي / وحدات العصابات
أميركا الوسطى	الاتحاد السوڤياتي
باناما	الإرهابيون الفلسطينيون/ليبيا
بليز	
المكسيك*	
ـ الشرق الأوسط	
إسرائيل	الاتحاد السوڤياتي
مصر	الأنظمة العربية الموالية للسوڤيات: سوريا واليمن الجنوبية
إيران (بعد الخميني)	كوبا
عُمان	الفدائيون الفلسطينيون
اليمن الشمالي	ليبيا
دول الخليج الفارسي	
العربية السعودية*	
ـ إفريقيا	
زائير	الاتحاد السوڤياتي
المغرب	كوبا
السودان	ليبيا
ناميبيا	الأنظمة الموالية للسوفيات (أثيوبيا أنغولا والموزامبيق)
جنوب إفريقيا*	الثوار الشيوعيون والمجموعات الشيوعية Swapo

قرأ كايسي المقالات في ما بعد ودعا منج إلى لقاء آخر حيث طلب منه أن يكون صريحاً. قال منج إنه قلق حول كفاءة وكالة المخابرات المركزية بمجملها وهي مثل أي بيروقراطية تتجنب الثواب والعقاب. في السبعينات كان معاون مساعد وزير التعليم وعمل

(*) هذه الإشارة تحدد الهدف الاستراتيجي الأساسي. كانت هذه أهداف استراتيجية شاملة لكن منج قال إن الشيوعيين ليس لديهم ترتيب زمني، وكانوا صبورين.

لدى فرانك كارلوتشي الذي كـان نائبـاً لوزير التعليم والصحة والـرخاء. عنـدما انتقـل كارلوتشي إلى منصب نائب مدير الوكالة عام ١٩٧٨ حذره منج من المشاكل في إيران لكنه لم يصغ إليه. عام ١٩٧٩ أي قبيل الثورة الساندينية توقع مشاكل يسارية في نيكاراغوا ومرة أخرى ذهب إلى كارلوتشي وإلى وكالة المخابرات المركزية حيث دحضوا وجهات نظره. ثم عمل على نشر مقالات في الصحف واحدها بعنوان: «صدى كوبا في نيكاراغوا» في حزيران/ يونيه قبل أن يطيح الساندينيون بسوموزا. وتوقع أن يظهر الساندينيون باعتدال ويشكلوا حكومة ائتلافية قبل أن يكشفوا عن وجههم الماركسي اللينيني.

جاء في المقالة: «هذا النجاح يمكن أن يخلق قاعدة سياسية وزخماً للبدء بحرب ثورية في المكسيك خلال أوائل الثمانينات». قال منج لكايسي إن الذي أزعجه ليس طريقة التعامل مع أفكاره بل هو الفشل الذريع لوكالة المخابرات المركزيـة في استباق الأحـداث وتفادي حصول الأزمات. وعرض كايسي على منج وظيفة ضابط الاستخبـارات القوميـة لأميركـا اللاتينية يمثل المدير في الاجتماعات داخل الوكالة حول هـذه المنطقـة ويشرف على تـنظيم التقدير الاستخباري القومي ويترأس اجتماعاً تحذيرياً شهرياً حول التهديدات المهمة ويوصي بالرد الأميركي.

ـ «أنظر» قال كايسي: أنت مهتم كثيراً بهذه المواضيع وكنت تحذر إدارة كارتر لثلاث سنوات حول إيران ونيكاراغوا والآن أطلب منك أن تأتي وتخدم، ماذا تنتظر؟

وقبل منجا.

فوجئ كايسي بأن الوكالة كانت تقدّم إيجازات بشكل منتظم للمراسلين الصحافيين الذين يذهبون إلى مهمات في ما وراء البحار. وطلب من هـيرب هيتو وهـو رجل تـورنر للعلاقات العامة والذي ما زال يعمل في الوكالة أن يوقف جميع هذه الإيجازات في الحال. وكان هيتو يعتقـد بأن الإيجـازات تؤمن اتصالاً مـع الأوساط الصحـافية المهمـة، وحاول الاحتجاج قائلاً: «ولكن» وقاطعه كايسي: «لم أطلب منك من أجل الشرح والمناقشة. نفِّذ فوراً».

ذات مساء وفي أوائل تموز/ يوليو تلقى مستشار الوكالة سبوركين مكالمة غريبـة في منزله، عرّف المتكلم عن نفسه بأنه ماكس وطلب الاجتماع به في الحال لسبب طارئ. وتأكد سبوركين أنه هوغل. بعد ساعة التقى الاثنان في مركز القيادة. قـال هوغـل إنه يـطلب المساعدة من سبوركين، فقد اتهمه اثنان من شركائه السابقين من نيويورك توماس مكنيل وشقيقه صمويل مكنيل بأن لديهما تسجيلات سرية تثبت أن هوغل كان يسرب معلومات داخلية عن الشركة التي كان يعمل فيها بروز أنترناشونال منذ ست سنوات أو سبع.

في يوم الجمعة ١٠ تموز/يوليو اتصل سبوركين بصحيفة الواشنطن بوست وتحدث مع

أحد المحررين باتريك تايلور وتلقيت أنا* نسخاً عن ١٦ شريط تسجيل لهوغل. قال لي سبوركين إنه يريد الاستماع إلى التسجيلات. قلت إن الأمر لم ينضج بعد. رد سبوركين أنه إذا كان أحد في الوكالة قد ارتكب خطأ ما يجب أن يعرف هو وكايسي. وأخيراً وافقت أن يحضر سبوركين ويستمع إلى التسجيلات ووافق سبوركين على الحضور بعد الظهر. أراد كايسي أن يعرف عن القضية بأسرع وقت.

وبعد بضع ساعات اجتمع أكثر من ١٢ شخصاً حول طاولة في غرفة الاجتماعات في الطابق الثامن من مبنى صحيفة الواشنطن بوست. سبوركين وهوغل وعدد من المحامين الشخصيين ومنهم جودابست وهو محام من واشنطن مثّل نائب الرئيس السابق سبيرو أغنيو، وبنجامين برادلي رئيس تحرير الواشنطن بوست وتايلور وأنا ومحاميان من الواشنطن بوست وهما خبيران في القضايا الأمنية وأربعة محررين أخرين من الواشنطن بوست.

كان هوغل يرتدي بزة بنية وربطة عنق وقميصاً فاتحاً وكانت ابتسامته دافئة.

قال سبوركين: أنا لا أعرف ما يجري بحق الجحيم! وأضاف إنه يمثل وكالة المخابرات المركزية وليس هوغل شخصياً. طرحنا بعض الأسئلة العامة. هل أعطى هوغل معلومات داخلية للأخوين مكنيل، هل هدّد بقتل أحد محامي مكنيل؟ هل كان يعرف أن المال الذي أقرضه لأحد أفراد عائلة مكنيل كان الهدف منه التسلل إلى مؤسستهم الأمنية التي كانت تضغط في البورصة لصالح شركة هوغل؟

طلب محامو هوغل الإجابة قبل إذاعة أي تسجيل. غير صحيح أبداً لأنه كان يعرف أن المال كان يذهب إلى مؤسسة الأمن. أنكر كل شيء وكان الجواب لا.. لا.. وكان صوته جميلاً عندما طلب الكلام. «نعم أراد أن ترتفع بورصته. طبعاً أراد أن ترتفع بورصته». «وإذا سجل أحد الأشخاص مكالمته على الجانب الآخر من الهاتف» قال هذا وانتظر أن يتفهمه أحد من الجالسين إلى الطاولة ثم تابع: «لا أعرف نص السؤال أو ماذا يقول وإذا كنت لا تعلم أنهم يسجلون ذلك فيمكن أن تتعرض لأي شخص». وأضاف هوغل «وهذا شيء غير جيّد».

قاطعه سبوركين: «لن أهتم إذا أمضيت الليلة هنا ولكن إذا قلت هذا الهراء على الشريط فعليّ أن أحتفظ به وأن أقول لك إني سأبقى هنا حتى ينتهي هذا الجحيم. وأريد أن أسمع ذلك وأقدم توصياتي».

أضاف سبوركين: «إنها تهم خطرة، أعني بعضها خطير وبعضها الآخر وبناء لخبرتي السابقة هراء». ولكن عندما تتكلم عن التحكم بالسوق فإن ذلك يعتبر خطيراً. وضرب إصبعه على الطاولة وقال: «إنها تهمة خطيرة، وإذا كان لديك دليل يجب أن أراه بكل وضوح».

(*) المؤلف

وضع تايلور في آلة التسجيل شريطاً مسجلاً منذ ١٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٧٤ لمحادثة هاتفية يهدد محامي مكنيل فيها هوغل بإقامة دعوى قضائية عليه. وسمع صوت هوغل بوضوح يقول: مَن له الجرأة والأعصاب ليهددني بدعوى ملعونة.. إنها قلة لياقة مني... إني جاهز لأرميها.. ما هذا النوع من الهراء. دع هذا الخسيس.. سأضع هذا الوغد في السجن.. سأقتل هذا الوغد.

أوقف تايلور المسجلة.

قال هوغل وهو يتكلّم كالذليل: هل هناك شيء للتعليق. ها هي.

ـ هل هذا صوتك وهل تتذكر المحادثة.

ـ نعم.

ـ ولكنك قلت سابقاً إنك..

ـ بكل وضوح لقد خانتني ذاكرتي، قال هوغل ذلك وهو يواجه التناقض بشجاعة. إن الشريط هو ما هو. وطلب أن يستمع إلى الشريط الثاني.

ثم وضع الشريط الثاني وسمع هوغل يقول لتوم مكنيل:

«أحضر ورقة وقلماً، إن ما أعطيك إيّاه هو موثوق به»، كان تسجيلاً طويلاً وواضحاً ودقيقاً أعطى فيه هوغل معلومات عن عمليات البيع.

ـ هل هذه معلومات داخلية؟

ـ لا أستطيع الجواب على هذا السؤال.

وتردّد صوت هوغل وسُمع المزيد من التسجيلات.

ـ ماذا عن الأوضاع الداخلية؟

ـ أنت تعلم. أنت تعود بي إلى عام ١٩٧٤.

ـ إن السبب الوحيد الذي جعلني أقوم بذلك كرجل أعمال متحمّس يجامل شركته ويقول ما يحصل. هذا هو السبب الوحيد الممكن. أنا فتى متحمس. أنا فخور بما أعمل.

ـ إذا كنت فخوراً بما تعمل لِمَ لَمْ تبقه سراً، وموضع ثقة؟

حسناً، قلت موضع ثقة. هذا ما تقوله التسجيلات. آه يا للجحيم... إنها أسلوب... يا يسوع.. لماذا سجل الرجل حديثي؟ ولم يجد هوغل تفسيراً لهذه النقطة. ما الغرض من ذلك؟

قال سبوركين إن العنصر المفقود هو الدليل على أن هوغل ربح من جراء كشفه للمعلومات وكان هذا العامل ضرورياً ليجعل من فعله جريمة.

قال سبوركين: أنا أكفلك، لا يوجد منا مَن لا يقول شيئاً على الهاتف، يؤدي إذا ما سُجِّل إلى مشاكل. وأومأ الكثيرون برؤوسهم موافقين.

طلب سبوركين من هوغل ومحاميه أن يتركوا الغرفة وبعدها قال سبوركين: «أنت تعلم

يكون ذلك قراراً صعباً. أستطيع أن أتخذ قراراً سهلاً. هناك قرار سهل أستطيع أن أتخذه».

قال برادلي: التوقف؟

أجاب سبوركين: «نعم ولا أدري ما إذا كان هو الصحيح». أراد أن يستمع إلى جميع التسجيلات ثم يقوّم الوضع ويعرضه على كايسي.

قال برادلي: «ليس من مهمتنا أن نساعدك على اتخاذ القرار، ولكن يجب إعطاء فرصة لهوغل بأن يجيب على أي سؤال قبل تسجيله خطياً».

قال سبوركين: لا أعلم ما إذا كان لديك قنبلة مدخنة هناك أم لا.

ثمّ عاد هوغل وقال إنَّه سيؤجل رحلة إلى الخارج كمدير عمليات وذلك لسبب هام. إنها قضية خاصة وسمعتي الشخصية على المحك. وأريد أن أرى ذلك ينتهي قريباً.

يوم الأحد بعد الظهر في ١٢ تموز/يوليو عاد كايسي من رحلة لمدة ثلاثة أيام في الخارج ودعا إلى اجتماع في لانغلي بحضرة اثمان وسبوركين وبوب غايتس. قال سبوركين إنَّ المعلومات ما تزال مجزأة وإنَّه لم يكن واضحاً ما إذا كان هناك مخالفات أو معالجة لوضع البضائع في الشركة. قال اثمان لكايسي إنَّه عندما تظهر مثل هذه المشكلة فهذا يعني أنَّ هناك اعتبارين: الأول يجب أن لا يكون هناك تغطية أو مظهر تغطية، والثاني يجب عزل المشكلة الأساسية أي منح هوغل إجازة إدارية وإذا تبين أنَّه لا يوجد أي شيء يعود إلى مكتبه وإذا ثبت عليه شيء ما يبقى خارج الوكالة. قال سبوركين إنَّه يعارض الإجازة الإدارية. ما الذي يمكن أن يتغير في المستقبل؟ لماذا نقول إنَّه لا يوجد أي شيء؟ هذه التهم يمكن أن تعلق وضعه لعدة أشهر.

كان كايسي ينفر من منح هوغل إجازة إدارية. يمكن أن يكون تدبيراً عاطلاً. هذه التهم غالباً ما تؤدي إلى لا شيء. وفي القريب العاجل يمكن أن يتلوث مجرى حياته أو اسمه. أراد كايسي أن يعرف أسوأ احتمال لهذه القضية. قال سبوركين: التسجيلات واللهجة والاتّصال مع معلومات مسبقة.

وشعر كايسي بأنَّ كبار الضباط التنفيذيين كانوا يتصلون بعملائهم في البورصة.

قال سبوركين: ستكون مشكلة إذا سجل حديث لمدير العمليات يقول فيه كلمات خشنة. على أحد الأشرطة قال هوغل لعميله في البورصة: «سوف أبقر بطنك، سأحضر عصابتي الكورية وأجري وراءك، ولن تبدو جيداً عندما أبقر بطنك».

قال سبوركين لهوغل بينما كانا لوحدهما: بدأ العمل بقانون الحصانة ولكن على الرغم من ذلك عليك أن تترك.

ـ لماذا؟ سأل هوغل.

قال سبوركين. أترك. أذهب إلى الكونغرس وادلِ بشهادتك، سيأكلونك حياً...

المشكلة كانت كما عرضها سبوركين الحنث باليمين وعن غير قصد. يمكنك أن تختار إجاباتك. ولكن لا يمكنك أن تناقش في هذه التسجيلات. نريد خبراً واحداً يأتي نتيجة

لهذا، وهو خبر استقالتك. عندها سيتركك الكونغرس وحيداً وتصبح من التاريخ. لقد طلبت نصيحتي كمحامٍ وكصديق. إنها هي. إنها لصالحك ولصالح الوكالة ولذلك أستطيع قولها لك وللمدير.

ذلك المساء دعا هوغل كايسي وسبوركين إلى منزله لتناول طعام العشاء. شعر هوغل بأنَّ كايسي أراد أن يفرضه مديراً للعمليات غير آبه بالمعارضة الداخلية القوية. وكان شديد الاهتمام بالمشاكل الناشئة عن تعيينه. والثلاثة جدد في الوكالة ولهم خبرة أقل من سنة. قال هوغل إنَّ التهم كانت كذبة دموية.

وبحضور كايسي كان موقف سبوركين حيادياً. قال كايسي إنَّ انمان اقترح إجازة إدارية غير محددة لهوغل حتى تتوضح القضية.

قال هوغل: لا يجوز أن أحضر إلى واشنطن لأضرب على وجهي كل يوم. وفي وظيفة معروفة كمدير عمليات لا يرى كيف يستطيع أن يكسب المعركة ليحافظ على اسمه. سوف تقيد يداه. لا يستطيع أن يكسب المعركة كموظف والطريقة الوحيدة التي يمكن أن يكسب بها هي أن يعود مواطناً عادياً.

قال سبوركين إنَّه متأكد أنَّ الخبر سينشر قريباً في الصحف، قال هوغل لكايسي: إذا كان الخبر مؤذياً للوكالة أو لي، سوف أقدم استقالتي.

لم يحزم كايسي أمره. الإجازة الإدارية لم تكن حلاً إلاَّ أنها أفضل من الاستقالة.

قال هوغل: إذا نشروا خبراً مدمّراً، عندها لا أريد إيذاء الوكالة، لن أؤذيك ولن أؤذي الرئيس، سأستقيل.

قال كايسي: أنظر يا ماكس. إنها ضربتك.

وفي صباح اليوم التالي اتصل محامي هوغل جودا بست بصحيفة الواشنطن بوست وطلب اجتماعاً ثانياً.

أحضر بست ١٦ وثيقة من ملفات أعمال هوغل ورسالة تقول إنَّه يحتاج إلى جمع المزيد من المعلومات.

وفي ذلك اليوم بعد الظهر اجتمعت المجموعة نفسها في الطابق الخامس في غرفة المؤتمرات الصحافية وظهر هوغل عصبياً. نقول إننا نريد أن نتجنب إعادة ما ورد في اجتماع الجمعة الماضية عندما أنكر قيامه بأعمال ثمّ ووجه بالإثباتات على شريط التسجيل.

قال سبوركين: أصغ إلى السؤال وإذا كنت لا تعرف قل فقط لا أعرف.

قلنا في الصحيفة، إننا قررنا نشر الخبر في اليوم التالي وإنَّه سيتضمن أي كلام يقوله هوغل اليوم.

قال سبوركين بفارغ الصبر: لي طلب، أريد الاستماع إلى التسجيلات. ثمّ استمعوا

إلى المزيد وذهب أثناءها هوغل مرتين إلى الحمام. وقال: أريد أن أعتذر عن أجوبتي المتسرعة يوم الجمعة الماضي.

كان يمكن لأجوبتي أن تكون أفضل. لا أنوي الإدلاء بإفادات ضالة أو خادعة، وكان يشير بيديه، ويحني ظهره. قال إنَّه لم يكسب من هذه الصفقات في البورصة وكان من الممكن أن يتحول إلى مبتدئ أو يكون ساذجاً، ولكنه بدأ بشركة من لا شيء وتركها تعمل بمبلغ ٧٠٠ مليون دولار في السنة أعمالاً تجارية. وحصته كانت سبعة ملايين دولار.

توقف هوغل ثمّ قال إنَّ فصلاً في كتابٍ صدر عام ١٩٥٧ عنوانه «النجاح في التجارة والأعمال» كُرِّس له ولنجاحه في الأعمال التجارية في شركة برذرز انترناشونال. وكتب اسمه على الغلاف الخارجي لمجلة كوروبنيت. كنت أحاول الحصول على نسخة وأرسلها إليكم اليوم. أنا فخور بما عملت وفخور به الآن.

ثمّ عدد كفاءاته، وذكر أنَّه يجيد اليابانية، وتحدث عن خبرته في الأعمال التجارية الخارجية، وقدرته على التعاطي مع الأجانب. لقد قبلت بهذه الوظيفة لأني أريد أن أخدم بلادي بعد تضحية مالية كبيرة. إن كل حياتي وسمعتي على المحك. قال ذلك وعيناه تغرورقان بالدموع. سيكون ذلك مضراً لي ولعائلتي البريئة تماماً، يجب أن لا تعاملهم بهذه الطريقة، إنَّه من العار. قال ذلك وهو يرفع صوته بطريقة دراماتيكية. هناك شخص يرضى بالتخلي عن المكتسبات المالية فقط من أجل أن يأتي ويخدم بلده، فقط يحاول أن يفعل ذلك، يدينه أناس مثل هؤلاء حول معلومات تعود لسبع أو ثماني سنوات.

قال هوغل: من الصعب في المستقبل أن تأتوا بالناس إلى واشنطن ليقبلوا بالوظائف. أنا أعطيكم ما بداخلي وقلبي.

ازداد قلق كايسي وهو في مكتبه في مبنى الوكالة لأنَّ سبوركين لم يتصل به. وظن أنَّه من الأفضل له أن يأخذ نصيحة لجنة الاستخبارات في الكونغرس. واتصل كايسي بإدوارد بولاند من لجنة استخبارات مجلس النواب، ولم يستطع الاتّصال بغولدووتر.

فيما بعد أصدر محامو هوغل بياناً من ثلاثة مقاطع ينفي ارتكاب أي خطأ من موكلهم ويظهر أنهم أصيبوا بخيبة أمل عميقة من احتمال نشر الخبر، وأضاف أنَّ هوغل سيتابع خدمة بلاده طالما تحتاج إلى خدماته.

ظن هوغل أنها الثالثة صباحاً عندما أيقظه سبوركين.

قال سبوركين: نشر الخبر، وقرأ له العنوان: مسؤول كبير في وكالة المخابرات المركزية متهم بأعمال غير مشروعة في البورصة، وتابع: ماكس هوغل الذي يحتل أهم مركز حساس في إدارة ريغان كرئيس للعمليات السرية متورط في أعمال غير مشروعة في البورصة.

قال هوغل: هذا شيء مقرف.

وقرأ سبوركين وهو يعدد الادعاءات وفيها أنَّ هناك مقاطع هامة من التسجيلات.

قال هوغل: أو كي، هذه هي، لا تقرأ المزيد. أنا أستقيل.

وبعد شروق الشمس بقليل، اتّصل هوغل بكايسي وقال له: لقد عملوها وهـا أنا أستقيل.

قال كايسي: هذا غير جيد أبداً، ولم يحاول أن يغيّر من تفكير هوغل.

في الساعة التاسعة والدقيقة الأربعـين اتّصل كـايسي بغولـدووتر ليقـول له مـا كان السناتور قرأه في الصحيفة. كان غولدووتر غاضباً. لماذا تأخر مدير المخابرات المركزية في إعلامه. لقد سمع إشاعاتٍ من مصادر موثوق بها تقول إنَّ الخبر سينشر.

في البيت الأبيض قلق رئيس الأركان جيمس باكر والمستشار فريد فيلدنغ وطلبا تحديد الضرر حالاً، وضغط فيلدنغ من أجل استقالة هوغل الفوريـة، ووضع الكـرة في ملعب كايسي. اتّصل باكر بكايسي.

قال كايسي إن ماكس سيتنحّى جانباً.

فوجئ باكر وارتاح لأن ذلك جرى بسرعة. وعندما أخبر باكر الرئيس ريغان في ذلك الصباح، فوجئ أيضاً. ولاحظ باكر أنه لم يتأكد مما إذا كان هوغل قد ارتكب أي خطأ.

قرأ هوغل الخبر وكانت صورته على الصفحة الأولى. كانت صورة بشعة، إلى جانب عواميد من التسجيلات مليئة بالشتائم والكلام النابي. لم يتركوا أيَّ شيء. شعر هوغل بأنهم أذكياء لكنهم قذرون.

إرتدى ثيابه، وأقلّه سائقه إلى مركز قيادة الوكالة، وكان منـظره مؤلماً في الممـرات، وعندما سار إلى مكتبه، كانت كل العيون عليه، وبدا الألم والحزن عـلى بعض الوجـوه، وبعضهم لم يستطيعوا أن يقولوا ما في داخلهم، وشعر هوغل بأنَّ عدداً كبيراً سُرَّ لاستقالته. الذي جاء من الخارج رحل الآن. وكان البعض بارداً. كتب إلى كايسي رسالة تأثر بها. لقد كان فراقاً صعباً. أمّا رسالة كايسي فقد قَبِل فيها الاستقالة بأسف عميق. عاد هوغل إلى مكتبه، حمل حقيبته ومشى.

عيَّن كايسي جون شتان مديراً للعمليات. وهو يبلغ ٤٨ عاماً من العمر. خريج جامعة يال وعمل ٢٠ سنة في الوكالة، رئس خلالها محطة في كمبوديا وليبيا في السبعينات. كان شتان غير بارز ويعمل بجهد. رأى كايسي أنه قد حان الوقت لإسدال الستار على مديرية العمليات وقرر أن يضرب المثل. تحدّثت إحدى محطات الوكالة في الشرق الأوسط عن وضع جهاز تنصت في مكتب أحد كبار المسؤولين وهو شخصية كبيرة وتؤمن أحاديثه معلومات مهمة للمحطة. كان هناك تردّد في تنفيذ العملية بسبب مخاطرها. وحصل جـدال حول كيفيـة الدخول إلى المكتب ولم يتوصل عناصر المحطة إلى حل. عرف كايسي بالموضوع وقال: إني سأنفذ ذلك بشخصي، مع أن ذلك ضد شروط ومقتضيات المهنة. وأصرّ على وضع الجهاز خلال زيارة مجاملة رسمية، وذلك خرق آخر لقواعد المهنة وضع الجهاز ـ عن ميكروفون

رفيع وقصير وجهاز إرسال بحجم الإبرة الكبيرة ـ في جلدة كتاب قدّمه كايسي هدية لذلك المسؤول. أحد كبار المسؤولين شكّك في صحة هذه الرواية ولكن البعض قال إنها صحيحة، ولكنه حدّق بي متأثراً عندما ذكرت له اسم البلد واسم المسؤول وقلت إن ذلك يجب أن لا يتكرّر.

- ٧ -

على الصفحة الأولى من صحيفة نيويورك تايمز ظهر خبر استقالة ماكس هوغل وتحت الخبر عنوان صغير: القاضي يؤكد أن كايسي، مدير المخابرات المركزية، ضلّل زبائن البورصة عام ١٩٦٨. وجاء في الخبر: منذ شهرين حكم قاض فدرالي بأن وليم كايسي أضلّ، عن سابق تصور وتصميم، المستثمرين في شركة نيو أورليانز للأعمال الزراعية وتدعى ملتيبونيك والتي ساهم كايسي في تأسيسها عام ١٩٦٨. وحكم القاضي بأن مجلس إدارة ملتيبونيك والذي كان كايسي عضواً فيه لم يكشف للمستثمرين أن هناك ديناً ورهناً على المؤسسين ومن ضمنهم كايسي. وكانت أسهم كايسي تساوي ٣٠١،٠٠٠ دولار وصرّح لإدارة الضرائب عن خسائر بقيمة ١٤٥،٠٠٠ دولار. لكن القاضي حمل المسؤولية لمجلس الإدارة وكايسي الذي قال عنه القاضي إنه حذف بعض الوقائع وعرضها بشكل خاطئ.

تحرّر باري غولدووتر من الوهم تجاه كايسي بعد ستة أشهر من تعيينه مديراً للمخابرات المركزية، وشعر بأنه غيّر طريقه ولم يتفهّم أبداً تعيين هوغل. أنت تعلم، قال غولدووتر لصديقه كوين، إذا كان كايسي يريد أن يعيّن شخصاً مثل هذا فعلى الرئيس أن يطرده. إن إعلان الوكالة عن ماضي هوغل المستقيم كان تافهاً، فإمّا أن كايسي كان يعلم عن ماضي هوغل ويغطيه، أو أن مراجعة وضعه كانت واهية لدرجة يجب معها تغيير كايسي لعدم أهليته.

إزداد تخوف غولدووتر من تفكك كايسي. يجب على مدير المخابرات المركزية أن لا يتكلم. وكان غولدووتر يشعر بأن هناك شيئاً ما مخبّأ. إن تكلم كايسي. وكثيراً ما سأل أحد أعضاء اللجنة: هل فهمت ما قاله؟ ووصف كايسي بالمتقلب. واعتقد بأن كايسي لم يبذل أي جهد في الوكالة. كايسي الملعون لم يكن عنده لياقة ليحذّر اللجنة قبل نشر الخبر عن هوغل. لقد جاء التحذير من رئيس تحرير الواشنطن بوست برادلي في نهاية الأسبوع السابق لنشر الخبر. لماذا يسمع غولدووتر بهذه الأمور من رجال الصحافة؟

إتصل كوين بكايسي وقال له: «بيل لا تفاجئه مرة ثانية. اتصل به. من المهم أن تتصل به. وأقترح عليك أن تدخل معه إلى قلب الأمور وتوضح له، فإنه حتماً سيتفهم».

في يوم الجمعة ١٧ تموز/يوليو بعد ثلاثة أيام من استقالة هوغل دعا غولدووتر لجنة الاستخبارات في الكونغرس للاجتماع. وبعد جلسة سرية استغرقت ساعتين تم الاتفاق على

إجراء مراجعة روتينية وليس تحقيقاً في قضية هوغل وجميع المسائل المتعلقة بأعمال كـايسي الخاصة. وقال بعض أعضاء اللجنة إنه من غير المنطقي أن يُحاسب هوغل على عمل قام به منذ سبع سنوات ولا يُحاسب كايسي مثله. قال السناتور بايدن إنه إذا لم يكن هناك توضيح لقضية ملتيبونيك فيجب «أن نطلب من كايسي أن يقوم بالعمل الأفضل لمصلحة الوكالـة والبلاد وأن يتنحّى جانباً»، ولكن غولدووتر قال للصحافيين إنه إذا لم يكن هناك أكثر من ذلك فإنه لا يجد أي سبب يدعو كايسي إلى الاستقالة.

الثلاثاء التالي في ٢١/يوليو عقدت لجنة استخبارات مجلس الشيوخ جلسة استماع حول طلب وكالة المخابرات المركزية استثناءها من قانون حرية المعلومات. إنتهز مونيهان الفرصة وكان يدير أسئلة اللجنة حول كايسي.

قال مونيهان: «في اليومين الماضيين كنا نحاول أن نعرف ما إذا كان مدير المخابرات المركزية متورطاً في نشاطات غير مشروعة تجعله غير مؤهل لشغل منصبه» ثم رفع صـوته عالياً: «لقد اتصلنا بالبيت الأبيض ثم اتصلنا بالبيت الأبيض واتصلت بوزير العدل. ربما لم يعرف مَن أنا أو أنه لا يعرف ماذا يجري هنا لنستحق اهتمامه». وأضاف: «حسناً إنه مهم ويستحق الاهتمام، ومن الأفضل لهم أن يساعدونا على معرفة ما إذا كان على مدير المخابرات المركزية أن يستقيل أم لا، وإذا أرادوا أن يغطوا فإنهم سيخسرون أنفسهم ومدير مخابراتهم سريعاً».

وبعد أقل من ساعة ترك مونيهان الجلسة ليتلقى مكالمتين سريعتين الأولى من وزير العدل وليم فرنش سميث والثانية من مستشار البيت الأبيض فريد فيلدنغ. كـان كايسي خارج المدينة، وكان ازدراؤه للكونغرس واضحاً. أما غولدووتر فإنه كان يتذمر في مجالسه الخاصة ويقول من الأفضل للجميع أن يستقيل كايسي.

مساء الخميس ذكرت شبكة إن. بي. سي N.B.C. التلفزيونية أن غولدووتر قال ذلك لكايسي أي طلب منه الاستقالة. إنها كذبة ملعونة تخوّف منها غولدووتر. كان ظهره يؤلمه وقرر أولاً أن لا يتكلّم، ولكنه لم يستطع السيطرة على غضبه، ودعا إلى مؤتمر صحافي في قاعة الإذاعة والتلفزيون في مجلس الشيوخ كي ينفي الخبر فوراً قبل أن تأخذ الضجة مداها.

سئل عن شعوره الشخصي تجاه كايسي، ولم يكن غولدووتر مرتاحاً إلى أن يكـذب عليهم أو يقول لهم نصف الحقيقة لأنه يجب أن يوفر قول نصف الحقيقة للمسائل المهمة، وهذه لم تكن مسألة مهمة.

غضب غولدووتر من كايسي لأنه «عيّن رجلاً دون خبرة ليكـون أعلى جـاسوس في الولايات المتحدة وهذا سيّئ بما فيه الكفاية». يجب أن أقول ذلك كرجل له علاقة قديمة بمسائل الاستخبارات، إنها كانت غلطة سيّئة جداً، ويمكنني القول إنها خطرة لأنها تتناول الرجل المكلّف بمهام سرية. وهذا كان الأسـوأ، فالضرر الـذي أصاب معنـويات وكـالة

المخابرات المركزية من جرّاء تعيين هوغل يكفي للسيد كايسي كي يستقيل أو للرئيس ريغان كي يطلب منه الاستقالة.

حصلت الأوساط الصحافية على خبر جديد أكثر دراماتيكية. الرسالة التي سرّبت بطريقة خاصة، أصبحت الآن عنواناً رئيسياً. إن ضمير جماعة «الرئيس» يقول إن هوغل خطر وإن على كايسي أن يرحل.

وكان هناك المزيد. قال غولدووتر: توجد شكوك حول فقدان سجلات لبعض معاملات كايسي التجارية. وهناك تناقضات أخرى، وتقرير يفيد بأن كايسي كسب أكثر من ٧٥٠ ألف دولار من صفقات ملتيبونيك ولم يخسر ١٤٥ ألف دولار كما ادّعى.

توجه غولدووتر إلى شقة كوين في شارع كونكتيكت للعشاء. قال كوين: «باري لا يجدر بك أن تقول ذلك». ووافقت بيت كوين: «لم يكن عليك أن تنفث على الجراح بهذا الشكل». قال غولدووتر: حسناً أنا فعلت وعلى الزمن أن يمحوها، لقد كان أسبوعاً طويلاً من النزاعات بين الولاء للحزب والولاء للشعور العام.

كان كايسي نائماً في منزله عندما أذيع تصريح غولدووتر. دق جرس الهاتف وكان سبوركين على الخط.

قال سبوركين: هل سمعت ما قاله ابن الكلب غولدووتر؟

ـ لا، أجاب كايسي، فأطلعه سبوركين على ما جاء في تصريح غولدووتر.

قال كايسي: لا تقلق منه.

ـ ماذا تعني لا تقلق؟ تعجب سبوركين.

قال كايسي. «أنا عائد إلى الفراش»، وأقفل الخط.

حوالى الساعة ٣،٣٠ صباحاً استيقظ كايسي. ارتدى روب الحمام وذهب إلى الطابق الأسفل. كان من عادته أن يستيقظ ليلاً مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، حيث يسود الهدوء الشامل في ذلك الوقت. وغالباً ما كان يقرأ في الفراش لكنه كان يعلم أن الضوء يزعج صوفيا وأنه من الأفضل الانتقال إلى غرفة مجاورة. ذلك الصباح لم يقرأ كايسي. إتّصل بسبوركين وأيقظه ليسأله عما قال غولدووتر. وأعاد عليه سبوركين. ما شاهد وسمع على التلفزيون في آخر الأخبار. كان غولدووتر واقفاً أمام الصحافيين في مؤتمر صحافي يطلب فيه رأس كايسي.

إتّصل كايسي بغولدووتر في منزله وقال له: «أنا لا أصدق أنك قلت ذلك» قال هذا وهو يوقظ رئيس لجنة الاستخبارات وفي صوته رنين الخداع ولم يكن هناك أي غمغمة في لهجته. أجاب غولدووتر وهو نصف نائم: «الأفضل أن تصدق لأن ذلك ما قلته».

توقف كايسي عدة ساعات وحاول أن يقرأ ولكنه كان يطيل التفكير. وحوالى السادسة صباحاً عاد إلى الفراش. تلك كانت أفضل ساعات النوم بالنسبة إليه.

يوم الجمعة بدأ كايسي جولة من الاجتماعات الثنائية مع كبار أعضاء مجلس الشيوخ. في لقاء لمدة ٢٠ دقيقة مع السناتور هوارد باكر زعيم الأغلبية الجمهورية في مجلس الشيوخ ناشد كايسي الكونغرس أن يستمع بطريقة أفضل وبدت عليه إمارات التوتر. قال إنه لم يكسب أبداً ٧٥٠ ألف دولار من الملتيبونيك وكان قادراً على إثبات ذلك بل وأراد ذلك.

قال باكر إنه موافق من حيث المبدأ ولكن عليه أن يدعم رئيس لجنة الاستخبارات، ومن الأفضل لكايسي وللبيت الأبيض أن يأتيا بشيء جديد خلال ٢٤ ساعة.

لم يكن هناك أي طريقة لوقف الجمهوريين الآخرين الذين تلقوا الإشارة من غولدووتر. «إذا تخلى باري عن الموضوع فسيصبح الوضع خطيراً» قال السناتور تد ستيفنز نائب زعيم الأغلبية الجمهورية ومن ولاية ألاسكا وأضاف: إن السيد كايسي يكون حكيماً لو قبل نصيحة السيد غولدووتر. وأضاف إن غولدووتر لا يعطي هذه التوصيات بخفة. إن مصالح وكالة المخابرات المركزية في قلبه.

السناتور وليم روث من ديلاوار وهو واحد من ثمانية جمهوريين في لجنة الاستخبارات ذهب إلى أبعد من ذلك وقال: هذه التهم حطمت رصيد السيد كايسي في لجنة الاستخبارات لدرجة أنه من غير الممكن له أن يقوم بوظيفته بفعالية، وعليه أن يرحل الآن.

ذُهل البيت الأبيض من هجوم حلفاء كايسي الطبيعيين. وصدر بيان باسم الرئيس يقول: «أنا لم أغيّر رأيي بوليم كايسي». وبدا ذلك فاتراً. قال كايسي للصحافيين الذين لحقوا به من مكتب إلى آخر في مجلس الشيوخ، أشعر بأنه عندما تظهر جميع الحقائق سيكون واضحاً أني مؤهل لقيادة المخابرات المركزية. وظهر في هذا التصريح أنه يسلّم بأنه لم يبدأ بعد بقيادة المخابرات المركزية مع أنه في المركز منذ ستة أشهر.

مساء الجمعة حصل هوارد باكر على موافقة غولدووتر على عقد جلسة خاصة لمعالجة قضية كايسي. واختار لذلك فريد ثومبسون الذي كان مساعد باكر عندما كان نائب رئيس لجنة مجلس الشيوخ لمعالجة فضيحة واترغيت عامي ١٩٧٣ و١٩٧٤.

قال باكر لتوميسون إنه حاول تهدئة الجميع، لكن من الواضح أن كايسي لم يكن محبوباً، وإذا لم يغيّر سلوكه فعليه أن يرحل. طالب الجميع بعقد الجلسة بسرعة، وراجع تومبسون السجلات والوثائق وإفادات الكشف المالي. وكان الوضع المالي لوليم كايسي أعقد بقليل من وضع أرسطوطاليس أوناسيس. قال تومبسون بلهجة أهالي تنسي: «أنا أحب وليم كايسي ولكن هناك طريقاً واحداً فقط: التحقيق الشامل».

في الطابق الثاني والعشرين من البناية ٩ شارع بارك أڤنيو في نيويورك، جون شاهين رجل نفط غني ومحارب قديم في مكتب الخدمات الاستراتيجية وصديق كايسي منذ ٣٥ سنة، قرأ الاتهامات في وسائل الإعلام ولم يصدقها. كان للحزب الجمهوري هالته لدى شاهين كما عند كايسي. فلا معنى أن يطلب غولدووتر الجمهوري رأس كايسي. وظهر الوضع وكأن

قيادة الاستخبارات الأميركية من الجنرال دونوڤان إلى كايسي في خطر. في الخمسينات كان شاهين وكايسي في مجموعة واحدة مع دونوڤان. وكان يتصل بهما إذا لم يتصلا به. وأصيب دونوڤان بمرض في الدماغ ودخل مستشفى والتر ريد في واشنطن.

في ٨ شباط/فبراير ١٩٥٩ توفي دونوڤان وطار كل من شاهين وكايسي إلى واشنطن وكان الجو كئيباً ومخيفاً. في النهار كان كايسي يتحرك ببطء وكان قليل الكلام. كان خَدراً يستعيد ذكرياته ويتمشى ويهز رأسه قليلاً وعيناه تحدّقان.

كان تعيين كايسي مديراً للمخابرات المكزية موضع ترحيب وابتهاج من قبل أبناء دونوڤان. لقد كان استمراراً لتجارب الحرب التي لم يعثر عليها أي منهم في حياته. ووجود كايسي على رأس وكالة المخابرات المركزية يعني الكثير. ويعني أنَّ عملهم لم يتوقف.

اتصل شاهين بكايسي في لندن. قال كايسي إنَّها ضربة رخيصة والقضية بمجملها رديئة.

قال شاهين: لكن كايسي وغولدووتر في جانب واحد.

قال كايسي: إنها عاصفة في فنجان شاي.

- «اسمع» قال شاهين، «إنَّه كلام صديق، إذا لم تقم ببعض اللياقات مع لجنة استخبارات مجلس الشيوخ فإنَّك ستمشي على ألواح خشبية».

اتصل شاهين بجيوفري جونز رئيس رابطة قدامى محاربي مكتب الخدمات الاستراتيجية، وكان أحد الشخصيات الرئيسية في المكتب طويل القامة، أنيقاً، دمثاً، يرتدي دائماً بزة كاملة. وكان قد حول «نادي المغرب» إلى نادٍ خاص وأداره مدة خمس سنوات. لم يكن العمل في رابطة قدامى محاربي مكتب الخدمات الاستراتيجية من هوايات جونز إلاَّ أنَّه وضع لوحة أعلان للأخبار الخاصة وسجل لقاءات المحاربين القدامى، ومسك سجلاً للعناوين وحافظ على روابط النادي ومبادئ رجال المخابرات. اتفق شاهين وجونز على أنَّ كايسي بحاجة إلى مساعدة واعتبراه رفيقاً سقط في أرض عدوة هي كونغرس الولايات المتحدة.

كانت الخطوة الأولى إظهار الدعم الشعبي. أرسل حوالى ٤٠٠ برقية تطلب مساهمة من قدامى مكتب الخدمات الاستراتيجية. ونظمت في نيويورك لقاءات على موائد غداء لدعم كايسي، وتكلم عدد من الشخصيات بينهم جورج شولتز ووليم سايمون وهما وزيران سابقان للمالية وجمهوريان وهي لفتة ممتازة في خضم الإدعاءات المالية.

في أول أشهر مضت على سبوركين في الوكالة، كان شبح السناتور فرانك تشرش وتحقيقاته يطارد قاعات مبنى وكالة المخابرات المركزية. كل واحد كان خائفاً ويفتش عن أسباب كي لا يقوم بأي شيء. وسمى سبوركين هذا الوضع «اللاظاهرة» وكان ينوي توضيح بعض الأعمال الخفية الحساسة وعمليات جمع المعلومات الحساسة. وكان من الممكن معارضة

ذلك قبل وصوله إلى مكتب كايسي، لذلك عمل سبوركين على إنشاء نظام إنذار مبكر لكايسي. كان سبوركين يرى أنه إذا استقال كايسي الآن، فلن يستطيع أحد أن يحرّك وكالات الاستخبارات مرة ثانية، وإذا لم يتحرك كايسي فإنَّ سبوركين سوف يتحرك. سيضع جميع أعمال كايسي القديمة أمام الجمهور لتقديرها. في اليوم التالي السبت ٢٥ تموز/يوليو عقد سبوركين واثنان من أصدقاء كايسي مؤتمراً صحافياً في فندق ماي فلور في قلب مدينة واشنطن.

لم يدافع سبوركين عن الوضع القانوني لكايسي فقط، بل ذهب في خطوة غير عادية لمحامٍ يشهد على سلوكه. «إنَّ خسارة مواهب هذا الرجل مأساة للبلاد. أنا أعرف خدعة الأمن عندما أراها. وفي هذه الحالة لا أراها» وكان سبوركين يتكلم كمسؤول سابق في جهاز الأمن والتبادل.

وتحدث السناتور بول لاكسايت وهو جمهوري من ولاية نيفادا وصديق مقرب من الرئيس ريغان وزوجته نانسي. أظهر تقديراً واحتراماً لكايسي وخاصة خلال حملة الانتخابات الرئاسية عام ١٩٨٠. وفي مطالبة سياسية واضحة قال لاكسايت: «أعتقد بأنَّه لولا بيل كايسي لما كان رونالد ريغان رئيساً للبلاد».

استنتج جونز أنَّه قد حان الوقت للظهور على المسرح. طار إلى واشنطن وأنشأ مركزاً له في فندق ماديسون وجمع فريقاً من اثنين من المحاربين القدامى، وكلفهما بمهمة واحدة.

الدكتور جيمس كيلبس وهو أحد أبطال الحرب العالمية الثانية، خاطر بحياته في عمليات كانت جزءاً من اختصاص مكتب الخدمات الاستراتيجية، وعضو الكونغرس السابق جون بلاتنيك وهو ديموقراطي ليبيرالي عمل عضواً في الكونغرس لمدة ٢٨ سنة وترأس لجنة الأشغال العامة من عام ١٩٧٠ ولغاية العام ١٩٧٤.

وأول تحرك كان باتجاه السناتور دانييل اينوي وهو أحد الديموقراطيين السبعة في لجنة الاستخبارات. عمل في لجنة مجلس الشيوخ للتحقيق في فضيحة واترغيت. وكان أول رئيس للجنة استخبارات مجلس الشيوخ عام ١٩٧٦ - ١٩٧٧ مباشرة بعد تحقيقات تشرش. كان قد فقد يده اليمنى خلال الحرب العالمية الثانية. تحدث كيلبس عن إعجابه بأعمال كايسي في مكتب الخدمات الاستراتيجية. وأشاد بجهوده المخلصة لتحسين وضع الوكالة، وبإخلاصه وولائه. نعم، كايسي لم يربح في سباقه مع الكونغرس ولكن على الجميع أن يتفهموا عناد كايسي الإيرلندي.

استمع اينوي بانتباه وقال أخيراً: «إذا كان جون بلاتنيك يثق بوليم كايسي فأنا أثق به».

قابل فريق كيلبس - بلاتنيك اثني عشر سناتوراً من اللجنة وعدداً من الأركان الآخرين.

حوالى الساعة الثانية من بعد ظهر الأحد أرسل كايسي عشرة مجلدات وما سماكته قدمان من المستندات للجنة مجلس الشيوخ لإظهار رغبته في الإجابة على أربع صفحات من الأسئلة. كان هناك عشرون نسخة في عشرين علبة، لكل سناتور علبة واحدة. كما بعث برسالة إلى غولدووتر تقول إنَّ كايسي سيكون سعيداً لمثوله أمام اللجنة. وفي يوم الاثنين عمّم كايسي تقريراً يبدي فيه سروره أمام مئات من موظفي الوكالة. وقال إنَّه تعجب من أن تطفو على السطح عدة إدعاءات في أسبوع واحد. وطلب منهم أن يتحملوا المسؤولية معه لأنَّه كان واثقاً من أنه لم يرتكب أي خطأ، ويريد أن يبقى مديراً. وذكرت الصحافة حماستهم البالغة.

ذهب كايسي إلى بوبي اثمان وقال إنَّ له طلباً شخصياً؟ هل يدلي اثمان بتصريح علني لمصلحة كايسي؟

رأى اثمان أنَّ هذا أصعب طلب لكايسي. ووافق في الحال. وقبل دعوة للظهور في برنامج إخباري لشبكة أي. بي. سي. ABC التلفزيونية مع تيد كوبيل.

كان اثمان يعلم ضمناً أنَّ صراع كايسي ـ غولدووتر يعود إلى العام ١٩٦٦ عندما ترشح كايسي لتسمية الحزب الجمهوري لعضوية الكونغرس ضد أحد أتباع غولدووتر وهو ديروتيان.

وشعر اثمان بأنَّ هذين الرجلين لا ينسيان هذه النزاعات رغم مرور ١٥ سنة عليها.

قام كايسي بعدها بجولة ثانية على أعضاء مجلس الشيوخ. لقد كان يعرف عن أعماله وتوظيفاته المالية حتى آخر مليم. لم يرتبك لكونه رأسمالياً مغامراً يركب المخاطر. والمخاطر غالباً ما تؤدي إلى الفشل والمشاكل والدعاوى القضائية. لكنه لم يُتهم بشيء غير قانوني. وفيما يتعلق بملتيبونيك، نعم لقد كان في مجلس الإدارة، ولكن كان هناك أعضاء آخرون ولم يكن مكلفاً بإعداد الوضع القانوني للبورصة. حقاً، إن المديرين يتعرضون للشكاوى في بعض الأحيان لكن هل يعني هذا أن يتحمل مسؤولية جميع الأعمال. يمكن أن تكون الشركة مسؤولة عن الخسائر المالية إذا ارتكب خطأً معيناً في عمله ولكنَّ القضية عُرضت في وسائل الإعلام على أنَّها جريمة أو خطأ أخلاقي. إنَّه هراء. وكل من له مصالح وأعمال تجارية يجب أن يتفهم ذلك.

السناتور لويد تبسنون وهو ديموقراطي من تكساس وثري، تفهم الوضع بسهولة. عرف تبسنون الحواجز الصعبة في عالم الأعمال. قال تبسنون بعد لقائه مع كايسي: «لم يضعون قفازات عليه. أريد أن أسمع وأن أرى إثباتاً معقولاً يجعلني أعتقد بأنَّ على السيد كايسي أن يستقيل».

حاز كايسي على ثقة متزايده وهو ينتقل من مكتب إلى آخر في مجلس الشيوخ. لقد انتهى من قعر البرميل. قال لمجموعة من الصحافيين خارج أحد المكاتب، «لا يوجد أي شيء هنا أنتم تعلمون، أنا غير قلق وحياتي كتاب مفتوح وأنا جاهز لأشرح أي قسم منه».

في ذلك الاثنين قالت أسبوعية النيوزويك إنَّ البيت الأبيض وضع لائحة بمرشحين لخلافة كايسي إذا كان ذلك ضرورياً. وكان اسم اغان غائباً عن هذه اللائحة. وهكذا أوضح مساعدو البيت الأبيض أنّه إذا كان غولدووتر يريد الإطاحة بكايسي فإنّه لن يأتي بصديقه اغان.

قال اغان في البرنامج التلفزيوني، إنَّ وليم كايسي هو الرجل المناسب ليكون مديراً للمخابرات المركزية. واستطاع المحاربون القدامى أن يحضروا المدير السابق للمخابرات المركزية كولبي في برنامج «تقرير مكنيل ولهرير» ليدافع عن كايسي. قال كولبي: «إنَّ أسوأ ما يمكن أن يحدث الآن هو استقالة وليم كايسي لأنَّ ذلك يظهر أنّه ما عليك إلاَّ اختلاق قصص واهية ليستقيل مدير المخابرات المركزية».

الأربعاء في ٢٩ تموز/يوليو، أي بعد ١٥ يوماً من استقالة هوغل، وصل كايسي إلى الكونغرس لحضور جلسة مغلقة أمام لجنة مجلس الشيوخ في غرفة الاستماع الآمنة في الطابق الرابع من مبنى الكابيتول. وبكل مرح رفع يديه قبل دخوله إلى المصعد وقال: «إنّها نزهة تعودت عليها، فلقد سبق لي أن تعرضت لمثل هذا» وشعر كايسي بالثقة المتزايدة، فالديموقراطيون في اللجنة كانوا إلى جانبه. وهوغل رحل مع جميع القضايا المالية التي تتعلق بالاستثمارات المغامرة قبل عام ١٩٧١.

أدلى كايسي بشهادته بعد قسم اليمين وأجاب عن جميع الأسئلة. حول الاستخبارات الضعيفة في الشرق الأوسط وحول اللهجة السياسية في تقارير المحللين. وأقر بأنَّ هوغل تحول إلى اختيار خاطئ وتحت ضغوط الاستجوابات القاسية قال: نعم كان تعيين هوغل خطأ.

وبحذر كما فعل اغان صرح بأنّه لا يريد تسييس الاستخبارات. نعم إنَّ الوكالة ليست في حاجة لأن تدخل في خضمّ التجسس الداخلي وأنّه سيساعد اللجنة في عملها. شهد مثوله أمام اللجنة لحظات مخزية، سناتور وراء سناتور وكل واحد يختار موضوعه المفضل: شكاوى حقيقية أو وهمية أو تقارير صحافية. السناتور بايدن لم يترك كايسي وطرح جميع قضاياه المالية واحدة تلو الأخرى.

حين انتهى هؤلاء من إثارة موضوعاتهم جلس كايسي وقال إنّه كان رجل أعمال وفي التقليد الأميركي عليه أن يجازف. وفي الرأسمالية المغامرة، بعض الأعمال لا تعطي نتائج جيدة بل تؤدي إلى مشاكل ودعاوى قضائية وخلافات. وإذا كان ذلك لا يعجب الشيوخ فإنّها مشكلتهم وليست مشكلته.

اقترح الديموقراطيان هنري جاكسون وتيسنون على اللجنة أن تمنح ثقتها الكاملة وتعوض عن الضرر الذي أحدث خلال الأيام الماضية. ولكنهما لم يستطيعا تأمين الأغلبية لانتصار مشروعهما. وبعد نقاش طويل اتفق الشيوخ بالإجماع على إصدار بيان يقول: «إنّه لم

يُعثر على أي سبب يجعل السيد كايسي غير ملائم ليكون مدير المخابرات المركزية». وترك كايسي مجلس الشيوخ بعد خمس ساعات رافضاً الإجابة عن أسئلة الصحافيين.

في البيت الأبيض كان الرئيس ريغان يحضّر تصريحاً حول انتصاره في موضوع خفض الضرائب، وهو إنجاز هام في كونغرس يسيطر عليه الحزب الديموقراطي. وكان ذلك أكبر انتصار لريغان منذ انتخابه، وركز عليه البيت الأبيض لعدة أشهر لأنّه كان بمثابة المؤشر الرئيسي على تحكمه بروزنامة العمل السياسي للأمة.

- «نعم أنا أعرف» قال ريغان وهو يرفع يديه، ولكن هل رأيت ذلك التقرير عن كايسي؟ إنّه كان بالإجماع.

في لانغلي راقب كايسي عملية تشاد الخفية التي بدأت ببطء، وصمم على دعم وزير الدفاع السابق حسين حبري لتسلم السلطة وتشكيل حكومة انتقالية للوحدة الوطنية. (عرفت بالتسمية الفرنسية Gunt) وعلى أن يحرر التشاد من نفوذ القذافي، وهذا يتطلب دعماً بالسلاح والمال.

من الممكن أن يكون ذلك سهلاً من الناحية التقنية، وهذا يعني الدخول على الخط المالي الذي تعتمده فرنسا التي أنفقت مائة مليون دولار خلال الأعوام الماضية لتحقيق الاستقرار في مستعمرتها القديمة.

لم يكن لمديرية العمليات معلومات كافية عن سوق السلاح الدولي، عن أفضل البنادق وأحسن الأسعار، وطرق المواصلات والمعاملات المصرفية. وتردد كايسي لأنَّ الوكالة كانت تركز على السلبيات وتصر على أن لا يستعمل حبري هذا الدعم ضد معارضيه السياسيين. وهذا يعتبر تدقيقاً في مسألة حقوق الإنسان التي كانت قضية كبيرة في لجان الكونغرس.

اللعنة، قال كايسي متعجباً: هل يريدون ملاحظة أو إشارة من والدة حبري؟ كان حبري قاسياً، هل قرأوا تقاريرهم؟ أين كانت الواقعية؟

أثارت هذه العملية الصحافيين، وأظهر بعض التقارير غباء وكالة المخابرات المركزية.

قبل استقالته من مديرية العمليات كان ماكس هوغل قد قدم مذكرة حول عملية تشاد إلى لجنة مجلس الشيوخ. وقلق عدد كبير من أعضاء اللجنة من إمكانية استخدام الكلمات الهامة في المذكرة كتبرير لملاحقة القذافي. وتساءل بعض أعضاء الكونغرس حول ما إذا كان حبري هو الشخص المناسب ليتلقى المساعدة. من اليسار وردت أسئلة حول تورطه في المجازر، ومن اليمين أعاد البعض إلى الأذهان تصاريحه حول إعجابه بماو وكاسترو وهوشي منه. وكان في السابق يدعو إلى ثورة تشمل إفريقيا بمجملها. بالإضافة إلى هذه المشاكل، كان لحبري ومنذ سنوات قليلة، روابط متينة مع القذافي وتلقى السلاح منه. لكن هل نجد وكالة المخابرات المركزية شخصاً معادياً للقذافي أفضل منه؟

زوّد كايسي أعضاء اللجنة بنسخة عن التقرير الشامل المفصل الذي تضمن أنواع

الأسلحة التي يجب تأمينها وأجهزة الاتصالات والثمن المقدّر والوقت اللازم. أرسل أعضاء اللجنة رسالة سرية إلى الرئيس ريغان يحتجون فيها على العملية وتسربت أنباء هذه الرسالة، وجاء في الأخبار أن مجلس الشيوخ اعترض على عملية في بلد في إفريقيا ولم يذكر اسم ذلك البلد.

النائب كليمنت زابلوسكي رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب وعضو لجنة الاستخبارات، راجع مذكرة عملية تشاد والرسالة الموجهة إلى ريغان. وهو رجل قانون يبلغ من العمر ٦٩ عاماً، سرّب إلى مجلة النيوزويك خبراً بعنوان: «خطة للإطاحة بالقذافي» يذكر فيه أن وكالة المخابرات المركزية على وشك البدء بمشروع واسع النطاق ومرتفع الثمن، للإطاحة بنظام القذافي. ورأى بعض أعضاء مجلس النواب الذين راجعوا الخطة في ذلك محاولة لاغتيال القذافي.

تخوف كايسي من هذا التقرير لأن الوكالة وضعت خطة لها حظ قوي من النجاح، فلقد كانت حليفتا الولايات المتحدة، مصر وفرنسا جاهزتين للاشتراك بالعملية. يجب نفي ذلك علناً وبسرعة لأن المخاوف من خطة اغتيال القذافي سوف تعزز من جنون العظمة عنده. ولذلك أصدر البيت الأبيض نفياً لما جاء في خبر النيوزويك، مع أنه أكد أن هناك رسالة احتجاج من لجنة مجلس النواب ضد بعض العمليات.

بدأ التفتيش عن البلد الذي لم يذكر اسمه في المعلومات وقرر بعض مسؤولي البيت الأبيض أنه من الأفضل أن يسربوا الاسم الحقيقي للبلد فيصبح نفيهم لليبيا صحيحاً. في هذا الوقت وقّع الرئيس ريغان مذكرة جديدة سرية جداً بناء لطلب وزارة الخارجية، وذلك لتأمين الدعم السياسي والمالي لقائد موريشوس الموالي للغرب وهي جزيرة حيوية بالنسبة إلى الولايات المتحدة. تقع في المحيط الهندي قرب ساحل مدغشقر وعلى طريق نقل النفط. هذا القائد هو رئيس الوزراء رامغولام وهو طبيب يبلغ الثمانين من العمر استمر في الحكم منذ ثلاث عشرة سنة ويواجه معركة عنيفة ضد حركة عسكرية ماركسية وهو بالتأكيد سيخسر هذه المعركة دون مساعدة خارجية. من الممكن أن تصبح هذه الجزيرة قاعدة سوفياتية بحرية. تجلى هذا النوع من الأعمال الخفية بالدعم السياسي والمالي للمحافظة على أحد أصدقاء الولايات المتحدة في السلطة. كان الثمن ضئيلاً والربح كبيراً. ولا يعترض أحد عادة في الكونغرس على دعم من هذا المستوى. وكانت خطة وزارة الخارجية إعطاء بعض المال لزعيم أجنبي صديق في بلد صغير حيث حفنة من الدولارات تمكن من شراء الانتخابات وكسبها.

لكن مساعدي البيت الأبيض غير المتآلفين مع المشاكل العالمية ارتبكوا وسربوا أن البلد الهدف هو بلد له الأحرف الخمسة الأولى نفسها لموريتانيا (Muritius وMuritania) وموريتانيا بلد كبير في شمال غرب إفريقيا، أصبح في الواجهة في اليوم التالي كهدف لوكالة المخابرات

المركزية في إفريقيا. وساد شعور بأن الولايات المتحدة تريد الإطاحة بالحكومة. إشمأز كايسي من خداع البيت الأبيض وشكّ في جهله وكان ذلك سخيفاً لأن الجميع يعرف أن الولايات المتحدة تقيم علاقات جيدة مع الحكومة العسكرية الإسلامية في موريتانيا. ولتغطية هذه السخافة قالت تقارير وكالة المخابرات المركزية إن ليبيا كانت متورطة في محاولة انقلابية فاشلة في كانون الثاني/يناير الماضي.

ثمّ حصل ما حصل. أصيب الموريتانيون بخيبة أمل وقدموا احتجاجاً. وقال المسؤولون الرسميون الأميركيون للموريتانيين إنه ليس بإمكانهم أن يبحثوا في أخبار صحافية عن عمليات خفية يفترض حصولها. إذا كانت خاطئة لماذا لم يقل ذلك الناطق باسم البيت الأبيض كما قال في حالة ليبيا؟ إن الصمت الإعلامي الرسمي ما هو إلاّ تأكيد للتقارير الصحافية. وأخيراً حاولت وزارة الخارجية إقناع الموريتانيين بأن تقارير الصحافة كانت خاطئة، ولكن هذا يتطلب إعلان الأسم الصحيح للهدف.

في النهاية تمّ نفي عملية موريتانيا وتسربت معلومات حول الهدف الصحيح، جزيرة موريشوس، بسرعة. ولكن النقطة المهمة تجلت في أن العملية كانت دعماً للقيادة الحالية وليست للإطاحة بها.

إستاء كايسي من ذلك. ألم يكن أحد يفكر؟ والأهم هو حاجة صانعي السياسة في البيت الأبيض لتعلّم السياسة الخارجية والتي لا يجوز إدارتها مثل الحملات السياسية الخطابية والتسريب والتوضيح. إنه هراء. الكونغرس والبيت الأبيض ووزارة الخارجية والصحافة جميعاً كانوا على علم بالعملية. وفي لقاء في البيت الأبيض مع الرئيس ريغان احتج كايسي على التسريبات لأنه يجب أن تبقى جميع التفاصيل سرية. وقد أعطت الأخبار الأخيرة انطباعاً بأن عمليات خفية ستبدأ في إفريقيا وموريشوس وموريتانيا وليبيا. هل يعرف أحد ماذا يؤثر الخبر الصحافي عن عمل خفي في بلد ما على محطة الوكالة هناك؟ يمكن أن يتعثر جمع المعلومات وأن تصاب العلاقات مع أجهزة الاستخبارات المحلية بنكسة.

سأل محررو النيوزويك رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب زابلوسكي عن خطة ليبيا فنفى علمه بشيء. وألمح زابلوسكي لأركان المجلس بأنه وراء معلومات النيوزويك. لقد كان مستقيماً ولكن رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس النواب قرر أن لا يقوم بأي إجراء ضد زابلوسكي لأن التسريبات كانت شائعة.

في يوم الأحد ٧ حزيران/يونيه ١٩٨١ تلقى انمان معلومات مفادها أن إسرائيل استخدمت الطائرات الأميركية المزودة بها لقصف وتدمير المفاعل النووي العراقي الذي يقع على مسافة ١٠ أميال خارج مدينة بغداد. تحقق من ذلك وتبين له بنتيجة اتفاق تبادل المعلومات مع إسرائيل الذي أقره كايسي أنه كان يسمح لإسرائيل بالاطّلاع على صور الأقمار الاصطناعية وأنها استخدمتها في التخطيط للغارة. وكانت الإدارة الأميركية تمشي على حبل

البهلوان بين العرب وإسرائيل ولكن اثمان لم يقتنع كيف تستطيع الولايات المتحدة أن تحافظ على سياسة متوازنة إذا سمحت لإسرائيل بإلقاء القنابل فوق جميع بلدان الشرق الأوسط وبمساعدة الاستخبارات الأميركية. ووضع بسرعة قواعد جديدة من شأنها أن تسمح لإسرائيل بالاطّلاع على المعلومات الحساسة والصور من أجل الدفاع فقط. وسمح للإسرائيليين بالاطّلاع على صور البلدان التي تشكّل تهديداً مباشراً أو على الحدود الإسرائيلية فقط. وكانت بغداد على مسافة ٥٠٠ ميل خارج اللائحة.

تابع كايسي الموضوع وكان مسروراً لأن الإسرائيليين تخلصوا من المشكلة وأعجب بتهورهم ووقاحتهم. وعندما عبّر البيت الأبيض عن صدمته وفرض حظراً على إسرائيل بوقف تسليم طائرات ف ١٦، شعر كايسي بأنه من الممكن أن يكون هذا ضرورة ديبلوماسية إلاّ أنه سمّاه في مجالسه الخاصة بالهراء. سبق للإسرائيليين أن طلبوا من إدارة كارتر الضغط على العراقيين كي يختصروا برنامجهم النووي. وهددوا بأنهم سيتحركون إذا لم يتخذ أي إجراء. إستطلع الموساد إمكانية قيامه بعملية تخريب ولكن الضربة الجوية كانت الأصح لأن خسائرها أقل لكل من الإسرائيليين والعراقيين، والجدير بالذكر أنه قتل شخص واحد فقط في الغارة وهو فني في المفاعل النووي.

رأى كايسي أن للاستخبارات الإسرائيلية شكوك حول عمل وكالة المخابرات المركزية. قبل العام ١٩٧٤ أدار رئيس قسم مكافحة التجسس في الوكالة جيمس أنغلتون المكتب الإسرائيلي في الوكالة. وأشرف على جمع المعلومات الحيوية الواردة من محللي ورجال العمليات في الشرق الأوسط. بعد طرد أنغلتون اقتصرت نشاطات المخابرات الإسرائيلية لعدة سنوات على إطلاق العنان للموساد وذلك للقيام بأعمال تخدم أهداف إسرائيل وسياستها.

كان للموساد مصادر بشرية جيدة في ثلاث مناطق حيوية هي لبنان وسوريا والاتحاد السوفياتي. وعلى كايسي أن يقوم بما يسعه ليجعل الموساد موضع اعتبار.

أخطأت إسرائيل في بعض مسائل الاستخبارات المهمة فقد كان لوكالة المخابرات المركزية مصادر سرية داخل منظمة التحرير الفلسطينية أمنت في بعض الأحيان تفاصيل عن هجمات محتملة للمنظمة ضد إسرائيل. واقتنع مدير العمليات بأنه لا يجوز إرسال هذه المعلومات إلى إسرائيل لأن إرسالها يجعل المصادر غير فعالة ويعرّضها للخطر. كانت لعبة قاسية. وأعجب كايسي بالطريقة التي قبلت فيها إسرائيل بقواعد العمل. يجب حماية المصادر مهما كان الثمن. كان لهم عقدة حول ذلك. ألم تكن هناك علاقات حيوية سرية لا يمكن لأحد أن يعرفها؟ قال كايسي نعم فالمحافظة على المصدر وعلى هويته تؤثر على قيمة المعلومات. إن قصف المفاعل النووي العراقي كان له الفضل في المحافظة على العلاقات الطويلة الأمد مع المخابرات الإسرائيلية. بعد شهر من قصف المفاعل زار الجنرال يهوشا ساغي رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية كايسي. وشعر كايسي بأن ساغي موضع

ثقة، واتفقا على التعامل مع بعضهما البعض في المواضيع المهمة.

جرت العادة أن يكرس المدير قسماً من يوم عمله للاتحاد السوفياتي. وكان يطلب أدق المعلومات حول العدو رقم واحد. واستنتج أن الدعاية السوفياتية على الرغم من تعقيداتها لم تكن واضحة. وحثّ مدير العمليات على أن يتفهم هذه الحالة ويحصل على معلومات واسعة عنها.

في تموز صدر تقرير سري بعنوان «التدابير الإيجابية السوفياتية»، وعمم منه حوالى ثلاث آلاف نسخة، ولعله أكبر تعميم لتقرير صادر عن الوكالة. وصف التقرير التدابير الإيجابية بأنها معرفة وجهات نظر السياسة السوفياتية في العالم ليس فقط بالأعمال الخفية والإعلام بل بالتدابير الإيجابية التي تدرجت من معالجة الأوضاع إلى العمليات العسكرية إلى الاستعمال العلني لمسائل «نزع السلاح» و«السلام» وحتى «الاعتراض» و«التعقل» في مختلف المجالات. هذه التدابير الإيجابية كانت من أهم أدوات السياسة الخارجية السوفياتية.

جاء في نص التقرير: «علم من مصدر موثوق أن ليونيد بريجنيف أمين عام الحزب، كان يوقع شخصياً بعض التوجيهات المحددة، حول التدابير الإيجابية».

بعض الخصوصيات في هذا التقرير المؤلف من ثلاثين صفحة كان السيطرة المادية على صحيفتين يوميتين رئيسيتين في غانا عن طريق مسؤولين في المخابرات السوفياتية KGB دفعوا مبالغ مالية للمحررين، وكذلك تزوير المخابرات السوفياتية لآخر وصية وشهادة لرئيس الوزراء الصيني الراحل شو ان لاي عام ١٩٧٦ والتي جاء فيها أن الثورة الثقافية كانت غلطة كبيرة. (قال أحد عناصر المخابرات السوفياتية إن قيادة المخابرات السوفياتية اعتبرت هذا التدبير الإيجابي أفضل نجاح تحققه). وساهمت المخابرات السوفياتية بمبلغ ٨٥ ألف دولار لدعم مرشح يساري في نيجيريا. ونظمت حملة لتعديل معاهدة سالت ٢.

هذا ولا ننسى الدعم السوفياتي للثورة اليسارية في السلفادور، والعمل من خلال جبهة سياسية ولجان التضامن (سبعون مظاهرة في أول ستة أشهر من عام ١٩٨١)، والتعاطي البارع مع المنظمات الدولية وخصوصاً الأمم المتحدة.

ركزت بعض مقاطع التقرير على الباكستان، والجهود المبذولة لخلخلة العلاقات المصرية الأميركية، والجهود في موريشوس لإقامة نظام موال للسوفيات (كانت وكالة المخابرات المركزية تؤمن الدعم الخفي للحكومة الموالية لواشنطن في هذه الجزيرة في المحيط الهندي).

إستنتج انمان أن كايسي كان يضاعف سرعته ويستعمل تقرير التدابير الإيجابية من أجل الخليط الأيديولوجي مثل خلط التفاح بالبرتقال. وردت اتهامات خاطئة حول سياسة الولايات المتحدة في السلفادور ونشرت في صحيفة البرافدا والأزفستيا ووكالة تاس وأذاعها راديو موسكو. وحكم انمان على معظم العناصر الدقيقة في التقرير بأنها ضرورية، وترتكز

على معلومات من مصادر بشرية جيدة. لم تكن الحملة السوفياتية شيئاً ملفقاً من خيال كايسي، ولكن من الضروري التمييز بين تزوير وصية شو ان لاي وغزو أفغانستان.

كان الهدف من التعميم الواسع للتقرير زيادة الاهتمام، واقتراح عمل ما من وكالة المخابرات المركزية لمواجهة السوفيات. ولكن بسبب خيبة أمل كايسي لم تكن الوكالة قادرة على حساب تكاليف هذه التدابير بالنسبة إلى السوفيات. حللت الوكالة الجهود السوفياتية الهادفة إلى تحريك المعارضة لخطة الولايات المتحدة لبناء القنبلة النيوترونية. وهي السلاح الإشعاعي الذي يقتل الأشخاص ولا يؤثر على المباني. جاء في تقرير الوكالة أن هذه الدرجة من الجهود السوفياتية يمكن قياسها منطقياً. إذا حسبنا أن الولايات المتحدة بصدد تنظيم حملة بحجم حملة السوفيات على قنبلة النيوترون فسيكلف ذلك أكثر من مائة مليون دولار. وقال كايسي عن هذه الأرقام أنها غير دقيقة. على الرغم من ذلك وفي ١٣ آب/أغسطس وبعد شهر من تعميم تقرير وكالة المخابرات المركزية، ألمح الرئيس ريغان للصحافيين بأن «لدينا معلومات تدل على أن الاتحاد السوفياتي أنفق حوالى مائة مليون دولار في أوروبا الغربية وحدها منذ إعلان اختراع قنبلة النيوترون، ولا أعلم كم ينفقون الآن، ولكنهم يقومون بالحملة الإعلامية نفسها».

شعر انمان أن لا فائدة من أن يعمم رئيس الولايات المتحدة معلومات غير صحيحة. ولكن كايسي لم ينزعج. لقد كذب السوفيات في جميع الأوقات. وكان تقرير وكالة المخابرات المركزية قريباً جداً من الصحة.

- ٨ -

بحلول شهر آب قرر بوزيلو أن يستقيل من منصبه كسفير في نيكاراغوا، وكان قد أوقف تدفق الأسلحة إلى ثوار السلفادور لمدة ثلاثة أشهر على الأقل آذار/مارس ونيسان/أبريل وأيار/مايو ولكنَّ قرار الإدارة بإلغاء المساعدات لنيكاراغوا تركه دون فعالية. وعادت الأسلحة تنتقل من جديد. وأقنع بوزيلو معاون وزير الخارجية أندرز ـ وهو صاحب نفوذ في الإدارة ـ بالحضور إلى نيكاراغوا والاجتماع مع الساندينيين.

في ماناغوا تحدث أندرز بصراحة مع بوزيلو، وأدرك كل منهما قلق واشنطن من تقارير وكالة المخابرات المركزية حول تدفق السلاح من جديد إلى السلفادور. وكانت وكالة الأمن القومي تلتقط ما بين ٦٠ ٪ و٧٠ ٪ من الاتّصالات الراديوية من ماناغوا إلى مراكز الثوار في السلفادور مما يدل على أنَّ ماناغوا متورطة بشكل كبير. وبدأ بناء القوة المسلحة للساندينيين في بلادهم يثير قلق جيران نيكاراغوا وخاصة الهندوراس في الشمال. قال أندرز إنَّ السياسة في واشنطن كانت تنوي البدء بالأعمال التي تؤدي إلى صدام.

وافترض بوزيلو أنَّ ذلك يعني عملاً خفياً إلاّ أنَّ أندرز قال: أريد أن أمنع ذلك فمن الممكن للدبلوماسية أن تقوم بدورها.

وهكذا عقد أندرز وبوزيلو جولة من المحادثات مع القادة الساندينيين. وأبدى هؤلاء دائماً رغبتهم في اللقاء والحوار ولكنهم أوضحوا أنَّهم لن يسمحوا لأحد بإزاحتهم وأنهم سيدافعون عن أنفسهم حتى آخر واحد منهم.

وشكا أندرز من أنَّهم كانوا يضايقون الكنيسة والصحافة ونقابات العمال كما شكا من استبعاد غير الماركسيين عن الحكومة وقال إنَّ الإدارة الجديدة في واشنطن تريد أن ترى الديموقراطية تسود أميركا الوسطى.

وكان جواب الساندينيين أن هذه شؤون داخلية.

وقال لهم أندرز إنَّ بلادهم صغيرة ويمكن للولايات المتحدة أن تضربها بسهولة. وأضاف: لا تكونوا وقحين، نحن نتكلم عن الحياة، عن حياتكم وهاءنذا أعرض عليكم اتفاقاً مع الولايات المتحدة. وفكر الساندينيون جدياً في ذلك.

رأى بوزيلو أنَّ أندرز لم يكن يهدد في كلامه لكنه تحدث بصراحة وحذرهم بطريقة واقعية، غير أنه ذهب خطوة نحو الأمام في الدبلوماسية العنيفة.

أراد الساندينيون خصوصياتٍ لهم.

قال أندرز أن يتعهدوا بتحديد قوتهم العسكرية، وطالبهم بعدم التدخل في الشؤون الداخلية والخارجية للدول المجاورة، كان يريدهم أن يوافقوا على عدم تصدير الثورة. وبالمقابل تعطي الولايات المتحدة وعداً بعدم دعم الحرس الوطني السابق لسوموزا الذي كان يعمل ضد الساندينيين. وأفادت التقارير أنَّ هؤلاء المسمون كونترا (من الكلمة الإسبانية كونترا ريڤوليوشناريز) ينظمون صفوفهم على الأراضي الأميركية. بالإضافة إلى ذلك قال أندرز إنَّ الولايات المتحدة مستعدة للتوقيع على معاهدة عدم اعتداء أو دفاع مشترك مع نيكاراغوا. وقال: «نحن لا نحب نظامكم» ولكن لا يوجد لدينا سبب للتدخل وعليكم أن تخرجوا من السلفادور.

قال أورتيغا: لا، ثورة السلفادور هي درعنا وتعطي الأمان لثورتنا.

بعد عودته إلى واشنطن، راجع أندرز القانون الدولي الذي هو في صالح النظام الموجود في أي بلد. إنَّ الطريقة الوحيدة للولايات المتحدة لكي تفعل شيئاً ما كانت الأعمال الخفية، وفوق كل هذا، قرر أندرز أنَّ على الإدارة الأميركية أن تزيح اهتمام الرأي العام عن السلفادور.

أرسل أندرز مذكرة سرية إلى هيغ يلخص فيها رحلته، ويستنتج أنَّه، إذا لم تحصل تغييرات كبيرة، فإنَّه يأمل بتحقيق اتفاق ما مع الساندينيين.

أعاد هيغ المذكرة مع ملاحظة على الهامش: لا أؤمن إلاَّ بعد أن أرى، وفي هذه الأوقات دعنا نتابع العمل في بقية الخطط.

رأى أندرز في مشروع الاتفاق مع الساندينيين أنَّه من العيب والوقاية أن نطلب منهم أن يتنازلوا عن ثورتهم وعن مبادئهم.

بقي كايسي قلقاً تجاه القذافي وذلك بسبب تقرير نشرته أسبوعية نيوزويك من أنَّ وكالة المخابرات المركزية تخطط للإطاحة به أو لاغتياله. لقد تمّ حل الشيفرة الدبلوماسية والاستخبارية الليبية، وغالباً ما كان القذافي يتكلم على خطوط هاتفية غير مؤمنة، وأعطى كل ذلك الولايات المتحدة صورة واضحة عن مشاريعه التدميرية.

وإحدى أدوات القذافي كانت شركة الطيران الإفريقية المتحدة، وهي شركة طيران لنقل الركاب والبضائع دون برنامج عمل محدد. وأظهرت معلومات وكالة المخابرات المركزية أنَّها كانت مؤسسة النقل الجوي للقوات المسلحة الليبية وكان عناصر المخابرات الليبية يشرفون على إدارة الرحلات الجوية وعلى حركة الركاب والبضائع.

جاء في تقرير صدر في آخر آب/أغسطس أنَّ القذافي أمر شركة الطيران الإفريقية المتحدة بفتح ١٨ مكتباً جديداً في إفريقيا بكلفة ٣٠ مليون دولار. وزرعت هذه المكاتب شبكة استخبارات واتّصالات وشحن ونقل بريد وركاب. واستناداً إلى معلومات وكالة

المخابرات المركزية، فقد انتحل بعض عملاء المخابرات الليبية صفة الطلاب، وقدّم محاسبو الشركة رشاوى خيالية لنقل المدفعية والذخيرة وسيارات الجيب والأسلحة والألغام إلى تشاد. كما تمّ نقل الزيمبابويين المدربين في ليبيا جواً إلى سالزبوري، واستعملت هذه الشركة أيضاً لشحن صواريخ أرض ـ جو السوفياتية الصنع إلى سوريا.

وضع القذافي خططاً للحصول على السلاح النووي. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٠ قدم السوفيات ١١ كلغ من اليورانيوم الفني إلى مركز أبحاث خارج العاصمة الليبية طرابلس في تاجورا. مع أنَّ هذه الكمية لا تكفي لإنتاج قنبلة (ولن يكون له ما يكفي قبل عام ١٩٩٠ حسب تقديرات وكالة المخابرات المركزية) فإنَّ كمية الـ١١ كلغ زادت عن الكمية التي يقدمها السوفيات عادة مرة واحدة.

وأشارت تقارير أخرى إلى أنَّ اليورانيوم كان يأتي عبر النيجر، وهي دولة في وسط إفريقيا إلى الجنوب من ليبيا، على متن شركة الطيران الإفريقية المتحدة. في ٥ تموز/يوليو ١٩٨١ صدرت مذكرة سرية عن وزارة الخارجية بعنوان «هدف ليبيا التالي»، ورد فيها أنَّه كان للقذافي طموحات في النيجر.

واستناداً إلى تقرير آخر، فقد أجرت شركة ألمانية غربية تجارب على صاروخ في ليبيا. وكانت الإدارة الأميركية على وشك القيام بمراجعة كبيرة لسياستها.

وعلم كايسي أنَّ تقارير الاستخبارات صبّت الزيت على نار السياسة. وكلما زادت تقارير الوكالة إلى البيت الأبيض زاد التحرك نحو العمل وخصوصاً بالنسبة لريغان وهيغ.

وافق كايسي على قرار لتحدي القذافي الذي أعلن سيادته على خليج سرت وذلك بإجراء مناورات للبحرية الأميركية في الخليج المذكور. إنَّها حركة محدودة وغير مثيرة، كما أنَّ المجموعة الدولية شاركت الولايات المتحدة في الهزء من ادعاء القذافي بأن سرت بحر ليبي.

حوالى الساعة السابعة صباحاً من يوم الأربعاء ١٩ آب/أغسطس وبينما كانت طائرتان من طراز ف ١٤ تابعتان للبحرية الأميركية تحلقان في دورية حوالى ٣٠ ميلاً داخل أجواء المياه الإقليمية المزعومة، اعترضتها الطائرات المقاتلة الليبية، وجرى اشتباك جوي أدى إلى إسقاط طائرتين ليبيتين. ذلك الصباح حيّا الرئيس ريغان كبار مساعديه بطريقة الوسترن السينمائي.

وبعد ثلاثة أيام في ٢٢آب/أغسطس وصل القذافي إلى عاصمة إثيوبيا أديس أبابا واجتمع مع الكولونيل منغستو هايلي مريام وهو شاب ماركسي متحمس. وأثناء الاجتماع كان في الغرفة أحد كبار المسؤولين الإثيوبيين وهو مصدر سري لوكالة المخابرات المركزية للقضايا الحساسة وكانت تقاريره ترسل مباشرة إلى لائحة «بيجوت» الحساسة. وقيّمه مدير العمليات بأنَّه «صادق بشكل عام إلى ممتاز». خلال الاجتماع صرّح القذافي بأنَّه يريد قتل الرئيس ريغان.

وعندما وصل التقرير إلى واشنطن حمل التقييم التالي: «اقتنع منغستو بأنَّ القذافي

جدّي وينوي ذلك فعلاً وبأنّه يجب حمل التهديد على محمل الجد».

بعد فترة قصيرة التقطت وكالة الأمن القومي إحدى محادثات القذافي حيث قال الشيء نفسه. ريغان كان الهدف. وذُكر التقريران في الإيجاز اليومي للرئيس. اقتنع كايسي بأنَّ هذا أفضل ما توصلت له المخابرات، أي التقاط مكالمة مع تقرير مصدر بشري. يجب حمل كلام مديرية العمليات على محمل الجد. وناقش كايسي الموضوع مع الجميع، يجب أن نفعل أي شيء ولكن ماذا؟ إنّهم لا يستطيعون إطلاق النار على القذافي. وبعد مضي أسبوع دون أي محاولة ضد حياة الرئيس برد الجميع. إلاّ أنَّ كايسي لم يبرد. وأمر جميع وكالات الاستخبارات بالإفادة عن أي همسة إليه شخصياً. ولكنَّ البيت الأبيض أصرَّ على عدم القيام بعمل مباشر.

في أواخر صيف ١٩٨١ تأكد كايسي أنَّ لوكالة المخابرات المركزية دوراً كبيراً في إفريقيا الوسطى، كانت لها المصادر والرجال الملائمون. ولم يكترث كايسي لأفكار رئيس فرقة مديرية العمليات في أميركا اللاتينية نستور سانشيز الذي كان محارباً قديماً منذ ٣٠ سنة والذي أمضى وقتاً طويلاً في المنطقة وكان صعباً جداً في العمليات الخفية.

تقاعد سانشيز في آب/أغسطس وساعده كايسي على أن يعيَّن كمعاونٍ لمساعد وزير الدفاع، ليساهم في الجانب العسكري لسياسة الولايات المتحدة في أميركا اللاتينية، وكان كايسي يفكر في استبداله.

كان رؤساء الفرق أسياداً وأيديهم طويلة، ويديرون العمليات اليومية للوكالة. يجب على السيد أي البارون الذي يُمنح ثقة القمة وتُطلق يده في العمل أن يحقق أهدافه.

عندما ذهب كايسي إلى باريس ليجتمع مع رؤساء المحطات في أوروبا الغربية منذ أشهر، لفت انتباهه رجل هو ديوان كلاريدج المعروف بديوي رئيس محطة الوكالة في روما، الذي رتب عشاء فخماً لكايسي في باريس وتنبه لجميع التفاصيل وحتى للصلصة الخاصة التي يحبها كايسي. كان لكلاريدج من العمر ٤٩ عاماً وله خبرة في آسيا وأوروبا فقط، إلاّ أنَّ كايسي عينه رئيس فرقة أميركا اللاتينية. وكان كلاريدج مزيجاً من الدم القديم والدم الجديد في الوكالة.

وسرعان ما كان لكلاريدج قناة اتّصال خاصة مع المدير دون المرور بشتان أو انمان. وكان كايسي جاهزاً لأي لقاء أو مكالمة وفي أي وقت، وإذا كان كايسي خارج لانغلي، يجيب عنه مركز العمليات ليلاً ونهاراً وسبعة أيام في الأسبوع، وكانت الرسائل تصل بانتظام ومن ضمنها رسائل كلاريدج وكان كايسي يصل إلى الخط بسرعة ويسأل: ماذا لديك؟

في ٦ تشرين الأول/أوكتوبر تلقى كايسي تقريراً فورياً يفيد بأنَّ النار أطلقت على الرئيس المصري أنور السادات بينما كان يشهد عرضاً عسكرياً بمناسبة ذكرى حرب تشرين الأول/أوكتوبر. ووردت تقارير من محطة الوكالة في القاهرة ولمدة ثلاث ساعات تؤيد

الإعلان الحكومي المصري الرسمي من أنَّ السادات لم يصب إصابة بالغة، ومع ذلك أفادت تقارير التلفزيون الأميركي بأنَّ الرئيس المصري قد مات.

وكانت المساعدة الأميركية للسادات من أجل بقائه في السلطة عملاً تاريخياً للإدارة ولوكالة المخابرات المركزية التي أمنت مساعدة في الأمن السري والاستخبارات.

ومنذ اتفاقات كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية عام ١٩٧٩ عزل السادات في الشرق الأوسط عن محيطه العربي ولم يعد معتبراً في بلاده. وكانت زوجته جيهان السادات ترتدي ثياباً غربية وتجند فكرة استقلال المرأة التي كانت محرمة عند العديد من الأصوليين المسلمين. زودت وكالة المخابرات المركزية السادات بمعلومات دائمة عن مدى تعرضه للخطر وعن القوى المعادية له.

ففي الشهر الفائت وفي إيجاز شخصي، تلقى السادات معلومات مفصلة حول تهديدات من ليبيا وإثيوبيا وسوريا وإيران.

بعد ثلاث ساعات من التقرير الأولي حول حادث إطلاق النار على الرئيس السادات أكدت محطة الوكالة في القاهرة أن السادات قد مات. لقد مات على الفور متأثراً بإصابته بطلقات عديدة.

شعر كايسي بالخجل والخزي بعدما أكد للرئيس ريغان الذي أمضى الصباح في المكتب البيضاوي أن تقارير التلفزيون كانت خاطئة. وقلق كايسي وانمان من احتمال أن تشتكي الحكومة المصرية أو تقدّم احتجاجاً لأن وكالة المخابرات المركزية دربت الحرس الشخصي للسادات وفشلت في تحذيرهم. ولم يحصل أي شيء ولم تُقَدَّم أية شكوى.

وتبيّن أن الفاعلين هم مجموعة أصولية محلية في حين كانت وكالة المخابرات المركزية تركز على اختراق الحكومة المصرية وتحذير السادات من التهديدات الخارجية ولكنها أهملت القوى الداخلية في مصر. وكان هذا مشابهاً للانهيار الذي حصل في إيران. وهنا جاء دور كايسي. كانت الوكالة بحاجة إلى مزيد من الأقنية المستقلة في مصر. لم تكن هناك أية حدود لجمع المعلومات وخصوصاً في الشرق الأوسط المتقلب وفي مصر. أراد المزيد من المصادر البشرية والألكترونية وعلى أعلى المستويات في حكومة مبارك الجديدة. وأعطى أوامره لوضع بعض الناس في الشوارع ليرى ما إذا كان أحد سيطلق النار على مبارك!

كان كايسي ضد الاجتماعات الموسعة في البيت الأبيض ولم يكن يتكلم فيها إلاّ قليلاً. وإذا تكلم فإنه لا يلفظ كلماته بوضوح، حتى إن أحد الحضور كان يحاول أن يترجم أو يفسّر كلامه إلى الرئيس ويقول: كما كان يقول المدير كايسي، أو كما قال بيل، وذلك لعدة مرات. ولاحظ كايسي أن جيمس باكر يتضايق من هذا.

كانت قناة اتصاله بالرئيس ريغان مفيدة. وعندما كان لديه شيء مهم كان يتصل بالمكتب البيضاوي. ذات جمعة حضر إليه أمير سعودي مهم وطلب منه أن يقابل الرئيس،

فاصطحبه لمقابلة الرئيس ريغان. وعندما عرف هيغ بذلك أبدى انزعاجه، ولكن كايسي كان يؤمن بأن بعض العلاقات الحساسة يجب أن تبقى بعيدة عن أنظار وزارة الخارجية حيث يمكن أن تتسرب ويحصل ما لا تحمد عقباه.

وكان لوكالة المخابرات المركزية علاقات خاصة في معظم أنحاء العالم العربي وأبرزها مع الحسن الثاني ملك المغرب. فبعد أن شق بعض الثوار المدعومين من ليبيا طريقهم إلى حامية مغربية في ١٣ تشرين الأول/أوكتوبر ١٩٨١ في الصحراء الإسبانية سابقاً، طلب الحسن الثاني المساعدة، وحمل كايسي طلبه مباشرة إلى الرئيس ريغان وقال نريد أن نساعده. وسرعان ما تشكل فريق من ٢٣ شخصاً من وزارة الدفاع ووزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية وأوفد إلى المغرب. ومرة ثانية تجاهل البيت الأبيض هيغ ووزارة الخارجية.

في غضون ذلك، كان غولدووتر لا يزال ينتظر خريف ١٩٨١ لينتهي من سبر أغوار قضايا كايسي المالية. وتم مراجعة حوالى ٣٨ ألف صفحة من المستندات ومقابلة حوالى ١١٠ أشخاص. وفشل كايسي في أن يعدد عشرة استثمارات تزيد قيمتها عن ٢٥٠ ألف دولار وديوناً شخصية وإلزامات بحوالى ٥٠٠ ألف دولار وأربع دعاوى مدنية إضافية كان متورطاً فيها، وأكثر من ٧٠ زبوناً قانونياً مثلهم في السنوات الخمس الماضية، ومن بينهم حكومتان أجنبيتان: كوريا وأندونيسيا.

تشاءم المستشار الجديد في لجنة الاستخبارات أيرڤين ناتان وهو موظف كبير سابق في وزارة العدل من أوضاع كايسي المالية، مع أنه لم يستطع الاطّلاع على المستندات، ولم يحصل على تقارير الضرائب الخاصة بكايسي، ولم يسمح له بمقابلته. وحرَّر تقريراً من تسعين صفحة يتضمن الأسئلة التي لم تتم الإجابة عنها. وكان كايسي قد لوَّث قدمه بالكلس الأبيض من جراء اللعب على مقربة من خط الجزاء طول حياته.

إختار غولدووتر أحد قدامى وكالة المخابرات المركزية وله من العمر ٣٨ عاماً عمل مدة عشرة سنوات في مديرية العمليات، روب سيمونز، ليكون المدير الجديد للجنة استخبارات مجلس الشيوخ. وكان سيمونز قد عمل في تايوان عميلاً لوكالة المخابرات المركزية من العام ١٩٧٥ حتى العام ١٩٧٨ وأشرف على العمليات التي منعت الحكومة التايوانية من الحصول على المواد اللازمة لصناعة الأسلحة النووية. ودبّر سرقة خطة الحكومة التايوانية لصناعة القنبلة النووية ومحاولتها شراء أجزاء حساسة من السلاح النووي. وأول مهمة للجنة مجلس الشيوخ كانت إنهاء التحقيقات المتعلقة بكايسي.

قال غولدووتر وهو يطلب التقرير النهائي: «لا أريد أكثر من صفحة واحدة».

توصل سيمونز إلى تقرير من خمس صفحات أكد حكم اللجنة السابق من أنه لم يعثر على مستندات أو أسباب يستنتج منها أن السيد كايسي هو غير ملائم ليكون مديراً للمخابرات المركزية. ذهب سيمونز إلى لانغلي في أواخر تشرين الثاني/نوڤمبر مصطحباً معه

نسخة عن التقرير. وفي مكتب كايسي في الطابق السابع الذي جهز بديكور وأثاث من النمط الفرنسي، شعر مدير لجنة مجلس الشيوخ بأنه ضابط صغير يسلم تأنيب القيادة إلى ضابط برتبة جنرال. ولكن سيمونز أوضح أن تقريره كان إنجازاً، ومن الأفضل أن تدفن المسألة وتنتهي مع أن هناك أناساً أرادوا تقريراً من ٨٠ إلى ١٠٠ صفحة.

إحتج كايسي وقال إنه نظيف.

قال سيمونز إن أي نزاع حول هذا الحل الوسط الذي يقدمه يمكن أن يؤدي إلى معركة طويلة مع اللجنة لأن هناك عدداً من الأعضاء لا يسرّهم إنهاؤها. وألمح سيمونز إلى أن المعركة يمكن أن تكون دموية وتؤدي إلى نزاع طويل وربما إلى رحيل مدير المخابرات المركزية.

قال كايسي: لن يستطيع أحد أن ينتزع مني وظيفتي، أنا أعمل لصالح الرئيس ريغان.

قال سيمونز: هذا الحل الوسط نهائي.

ـ «حسناً» قال كايسي «سأحاربه».

نُظّم التقرير في كانون الأول/ديسمبر عندما كانت الأخبار قديمة ولم تبدر أية سلبية من كايسي الذي قال لأصدقائه ولصوفيا: «جميع هذه الأمور التي تظهر في الصحافة ووسائل الإعلام تؤذي ليوم واحد فقط».

أدرك سيمونز أن كايسي لا ينوي الذهاب أبعد من ذلك.

ما انفكّ كايسي يطالب بوضع خطة شاملة للعمل في أميركا الوسطى ولكن لم يكن هناك إجماع داخل الإدارة. وكان الرئيس يطلب اتفاق مستشاريه الكبار وعندما لا يحصل ذلك لا يتخذ قرارات. أما هيغ فقد انتابته هواجس كوبا، وتخوف وينبرغر من شبح ڤيتنام والالتزامات الكبيرة، ولم يرغب بزج الأولاد الأميركيين في فخ حرب أدغال جديدة. أما باكر والآخرون في البيت الأبيض فعملوا لكي يحافظ ريغان على روزنامته المحلية. لم يكن هيغ متآلفاً مع نزعة ريغان الشعبية. كان أحياناً يتملق الرئيس وأحياناً أخرى يختال ويتغطرس ويقول إن سياسة ريغان الخارجية تتوقف على نوع التوجيهات التي يعطيها هو، أي هيغ!

كان كايسي هو المسؤول الوحيد في الإدارة الذي انسجم مع هيغ. وكان لهما فطور منتظم كل نهار ثلاثاء، مصحوبين غالباً بمساعديهما، وذلك بشكل متناوب مرة في وزارة الخارجية ومرة في وكالة المخابرات المركزية. إعتقد كايسي بأن هيغ تفهم السياسة الخارجية وكان متآلفاً مع العالم الخارجي وكانت وجهة نظره متصلبة مثله.

وإذ أراد كايسي أشياء ملموسة لتخليص السلفادور كان يتلاعب على رغبات هيغ، ووينبرغر وأركان البيت الأبيض. كانت الجهود للارتقاء بالديمقراطية في السلفادور ممتازة إلاّ أنها لم تكن كافية.

إتّفق هيغ واندرز على زيادة الأعمال الخفية وأن على الولايات المتحدة أن تشتري أي عملية يقوم بها الغير مثلما استغلت العملية الفرنسية في تشاد.

توجه كلاريدج إلى بوينس آيرس حيث كان لمحطة وكالة المخابرات المركزية علاقات وثيقة مع الجنرالات الذين حكموا البلاد. صعّدت المخابرات الأرجنتينية من عدائها للشيوعية ونفذت برنامجاً عقائدياً معادياً للماركسية. وكان الجنرالات قلقين من وضع المونتينيروس وهم الثوار المعادون للدكتاتورية والذين عملوا خارج نيكاراغوا. وكانت الأرجنتين تدعم المقاومة ضد الساندينيين، وتُدرِّب أكثر من ألف شخص في الهندوراس شمال الحدود مع نيكاراغوا. عرض كلاريدج هذا الوضع لأندرز ومجموعة «القلب»، والبديل الوحيد كان العمل من خلال تشيلي إلاّ أن الدكتاتورية هناك كانت أسوأ ومكشوفة أكثر.

سأل أندرز بتعجب: هل يقوم بذلك الإسرائيليون؟

أجاب كلاريدج: هذا غير عملي لأن الأرجنتينيين كانوا في المنطقة نفسها. ووضع أندرز الخطوط العامة لعمل خفي محتمل وقدّمه إلى هيغ.

قال هيغ هذا غير كاف وأراد تحديد مكان التعرض بالضبط. وأضاف: بما أن البيت الأبيض لن يوافق على ضربة مباشرة لكوبا فما رأيك بضربة على معسكر كوبي في أنغولا دون تحذير؟

لم يوافق أحد على اقتراح هيغ ولا حتى في وزارة الخارجية. وتخوف من أن تؤدي عملية نيكاراغوا إلى تحول خطير، وعندها إذا لم تتحرك الولايات المتحدة فسوف تخسر حتماً. وهذه العملية هي الوحيدة التي تلقى دعماً وتأييداً في البيت الأبيض ووزارة الدفاع وفي وكالة المخابرات المركزية.

يوم الإثنين في ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر الساعة الرابعة بعد الظهر جمع ريغان مجلس الأمن القومي في غرفة الاجتماعات الحكومية. قال أندرز الذي نال موافقة مجموعة «القلب» إنه يجب أن تتابع البرنامج السياسي للسلفادور نحو الديموقراطية. ويجب أن توضع المؤسسات الديموقراطية في العمل هناك وفي جميع أنحاء أميركا الوسطى. وهذه هي الطريقة الوحيدة لاكتساب الشرعية لهم ولنا.

يجب زيادة المعونات المالية والعسكرية حوالى ٣٠٠ مليون دولار للمنطقة وللبحر الكاريبي. وأضاف: يجب أن نجد طريقاً لإعادة المفاوضات مع نيكاراغوا، أو علينا أن نوجه قوانا نحو المصدر، كوبا، التي كانت صندوقاً فارغاً. يجب تحويل الصراع في نيكاراغوا نحو الأعمال الخفية. وأضاف أندرز: إن عملية دعم المقاومة لن تطيح بالحكومة الساندينية «إنها يمكن أن تربك الحكومة وتضيّعها».

كان هيغ هو الصوت المعارض الوحيد، وعبّر عن شكوك وليس عن معارضة تامة. ووافق الرئيس من حيث المبدأ. وعرض مجموعة واسعة من الأعمال والإجراءات، إلاّ أنه علق موافقته على خطة سرية لوكالة المخابرات المركزية لدعم الأرجنتين.

كان هيغ بصدد القيام بآخر محاولة دبلوماسية، وبعد ستة أيام، طار إلى المكسيك سرّاً

ليجتمع مع نائب الرئيس الكوبي كارلوس رافاييل رودريغز. ولم يسفر الاجتماع عن أية نتيجة، ولم يجد هيغ أساساً صالحاً للتفاهم مع الكوبيين.

يوم الثلاثاء في ١ كانون الأول/ديسمبر تناول هيغ وكايسي طعام الفطور المنتظم، وبعد الظهر التقيا مع ريغان لمدة ٤٠ دقيقة ضمن مجموعة تخطيط الأمن القومي في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض. وكانت هذه المجموعة هيئة عالية المستوى تعالج المسائل السياسية الخارجية. وكانت تضم الرئيس ونائب الرئيس وميز وباكر وديفر وهيغ ووينبرغر وكايسي، ويحضر أحياناً أحد المساعدين. وكان مستشار شؤون الأمن القومي ريتشارد آلن قد أخذ إجازة، وذلك بسبب التحقيقات التي أقرّ واعترف فيها بأنه قَبِل مبلغ ألف دولار من الصحافيين اليابانيين، واحتفظ بها في البيت الأبيض.

عرض كايسي الخطة الخفية. طلب مبلغ ١٩ مليون دولار ليساعد الأرجنتين على إنشاء قوة من خمسمائة عنصر كنواة للمقاومة ضد الساندينيين، على أن تعمل من مخيمات في الهندوراس. وقال إنه سيحتاج إلى مزيد من المال في المستقبل وإن قوة الخمسمائة رجل ستنمو وتكبر حتماً.

ووافقه على ذلك ثلاثي البيت الأبيض أمّا هيغ فاعتبر أن هذا هو نصف تدبير. وكان وينبرغر سعيداً لأن الخطة أبعدت أي دور لوزارة الدفاع. وكان بوش سعيداً أيضاً بإعادة إحياء الإمكانيات شبه العسكرية لوكالة المخابرات المركزية.

في ذلك اليوم وقّع ريغان مذكرة سرية جداً يسمح فيها بعمليات سياسية وشبه عسكرية لوقف دعم الساندينيين لسائر الحركات الثورية في أميركا الوسطى ومن ضمنها السلفادور.

الجنرال ديفيد جونز رئيس الأركان المشتركة وهو أعلى عسكري في البلاد، والوحيد الباقي من إدارة كارتر في مجلس الأمن القومي، نظر إلى الموافقة على عملية نيكاراغوا بشيء من التخوف. ومن خلال اطّلاعه على معلومات الاستخبارات لم يكن واضحاً ما إذا كانت جميع الاضطرابات في أميركا الوسطى بإيحاء من كوبا أو من الاتحاد السوفياتي. كان كايسي يراها في إطار الصراع بين الشرق والغرب، وكأن المشاكل تنتهي إذا انتهى الشيوعيون. وبالنسبة إلى جونز بدت المشاكل الاجتماعية والاقتصادية أكبر، وجعلت من بلدان أميركا الوسطى أرضاً خصبة للحركات الثورية الماركسية. ورأى أن كبار المسؤولين في إدارة ريغان ينتقون بعض المعلومات ويجمعونها ليثبتوا سير الأحداث. كان جونز يعرف الاستخبارات جيداً وأدرك أنه من السهل جمع المعلومات واستعمالها للتأكيد على الدور الشيوعي.

ولكن أسوأ تدبير كان اختيار الأرجنتين، وأدرك جونز أن الأرجنتينيين معادون للشيوعية، ولكنهم لا يفعلون الكثير. وكانت نيكاراغوا على بعد أكثر من ٢٥٠٠ ميل عن الأرجنتين. من العاصمة بوينس آيرس إلى العاصمة ماناغوا كانت المسافة ٣٧٠٧ أميال

جوّاً. ولماذا القلق من مجموعة ثوار المونتينيروس وافتراض أنها تهدد النظام الأرجنتيني من على بعد قارة؟ لا يوجد أي معنى لهذا. إلاّ أنه يمكن التأثير على الأرجنتينيين لكي يقوموا بأي عمل تطلبه منهم الولايات المتحدة.

في البيت الأبيض، كان التقييم أن الإدارة لا تستطيع الحصول على دعم الكونغرس أو على الدعم الشعبي إذا كان دور الولايات المتحدة علنياً. وانتاب شبح ڤيتنام كل من جلس إلى الطاولة في تلك الاجتماعات. أراد جونز وبعض المسؤولين أكثر من ٥٥ خبيراً في السلفادور وهو حد أقصى وضع في البيت الأبيض، ولكن جونز قلق من أن الإعلان عن زيادة عدد المستشارين يمكن أن يحرّك الخطابات: «هكذا دخلنا إلى ڤيتنام» و «لقد وضعنا قدمنا على الباب»، وهذا «هو الجزء الأول من التصعيد».

نظر اثمان بارتياب إلى الموافقة على العمل الخفي في نيكاراغوا. صحيح أن الدعم الخفي لعملية ارجنتينية شبه عسكرية كان الحل الوسط والأكثر اعتدالاً من بعض أفكار هيغ، ولكنه كان واضحاً أن الإدارة لا تريد أن تستهلك رصيدها السياسي في الكونغرس لتحظى بالموافقة على هذه السياسة. وسوف يثير الطلب العلني من الكونغرس للتمويل ضجة شعبية. وبالنسبة إلى اثمان فقد رأى أن الاهتمامات السياسية المحلية كانت توجه الأعمال الخفية ولكن كان لديه القليل ليفعله. وكان كايسي قد أوضح له أنه سيدير هذه العمليات بنفسه، وأن خط الصلاحيات ينطلق من كايسي إلى مدير العمليات، وفي هذه الحالة إلى رئيس فرقة اميركا اللاتينية ديوي كلاريدج.

تبين لاثمان أن هناك مشاكل أخر لهذه العملية. وكان من المقرر أن يبدأ العمل الخفي عندما تُحبط الجهود الدبلوماسية للبيت الأبيض ووزارة الخارجية. هذه هي المشكلة. الطريق الدبلوماسي لم يكن ناجحاً. كما أن العملية الدبلوماسية ـ خطوات المفاوضات والاجتماعات التي لا نهاية لها والاقتراحات والاقتراحات المعاكسة ـ كانت متعبة فعلاً. العمل الخفي يختصر الطريق، ويؤمن للإدارة الجديدة راحة في العمل وشعوراً بأن هناك طريقاً خفياً للقيام بأي عمل، وبأن هناك سياسة خفية خارجية تدفع بمصالح الولايات المتحدة إلى الأمام.

تعجب اثمان حول هؤلاء غير الأميركيين الذين نريد أن ندعمهم بملايين الدولارات. من هم هؤلاء؟ وما كانت اهدافهم؟ هل هي نفس أهداف ومبادىء الأمم المتحدة؟ هل يمكن السيطرة عليهم؟.

إذا كان الهدف الحقيقي وقف تدفق السلاح من نيكاراغوا إلى السلفادور، فقد توقف ذلك فعلاً. هناك خطأ ما. ليس من الضروري أن يكون منع السلاح عملاً خفياً. لم تكن هناك حدود مشتركة بين البلدين والطريق البرية الوحيدة كانت عبر الهندوراس. ومن حق الولايات المتحدة أن تدعم وبشكل علني الهندوراس والسلفادور لمنع تدفق الأسلحة من

نيكاراغوا. وهذا يصبح أكثر فعالية عندما ينفذ علناً. ولكن لا يريد أحد أن يبذل أي جهد لبيع ذلك للكونغرس.

كانت أسهل طريق بحرية لنقل السلاح من نيكاراغوا إلى السلفادور عبر خليج فونسكا وهو على بعد ٢٠ ميلاً. وكان الملحق البحري الأميركي في السلفادور والآخرون يراقبون الخليج كالصقور. ولم يسجلوا أي عبور لهذا الخليج.

حاول انمان أن يجد طريقاً ليعالج شكوكه حول الوكالة برفق. سأل كايسي ما إذا كان مدير العمليات جون شتان يؤيده في هذه العملية، وذلك ليتأكد مما إذا كان أحد المحترفين، والذي يعلم بكل خطوة، قد وافق، أو طرح أسئلة، ولكن كايسي كان نافد الصبر وتمتم قائلاً: ياه، ياه وهو بذلك يعطي الانطباع بأنه ليس بحاجة إلى وجهات نظر انمان.

وكما هو معروف يجب إبلاغ لجنتي الاستخبارات في مجلس النواب ومجلس الشيوخ بمضمون مذكرة الأعمال الخفية. وكان غولدووتر رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ في طور الإبلال من عملية جراحية في وركه ولذلك ترأس مونيهان اجتماع اللجنة. وعندما تُليت المذكرة والملاحظات، لم يصدق مونيهان. قال: إذا أرادوا أن يضغطوا على الساندينيين فإن ذلك يمكن تفهمه، ولكن لا تستخدموا جنرالات الأرجنتين. كان الأرجنتينيون رمزاً للدكتاتورية اليمينية، وكان الارتباط بهم يعني أن الولايات المتحدة تبارك قوى الثورة المضادة. ولقد كان سوموزا أكثر بقليل من جنرال أرجنتيني. إنها حماقة تظهر عدم رشاقة سياسية، ولم يستطع مونيهان أن يسأل ويقول أكثر من ذلك.

جاء في القوانين النافذة أنه يجب اعلام اللجنة بالنشاطات الاستخبارية الكبرى قبل المباشرة بتنفيذها. إن إدارة السياسة الخارجية والسياسة الدفاعية وسياسة الاستخبارات كانت بحكم الدستور بيد الرئيس. يجب أن يتنبه الرئيس، أي رئيس، وخصوصاً ريغان لهذه القوى ويحذر منها. لم يعترض مونيهان، ويمكن للجنة أن تفعل القليل إلا في حال قررت عدم منح المال اللازم لتنفيذ العملية. ولكن الرئيس لديه احتياطي يبلغ ٥٠ مليون دولار للطوارىء، ومن الصعب الإمساك بهذا الاحتياطي.

وهناك مشكلة أخرى، لقد أقسم أعضاء اللجنة اليمين للمحافظة على سرية المواضيع، ولا يجوز الحنث في اليمين. إن صمت أعضاء اللجنة خارج القاعة تحول إلى إذعان مفروض. يمكن لعضو منفرد أن يأخذ على عاتقه النفخ في الصفارة عالياً، أو أن يسرّب بطريقته الخاصة، ولكن يجب أن يتأكد هذا العضو من أن ما يقوم به هو صحيح من الناحية الأخلاقية. وشعر مونيهان بأن اللجنة قد حشرت، لكن ذلك لم يكن بالغ الصعوبة. من الأفضل له أن يعرف، ويمكن أن يطرح أسئلة بينما تكون العملية في مجرى تنفيذها.

على صعيد لجنة مجلس النواب تقدم كايسي شخصياً من اللجنة، وقال إن العملية بدأت فعلاً. وبدأ بها الأرجنتينيون واشتراها الأميركيون، وأعدت المخيمات في الهندوراس

وسمح الهندوراسيون للأرجنتينيين باستعمال أراضيهم كقاعدة انطلاق.

للقيام بماذا؟

لضرب أهداف داخل «نيكاواوا» قال كايسي ذلك وهو لم يستطع أن يلفظ نيكاراغوا بشكل صحيح. وعندما كان يصل إليها كل مرة كان يتوقف ويحاول أن يلفظها جيداً إلا أنها كانت تصدر منه «نيكاواوا». وعلى أي حال، قال كايسي إن مجموعات المقاومة من الكونترا كانت تريد ضرب أهداف محددة، وهي منشآت كوبية لدعم الثورات.

كيف؟ ومتى ؟

عمليات كوماندو تتجلى في عبور الحدود وضرب الأهداف في منتصف الليل ثم الانسحاب إلى الهندوراس.

بدا عدد كبير من أعضاء لجنة استخبارات مجلس النواب وكأنهم يقفزون من تعجبهم! لم يتوقعوا عملية شبه عسكرية بهذه الدرجة. وطرحت أسئلة عديدة. ماذا يحدث إذا تبين أنكم تدربون في الهندوراس؟ ماذا يحدث لو توجه الساندينيون نحو الهندوراس كرد فعل؟ وهل هذا يثير العداوة بين البلدين؟ ماذا يحصل إذا كان رد فعل الساندينيين طلب المزيد من المساعدات من كوبا؟

قال كايسي إنه لا يمكنه الإجابة عن هذه الأسئلة بدقة.

تعجب النائب لي هاملتون الديموقراطي، من ولاية انديانا، وتساءل هل هذه العمليات مشروعة في القانون الدولي وفي مضمون سائر المعاهدات الإقليمية؟ إن الولايات المتحدة تضع نفسها في وضع عدواني ضد بلد تربطها به علاقات دبلوماسية، كيف يمكن أن يحصل ذلك؟ أجاب كايسي أن الكوبيين والنيكاراغويين هم عدوانيون، ويدعمون الثورات، ولكنه لم يوضح ولم يفصل في ذلك.

كانت طريقته تتمثل في أن لا ينحني لأحد وحتى للأعضاء الجمهوريين في اللجنة. النائب كينيث روبنسون وهو محافظ من فرجينيا وصديق الإدارة ألقى نظرة سريعة على كايسي وقال بحدة: «لِمَ تفكر من خلال ردة الفعل؟»

راقب كايسي تدفق المعلومات من الكولونيل البولوني والدسلو كوكلنسكي وهو مصدر لوكالة المخابرات المركزية في الأركان العامة البولونية. وكانت معلوماته صحيحة ودقيقة، وقد أعد نظاماً خاصاً في الاتصالات لتأمين وصولها بشكلٍ منتظم. أفاد الكولونيل عن خطة لفرض الحكم العرفي على نقابات التضامن المستقلة من قبل السلطات البولونية. تأكد كايسي من وصول هذه المعلومات مباشرة إلى الرئيس. وكان هذا إنجازاً كبيراً لوكالة المخابرات المركزية، وما نقص من الخطة كان تاريخ التنفيذ.

في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر تلقت لانغلي طلباً عاجلاً من محطتها في وارسو. أعطى الكولونيل كوكلنسكي إشارة عاجلة تعني أنه على وشك أن ينكشف وأكد السوفيات في

اجتماع في ذلك النهار أن الخطط السرية كانت تتسرب إلى الولايات المتحدة، وساهم كوكلنسكي في التعبير عن اسْتنكاره وذلك ليغطي نفسه. وأبدى رغبة في الرحيل. ووصلت هذه العبارات: «وعدته وكالة المخابرات المركزية باللجوء السياسي عندما يرى ذلك ضرورياً» وصدّق كايسي على أمر تسلل خارجي يسمح لمحطة وارسو بأن تسْحب الكولونيل وزوجته وأحد أبنائه بسرية وسرعة. وكانت عملية متقنة ومكلفة وخطرة، وذلك بانشاء طريق تحت الأرض لثلاثة أشخاص. وفي ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر كان الثلاثة خارج بولونيا في طريقهم إلى حياتهم الجديدة في الولايات المتحدة.

إن خسارة معلومات الكولونيل البولوني فادحة. عندما بدأ البوليس الخاص حملة اعتقال لخمسة آلاف من البارزين في نقابات التضامن في ساعات الصباح الأولى من يوم ١٣ كانون الأول/ ديسمبر، أصيبت وكالة المخابرات المركزية بمفاجأة. لقد انتهت أول نقابة مستقلة في دولة شيوعية.

كان اثمان يزداد تذمراً. كانت الأعمال الخفية برأيه تبعد عن المهام الحقيقية لوكالات الاستخبارات. الاستخبارات هي جمع معلومات أو ما كان يسميه اثمان الاستخبارات الإيجابية أي المعلومات عن البلدان الأجنبية وتقديمها لصانعي السياسة.

ركز اثمان على «الاثباتات والتحذيرات» في نشاط الحكومات. وهذا يعني دعم الاستخبارات البشرية واستثمار الأقمار الاصطناعية لتأمين ثنائية المصدر واستمرار تدفق المعلومات ودعا إلى خطة طويلة الأمد، تنظر نحو المستقبل بمقدار خمس سنوات أو سبع، ولكنه كان يعرف أن الإدارة لا تهتم بالمستقبل البعيد، وأن المشاكل الآنية استهلكت ٩٩٪ من مجهود الإدارة. شن اثمان حملة على غط حملات كايسي نحو المستقبل، وأمر بإجراء الدراسات وعقد الاجتماعات. في ٥ آذار/ مارس أقنع مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي ريتشارد آلن أن يطلب من كل وزارة ووكالة أن تدرس وتعدد مشاكل العالم التي تتوقع أن تتعامل معها في الفترة ما بين ١٩٨٥ ـ ١٩٩٠، بما في ذلك جميع النشاطات السوفياتية والانتفاضات السياسية، والوضع الاقتصادي العالمي، والارهاب، وزيادة الأسلحة النووية.

ساعد اثمان باتصالاته البحرية على توجيه طلب دراسة إلى رئاسة الأركان المشتركة.

طلب البيت الأبيض من كايسي أن ينسق الجهود ولكنه، كما توقع اثمان، حوَّل العمل إلى نفسه بسرعة. طلب اثمان من كل وزارة أن تفيد عن حاجتها من الاستخبارات، ولم يعارض ذلك أحد لأنه كان غير مؤثر من الناحية البيروقراطية. في غضون بضعة أشهر حصل اثمان على لائحة رغبات يحتمل أن يوافق عليها الجميع لأنها لم تُعْطِ أفضلية لأي موضوع. وسأل كل وزارة أو وكالة أن تفيد بما تفكر أن تفعله في كل منطقة. وسأل الجميع ماذا يتوقعون أن تفعل بقية الوزارات والوكالات.

وعندما انتهى اثمان من ذلك، كانت الهوة واضحة. فقد ظهرت الحاجة إلى تطوير

الاتصالات بين العملاء السرِّيين. واستقدمت الوكالة للعمل ما يسمى «جهاز الإرسال المتفجر» وهو يرسل رسالة طويلة بسرعة كبيرة في ثوانٍ معدودة، ويقلل من احتمال التعرض والانكشاف. كان التطور التكنولوجي مذهلاً ومكلفاً. أما الكتابة بأحرف صغيرة جداً فقد كانت مشكلة تطلبت أن تكون المعدات الالكترونية ومن ضمنها أدوات الأقمار الاصطناعية صغيرة جداً لتلائم المسطحات الفراغية، أو لكي تخبأ في بلدان الستائر الحديدية (البلدان الشيوعية). وكان عليها أن تحمل لسنوات دون صيانة.

تأكد اتمان من أنَّ جمع المعلومات أُعِدَّ للحالات الصعبة أي للأزمات أو للحروب. وهذا يتطلب إمكانية الاتّصال ونقل كمية كبيرة من المعلومات بأمان، من وإلى الأماكن التي ليست بالضرورة أماكن ساخنة.

كانت الاستخبارات الأميركية بحاجة أيضاً إلى أجهزة دعم ومصادر بديلة، وإلى تغطيةٍ أكبر لترددات صور الأقمار الاصطناعية، وإلى جدول زمني لتطوير المعلومات. وبحلول خريف ١٩٨١ انتهى اتمان من إعداد أول مسودة للخطة وعنوانها: «إمكانيات الاستخبارات من العام ١٩٨٥ إلى العام ١٩٩٠». تفحصها كايسي وطرح أسئلة كثيرة، وطلب إجراء بعض التعديلات، ولكنه بشكل عام أحبَّ هذا المشروع. حققت إجماعاً فيما يتعلق بالاحتياجات، وحددت كيفية إمكان توفيرها.

وكان السؤال الأساسي: هل هذه الزيادة بمليارات الدولارات في الموازنة، تلحظ كجزءٍ من خطة ريغان للبناء الدفاعي أو بشكل منفصل؟ وتأكد اتمان أنَّه لن يستطيع أن يبيع البرنامج لوزارة الدفاع. أما مساعد وزير الدفاع فرانك كارلوتشي فشعر بأنَّ جمع المعلومات كان خط الدفاع الأول وأنَّ التحسينات المطلوبة مكلفة وبحاجة إلى مليارات الدولارات في ميزانية الدفاع وعلى المدى الطويل.

حصل كايسي على موافقة جميع الوزارات والوكالات، ثمّ قدم الخطة للرئيس تحت طابع سري جدّاً. وكان هناك عدد قليل من الوثائق الأكثر حساسية في الحكومة الأميركية. إنَّها كانت خريطةً لمستقبل الاستخبارات.

اجتمع الرئيس ريغان بمجموعة تخطيط الأمن القومي لمناقشة خطة الاستخبارات للسنوات الخمس القادمة.

كانت هذه المجموعة منبراً للسياسة الخارجية، وكانت تراجع جميع القضايا. وأظهرت خطة اتمان أنَّ ميزانية المخابرات التي كانت ٦ مليارات دولار عام ١٩٨٠ سوف تصل إلى حوالى ٢٠ مليون دولار في عام ١٩٨٥. وفي سيكولوجية السلم، كان جمع المعلومات هو الدعامة الأساسية، وبناء لطلب من الرئيس ريغان استغل الجانب الأميركي التكنولوجيا والفضاء والالكترونيات.

بعد الاجتماع والمناقشة قال الرئيس: «لا أرى كيف نتحمل ألا نقوم بهذا».

- ٩ -

زاد قلق البيت الأبيض لأنَّ تقارير الاستخبارات اعتبرت أنَّ تهديدات القذافي بقتل ريغان أو بشن هجوم إرهابي ضد الولايات المتحدة كانت جدية. واعتبر كايسي ذلك أنه الموزاييك الكلاسيكي أي القطع الصغيرة التي تشكل الصورة الكبيرة الواضحة.

بدأ الملف يكتمل. في أواخر آب/أغسطس أفاد أحد مصادر وكالة المخابرات المركزية وهو أوروبي بأنَّ مسؤولاً فلسطينياً رفيع المستوى اجتمع مع أحد الأركان الليبيين واتفق معه على عمل مشترك ضد ريغان. وجاء في تقرير على لسان مسؤول فلسطيني آخر أنَّه أعيد نشاط المجموعة التي تعمل في الظل والمعروفة بأيلول الأسود لتعمل ضد أهداف أميركية وإسرائيلية. يضاف إلى ذلك المصدر الإثيوبي الذي أفاد عن تهديدات القذافي في أديس أبابا.

في أوائل أيلول كتب أحد أقارب دبلوماسي ليبي في نيودلهي رسالة دون توقيع إلى السفارة الأميركية في نيودلهي يقول فيها أنَّ ليبيا تخطط لاغتيال ريغان. هل هذه صرخة ضمير ويجب حملها على محمل الجد؟ برأي كايسي يجب الانتباه إلى معلومات المصادر غير الموثوق بها، والتحقق من أنَّها خاطئة أو صحيحة.

بعد ذلك قدم أحد المخبرين وهو على علاقة مع أحد الضباط الليبيين تقريرين: الأول أنَّ ليبيا كانت تحضر لضرب المصالح الأميركية في منطقة البحر المتوسط والآخر أنَّ الليبيين في روما، يخططون لخطف أو اغتيال السفير الأميركي في إيطاليا مكسويل راب.

في ٩ أيلول/سبتمبر أفادت إحدى وكالات الاستخبارات الأوروبية أنَّ السلطات الإيطالية أوقفت وأبعدت عدداً من الليبيين المشتبه بأنَّهم متورطون في خطة ضد السفير راب. وبعد أسبوع أكدت الوكالة نفسها أنَّ مجموعة فلسطينية وافقت على مساعدة ليبيا لمهاجمة ريغان وأهداف أميركية أخرى.

في ١٩ أيلول/سبتمبر أفاد تقرير بأنَّه يحتمل أن تشن ليبيا هجوماً على حاملة الطائرات الأميركية نيميتز التي كانت على مقربة من الساحل الليبي في البحر المتوسط.

في ٩ تشرين الأول/أوكتوبر أفاد تقرير آخر من وكالة استخبارات أوروبية بأنَّ القذافي خلال رحلة إلى سوريا منذ شهرين، اجتمع مع زعماء أربع مجموعات إرهابية، عرضوا تعاونهم من أجل مهاجمة أهداف أميركية في أوروبا.

في ١٧ تشرين الأول/أوكتوبر أفاد أحد المصادر الذي كان على علاقة مع مسؤول كبير

في المخابرات الليبية بأنَّ عدداً من الليبيين غادر إلى أوروبا للاشتراك في هجمات ضد السفارتين الأميركيتين في روما وفي باريس. وبعد ستة أيام أضاف نفس المصدر على اللائحة السفارات الأميركية في أثينا وبيروت وتونس ولندن ومدريد كأهداف محتملة. وفي غضون أسبوع ورد تقرير من أحد مصادر وكالة المخابرات المركزية وهو أيضاً على علاقة ببعض المسؤولين في المخابرات الليبية يفيد بأنَّ خمسة ليبيين يحتمل أن يكونوا أعضاء في فريق الهجمات وصلوا إلى روما. وعلى الفور استُدعي السفير راب إلى الولايات المتحدة بينما كان في رحلة إلى ميلانو في ٢١ تشرين الأول/أوكتوبر وذلك للحفاظ على حياته، فغادر إيطاليا دون أن يبدّل ثيابه.

في ٣٠ تشرين الأول/أوكتوبر أفادت الاستخبارات الإيطالية ووكالة المخابرات المركزية بأنَّ فريق الهجمات غادر روما إلى بلد غير معروف.

في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر أطلق مسلح النار في باريس على القائم بالأعمال الأميركي كريستيان شابمان ثمّ توارى عن الأنظار وساد الاعتقاد بأنَّ ليبيا كانت وراء هذا الهجوم.

في ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر وصل أحد المخبرين إلى محطة وكالة المخابرات المركزية في إحدى السفارات الأميركية في الخارج وادعى أنَّه ترك أحد مخيمات التدريب العائدة للقذافي. وعرض وصفاً مفصلاً لتدريباتهم مثل كيفية إطلاق النار على سيارة أميركية فخمة. واجتاز المخبر اختبار كشف الكذب على آلة البوليغراف بنجاح. وأضاف أنَّه إذا كان الرئيس ريغان هدفاً صعباً، فسيعمد الليبيون إلى مطاردة نائب الرئيس جورج بوش، أو وزير الخارجية هيغ، أو وزير الدفاع وينبرغر، كأهدافٍ بديلة.

كان كايسي يجمع معلومات سرية تثبت أنَّ القذافي كان في بداية تحركه. وبالعودة إلى ١٩ آب/أغسطس يوم حادثة خليج سرت عندما فقد القذافي طائرتين، كانت ليبيا قد وقعت معاهدة تعاون مع إثيوبيا واليمن الجنوبية. وكان هذا تحالفاً لثلاثٍ من أكثر الدول راديكالية في إفريقيا، ووضع حليفتي الولايات المتحدة مصر والسودان بين ليبيا في الغرب وإثيوبيا في الشرق. أما اليمن الجنوبي وهو على طرف شبه الجزيرة العربية فكان خصماً شديداً للسعودية. وتابعت وكالة المخابرات المركزية في عهد كايسي تنفيذ الأعمال الخفية والدعم شبه العسكري للمعارضة، والذي بدأ في عهد كارتر. ووعد القذافي حلفاءه بحوالي ٨٥٥ مليون دولار وقدم دفعة أولى قيمتها ١٥٠ مليون دولار كبادرةٍ لإظهار جدّيته، مما أثار قلق كايسي ومحلليه.

استحصلت وكالة المخابرات المركزية على بضعة ملحقات عسكرية سرية لمعاهدة التعاون بين ليبيا وإثيوبيا واليمن الجنوبية. وافقت الدول الثلاث على إنشاء قوة من خمسة آلاف ليبي وخمسة آلاف يمني جنوبي وخمسين ألفاً من الاحتياطيين الإثيوبيين على نفقة ليبيا. وعلى أن يذهب إلى ليبيا ٢٠ ألف جندي إثيوبي. وأفادت تقارير الوكالة أيضاً أنَّ الدول

الثلاث اتفقت على تنسيق عمل الثورة في الصومال، إلى الجنوب الشرقي من إثيوبيا. وأظهرت الاستخبارات أنَّ كوبا لديها ما بين ١١ و١٣ ألف شخص في إثيوبيا. وكان هناك حوالى ٥٠٠ مستشار ليبي في جنوب اليمن.

وعد القذافي بتقديم مساعدات عسكرية واقتصادية في سائر أنحاء العالم بقيمة ٣،٣ مليار دولار من العام ١٩٧٥ إلى العام ١٩٨٠.

أخيراً صدر أمر بتنظيم تقدير استخباري قومي خاص حول المعاهدة، وأكمل في ٤ تشرين الثاني/نوفمبر وجاء فيه أنَّ هدف الدول الثلاث هو هزيمة سياسة الولايات المتحدة في تلك المنطقة. شعر كايسي بأنَّه يجب مواجهة مشاريع القذافي وإحباط أي مغامرة داخل الولايات المتحدة بأي ثمن وفوراً. والأفضلية الأولى كانت حماية الرئيس ريغان. وانهمرت المعلومات على البيت الأبيض حول هذا الموضوع في «يومية الاستخبارات القومية»، و«إيجاز الرئيس اليومي»، وفي بعض الأوراق الخاصة. ولم يرض كايسي بأن يؤخذ وهو نائم، ومن الأفضل أن يفعل الكثير لتفادي أي هجمة.

اتخذ مساعدو البيت الأبيض تدابير أمنية من ضمنها تسيير سيارات فخمة خادعة حول واشنطن بينما كان الرئيس ينتقل بسيارات عادية. وأدت هذه التهديدات وتدابير الحيطة إلى بلبلة في الأوساط الحكومية. وذكَّر كايسي زملاءه في الإدارة بمحاولة اغتيال ريغان شبه الناجحة، وإطلاق النار على البابا، واغتيال السادات.

في ٤ كانون الأول/ديسمبر ورد في صحيفة نيويورك تايمز أنَّ فريقاً ليبياً من خمسة عناصر دخل إلى الولايات المتحدة. وبعد ثلاثة أيام أفادت التقارير أنهم عشرة أشخاص. أرسلت دائرة الهجرة مذكرة من سبع صفحات تحت طابع «حساس جداً» إلى نقاط العبور الرئيسية وإلى المطارات. وعرضت صور تقريبية لخمسة من عناصر الفريق المزعوم على شاشة التلفزيون.

في هذا الجو المضطرب اعتقد مساعدو ريغان ميز وباكر وديفر بأنَّه يمكن أن يكونوا هم أيضاً أهدافاً للإرهاب فعيّنوا حرساً لهم، وكلفت سيارة حراسة سرية بمواكبة الأوتوبيس الذي ينقل ابنة ديفر كل يوم من وإلى مدرستها الخاصة هولتون أرمز.

كلف هيغ روبرت مكفرلين وهو كولونيل سابق في مشاة البحرية، والذي كان مستشاراً في وزارة الخارجية، بمهمة تنسيق السياسة نحو ليبيا. أعد مكفرلين مذكرة عمل سرية وحساسة من عشر صفحات وقدّمها لهيغ. في الصفحة التاسعة رأى هيغ النقاط الرئيسية لخياره: العمل مع وزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية لتنظيم ردود الفعل على التحرش الليبي، وذلك بتنفيذ عمليات جوية تكتيكية وعمليات كوماندو، وهذا ما يورط الولايات المتحدة ويورط أيضاً القوات المسلحة المصرية سراً. ولم يجنّد تنفيذ عملية برية واسعة. الولايات المتحدة لا تريد غزو ليبيا ولكنَّ هيغ أراد أن يستكشف جميع الخيارات.

اتخذت توصية بإعداد مجموعة من طائرات س ر ٧١ و يو ٢ للمراقبة الجوية، التي تكلف ٢٠٠ ألف دولار لكل مهمة تستغرق خمس ساعات. وفي اجتماع سري لمجموعة الأمن القومي طلب الرئيس ريغان وضع خطط «لرد فعل عسكري ضد ليبيا إذا حاولت اغتيال مسؤولين أميركيين أو هاجمت منشآت أميركية». في ٥ كانون الأول/ديسمبر تسلم الرئيس مذكرة طويلة سرية جداً حول: «التخطيط ضد الإرهاب الليبي» من هيغ وكارلوتشي (نائب وينبرغر) وكايسي، وتضمنت كلَّ شيء ابتداء من التعامل مع الكونغرس والأوساط الإعلامية إلى فرض عقوبات اقتصادية على ليبيا. والمهم كان العمل العسكري في حالة الطوارئ. واتفقت وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية على توصية إلى الرئيس تقول إنَّه «يجب الإيعاز إلى رئيس الأركان المشتركة بالاستعداد لتنفيذ عمل عسكري ضد ليبيا في حالة الدفاع عن النفس وبعد أي تحرش ليبي».

حددت وثيقة سرية خمسة ردود فعل بالتدريج: الأول هجوم مباشر على مواقع تدريب الإرهابيين في ليبيا، وحددت الأقمار الاصطناعية ووكالات الاستخبارات ١٦ هدفاً محتملاً منها ثلاثة عشر على الساحل. ويمكن تنفيذ ذلك بواسطة البحرية (قاذفات حاملات الطائرات التي لها حظ كبير في النجاح). ويبدأ رد الفعل بعد صدور أمر الرئيس بـ٤ إلى ٤٨ ساعة. وكانت قاذفات ب ٥٢ بديلاً ثانياً، لكنها ذات حظ أقل من النجاح لأنَّها تظهر بشكل واضح على شاشة الرادار ويبدأ رد فعل هذه القاذفات بعد ٢٨ إلى ٤٠ ساعة من صدور أمر الرئيس. وهناك بديل ثالث هو طائرات س ١٣٠ ولها حظ معتدل من النجاح. لم تشجع وزارة الدفاع هذه العمليات ولم تتفاءل بنجاحها.

رد الفعل الثاني كان ضربة للمطارات الليبية، والثالث ضربة للمنشآت البحرية، والرابع ضربة لمستودعات الأسلحة، والخامس هجوم على المراكب البحرية في الموانئ بواسطة فرق بحرية خاصة. وهذا الأخير كان له فرصة للنجاح من معتدلة إلى عالية. ولكنَّ رد الفعل لحضيرة البحرية الخاصة يبدأ بعد ٤٨ إلى ٧٢ ساعة من صدور أمر الرئيس وبعد تحضير يستغرق من أسبوع إلى أسبوعين. هذا الهجوم ينفذ بطريقة سرية وهو الوحيد الذي له حظ من النجاح يتجاوز الـ٥٠٪.

يوم الأحد في ٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨١ ظهر القذافي في مقابلة حية على شبكة التلفزيون أي بي سي ABC في برنامج هذا الأسبوع مع ديفيد برنكلي. وكان يتكلم من مكتبه الخاص في طرابلس. نفى القذافي بشدة أن يكون قد أرسل أي فريق للضرب أو للاغتيال.

«نحن نرفض اغتيال أي شخص»، قال الزعيم الليبي ووضع يديه تحت ذقنه ونظر عالياً. «إن ذلك سلوك أميركا التي تحضر لاغتيالي ولتسميم طعامي، لقد حاولوا الكثير». وتحدى الإدارة أن تظهر أي دليل. قال القذافي: «كم أنتم شعب سخيف أيها

الأميركيون. . . إدارة سخيفة ورئيس سخيف يجب على أميركا أن تتخلص من هذه الإدارة وتسقطها كما فعلت مع نيكسون». وتحت تأثير الأسئلة قال القذافي الذي كان يتكلم عبر مترجم: «سيتبيّن لكم أن ريغان كذاب وأن إدارته تمارس الإرهاب ضد ليبيا عسكرياً واقتصادياً وسيكولوجياً. نحن جاهزون للتحقيق. ولنرى الدليل. إننا متأكدون أننا لم نرسل أي فريق لقتل ريغان أو أي شخص آخر في العالم ونريد أن نكشف هذه الأكاذيب».

تعليقاً على ذلك قال نائب رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ موينهان إن القذافي هو الكذاب وهو دكتاتور مجنون «لدينا دليل قوي على أن هناك مسؤولين أميركيين كانوا أهدافاً للإرهاب» وقال إن هذا الدليل صحيح بنسبة ٨٠٪.

في اليوم التالي صرح ريغان: «لن أصدق أي كلمة يقولها، لدينا الدليل وهو يعرف ذلك».

ولكن مبدأ العين بالعين لم يكن كافياً بالنسبة إلى الإدارة. وأرسل الرئيس ريغان رسالة إلى القذافي بواسطة البلجيكيين لعدم وجود علاقات دبلوماسية بين البلدين. وجاء في الرسالة: «إطّلعت على التفاصيل وتحققت من المعلومات حول خطط أعدّت بإشراف ليبي لاغتيال مسؤولين في الحكومة الأميركية ومهاجمة منشآت أميركية داخل الولايات المتحدة وخارجها. أي عمل عنف يوجه من ليبيا أو عملائها ضد مسؤولين أميركيين في داخل الولايات المتحدة أو خارجها سوف ينظر إليه من قِبَل الحكومة الأميركية على أنه هجوم مسلح على الولايات المتحدة وسوف يواجه بجميع الوسائل الضرورية للدفاع عن هذه الأمة استناداً إلى المادة ٥١ من شرعة الأمم المتحدة».

والمادة ٥١ سمحت للدول الأعضاء في الأمم المتحدة باتخاذ الإجراءات اللازمة للدفاع عن نفسها. وأعطيت الصحافة الأميركية بعض المعلومات حول الإنذار. وبالإضافة إلى ذلك أخبر المسؤولون الأميركيون الصحافيين «النتائج الأكثر جدية».

في ١٠ كانون الأول/ديسمبر طلب الرئيس ريغان من ١٥٠٠ مواطن أميركي يعيشون في ليبيا أن يغادروها، وأوقف منح جوازات السفر إلى ليبيا في المستقبل. ولكن لم يتخذ أي إجراء لوقف دفع مبلغ ١٠ مليارات دولار ثمن النفط الذي باعته ليبيا للولايات المتحدة.

أعطى الإنذار نتيجته، ففي الأسبوع التالي وصل إلى الولايات المتحدة مبعوث ليبي هو أحد كبار المسؤولين في المخابرات الليبية، وقال إن القذافي يرغب بفتح قناة اتصال مع الولايات المتحدة، وتعهد بأن لا تحصل أية عملية إرهابية أو عملية اغتيال.

في ١٨ كانون الأول/ديسمبر أصدرت وكالة المخابرات المركزية تقريراً سرياً حول الخطط المزعومة لاغتيال كبار القادة الأميركيين. وذكرت أن التهديد الأول كان لريغان. وصدر هذا التهديد أثناء اجتماع القذافي مع الرئيس الأثيوبي في ثالث أسبوع من شهر آب/أغسطس وورد هذا الخبر من مصدر ممتاز. وتتابعت التقارير حول خطط حقيقية لتنفيذ

هجمات ضد كبار المسؤولين الأميركيين وردت من مصادر لها علاقات غير مباشرة وغير موثوق بها. ومن المحتمل أن بعض التقارير وردت لأن المخبرين أدركوا أننا نسعى وراء هذه المعلومات.

جاء في تحليل سري لوزارة الخارجية أجرته دائرة الاستخبارات فيها ما يلي: «أظهرت سجلات وكالة المخابرات المركزية أن مصدر أحد التقارير التي تفيد بأن ليبيا تنوي مهاجمة الأسطول السادس كان له في السابق اتصالات وثيقة مع دبلوماسي سوفياتي». أمّا التقارير الأخرى حول خطط لمهاجمة الولايات المتحدة فإنها أهملت في ما بعد. وجاء في التحليل أيضاً أنه «من المحتمل أنّ التقارير تولد التقارير حيث يعتقد بأن هناك مصالح للولايات المتحدة»، وبالإجمال أورد التحليل احتمالاً بأن تكون جميع التقارير المتعلقة بفرق الهجمات خاطئة.

تمت ملاحقة كثير من هذه المعلومات، ومحاولة معرفة مصدرها، وتمّ التوصل إلى شكل غامض مع ارتباطات بأجهزة الاستخبارات الإيرانية والإسرائيلية. رأى مونتور غور بانيغار وهو تاجر سلاح ثري إيراني، وكان مصدراً سرياً للمخابرات المركزية، أن تقارير فرق الهجمات أتاحت فرصة لإثارة المتاعب لليبيين. وبقيت القضية حيّة لعدة أشهر. وسرعان ما صرحت وكالة المخابرات المركزية رسمياً بأن غوربانيغار هو «مختلق».

في مقابلة تلفزيونيّة مع شبكة س بي أس CBS سأل دان راثر الرئيس ريغان عما إذا كانت التقارير عن فرق الهجمات الليبية غير صحيحة.

ـ لا، أجاب ريغان. لدينا معلومات كثيرة من مصادر متعددة ولدينا وقائع ثابتة. حاولنا أن نوبخهم وحاولنا أن نحافظ على الهدوء. ولكن معلوماتنا صحيحة.

عضو الكونغرس مايكل بارنز وهو ديموقراطي عن ولاية ماريلاند ويبلغ ٣٨ سنة من العمر سمع إشاعات في شتاء ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ بأن هناك خططاً سريّة أعِدَّت لأميركا الوسطى. وكان بارنز رئيساً للجنة الفرعية للشؤون الخارجية لنصف الكرة الغربي، والتي كانت أميركا الوسطى ضمن نطاق مسؤوليتها، ولم يعرف شيئاً عمّا يحدث لأنه لم يكن عضواً في لجنة الاستخبارات. وكان بارنز نافذاً في وزارة الخارجية، وخصوصاً مع معاون وزير الخارجية لشؤون تلك المنطقة توم أندرز. واقتنع بأنه لا يمكنه ممارسة عمله في رئاسة اللجنة الفرعية إذا لم يعرف شيئاً عن العمليات الكبرى لوكالة المخابرات المركزية. إتّصل بارنز بأندرز وقال له: «أريد أن أتحدّث معك في موضوع، ولا أريد أن أتكلم على الهاتف» واتفق الاثنان على تناول طعام الفطور في هاي أدامز وهو فندق في قلب المدينة، ويمتاز مطعمه بأن الطاولات فيه بعيدة عن بعضها البعض، وتسمح بالأحاديث الخاصة.

بعد تقديم الفطور قال بارنز: «لدي معلومات بأن وكالة المخابرات المركزية تستخدم المرتزقة لنسف الجسور مع نيكاراغوا».

أجاب أندرز: «عليك أن تذهب إلى لجنة الاستخبارات». وكان الاثنان يعرفان أصول

وقواعد العمل. وأدرك بارنز أن عدم نفي أندرز للمعلومات يعني أن فيها شيئاً من الصحة. بحث بارنز عن رئيس لجنة استخبارات مجلس النواب النائب أدوارد بولاند وهو من ماساتشوسش ويبلغ السبعين من العمر وصديق وزميل لرئيس مجلس النواب توماس أونيل. لم يشارك بولاند الجيل الجديد في تشكيكه بالاستخبارات ولكنه شعر بأن بارنز يجب أن يعرف ما يجري في منطقة هو مسؤول عنها. ولهذا شرح بولاند لبارنز خطة وكالة المخابرات المركزية لاستعمال الأرجنتين لتدريب خمسمائة من ثوار الكونترا وذلك لمنع تدفق الأسلحة من نيكاراغوا إلى السلفادور.

ذهل بارنز، وكان يعرف لاعبي أميركا اللاتينية. لن يستطيع أحد، وحتى وكالة المخابرات المركزية، أن يضبط الأرجنتينيين المعروفين بقساوتهم. ويحتمل أن تكون الوكالة قد اختارت الرئيس التشيلي أوغوستو بينوشيه.

قال بولاند إنه من المقرر أن لا تجري أية أعمال إرهابية، أو إحراق مزارع أو ما شابه. وقد وضعت حدود لأعمال وكالة المخابرات المركزية. طلب بارنز من أندرز اجتماعاً آخر، واتفقا على أن يلتقيا على الغداء في نادي المتروبوليتان. وبدا بارنز عند اللقاء قوياً وقال: «إنها خطة غبية وسوف تؤدي إلى مقتل الكثيرين».

عرف أندرز كيف يضغط على الزر الصحيح عند بارنز. لقد وافق على عمل خفي محدد. وهكذا يجب أن يفعل بارنز، يجب أن لا تكون هناك اغتيالات. العملية مضبوطة كلياً ولن يكون هناك خرق لحقوق الإنسان. لم يقتنع بارنز. إن عملية وكالة المخابرات المركزية تعطي للساندينيين الأعذار المعقولة للضغط على الصحافة والحركة العمالية والمعارضة السياسية وتعطيهم أيضاً مسوِّغاً لاستقدام المزيد من الكوبيين.

أجاب أندرز: «ثق بي كمعاون لوزير الخارجية. أنا أساهم مباشرة، وسينفذ هذا بطريقة صحيحة». وشعر بارنز بأن يديه قد قيّدتا. كان لمجلس الشيوخ القوة الحقيقية في الشؤون الخارجية وله صلاحية المصادقة على المعاهدات والموافقة على التعيينات في المراكز التنفيذية. أما لجنة مجلس النواب للشؤون الخارجية فقد كانت مجمعاً للمناقشة والتداول في أحسن الأحوال. ولن يكون هناك دور لهذه اللجنة من دون الاطّلاع على العمليات الخفية.

في اجتماع علني مع اللجنة رفض هيغ أن يأمر بعمل خفي ضد نيكاراغوا وأضاف: «لكن ذلك يجب أن لا يفسر على أنه ربط لسياستنا بطريق أو بآخر». قال له بارنز: «لو كنت نيكاراغوياً وسمعت أجوبتك فسأبني ملاجئ ضد القنابل».

السناتور كريستوفر دود من كونكتيكت شعر كذلك بأنه مقيد في قضية أميركا الوسطى على الرغم من أنه عضو في لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ. دود وهو ديموقراطي وليبرالي يبلغ ٣٧ سنة من العمر أمضى سنتين كمتطوع في وحدات السلام في القرى الجبلية الصغيرة في جمهورية الدومينيك، كان يتكلم الإسبانية بطلاقة وسمع إشاعات عن أعمال

وكالة المخابرات المركزية ولكنه لم يستطع أن يعرف ماذا يحدث.

حضر دود اجتماعاً للجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ في ١٠ كانون الأول/ديسمبر، وسمع إيجازاً من ضابط وكالة المخابرات المركزية لشؤون أميركا اللاتينية قسطنطين منج. وعلم أن منج كان رجل كايسي وأنه مفتاح المعلومات، إن لم يكن حول العمليات فعلى الأقل حول المواقف.

تحول الإيجاز إلى خطاب سياسي ضد هافانا. وبدا مثل خطابات رونالد ريغان، يهاجم الشيوعية ويرد ويلات ومصائب أميركا الوسطى إلى موسكو والماركسية. كتب دود بالاشتراك مع اثنين من زملائه رسالة احتجاج إلى كايسي على سلوك منج. وكان اتجاه الأحداث واضحاً حتى ولو لم يستطع دود أن يثبته. ولكنه لو استطاع، فلن تكون له حرية التعبير عن وجهة نظره.

رأى كايسي في الصفحة الأولى لصحيفة واشنطن بوست في ١٤ شباط/فبراير خبراً حول خطة لوكالة المخابرات المركزية بـ ١٩ مليون دولار حول نكياراغوا وارتاح عندما قرأ: «ولم نعلم ما إذا كان اقتراح وكالة المخابرات المركزية قد صُدِّق عليه أو نُفِّذ».

بعد ظهر اليوم التالي قدم كايسي تقريراً خاصاً سرياً إلى الرئيس ريغان في غرفة الأوضاع من الساعة ٢،٣٠ ولغاية ٣،٤٥. أفاد كايسي أن ديوان كلاريدج نجح في تنظيم بعض المقاتلين في المقاومة ضد الساندينيين في الهندوراس. وإن عمليات عبور الحدود إلى نيكاراغوا ستبدأ قريباً، وهذا العمل سوف يحد من إمكانية نيكاراغوا في تصدير الثورات والمشاكل.

في أواخر شباط/فبراير وافق أحد المسؤولين الذي كان على اطّلاع على المعلومات التي كانت تتلقاها الإدارة، والعمليات التي بدأ تنفيذها، على الكلام أثناء نزهة سيراً على الأقدام في ضواحي واشنطن. قال إن هناك قلقاً حول التقارير التي تفيد بأن السوفيات يدربون النيكاراغويين على طائرات ميغ المتطورة. ويعتبر هذا إنذاراً لأن الطائرات يمكن أن تغطي تحركاً عسكرياً ساندينياً دراماتيكياً لتوسيع حرب التحرير إلى داخل بلدان أميركا الوسطى وبخاصة السلفادور. واستناداً إلى الحسابات الاستراتيجية لهيغ ولكايسي والآخرين في الإدارة يمكن أن تعطي طائرات الميغ لنيكاراغوا تأثيراً قوياً على الممرات المائية في البحر الكاريبي وعلى مقربة من قناة باناما. والولايات المتحدة لا تسمح أبداً بهذا الوضع.

قال المسؤول: في نيكاراغوا الآن حكومة يديرها السوفيات بالطريقة نفسها التي أدرنا فيها جنوب ڤيتنام خلال الحرب. وأضاف أن مفتاح المنطقة هو نيكاراغوا وليس السلفادور. هناك تركيز أكثر من اللازم على السلفادور. وأضاف إذا وصلت الميغ الجديدة إلى نيكاراغوا، يجب على ريغان أن يتخلص من الساندينيين بعمل خفي. لن يستطيع ريغان إرسال وحدات

عسكرية إلى أميركا الوسطى، ولن يصرح ريغان بذلك علناً. نعم، لن يرسل ريغان آلاف المستشارين.

ماذا عن العمل الخفي الآن؟ مهما كانت العوائق كبيرة كما يقول، يمكنه القيام بعمل خفي لأنه أعلن في حملته الانتخابية عن دعم وكالة المخابرات المركزية وتأييد الأعمال الخفية.

ورفض الإجابة عن الأسئلة.

في ١٤ آذار/مارس ألقى جيم ويلوك أحد المسؤولين الساندينيين خطاباً في واشنطن قال فيه إن عملية وكالة المخابرات المركزية باتت على وشك البدء بتنفيذها. وأضاف أن هناك أشياء كثيرة تحدث في آن واحد وتبدو ظاهرياً كأنها صدفة، ويستنتج منها أن وكالة المخابرات المركزية هي القوة الوحيدة القادرة على القيام بهذه الأعمال. من الصعب أن نثبت ذلك بالتحديد ولكن الآثار تدل على ذلك.

يوم الإثنين في ١٨ آذار/مارس اتفقتُ* مع رئيس التحرير برادلي على تناول طعام الفطور الساعة التاسعة صباحاً، قال برادلي، الآن حصلنا على المعلومات من ثلاثة مصادر، لقد أقرّ الرئيس عملية نيكاراغوا وهو يريد أن ينفذها ببطء، والمناخ السياسي الآن يختلف عن السبعينات. لم يعد الكشف عن عمليات وأسرار وكالة المخابرات المركزية عملاً حسناً أبداً، لا بل هو عمل سيّئ. سأل برادلي: «ما هو سبب نشر الخبر، أريد أن أسمع السبب، أخبرني عن السبب الحقيقي».

أجبت: هل تؤدي هذه العملية أو هذا النوع من الحرب إلى نتيجة؟ وهل يمكن أن تبقى سرية؟ وهل يجب أن تبقى سرية؟

قال برادلي: «لا أستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة». وأضاف: هل أفلتت وكالة المخابرات المركزية من زمام الإدارة؟

قلت: لا أظن ذلك لأن ريغان أمسك بها جيداً.

قال برادلي: يجب أن يكون هناك سبب وجيه للنشر لأن إدارة ريغان يمكن أن تتخذ تدابير لحماية الأمن القومي. وهذا يفتح باب المفاجآت والله يعلم ما يمكن أن يحدث...

ـ هل تريد أن تكشف عن مصادرك؟

قلت: إنهم يدركون أن ذلك يمكن أن يكون خطوة غير صحيحة.

سأل برادلي: لماذا لا يعرضون ذلك علناً وهذا بالتأكيد يسهّل الأمور.

قلت: لم يتأكدوا بعد من رغبتهم في هذا العمل.

قال برادلي: «هراء».

فيما بعد اتصل برادلي بغولدوتر الذي كان من المفترض أن يكون على اطلاع، وذلك

(*) المؤلف وود ورد.

عملاً بالأنظمة الجديدة للكونغرس. قال غولدووتر إنه لم يسمع أبداً عن هذه العملية المزعومة، ولا كلمة واحدة. وقال برادلي إنه يثق بأن غولدووتر لا يكذب عليه.

وفي خلال دقائق معدودة تلقى برادلي مكالمة. قال: «غولدووتر اتصل ثانية، وقال إن كايسي ينتظر في مكتبه الخارجي وهناك شيء ما حتماً».

أحسّ برادلي بأن غولدووتر يعرف شيئاً ما أو على وشك أن يعرف. لقد استعجل كايسي بالقدوم إلى مكتب غولدووتر ليشرح ما كان يحدث، لأنه (أي غولدووتر) كان قد شفي من الجراحة التي اجريت في وركه منذ أشهر، والتي أدّت إلى تغيبه عن بعض الإيجازات. في اليوم التالي (الثلاثاء ٩ آذار/مارس)، تناول كايسي وبرادلي طعام الغداء معاً في مبنى وكالة المخابرات المركزية. وعاد برادلي حوالى الساعة ٢،٣٠ بعد الظهر أي قبل المؤتمر الصحافي اليومي للواشنطن بوست. كان الخبر على وشك أن ينشر لكن برادلي لم يسمح بذلك، وكان يهز برأسه. قال: هناك غموض في كل ما يحيط بكايسي، كلامه غير واضح عندما كان يلوك طعام الغداء وكأنه يحرّف أو يشوّه الكلام.

سأل محررو الواشنطن بوست: هل أكد كايسي الخبر أو نفاه؟

قال برادلي: لا هذا ولا ذاك، لكنه تحدث عن قوة من خمسمائة رجل موجودة، أو على وشك إنشائها، وأنها ستنمو. ولم يوضح ما إذا كانت هذه القوة أرجنتينية أو تابعة لوكالة المخابرات المركزية. وقال كايسي إنه سيقوم بأي عمل لمنع تدفق الأسلحة من نيكاراغوا إلى السلفادور. وأضاف أن هذه القوة لن تتعرض للمنشآت المدنية مثل محطات الكهرباء والجسور، وأن جميع أعمال وكالة المخابرات المركزية قانونية ومرخص بها منذ ثلاثة أشهر أو أربعة، أي في تشرين الثاني/ نوفمبر.

ـ هل يعتبر هذا نوعاً من التأكيد؟

قال برادلي: نعم ولا. لم يكن مرتاحاً، ونظر من نافذة مكتبه إلى الخارج، واستعاد حديث الغداء «هناك نقطة مفقودة أو أنهم يحاولون أن يثبطوا عزائمنا فقط دون إخافتنا. لم يقل كايسي لا تنشر القصة لأنه بذلك يخيفني، أنا مسرور لأني لا أمشي على الضوء الأحمر».

ـ هل أجرى معك كايسي مناقشة أمنية لذلك الوضع؟

قال برادلي: لا.

ـ إن مسودة الخبر جاهزة، هل ينشر؟

قال برادلي: لا أعرف.

وفي نفس اليوم ٩ آذار/مارس، دعا انمان رجال الصحافة في باحة وزارة الخارجية لإعلانٍ غير عادي. بدأ كلامه بتجهم. أنا بوب انمان. إني هنا بعد الظهر لأني قلق وغاضب. قلق من زيادة القوة العسكرية في نيكاراغوا، وغاضب لأنه تبيّن لي خلال الأسبوعين الفائتين أنه يصعب على البعض كشف المعلومات والبوح بالأسرار، وذلك من

أجل حماية المصادر، ثم يواجه بالسؤال التقليدي: كيف نصدقك إذا لم تظهر لنا الدلائل بالتفصيل؟! هذا تشكيك أكثر من اللازم. وأضاف أنه يأمل بمزيد من الموضوعية والثقة المتبادلة.

جون هوغ نائب مدير وكالة الاستخبارات الدفاعية والذي كان قد عرض صور الإثبات في أزمة الصواريخ الكوبية منذ عشرين سنة، بدأ يعرض الوضع في نيكاراغوا وتقدم بضع خطوات إلى الأمام وهو يحمل عصا للدلالة وأشار إلى صور كبيرة بحجم الحائط وهي عبارة عن صور فوتوغرافية جوية لنيكاراغوا (التقطتها طائرات التجسس يو ٢ وس ر ٧١) ظهر فيها أن الساندينيين أنشأوا ستاً وثلاثين قاعدةً عسكرية في السنتين الاخيرتين. عام ١٩٧٩ أي أثناء الثورة كان الساندينيون عصابة من خمسة آلاف رجل، وهم الآن جيش مؤلف من سبعين ألف رجل. وأشار هوغ إلى المعدات السوفياتية الصنع، ومن ضمنها دبابات ومدافع ميدان صغيرة ومدافع هاوتزر. قال هوغ إن هذه ليست قوة دفاعية بل هي بصمات كوبية، إنها تكنات مصممة بأسلوب سوفياتي وخصوصاً بطريقة إقامة الحواجز أمام المداخل.

بعد العرض تولى اثمان الإجابة عن الأسئلة. سئل عن التقرير الذي نشر في الواشنطن بوست في شباط/ فبراير الفائت حول خطة الـ ١٩ مليون دولار السرية لوكالة المخابرات المركزية. نفى اثمان أن تكون الخطة قد صدقت وقال بكل إخلاص: هذه الـ ١٩ مليوناً أو ٢٩ مليوناً لن تشتري لكم الكثير في هذه الأيام.

في اليوم التالي ظهر خبر الإيجاز بشكل بارز في وسائل الإعلام، وكان كايسي يأمل بضجة إعلامية مماثلة للتي حصلت أثناء أزمة الصواريخ الكوبية. وأثار نفي اثمان أن تكون قد صدقت أية عملية سرية بـ ١٩ مليون دولار المتاعب في الإدارة. لم ينتقد اثمان برنامج الرئيس ريغان بل كانت لهجته في الإيجاز داعمة لريغان وكايسي وجهود أولئك الموظفين لإظهار الخطر في أميركا الوسطى. لقد تأكدنا من الخبر، وبدا لنا أنه من غير المعقول أن لا يدرك اثمان ذلك.

أبدل المحرر المحلي لجريدة الواشنطن بوست بيل غرايدر عبارة حرب خفية محدودة في سياق الخبر، بعبارة عمليات خفية. إلا أن بات تايلر قال إن هذا يضعف النقطة الأساسية في الخبر، فالعمل شبه العسكري هو نوع من الحرب، ولهذا وضع بحذر شديد تعبيراً ملطفاً هو «الحرب الخفية المحدودة».

لم يكن واضحاً ما إذا كان برادلي سيوافق على نشر الخبر، وكان يخشخش بقطع النقود في جيبه وهو يخطو نحو مكتبه. استعرض برادلي المحررين وطلب نصيحتهم، وكان غريدر هو الابرد بينهم مع أنه من المفترض أن يكون أكثرهم حماسةً. لم يقبل بحكومة سرية وخطط سرية وحروب سرية، وقال: إذا عرفنا شيئاً عن ذلك ننشر ما نعرف بكل بساطة، وفي هذه

الحالة لن تكون هناك مفاجآت. لقد وعد ريغان بعمل سري مضـاد للشيوعية في حملته الانتخابية، وهذا ما صوّت له الناس، ولا أحد يعرف ما هو الأفضل أكثر من ريغان. أضاف غريدر أنه ربما كان البيت الأبيض سعيداً إذا نشر الخبر، وقال: إننا ركزنا أكثر من اللازم على وكالة المخابرات المركزية وعلى السرية وعلى الجانب الاستراتيجي من العملية. كنا نترقب إعلان الحرب السرية على الساندينيين، وسيؤيد جمهور ريغان. ذلك حتماً. وأضاف: لم يكن هناك إثبات، والتأكيد الوحيد هو من مهمة الصحافة، وعلينا أن نقوم بذلك ونتأكد من صحة الخبر.

ذكر غريدر الجميع بأنه قد جاء في مشروع الحزب الجمهوري للانتخابات الرئاسية عام ١٩٨٠ ما يلي: «نأسف للانقلاب الماركسي الساندينى في نيكاراغـوا وسندعم جهـود الشعب النيكاراغوي لإنشاء حكومة مستقلة وحرة». ووعد المشروع أيضاً بوكالة مخابرات مركزية أكثر هجومية. كان هذا منطقياً، وبمعنى آخر فإن ريغان ينفذ ما وعد به خلال الحملة الانتخابية. لم يطلب كايسي عدم نشر الخبر. أضاف غريدر يا للجحيم، إنه يريد نشر الخبر.

أُعِدَّ نص موجز للخبر. مرّت أكثر من سنة على إدارة ريغان والعلاقـة بين الإدارة والأوساط الصحافية غير واضحة، ولم تكن التقارير هجومية. وما زال ريغان بعد سنة من محاولة اغتياله تقريباً يتمتع بشهر عسل مديد، وفي نفس الوقت لم تتعرض الإدارة للأوساط الصحافية بأي طريقة. وكل ما جرى انتقادات عادية للصحافة، إلا أنه لم يحصل أي شيء يشبه عداوة الإدارات السابقة للصحافة كما حصل لإدارة نيكسون. وكان من الواضح أنه ما من أحد، بما في ذلك برادلي، يريد أن يطلق الطلقة الأولى التي يمكن أن تبدأ جولةً من الحرب مع الصحافة.

حوالى الساعة السادسة بعد الظهر قال غريدر إن برادلي قرر أن ينشر الخبر في صباح اليوم التالي، وقال إنه تصرف جيد. لم يكن هناك أي قلق منفرد من أحد. ولكن ساد التردد بشكل عام.

قلت لبرادلي: كان تقديري أنك ستنشر الخبر.

قال برادلي: نعم، يمكن أن يكون هذا صحيحاً.

قلت: لماذا قررت أن تنشر؟

قال برادلي: لأن معارضة كايسي كانت معتدلة.

نشر الخبر على الصفحة الأولى في عمود واحد بعنوان «الولايات المتحدة تقر خطة سرية في نيكـاراغوا» وذلـك من فوق، عـلى الجانب الأيمن، وتحت الخبـر المتعلق بإيجـاز اغـان الاستخباري الذي يظهر البنـاء العسكري في نيكـاراغوا. وجـاء في الخبر عـرض للخطة السرية، لكنه لم يكن مثل الاستعراضات التي كانت الواشنطن بوست تظن أنها تكتشف فيها أسرار خلق الكون!

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي بثت الإذاعات خبر الخطة السرية في مطالع نشراتها. لم يكن هناك أي ضجة في أوساط الإدارة التي بقيت صامتة خلال النهار. قال هيغ إنه من غير المناسب التعليق على النشاطات السرية إذا كانت موجودة أو إذا لم تكن موجودة. أما وينبرغر فقال: لا أريد أن أعلق، كل هذا لأن الموضوع سري جداً. أما كايسي فلم يُدْلِ بأي شيء.

في مساء ذلك اليوم أكدت شبكات التلفزيون الأميركي الرئيسية الخبر. إنه من الواضح أن البيت الأبيض يريد أن يكون قاسياً مع النيكاراغويين، وأنه يريد أن يعلم الجميع بنظرته إلى الأمر كوضع سياسي غير مقبول. لقد كان غريدر على حق.

في ١٥ آذار نشرت تايم الأسبوعية حديثاً لغولدووتر يقول فيه إن كل ما ورد في خبر الواشنطن بوست صحيح. لم ينشروا كل شيء ولكن كل ما نشر كان صحيحاً.

ذلك السبت تحدث كايسي في مركز دراسات الرئاسة في واشنطن، وكان يؤمن بالكلام في المناسبات العامة، ويعِدُّ خطاباته بشكل جيد، وغالباً ما كان يكتبها بنفسه. وقد عبَّر في ذلك النهار عن المهام التي تضطلع بها الإدارة ووكالة المخابرات المركزية. بدأ حديثه بمقتطفات من كلام الجنرال جورج واشنطن الذي يدعو فيه إلى السرية في عمليات الاستخبارات «يعتمد النجاح في معظم المشاريع على السرية»، ثم انتقل بعدها إلى الحديث عن القضايا الدولية. قال إن العالم مصاب بالطاعون وتحيط به قوى تدميرية لزعزعة الاستقرار ونشر الارهاب والثورات، وهي الأسلحة السوڤياتية والقوة البشرية الكوبية والمال الليبي. بعد حرب ڤييتنام، أي في عام ٩٧٤ أو ١٩٧٥، اعتمد الاتحاد السوڤياتي استراتيجية أكثر هجومية في العالم الثالث، واستخدم الكوبيين لتنفيذ هذه الاستراتيجية. في السبعينات نجح عملاء السوڤيات في انغولا واثيوبيا وكمبوديا ونيكاراغوا.

«إن دعم الثورات أسهل بكثير من مقاومتها ويتطلب كلفة مالية أقل نسبياً. بمعنى آخر إن إثارة الاضطرابات وزعزعة الاستقرار السياسي والاقتصادي لبلد صغير تتطلبان عناصر قليلة العدد نسبياً ودعماً مالياً قليلاً.



وليم. ج. كايسي في مركز قيادة وكالة المخابرات المركزية وخلفه صورة جوية لمبنى القيادة في لانغلي - فيرجينيا.



وليم كولبي مدير المخابرات المركزية (١٩٧٣ - ١٩٧٦)



ريتشارد هلمز مدير المخابرات المركزية (١٩٦٦ - ١٩٧٣)



ستانسفيلد تورنر مدير المخابرات المركزية (١٩٧٧ - ١٩٨١)



المرشح الرئاسي رونالد ريغان ومدير الحملة الانتخابية كايسي يتحادثان على متن الطائرة خلال حملة ١٩٨٠



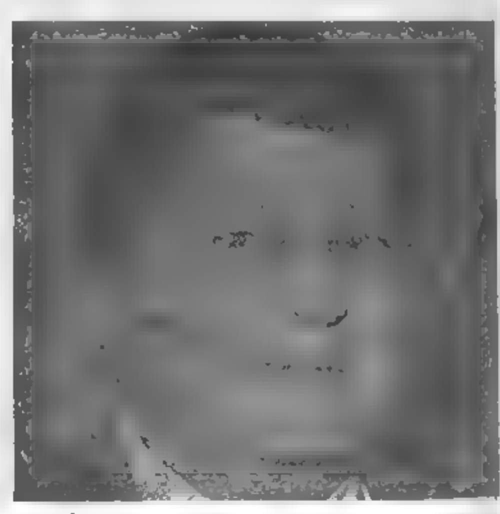
جون مكماهون يدلي بشهادته خلال جلسة تثبيت تعيينه كنائب مدير المخابرات المركزية في أيار/مايو ١٩٨٢.



الأميرال بوبي انمان نائب مدير المخابرات المركزية



روبرت غايتس خلال جلسة تثبيت تعيينه كنائب مدير المخابرات المركزية.



ماكس هوغل الذي عينه كايسي مديراً للعمليات استقال في تموز/يوليو ١٩٨١ بعد اتهامه بأعمال مشبوهة في البورصة.



جون هورتون ضابط الأمن القومي لأميركا اللاتينية. ترك وظيفته لأنه قال إن كايسي ضغط عليه عام ١٩٨٤ في تقدير استخباري حول المكسيك.



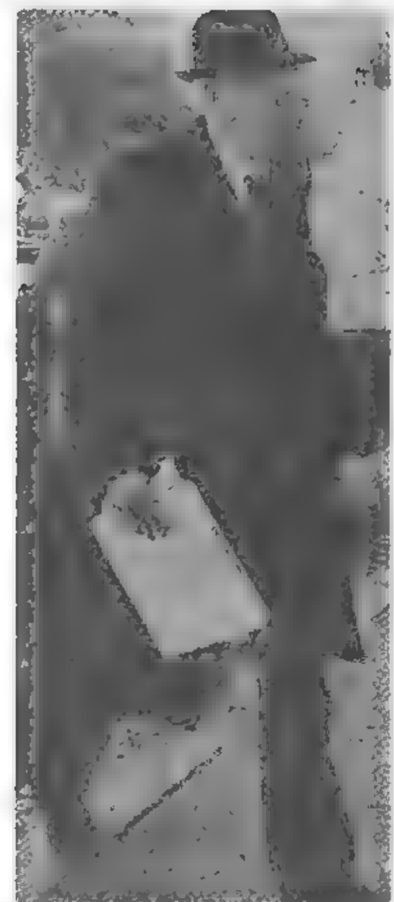
ستانلي سبوركين عمل في جهاز أمن التبادل كان المستشار العام في الوكالة من عام ١٩٨١ إلى ١٩٨٦



الرئيس التشادي حسين حبري.



وليم بكلي رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية في بيروت، خطف عام ١٩٨٤ ومات في الأسر. لم تستطع وكالة المخابرات المركزية أن تحصل على نسخة عن اعترافاته.



كايسي



قائد الثوار في أنغولا جوناس سافيمبي



جين كيركباتريك سفيرة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة. من عام ٨١ إلى ١٩٨٥.



الرئيس المصري أنور السادات، اغتيل في ٦ تشرين الأول/اوكتوبر ١٩٨١.



الزعيم الليبي معمر القذافي كانون الثاني/يناير ١٩٨٦.



الأمير بندر سفير العربية السعودية في واشنطن والرئيس ريغان في البيت الأبيض عام ١٩٨٣.



الرئيس اللبناني المنتخب بشير الجميل بحراسة مشاة البحرية الأميركية قبل ستة أيام من اغتياله في ١٤ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢.



آية الله الخميني، ١٩٨٥.



الرئيس الكوبي فيدل كاسترو والرئيس النيكاراغوي دانييل اورتيغا في اجتماع في نيكارغوا عام ١٩٨٥.



كايسي وريغان في المكتب البيضاوي في ٢٢ تشرين الأول/اوكتوبر ١٩٨٥ بعد شهر واحد من أول عملية بيع سلاح سرية لإيران.



ريغان ومستشاروه في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض خلال أزمة خطف طائرة TWA . من اليسار إلى اليمين: وزير الدفاع كاسبار وينبرغر، نائب الرئيس جورج بوش، الرئيس، وزير الخارجية جورج شولتز، مدير المخابرات المركزية كايسي، رئيس أركان البيت الأبيض دونالد ريغان.



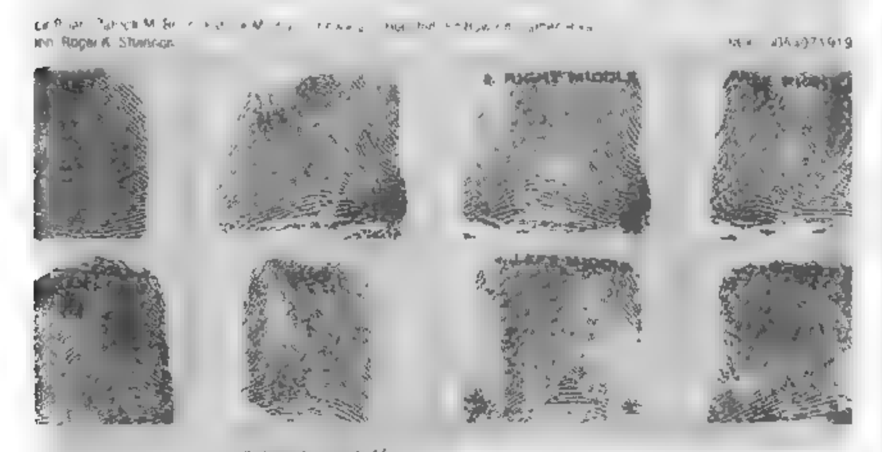
المقدم أوليفر نورث



كاسبار وينبرغر وجورج شولتز و روبرت مكفرلين في ٢٥ تشرين الأول/ اوكتوبر ١٩٨٣ وهو يوم غزو الولايات المتحدة لجزيرة غرانادا.



جوناثان جاي بولارد وزوجته، لقد أدين بالتجسس لصالح إسرائيل.

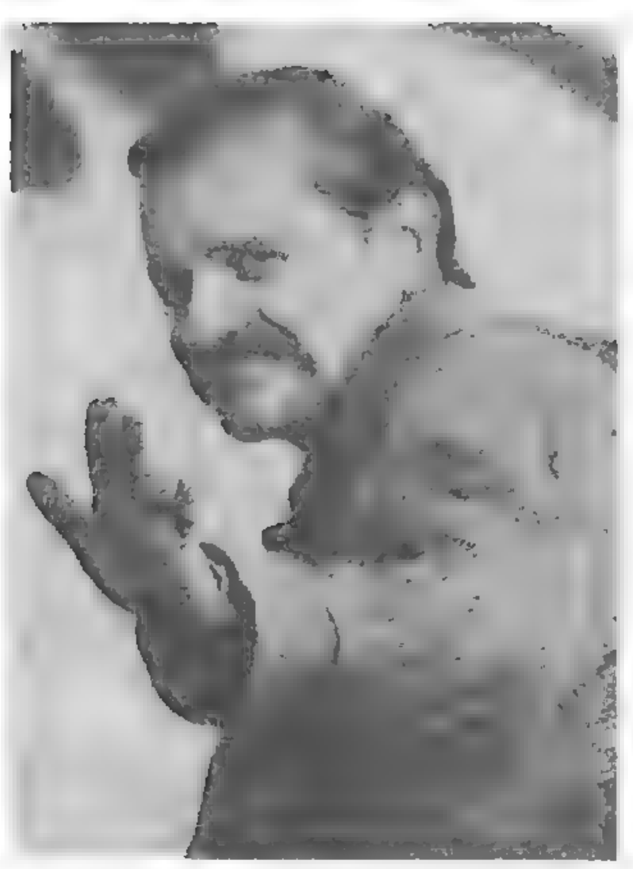




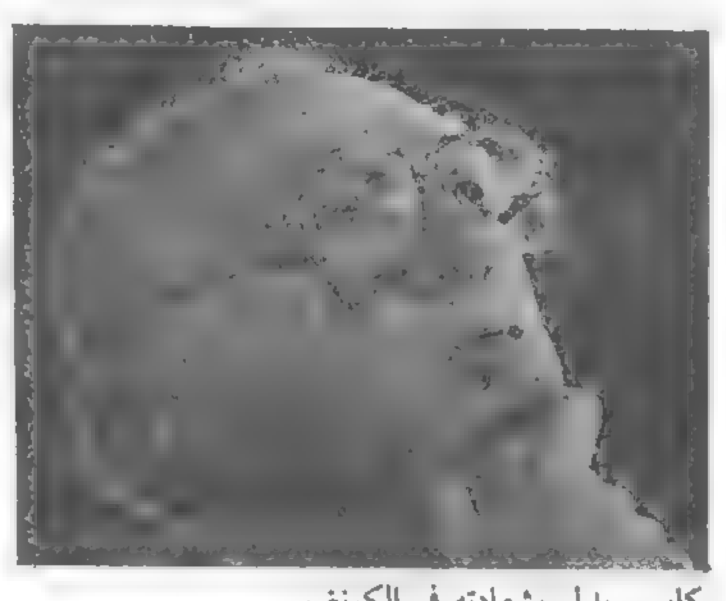
منشور «مطلوب» لمكتب التحقيق الفدرالي لادوارد لي هوراد



رونالد بيلتون خلال محاكمته
بتهمة التجسس في حزيران/يونيه ١٩٨٦.



ضابط المخابرات السوفياتية فيالي
يورتشنكو، لجأ إلى الولايات المتحدة في
صيف ١٩٨٥



كايسي يدلي بشهادته في الكونغرس.



آل ريغان مصحوبين بالأب دانييل فاغان في
٩ أيار/مايو ١٩٨٧ في جنازة كايسي في لونغ أيلاند

السناتور باتريك ليهي الديموقراطي من ولاية فيرمونت، عضو لجنة الاستخبارات، لاحظ أسراراً قليلة في إيجازات اللجنة ولم يكن مرتاحاً بشكل عام. ومثل السحر في ورق اللعب، تلقى الأعضاء معلومات عامة أو وصفاً لجاسوس محترف أو مقدمة لبنود الموازنة وأحياناً معلومات ضئيلة حول رئيس بلد معين.

يعتبر ليهي ابن واترغيت، انتخب سناتوراً وعمره ٣٤ عاماً بعد استقالة نيكسون، وهو السناتور الديموقراطي الوحيد في تاريخ ولاية فيرمونت. وكان لديه شكوك حول التركيز السري للسلطة بيد حكومة ريغان، وتلهف للإطلاع على جميع أوراق الاستخبارات. وكان مدعياً عاماً في محافظة تشيتيدين لمدة ثماني سنوات عالج خلالها جميع الدعاوى الهامة بنفسه. وكان أسلوبه في معرفة ما يحدث أن يضع يديه وعينيه على الدليل. وكان لكل سناتور عضو أركان معيّن له يدعى «المعين designee» ليرشده في متاهات الاستخبارات المعقدة. وورث ليهي عن سلفه المعين تيد رالستون. وقال له رالستون إنَّه إذا أراد أن يتفهم الاستخبارات، عليه أن يأخذ فكرة عن عمل وكالة الأمن القومي والالتقاطات اللاسلكية. مثلاً هناك قمر اصطناعي يدعى فورتكس يستهدف مناطق خاصة في العالم ويؤمن إمكانية استماع مماثلة لإمكانية استماع سفارة أميركية في أي بلد. كانت وكالة الأمن القومي مصدر معظم المعلومات وأفضلها. هذا ويستغرق تفسير الالتقاطات ساعات من الاستماع والتفتيش في الترددات، وربط الاتصالات وتحديد الأساليب وحل الشيفرة وتوضيح المعاني.

قال رالستون إنَّ هذا هو أساس العمل. لقد تحول جمع المعلومات إلى عمل تقني مخيف. يجب أن تعلم ماذا يمكن أن يحدث وكيف وأن تتوقع الأحداث في السنوات المقبلة.

اقترح رالستون على ليهي أن يزور مراكز وكالة الأمن القومي في الخارج وفي هذا المجال خطط لرحلة تشمل مراكز الوكالة في أوروبا.

كان رالستون على علاقة وثيقة بانمان عندما كان رئيساً لوكالة الأمن القومي من عام ١٩٧٧ إلى عام ١٩٨١. وكان مكلفاً بمراقبة تنفيذ اتفاقات نزع السلاح من قبل لجنة مجلس الشيوخ، وكان واحداً من ثلاثة أركان في اللجنة يتعاونون مع وكالة الأمن القومي. وعندما رقي انمان إلى رتبة أميرال وعين نائباً لكايسي اشترى رالستون شارة الرتبة الجديدة وعليها

أربع نجوم، وقدمها لكايسي، وكانت العادة أن تقدم عائلة الضابط هذه النجوم عندما يرقى إلى رتبة أعلى.

على مر السنين قاد اثمان رالستون في متاهات جمع المعلومات تقنياً، واطلع منه على ما يجري في لجنة مجلس الشيوخ وهكذا عندما جال اثمان على الشيوخ وقدم إليهم إيجازاً، كان يعرف بماذا يفكر كل واحد منهم. وعملا مع بعضهما البعض مثل قدامى المحاربين، وكان لكل منهما رأيه وكان اثمان طبيعياً أمام الشيوخ مما سهل عملهما. وكان إيجابياً مع الشيوخ جمهوريين كانوا أو ديموقراطيين، وذلك

لمصلحة عمل اللجنة: زار السناتور ليهي ورالستون مركزاً لوكالة الأمن القومي في هاروغيت على بعد حوالى مائتي ميل شمال لندن في يوركشاير. وطرح ليهي أسئلة حول إمكانية التقاط الاتصالات. كان الروس يحشدون الدبابات على الحدود البولونية وأراد ليهي أن يعرف ما إذا كانت محطة هاروغيت قادرة على التقاط اتصالات من دبابات منفردة.

كم ميغاوات قوة هذا الجهاز؟ سأل رالستون قبل أن يستطيع أحد من هاروغيت أن يجيب ليهي. ثمّ سأل رالستون أسئلة تقنية كشفت عن معلوماته القوية في هذا المجال. وطرح ليهي أسئلته الخاصة، ولكن رالستون لم يسيطر على نفسه وأخذ يتكلم مبدياً إعجابه بنظام العمل وكيف كان الاتّصال يتم مع مركز وكالة الأمن القومي في الجانب الآخر من العالم في باين غاب في أوستراليا. قال ليهي: «أسكت ودعني أطرح أسئلتي». وعندما ذهبا إلى ألمانيا تضايق منه ليهي وفكر في أن يقذفه خارج الطائرة. وفي تركيا أخذ رالستون حفنة من سيكارات السفير الأميركي من علبة سجائر السفارة وقال ليهي فيما بعد لمساعده الإداري: «لم أعرف ماذا أفعل بابن الكلب هذا».

ولدى عودته إلى الولايات المتحدة فكر ليهي ماذا يفعل ثمّ قرر إقالة رالستون.

تقدم رالستون بطلب إلى وظيفة عضو أركان في مجموعة الاستخبارات في شارع ف، وكانت هذه من المراكز التي تركها كايسي لاثمان. وكمساعد سناتور لم يكن على رالستون أن يخضع لاختبار كشف الكذب. إلاّ أنّ الطلب إلى مجموعة الاستخبارات تضمن اختباراً لكشف الكذب على آلة البوليغراف، وهكذا خضع لاختبار روتيني. وأجاب على مجموعة من الأسئلة تناولت طريقة مسك المواد السرية، وما إذا كان قد اصطحب وثائق سرية إلى منزله.

كان من عادة موظفي الحكومة اصطحاب الوثائق إلى منازلهم، عند تراكم الأعمال. والهدف من السؤال لم يكن كشف الاختراقات أو الانتهاكات غير المؤذية بل كشف الاختراقات الأمنية الخطيرة أو مصادر التسرب أو الجواسيس في حالات نادرة. وكان هذا السؤال مأزقاً حقيقياً وسبباً جعل الجميع ينفرون من آلة البوليغراف. كانت الأجوبة محصورة بنعم أو لا، وجمعت القضايا الأساسية مع القضايا الثانوية. وكان الاختبار إما رفض الامتحان أو إجراؤه ومواجهة خطر الإخفاق.

فشل رالستون لأنّه اصطحب إلى منزله نسخة عن تقرير سري حول ما كانت تقوم به وكالات الاستخبارات الأميركية في إيران منذ الحرب العالمية الثانية. وكانت مشكلة آلة البوليغراف مدمرة لرالستون ولاغان لأنَّه لن يكون هناك مجال للعمل في أركان أي مجموعة استخبارية دون اجتياز الاختبار بنجاح. وحدث الأسوأ وهو أنَّ مدير الأركان الجديد للجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ روب سيمونز بدأ تحقيقاً حول قضية رالستون. وكان هناك الأكثر. لقد اصطحب رالستون إلى منزله أكثر من خمسمائة صفحة من الوثائق التي كان بعضها سرياً جداً. وأعاد بعض الأوراق إلى مدير اللجنة، وبعضها الآخر مباشرة إلى وكالة المخابرات المركزية. ولم تظهر أية أسماء في تقرير إيران ولكن يمكن لأي شخص أن يستنتج الأسماء من الوثائق. نظم سيمونز لائحة بالوثائق التي اصطحبها رالستون إلى منزله وأرسلها إلى وكالة المخابرات المركزية وطلب تقديراً روتينياً للأضرار. وبعد ذلك بوقت قصير تلقى سيمونز مذكرة من وكالة المخابرات المركزية تقول إنَّه لا يوجد دليل على أنَّ هذه الوثائق قد انكشفت مع أنَّها حفظت بطريقة غير صحيحة في منزل رالستون. ولا يوجد أي مؤشر يدل على أنَّ أحداً اطلع عليها أو تداولها ولذلك لم يحصل أي ضرر. لم يصدق سيمونز هذا التبرير لأنَّ تقدير الأضرار يعتمد عادة أسوأ الاحتمالات. إنَّ حفظ وثائق كهذه في منطقة غير آمنة يعني أوتوماتيكياً احتمال انكشافها. ولكنَّ هناك شيء ما يثير المشاكل، فقد لاحق سيمونز التقارير والتبريرات الصادرة عن وكالة المخابرات المركزية من صديق رالستون وعرابه بوبي انمان. وظن سيمونز أنَّه من المحتمل أن يغطي انمان رالستون، ولذلك بدأ تحقيقاً واسع النطاق. وبدأ التدقيق في الملفات وكان بالفعل عملاً مضجراً. وتبين لسيمونز أنَّ رالستون وقع على نموذج حول المستندات الهامة والحساسة والتقارير الواردة إلى اللجنة أو من خلالها، وذلك منذ سنوات، واعتبر أنَّه إذا كان رالستون قد قرأها كلها فإنَّه يعتبر موسوعة لإمكانيات وعمليات الاستخبارات الأميركية، ملماً بالصغيرة والكبيرة في مجال الاستخبارات. وقد علم سيمونز الهدف من ذلك لأنَّ رالستون كان جاسوس انمان في لجنة مجلس الشيوخ حول نشاطات اللجنة وخططها. إنَّها كانت علاقة تجسس غير رسمية وبرأي سيمونز كان التجسس تعبيراً قاسياً جداً. إلاَّ أنَّه لم يكن هناك أي خطأ أو أي عمل غير مشروع وكان الهدف من ذلك مصلحة اللجنة ووكالة المخابرات المركزية. وكان سيمونز يعرف من تجربته لمدة عشر سنوات كضابط عمليات في وكالة المخابرات المركزية أنَّ بعض أفضل الجواسيس لم يعرفوا ما كانوا يفعلونه، ووقعوا في الشرك، فاعتقدوا بأنَّهم يجمعون المعلومات لصالحهم، وأفضل الجواسيس كان المغمور في علاقاته لدرجة أنَّ الجميع يرونه قائماً بعمله فقط. كما أنَّ النشاطات اليومية مثل القراءة والمحادثة والأسئلة تحتوي على كمية كبيرة من المعلومات ويمكن أن تنتشر في الأمكنة الخاطئة. لم تكن قضية رالستون أكثر من إشكال بين رجلين.

لخص سيمونز المشكلة وعرضها على رئيس لجنة استخبارات مجلس الشيوخ غولدووتر،

الذي قرر عدم إحالة المسألة على وزارة العدل للإدعاء لأسباب عديدة، منها أنَّ رالستون لم يقصد أن يؤذي، ولم يؤدِّ عمله إلى أي ضرر على الأمن القومي، ولم يثبت أي تسرب للمعلومات، وإذا أعلنت القضية فستتحول إلى ورطة بشعة، مما يؤثر ذلك سلباً على رصيد اللجنة. وفي النهاية كان هناك اثمان الذي لا يرضى غولدووتر أن يساء فهمه. وتوصل سيمونز إلى حل وهو سحب براءة الذمة الأمنية لرالستون.

قال غولدووتر: «جيد، هذا هو العقاب الصحيح».

ولم يستطع رالستون الحصول على براءة ذمة عندما حاول أن يحصل على وظيفة لدى مقاول كبير لوزارة الدفاع. وكان بعض أركان اللجنة ما يزالون يشاركون رالستون تناول طعام الغداء، وعندما علم سيمونز ذلك أبلغ جميع الأركان بأنَّ رالستون شخص غير مرغوب فيه ومن الأفضل أن ينسوه في حياتهم.

أما السناتور ليهي فقد ذهل عندما طلب منه رالستون شهادة مؤهلات.

في تقريره النهائي ذكر سيمونز أنَّها يمكن أن تكون أكبر عملية كشف لمعلومات مصنفة من الكونغرس، وبالتأكيد هي العملية الأكبر في لجنة مجلس الشيوخ. وطلب مراجعة أمنية لكل شيء في اللجنة، وشمل ذلك آلاف المستندات، وبعد تفتيش دقيق تولاه ضباط أمن لكل ملف حكومي تمّ تحديد ٤٠ وثيقة لم يعرف المسؤول عنها! ومعظمها يعود لسنوات، ومنها ما وقعها أحد الأركان السابقين للجنة. وقرر سيمونز أن لا يتخذ أي إجراء بذلك. وتمّ استخلاص دروس كثيرة من هذه التجربة.

وعندما اشتكى كايسي فيما بعد من التسرب المزعوم في اللجنة دافع سيمونز عن الأمن والحيطة في اللجنة. سأله كايسي ماذا عن الصبي الذي أخذ الوثائق؟ ولكنه لم يقل أكثر من ذلك ولم يفعل شيئاً.

اعتبر اثمان أنَّ الاقتراح القائل بأنَّ رالستون جاسوس هو اقتراح سخيف. والمفترض في الجاسوس وسيد الجاسوس، أي اثمان نفسه في هذا السيناريو، أن يعملا ضد مصالح الدولة التي يخدمانها. حسناً لم يخدم اثمان أي مصلحة غير مصلحة الاستخبارات الأميركية وكذلك رالستون. نعم لقد ارتكب رالستون بعض الأخطاء ولكن ذلك لم يؤد إلى أي أذى. واعتبار ذلك تجسساً يدل على مرض بيروقراطي. وعكس ذلك الآراء السائدة في وكالة المخابرات المركزية ولجان المراقبة في الكونغرس من أنَّ كل فريق كان عدواً للآخر ويتعامل معه على أنَّه جهاز مخابرات معادٍ.

كانت نظرة كايسي للجان المراقبة بسيطة: عندما تصل إلى الأسرار الهامة والكبيرة لا تشرح لهم كثيراً.

بعد رحيل رالستون ودخول غولدووتر إلى المستشفى للمعالجة ومكوثه فيه حوالي ثلاثة أشهر، شعر اثمان بالعزلة. وليم سفير وهو محرر في صحيفة نيويورك تايمز وجه عدداً من

الضربات لاغمان وسماه «الملقط» الذي تحكم بغولدووتر وعارض الأعمال الخفية. وكان سفير قد اتهم في إحدى مقالاته اغمان بأنّه كان «يؤلف قصة زائفة مع بعض المحررين تفيد بأنّ إسرائيل هي التي تثير موضوع فرق الاغتيال الليبية في الإعلام وذلك لإيجاد تبرير لضربة جوية توجه إلى المفاعل النووي الليبي».

شعر اغمان بأنّ هذا الهجوم شخصي لأنّه لم يؤلف أي شيء، وكان واضحاً أنّ أحد المؤيدين لإسرائيل قد سرّب ذلك لسفير لأنّ اغمان أصر على منع إسرائيل من الإطلاع على صور الأقمار الاصطناعية لاستخدامها في أعمال هجومية وإغارات كما حصل عندما قصفت المفاعل النووي العراقي. وشعر اغمان بأنّ الإسرائيليين سوف يفعلون أي شيء ضد القذافي وليبيا، وقد يقدمون على اغتيال القذافي ليكسبهم ذلك نقاطاً جديدةً في الولايات المتحدة.

كانت لاغمان شكوك حول تهجمات سفير، وربما كان كايسي وراءها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وعلم اغمان أنّ هناك قناة اتصال بين كايسي وسفير منذ نحو ١٥ سنة تقريباً. كان سفير قد أدار حملة ترشيح كايسي الفاشلة لعضوية الكونغرس. وهناك دلائل على اتصالات حديثة بين سفير وكايسي وصلت إلى اغمان. اتّصل أحد محرري نيويورك تايمز باغمان لسبب طارئ وأخبره أن أرثر سلزبرغر ناشر نيويورك تايمز كان يحاول الاتصال بكايسي مستعملاً رقم هاتف منزل كايسي غير المدرج على لائحة الاستعلامات في مركز الهاتف ولكنه لم يتلق أي جواب. هل كان الرقم صحيحاً؟ سأل المحرر ذلك وهو يحاول التحقق من الرقم. نعم إنّه كان الرقم الذي أعطاه كايسي لعدد قليل من الناس ومن ضمنهم اغمان الذي فوجئ بأنّ صحيفة نيويورك تايمز تعرفه. وهكذا، قال محرر نيويورك تايمز بأن سفير لديه الرقم الصحيح.

نعم قال اغمان.

لم يتأكد اغمان من أنّ لكايسي دوراً في تهجمات سفير ولكنه بقي على حذره منه.

الساعة الثالثة بعد الظهر في اليوم التالي لرأس السنة التقى ريغان مع ديفر وبيل كلارك في مزرعة والتر انبرغ ستي لاند في لانشو ميراج كاليفورنيا لمدة ساعتين ونصف الساعة، وتحدث الثلاثة في موضوع مجلس الأمن القومي. لقد استقال ريتشارد الن من وظيفة مستشار شؤون الأمن القومي وقرر الرئيس نقل كلارك من وزارة الخارجية لاستلام تلك الوظيفة. ومنح كلارك حقاً بالتكلم المباشر مع الرئيس واعتبر الناطق الوحيد باسم البيت الأبيض حول الشؤون الخارجية، وذلك استناداً إلى محضر جلسة المحادثات الذي أعده كلارك. وكان كايسي سعيداً لذلك لأنّ كلارك الذي كان رئيس أركان ريغان عندما كان الأخير حاكماً لولاية كاليفورنيا هو صديق حميم للرئيس ومعادٍ للشيوعية.

بعد إعلان تعيينه، طلب كلارك نصيحة اغمان حول ما يفعله بأركانه في مجلس الأمن القومي. قال له اغمان إن عليه أن ينظفها تماماً، وخاصة ركن مجلس الأمن القومي حول

الاستخبارات كينيث دي غرافينريد. أصغى كلارك بعناية وتجنب التعهد بأي شيء، وأدرك اتمان أنه أعلن الحرب على دي غرافينريد.

كانت مهمة دي غرافينريد مكافحة التجسس، وركز انتباهه نحو السوفيات ولخص جهودهم بحقيقة هي: «التمويه والتظاهر والخداع»، وأراد دي غرافينريد التأكد من أن بعض المعلومات التي جمعتها الولايات المتحدة ليست جزءاً من خدعة سوفياتية واسعة النطاق، خصوصاً صور الأقمار الاصطناعية والاتصالات الملتقطة. وقال إنه من المنطقي أن يقوم السوفيات بعمليات خداع، وبما أن الولايات المتحدة لم تكشف شيئاً من هذه العمليات فمن المهم أن تتأكد من أنها لم تتعرض لعملية خداع.

كان اتمان يؤمن بأهمية وكالة الأمن القومي في هذه المسائل. نعم لقد كان الشك ضرورياً ربما يكون هناك خداع ولكن الشك البعيد كان ضرباً من الجنون. إذا استطاع السوفيات أن يبنوا «قرى فوتوغرافية والكترونية» فلن يبقى عندهم لا وقت ولا مال لأي عمل آخر. والمعلومات المأخوذة من الاتحاد السوفياتي تعود لسنين عديدة لا بل هي مستمرة منذ عقود. استنتج اتمان أن نظرية دي غرافينريد غير معقولة.

لم يكن اتمان سعيداً بأن يحصل دي غرافينريد على هذا النفوذ وهو طيار سابق في البحرية ويبلغ ٤١ سنة من العمر وعمل لمدة سنة واحدة كمترجم في الكونغرس وسنة أخرى في وكالة الاستخبارات الدفاعية. وكان اتمان يعتقد بأن المجموعة الاستخبارية التي أعدت لتخدم الرئيس تعمل لصالح مجلس الأمن القومي ولذلك يستطيع أحد الأركان الأقوياء الذي يدرك حقيقة مركزه أن يحدد أولويات الاستخبارات ويتحكم بسياستها ويشرف على مواردها.

واقتبس دي غرافينريد إحدى طرق اتمان للسيطرة. وأعد دراسة موجزة لمكافحة التجسس على نفس نمط الدراسة «الإمكانيات الاستخبارية بين عامي ١٩٨٥ - ١٩٩٠» التي نجح اتمان في اجرائها. قال دي غرافينريد إن هناك حاجة لكسر الحواجز البيروقراطية في مكتب التحقيق الفدرالي ووكالة المخابرات المركزية ووكالات الاستخبارات العسكرية، وإنه يجب إنشاء سلطة مركزية لمكافحة التجسس مزودة بملفات مركزية. إن توزع عمل مكافحة التجسس على حدود الولايات المتحدة (أي وكالة المخابرات المركزية في الخارج ومكتب التحقيق الفدرالي في الداخل) هو شيء غير طبيعي لأنّ بعبع الحريات المدنية يقلق عندما تجتمع هذه الأجهزة.

اعتبر دي غرافينريد أن وصول كلارك إلى مجلس الأمن القومي فرصة لتحقيق أهدافه، وعرض عليه مشروع قرار أمني قومي ليوقعه الرئيس يدعو إلى إجراء دراسة عن مكافحة التجسس، وتحمس كلارك لذلك.

أبلغ نائب كلارك باد مكفرلين الذي انتقل معه من وزارة الخارجية، اتمان بأن دي

غرافينريد سيبقى في مجلس الأمن القومي. وسرعان ما تلقى انمان القرار الأمني القومي موقعاً من الرئيس ريغان، وبموجبه تؤلف مجموعتان رئيسيتان على مستوى عالٍ مع صلاحيات قوية، الأولى برئاسة مدير مكتب التحقيق الفدرالي وبستر، والثانية برئاسة نائب وزير الدفاع كارلوتشي. خسر انمان في هذه المعركة البيروقراطية، وبدا واضحاً أن دي غرافينريد لن يبقى في مجلس الأمن القومي فقط بل سيزداد نفوذه.

لم يكن كايسي مرتاحاً للقرار الأمني القومي حول مكافحة التجسس، ولإيلائه إلى مكتب التحقيق الفدرالي ووزارة الدفاع. ولكنه لم يعتبر ذلك صفقة كبيرة يؤسف عليها، وتعجب من موظفي الحكومة القدامى لأنهم يأخذون هذه المعارك بجدية.

استنتج انمان أن كايسي ربما كان على حق وحاول أن يظهر اللامبالاة. كان كايسي مزيجاً من الصعب والسهل. فقد صدر تقرير استخباري قومي حول الشرق الأوسط تضمن أربع وجهات نظر قوية. الأولى من خبراء وكالة المخابرات المركزية والثانية من وكالة الاستخبارات الدفاعية والثالثة من انمان والرابعة من كايسي شخصياً. هل استعمل كايسي سلطته كمدير مخابرات مركزية ليحكم الجميع ويضع وجهة نظره كاستنتاج رئيسي؟ لا، وببساطة أخذ كايسي وجهات النظر الأربع إلى الرئيس. وعلى صعيد الأعمال الخفية ازداد قلق انمان لأن كايسي وضع وكالة المخابرات المركزية في صف واحد مع بعض الشخصيات الكريهة في العالم.

استقبل كايسي في مقره في لانغلي وزير الدفاع الإسرائيلي ارييل شارون وهو جنرال سابق ضخم الجسم متوحش متطرف ويعد من الصقور. كانت إسرائيل تقدم دعماً سرياً شبه عسكري للميليشيا المسيحية الرئيسية في لبنان وهي ميليشيا حزب الكتائب اليميني التي يرأسها بشير الجميل وهو ذو وجه يشبه وجه طفل صغير، قاسٍ ومتحجر ومن زعماء الحرب الأهلية، ويبلغ من العمر ٣٤ عاماً. وقد تطور الجميل وأصبح واحداً من أفضل القادة الموهوبين، وسعى إلى لعب دور قوي في المستقبل. وكان الإسرائيليون مستمرين في لعبتهم إذ طلب شارون مبلغ ١٠ ملايين من الدولارات كدعم شبه عسكري للجميل.

عارض انمان ذلك، ففي عام ١٩٧٨ شنت قوات بشير هجوماً صاعقاً على منزل طوني فرنجية الصيفي، وهو الخليفة السياسي لرئيس الجناح المسيحي المنافس، وذبحته وزوجته وابنته البالغة من العمر سنتين وحراسه وحتى خدمه. وفي عام ١٩٨٠ كانت ميليشيا بشير على وشك سحق ميليشيا الرئيس السابق كميل شمعون. لقد كان بشير قاتلاً متوحشاً.

كان هناك الكثير، وبعضه مخبأ في ملفات الاستخبارات. فبالعودة إلى السبعينات، وبعد أن أنهى بشير الجميل دراسة الحقوق والعلوم السياسية في لبنان، حضر إلى الولايات المتحدة ليعمل في مؤسسة قانونية في واشنطن، وتم تجنيده للعمل في وكالة المخابرات المركزية. وكصغير في عائلة من ستة أفراد، كان بشير دون شك يمشي في طريق غامض في

هذه العائلة القوية، والده بيار الجميل رئيس حزب الكتائب، ومن المقرر أن يرث الابن الأكبر زعامة هذا الحزب الذي تأسس عام ١٩٣٦ كحركة شباب رياضية وعسكرية. لم يكن بشير عميلاً ليسهل التحكم به على الرغم من أنه قبض مالاً من وكالة المخابرات المركزية بشكل منتظم وأعطي اسماً سرياً. وكانت تقاريره تعمم دون ذكر هوية المصدر. وكانت المدفوعات بضعة آلاف من الدولارات.

عام ١٩٧٦ تحدى بشير العادات اللبنانية واحتل مركزه في قيادة الميليشيا بدلاً من أخيه الأكبر وزادت أهميته بالنسبة إلى وكالة المخابرات المركزية وزادت مدفوعاتها له. وكان لوكالة المخابرات المركزية وجود قوي في بيروت، التي تعتبر مفترق الطرق في الشرق الأوسط وأكثر عواصم العرب تأثراً بالغرب وتحتشد بالمؤامرات والمكائد. وكان اللبنانيون الأغنياء والنافذون يتجولون في المنطقة العربية ويؤمنون معلومات هامة حول دول عربية يصعب الاقتراب منها. وتوسع دور بشير وازدادت أهمية معلوماته وشمولها. وسرعان ما اعتبرته وكالة المخابرات المركزية من النافذين في المنطقة ومركز نفوذ رئيسي. وفي الوقت نفسه أصبح زعيماً لبنانياً له تطلعات واسعة ونظرة وطنية شاملة وتحدث عن لبنان الجديد.

اعتقد انمان بأن بشير ما زال قاتلاً وبأنّ على وكالة المخابرات المركزية أن لا ترقص مع هذا الشيطان، وأن لا تؤمن المساعدة لميليشياته، وخصوصاً مبلغ العشرة ملايين دولار. واعتقد بأن الإسرائيليين، وشارون بالتحديد، كانوا يطبخون شيئاً ما. كان لهم نفوذ كبير في لبنان وأرادوا المزيد. دق شارون وهو صديق مقرب لألكسندر هيغ ناقوس الخطر لدى جميع أركان إدارة ريغان، وسرعان ما كان هيغ يضغط لصالح آرائه وطلباته. وكان كايسي يحترم التقارير الواردة من محطات الوكالة. وكانت محطة بيروت بشكل شاذ معادية لبشير، واتفقت مع انمان على أنه بربري ومتلاعب و محتال، واتهمته بأنه يلعب على الأميركيين وعلى الإسرائيليين، ويتكىء على أي ظهر ليحصل على المساعدات المالية وعلى التجهيزات. كانت محطة تل أبيب تعكس وجهة نظر شارون وإسرائيل، وقالت إن بشير يتحرك بسرعة وهو زعيم جيد يمكن أن يوصل لبنان إلى الاستقرار، ولم تبد إعجابها به فقط بل نصحت باعتباره حقيقة هامة. ففي بعض الأوقات كانت وكالة المخابرات المركزية تعمل مع بعض العناصر غير المرغوب فيهم. كذلك كان بشير معادياً لمنظمة التحرير الفلسطينية التي كان كايسي يرى أنها تهدد وجود إسرائيل.

خسر انمان الجدال ووقع الرئيس ريغان مذكرة سرية جداً، يمنح بموجبها مساعدة ١٠ ملايين دولار لميليشيا بشير الجميل.

بحلول وسط آذار/ مارس ١٩٨٢ قوّم انمان وضعه الشخصي. فهو سيبلغ الخمسين بعد أسبوعين، وقد ترقى بأسرع ما يمكن في البحرية، وكان يسعى إلى منصب مدير المخابرات المركزية ولم يتسنّ له ذلك، وكان يقترب من نقطة اللاعودة في حياته. أراد أن يبدأ

حياة جديدة، وعليه أن يبدأها الآن. إنه لا يحتمل العمل في وظائف مثل مستشار أو بائع أسلحة، ولا يريد أن يشق طريقه نحو مزرعة في ماريلاند على الساحل الشرقي حيث يقام مجمع للضباط المتقاعدين. وابناه قد بلغا سن المراهقة وهما توماس ووليم، وسيذهبان إلى الجامعة قريباً. والحقيقة المُرّة أن اثمان لا يستطيع أن يسجلهم في الجامعات الخاصة الباهظة التكاليف. وبعد خدمة حوالى ٣٠ سنة في البحرية كان يملك منزله المرهون في ارلنغتون فيرجينيا (٨٪ على ٢٢ سنة لشركة ارلنغتون ترست) وآلاف قليلة من الدولارات في اتحاد البحرية الفدرالي وألفي دولار في رابطة التوفير الأميركية (كان كايسي يهزأ من الذين يوظفون أموالهم في استثمار ضعيف كهذا ولم يشترك في هذه الرابطة). كذلك اقتنع اثمان بأنه لم يكن متحمساً للعمل في الاستخبارات، وقد كان مفتوناً منذ سنوات بكيفية الحصول على المعلومات، وبعد هذا لم تعد الاستخبارات تعني أي شيء له. ولكن موائد الفطور، التي اصطحبه كايسي إليها مع هيغ ووينبرغر، أثارت تساؤله حول أسلوب استعمال الاستخبارات. تلك كانت السياسة. إنها ما حسبه. لقد عرف الآن أنه في المركز الخطأ.

في آذار /مارس، وعندما أعلن عن عملية نيكاراغوا، برزت مشاكل جديدة إلى الواجهة. كان كايسي وديوي كلاريدج يديران العمليات. اشتكى مدير العمليات جون شتان لاثمان من أنه استبعد عن إدارة هذه العملية. وكذلك أبعد اثمان. كانت تجري الأمور من حوله، وكان يجهد ليتعرف على التفاصيل، ولكنها لم تكن تعجبه عندما يجدها. كانت وكالة المخابرات المركزية على وشك تقديم المساعدة السرية إلى ادين باستورا وهو سانديني سابق وزعيم سيء السمعة انفصل عن الساندينيين بعد الثورة. وكان اثمان يشبهه بحيوان الباراكودا وهو مثل بشير الجميل في لبنان. السلفادور كانت شمال نيكاراغوا. وكل ما يجب فعله كان النظر إلى الخريطة لنرى أن باستورا يعمل على مسافة أكثر من ثلاثمائة ميل من أي طريق محتملة لنقل السلاح إلى السلفادور. تلك هي الحقيقة البسيطة والواضحة. والادعاءات بأن هدف عملية نيكاراغوا كان منع وصول الأسلحة إلى السلفادور كانت كاذبة. وأدرك اثمان أن مساعدة باستورا كانت تهدف إلى الإطاحة بالساندينيين. إن تعليقات كايسي غير العادلة والمتشابكة حول النظام النيكاراغوي ألمحت لاثمان بكل ما احتاج لمعرفته.

كلما تطلع اثمان إلى المستقبل قلت ثقته. طرح أسئلة كثيرة وقرأ ملفات كثيرة، وسأل عن الأسباب التي جعلت برنامج نيكاراغوا سرياً، واستنتج أن الإدارة لم تعلن عنه لأنها يمكن أن تدفع الثمن السياسي المحلي. واقتنع اثمان بأن السرية كانت لتجنب الجدل الشعبي حول القضية. ورأى أنه لو أعلن عن العملية لما اهتم بها أحد!. من الواضح أن ريغان وكايسي يقومان بأعمال خفية وعندما تنكشف هذه الأعمال لا يتحملان تبعاتها. وزارة الخارجية والبيت الأبيض وكايسي أرادوا أكثر من ذلك، لأن العمل الدبلوماسي كان طويلاً، أما العمل الخفي فقد بدا للوهلة الأولى أرخص وأكثر نجاحاً. اعتبر اثمان أن هذا تفكير ساذج. لم يكن اثمان

معجباً بعناصر مديرية العمليات. وبالعودة إلى عام ١٩٦٥ عندما كان مساعداً للملحق البحري في استوكهولم، فقد كان له مصدر قوي وممتاز يؤمن له معلومات عسكرية هامة حول بلدان أخرى. حاولت محطة وكالة المخابرات المركزية الصغيرة والمتعجرفة أن تسرق مصدره ولما فشلت حاولت إحراق هذا المصدر وذلك بتسريب معلومات للسلطات السويدية تقول إن عندهم فماً ثرثاراً. لم ينس اثمان ذلك أبداً.

تساءل اثمان متى نفذ أي من الخطط السرية شبه العسكرية لمديرية العمليات؟ أبداً، في نظر اثمان. وحتى إذا نُفِّذ فإن الحكومة الجديدة المدعومة من الولايات المتحدة في البلد الذي تنفذ فيه العملية يمكن أن تتحول بسرعة إلى أسوأ من الحكومة السابقة، وربما لن تستطيع الحكم أو استلام السلطة. بدأ تنفيذ بعض العمليات الخفية في أفغانستان بعد الغزو السوڤياتي مما يجعل الروس يدفعون الثمن. يمكن للأعمال الخفية في أفغانستان أن تواجه بفعالية الحملات الإعلامية السوڤياتية.

كان اثمان قلقاً حول السرية التي تهيمن على أعمال جمع المعلومات، وهي عمليات الجمع الحساسة، آلات تسجيل المكالمات الهاتفية وآلات الاستماع في الغرف، وتمّ توسيع نطاق العمل بهذه المعدات. وهذا الجمع التقني السري للمعلومات له إغراءاته لأنّه يمكن أن يزود البيت الأبيض بضربات استخبارية كالمحادثات الشفهية لرئيس وزراء دولة أجنبية. فوجئ اثمان بالتركيز على هذه العمليات، وبأنّه لم يؤخذ خطر التعرض والانكشاف بعين الاعتبار.

إنَّ حياة بعض المعدات تتراوح بين ١٨ شهراً وسنتين، ويمكن اكتشاف بعض الآلات الصغيرة، ويمكن أن ينتهي مفعول بعض البطاريات الصغيرة، ويمكن أن تتعرض للأعطال. لقد كانت العمليات غير السرية، أي صور الأقمار الاصطناعية وجمع إشارات الراديو وحل شيفرة الرسائل، التي لا تحتاج إلى استعمال آلات صغيرة جداً، أفضل وأصدق وأقل تعرضاً. هذه الطرق المنهجية لا تتوافق مع طبيعة كايسي الذي كان متسرعاً، ونافد الصبر، ويريد دائماً أن يلفت الأنظار في البيت الأبيض.

في عيد الميلاد الفائت سأل ابن اثمان الكبير والده المرهق والمتوتر: «ما نوعية هذه الحياة»؟ وبقي هذا السؤال يرن في أذنه.

غادر اثمان إلى هاواي لمدة أسبوعين للراحة. وبعد حوالى عشرة أيام عاد إلى لانغلي وأقحم نفسه عمداً مع كايسي وكلاريدج، وكانا مشغولين ببناء جيش الكونترا، وطرح اثمان بعض الأسئلة: إلى أين يذهب الكونترا؟ وإلى أين تتجه وكالة المخابرات المركزية؟ والإدارة؟ هل هناك خطة؟ هل نعلم من هم هؤلاء الناس؟ إنَّهم لا يقاتلون ليخلصوا السلفادور بل يريدون السلطة أليس كذلك؟ وهذا ما يزيد من مشكلات المذكرة التي سمحت بهذا البرنامج. هل أصبحت الوكالة على شفير الهاوية؟

لم يجب كايسي وكلاريدج ولم تعجبها الأسئلة. هذه هي سياسة الإدارة. هذا ما أراده رونالد ريغان. كان كايسي متأكداً من أنّه يقف على أرض صلبة. وبعد نصف ساعة تيبّس انمان وكاد يحترق في داخله. لم يُصغِ كايسي وكلاريدج وكانا غير مباليين. لقد كان انمان خارجياً بالنسبة إليهما. كان حاجزاً.

وجد كايسي أنَّ انمان لامع ولكنه هش، وهو صبي قلق على صورته ولم يرغب بالمخاطرة بها أو بصورة الوكالة لإنجاز عمل صعب وقلق جداً من الأعمال الخفية. وأدرك كايسي أنّه من الأفضل أن يكون لديه نائب مدير أقل اهتماماً بقصاصات الورق!

بقي أمام انمان شكل تقديم الاستقالة فقط. في ٢٢ آذار/مارس كتب رسالة من ثلاثة مقاطع إلى الرئيس ريغان يذكره فيها بأنّه قبل طلبه السنة الفائتة ليعمل نائباً لمدير المخابرات المركزية وجاء في الرسالة: «لهذا سأكون ممنوناً إذا قبلت استقالتي». وقال انمان مشيداً بجهود رونالد ريغان لإعادة بناء وكالات الاستخبارات: «أنت والمدير كايسي لكما أحر تمنياتي بالنجاح الدائم». وقبل تسليم الرسالة إلى كايسي أرسل نسخاً عنها إلى بوش ووينبرغر وكلارك مؤكداً أنّها نهائية. وانزعج كايسي وقلق من تسرب أنباء الاستقالة وظروفها، لكنه بقي هادئاً، وبدأ يفتش عن البديل.

يوم الأربعاء في ٢١ نيسان/أبريل وبعد ستة أسابيع من نشر صحيفة واشنطن بوست الخبر حول العملية السرية في نيكاراغوا توجهتُ(*) لمقابلة غولدووتر لأعلم منه ما إذا كانت وكالة المخابرات المركزية قد أخبرته عن العملية قبل حصولها. وكانت مكاتب الشيوخ تكتظ بالحاضرين. كانت هناك صور تذكارية وأوسمة معلقة على الجدران وجميع إشارات الحزب. وكان مكتب غولدووتر مرتباً، ولم يكن هناك، حتى قلم رصاص في غير مكانه، والمظهر الوحيد الملفت كان كومة من معدات هواة اللاسلكي على طاولة وراء مكتبه. قال غولدووتر وهو يعني برادلي: عندما اتصل بي «بن» حول هذا الشيء المتعلق بأميركا الوسطى، ولم يتكلم أكثر من عشر كلمات، علمت معرفته بالموضوع وقلت له «لماذا لا تتصل ببيل كايسي؟» وأضاف «لقد كنت أبكم معه». لقد أضلنا كايسي ولكنه لم يكذب، وهذا هو المكر والخداع. ثم قال غولدووتر: «اعتقدت بأنَّ الشعب الأميركي يجب أن يطلع على ذلك إلاَّ أني في الحقيقة ذهلت عندما أعلن عن العملية».

ثمّ شرح نظريته في الأعمال الخفية لوكالة المخابرات المركزية. كان ذلك جيداً. لا أحد يفاجأ ولا صراخ في الشوارع. كانت العملية الخفية أهون الشرين لأنها تجنب إرسال وحدات عسكرية أميركية. وأضاف «يجب أن نعلن عن الكثير من هذه الأعمال، علينا الإعلان عن ٧٥٪ من الإيجازات التي نسمعها حول الاستخبارات» نحن لا نتآمر للإطاحة بالحكومات.

(*) المؤلف وود ورد.

يمكن أن نسبب بعض المشاكل الاقتصادية ولكننا لا نطيح أبداً بالحكومات».

سألت: هل كانت الاستخبارات حول الاتحاد السوفياتي جيدة؟

قال غولدووتر: «لا نملك أي عين هناك، علمت أنّه منذ اثنتي عشرة سنة كان لنا خمس مجموعات من العيون تعمل لصالحنا، ثمّ قال بثقة واضحة: «لنا الآن أفضل استخبارات الكترونية في العالم ويمكنها العمل إلى مدى بعيد».

سألت: ماذا عن الأقمار الاصطناعية؟

أجاب: لقد طالبت بنشر هذه الصور (أي صور الأقمار الاصطناعية) ولكنهم لم يوافقوا، لأنّها تظهر واضحة في المجلات، وقد يستفيد منها الروس. وأوضح أنّ الروس قد يكونون قادرين على حساب إمكانياتنا بدقة. ثمّ أضاف غولدووتر وهو يحني ظهره ويخفض صوته: «. . لم تعد الصور مهمة ولدينا أشياء جديدة. . .» توقف قليلاً ثمّ تابع «لا أستطيع أن أتكلم عنها أبداً. إنّها شبحية. وأنا أرغب أن نقوم معاً برحلة ذات ليلة. إنّها ممتعة، سترى ذلك من خلال تكنولوجيا متطورة للأشعة تحت الحمراء أو الأشعة الكهراطيسية أو الرادارات المتقدمة». وبدا واضحاً أنّ الولايات المتحدة تملك شيئاً أفضل من الصور.

ثمّ سألته ماذا عن كايسي؟

قال: «رجل جيد، شريف، وجاسوس حقيقي، عمل في مكتب الخدمات الاستراتيجية، وصبي حقيقي مع. . .» ثمّ رفع يديه عالياً كأنّه يريد أن يضرب بسكين وهمية على الطاولة وقال: «خنجر» ثم ابتسم. وتابع وهو يهز رأسه: «لكن نحن نقوم بذلك العمل بطريقة مختلفة»، وأضاف إنّ مشكلة كايسي هي في كونه غير صريح «وعندما أريد أن أعرف ماذا يجري كنت أتصل باتمان»، ثمّ توقف وتابع، «أنت تعلم أننا سنخسر الأميرال اتمان».

قلت: لا يوجد أي إشاعة حول هذا الموضوع. هل هذا نهائي؟ هل سيرحل اتمان؟

أجاب غولدووتر: نعم، وأوضح أنّه حاول أن يمنع ذلك دون نتيجة وأنهم يبحثون عن البديل.

سرب أحد مساعدي غولدووتر للبيت الأبيض أنّ غولدووتر هو الذي أفشى قصة اتمان. وقبل انتهاء ذلك النهار أعلن البيت الأبيض استقالة اتمان، وأصدر بياناً شكلياً بالموضوع مطبوعاً على الآلة الكاتبة.

بعد يومين صرح السناتور ريتشارد لوغار وهو جمهوري محافظ من انديانا وعضو في لجنة الاستخبارات بأنّه يريد أن يرسل بعض الإشارات العلنية إلى البيت الأبيض حول استبدال اتمان. كان لوغار صديقاً لاتمان، عملا معاً كضابطي استخبارات في أواخر الخمسينات . قال إذا كان هذا يعني مجلس الشيوخ فإنّ اتمان هو رجلنا. وستتوقف اللجنة عن العمل إذا لم يعين بديل محترف، وأضاف: «إنّ بيل كايسي هو أميركي قادر واتخذ قرارات جيدة جداً»، ثمّ هاجمه قائلاً: «هناك تعقيدات في كايسي تمنعنا من معرفة ما يجري»

«ولقد صوتنا لكايسي وانمان كثنائي لا ينفصل، كايسي لأنه يتمتع بثقة الرئيس وانمان لأنّه يعرف ما يجري».

وكان كايسي يدرك أنَّ مدير المخابرات المركزية هو كبش الفداء، وتوقع أن يواجه اعتراضات من الديموقراطيين والليبيراليين الذين يشككون بعمل الاستخبارات. لكنَّ لوغار كان رفيقاً في الحزب الجمهوري وكان لطيفاً بشكل عام، وشك كايسي بانمان.

تجنب انمان في مقابلاته مع وسائل الإعلام الحديث عن القضايا التي اختلف فيها مع كايسي والإدارة وشعر بأنّه على حق. لكنها كانت قرارات سياسية اتخذها الرئيس ومدير المخابرات المركزية. لن يوجه أي اتهامات علنية ولن يظهر عدم ولائه. قال ببساطة إنّه خسر حيويته من أجل معركة بيروقراطية وإنَّ علاقاته مع كايسي كانت جيدة ولم تكن وثيقة.

وأثناء الوداع سأله كايسي لماذا لم يكن قريباً ووثيقاً ولماذا قال ذلك للصحافة؟

أشار انمان إلى أنَّ كايسي كان يجامله في أحاديثه! وبالنسْبة إليه كانت الحقيقة بسيطة وسهلة: لم يكونا قريبين واختلفا حول الكثير، حول الاستخبارات وحول القضايا الدولية.

حصل انمان على وظيفة رئيس فريق أبحاث في اتحاد شركة ميكرو الكترونيكس وتكنولوجيا الكومبيوتر، التي كانت تُعِد بالاشتراك مع عشر مؤسسات في تكساس مشروعاً لتطوير السوبر كومبيوتر الذي يصبح قريباً من التفكير البشري والذي يوحد البيانات ويدمجها ويحل الشيفرة. وكان تيد رالستون الركن السابق للجنة استخبارات مجلس الشيوخ من ضمن موظفي هذه الشركة!

ولم يتكلم كايسي وانمان مع بعضهما بعد ذلك أبداً.

أعطى البيت الأبيض لكايسي مهلة ٤٨ ساعة لاقتراح اسم نائب مدير مقبول من لجنة مجلس الشيوخ. والاختيار الوحيد كان جون مكماهون وهو مدير العمليات السابق في عهد تورنر والرئيس السابق للجانب التحليلي، وهو الآن المدير التنفيذي للوكالة وتقنياً الرجل رقم ٣. إنّه لا يملك المبادرة ليكون مدير عمليات ناجحاً وفعالاً، وكان يعمل على الحد الفاصل بين الاستقلال في الرأي والولاء للقيادة، ويستطيع أن يثير جلبة لا داعي لها! ولكنه يعلم كيف يتلقى الأوامر، التي كان ينفذها دون تذمر أو استياء. لم يكن خادماً متزلفاً مثل هوغل أو خارجياً مثل انمان. كان ذا شكوكٍ، لكنه لم يعترض على الأعمال الخفية.

وكان مكماهون يعتقد بأنَّ على الوكالة أن تعرف «الحقيقة على الأرض»، وذلك إلى جانب الاستخبارات التقنية والمصادر البشرية، وهذا لا يعني العمل في نقاط بعيدة ومنعزلة، بل يعني الخروج إلى طوابير الناس والكنائس المكتظة وراء الستار الحديدي.

قال أحد الرجال السريين لوكالة المخابرات المركزية، والذي تحول إلى روائي حول الجواسيس: إنَّ الوكالة تحوي نخبة من ألمع الناس الذي يمكنهم أن يجتمعوا في منظمة، وهم أناس فهموا جميع البلاد إلاّ بلدهم.

لم يكن هناك طريقة لمعرفة الحقيقة أفضل من إجراء جولات في الكونغرس. وبما أنّه يجب إقرار تعيين نائب مدير المخابرات المركزية في مجلس الشيوخ، دعا مكماهون عدداً من الشيوخ إلى الاجتماع في مقر لجنة استخبارات مجلس الشيوخ. وأثناء حديثه معهم وجد أنّ كايسي هو دائماً الموضوع الرئيسي. كانت الثقة معدومة عند الجميع. وتدرج ذلك من الشيوخ الذين أرادوا أن يتأكدوا من أنّ مكماهون جاهز دائماً للإجابة عن الأسئلة لشيوخ مثل بات ليهي، الذي أراد تعهداً محفوراً على الصخر بأنّ مكماهون سيصبح نظام الإنذار المبكر لهم.

أعطى مكماهون الوعود المطلوبة وفوجئ بأنّ عدداً من الشيوخ حمل على كايسي. كان مكماهون يعتقد بأنّ كايسي كان بارعاً بعدم الاكتراث بالشيوخ، ولكنهم أحسوا بذلك. وكان أكثر من نصف الذين قابلهم، وعددهم حوالى خمسة عشر في حالة غضبٍ شديد. قال مكماهون لكايسي فيما بعد: «بيل يجب أن تبذل بعض الجهد في الكونغرس».

«أوكي، نعم» وافق كايسي.

في ذلك الربيع اهتم كايسي بمنطقة أخرى هي جزر الفوكلاند وهي مستعمرة تابعة للتاج البريطاني، وكانت القوات الأرجنتينية قد اجتاحت هذه الجزر واحتلتها، ونشبت أزمة بين بريطانيا والأرجنتين. حاولت الإدارة الأميركية في البدء أن تقف على الحياد ثمّ أعلنت تأييدها وانحيازها إلى الحليف القديم بريطانيا. ووردت تقارير صحافية تفيد بأنّ البريطانيين استفادوا من صور الأقمار الاصطناعية. وفي الحقيقة أنّ منطقة جنوب المحيط الأطلسي لم تكن مغطاة بالأقمار الاصطناعية، وفيما بعد أطلقت الولايات المتحدة قمراً اصطناعياً لتغطية المنطقة وتبعها الاتحاد السوفياتي الذي أطلق قمرين.

كانت هناك مصادر بشرية مقربة من المجلس العسكري الحاكم في بيونيس ايريس تعمل لصالح الاستخبارات الأميركية. لقد خدع الأرجنتينيون أنفسهم عندما ظنوا أن الولايات المتحدة سوف تلتزم الحياد في هذا الصراع، وهكذا أمّن الضباط الأرجنتينيون والمسؤولون الرسميون معلومات غزيرة لمحطة وكالة المخابرات المركزية وللملحق العسكري الأميركي في بيونيس ايريس والذي أرسل نسخة عن معلوماته إلى لانغلي وإلى وزارة الخارجية والبيت الأبيض. تأكد كايسي من أن التنسيق كان جارياً بين وكالة المخابرات المركزية ووكالات الاستخبارات العسكرية، وكانت المعلومات التي تجمع تستثمر على الفور. وبما أن سياسة الرئيس كانت منحازة إلى بريطانيا، أُعطيت المعلومات إلى ذلك الحليف الذي يخوض حرباً حقيقية. وكان قد تعلق بقاء رئيسة وزراء بريطانيا تاتشر في الحكم بنتيجة الحرب.

ساد التخوف من أن انحياز الولايات المتحدة إلى بريطانيا في حرب الفوكلاند يمكن أن يؤدي إلى تخلي الأرجنتين عن عملية نيكاراغوا، وبذلك تسقط ورقة التوت التي يتغطى بها مشروع وكالة المخابرات المركزية الأميركية. ولكن ذلك كان أفضل برأي كايسي لأنه يطلق يد كلاريدج في بناء جيش الكونترا. وعندما بدأ كلاريدج عمله ازداد إعجاب كايسي به فهو

لا ينسى التفاصيل الصغيرة جداً ولا يقف أمام العقبات الكبيرة.

يوم الاربعاء في ٢٦ أيار/ مايو ١٩٨٢ الساعة ١٠،٣٠ مثل مكماهون أمام لجنة استخبارات مجلس الشيوخ في جلسة استماع سرية من أجل تثبيته. قال في شهادته إنه كان من دواعي سروره أن يرى لجنة الكونغرس تراقب عمل الوكالة. وهذه المراقبة فرضت الانضباط على وكالة المخابرات المركزية. لم يشأ مكماهون أن تصبح الاستخبارات مشروعاً مظلماً غامضاً ينفصل عن العملية السياسية. وفي تقويم غير عادي قال إن اللجان كانت تحميه: «أنا كشخص أشعر بالارتياح عندما أمثل أمام لجان المراقبة في الكونغرس، فبذلك يشاركنا ممثلو الشعب الأميركي في تنظيم برامجنا ومخططاتنا. إن اعتبار الكونغرس شريكاً فاعلاً في هذه البرامج هو حماية لي كفرد وحماية للمؤسسات».

أوضح موينهان أن اللجنة أيضاً تحتاج إلى حماية: «يجب أن تصدق كل ما تقوله لنا. ليس لدينا مصادر مستقلة للمعلومات. علينا أن نثق بك. إذا تبين أنك أعطيت معلومات خاطئة إلى اللجنة، أي إذا أحيطت اللجنة بمعلومات خاطئة أو مضللة، فإننا سنعتبر ذلك مسألة شرف شخصي ومسؤولية مهنية وعليك أن تخبر اللجنة بما يحدث صراحةً».

أجاب مكماهون «نعم ياسيدي» وأضاف «لا أستطيع أن أتصور أحداً في المجموعة الاستخبارية في مركز مسؤولية يحاول أن يضلل الكونغرس أو يشوه الحقائق والأحداث».

قال موينهان وهو يحدق بمكماهون: «يجب أن تتخيل دائماً وتحتمل حدوث شيء عاطل».

أجاب مكماهون: «أنا أستند إلى وضع سليم أيها السناتور». وسأل بعض الشيوخ بشكل مباشر عن مدى إخلاص كايسي وطلبوا من مكماهون أن يخون رئيسه ويقر بأن كايسي كان يضلل. أجاب مكماهون: «لا أستطيع أن أتخيل أي شخص أعلى مني رتبة يفعل ذلك». عندها انتفض موينهان قائلاً: «هناك نقص في التخيل مرة ثانية» وأصر على مكماهون أن يتعامل مع اسوأ الاحتمالات.

أجاب مكماهون: «سوف أنفذ ذلك أيها السناتور».

في اليوم التالي ظهر مكماهون أمام اللجنة في جلسة علنية. قال موينهان: «إذا أراد أحد أن يعرف ماذا يعني احترافك للاستخبارات في هذا البلد يجد الجواب في إفادة السيد مكماهون حول الكشف المالي الشخصي التي تتألف من ثلاثين صفحة بيضاء»

وتعالى الضحك في القاعة.

قال مكماهون: «في النهاية تجد بقايا من علب التنك الفارغة».

وتعالى مزيد من الضحك.

كان راتب مكماهون الصافي ضئيلاً عام ١٩٨١ وهو ٥٢٧٤٩ دولار أما المداخيل الإضافية فكانت ٦٥٨ دولار كفائدة من مبلغ ١٠ آلاف دولار في بنك وكالة المخابرات

المركزية، ومنزله في الضواحي قدر بحوالى ١٧٠ ألف دولار منها حوالى ٣٠ ألف دولار رهن لأصهاره.

كان السناتور مالكولم والوب الجمهوري المحافظ والمتشدد من ولاية ويومينغ مقتنعاً بأن محترفي الوكالة مثل مكماهون يهتمون بالحفاظ على سمعة الوكالة أكثر من اهتمامهم بتنفيذ توجيهات ريغان. واعتقد والوب بأن الوكالة هي التي كانت تقود كايسي. وحتى في الأعمال الخفية وهي من اختصاص كايسي لم يتحقق أي مكسب هام. لم يرغب أحد في وضع أموال البلد ورجالها وهيبتها على المحك من أجل أشياء ربما لا تكون حاسمة. ولم يعط العملاء في الخارج الإمكانيات الالكترونية والصلاحيات التي يحتاجون إليها. وكان على رؤساء محطات الوكالة في الخارج الحصول على موافقة القيادة قبل تركيز أية معدات الكترونية صغيرة أو أية معدات تجسس أخرى. وهذا ما أدى إلى حذر غير ضروري. لقد قام رجال الاستخبارات بأعمال تهدف إلى إظهار أنفسهم، وأنفقوا مثلاً ملايين الدولارات لجمع إشاعات ممتعة ولا قيمة لها عن الحياة الخاصة لبعض زعماء العالم وتحركاتهم أو صور للوجوه وللسيارات وخلافها.

قال والوب إن وكالة المخابرات المركزية لم تكن في مستوى الأفكار الجديدة. واستغل الفرصة للتعبير عن سخطه، وحدق بسرعة نحو مكماهون وبدأ يطلق محتداً تعابير مثل: «محترفون» و«خيانة بيروقراطية تافهة» و «سياسة استخبارية دون أخطاء!».

جلس مكماهون وتلقى ذلك دون أي ردة فعل. وبدا واضحاً أنه مرشح غير يميني وغير يساري.

سئم غولدووتر من المفاجآت ولذلك كلف أربعة أعضاء من كبار الأركان بقراءة ملفات مكماهون الشخصية والأمنية. وأظهر الملف أن مكماهون نظيف. لم يكن قريباً من مؤامرات الاغتيال وتجارب المخدرات أو التجسس المحلي الذي انتشر في السبعينات. كان هناك مخالفة أمنية وحيدة، فقد وجدت خزانة مفتوحة في مكتبه. إنها كانت غلطة السكرتيرة التي أُنذرت بوقف تدرج راتبها إذا ارتكبت غلطةً أمنية ثانية. كان مكماهون المخلص والمدير دقيقاً.

هكذا رمى غولدووتر فقاقيع ناعمة على مكماهون، ثم تكلم السناتور بايدن ومدح اثمان، ثم تحول إلى كايسي وقال: «إن أحاديث السيد كايسي للبعض منا لم تكن وافية، ونحن لم نعتبرها أخباراً حقيقية». ثم ألقى بايدن خطاباً حول الحاجة إلى مكماهون ليكون مرشد اللجنة.

قال غولدووتر إن اثمان كان يتصل به عندما يشعر بأن كايسي قد أخطأ، وأضاف: «أظن أنه إذا حافظ نائب المدير الجديد على عادة الاميرال برفع جواربه عندما يقال شيء ما...»

وسمعت ضحكات كثيرة.

قال بايدن: «أو غيرها» وأضاف: «احنِ كرسيك إلى الوراء، لقد اعتاد على الانحناء إلى الوراء هكذا!».

قال مكماهون: «إذا كان عليّ أن أُعلق...» وأضاف «السيد الرئيس حضرة السناتور بايدن، أظن أنه عندما يسمع المدير أو يقرأ ما تقولون فإنه بالتأكيد سيتحرك لتهدئة مخاوفكم، وأظن أنه سيفعل ذلك شخصياً إذا أدلى بشهادة ما في المستقبل»

عندما اقرّت اللجنة تعيين مكماهون بالإجماع، وتبعها كذلك مجلس الشيوخ.

في آخر آذار/ مارس ١٩٨٢ أرسلت وكالة المخابرات المركزية فريقاً يمنياً مؤلفاً من ١٣ شخصاً إلى اليمن الجنوبية، وهي دولة في شبه الجزيرة العربية تقع تحت هيمنة السوفيات ونفوذهم، وذلك للقيام بأعمال تخريب، إلا أن سلطات اليمن الجنوبية ألقت القبض عليهم. وكانت واحدة من العمليات شبه العسكرية التي سمح بتنفيذها الرئيس كارتر. وكان التحضير لتنفيذها قد بدأ في عهد كارتر. وتحت التعذيب اعترف عناصر الفريق بأنهم تدربوا بإشراف وكالة المخابرات المركزية الأميركية. تعجب كايسي لماذا لم ينكروا دور وكالة المخابرات المركزية؟ أين كانت حيطة العملية؟ لقد ورد في الأوراق التحضيرية للعملية الخفية أنه من المفترض أن يتعامل عناصر الفريق مع وسطاء بحيث لا يشعر أحد بأن وكالة المخابرات المركزية متورطة. ولكن الطريقة الوحيدة لكسب ثقة المتطوعين اليمنيين كانت إطلاعهم على دور وكالة المخابرات المركزية.

وتم سحب فريق ثان من اليمنيين كان قد دخل إلى جنوب اليمن، وأوقفت العملية. أدان المدعون العامون في اليمن الجنوبية الثلاثة عشر جميعهم بإدخال المتفجرات بطريقة غير مشروعة لتفجير منشآت البترول وبعض الأهداف الحساسة. واعترف هؤلاء برعاية وكالة المخابرات المركزية لهم. وحكم على ثلاثة منهم بالسجن لمدة ١٥ سنة، وأعدم الآخرون.

وبالمقابل نجح أول عمل شبه عسكري لكايسي، وهو دعم حسين حبري في تشاد ففي ٧ حزيران/ يونيه سيطر حوالى ألفين من رجال حبري على نجامينا عاصمة تشاد وشكلوا حكومة مستقلة. وبهذا تقلص نفوذ القذافي في تشاد ومُرِّغ أنفه كما أراد هيغ وكايسي. وكسب الزعيم الليبي عداوة فرنسا، وحكومة مدعومة من الولايات المتحدة على حدوده الجنوبية في تشاد.

كان الجو مناسباً لكسب دعم البيت الأبيض لعملية دعم خفية محدودة للمقاومة المعادية للشيوعية في كمبوديا. وكانت المساعدات للمقاومة في أنغولا قد توقفت بحكم القانون. بينما كانت العمليات في نيكاراغوا وأفغانستان في طريقها إلى التنفيذ.

إن مجرد ذكر النشاط الخفي في جنوب شرقي آسيا يثير التحفظ في جميع أقسام الوكالة. لكن كايسي أصرّ على رأيه، واتهم الجميع بأنهم ينظرون إلى الوراء. قال كايسي إن سياسة

الإدارة يجب أن تكون متماسكة ويجب أن تشمل الجهود لدعم كل المناهضين للشيوعية في جميع أنحاء العالم. لقد دعم السوڤيات التخريب في العالم وبإمكان الولايات المتحدة أن تفعل أكثر. والمشكلة أن الخمير الحمر كانوا المعارضة الأساسية للنظام الشيوعي في كمبوديا الذي كان دمية تحركها ڤييتنام. وكان الخمير الحمر شيوعيين أيضاً، وهم مجموعة متوحشة سيئة السمعة. لقد قتل الخمير الحمر مليوناً، ويقال ثلاثة ملايين كمبودي في الفترة التي حكموا فيها البلاد من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٩. ولكن كان هناك جبهتان كمبوديتان معاديتان للشيوعية واقترح كايسي تمويلهما. وكانت للوكالة مصادر في الجيش التايلاندي يمكن من خلالها إرسال الأموال دون أن تصل إلى الخمير الحمر.

عارض ذلك عدد من مسؤولي وزارة الخارجية وقالوا إن الخمير الحمر اشتركوا في تحالف مع المجموعتين المضادتين للشيوعية، وكانوا مهيمنين على هذا التحالف، وإذا دعمنا الجبهتين، نكون بذلك قد دعمنا الخمير الحمر. وقرر كايسي أن يطلب مساعدة غير حاسمة. في خريف ١٩٨٢ وقع الرئيس ريغان مذكرة يسمح فيها بتقديم مساعدة إلى المعادين للشيوعية وذلك لغاية ٥ ملايين دولار، واشترط عدم تخصيص المال لشراء السلاح، إلا أن الأموال الأخرى المتوفرة خصصت لشراء المعدات العسكرية.

في ذلك الربيع اجتمع كايسي مع وزير الدفاع الإسرائيلي شارون الذي كان يقوم بزيارة إلى واشنطن. كان لبنان ومواقع منظمة التحرير الفلسطينية فيه، في عقل شارون. تحدث عن تحركات مضادة. إذا فعل لبنان هذا فإن إسرائيل ستفعل ذلك. إذا ضربت منظمة التحرير هنا فإن إسرائيل ستضرب هناك. لبنان، قال شارون بلهجة ساخرة وكأنما هذا البلد هو خيال جغرافي. «لا تتفاجأ. سنضع الأوراق على الطاولة. إذا لم تفعل شيئاً ما. نحن سنفعل. نحن لا نريد أن نتسامح».

فهم كايسي أن لبنان هو الدولة العربية الوحيدة التي تستطيع إسرائيل أن تبسط نفوذها فيه، وشعر بأن شارون يحاول خلق الظروف التي تبرر عملاً عسكرياً إسرائيلياً. قال شارون: الأشياء ستحدث في لبنان، ولن يكون هناك مجال للاختيار». وبدا أن شارون ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن قد تعرضا لتأثير السحر! وكان شارون يدعو إلى إطلاق النار!

رأى كايسي في شارون مفكراً ومنفذاً في آن واحد، ورجلاً لديه إحساس بالأخطار التي تهدد مصير بلاده.

في ٦ حزيران/يونيه ١٩٨٢ اجتاحت القوات الإسرائيلية لبنان وأعلنت عن نيتها في طرد إرهابيّي منظمة التحرير الفلسطينية إلى خارج جنوب لبنان. وأعلنت في مجال تبرير العملية أنّها رد على محاولة اغتيال سفيرها في لندن قبل ثلاثة أيام، وأطلقت على اجتياحها اسم «عملية سلامة الجليل».

سرعان ما أدرك البريطانيون أنَّ هذا السبب كان كاذباً، لأنَّ منفذي عملية السفير الإسرائيلي في لندن كانوا تابعين لجناح «أبو نضال» الذي انشق عن منظمة التحرير الفلسطينية وكان في حالة حرب مع التيار الرئيسي للمنظمة المتمركز في لبنان. كان الإسرائيليون يضربون الفلسطينيين الذين لا ذنب لهم، ولكن من وجهة نظر شارون لم يكن هناك أي فرق بين فلسطيني وآخر. وخلال أيام وصلت قوات جيش الدفاع الإسرائيلي إلى ضواحي بيروت. ورسم تحليل لوكالة المخابرات المركزية صورة لفرصة عظيمة ولخطر كبير.

دعا كايسي إلى اجتماع في مكتبه. وكان أحد المواضيع المتداولة هو ما إذا كانت إسرائيل تستعمل الأسلحة الأميركية. وعبَّر عدد من المجتمعين عن قلقهم من أن تبدو الولايات المتحدة شريكاً في الجريمة. وتخوف البعض من أن يطرح الكونغرس أسئلة حول ذلك.

قال كايسي «أنا لا أكترث لذلك» الوضع مائع ويمكن أن يحدث أي شيء والمسألة الأساسية هو كيف نستفيد مما يحدث من أجل مصلحتنا القومية. هذا ما أريد معرفته.

كان رجل وكالة المخابرات المركزية وقائد ميليشيا الكتائب بشير الجميل يلعب دوراً مهماً ومتزايداً في لبنان. وخلال السنوات الماضية بنى بشير علاقة وثيقة مع شارون والموساد الإسرائيلي. ولعبت وكالة المخابرات المركزية دور منظم المباريات ووضعت المسيحيين والإسرائيليين مع بعضهم البعض وأمنت لهم الاتّصال ببعضهم وجعلت من بشير شريكاً هاماً للموساد ولوكالة المخابرات المركزية.

كانت وكالة المخابرات المركزية منحازة إلى جانب المسيحيين ضد المسلمين في لبنان ولكنَّ عناصر الوكالة القدامى الذين خدموا سابقاً في لبنان كانوا يعلمون أنَّ المسيحيين وخاصة بشير وكتائبه متوحشون. وكانت هذه العلاقة خطرة.

كان هناك مؤشرات إلى أنَّ بشير كان يطمح للرئاسة. كان قد تخلص من منافسيه في الصف المسيحي، وأعطت علاقاته الحسنة مع الغزاة الإسرائيليين دعماً قوياً له. ونظرت العناصر المؤيدة لإسرائيل في لبنان إلى بشير على أنّه ضوء جديد. أما العناصر المعادية لإسرائيل (وهم المسلمون واليساريون الدروز بقيادة وليد جنبلاط) فقد اعتبروا أنَّ بشير هو الشخص الوحيد القادر على سحب الإسرائيليين من لبنان وهكذا أصبح بشير نقطة التقاء الجميع.

وافق كايسي على خطة لوكالة المخابرات المركزية لتمتين علاقاتها الرسمية ببشير الذي كان من الواضح أن لديه أشياء أهم من العمل لصالح وكالة المخابرات المركزية.

إنَّ انكشاف أمر بشير وتعرضه يمكن أن يهدد حياته السياسية إن لم يكن حياته بالذات، وخصوصاً بعدما سلطت عليه الأضواء. وكانت العلاقة مع وكالة المخابرات

المركزية سراً يتوجب كتمانه والمحافظة عليه، وقد اتخذت جميع الإجراءات لذلك ولكن لم يكن هناك أيّ ضمان.

في ٢٣ آب/أغسطس، وبعد شهرين من الاجتياح الإسرائيلي، انتخب بشير رئيساً للجمهورية اللبنانية، واستعد لتسلم مسؤولياته في الشهر اللاحق. وشعر القليلون الذين كانوا يعرفون العلاقة الوطيدة بين بشير ووكالة المخابرات المركزية بمزيج من الفرح والرعب. لبنان بلد لا يوجد فيه أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون. الأشياء الكثيرة التي جعلت من بشير الزعيم المحبوب تركت له أعداء كثيرين. كان المسلمون قد شعروا بالقوة بعد ظهور آية الله الخميني في إيران، ومنظمة التحرير الفلسطينية الغنية بأموالها بقي لها وجود في لبنان على الرغم من إجلاء ١١ ألف من مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية ومن ضمنهم رئيس المنظمة ياسر عرفات إلى خارج لبنان.

إنّ ربط لبنان بحلف استراتيجي مع أميركا وإسرائيل يمكن أن يقلب موازين القوى في المنطقة. وسوريا القوية إلى الشمال والشرق احتلت وادي البقاع في لبنان منذ العام ١٩٧٦، وفي الحقيقة كانت تعتبر لبنان جزءاً من سوريا الكبرى. ولم يكن حلفاء سوريا السوڤيات سعيدين بما حصل.

بمواجهة هذا الحشد من الأعداء الداخليين والخارجيين، أرسل بشير رسالة إلى وكالة المخابرات المركزية يطلب فيها تأمين الحماية السرية له، وتأمين مساعدات في مجال الاستخبارات. شعر كايسي بأنّ وكالة المخابرات المركزية تعترض على مساعدة بشير، وبأنّه لا يمكن تقديم المساعدة علناً، والمطلوب هو عملية سرية واسعة النطاق. ولكي تكون هذه العملية فعالة يجب أن تشترك وكالة المخابرات المركزية مع المخابرات اللبنانية في التنفيذ كما يجب تأمين الأسلحة المعقدة ومعدات المراقبة الالكترونية ومراقبة الاتصالات. وأقر الرئيس ريغان مذكرة تسمح بصرف مبلغ فوري بحوالى ٦٠٠ ألف دولار، وكان من المقرر أن يرتفع المبلغ إلى مليوني دولار سنوياً ومن ثمّ إلى ٤ ملايين دولار.

بعد ظهر يوم ١٤ أيلول/سبتمبر وقبل تسعة أيام من استلامه السلطة كان بشير الجميل يتحدث في أحد مكاتب حزب الكتائب في بيروت الشرقية، وكان من المقرر أن يلتقي في الساعة الخامسة مجموعة من ضباط الاستخبارات الإسرائيلية الذين يزورون بيروت، ولكن عند الساعة الرابعة والدقيقة العاشرة بعد الظهر انفجرت قنبلة أدت إلى انهيار البناء ومقتل بشير.

لم يعد لوكالة المخابرات المركزية مجال لتنفيذ برنامج المساعدات السرية ولم يظهر أي دليل على أنّ علاقات وكالة المخابرات المركزية مع بشير قد تسربت. وعلى الرغم من أنّ اغتياله كان كارثة لوكالة المخابرات المركزية فقد توقف دفع ملايين الدولارات التي كانت مقررة لعملية الأمن وألحقت بالاحتياط المالي للرئيس.

كان الاغتيال حلقة أولى في سلسلة أحداث مشؤومة. فخلال يومين سمحت القوات الإسرائيلية لوحدات من الكتائب بدخول مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في بيروت للانتقام. ومخيّما صبرا وشاتيلا أصبحا جزءاً من تاريخ المجازر. ووفقاً لإحصاءات المصادر الإسرائيلية كان هناك من ٧٠٠ إلى ٨٠٠ ضحية فلسطينية معظمهم من النساء والأطفال. صعق العالم المتمدن من أخبار المذابح وكذلك من صور جثث الأطفال الرُضّع والكبار، حتى الأحصنة والكلاب والقطط ذبحت، وتمّ قطع نهود النساء وقضبان الرجال. وقد حفر صليب مسيحي على جسد أحد الضحايا ومزقت أرحام النساء الحوامل وانتزعت الأجنة من بطونهن.

بعد أسبوعين تمركزت قوات مشاة البحرية الأميركية في موقع استراتيجي في ثكنة قرب مطار بيروت في مهمةٍ لحفظ السلام، ولم يكن لهم أي هدف سوى مساعدة لبنان ومراقبة انسحاب القوات الأجنبية.

بدأ الموساد وجهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية بتحقيق مشترك لمعرفة قتلة بشير الجميل. وتبين أنَّ واضع القنبلة هو حبيب الشرتوني البالغ من العمر ٢٦ عاماً، وكان أفراد عائلته أعضاء في الحزب السوري القومي وهو حزب منافس لحزب الكتائب وتبين من المعلومات أنَّ الشرتوني كان قد وضع صاعقاً الكترونياً بعيد المدى، وذلك من أجل تفجير القنبلة.

كان المسؤول عن الشرتوني ضابطاً في المخابرات السورية برتبة نقيب يدعى ناصيف، وقد أقنع الشرتوني بأنَّ القنبلة كانت مُعَدَّةً لتخويف بشير وليس لقتله. وبعد التدقيق في المعلومات مع أفضل عملاء الموساد السوريين وفي تقارير المراقبة والالتقاط الألكتروني، أكد الإسرائيليون أنَّ ناصيف يرتبط مباشرة بالعقيد محمد غانم الذي كان المسؤول عن الاستخبارات السورية في لبنان. كانت استخبارات الجيش والقوات الجوية السورية على علم مسبق بمخطط العملية، وكذلك كان رفعت الأسد شقيق الرئيس السوري حافظ الأسد الذي يترأس الأجهزة الأمنية السورية على علم بالقنبلة.

اعتقد الإسرائيليون بأنَّ الرئيس حافظ الأسد كان يمسك البلاد بقبضة قوية لدرجةٍ كان يعرف معها أنَّ هناك خطة في طريقها إلى التنفيذ. ولكن لم يكن هناك أي دليل مادي، وأظهرت تقارير الاستخبارات أنَّ اشتراك ضباط الاستخبارات السورية كان سرياً جداً.

اطلع كايسي على هذه التقارير التي وردت من الاستخبارات الإسرائيلية والتي كانت كافية ومقنعة. ولكنَّ من المهم ومن الضروري السؤال: من له مصلحة في موت بشير؟ من أراد لبناناً ضعيفاً؟ من تخوف من بناء علاقة قوية بين لبنان وإسرائيل؟ الجواب كان واضحاً: سوريا. وفي النهاية كان على كايسي أن يذعن لرغبة البيت الأبيض ووزارة الخارجية بعدم الإعلان عن الدور السوري.

كان الجنرال ساغي رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية يعلم أنَّ أي محاولة من

الولايات المتحدة لاستغلال المعلومات المتعلقة بالتورط السوري سيكون لها نتائج عكسيّة. وكان كايسي في شكٍ حول علاقة بلاده بميليشيا الكتائب، وأدرك أنَّ الولايات المتحدة قد وضعت القرد اللبناني على ظهرها! وأنَّ على الإدارة أن تتعامل مع سوريا لتحقيق أي تسوية للوضع في لبنان. يمكن أن يكون الاتهام دعاية قوية ولكنه بالتأكيد يمنع التعاون مع سوريا.

كان هذا فشلاً استخبارياً لكايسي. إنَّ علاقة وكالة المخابرات المركزية مع بشير، والقرار بوقفها، وطلبات بشير بالحماية، وقرار الإدارة بالموافقة على حمايته، وما تبع ذلك من اغتيال لبشير، كل ذلك كان بالفعل ورطة بل مأزقاً سرياً جداً. وبقي سرياً.

- ١١ -

تلقى كايسي تعليماً تقنياً على أجهزة المراقبة السرية جداً وصور الأقمار الاصطناعية وإشارات الاستخبارات وذلك خلال ثمانية عشر شهراً منذ تعيينه مديراً للمخابرات المركزية. وأصبح ملماً بالتكنولوجيا. ومع أنَّه لم يكن مأخوذاً بأهمية الاستخبارات التقنية إلاَّ أنَّه أدرك أنَّها تشكل قطعاً أساسية في الموزاييك الاستخباري!

وكان يمكن لعناصره أن يحصوا عدد الدبابات السوفياتية وذلك من خلال صور الأقمار الاصطناعية. وبعد تظهير الصور بشكل دقيق يمكن تحديد ما إذا كانت الدبابة تعمل بشكل طبيعي ودون أعطال. ويستطيع جهاز الإنذار المبكر أن يكشف أي تحرك للقوات السوفياتية أو أي برنامج أسلحة كبير الحجم. ويمكن للأقمار الاصطناعية أيضاً أن تراقب مشاريع البحث والتطوير في الاتحاد السوفياتي حيث يعمل عدد قليل من الأشخاص بعيداً عن المراكز السكانية أو القواعد العسكرية وبسرية مطلقة.

كان كايسي أمام قرار كبير حول أحد أكثر مشاريع البحث والتطوير أهمية في الأجهزة البالغة السرية والأهم في المجموعة الاستخبارية في الولايات المتحدة. واعتبر أنه أكبر جاسوس تكنولوجي في الثمانينات.

كان الاسم المشفر إنديغو Indigo واصبح الآن لاكروس Lacrosse وهو قمر اصطناعي يستعمل أكثر أجهزة الرادار تطوراً وتقدماً لتأمين العمل ليلاً ونهاراً وفي مختلف ظروف الطقس. ويعطي هذا القمر صوراً فوتوغرافية بواسطة الرادار وتحسين إشارات الرادار والكومبيوتر، ولم يعد الظلام ولا الغيوم حواجز في طريق عمله. كما أنه يحتمل تطوير جهاز، في المستقبل، يستطيع أن يرى ما وراء الأبنية!.

وكانت كلفة لاكروس أكثر من مليار دولار وهو مبلغ مذهل. وكانت هناك تكاليف كثيرة ومشاكل عديدة في مرحلة التطوير. وكانت شركة مارتن ماريتا هي المقاول الرئيسي وشركة جنرال الكتريك تقوم بالعمليات الأرضية واستثمار الإشارات بعد وصولها إلى المحطات الأرضية.

كانت هناك حاجة إلى مبلغ ٢٠٠ مليون دولار لإبقاء لاكروس حيّاً لعام ١٩٨٣، وطلبت شركة مارتن ماريتا المال بشكل فوري. يجب تأمين مئات الملايين من الدولارات وإلا

فإن المشروع سيموت. وكان كايسي يسمي هذه المشاريع المكلفة بالوحيدة لأنه لم يكن هناك حاجة إلا لبناء واحد فقط.

بالنسبة إلى بعض منتقدي كايسي الذين يظنون أن الأعمال الخفية كانت خاطئة فإن مبلغ الـ ٢٠٠ مليون دولار الذي يحتاجون إليه الآن يساوي كل ميزانية الأعمال الخفية. وكان المدير يقدم هذا المبلغ كدفعة أولى لبناء نظام قمر اصطناعي كان يأمل بألا يتسرب شيء عنه.

ومع أن السوفيات كان لديهم رادار يعطي صوراً، فقد اظهرت تقارير الاستخبارات أنهم لا يزالون متخلفين في مجال الكومبيوتر ولا يملكون التعقيدات التقنية اللازمة لإنتاج صور واضحة وبنوعية جيدة. هكذا يستطيع لاكروس أن يعطي الولايات المتحدة جانباً مميزاً من المعلومات.

كان كايسي قد حضر إيجازاً حول تاريخ أنظمة الأقمار الاصطناعية الأميركية. وكانت السنوات الاثنتا عشرة منذ العام ١٩٧١ مميزة، وذلك منذ أن أطلق القمر الاصطناعي المختص بالتجسس بيغ بيرد (الطائر العملاق) وتبلغ أبعاده ٥٥ قدماً والذي التقط صوراً هامة. وكان فيلم التصوير ينتزع من القمر ويستعاد إلى الأرض ثم يُظهَّر. وكان يغلف ضمن علب ذهبية صغيرة لتحميه من الاشعاعات المختلفة في الفضاء. لقد كانت العلب الذهبية المكومة في المخازن مثلاً على تكاليف برنامج الاقمار الاصطناعية.

في كانون الأول /ديسمبر ١٩٧٦ قبل وصول كارتر إلى الرئاسة أطلق أول قمر اصطناعي من طراز ك هـ ١١ وكان يصور ويرسل الصور بشكل إشارات تلفزيونية بنوعية جيدة. وكانت صور الاتحاد السوفياتي وخصوصاً صور الدبابات السوفياتية ترد بشكل فوري وتعطي وكالة المخابرات المركزية تفاصيل ما يجري في نفس اللحظة.

كان ك هـ ١١ يرسل الصور بشكل إشارات تلفزيونيّة أي بموجات لاسلكية، وكان يعتبر برنامج إشارات استخبارية. ولم يشتبه السوفيات بأن هذا القمر كان يلتقط الصور الفوتوغرافية! وهكذا فشلوا في تمويه وإخفاء المراكز العسكرية والمعدات وخصوصاً أبواب مستودعات الصواريخ التي كانت تبقى مفتوحة عندما كان يمر القمر الاصطناعي فوقها. وقد أفاد هذا الجهل السوفياتي الولايات المتحدة بشكل كبير.

بقي ك هـ ١١ وإمكانياته سراً لمدة سنة تقريباً ثم انكشف. فقد باع وليم كامبيلز وهو موظف صغير في وكالة المخابرات المركزية نسخة عن كتيِّب ك هـ ١١ السري جداً للسوفيات بمبلغ ٣٠٠٠ دولار! وعلمت وكالة المخابرات المركزية أن شيئاً ما قد حدث عندما بدأ السوفيات يغلقون أبواب مستودعات الصواريخ أثناء مرور ك هـ ١١ فوقها. وتم إلقاء القبض على كامبيلز وأدين بالتجسس وحكم عليه بالسجن لمدة ٤٠ عاماً، ولكن الضرر قد حصل.

كان هناك اعتراض واحد لكايسي على لاكروس. هذا النظام وتوابعه يعتبر وسيلة التحقق من اتفاقية نزع السلاح المقبلة إذا كان هناك من إتفاقية! لم يعارض كايسي نزع السلاح كلياً ولكنه شعر بأن التخفيف من عدد الأسلحة النووية كان رمزياً. ولنفترض أن الأسلحة النووية قد خففت إلى النصف أو إلى الثلث، فإن العالم يبقى معرضاً للتدمير الشامل بما تبقى من أسلحة. كان السوڤيات قوة عالمية عظمى بسبب آلتهم العسكرية الكبيرة وليس بسبب اقتصادهم أو ثقافتهم أو فطنة رجال أعمالهم؛ الآلة العسكرية وحدها جعلتهم قوة عظمى. وكان كايسي متأكداً أن السوفيات لا يمكن أن يتخلوا أبداً عما أعطاهم هذه المكانة تحت الشمس!

ولكن هذا لم يكن سبباً لوقف العمل بلاكروس. وقرر كايسي أن يمضي قدماً بـ ٢٠٠ مليون دولار في الميزانيّة المحالة إلى الكونغرس.

عارض رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس النواب بولاند مشروع لاكروس. هذه المشاكل والمصاعب بدت وكأنها لا تذلل. لقد أعطى مكتب الاستطلاع القومي الذي يدير أنظمة الاقمار الاصطناعية معلومات كاذبة حول الثمن وتحول ذلك إلى مسألة أخلاقية بالنسبة إلى بولاند.

لقد حشرت نفقات الاقمار الاصطناعية ونفقات ما يسمى وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي السوداء وبقية مشاريع الاستخبارات في موازنة وزارة الدفاع التي شعر الديموقراطي بولاند بوجوب خفضها. وكانت وزارة الدفاع معنية أيضاً بأن لاكروس كان يأخذ الأموال من طريق الانفاق العسكري. وهكذا خفّض مجلس النواب التمويل عن القسم السري من موازنة وزارة الدفاع لعام ١٩٨٣.

أما لجنة استخبارات مجلس الشيوخ التي يرئسها غولدووتر فقد وافقت على طلب الـ ٢٠٠ مليون دولار ولذلك اجتمع بولاند ونائبه كين روبنسون مع غولدووتر وموينهان. كان غولدووتر يشعر بأهمية لاكروس وقال إن خطة التجسس الـ يو٢ المشهورة والـ س ر ٧١ للاستطلاع الاستراتيجي الأقل شهرة قد كلفت الكثير ونتج عنها مشاكل ولكنها أضافت طرقاً جديدة لجمع المعلومات كيف يمكن لأحد أن يحسب تكاليف حرب استخبارية سرية تجري في السماء؟ نعم إنها مسؤولية الكونغرس. وكان الخطر في أن لا يكون هذا المشروع كافياً وفي احتمال التراجع إلى الوراء. وكان نظام التصوير بالرادار يعمل في الجناح التكتيكي ٢٦ في المانيا على الحدود بين الشرق والغرب حيث كانت المعلومات الفورية ترد من الطائرات وتصل إلى المحطات الأرضية. لم يكن لاكروس كاملاً ولكنه كان أكثر من وعد.

عرض غولدووتر رأيه قائلاً: «سوف نقوم به بأي ثمن» ثم توقف قليلاً وأضاف: «إنه يعمل لمنع نشوب الحرب». واستمر بولاند في معارضته إلا أنه خفف من حدتها. قال غولدووتر: «بما أن الخلاف لم يتم فسنترك ذلك للجان القوات المسلحة في الكونغرس».

في مجلس الشيوخ كانت لجنة غولدووتر تشترك مع لجنة القوات المسلحة في قضايا الاستخبارات ومن ضمنها الموازنة. أما في مجلس النواب فقد كانت لجنة بولاند مستقلة تقريباً. وانتبه غولدوتر إلى أن لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ التي يرئسها السناتور جون تادر وهو جمهوري من تكساس كانت تجتمع في القاعة الرئيسية وكان متأكداً من أن تاور كان سيطرح موضوع لاكروس. عندها دفع غولدووتر بكرسيه نحو الخلف ووقف وتوجه نحو القاعة الرئيسية وبدا أنه مصمم على إحالة الموضوع إلى جون تاور. أدرك بولاند أنه لا يستطيع أن يواجه مجلس الشيوخ بكامله وأنه إذا استعملت لجنة القوات المسلحة نفوذها، وهي التي تمسك بزمام ميزانية تزيد قيمتها عن ٢٠٠ مليار دولار، فإنها حتماً ستوافق على طلب رئيس اللجنة بمشروع قيمته ٢٠٠ مليون دولار أي واحد على ألف من جميع حبات الفستق!

وارتبك بولاند عندما بدأ غولدووتر بالسير المتمهل في ممشى الكونغرس، واندفع نحو زميله الديموقراطي موينهان وقال له: «حسناً ماذا علينا أن نفعل». إنه لم يلاحظ أن الديموقراطيين لم يوافقوا على هذا المشروع. وكانت المسافة إلى القاعة طويلة وشعر غولدووتر بألم في وركه. وبدا من الواضح أن على لجنتي الاستخبارات حلّ هذه المسألة لوحدهما.

ـ «أنا اتراجع» قال بولاند بشكل مفاجىء و «أوافق على تمويل» لمدة سنة واحدة.

ـ «قف ياغولدووتر!» صرخ أحد المساعدين الذي كان قد أرسل إلى القاعة وقال: «لقد انسحبوا». لقد نجحت المناورة التكتيكية. واعتقد غولدووتر أن أحد أكبر برامج الاستخبارات كان في طريقه للتنفيذ. توقف وابتسم ثم سار وهو تعب نحو الخلف.

استقبلت شركة مارتن مارينا النبأ بابتهاج كبير. وبعدما تم التغلب على مشاكل العمليات الأرضية أُعِدَّ لإطلاق لاكروس إلى الفضاء بواسطة مهمة فضائية مكوكية وهي أحدث إنجاز لوكالة الفضاء القومية الأميركية (ناسا).

وكانت هناك عملية نيكاراغوا الخفية التي لن يتراجع فيها بولاند. لم تعجبه هذه العملية، كذلك لم تعجب صديقه رئيس مجلس النواب أونيل.

كانت عمة أونيل من راهبات المارينول وتدعى أونيس تولان وتوفيت في السنة الماضية عن عمر يناهز ٩١ عاماً. وقد تأثر أونيل كثيراً براهبات ومبشري المارينول. وبعد رحيل عمته بقي أونيل على علاقة مراسلة مع راهبة من المارينول تدعى بيغي هيلي ومركزها في نيكاراغوا. رسمت له بيغي صورة عن نيكاراغوا الممزقة بالحرب الأهلية، أي الحرب التي شجعتها ودعمتها وقادتها وكالة المخابرات المركزية. كانت السياسة عالماً من الرمال المتحركة والولاء والقيم، ولكن أونيل كان يعتقد أن الراهبات والرهبان يقولون الحقيقة دائماً.

ـ «أنا أصدق كل كلمة» قال أونيل ذلك لأحد مساعديه بعد لقاء لمدة ساعتين مع الأخت هيلي. لقد أعادت الحرب الخفية إلى الأذهان صورة الأميركي البشع وصورة وكالة

المخابرات المركزية المكروهة. لقد أظهر الدعم الخفي للكونترا الولايات المتحدة في صورة المستعمر القديم والمستغل.

كان باستطاعة بولاند أن يتفهم هدف الإدارة بمنع نيكاراغوا من تصدير السلاح إلى السلفادور. ولكن من الواضح أن وكالة المخابرات المركزية كانت تدعم المخيمات في الهندوراس التي كانت تنطلق منها عناصر الكونترا إلى نيكاراغوا لتنفيذ مهمات الضرب والهرب! كان أونيل وبولاند قد اختارا بعناية أعضاء اللجنة المؤلفة من تسعة ديموقراطيين وخمسة جمهوريين بحيث كانت تمثل الثقل الاستراتيجي لمجلس النواب، وبالتالي فإن المجلس بكامل أعضائه، سيوافق حتماً على أي قرار يصدر عن هذه اللجنة. وكان بولاند يريد قطع التمويل عن عملية نيكاراغوا وأيده في ذلك أعضاء اللجنة. وكان غولدووتر يبحث عن حل وسط بين بولاند والتمويل الكامل.

في المؤتمر المشترك لمجلسي النواب والشيوخ في آب /اغسطس ١٩٨٢ تمت الموافقة على وضع نص يمنع وكالة المخابرات المركزية ووزارة الدفاع من تقديم المعدات العسكرية أو التدريب أو الدعم لكل من يعمل من أجل الإطاحة بحكومة نيكاراغوا.

وبقي هذا النص سرياً في وثيقة الصلاحية وتمت المصادقة عليه من قبل مجلس الشيوخ والنواب. ولكن في ١ تشرين الثاني/ نوفمبر قرأ بولاند مقالاً في النيوزويك حول: «الحرب السرية في أميركا: الهدف نيكاراغوا» وجاء في المقال أن عملية سرية قد توسعت إلى خطة كبيرة لإضعاف الحكومة الساندينية. أما كايسي الذي مثل أمام لجنة بولاند فقد صرح بأن الهدف الرئيسي من العملية هو وقف تدفق السلاح إلى السلفادور، وبأنه تم تحقيق بعض النجاح، وبأن عدد قوات الكونترا ارتفع إلى أربعة آلاف. وكان هذا ثمانية أضعاف العدد الأساسي (٥٠٠) الذي أعِدَّ السنة الفائتة. قال كايسي إن هذا النمو كان من جراء اتساع دائرة المعارضة والكره للساندينيين. أميركا الوسطى لا تريد الشيوعية ويعتبر هذا أوضح إعلان وأدق مقياس لذاك الشعور.

غضب بولاند. فقد حصلت تغيرات كثيرة أثناء مرور المذكرة من الرئيس ريغان إلى لانغلي ومن خلال كايسي وبدعم من الإدارة إلى العاملين السريين وإلى محطات وكالة المخابرات المركزية في أميركا الوسطى وأخيراً إلى أيدي قادة الكونترا ومقاتليهم. وقرر بولاند أن يتحرك في العلن. وفي ٨ كانون الأول/ديسمبر تلا في باحة المجلس النص الذي يمنع تمويل أي عمل يؤدي للإطاحة بالحكومة الساندينية. وسمي ذلك بسرعة «توصية بولاند». وتحولت هذه العملية السرية إلى عملية علنيّة بشكل رسمي.

ووافق مجلس النواب على التوصية بالإجماع أي ٤١١ ضد صفر.

بدأت تظهر على مونيهان علائم الاشياء. وأصبح ديوي كلاريدج جزءاً من المشكلة. وعندما حضر كلاريدج إلى لجنة استخبارات مجلس الشيوخ ليقدم إيجازاً في جلسة سرية،

وضع أمام الشيوخ خريطة نيكاراغوا. وشرح خطة لتقسيم نيكاراغوا إلى قسْمين. الجانب الشرقي والجانب الغربي، أي مثل مدينة نيويورك أو مدينة بيروت. وقال كلاريدج إنَّ الكونترا المدعومين من وكالة المخابرات المركزية يحتلون الجانب الشرقي ويبقى الساندينيون في العاصمة ماناغوا وفي الجانب الغربي. قال مونيهان إنَّ هذا ضرب من الجنون. وكانت وكالة المخابرات المركزية تستخدم خمسين رجلاً لإدارة هذه العملية، وتعتبر تقسيم البلاد إنجازاً عسكرياً رئيسياً.

تخيل مونيهان أداء أحد أبطال الصور المتحركة هيربلو لوك للمشهد. إنَّ منظر كلاريدج المتحمس وهو يلقي بأوهامه ونزواته داخل أبواب مغلقة وكأنَّه يقطع الخريطة بالمقص يدل على السهولة والبساطة التي يتم بها تقسيم البلاد. على أية حال، لقد كان يمثّل أمام مجموعة من المشرّعين النعسانين بسيكاراتهم الطويلة!

أحنى غولدووتر رأسه لمونيهان وقال بسخرية: «إني أراها مثل الحرب». وأومأ مونيهان برأسه وقال «ماذا يمكن أن نفعل»؟ لقد كان ذلك سرياً جداً.

في الأسابيع اللاحقة لم يسمع مونيهان المزيد وبدا أنَّ أحداً لم يقتنع بخطة كلاريدج ولكنَّ مونيهان فقد ثقته بهم جميعاً. كلاريدج عَكَسَ كايسي وكايسي عَكَسَ الإدارة، والعملية بدأت تتحول إلى لعنة.

في ٩ كانون الأول/ديسمبر أي بعد يوم واحد من إقرار اقتراح بولاند في مجلس النواب بالإجماع حضر كايسي إلى لجنة مجلس الشيوخ ليقول إنَّ منع تدفق السلاح هو الهدف الأساسي. لكنَّ وكالة المخابرات المركزية كانت تأمل في الضّغط على الحكومة الساندينية وإرباكها لتصبح أكثر ديموقراطية ولتشرك بعض المعتدلين في الحكومة.

شعر مونيهان بأنَّ هناك مشكلة معرفة السياسة وقال لكايسي: «إذا قلت هؤلاء الناس، الساندينيون، أنَّهم الناس الذين تقول إنَّهم، وأنا مستعد لأن أصدقك، ولن يصبحوا أكثر ديموقراطية . . . بإمكانك أن تطيح بهم أو تتركهم وشأنهم ولكنك لن تستطيع أن تفعل شيئاً في الوسط بين الأمرين». وتعجب مونيهان وأضاف: «هل تستطيع أن تميز أو تفرق بين إرباكهم والإطاحة بهم؟». بالنسبة إلى الساندينيين كانت هذه جميعها أعمالاً عدائية.

قال كايسي إنَّ هدفه كان وقف انتشار الشيوعية وأن يجعل من حكومة نيكاراغوا تدفع الثمن غالياً لاختيارها. لقد أرادت وكالة المخابرات المركزية معاقبة نيكاراغوا. ورأى مونيهان أنَّ الإدارة كانت تفتش عن طريقة لتنفيذ مشروعها ولتظهره أقسى بقليل من احتجاج دبلوماسي. قال مونيهان: ماذا عن الكونترا بحد ذاتهم؟ لقد كانوا يقاتلون من أجل الإطاحة بالحكومة واستلام السلطة. إنَّهم لا يقاتلون ولا يمكن أن يقاتلوا من أجل منع تدفق الأسلحة. لا أحد يفعل ذلك.

لم يجب كايسي عن سؤاله وقال: على وكالة المخابرات المركزية أن تعمل بما هو متوفر

لديها فهي لم تخلق الكونترا وإنما تدعمها.

لم يشعر مونيهان بالارتياح. كان الكونغرس والإدارة يدعمان عملية لا يمكن أن تنجح وقد تؤدي إلى كارثة. وكتب إلى كايسي يقول إنَّ لجنة استخبارات مجلس الشيوخ تؤيد «توصية بولاند» وأضاف أنَّه توقع من وكالة المخابرات المركزية أن تعمل وفقاً لنصوص التوصية وروحها. وقدم مونيهان نص «توصية بولاند» إلى مجلس الشيوخ وتمت الموافقة عليه.

كان رد فعل كايسي بسيطاً. النص الجديد لا يمنع أي شيء مما نقوم به حالياً. لقد كانت لعبة محامين. في ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٢ وقع ريغان توصية بولاند وأصبحت قانوناً.

اجتمع مستشار كايسي في وكالة المخابرات المركزية سبوركين مع أفضل محامي الوكالة في لانغلي أثناء عطلة عيد الميلاد وقال لهم: «يجب أن تأتوا بنتيجة في الحال» وأضاف: «هذا الشيء سيعضنا في قفانا» وسيراقب الكونغرس بموجب توصية بولاند ويحتمل أن تتحول هذه التوصية إلى «حصان طروادة» وأضاف: «سيراقبون ويفتشون عن المخالفات» وطلب منهم اقتراحات حول طريقة تنفيذ هذا القانون والتقيد به.

قال المحامون إنَّ هذا القانون هو محاولة لفرض عمل سلبي. ويجب أن تتأكد الوكالة من أنها لن تقوم بأي عمل «من أجل ذلك الهدف» أي الإطاحة بالساندينيين. وقال أحد المحامين: «حسناً، نستطيع أن نعمل من أجل جميع الأهداف الأخرى».

قال سبوركين: «لا يمكننا أن نكون أذكياء» وأضاف أنَّ عليهم أن يكوّنوا فكرة أوسع عن عملهم. وذكر أنَّ عملية الكونترا كانت مهمة للبيت الأبيض وللمدير كايسي. واعترض المحامون على ذلك. وقال إنَّ هدف استشارتهم كان تفادي المشاكل وليس الرد عليهم. وسحب قائمة تتضمن توجيهات بصيغة إفعل ولا تفعل وقدمها لكايسي، وذكرت هذه القائمة أنَّ العملية لا تهدف إلى الإطاحة بالحكومة ولا تدعم أي وسيلة لتنفيذ انقلاب أو اغتيال لا بصورة غير مباشرة ولا بصورة مباشرة. وكان الاغتيال ممنوعاً بموجب أمر تنفيذي صادر عن الرئيس، ولكن سبوركين شعر بأنَّه من المفيد أن يكرر هذا الموضوع.

اطلع كايسي على القائمة وقال: «شتان أنت لا تعرف كيف تكتب، أعد صياغتها واجعلها أقسى».

أدرك مدير العمليات جون شتان أنَّ قائمة التوجيهات كانت فكرة رهيبة لحمايتهم جميعاً، ووافق كايسي على إرسال اللائحة بالهاتف إلى محطة وكالة المخابرات المركزية في الهندوراس التي كانت تشرف على العملية وعلى مخيمات الكونترا. وقد تقيدت هذه القائمة المؤلفة من عدة صفحات «بتوصية بولاند» وفقاً لنصها الحرفي. لا تقوموا بأي عمل. لا تجهيزات، لا تدريب، لا دعم، لا اجتماعات، لا أحاديث، بهدف الإطاحة بحكومة نيكاراغوا، واقطعوا الدعم عن قادة الكونترا ومقاتليها الذي يتحدثون عن مساعدة وكالة

المخابرات المركزية لتحقيق ذلك الهدف.

وبغية تأكيد جدية الإدارة حول منع تدفق الأسلحة إلى السلفادور، وقع الرئيس ريغان مذكرة سرية جداً حول غواتيمالا التي لها حدود مع السلفادور بطول حوالى مائة ميل. وتسمح هذه المذكرة بجمع المعلومات والتدخل لمنع تدفق الأسلحة عبر الحدود. وكانت هناك تقارير بأنَّ الأسلحة كانت تنقل في شاحنات الفاكهة التي تقفل وتعبر الحدود دون تفتيش. وتمّ تركيز محطات تفتيش مجهزة بمعدات خاصة تعطي إنذاراً عندما تمر شاحنة تحمل كمية كبيرة من الأسلحة المعدنية. وتمّ تشييد بناء لهذا الغرض وتدريب حوالى ستين رجلاً للقيام بأعمال التفتيش. وأوقفت عدة شحنات من الأسلحة، ثمّ اكتشف المزيد. وكانت كلفة عملية التفتيش مليون دولار. لم يعثر في التقاطات وكالة الأمن القومي على الإثبات الذي أراده كايسي ليظهر أنَّ نيكاراغوا كانت تدعم تدفق السلاح إلى الثوار السلفادوريين. وقد استعمل ثوار السلفادور أجهزة الراديو بعناية وأبقوا جميع اتصالاتهم قصيرة المدى. واستخدموا شيفرة لوقت محدد. ولم يستعملوا الاتصال الراديوي إلاّ عند الضرورة. وكانوا يتقيدون بالسكوت اللاسلكي عندما يفرض عليهم بنظام وانضباط. وفي بعض الأحيان كان الثوار يتوقفون عن استعمال أجهزة الراديو ويستعملون أجهزة الهاتف الحقلية التي لا يمكن التقاطها إلاّ بعد تركيز آلات تسجيل خاصة على خط الهاتف. وفي أحيان أخرى كانوا يستعملون سعاة البريد. وكانوا يتقيدون بتدابير الحيطة في الاتّصالات بشكل أفضل من الوحدات العسكرية النظامية في السلفادور. ومن المحتمل أن يكون الكوبيون وربما المستشارون السوفيات وراء هذا المستوى الرفيع من الاداء. وبهذا لم يستطع كايسي الحصول على أي نوع من الإثبات المقنع الذي يمكنه من كسب الدعم الشعبي ودعم الكونغرس.

قرر السناتور ليهي عضو لجنة الاستخبارات أن يزور أميركا الوسطى للاطلاع على الوضع وطلب من مدير أركان اللجنة روب سيمونز أن يرافقه في هذه الرحلة. وعقد سيمونز جلسة خاصة مع نائب مدير المخابرات المركزية جون مكماهون ليوضح أنَّ الرحلة هي للعمل وليست للنزهة.

أراد ليهي أن يدخل في التفاصيل مع رؤساء محطات أربع دول أساسية هي الهندوراس حيث كانت تتم إدارة عمليات الكونترا الرئيسية، والسلفادور حيث كان الثوار اليساريون يهددون نظام الحكم القائم، وغواتيمالا حيث كانت وكالة المخابرات المركزية تحاول وقف تدفق السلاح وفقاً لمذكرة منفصلة، وباناما حيث تملك وكالة المخابرات المركزية مركز تدريب سري للكونترا. وتألف فريق الرحلة من ليهي وسيمونز وثلاثة من أركان مجلس الشيوخ وضابط مرافقة ومستشار قانوني من وكالة المخابرات المركزية. وطلب كايسي أن يرسل أحد عناصر الوكالة مع الفريق واختار بيرتون هتشينغز وهو ضابط خبير يعرف رئيس محطة باناما، وقيل عنه على سبيل المزاح أنّه كان عين لانغلي وأذنها.

كان ليهي قد كوّن فكرة عما يجري وذلك من خلال إيجازات وكالة المخابرات المركزية.
كان على عناصر الكونترا أن يبقوا في إطار وحدات صغيرة ولم يسمح لهم باحتلال الأراضي أو الاحتفاظ بها وتعهدوا بعدم القيام بأعمال العنف والتشنيع وبإبعاد مجرمي الحرب من الزعماء السابقين في نظام سوموزا عن القيادة. وبعد زيارة روتينية إلى أحد مراكز منع تدفق السلاح في غواتيمالا طار الرجال السبعة إلى تيغوسيكالبا عاصمة هندوراس ونزلوا في مقر إقامة السفير الأميركي. وأبدى ليهي إعجابه برئيس المحطة الذي كان جدياً وملماً بجميع الأمور.

ركزت وكالة المخابرات المركزية قاعدة مستقلة في منزل آمن في تيغوسيكالبا لإدارة برنامج الكونترا. وكان قائد القاعدة ضابطاً سابقاً في الوحدات الخاصة في الجيش الأميركي وهو برتبة مقدم ويدعى راي دوتي. وكان له اتّصال مباشر مع مركز قيادة وكالة المخابرات المركزية وله لقب خاص في الاتّصالات وشيفرة سرية. وعلى الرغم من أنّه كان تابعاً لرئيس المحطة في العاصمة إلاّ أنّه كان الذراع العملاني للأعمال الخفية. وكان دوتي قد أدار تدريبات شبه عسكرية في حرب وكالة المخابرات المركزية في اللاوس أثناء الحرب الفيتنامية.

قال دوتي، وهو رجل في أواخر الأربعينات، في إيجازه: إنّ مخيّمات التدريب في الهندوراس كانت أفضل ما شاهده. وأضاف أنّه أرسل خمس وحدات قتال من أصل سبع وحدات للكونترا عبر الحدود إلى نيكاراغوا. وأحضر خريطة لنيكاراغوا تظهر المساحات الشاسعة للبلد وتوقع بأن تتحرك وحدات القتال باتجاه الجنوب لتتصل مع القادمين من الجنوب عبر كوستاريكا.

«انتظر. انتظر.» قاطع ليهي، هذه الوصلة تساوي أكثر من ٢٠٠ ميل وهي تعزل النصف الشرقي لنيكاراغوا. أي أنّ هذه هي خطة كلاريدج القديمة لتقسيم البلاد وأضاف: «يبدو أنك تخطط للإطاحة بالساندينيين». أجاب دوتي لا. قطعاً لا. وكان يعرف أنّ الكونغرس منع صرف الأموال لهذا الهدف أي للإطاحة بالحكومة النيكاراغوية.

سأل ليهي حسناً، ماذا تتوقع من خطتك إذا نجحت؟

قال دوتي: «سأقطع الطريق البري بين القسم الشرقي وماناغوا القريبة من الساحل الغربي. وأضاف أنّ الساحل الشرقي على الكاريبي يتلقى المؤن من البحر أي من كوبا والسوفيات. وإذا أمسكنا بالطريق البري فإنّنا نرغم الكوبيين والسوفيات على استعمال قناة باناما، والمرور عبر المحيط الهادئ أو الجانب الغربي. وهكذا يكون تدفق السلاح قد توقف».

«انتظر مرة ثانية» قال ليهي: كيف يرى الساندينيون ذلك وهل يرضون بتقسيم بلادهم إلى قسمين؟ ماذا عن الولايات المتحدة التي تقول إنها لا تحاول الإطاحة بحكومتهم؟

أجاب دوتي: بما أن السلفادور ليست مواجهة للبحر الكاريبي ولها ساحل واحد على المحيط الهادىء، فإن هدف العمليات منع تدفق السلاح، أي وقف نقل السلاح من كوبا إلى نيكاراغوا إلى السلفادور.

أدرك ليهي أن كلام دوتي يمكن أن يكون صحيحاً من الناحية التقنية. وسأل «ما هو مدى سيطرة وكالة المخابرات المركزية على الوحدات المقاتلة من الكونترا؟

قال دوتي: «بما أن وكالة المخابرات المركزية زودت الكونترا بمعدات اتصال فهي تعرف ترددات هذه المعدات ويمكنها أن تصغي سراً وتتحقق مما إذا كان الكونترا يتقيدون بالخطط المرسومة».

قال ليهي: وإذا لم يقل الكونترا أي شيء على الهواء؟

ـ «حسناً، لقد جندنا عناصر داخل الكونترا وسيخبروننا لاحقاً».

ـ «كم عنصراً جندت»؟

ـ «جندنا واحداً أو اثنين ولكننا ما نزال في البداية».

ـ «وكيف يخبركم هؤلاء الجواسيس عما يشاهدونه؟».

ـ «بلقاءات وجهاً لوجه».

ـ «يعني هل يأتون إلى منزلك الآمن هنا؟ وهل يخاطرون بحياتهم؟ وبذلك تقابلهم مرتين في السنة؟».

ـ «سنتدبر أمر ذلك».

وشعر ليهي بأن هذا يشبه ما كان يجري في سايغون في أوائل الستينات. تمويل ونوايا حسنة وخطط كبيرة وخطوات صغيرة نحو الحرب.

قال المسؤولون في السفارة الأميركية في تيغوسيكالبا للسناتور ليهي إن السفارة كانت تراهن على نوع من المفاوضات، وأظهروا قلقهم من الحرب الصغيرة التي وقعوا في شركها.

بعد ذلك عقد ليهي اجتماعاً خاصاً مع قائد القوات المسلحة في الهندوراس الجنرال غوستافو الفاريز الذي كان مكلفاً بتنفيذ العملية من الجانب الهندوراسي.

قال الفاريز: «يا للجحيم، ستكون قواتنا في ماناغوا مع عيد الميلاد».

ـ «انتظر» قال ليهي، إن سياسة الولايات المتحدة مصممة على عدم الإطاحة بالحكومة الساندينية.

قال الفاريز: «نعم ولكنه شيء عظيم أن نقوم بذلك».

طار الفريق إلى باناما وكان ديوي كلاريدج قد غادر في اليوم السابق. وكان كلاريدج يزور محطات وكالة المخابرات المركزية في المنطقة متخذاً اسماً مستعاراً هو ديوي ماروني كان يصطحب معه السيكار وما يمكن رؤساء المحطات من السهر في الليل لمراجعة القضايا المهنية والشخصية.

كان على جدول أعمال ليهي لليوم التالي حضور إيجاز رئيس المحطة، لكنه قام في نفس اليوم بزيارة لياقة وليقدم نفسه.

قال السناتور ليهي إنه يريد معلومات حول برنامج نيكاراغوا وبالتحديد حول أبعاده

والوقت اللازم والمال وعدد العناصر المشتركة.

لكن رئيس محطة باناما أشار على رئيس الفرقة بعدم الإجابة.

وذهل ليهي وسيمونز وحاولا الاتصال بمكماهون في واشنطن ولم يفلحا.

في اليوم التالي كرر رئيس المحطة ما قاله.

قال ليهي: «أريد أن أحصل على أجوبة وسأبقى هنا حتى أحصل عليها».

ولم تسمح المحطة لليهي أو لسيمونز بتوصيل رسالة إلى كايسي أو مكماهون. وهدد ليهي باستعمال الهاتف العادي للاتصال بمكماهون، وهذا يعتبر خرقاً لقواعد الأمن والحيطة خاصة إذا غضب وهو يتكلم على خط غير آمن. وبحلول الساعة ١١ ليلاً أرسل ليهي رسالة آمنة.

بعد سبع ساعات أي في الساعة السادسة صباحاً طُرق باب غرفة ليهي في الفندق. كان الطارق كلاريدج، الذي من دون أي مجاملات أدار راديو الفندق ورفع صوته عالياً لتفادي استراق السمع. سأل ليهي بسخرية: «من لدينا هنا؟ خياط، جندي، سمكري» ثم توقف، وتابع على لحن خاص بالأطفال «لا جاسوس» كما في رواية لوكاريه.

قال كلاريدج: «أنت تعرفني أيها السناتور ولديك بعض الأسئلة».

قال ليهي: «أنا عضو في لجنة استخبارات مجلس الشيوخ ولذلك فإن مراقبتي ليس محصورة في واشنطن» وأضاف: «عندما أسافر إلى المحطات أنتظر أجوبة وفي هذه الحالة لدي تأكيدات من مكماهون». وشرح ليهي أن لديه رواية تغطية سيعطيها للأوساط الصحافية بحيث لا يعرف أحد أن الرحلة إلى باناما لها علاقة بعملية الكونترا.

جلس كلاريدج على السرير وقال إن رئيس باناما القوي الجنرال مانويل انطونيو نورييغا وهو رئيس سابق للاستخبارات العسكرية كان في وقت من الأوقات أهم مصدر للمعلومات. وكان يعطي التسهيلات لوكالة المخابرات المركزية. ولكن نورييغا كان يلعب على الحبلين. وكانت له علاقات عائلية مع كوبا ولهذه العلاقات حسناتها وسيئاتها بالنسبة إلى وكالة المخابرات المركزية، ذلك أنه في بعض الأحيان يؤمن معلومات هامة عن كوبا. وطبعاً نحن لا نعرف ما إذا كان يؤمن للكوبيين معلومات عنا. كانت هذه لعبة مميتة. وعلى الرغم من ذلك فقد سمح نورييغا لوكالة المخابرات المركزية بأن تركز قاعدة لتدريب الكونترا هنا. هذه القاعدة يجب أن تبقى سرية بأي ثمن. وإذا تسربت أنباؤها، سيكون لنورييغا أسبابه لمنع التدريب في باناما.

سأل ليهي: لماذا تدربون الكونترا في باناما وهي ثالث دولة جنوب السلفادور؟ ماذا يؤثر ذلك على وقف تدفق السلاح؟

أجاب كلاريدج: إننا نريد أن نحضّر الكونترا لأن يهاجموا من الجنوب عبر كوستاريكا.

نظر ليهي إلى الخريطة. كانت كوستاريكا على بعد حوالى ٣٠٠ ميلاً عن السلفادور. وبدا واضحاً أن هذا ليس منعاً لتدفق السلاح.

* * *

كان من المفترض أن يكون التوقف التالي والنهائي للفريق في السلفادور، لكن وكالة الأمن القومي وجهت رسالة إلى باناما حول تقرير يفيد بأن بعض اليمينيين المتطرفين كانوا يخططون لإطلاق النار على طائرة وفدٍ من الكونغرس الأميركي. وربما كان السناتور كريستوفر دود الذي كان يطير إلى السلفادور في نفس الوقت تقريباً هو الهدف. واقترح سيمونز وضع إشارة على طائرتهم تقول: «لا تطلق النار.. على متن الطائرة مساعد سناتور وهو يميني».

* * *

فور عودته إلى واشنطن، وضع ليهي وأركانه تقريراً سرياً طويلاً وتوصلوا إلى استنتاج لا مفر منه وهو أن العملية كانت أكبر مما وصفت، ليس فقط من حيث عدد عناصر الكونترا الذين كانوا حوالى ٥٥٠٠، ولكن كل شيء كان كبيراً. لقد بذلت القيادة العسكرية الأميركية جهوداً لجمع معلومات تكلفها ملايين الدولارات. وكانت أعمال الدعم والتدريب في طريقها للتنفيذ في أميركا الوسطى. لقد ربطت جميع دول أميركا الوسطى غواتيمالا ـ كوستاريكا ـ السلفادور ـ الهندوراس وحتى باناما مع بعضها البعض في حلف معادٍ لنيكاراغوا.

كانت الخطة تقضي بتقسيم نيكاراغوا إلى شرقية وغربية في الصيف، والهجوم من الشمال عبر الهندوراس ومن الجنوب عبر كوستاريكا والوصول إلى ماناغوا بحلول عيد الميلاد. كانت حرباً من جميع الجهات. وهكذا فإن العملية مختلفة كثيراً عما قاله مسؤولو وكالة المخابرات المركزية في إيجازاتهم. وبدا واضحاً أن السياسة السرية تحرك السياسة الخارجية. إن حرباً إقليمية كانت على وشك النشوب، والكثير من المخططات بقي سرياً ولم يعرف به أحد.

في الاجتماع التالي للجنة مجلس الشيوخ طلب ليهي خمس عشرة دقيقة ليقدم خلاصة التقرير.

همس غولدووتر قائلاً: «آه يا للهراء! إنه الصبي يتكلم كثيراً».

كان اندرز يحاول أن يخفي عملية نيكاراغوا في استراتيجية أكبر لأميركا الوسطى. وأراد أن لا يلفت نظر الجمهور والإدارة والكونغرس إلى العمل الخفي. وأعد أندرز عدة مبادىء هي الديمقراطية، المساعدة الاقتصادية، العمل الخفي وذلك كي لا تظهر حساسيات ڤيتنام. هكذا كانت سياسة الإدارة تسوّق في الكونغرس. ولكن البيت الأبيض تغير كثيراً بعد تعيين وليم كلارك مستشاراً جديداً لشؤون الأمن القومي

كان كلارك يردد تعابير: «قليل جداً» و «متأخر كثيراً» وكان يشعر بأن سياسة الإدارة تتراجع.

كان أندرز يعتقد بأن الكونغرس هو المطرقة، وبأن معارضي الأعمال الخفية كانوا أقلية، وبأنه يمكن الإمساك بورقة الكونغرس بعد إقناع ١٠٪ أو ١٥٪ من أعضاء الوسط. وأضاف اندرز: «إن الطريقة الوحيدة للقيام بذلك هو الاعلان أن هدف سياسة الإدارة هو تسوية الوضع بسلام»، وأضاف: «لا يمكن التخلي عن المفاوضات» ومن الواقعية أن تحاك سياسة الإدارة في الكونغرس.

شمَّ أندرز رائحة الاضطرابات. واقترح الالتزام باستراتيجية إقليمية في أميركا الوسطى على خطين. الخط الأول في نيكاراغوا حيث يستمر الدعم السري لثوار الكونترا ومحاولة إجبار الساندينيين على إجراء مفاوضات مع الكونترا. والخط الثاني في السلفادور حيث يستمر الدعم لدوارت وحكومته مع ممارسة ضغوط لإجراء مفاوضات بين الحكومة والثوار السلفادوريين. وتهدف هذه الاستراتيجية إلى تسوية شاملة للوضع في المنطقة، فتنسحب القوات الكوبية والسوفياتية والاميركية من أميركا الوسطى. حصل كلارك على نسخة عن مذكرة أندرز ولم تعجبه، وشعر بأن اندرز يريد تحقيق نجاح مهني على حساب تماسك سياسة الإدارة. لا يجوز بأي حال من الأحوال أن تسحب الولايات المتحدة قواتها من أميركا الوسطى وأن تتخلى عن اصدقائها. وكان كلارك يعتبر ذلك تكراراً لأخطاء كارتر أي أن نقول شيئاً ونفعل شيئاً آخر. أرسل تقرير أندرز إلى الرئيس مع تعليق «يظهر أن أندرز لم يتقيد بسياسة الإدارة».

في ١٠ شباط/ فبراير ١٩٨٣ تسرّب تقرير أندرز إلى الأوساط الصحافية، واتهمه أركان البيت الأبيض بالروح الانهزامية. وأوضح كلارك أنه لا ينفر وحده من المفاوضات، ولكنه لم يكن متأكداً من أن البيت الأبيض كان يفكر بالاعتماد على الأعضاء الوسط في الكونغرس لأن من مصلحة الرئيس أن يخوض معركة سياسية رئيسية.

قال كايسي لأندرز إنه يشكك في سياسة المفاوضات، ولكنه لم يعارض المحاولة، ورأى أنها أمنت للإدارة ولوكالة المخابرات المركزية غطاء جيداً في لجان الاستخبارات.

في ١ آذار/ مارس اتصل كايسي بأندرز. وقال له: «أنا أعلم أنك تواجه صعوبات فبالإضافة إلى بيل كلارك هناك شخص آخر وراءك هو مايك ديفر».

أجاب اندرز: شكراً لهذا البقشيش أيها الزميل» وأدرك أنه بذلك كان يعني نانسي ريغان.

كان كايسي قد سمع ديفر يقول عن أندرز: «الشاي مع الكعك» و «مجموعة البنطلون المقلّم». وكان مسروراً عندما علم أن البيت الأبيض يحضر لخطوة في اميركا الوسطى. وفي الحقيقة ظهر بيل كلارك وكأنه يعيد توجيه السياسة الخارجية.

كان أنطوني دولان وهو الفائز بجائزة بوليتزر عام ١٩٧٨ لتقارير التحقيقات، أحد المصادر المطلعة الرئيسية لكايسي في البيت الأبيض، جاء كايسي بدولان إلى حملة ريغان

الانتخابية عام ١٩٨٠، وكان دولان محافظاً ومن أنصار وليم بكلي واستقر فيها بعد في مكتب كتابة خطابات الرئيس. ومع أن جيم باكر كان يقيده إلا أنه مارس دوره ككلب هجومي لريغان. وتبادل كايسي ودولان الملاحظات والأفكار والاتصالات الهاتفية. وأعجب دولان بأحاديث كايسي عن الالتزام المحافظ الصحيح. لم يكترث كايسي بأقوال الصحافة. كان مشغولاً جداً وكان يعتبر كتبه وأفكاره وتحدياته أكثر تشويقاً من نفسه.

أخبر كايسي بيل كلارك عن مواهب وقدرات دولان. في ٨ آذار مارس ١٩٨٣ الساعة الثالثة والدقيقة الرابعة بعد الظهر ألقى الرئيس ريغان خطاباً في الجمعيّة الوطنية الإنجيلية في قاعة سيتروس كراون في فندق شيراتون ذي البرجين في اورلاندو في ولاية فلوريدا وبعد أن ذكر مقتطفات من إعلان الاستقلال (لويس وهويتاكر شامرز وتوم باين) قال عن الاتحاد السوفياتي إنه «امبراطورية الشر».

فيها بعد وفي ذلك الشهر كشف الرئيس النقاب عن مبادرته الدفاعية الاستراتيجية المعروفة «بحرب النجوم» للدفاع ضد الصواريخ السوفياتية بواسطة نشر أسلحة في الفضاء. ووصف السوفيات ريغان بالمجنون. يمكن لكايسي أن يعيش في هذا الجو المحموم المعادي للشيوعية ولكن أندرز لا يستطيع العيش فيه! كانت نيكاراغوا أرض المعركة، وريغان وكلارك وكايسي يلعبون كرة صعبة. ورأى أندرز أن السياسة الصحيحة هي في إخراج السوفيات والكوبيين من نيكاراغوا ولكن سياسة الولايات المتحدة أصبحت واضحة، وهي إخراج الساندينيين أيضاً.

نقل أندرز من مركزه وعين سفيراً للولايات المتحدة في أسبانيا. وبقي في واشنطن عدة أشهر قبل التحاقه بمركزه الجديد. وتلقى عدداً من دعوات العشاء الوداعية التي حضرها كايسي جميعاً. وفي إحدى الحفلات رفع كايسي كأسه عالياً لشرب النخب وأشاد بأندرز وأعماله وأهدافه المميزة. وكان حاراً وجازماً في كلامه وأوضح أنَّه سيبقى وأندرز صديقين دائماً.

بحلول ربيع ١٩٨٣ ازداد قلق جون مكماهون حول كايسي ووكالة المخابرات المركزية والكونترا. وذات يوم سأل عضو لجنة استخبارات مجلس النواب النائب الجمهوري كين روبنسون مكماهون: لماذا ارتفع عدد الكونترا من ٥٠٠ إلى ٥٥٠٠. وكان روبنسون مخلصاً وموالياً للإدارة ولوكالة المخابرات المركزية وكان في الغالب قاسياً. أجاب مكماهون بأنَّ لجان الاستخبارات أحيطت علماً بشكل جيد. ولكنَّ الأعضاء كانوا يفقدون الأثر لأنَّ فترة كانت تفصل بين كل إيجاز وآخر. كان من السهل أن نتذكر إيجاز الأسبوع الماضي، ولكن خلال الأشهر الفاصلة بين إيجازين، يمكن أن يكون الكونترا قد هاجموا قرية أو طوعوا مائة عنصر في قرية اخرى. لا يمكنهم أن يهملوا المتطوعين الجدد لأنهم يمثلون الدعم الشعبي. أقرّ مكماهون بأنَّ برنامج الوكالة كان يشمل تطويع مقاتلين شبان مع الكونترا. طبعاً كانت

الأرقام تزداد. لكنَّ روبنسون لم يكن سعيداً بل كان غاضباً، وتوقع مكماهون منه أن يثير مشاكل جديدة لبرنامج نيكاراغوا.

مَثَلَ مكماهون أمام لجنة استخبارات مجلس الشيوخ في جلسة سرية. واندفع ليهي نحوه قائلاً: «أنتم أيها الصبية تستعدون لسقطة كبيرة».

بدأت العملية تفلت من اليد وبدا محتملاً أن لا تنجح، وأضاف: «لا أحد يريد أن يلوم البيت الأبيض أو وزارة الخارجية أو وزارة الدفاع لذلك»، وأضاف: عندما يفشل كل هذا فإنَّ اللوم سيقع على وكالة المخابرات المركزية. إنها حربهم وليست حرب ريغان أو حتى حرب كايسي ولكنها حرب الوكالة. ريغان وكايسي ومكماهون سوف يتركون مناصبهم يوماً ما ولكنَّ الوكالة يجب أن تبقى. إنَّ لجنة الاستخبارات ملتزمة بحماية المؤسسات الأميركية.

قال مكماهون: نعم، ووافق على أنَّ عملية الكونترا ستثير مشاكل كبيرة للوكالة وللكونغرس أيضاً. واحمرّ وجه مكماهون وبدأ يشير بيديه للتأكيد. لقد كان في السبعينات عندما جُرَّت الوكالة إلى صراع مع الرأي العام والصحافة والكونغرس. وأضاف أنَّ مهمتها كانت معرضة للخطر في أي وقت، وبدأت العواطف تظهر. قال مكماهون إنَّ هذا التعرض لا يؤدي إلى إيذاء رفاقه في الوكالة فقط بل يمكن أن يدمر أي عمل تقوم به وكالات الاستخبارات الأميركية. إنَّ سمعة وكالة المخابرات المركزية كانت على المحك. لقد أمر الرئيس والمدير بكل خطوة من هذه العملية. وعندما أنهى مكماهون كلامه سكت الجميع في القاعة.

بعد أن توسعت الحرب الخفية، بدأت أموال وكالة المخابرات المركزية المخصصة للكونترا تنفد. قرر كايسي إعادة برمجة المال من الاحتياط المالي السري. لقد كان هذا «الإيداع» و«السحب» المالي لحوالى ٥٠ مليون دولار متوفرين دائماً في حالة الطوارئ أو عندما لا يكون الكونغرس في حالة انعقاد. بعد انتهاء فترة الطوارئ أو بعد انعقاد الكونغرس يُرَخّص باستعمال المال وتستكمل بقية النفقة. وكانت بضعة ملايين من الدولارات قد بقيت من جراء العملية الفاشلة لتأمين حماية بشير الجميل وتقديم المساعدات له. وقد أعيد برمجة هذه النفقة إلى الكونترا. لقد كان هناك تأخير لثلاثة أسابيع على الأقل وربما لستة أسابيع، وتلك هي المدة اللازمة لإجراء الحسابات قبل وصول الأعمال الإدارية إلى لجنة استخبارات مجلس الشيوخ لإعلامها بالتعديل. وكانت عملية نيكاراغوا قد أثارت حساسياتٍ كثيرة، وقد يؤدي التأخير الروتيني في إعلام اللجنة إلى عودة هذه الحساسيات والشعور بأنَّ وكالة المخابرات المركزية لا تحترم لجان المراقبة في الكونغرس.

عقدت جلسة سرية واستدعي مراقب عقد النفقات في وكالة المخابرات المركزية دانيال شيلدز للإدلاء بشهادته. وهو مساعد سابق في اللجنة للسناتور اينوي. وأفاد بأنَّ بضعة الملايين هذه كانت بنداً صغيراً جداً. وكان اينوي وهو ديموقراطي معتدل غاضباً لذلك.

ووجد بعض الديموقراطيين في ذلك فرصة للقضاء على كايسي. ولكنَّ السناتور مالكولم والوب وجد نقطة أخرى. لقد أظهرت السجلات أنَّ كايسي كان خارج البلاد أثناء توزيع النفقات. وإنَّ مكماهون هو الذي لم يتصرف بحكمة. وفرح والوب. مكماهون ضابط الإدارة الممتاز لم يدقق في أعماله المكتبية، وهذه جريمة بيروقراطية من الدرجة الأولى. أما زملاء والوب الذين حاولوا اصطياد فروة رأس كايسي، فقد اصطادوا فروة رأس مكماهون. وكان على مكماهون أن يشرح انزلاقه لكبار الشيوخ. وتبين أنَّه ليس في وضع يمكنه من الإسراع بعملية نيكاراغوا. ولم يدرك أنَّ كايسي وكلاريدج كانا يعملان من طرف أميركا الوسطى إلى الطرف الآخر. لقد كان نائب المدير، وكلاريدج تجاوزه. لم يكن هناك أي كلمة أخرى. وكان الموقف لا يحتمل. ذهب مكماهون إلى كايسي وقال له إنَّه يستطيع أن يعمل نائب مدير فقط عندما يوضع في الصورة. لا يجوز تكرار تجربة اثمان. حدق كايسي طويلاً ثمّ وافق، وتمّ اعتماد أساليب عمل جديدة. جميع الأعمال الورقية تمر عبر مكماهون. وقد انزعج مكماهون من كثرة البحث في الموضوع، وحث بأسلوب لائق على البحث عن طريق آخر. يمكن أن تصبح العملية علنية وتسلم لوزارة الدفاع، وتصبح بعد ذلك بمثابة حرب حقيقية. لم يتقبل كايسي هذه الفكرة فإذا لم تستطع الوكالة الإمساك بالمسائل الصعبة واحالتها على العسكريين، فإنَّ وعده بالمحافظة على الإمكانيات شبه العسكرية للوكالة سيتحول إلى نكتة!. لقد كانت هذه العمليات صعبة المراس ولا يتحمل العسكريون تنفيذها، وفوق كل هذا لا يجوز لقوة عظمى مثل الولايات المتحدة الأميركية أن تنتصر على أمة صغيرة مثل نيكاراغوا بهجوم عسكري واسع النطاق.

أصر مكماهون بانفعال على أنَّه كان إلى جانب كايسي، لقد كان هناك في السبعينات أثناء التحقيقات وأدرك أنَّ كايسي هو الذي أوقف التصدع والشلل في الوكالة.

اقترح كايسي على مكماهون أن يتكلم كل منهما مع أركان مجلس الأمن القومي. وعرضت فكرة إحالة العملية إلى وزارة الدفاع على وينبرغر وبيل كلارك وجورج شولتز الذي حل مكان هيغ كوزير للخارجية في السنة الفائتة. كان جواب وينبرغر بسيطاً. لقد صمّم على إبقاء العسكريين خارج أي نشاط لا يتمتع بدعم كامل من الجمهور ومن الكونغرس.

وكانت رائحة عدم الثقة تفوح من هذه العملية: قال وزير الخارجية إنَّ هناك تقرباً سرياً على الجبهة الدبلوماسية وإذا تولت وزارة الدفاع ذلك يصعب الاستمرار بهذا التقرب. وافق كلارك على أنَّه من الأفضل أن تكون هذه العملية بيد وكالة المخابرات المركزية وأشاد بجهود كايسي. وقال إنَّ كلاريدج كان يقوم بالمعجزات ورأى أنَّ النصر يلوح في الأفق.

أما الرئيس ريغان فقد كان معبراً أكثر وقال: «كان بيل ووكالة المخابرات المركزية يقومون بعمل سليم».

أعطى غولدووتر توجيهاته إلى محامي لجنة استخبارات مجلس الشيوخ للبحث في

إمكانية تمويل العملية مباشرة عبر وزارة الدفاع. ووجد المحامون أكثر من عشرة حواجز قانونية. واستنتج غولدووتر أن عملية عسكرية لوزارة الدفاع ستعتبر حرباً، وكانت تحتاج إلى تصريح من الكونغرس. مَن كان يريد إعلان الحرب على نيكاراغوا؟ مع أن القانون الدولي وسائر الاتفاقات والمعاهدات الدولية لم تعترف بالأعمال الخفية فقد كانت الدول تقوم بها بطريقة من الطرق. ولهذا لن تلوم أي دولة الولايات المتحدة لذلك العمل. وتعجب بولاند في مجلس النواب مما إذا كان هناك حاجة إلى سياج من نوع ما في الهندوراس لمنع تدفق الأسلحة من نيكاراغوا إلى السلفادور. وكانت الفكرة التقريبية لفكرة بولاند ـ أو خط بولاند كما سميت في المجالس الخاصة ـ تتراوح بين ٣٠٠ و٥٠٠ مليون دولار. وسقطت الفكرة بسرعة.

سجل كايسي إعجاب الرئيس ريغان وإشادته بوكالة المخابرات المركزية وبمكماهون الانضباطي. كانت عملية نيكاراغوا بيد وكالة المخابرات المركزية وستبقى.

وأصاب مكماهون والعمل الخفي رؤوساً جديدة. فقد حضر مبعدون من البلد الصغير سورينام وهي مستعمرة هولندية سابقة على الساحل الشمالي لأميركا الجنوبية وتقع شمال البرازيل مباشرة إلى وكالة المخابرات المركزية وطلبوا المساعدة. لقد أراد هؤلاء المبعدون الهولنديون الإطاحة بالحكومة الشرعية للمقدم ديزي بوتريس الذي كانت له ميول شيوعية، وكان قد أعدم خمسة عشر شخصاً بطريقة وحشية، ومن ضمنهم كبار المعارضين السياسيين وبعض الصحافيين والقادة النقابيين.

كان كايسي مؤيداً للفكرة. ولم يكن بوتريس إلاّ يسارياً ومثيراً للمشاكل، وبدا المبعدون الهولنديون صادقين. ولكن كايسي ومكماهون وافقا على إجراء تقويم مستقل. أعدّت مديرية العمليات «مذكرة سماح» بعمل خفي محدود لمعرفة ما إذا كان هناك معنى لدعم المبعدين وما إذا كانت لديهم فرصة للإطاحة ببوتريس. إنها عملية حقيقية للإطاحة بالنظام القائم أو لدعم المبعدين وسوف تحتاج إلى مذكرة منفردة. وقّع الرئيس ريغان «مذكرة السماح» وخصّص بضع مئات آلاف الدولارات لإرسال فريق من الوكالة إلى سورينام لجمع المعلومات ودرس إمكانية القيام بانقلاب.

أوجز مكماهون عن هذه المسألة للجنة استخبارات مجلس الشيوخ. إلاّ أنه سمع جوقة من الشيوخ تنشد: «لا بدّ أنك تمزح». وتساءل عدّة شيوخ: لماذا تدرس إدارة ريغان القيام بانقلاب في هذا البلد الذي لا دلالة له. إن شعب سورينام مثل شعب تاهيتي في جنوب المحيط الهادئ ويبلغ عددهم حوالى ٣٥٠ ألف نسمة أي ما يساوي عدد سكان مدينة توسون في أريزونا. وغضب غولدووتر وقال: «هذه أسوأ فكرة سمعتها في حياتها».

أجاب مكماهون إن حكومة بوتريس كانت تتصل بالكوبيين وبحكومة غرانادا، وهي جزيرة صغيرة في الكاريبي تقودها حكومة يسارية. ولدى وكالة المخابرات المركزية مجموعة

من المبعدين الهولنديين الذين يمكنهم تنفيذ هذا العمل.

ومتى كان ينجح انقلاب مثل هذا مدعوم من الأميركيين، كان على مكماهون أن يعود إلى الانقلاب المدعوم من وكالة المخابرات المركزية عام ١٩٥٤ في غواتيمالا ليجد الجواب، وأوضح أن «مذكرة السماح» تعني أن الإدارة كانت تدرس الاحتمال وأن التنفيذ يحتاج إلى مذكرة أخرى وأنه يجب عندها إعلام اللجنة.

لم يقتنع أعضاء اللجنة بالإيجاز وقرروا إرسال رسالة احتجاج إلى الرئيس ريغان تعبّر عن معارضتهم لأي عمل خفي في سورينام.

وأرسل غولدووتر رسالة شخصية إلى الرئيس ريغان يقول فيها: «هل أنت في الحقيقة تحتاج لهذا العمل؟» وكانت هناك معارضة أيضاً في لجنة مجلس النواب ومن الحزبين. وعندما عاد فريق وكالة المخابرات المركزية لم يحصل أعضاؤه إلاّ على معلومات قليلة عن الوضع وقالوا إنه من الصعب تنفيذ الانقلاب.

وسقطت الخطة واهتزّ مكماهون في هذه اللعبة. إلاّ أنه تعهد على نفسه بإبقاء وكالة المخابرات المركزية خارج إطار العمليات الكوميدية!

- ١٢ -

كان على كايسي أن يسوّق عملية نيكاراغوا في البيت الديموقراطي. لذا كان عليه أن يمسك بالديموقراطيين المحافظين في الجنوب والغرب. وكان أحد هؤلاء ديف مكردي وهو نائب عمره ٣٣ سنة، ديموقراطي من ولاية أوكلاهوما، وكان قد انضم إلى عضوية لجنة استخبارات مجلس النواب في كانون الثاني/ يناير الماضي. وكصديق للإدارة ومؤيد قوي للدفاع تبنى مكردي سياسة الإدارة الخارجية والدفاعية. قال كايسي لمكردي في حديث خاص: «إن وكالة المخابرات المركزية يمكنها أن تقوم بما يتطلب» لممارسة الضغوط على الحكومة الساندينية. وكان مكردي يشعر بأنه يتزلق في حديثه مع كايسي.

في إحدى الجلسات سأل مكردي كايسي: «ما هو مدى اهتمام الساندينين بالمدارس والطرقات والمستشفيات في بلادهم».

أجاب كايسي «أنا لا أعرف». وكانت الصرخات العصبية تدوي في قاعة اللجنة في الطابق العلوي لبناية الكابيتول. لقد كانت غرفة صغيرة وكان أعضاء اللجنة يجلسون إلى طاولة على شكل حافر الحصان. وكان كايسي يجلس إلى طرفها ويلمح إلى أن الاستماع كان مملاً وأن أسئلة مكردي كانت سخيفة وخارجة عن الموضوع.

سأل مكردي: «هل أن كايسي نفسه لا يعرف أم أن وكالة المخابرات المركزية ليس لديها معلومات حول هذا الموضوع؟».

سأل كايسي: ما الذي تبغيه بالضبط أيها النائب؟

قال مكردي: «لقد نشأت في المناطق الريفية في أوكلاهوما ويجب أن تفهم سبب وجود الديموقراطيين في ريف أوكلاهوما. وتابع مكردي حديثه عن إدارة كهرباء الريف وتحديث مزارعي أوكلاهوما ونقلهم إلى حياة القرن العشرين. وقال إن السؤال هو هل أن الساندينين يعملون بنفس الأسلوب؟ وهل يحاولون كسب تأييد شعوبهم؟

حصل كايسي على ما يريده وتجاوب إلى حد ما وقال إن الكنيسة الكاثوليكية كانت تعارض الساندينين وإذا أجريت انتخابات نزيهة في نيكاراغوا فلن يفوز الساندينيون فيها.

سأل مكردي: ماذا عن الكونترا المدعومين من الولايات المتحدة؟ وما نوع الرسالة التي كانوا ينشرونها في الريف؟ وهل هي معركة لكسب قلوب وعقول السكان المحليين؟ لقد كانوا ينسفون الجسور ويقصفون أهراءات القمح ومزارع تربية الدواجن. كما هاجموا محطة الكهرباء. لقد ادعت وكالة المخابرات المركزية أن محطة الكهرباء كانت هدفاً عسكرياً ولكنها عادت وصرحت بأن ١٠٪ من الطاقة كانت تذهب إلى القوات المسلحة والبقية إلى المدنيين. لقد كان ذلك تدميراً وليس بناء.

في أول يوم بعد عودته من عطلة الفصح في ٥ نيسان/ أبريل ١٩٨٣ ذهب مونيهان وليهي إلى الطابق الأرضي في مجلس الشيوخ(*) لإظهار قلقهما حول عملية نيكاراغوا. وتحدث مونيهان عن أزمة ثقة بين الكونغرس ووكالات الاستخبارات. وكان مونيهان يعتقد بأن هذا الضغط العسكري الإرهابي لا يمكن أن يحقق المزيد من الديموقراطية. ماذا كانت ردة فعل الساندينيين؟ لقد أوقفوا الحريات المدنية وأخضعوا الصحافة للمراقبة، وشدد البوليس المحلي من إجراءاته الأمنية.

بعد أسبوع وفي يوم الثلاثاء الساعة الحادية عشرة استدعى غولدووتر كايسي ومكماهون وسبوركين لحضور جلسة سرية في لجنة استخبارات مجلس الشيوخ. قال الجميع إن العملية كانت مشروعة وبناء لأوامر الإدارة وكانت مدعومة من الرئيس ووزارة الخارجية ومحترفي وكالة المخابرات المركزية. بعد ذلك توجه غولدووتر إلى الطابق الأرضي في مجلس الشيوخ وتحدث أمام الشيوخ مدافعاً عن وكالة المخابرات المركزية وقال: «أنا أعتقد بأننا كنا نعلم بشكل كامل ودائم»، وغمز من قناة مونيهان وقال: «هذا الحديث عن أزمة الثقة هو عودة إلى ما جرى في السبعينات عندما تعلقت لجنتا تشرش وبايك بعناوين الصحف لتتسلق ظهر المجموعة الاستخبارية»، ولاحظ أن الساندينيين أنشأوا أكبر قوة عسكرية في أميركا الوسطى بلغ عديدها ٤٠ ألف رجل على الأقل ومن ضمنهم الاحتياط. وسأل غولدووتر: «هل يعتقد أي من الزملاء الشيوخ بأنه يمكن تركيع هذه الآلة العسكرية الماركسية ببضعة آلاف من المقاتلين من أجل الحرية؟ وأضاف: إن العمل الخفي خطر. وكشف عن دور مجلس الشيوخ وعلمه الكافي حول هذه العمليات وقال: «لقد تورطنا ولن نتراجع»، وأضاف: «إذا كانت النفقات تصرف لأعمال لا ندعمها فدعونا نقطع هذه النفقات».

* * *

في ذلك الشتاء قلق كايسي حول الوضع في لبنان. لقد تراجع نفوذ وكالة المخابرات المركزية منذ اغتيال بشير الجميل وتقلصت معلوماتها. وقد انتخب أمين شقيق بشير رئيساً للجمهورية وبدأ يمارس صلاحياته، وكان أمين الجميل يبتعد عن إسرائيل وعن الولايات المتحدة ويحاول توطيد علاقاته العربية. واقترح البيت الأبيض مرشحاً ليكون مستشاراً

(*) قاعة الاجتماعات الرئيسية.

لشؤون الأمن القومي في لبنان بغية المحافظة على نفوذ الولايات المتحدة في لبنان. وافق أمين على ذلك وعين وديع حداد وهو لبناني عمره ٤٢ سنة كان يعمل في البنك الدولي، وهو قصير القامة، أنيق، يتمتع بقدرة على الاحتمال، وكان معروفاً بالأميركي بسبب علاقته الوثيقة بالأميركيين.

التقى كايسي حداد في أوائل عام ١٩٨٣ وكان الاثنان قلقين من النفوذ السوري في لبنان ومن أمين الجميل بالذات. واعتقد حداد بأن السوريين سوف يجربون أي تكتيك، وعندما ينجح سوف يعتمدونه كسياسة. وقال حداد: «إذا شعرت بأن السوريين قد خانوك، عندها تكون لا تفهمهم».

واتفق كايسي معه وكان يريد أن يعرف شيئاً عن شخصية أمين ومدى قوته لأن تقارير سلبية كانت قد وردت عن الرئيس الجديد. لقد كان في أثناء الاضطرابات الأخيرة في باريس منهمكاً بالتسوق فاشترى ٢٤ بزة جديدة وبدلة رسمية جديدة من محلات كريستيان ديور. وكان مكروهاً من العسكريين الذين اعتبروه ضعيفاً. وسأل كايسي: هل يملك أمين دعم العسكريين؟

ـ «نعم»، قال حداد، ولكنه أضاف بأن جوابه هذا مبنيٌّ على الأمل. وبكلمة أخرى، لا. وكان التوتر واضحاً بين المستشار لشؤون الأمن القومي والرئيس اللبناني الجديد. واستنتج كايسي أن هذه العلاقة لن تستمر.

وحتى هذا الوقت كان حداد مصمماً على أنه إذا أراد أن يرسل رسالة إلى الرئيس ريغان فإن كايسي هو الطريق الصحيح لإرسالها. كان هناك دليل آخر لكايسي في سياسة الشرق الأوسط هو روبرت ايمز، وهو رئيس محللي الوكالة في المنطقة وضابط ممتاز في وكالة المخابرات المركزية وأحد أهم رجال كايسي. وكان ايمز يرتدي غالباً ملابس عادية ونظارات تشبه نظارات الطيارين وحذاء كاوبوي. وكان رجلاً مفكراً ويطرح دائماً أفكاراً جديدة. وعندما كان ضابط عمليات كان يجند العملاء والمصادر بشكل جيد. وخلال عهد هلمز، وفي بيروت، كان ايمز الوحيد الذي اخترق منظمة التحرير الفلسطينية لصالح وكالة المخابرات المركزية وطوَّر مصدرين أساسيين.

كان أول مجندي ايمز علي حسن سلامه رئيس جهاز الأمن والمخابرات لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات. سلامه أو كما كان الموساد يسمونه بالشيفرة «الأمير الأحمر» قتل عام ١٩٧٩ في انفجار سيارة مفخخة، ويحتمل أن يكون الإسرائيليون وراء ذلك. وكان ايمز سيد ما يسمى «بحرب المخابرات السرية» في بيروت حيث زحف الجواسيس ورجال المخابرات على بعضهم البعض، وكان هناك طابع مخابراتي في كل طلقة أو قنبلة أو تحرك دبلوماسي. أن تبقى حياً في هذا الجو، يعني أن تُوازن الأمور.

شعر ايمز، بأن إسرائيل كانت عبارة عن لعبة مجموعها صفر. وكان الإسرائيليون

يعتقدون بأن أي نجاح لعلاقة أي بلد أو أي فرد مع الولايات المتحدة يكون على حسابهم.

كان كايسي مسروراً عندما اعتمد وزير الخارجية شولتز ايمز مستشاراً غير رسمي لشؤون الشرق الأوسط. وكان فرانك كارلوتشي نائب وزير الدفاع وهو نائب سابق أيضاً لمدير المخابرات المركزية قد قال لشولتز إن هناك طريقة واحدة لفهم ما يجري في الشرق الأوسط: «استمع إلى بوب ايمز» وأضاف: «أرجوك اصغِ إليه. إنه جيد لأنه موزون وبعيد عن الغرور». وبعد بضعة أشهر التقى شولتز بكارلوتشي وأخذه جانباً وقال له: «إن أهم نصيحة أسديتها لي هي الاستماع إلى بوب ايمز».

لقد أعجب شولتز ببرودة ايمز الذي أصبح بسرعة محرك وزير الخارجية في قضايا الشرق الأوسط. وكانت آراء ايمز واضحة. الأمور تتخذ منحى خطيراً في لبنان بوجود قوتين كبيرتين: سوريا وإسرائيل، ويجب القيام بعمل ما. ولكن مثل أي شيء آخر في الشرق الأوسط لن يكون هذا العمل سهلاً على الإطلاق. ومثل كل شيء في الشرق الأوسط يمكن أن يكون ذلك مستحيلاً.

في نيسان/ أبريل ١٩٨٣ غادر ايمز إلى الشرق الأوسط في مهمة ميدانية وفي ١٨ نيسان/ أبريل كان في سفارة الولايات المتحدة في بيروت على شاطىء البحر عندما دخلت شاحنة بيك اب مليئة بالمتفجرات وانفجرت، وانهار نصف البناء المؤلف من سبع طبقات. وعندما سحبت الجثث من تحت الركام تبين أن هناك ٦٣ قتيلاً من بينهم ١٧ أميركياً ومن بين هؤلاء ايمز ورئيس محطة وكالة المخابرات المركزية في بيروت ونائبه وستة ضباط من الوكالة.

لم يقوَ كايسي على تصديق التقارير الأولية. كان ذلك بمثابة جرح شخصي ولم يحدث أي شيء مدمر مثل هذا في أي منظمة أو مؤسسة ترأسها في حياته. لقد كان رجال وكالة المخابرات المركزية يجتمعون ليبحثوا وضع الإرهاب. هل عرف الإرهابيون ذلك؟

كانت وكالة الأمن القومي تقرأ وتحل الشيفرة للبرقيات المرسلة من وزارة الخارجية الإيرانية إلى سفارة إيران في دمشق وبيروت. وبعد الانفجار راجع المحللون جميع الالتقاطات المتوفرة قبل حدوث الانفجار. أظهرت البرقيات بوضوح أن هناك عملية كانت تخطط ضد الأميركيين. وتبين من أحد الاتصالات الهاتفية أن هناك دفعة بقيمة ٢٥ ألف دولار لعملية بقيت غير محددة. وكانت هذه الاتصالات المحلولة وبعض المعلومات الأخرى قد وصلت إلى السفير الأميركي قبل الانفجار. لم يكن هناك أي يوم محدد ولا هدف محدد ولا مؤشر واضح إلى أن السفارة كانت هدفاً. وكانت قد وردت بعض المعلومات من مصادر بشرية ولكن لم يستطع أحد تأكيد أي شيء.

قال المعلق الصحافي جاك أندرسون وشبكة سي بي اس أن الاستخبارات الأميركية التقطت اتصالات إيرانية. وكان كايسي مرتاباً حول هذه التسريبات. صحيح أن هذه الأخبار لم تلقَ الاهتمام الكافي في الولايات المتحدة لكنها كانت موضع اهتمام واضح في

إيران، وسرعان ما توقف إرسال الرسائل. وشعر كايسي بخطر ذلك لأنه تأمل في أنه إذا استمرت وكالة الأمن القومي بالتقاط المكالمات والرسائل الإيرانية فيمكن الكشف عن منفذي العملية. ويمكن لرسائل أخرى في المستقبل أن تعطي معلومات عن خطط جديدة أو أعمال جديدة ضد الولايات المتحدة ولكن لا يوجد أي شيء الآن، وقد فقدت الوكالة مصدراً حيوياً للمعلومات.

بدأ كايسي على الفور تحقيقاً لمعرفة مسرِّب الخبر إلى الصحافة. ولكن البرقيات الملتقطة كانت تعمم على دائرة عريضة في البيت الأبيض ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية. وبعد يومين من الانفجار تضمنت نشرة «يومية الاستخبارات القومية» ملخصاً للاتصالات الملتقطة. لقد قرأ هذه النشرة مئات الأشخاص ومن ضمنهم أعضاء لجنتي الاستخبارات في الكونغرس.

كان من المفترض أن تعاد الـ١٥٠ نسخة من هذه النشرة كل يوم إلى الوكالة بعد الاطلاع عليها. ولكن تبين أن ٥٠ نسخة فقط كانت تعاد. وهذا يعني أنه كان يتم الاحتفاظ بمائة نسخة لدى بعض أعضاء الحكومة بطريقة غير قانونية. وفي بعض الأحيان تم تصوير هذه النشرة، وفي إحدى المناسبات عثر على ٧٥ نسخة مصورة في مكتب واحد.

لم يكن كايسي يعلم أيضاً أن جاك أندرسون وشبكة س بي اس كانوا على وشك أن ينشروا معلومات عن الالتقاط. وكان هذا بالتأكيد نتيجة لقراره بمنع دخول الصحافيين إلى وكالة المخابرات المركزية. يمكن أن يكون ذلك غلطة وشعر كايسي بأنه يمكن أن يكون قادراً على التحدث مع أندرسون والـ سي بي اس وإنما دون السؤال عن المصدر الدقيق أو الطريقة المتبعة للحصول على المعلومات. لم يكن لديه جهاز إنذار مبكر في الأوساط الصحافية الأميركية. وأدرك أنه يحتاج فعلاً إلى ضابط لشؤون الصحافة.

في بناية المكتب التنفيذي وهي البناية الرمادية العالية المحاذية للبيت الأبيض والتي تحتوي على مكاتب أركان الرئيس، وفي أحد الممرات التي يكسو أرضها بلاط من نوع الرخام الأبيض والأسود، وفي الغرفة ٣٥١، كان هناك في ربيع ١٩٨٣ رجل ذو لحية كثيفة، خريج جامعة أوكسفورد، يقلّب تقارير الاستخبارات التي ترد إلى مكتبه. هذا المكتب وهذا الرجل كانا عصب إدارة ريغان في قضايا الشرق الأوسط. وعلى مكتبه وهو غارق في التفاصيل كان الدكتور جيوفري كمب كبير خبراء مجلس الأمن القومي حول الشرق الأوسط وجنوب آسيا يتأمل في ما تواجهه الإدارة.

كانت اليد الإيرانية بالتأكيد وراء تفجير السفارة في بيروت ولكن السؤال الأساسي كان سوريا. والقسم الهام من السؤال هل كان الاتصال السوري في العملية تنفيذياً؟ وهل كان هناك علامة سورية على الانفجار؟ لم تملك الاستخبارات الأميركية جواباً واضحاً وعلى الأقل لا تملك أي جواب مفيد من الناحية الدبلوماسية. لا يمكن بناء سياسة الولايات المتحدة على

معلومات ظرفية مؤقتة. لقد كانت الاستخبارات السورية تعرف ما يجري بالطبع وإذا عرف السوريون فهل كانت القيادة السورية تتحكم بالوضع. كان عدم القدرة على الجواب عن هذه الأسئلة يعكس الارتباك والالتباس في الإدارة الأميركية حول الوضع في سوريا. كانت هناك امبراطوريات عديدة ومنفصلة عن بعضها البعض في سوريا. وكان الرئيس الأسد، وهو أحد ألمع الزعماء في الشرق الأوسط، يتحكم بمعظم هذه الامبراطوريات ولكن ليس بالضرورة بجميعها.

كانت سوريا أصعب مشكلة في مستنقع المخابرات. وعندما كان كمب يواجه الحقائق تبين له أن المخابرات أصبحت ـ بشكل متزايد ـ منفصلة عن موضوع السياسة ليس في سوريا فقط وإنما في جميع أنحاء الشرق الأوسط. وجد كمب أن الاستخبارات الخام هي الأفضل. مئات الرسائل والالتقاطات وتقارير المصادر والملخصات كانت ترد كل يوم، ولم يكن هناك أي طريقة لجعلها ذات معنى. أما الاستخبارات النهائية ـ وهي نشرة الاستخبارات الصباحية الملخصة من وزارة الخارجية ومن التقديرات ومن التقارير الواردة ـ فقد بدت وكأنها تأكل من نفسها.

كانت الخرائط والبيانات كبيرة وكلما تفحصها كمب لم يجد فيها أي شيء مفيد. ليس هناك أي مبادىء تنظيمية للمعلومات. وإذا كان هذا يسري على لبنان فيمكن أن تكون المعلومات المتعلقة بمصر وفي نفس اليوم أفضل، ومتصلة أكثر بالموضوع. كان كمب بحاجة إلى تفهم دقيق للنوايا الحقيقية للشعوب وأهدافها وسلوك زعمائها. وكان هذا يحتاج وحده لسنوات. لقد ترك موت بوب ايمز فراغاً قطع على جورج شولتز تفهمه، وتركه وحيداً في العراء. أما بيل كلارك، رئيس كمب، فلم تكن لديه الخبرة، وتخلى عن الشرق الأوسط لشولتز.

بعد أربعة أيام من الانفجار صرح الرئيس ريغان بأنه سيرسل وزير الخارجية إلى الشرق الأوسط.

في ١٧ أيار/ مايو وقع لبنان وإسرائيل اتفاقية حول سحب القوات الإسرائيلية من لبنان وإعطاء ضمانات لحدود إسرائيل الشمالية. وكان الرئيس اللبناني أمين الجميل قد رفع من شأن سوريا عشرين مرة في مناقشاته مع شولتز والدبلوماسيين الأميركيين. وكان شولتز واثقاً من أن سوريا لا يمكن أن تمارس قوة الفيتو على التسوية وكان يعتقد بأنّ للولايات المتحدة تأثيراً على سوريا أكثر مما يظن أي شخص.

وكان أمام الجميل موضوع واحد. إذا كان لا بد من الخضوع للسوريين فهو يفضل أن يقوم بذلك وهو قوي. إن الاتفاقية مع إسرائيل سوف توحد الفرقاء الداخليين في لبنان ضده، ولهذا كان بحاجة إلى ضمانات من الولايات المتحدة.

هكذا وفي يوم توقيع الاتفاقية بين لبنان وإسرائيل أرسل الرئيس ريغان رسالة سرية

إلى الرئيس الجميل اعتبرت أنها نوع من الضمان لأنها تعِدُ بأن الولايات المتحدة لن تسمح بمهاجمة لبنان، وأن لبنان لن يقاسي من جراء توقيعه اتفاقية مع إسرائيل. وكما وعد بشير الجميل بدعمٍ وبحماية سرية من قبل وكالة المخابرات المركزية، وعد الآن شقيقه بدعم رئاسي أميركي سري بموجب مظلة عسكرية دبلوماسية، وبالتواجد الدائم لوحدات مشاة البحرية الأميركية في بيروت.

اعتبرت وكالة المخابرات المركزية أن هذه التسوية ليست بداية مشجعة. وتوالت التقارير التي تفيد بأن سوريا لن توافق على التسوية، ووافق قسم الاستخبارات في وزارة الخارجية على ذلك.

هذه التقارير تضمنت ثلاث نقاط أساسية: أولاً: المشاكل الداخلية في لبنان كانت كبيرة جداً، بحيث أن الولايات المتحدة لم تكن قادرة على حلها بالطرق الدبلوماسية بل وحتى بالقوة العسكرية إلا إذا كان هناك رغبة في إشراك ٥٠ ألف مقاتل أميركي. ثانياً: كان أمين الجميل قائداً ضعيفاً بالفطرة! ثالثاً: قوات حفظ السلام الأميركية في لبنان كانت على وشك البدء بقتل مواطنين عرب باسم أحد فرقاء النزاع وذلك لن يكون مقبولاً من بقية الفرقاء. وأكثر من ذلك، استنتج المحللون أنه على الرغم من ميل صانعي السياسة في الولايات المتحدة إلى اعتبار سوريا رهينة سوفياتية، كان لسوريا مفكرتها الخاصة وكان الرئيس الأسد مخطِّطاً واستراتيجياً قوياً وسيِّداً بالنسبة إلى أمين الجميل.

شعر كمب في مجلس الأمن القومي بأن أكبر فشل للاستخبارات كان عدم القدرة على تنظيم نبذة عن الحياة الشخصية والسيكولوجية لزعماء العالم. إن شخصيات الأسد والجميل وبيغن كانت ما هي عليه، ولكن الاستخبارات الأميركية لم تستطع وصفهم بشكل كافٍ. مثلاً هناك نبذة سرية عن الحياة السيكولوجية للزعيم الليبي معمر القذافي نظمها الدكتور جيرالد بوست رئيس فرقة السياسة السيكولوجية في وكالة المخابرات المركزية، واعتمدت بشكل كثيف على الصور. وجاء في النبذة: «على عكس الاعتقاد السائد، فإن القذافي لم يكن مصاباً بالهوس بل كان في الحقيقة يعاني من اضطرابات قاسية في الشخصية، وكان سلوكه الشخصي يتناوب بين الجنون وعدم الجنون». تعجب كمب كيف يمكن لهذه المعلومات أن تساعد صانعي السياسة. وجاء أيضاً في النبذة عن القذافي: «تحت تأثير الضغط والإجهاد الشديدين يمكن أن يسلك سلوكاً شاذاً وعندها يمكن أن تكون أحكامه خاطئة». وربطت النبذة عن القذافي بين بعض تصرفاته وبعض الأزمات في حياته الشخصية. كل ذلك كان سخافة بالنسبة إلى كمب. ولكنها كانت سخافة خطرة. واقترح كمب على البيت الأبيض أن يستعين بروائي ليساعده في تنظيم هذه النبذات.

بما أن ريغان لم يكن يقرأ الروايات كثيراً، وإنما كان يشاهد الأفلام السينمائية، فقد بدأت وكالة المخابرات المركزية تنتج نبذات مصورة عن حياة زعماء العالم بحيث يستطيع

الرئيس أن يشاهدها في البيت الأبيض أو في كمب ديڤيد. وإحدى هذه النبذات المصورة كانت عن الرئيس المصري الجديد. بدأت النبذة بقول الراوي: هذا هو حسني مبارك. وتبع ذلك موسيقى وصور للقرية التي ولد فيها مبارك وتقع شمالي دلتا النيل.

وكلما كان الزعيم بعيداً عن الأوساط الصحافية أو عن المقابلات التلفزيونية، قلّت أهمية النبذات. وكلما كان الزعيم مشهوراً على المسرح الدولي كانت النبذات مؤثرة وفعالة. وإحدى أفضل هذه النبذات كانت عن رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن. تبدأ النبذة بمشهد للبلدوزرات والسائقين المقنعين يدفعون كوم الجثث في معسكر نازي وصوت بيغن يدوي عالياً: «لا يمكن ثانية، لا يمكن ثانية»، وبدت النبذة وكأنها تدخل إلى عقل بيغن، وكانت مؤثرة جداً.

كان ريغان يتأثر كثيراً بالنبذات المصورة على الڤيديو، وكان كمب يعتقد بأنها كانت مفيدة لتعليم باكر وميز وديڤر الذين كانوا لا يعرفون شيئاً عن الشؤون الخارجية. ومرر ريغان كلمة لوكالة المخابرات المركزية من أنه كان مسروراً من هذه النبذات. وسرعان ما بدأت الوكالة تنتج محاضرات مصورة عن البلدان والعواصم الأجنبية التي كان ريغان يخطط لزيارتها.

لم يكن من المفترض، بناءً لاتفاقية ١٧ أيار/ مايو، أن يقيم لبنان علاقات واتصالات مع إسرائيل. ولكن أمين الجميل سمح لاستخباراته العسكرية وبصورة سرية أن تقيم علاقات مع الموساد الإسرائيلي، وأن تعطي الإسرائيليين معلومات عن أماكن تواجد الفلسطينيين. وكانت أوامر الإسرائيليين حازمة لجهة عدم السماح بهجمات على الفلسطينيين في لبنان دون موافقة من السلطة العليا. إلا أنه تم تنفيذ غارات جوية كثيرة على المواقع الفلسطينية.

كان جورج شولتز يحث على إبقاء الـ١٦٠٠ عنصر من مشاة البحرية الأميركية في لبنان، والجدير بالذكر أن شولتز كان ضابطاً في مشاة البحرية. ووافق كايسي على ذلك إلا أن وينبرغر ورئيس الأركان المشتركة اعترضا بعنف، ولكن الرئيس لم يشأ أن يظهر تخليه وأبقى مشاة البحرية.

كان كمب مقتنعاً بأن الوجود العسكري الأميركي لا يحقق شيئاً. ولم يكن هناك أي نظام للمناقشة في الإدارة. وكان من الأسئلة الأساسية: ماذا إذا غاصت القوات الأميركية في المستنقع اللبناني؟ ماذا لو أصبحت جزءاً من المشكلة؟

* * *

كان ستانسفيلد تورنر في مكتبه في الطابق الأرضي في منزله في مدينه ڤيرجينيا يكتب مقالات. وكان قد نشر ١٦ مقالاً خلال سنة بعد تقاعده. وكان يعمل في كتابة مذكراته عن وكالة المخابرات المركزية. كان يجلس أمام كومبيوتر من طراز راديو شاك ويطبع أفكاره حول

نيكاراغوا. كان تورنر قد وقع على تعهد، أسوة بجميع موظفي الوكالة، بإخضاع جميع كتاباته لمراجعة وكالة المخابرات المركزية. وقال مسؤولو المراجعة في الوكالة إنه لا يمكن لتورنر أن يذكر مساعدة وكالة المخابرات المركزية للكونترا، وبرروا ذلك بأنه كان هناك عملية دعم سياسية للكونترا عندما كان تورنر مديراً للمخابرات المركزية. واعتقد تورنر بأن اعتراضهم كان سخيفاً لأن عملية الدعم الخفية وشبه العسكرية التي نفذتها إدارة ريغان كانت مختلفة تماماً. وفسر تورنر ذلك بأنه محاولة لمنعه عن الكلام في العلن ضد عملية نيكاراغوا. وبعد مماحكة طويلة تم التوصل إلى تسوية: يمكن لتورنر أن يرجع إلى تقارير الصحافة والمناقشات في الكونغرس، إنما لا يجوز له الإدلاء بتأكيدات شخصية. كما أن عليه أن يضع كلمة إذا قبل أي شرح. وهكذا بدأت مسودة تورنر النهائية المصدقة: «إذا كانت وكالة المخابرات المركزية متورطة بعمق في تقديم الدعم الخفي لعصابات الثوار في نيكاراغوا كما تقول التقارير فإنها بذلك تكون قد ارتكبت خطأً جسيماً».

ظهرت مقالة تورنر في صحيفة واشنطن بوست يوم الأحد في ٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٨٣ بعنوان: «من رئيس سابق لوكالة المخابرات المركزية: أوقفوا العملية الخفية في نيكاراغوا». وكان كايسي يرغب في الاستماع إلى الانتقادات حتى من تورنر، ولكنه نظر إلى المقالة على أنها إعادة تسخين «الأغمانية» نسبة إلى أغمان نائب المدير السابق، وأن تورنر عاد إلى الوراء. ولكن كايسي كان أكثر حزماً من أن تقوده المعارضة، وكان يؤمن بأنه لا يجوز تسليم أميركا الوسطى للشيوعية. لقد نفذ أوامر رونالد ريغان.

قال كايسي في البيت الأبيض إن عملية نيكاراغوا كانت في خطر وإنه بحاجة إلى المساعدة. وافق الرئيس على شن حملة لضمان عدم إقدام الكونغرس على قطع النفقات. وفي دالاس، اتهم شولتز نيكاراغوا بأنها أصبحت قاعدة «لشكل جديد من أشكال الدكتاتورية» التي اتجهت نحو «أميركا الوسطى بأكملها». واستدعى ريغان زعماء الكونغرس إلى البيت الأبيض للقاءات خاصة، واتصل بالعديد من الأعضاء هاتفياً.

ليلة ٢٦ نيسان/ أبريل ألقى الرئيس ريغان خطاباً قومياً متلفزاً لمدة ٣٤ دقيقة أمام جلسة مشتركة لمجلسي الكونغرس خلال الساعات الأولى من الفجر. وكانت المرة الأولى في ولايته التي يظهر فيها أمام جلسة مشتركة حول السياسة الخارجية. ودعا الكونغرس للموافقة على طلبه بتخصيص ٦٠٠ مليون دولار كمساعدة علنية لأميركا الوسطى. ولم يذكر في خطابه الدعم الخفي لثوار الكونترا، ولكن لم ينسَ أحد النقطة التي لم يتحدث الرئيس عنها عندما قال: «يجب أن لا نحمي الحكومة النيكاراغوية من غضب شعبها». وقال السناتور الديموقراطي دود في جوابه المتلفز عن الجانب الديموقراطي بعد أن اختار موضوع السلفادور: «لقد كنت في تلك البلاد وأعرف الكثير عن متعهدي دفن الموتى الذين يتنقلون بين الشوارع كل صباح ليجمعوا جثث الذين أحضرتهم قوات الأمن السلفادورية من بيوتهم في الليلة

الماضية. إنه أسلوب العصابات. وإنهم ضحية الركبة المنحنية والأصابع وراء الظهر والرصاصة في الدماغ. نحن نتراجع أمام صورة كهذه لأننا تعاونّا مع المجرمين».

وخلال دقائق بدأت مناقشة واسعة في السياسة الخارجية ليس حول الرئيس وخطابه بل حول دود وخطابه. وبدأ الديموقراطيون يقذفون حجارة القرميد على دود. لقد ذهب بعيداً جداً. هل أهان الرئيس وأهان أميركا؟

كانت وكالة الأمن القومي قد التقطت اتصالات منذ أشهر، عندما زار دود نيكاراغوا. في تلك الاتصالات شرحت الحكومة الساندينية كيفية التمسك بدود ووصفته بأنه صبي جيد، وبأنه متفهم لهم إن لم يكن متعاطفاً معهم. وقدمت نسخة عن الالتقاط إلى لجنة استخبارات مجلس الشيوخ كما كانت تجري العادة عند أي موضوع يتعلق بأحد الشيوخ. ورأى دود في ذلك أنه تلويث مقصود، واشتكى بصورة خاصة إلى البيت الأبيض، وأبرز نسخاً عن تقرير لوزارة الخارجية يظهر أنه كان فظاً في لقاءاته مع الساندينيين.

لم يكن كايسي سعيداً بهذه الأحداث، وبدا أن القضية الرئيسية كانت السناتور دود وخطابه اللاذع واستقباله كصبي جيد في ماناغوا، وليست وكالة المخابرات المركزية!

في ٣ أيار/ مايو مَثَل كايسي أمام لجنة استخبارات مجلس النواب. وصوتت اللجنة بأغلبية ٩ أصوات ضده لقطع النفقات السرية.

في ٦ أيار/ مايو مَثَلَ كايسي أمام لجنة استخبارات مجلس الشيوخ، وهي فرصته الأخيرة، وسئل عن مذكرة الرئيس التي وقعت عام ١٩٨١. واتفق أعضاء اللجنة على أن الهدف قد تغير وتجاوز وقف تدفق السلاح. وكان كايسي مراعياً لرغبة الآخرين، وقال: «نعم نحن بحاجة إلى إعادة صياغة المذكرة».

واقترح غولدووتر مذكرة جديدة تضع أمامها أهدافاً جديدة، واقترح بذل مزيد من الجهود لإجبار الساندينيين على المفاوضة والضغط عليهم من أجل المزيد من الديموقراطية. ووعد كايسي بأن تعيد الإدارة النظر في البرنامج وتوضح أهدافه بدقة. وكان هذا تنازلاً مادياً. الرئيس يقرر الأعمال الخفية ويعطي العلم للجان الكونغرس. واعتقد مونيهان وليهي وبعض الجمهوريين بأنهم يملكون الأغلبية لقطع النفقات فوراً.

ولكن غولدووتر الذي كان قد اجتمع مع ريغان وكايسي اقترح التسوية التالية: لا للاستمرار الكامل ولا للقطع الكامل. علم كايسي بأن هذه التسوية ستحتكم إلى المشرعين. وبتسميتها تسويةً وُضع عليها اسم غولدووتر ليصبح سقوطها غير ممكن. وقضت تسوية غولدووتر بالاستمرار في دفع النفقات للعملية لمدة خمسة أشهر أخرى، وسمحت بمبلغ ١٩ مليون دولار للسنة المالية الجديدة كاحتياط للمذكرة الرئاسية التي تضع أهداف البرنامج. ولكنها أكدت أن مبلغ الـ١٩ مليون دولار المقرر للسنة القادمة مشروط بتصويت أغلبية اللجنة عليه.

اعتقد مونيهان وليهي أن هذا يؤكد سلطة الكونغرس على الأعمال الخفية، وأضاف مونيهان أنه يجب المصادقة على المذكرة الرئاسية بتصويت في اللجنة.

ومرت التسوية بـ١٣ صوتاً ضد صوتين هما الجمهوريان والوب وجون شافي. وكان كايسي مبتهجاً. لن يكون مضطراً في المرات القادمة إلى أن يدع اللجنة تصادق على المذكرات الرئاسية والتي أراد من أعضاء اللجنة أن يكتبوها بأنفسهم. وهكذا ربح الكونغرس مؤقتاً بعض النقاط وحصلت وكالة المخابرات المركزية على المال.

كانت الأوساط الصحافية قد امتلأت بالتسريبات. وكان كايسي متأكداً من أن خصومه في الكونغرس قد بدأوا يبذلون نشاطاً لإخافة الجمهور.

وبعد يومين ظهر في صحيفة واشنطن بوست عنوان رئيسي: «جيش الثوار النيكاراغويين المدعوم من الولايات المتحدة يرتفع عدده إلى سبعة آلاف». وتساءلت المقالة عن «صراحة وإخلاص إيجاز وكالة المخابرات المركزية للجان الاستخبارات في الكونغرس». كما اقتطفت صحيفة نيويورك تايمز حديثاً لعضو ديموقراطي في لجنة استخبارات مجلس النواب يقول فيه: «وكالة المخابرات المركزية تكذب علينا بأي طريقة». وبعد بضعة أيام كان الخبر الرئيسي في صحيفة نيويورك تايمز بعنوان: «وكالة المخابرات المركزية تتوقع الإطاحة بالساندينيين». كان هذا غير صحيح، وطلب كايسي من صحيفة نيويورك تايمز أن تنشر تكذيباً في الصفحة الأولى من عدد اليوم التالي.

في ذلك المساء كان كايسي قد حضر حفلة عشاء «ربطة العنق السوداء» في القاعة الكبرى لفندق هيلتون في واشنطن، وذلك لتقديم وسام دونوفان لديك(*) هلمز، فقد كان كايسي يرى أن هلمز آخر رفش من قذارة السبعينات أي نهاية العصر المضاد لوكالة المخابرات المركزية. تكلم كايسي وامتدح هلمز وبوش، وتليت رسالة من الرئيس ريغان تشيد بدعوة هلمز إلى وقفة الضمير.

واستقبل هلمز كالبطل العائد، ووقف على المنبر أمام صورة بطول عشرة أقدام لدونوفان، وبدا أنيقاً وحكيماً، وكان يرتدي قميصاً فاتحاً ونجوم الجنرال على قبته. قال هلمز وقد غمره الفرح: «إنني مأخوذ وسعيد». وأضاف: «إن أسبابي لن تكون غامضة عن أيٍ منكم».

كانت جين كيركباتريك سفيرة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة تجلس قرب كايسي في اجتماعات مجموعة تخطيط الأمن القومي التي كانت تعقد في القاعة المخصصة للأمور الهامة، وكانت الاهتمامات الداخلية بالسياسة الخارجية تحرك السياسة الدولية المعلنة والخفية. وبحضورها اجتماعات مجموعة تخطيط الأمن القومي أعطيت الأستاذة السابقة في العلوم

(*) ديك: اسم الدلع لريتشارد.

السياسية فرصة نادرة للاشتراك في صنع السياسة الخارجية. وكان كايسي يصطحب معه جميع المستندات والإيجازات إلى هذه الاجتماعات. وكانت كيركباتريك تحزن عندما ترى كايسي يقف وحيداً في آرائه. وعندما اقترح أحد مفكري الإدارة تجنب استعمال التعابير الطويلة لأهداف السياسة الخارجية القومية والاستراتيجية أجابت كيركباتريك بأن معظم الناس لن يفهموا شيئاً، ويحتمل أن يفهم بيل كايسي فقط.

لفتت كيركباتريك انتباه ريغان وحصلت على منصبها في الأمم المتحدة بالصدفة وذلك بعد أن نشرت مقالاً في مجلة كومنتري بعنوان: «الدكتاتورية والمواقف المزدوجة» وجاء في المقال: «لم يكن شاه إيران وسوموزا ضد الشيوعية فقط بل كانا صديقين للولايات المتحدة. وهي بذلك توجه صفعةً لكارتر لأنه لم يدرك أن هذين النظامين اليمينين هما أفضل من نظام آية الله الخميني ونظام الساندينيين».

فوجئت كيركباتريك عندما رأت أن وجهات النظر المحافظة لريغان وكايسي وكلارك لم تعتمد كسياسة عامة خلال سنتين من حكم الإدارة. البيروقراطية والبراغماتية كانتا سائدتين. وكان الاستثناء الوحيد هو عمليات كايسي الاستخبارية التي انبثقت منها استراتيجية متماسكة.

وخلال سنتين تبادل كايسي وكيركباتريك التأثير والاحترام واتفقا على ما قالت عنه كيركباتريك في مجالسها الخاصة إنه فضيحة حقيقية في إدارة ريغان، وهو الجهل الفاضح للشؤون الخارجية من قبل صانعي السياسة ومن ضمنهم الرئيس نفسه. ولكن الرئيس كان لطيفاً جداً وكان الجميع ومن ضمنهم كيركباتريك لا يعيرونه بذلك. واتفق كايسي وكيركباتريك على أن السياسة الخارجية لم تكن مركَّزة تماماً ولم تحقق الأهداف المرجوة. اشترك كل من وزير الدفاع وينبرغر ووزير الخارجية شولتز في هذه الحرب البيروقراطية. وصمم وينبرغر على حماية وزارة الدفاع وتماسكها وركز اهتمامه على تجنب التورط العسكري. وكان شولتز رجلاً بارعاً ولكن يديه كانتا مقيدتين، وخفّف مبادراته الدبلوماسية مع السوفيات لأن ذلك يعني تقديم شيء ما في المفاوضات. وساد الخوف من الجناح اليميني وقد ترك تباعد شولتز ووينبرغر فراغاً، وكان يجب ملء هذا الفراغ. لم يكن ريغان راغباً بضرب الرؤوس. ونائب الرئيس بوش ليس لديه صلاحية محددة للقيام بعمل ما. بيل كلارك مستشار شؤون الأمن القومي لم تكن لديه الخلفية ولا الجلد لكي يتدخل في هذه المواضيع.

لقد ملأ هذا الفراغ رئيس أركان البيت الأبيض جيمس باكر ومساعد الرئيس ريتشارد دارمان، وتحكّما بالاشتراك مع ديفر بجدول أعمال الرئيس وتدفق الأوراق. لقد أداروا أعمال ريغان وكانوا يطلعون على ما يقرأ. وأجرى باكر ودارمان مراجعة شاملة لجميع المصادر للعثور على بديل مقبول من شولتز ووينبرغر، واستشاروا زعماء الكونغرس والآخرين، وذلك قبل إصدار القرار الرئاسي. وكان يجب تقديم توصية بالإجماع إلى الرئيس من أجل إجراء

أي تعديل. واعتقد كايسي وكيركباتريك بأن توزع أدوات صنع القرار بهذا الشكل أدى إلى خنق النوايا الرئيسية الحقيقية.

لقد اشتكيا في مجالسهما الخاصة من أن السياسة الخارجية للإدارة كانت القاسم المشترك الأصغر للعقليات المتشابهة أو للآراء المتشابهة.

أعجبت كيركباتريك بكايسي لأنه عاش حياة متوازنة وعمل كثيراً، ومع أنه كان جدياً إلا أنه كان دائماً يخصص وقتاً للشراب. وكانت ترى أن له ذوقاً رفيعاً من الموسيقى إلى نوعية السجّاد! لقد كان غنياً ومثقفاً ومتحضّراً. ومنذ أول حياتها الأكاديمية كانت كيركباتريك معتادة على أشخاص لامعين يمضغون طعامهم بطريقة مزعجة أو لا يعرفون كيف يعقدون ربطات عنقهم جيداً. وكانت ترى أن كايسي كان الوحيد في مجموعة تخطيط الأمن القومي الذي كان جدياً ومهتماً بالسياسة. وكانا كلما التقيا في حفلة عامة في المدينة سرعان ما تراهما معاً في زاوية يتحدثان في السياسة. ولكن ظهر خلافهما في موضوع هام واحد، فقد كانت كيركباتريك تعتقد بأن إدارة ريغان لا يمكنها تنفيذ عمليات خفية بصورة فعالة دون دعم شعبي وموافقة من الكونغرس. قال كايسي إن ذلك كان خط مكماهون. وفي هذه الإدارة لم يكن العمل الدبلوماسي خياراً، وكذلك لم يكن العمل العسكري المباشر خياراً. الرئيس ريغان لا يريد أن يجلس مع السوفيات ولا يريد أن يقاتلهم أيضاً. ولذلك كان العمل الخفي هو الآلية الوحيدة التي تحتوي تورط الولايات المتحدة في الخارج.

وعلى الرغم من هذا الخلاف بقي كايسي وكيركباتريك صديقين حميمين. وشعرت كيركباتريك بأن كايسي كان يصغي كثيراً إلى وجهات نظر الآخرين. وكان ذلك هو السبب في إبقاء مكماهون حوله. لم يكن كايسي قاسياً في أحكامه. بالإضافة إلى ذلك كانت كيركباتريك مسرورة لأن كايسي لم يكن عضواً في عصبة أو جمعية سرية أو من الذين كانوا يغلّفون بالسكر كل ما يقولونه للرئيس! قال كايسي إن السوفيات كانوا بصدد التحرك، وكان تأثير كايسي يظهر بوضوح عندما كان يناقش حول مدى التوسع السوفياتي. كانت هي المسألة التي اتفق عليها اللاعبون الرئيسيون في الإدارة. وكانت عمليات كايسي الخفية في وسط اختياراتهم ومشاكلهم وترددهم، والآن ها هو قد ربح استمرار تمويل عملية نيكاراغوا لخمسة أشهر أخرى على الأقل، وآن الأوان للتقدم نحو الأمام.

بعد رحيل أندرز حاول كايسي وكيركباتريك تعيين قسطنطين منج بديلاً عنه. وكان معاون الوزير يترأس بشكل آلي مجموعة داخل الوكالة التي كانت تشرف على الأعمال الخفية، ولكن شولتز لم يرغب بيميني متعصب.

وتمت التسوية، أنطوني موتلي وهو سفير الولايات المتحدة في البرازيل ويبلغ من العمر ٤٤ عاماً، سعيد الحظ ويستعين بالشتائم في كلامه بشكل كبير. سبق أن كان مقاولاً في الاسكا وجمهورياً متحمساً. كان قد وُلد في البرازيل وهو يجيد اللغة البرتغالية بطلاقة. وكان

ريغان وديفر قد تأثرا بأسلوبه أثناء رحلة رئاسية إلى البرازيل.

كان كايسي يظن أنه يمتلك كل شيء. في ذلك الربيع ورد تقرير إلى الوكالة يفيد بأنه كان من المقرر أن تتوقف عدة طائرات ليبية في البرازيل في طريقها إلى نيكاراغوا. وبأنها كانت تحمل السلاح وليس المساعدات الطبية كما صرح بذلك الليبيون. اتصل موتلي بكايسي وقال: «سأقوم بتحرك»، وأضاف بأنه سيذهب إلى وزير الخارجية ويطلب تفتيش الطائرات ولكن «أريد أن أتأكد أن هذا صحيح»، وأكد له كايسي ذلك. وتم توقيف الطائرات والعثور على ٧٠ طناً من الأسلحة والذخائر والمتفجرات، وكان هذا نصراً إعلامياً مزدوجاً ضد ليبيا ونيكاراغوا.

كان كايسي أيضاً متأثراً بطريقة موتلي في جمع المعلومات في البرازيل، فقد كانت له مع الرئيس البرازيلي جلسة طعام مؤلفة من بفتاك وبيرة بشكل منتظم. وأرسل تقارير هامة تفوق تقارير محطة الوكالة والتقاطات وكالة الأمن القومي.

كان موتلي يحب اللعب بخشونة وقذارة. وبعدما تبين أن خطة وكالة المخابرات المركزية للإطاحة بزعيم سورينام غير عملية، بدأت المخابرات البرازيلية أول عملية خفية. وكان للبرازيل وسورينام حدود مشتركة طولها مائة ميل تقريباً، وأرسلت المخابرات البرازيلية عملاء إلى سورينام تحت غطاء مدرِّسين بهدف إبعاد حكومة سورينام عن الكوبيين، وذلك بتشجيع من موتلي، وبمساعدةٍ من وكالة المخابرات المركزية. وفيما بعد ابتعد زعيم سورينام المقدم بوتريس عن الكوبيين.

استدعي موتلي إلى واشنطن حيث أبلغه شولتز بأنه رقي إلى رتبة معاون وزير، وقال له شولتز: «دعنا نبعد عملية الكونترا عن الشؤون الانتخابية». وفي البيت الأبيض أعطى جيم باكر نفس التوجيهات لموتلي، وقال باكر إن سياسة الرئيس كانت تقضي بزيادة الحرارة على نيكاراغوا.

أدرك كايسي أن هذا هو تقويم ديفر الذي كان مكلفاً بالمحافظة على شعبية ريغان، والتي كانت القوة المحركة في البيت الأبيض. وكانت عملية نيكاراغوا عاملاً سلبياً بالنسبة إلى هذه الشعبية. ولم يكن البيت الأبيض قادراً على أن يمضي قدماً في العملية على الرغم من اقتناع الرئيس الراسخ والشروحات المتكررة للجمهور.

في الجانب الآخر كان بيل كلارك مصمماً على أنه من أنصار سياسة دعم الكونترا ومعاداة الساندينية. كان قد تلقى تعليماً يسوعياً وكان يؤمن بالسلسلة العمودية للإمرة من الرب إلى الأسفل. كان الرئيس هو الرب في السياسة الخارجية وكان كلارك نائبه، ولكن بدا أن ديفر والرأي العام يحتلان مرتبة هامة، وكانت النتيجة توتراً بين ديفر وكلارك.

ما زال كايسي مصمماً على نقل منج من الوكالة حيث كان لامعاً وملفتاً للنظر، ولكنه لم يقدر أن يبيعه لشولتز. وقد وافق محللو الوكالة على أن هناك تهديداً سوفياتياً شيوعياً في العالم

وأن مهمتهم كانت تحديد قوة التهديد ومكانه. وكان منج يفترض وجود شر في كل مكان، ومن كثرة انتقاداته للوكالة أطلق عليه لقب «المهدد الدائم». وكان منج يثير الاحتكاك بين كايسي ومكماهون. وكان من الصعب على كايسي أن يأكل بعيداً عن مكماهون. ولم يستطع أن يتسامح تجاه حماسة إيديولوجية منج. وكان هذا الأخير يسعى إلى تحقيق هدفه وهو زيادة الشعور بالقسم السيء من الأحداث العادية. وكان يردد: «هؤلاء الاستخباريون البيروقراطيون لا يعرفون عما يتكلمون».

كان منج يرغب في أن يكون له مساعدون إلى يمينه، وفي الظهور على أنه معتدل. ولكن وقت منج انتهى. فقد طلب بيل كلارك منه أن ينضم إلى أركان مجلس الأمن القومي، وقال كايسي له إنه يمكن أن يكون لك تأثير أكثر هناك لأن كلارك كان من مفاتيح الإدارة وكان يحوز على ثقة الرئيس ريغان، وكان الرئيس يتفق معه في وجهة نظره المتعلقة بالسوفيات.

ذهل كثير من المحللين لنبأ تعيين منج في مجلس الأمن القومي، وكان بعضهم قد عمل في مديرية العمليات وعرف منج جيداً، وتعجبوا لأن رجلاً لم يتحمله أحد في وكالة المخابرات المركزية أصبح مقبولاً في البيت الأبيض. وكان كايسي قد نقل مشكلة تشور سانشيز إلى وزارة الدفاع، وكان يعرف ليس فقط كيف يتخلص من مثيري المتاعب، بل وكيف يضعهم في المراكز الملائمة لهم. ولهذا سماه موتلي «تاجر الرقيق».

كان اختيار خليفة لمنج عملاً هاماً. وكان كايسي قد زاد من هيبة وسمعة ضباط الأمن القومي وهم الذين لعبوا دور ضباط الارتباط وعملاء المقاصة. أولاً: لقد كان على ضابط الأمن القومي أن يتعامل مع الآخرين بنجاح وأن يكسب احترام المحللين. ثانياً: يجب أن يكون ضابط الأمن القومي على علاقة ممتازة بمدير العمليات، وعليه أن يعرف طبيعة عمل مديرية العمليات، وإلى أين تتجه سياسة الولايات المتحدة، وماذا يريد الرئيس وكايسي. ثالثاً: كان ضابط الأمن القومي مفتاح الصلة مع بقية وكالات الاستخبارات وخاصة وكالة الأمن القومي ووزارة الدفاع. رابعاً: يجب على ضابط الأمن القومي كمراقب للوضع في منطقته أن يكون له تأثير على السياسة في تلك المنطقة. إن تقديراً جيداً ومستنداً إلى الوثائق يمكن أن يخدم السياسة مثل المعلومات الاستخبارية الجيدة. وأهم التقديرات في هذه الأيام كانت تقديرات أميركا اللاتينية.

في أوائل الصيف وضع كايسي في جدوله رحلة سرية لمدة يومين إلى أميركا الوسطى، وقرر أن يصطحب معه مكماهون. وكان من النادر وغير العادي أن يترك الوكالة الرقم ١ والرقم ٢ إلى خارج البلاد، ولكن كايسي أراد أن يورط نائبه أكثر في عملية نيكاراغوا. وانتشرت مزحة في الوكالة مفادها أن كايسي كان يحاول أن يورط نائبه، ويجعله يضع بصماته على الحرب الخفية. كان كلاريدج سيرافقهما طبعاً. وقرر كايسي أن يصطحب معه ضابط

الأمن القومي الجديد هورتون. وكان العضو الخامس في الرحلة روبرت ماجي الذي كان يترأس فرقة النشاطات الدولية وهي وحدة في مديرية العمليات كانت تدير العقود الخارجية.

كانت فرقة النشاطات الدولية تنتقل من عمل خفي إلى آخر، وتؤمن الدعم اللوجستي وخاصة الطائرات والزوارق والدعم البحري والدعم الإعلامي والعمليات السيكولوجية. كان عناصر هذه الفرقة يعملون في الطابق الأول في لانغلي، وكانت لهم طريقة فعالة في نقل المعدات، وفي التعاقد مع الموظفين لكل عملية. كانت الفرقة تركز مثلاً عملها لمدة أسبوع على الكونترا، وفي الأسبوع التالي تركز على المقاومة الأفغانيّة، وبعده على عملية إعلامية في منطقة الكاريبي أو على عملية دعم استخباري في الشرق الأوسط. وكان ماجي قادراً على تلقي الضغط من كايسي الذي كان يطلب عملاً مباشراً وسريعاً.

ـ «آه يا رب» قال ماجي مرة عندما طلب كايسي منه تأجيل عملية طيران. وأضاف: «أنا لا أريد أن أجيب هكذا»، وضحك الجميع وضحك كايسي أيضاً.

كان لماجي رأي حول إخلاص كايسي لسبوركين. إنه نادي الأكولين القذرين. قال ماجي إن سبوركين هو الوحيد الذي يسقط من طعامه على ربطة عنقه أثناء الأكل أكثر من كايسي.

وكان كايسي يشعر بالارتياح مع المرافقين الأربعة. الجميع مكماهون وكلاريدج وهورتون وماجي لهم خبرة قوية في مديرية العمليات.

توجه مكماهون وهورتون معاً في السيارة إلى قاعدة أندروز الجوية حيث كانت طائرة معدة للمهمات الخاصة بانتظارهم، وهي تتسع لاثني عشر مقعداً. هبت عاصفة صيفية قوية، وكان انطباع هورتون الأولي أن كل عمل وكالة المخابرات المركزية في أميركا الوسطى كان يعاني من مشاكل. لم تقم المحطات بمراقبة شديدة للسوفيات. وكان اختراق المجموعات السياسية في معظم البلدان ضعيفاً، وأقل بكثير مما تصور. ولكن نيكاراغوا كانت موضع اهتمام كبير.

لم يجب مكماهون.

قال هورتون: إن نيكاراغوا كانت تأكلهم.

قال مكماهون: «لقد كنت من فوق في جانب من شجرة القرار ومن تحت صرت في الجانب الآخر». وهز برأسه وتساءل كيف ستجري العملية؟ لقد كان متشائماً حول مصير البرنامج.

عندما وصلا إلى الطائرة طلب منهما أحد حراس أمن كايسي أن لا يدعاه يغفو خلال الطيران، وقال أحدهما: «وماذا يحصل إذا غفا؟»، أجاب الحارس: «سيبقى يتحدث ويسأل أسئلة طوال الليل».

بعد أن أقلعت الطائرة استقر كايسي. كان مسافراً ظريفاً. كان يضحك من أي

اضطراب في الجو ويقول: «مثل الحفر في الطريق».

حطت الطائرة بهم في تيفوسيكالبا ـ الهندوراس وأخذ كايسي حقائبه إلى مقر إقامة السفير الأميركي. أراد أن يرى الجميع، ووضع جدولاً لاجتماعات مع جميع ضباط المحطة وتأكد من أنها تجري بدون كلفة. استقلت المجموعة السيارات وتوجهت إلى منزل راي دوتي، حيث كان مركز قيادة عمليات الكونترا.

حاول كلاريدج أن يوجه النقاش نحو مواضيع الأسلحة والذخائر. كم لدينا من الأسلحة؟ هل تم تجنيد عدد كافٍ من العناصر؟ هل هناك أسلحة كافية؟ ماذا عن الذخيرة؟ دعنا نجرب هذا. جرِّب ذلك.

حاول كايسي ومكماهون التركيز على الوجه التالي؛ كانا يفكران في كيفية شرح العملية للكونغرس.

لقد كشفت زيارة السناتور ليهي إلى المنطقة في مطلع هذه السنة عن طموحات كبيرة للعملية، وكانت التسريبات تظهر زيادة عدد مقاتلي الكونترا. كان هناك أيضاً انتقاد ضمن الوكالة حول أن عناصر الكونترا ليس لديهم أي عقيدة سياسية، وأنهم كانوا مجرد عصابات مسلحة ناقمة تطوف في الجبال. قال كايسي إن له هدفاً بعيداً، وقال إن الكونترا يجب أن يتركوا الجبال ويدخلوا المدن وينشروا رسالتهم، ويؤلبوا المشاعر ضد الساندينيين، وعليهم أن يصبحوا قوة سياسية.

لم يكن كلاريدج معجباً بهذا النوع من الحديث. لقد كان يقود جيشاً وليس حزباً سياسياً، وقد تنزلق هذه الملاحظات لتخالف «توصية بولاند» التي منعت الجهود والعمليات التي تهدف إلى الإطاحة بالساندينيين. إن قوة سياسية ومتطورة يمكن أن تطيح بالحكومة بعكس الجيش المؤلف من غير النظاميين، والذي ليس لديه أي هدف سياسي منظور. أراد كايسي أن تظهر الكونترا كقوة سياسية داخل نيكاراغوا، وكان يؤمن بأن شعب نيكاراغوا سوف يؤيد أي قوة تعتنق مبادىء الديموقراطية والرأسمالية.

قال كايسي «حسناً، انظر إلى سافيمبي» ثم أضاف: : «إن قائد المقاومة الأنغولية منذ أواسط السبعينات، أضحى رمزاً للمقاتلين من أجل الحرية». ومع أن وكالة المخابرات المركزية منعت بموجب «توصية كلارك» من مساعدته فقد كان لسافيمبي قوة كبيرة من المقاومة المسلحة، وقام بتثبيت عشرات الآلاف من الجنود الكوبيين في أنغولا، كانوا بحاجة إلى ما قيمته مليار دولار من الأسلحة السوفياتية.

اعتقد عدد من مرافقي كايسي بأنه كان يتقبل دون نقد الصورة الوردية التي رسمتها استخبارات جنوب إفريقيا لسافيمبي. لقد كان رجلهم وكانت حكومة الأقلية البيضاء في جنوب إفريقيا قد دعمته بمئات الملايين من الدولارات خلال السنوات الماضية.

طار الفريق مسافة ١٤٠ ميلاً نحو الغرب إلى السلفادور وعقدوا سلسلة لقاءات

سياسية واستخبارية، وأخذ كايسي وقته ليتحدث مع جميع ضباط محطة وكالة المخابرات المركزية بكل ألفة ومحبة. كان سهلاً في علاقاته مع الناس، ينظر إليهم باهتمام، يقدم لهم الإيجازات وكلمات التشجيع، أو يسأل سؤالاً محدداً ويتوقف في خلال حديثه ليستمع إلى الجواب. وكان ضباط العمليات يشعرون بأن له رغبة حقيقية في العمل، واهتماماً شديداً بالوكالة.

في السلفادور أراد كايسي أن يحذر بعنف الحكومة والعسكريين والاستخبارات وقوات الأمن من استمرار عمل حضائر الموت اليمينية. وكانت هذه الحضائر التي نمت في أواخر السبعينات لتقاتل المسلحين اليساريين قد اغتالت مطراناً، وقتلت أربع راهبات أميركيات. وكانت مجموعات حقوق الإنسان قد اتهمت هذه الحضائر أيضاً بقتل حوالي ٣٠ ألف شخص في السنوات الأربع الماضية. ربما كان ذلك مغالاة ولكن بالتأكيد كانوا مشكلة جدية. لقد كانت صور الأصابع في القيود التي قال عنها السناتور دود.

دعا رئيس الجمهورية بالوكالة الفارو ماغنا كايسي والفريق المرافق إلى تناول طعام العشاء. دخل كايسي رأساً في الموضوع وقال: «لدينا مشكلة حقيقية مع «حضائر الموت» ويجب أن تفعلوا شيئاً بشأنها». وقال بحزم: «والآن كيف تساعدون؟».

لاحظ هورتون أن لدى كايسي مصداقية قوية مع السلفادوريين حول المسألة. لقد كانوا يعلمون أنه يميني وأنه يحتقر اليساريين أكثر منهم. لم تكن مناقشته أخلاقية بل براغماتية. إن «حضائر الموت» تسبب المشاكل لكم أكثر مما تسببه لليساريين. ولم يكن هناك خطر وقف الدعم بعشرات الملايين من الدولارات فقط، بل وقف الدعم من قبل إدارة ريغان بشكل عام، ولم يلون كايسي كلامه بنداءات عاطفية حول حقوق الإنسان.

عقد كايسي اجتماعات خاصة مع كبار المسؤولين، وكان أحد أهم هذه الاجتماعات ذلك الذي جرى في غرفة صغيرة مع الكولونيل نيكولاس كارانزا رئيس بوليس الخزانة. وكان كارانزا نائباً لوزير الدفاع عام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ وله روابط قوية مع التحالف الوطني الجمهوري اليميني ARENA وهو الجناح اليميني للرائد السابق في الجيش روبرتو دابيسون. كان كارانزا في السنة الماضية مرشحاً قوياً لرئاسة الجمهورية في السلفادور، وكان يتقاضى راتباً كمخبر في وكالة المخابرات المركزية منذ حوالى خمس سنوات، وكان يتلقى ٩٠ ألف دولار في السنة(*).

ربما كان قسم الاستخبارات في بوليس الخزانة مسؤولاً عن الإساءة لحقوق الإنسان، لكن كارانزا نفسه كان نظيفاً جداً وكما قالت وكالة المخابرات المركزية كانت ثقافة العنف راسخة بعمق في نفوس رجال البوليس والعسكريين. أراد كايسي أن يتكلم بشيء من السلطة

(*) كشف عن دور كارانزا كمخبر في وكالة المخابرات المركزية فيليب توسمان في نيويورك تايمز عدد ٢٢ اذار/ مارس ١٩٨٤.

مع عميله الذي يقبض منه وقال له: «دعك منها» لأن العلاقة بين السلفادور والولايات المتحدة يمكن أن تتأثر بتجاوزات اليمين. تكلم كايسي بصورة شخصية، وقال إن هذه الإساءات قد تؤدي إلى وقف كل مدفوعات الوكالة والمساعدات الحكومية.

في نهاية الرحلة سأل هورتون كايسي مازحاً: لماذا كانت الرحلة قصيرة بهذا الشكل؟ لماذا كانوا هكذا في عجلة من أمرهم؟

أجاب كايسي: ماذا تريد أن تفعل بعد بحق الجحيم؟ وابتسم وكأنه يثبت أنه يستطيع تغطية المنطقة بشكلٍ لا يستطيعه شخص آخر.

- ١٣ -

بعد أن استقر في مكتبه الجديد في الطابق السابع في مبنى وزارة الخارجية، اتصل طوني موتلي بكلاريدج وقال: «لقد خصصت يوماً كاملاً لموضوع نيكاراغوا وأريدك أن تأتي إلى هنا». حضر كلاريدج واصطحب معه خرائط وبيانات ووثائق وملفات. لقد كان بالفعل، دائرة معارف متحركة حول هذه العملية وملماً بجميع التفاصيل: الجغرافيا والتلال والطرق والطقس وكل الشخصيات الهامة في الكونترا. وصف كلاريدج بعض قادة الكونترا بأنهم مزعجون جداً ووصف بعضاً آخر من المقاتلين الأشداء بأنهم «حيوانات» ولاحظ أن بعضاً منهم لا بأس بهم.

اعتبر كلاريدج أن الكونترا في بعض الحالات هم ملائكة الجحيم في أميركا الوسطى. وتأثر موتلي بالعرض بشكل عام. لقد خلق كلاريدج جيشاً وبذل جهداً شخصياً لذلك. سأله موتلي: كيف توصلت إلى هذه المعرفة الشاملة وأنت آتٍ من أوروبا والشرق الأوسط، وتتعامل مع رؤوس بالية؟

أجاب كلاريدج: هؤلاء الناس هم متوسطيون ولاتينيون. لقد تعاملت مع الإيطاليين وشعوب شمال إفريقيا وأعرف هذا الصنف من الناس. إنهم يقولون لك ما تريد أن تسمع ولديهم ستة طرق ليقولوا لا. إنهم يحبون أميركا ويكرهونها في الوقت نفسه.

سأل موتلي: ماذا بعد؟

قال كلاريدج: «إن كايسي الملعون يريد شيئاً يؤدي إلى ضجة في الإعلام». أراد كايسي من الكونترا أن تضرب في المدن، وشرح كيف وقع الجميع تحت ضغط كبير لإخراج الكونترا من الجبال لأن ضرب الساندينيين في الجبال لم يعد كافياً.

واقتطف كلاريدج من أحاديث كايسي: «احصل على أي شيء. هذه الأخبار لم تكن للاستهلاك السياسي المحلي في الولايات المتحدة فقط ولكنها كانت أيضاً لإعطاء مصداقية للكونترا في نيكاراغوا».

وبدا هذا معقولاً لموتلي.

قال كلاريدج: «نحن لا نستطيع أن ننتقل من التلال إلى المدن. إنها عملية معقدة. عندما يأتي هؤلاء الرعاع من الكونترا إلى المدن سيفعلون كما يفعل سكان الجبال ويخلقون كابوساً تموينياً».

قال موتلي: «وماذا تريد أن تفعل؟».

ابتسم كلاريدج. كان هناك طريقة. دائماً هناك طريقة. كان يريد عملية تلفت الأنظار. لقد كانت الحرب جحيماً وعليك أن ترتجل.

كان كايسي مصمماً على أن يقوم بأي عمل ممكن ليحمي عملية نيكاراغوا، وهذا يتطلب تحسين علاقاته المتوترة مع مخربين أساسيين هما الكونغرس والرأي العام. في السنتين الماضيتين أدرك كايسي أن التقصير كان من الشخص الذي كان يمسك بهذه العلاقات وهو وليم دوزويل رئيس مكتب وكالة المخابرات المركزية للشؤون الخارجية. ودوزويل ديموقراطي قديم دعم ريغان عام ۱۹۸۰. عمره ٥٣ سنة وليس لديه خبرة في عمل الاستخبارات. كان ناشراً صحافياً وأحد أنجح عناصر اللوبي في المجلس التشريعي لولاية فيرجينيا. لم يكن متحمساً لعملية نيكاراغوا ولم يستطع كايسي أن يتحمل مدير مبيعات له شكوك حول البضاعة التي يبيعها. وكان دوزويل يعتقد بأن ازدراء كايسي للكونغرس أمر سيء.

أقال كايسي دوزويل وقرر أن يضع أفضل عناصر الوكالة في مكتبين منفصلين: واحد للكونغرس والثاني للرأي العام، وأن يعهد برئاسة كل مكتب إلى ضابط له خبرة في الفن الذي سيمارسه.

اختار كايسي كلير جورج وله خبرة ۲۷ عاماً في مديرية العمليات رئيساً لمكتب العلاقات مع الكونغرس. كان جورج مرحاً وملماً بجوانب مهنته. عام ۱۹۷٥ وفي أوج تحقيقات تشرش وبايك، اغتيل ريتشارد ولش رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية في أثينا على يد مسلحين كمنوا له خارج منزله. كان منزل رئيس المحطة في أثينا معروفاً وكان مسجلاً على لوحة محطة الأتوبيس. وقد نتج عن مقتله تعاطف شعبي مع وكالة المخابرات المركزية، وكان عملاء سابقون وغير موالين قد كشفوا عن صفة ولش كرئيس محطة. لكن ولش الميت أسدى خدمة للوكالة في آخر حياته. لقد مات شهيداً، ونقلت وسائل الإعلام وشبكات التلفزيون وقائع وصول جثته إلى الولايات المتحدة مباشرة مع جميع التشريفات العسكرية التي حضرها الرئيس فورد ومدير المخابرات المركزية وليم كولبي، وحمل النعش على عربة مدفع مماثلة لتلك التي حملت الرئيس الراحل جون كينيدي.

على الرغم من خطر محطة أثينا فقد عينت الوكالة كلير جورج بديلاً عن ولش. وهكذا أضحى وجوده في لوبي الكونغرس ذكرى مفيدة للشجاعة والإخلاص. قبل جورج الوظيفة وذهب إلى لجان المراقبة ووعدهم بمرحلة جديدة من التعاون والثقة المتبادلة.

استدعى كايسي إلى مكتبه جورج لودر وهو الرجل رقم ۲ في مكتب المفتش العام في

الوكالة، أي كلب الحراسة الداخلي. وكان لودر من العناصر الأصلية في العمل الخفي وكان قد عمل في عهد الغرور والطيش في الخمسينات وله خدمة ٣٢ سنة في الوكالة تقريباً، وهو رجل طويل القامة يرتدي دائماً ثياباً تشبه ثياب الطلاب الجامعيين وكان مؤمناً بوكالة المخابرات المركزية ومخلصاً لها ولأهدافها. كان يتكلم دائماً بصوت عالٍ. لم يكن «الرجل الرمادي» المطلوب، ولكنه كان جاسوساً متمرساً.

كان لودر يشعر بأن كايسي يحتاج إلى هواء نقي في الوكالة، وبأنه على عكس تورنر كان يرضى بدورٍ خلف الأضواء. عندما كان تورنر مديراً للمخابرات المركزية وكان لودر نائب رئيس فرقة أميركا اللاتينية لم يتمكن لودر من إقناعه بأن الوكالة قادرة على تحقيق أهدافها، وأدار عمليات خفية في جامايكا دون علم المدير. وفشل في إقناع تورنر في إبقاء مبلغ ١٥٠٠ دولار كمساعدة لرئيس تحرير صحيفة أجنبية، كان قد ساعد الوكالة بحجة أن لجان الكونغرس كانت عصبية تجاه هذه الأعمال! وليم كايسي هو الذي ألغى جو عدم الثقة في داخل الوكالة.

عندما دخل لودر إلى مكتب كايسي أدرك أن الوقت قد حان للانتقال من وظيفته، ولكنه لم يكن متأكداً من نوايا كايسي.

قال كايسي: «تهانينا».

سأل لودر بتعجب: «على ماذا؟».

قال كايسي: «لقد اخترتك مديراً للشؤون العامة».

قال لودر: «ماذا فعلت لأستحق ذلك؟».

قال كايسي: إن الوكالة تحتاج إلى من يتعامل مع الأوساط الصحافية لوقف نشر الأخبار المضرة. يمكن أن نكون قد أخطأنا بإقفال أبواب الوكالة لأن الأوساط الصحافية تستطيع الحصول على معلومات الوكالة من خلال الكونغرس أو البيت الأبيض أو وزارة الخارجية أو وزارة الدفاع.

قال لودر إنه أمضى حياته يبتعد عن الأوساط الصحافية، وحافظ على سرية وجوده في الوكالة حتى تجاه أحد أقربائه وهو محرر صحافي.

قال كايسي بحزم: «لقد تم اختيارك».

عندها ضرب لودر عقبي حذائه على بعضهما بشدة. لقد استساغ بغريزته لحظة كهذه، أي حديثاً مع القمة. لقد كان في إذعانه ما يريحه، وهو يعرف أنه جزء من الحكاية. لقد خاطر بحياته مرات عديدة في الميدان ولن تكون غرفة الصحافة أكثر خطراً.

أدرك كايسي أنه حصل على الرجل الذي يريده. كان لودر استناداً إلى ملفه الشخصي موالياً صلباً للوكالة، وكان هذا ما أحبه كايسي في عناصر مديرية العمليات. ولكنه كان أيضاً واقعياً عندما كان مساعداً للمفتش العام اشترك في التفتيش عن السلاح الذي منع نقله في

عملية نيكاراغوا الخفية. كان لودر شريفاً لدرجة أنه قال: إن العملية لم يكن لها أي تأثير على تدفق السلاح إلى السلفادور. وقال مرة: «نحن لم نعثر على الفأر» ولكن لودر استمر في تأييده للعملية.

أولاً كان عليه أن يعمم قرار كايسي بتعيينه ضابطاً لشؤون الصحافة ثم كان عليه أن يتعرف إلى المحررين وطريقة عملهم، وكان عليه أن يضع نفسه بتصرف الجميع ويقيم علاقات مع الصحافيين ويحاول أن يعرف من هم أهل للثقة، وأن يعلم كايسي عندما كان يحضر لنشر خبر يثير الإزعاج للوكالة. لم تكن كلمة «تجنيد» هي الكلمة الدقيقة ولكنها أقرب تعبير عن تعامله مع المحررين.

قرأ مكماهون في الصفحة الأولى في الواشنطن بوست صباح ٢ حزيران/ يونيه ١٩٨٣ «كايسي تاجر كثيراً في البورصة» وقال «يا للتفاهة». وأضاف مرة ثانية: صار نموذج الكشف المالي السنوي موضوع تداول الجميع. أظهر النموذج أن كايسي اشترى بمبلغ ١,٥ مليون دولار على الأقل في البورصة في فترة ٢٦ يوماً. كان مكماهون قد ضحك كثيراً عندما سمع النكتة التي تقول إن وكالة المخابرات المركزية تعني استثماراً جديداً لأموال كايسي.

رفض كايسي بشدة أن يضع استثماراته بثقة عمياء، وقال إن مستشاره لشؤون التوظيف هو من كان في الحقيقة يتخذ القرارات. تذكر مكماهون أنه كان قد أجبر كايسي على أن يبيع أسهمه في شركة أي. بي. أم أو يعفي نفسه من قرار كبير حول شراء كومبيوتر للوكالة. عندها تضاعفت قيمة الأسهم وشعر كايسي بالإخفاق.

حاول مكماهون عدة مرات أن يدفع كايسي إلى الاستثمار وفقاً لثقة عمياء، إلا أن كايسي رفض، وأعد عملية جنونية على الشاشة داخل الوكالة حيث بإمكان مكماهون وكبار المسؤولين الاطلاع بشكل منتظم على لائحة بعشرات الشركات التي يملك فيها كايسي توظيفات مالية. لقد كان من المستحيل الاستمرار في هذا الوضع، وكانت تتعالى صيحات الضحك في الوكالة في لانغلي عندما كانت المذكرات تتعقب الرمال المتحركة لأوراق وسندات كايسي (أضف شركة دلتا للطيران واشطب لاكونيا موتو)، ورد ذلك في إحدى المذكرات. حتى غولدووتر كتب رسالة إلى كايسي قائلاً: «إن كايسي كان غنياً بما فيه الكفاية ولن يكون قادراً على أخذ أشيائه الثمينة بعد وفاته». ردّ كايسي على ذلك قائلاً: إن أعضاء لجنة استخبارات مجلس الشوخ يُسمح لهم بالاطلاع على بعض المعلومات الحساسة لكن أين كانت ثقتهم العمياء؟

أدرك مكماهون أن تدبير عرض المعلومات على الشاشة لا يؤدي إلى أي نتيجة. لقد أظهرت التقارير أن ١٣ شركة في ملف كايسي قامت بأعمال مع وكالة المخابرات المركزية تتراوح بين ١٢ دولاراً و٤ ملايين دولار. هل أن وكالة المخابرات المركزية بحاجة لكل هذا!!؟ تعجب مكماهون.

ذهب مكماهون إلى كايسي وقال له إن هناك انطباعاً سائداً بأنه كان يتصل بعميله في البورصة ست مرات في اليوم ويبحث عن معلومات حول المستثمرين الآخرين.

قال كايسي: «إنها كذبة ملعونة».

قال مكماهون: «تماماً ولكن النكهة لن تذهب بعيداً». كان كايسي في وضع يصعب الدفاع عنه. من ناحية كان يصرّ على أنه لم ينتهز فرصته ليشتري أو يبيع الأسهم، والذي كان يقوم بذلك هو مستشار التوظيف عنده، ومن ناحية أخرى كان يصر على الاحتفاظ بفرص دون اختبارها. لم يكن هناك مجال للجمع بين الطريقتين. وهذا يضعنا أمام سؤال: «إذا سلمنا بأنك أعطيت مستشارك صلاحية اتخاذ القرار فهل يختلف هذا عن الثقة العمياء؟».

أجاب كايسي: «ليس صحيحاً».

قال مكماهون: «حسناً، افعلها هذه الملعونة».

حدق كايسي بصلابة نحو الوراء.

يوم الاثنين ١٨ تموز/ يوليو أصدر كايسي بياناً يقول إنه خلال سنتين ونصف كمدير مخابرات مركزية كان ذا ثقة عمياء واقعية ومشروعة ونظيفة. «وعلى الرغم من ذلك ولتجنب أي ارتباك أو سوء فهم أنا أخطط لأقيم ثقة عمياء».

في آخر الصيف، غادر كايسي في رحلة سرية إلى إفريقيا والشرق الأوسط ليزور محطات وكالة المخابرات المركزية. كان هناك حاجة ماسة ليطلع بنفسه على الأوضاع. بدا كل شيء مختلفاً على الأرض، كما في ساحة دالاس حيث اغتيل جون كينيدي. ما زال رؤساء المحطات بحاجة إلى توجيهاته لجمع مزيد من المعلومات. طلب منهم الخروج من السفارات وتوسيع علاقاتهم مع القوى المحلية وحضور اجتماعات الأحزاب المحلية تحت غطاء.

كان كايسي قد خطط لزيارة ١١ بلداً في ١٨ يوماً. اصطحب معه عدداً من معاونيه واستقل طائرة من القوات الجوية مخصصة لنقل الشخصيات الهامة. بعد عبور المحيط الأطلسي توقف أولاً في السنغال ومن ثم في ساحل العاج في غربي إفريقيا. وقابل كايسي في هذه البلاد رؤساء الدول أو الحكومات ورؤساء الاستخبارات ومعاونيهم واصطحب معه في لقاءاته سفراء الولايات المتحدة. وكان قد فاجأ رؤساء محطات الوكالة بأسئلته. كم يبعد القصر الجمهوري عن ثكنة الجيش؟ عن الجامعة؟ من هو قائد المعارضة؟ ماذا يشبه رجال المخابرات السوفياتية؟ بعد غربي إفريقيا كانت رحلة لمسافة ٥٠٠ ميل إلى نيجيريا. كانت الطريق من المطار إلى العاصمة لاغوس بحراً من السيارات والباعة المتجولين مما اقتضى ساعات عديدة لقطعها. كان نائب رئيس الاستخبارات النيجيرية يقود فريقاً لتأمين السير.

قال أحد مساعدي كايسي: «تخيل جون مكماهون يحاول تأمين السير في جادة جورج واشنطن». وأثناء توقفهم في زحمة السير تقدم أحد المواطنين ودقّ على الشباك وحاول أن يبيع

كايسي نبريشاً أو خرطوم مياه بطول ٥٥ قدم. كان تعليق كايسي أن هذا الصنف لا يمكن شراؤه على طريق المطار!

في زائير، الكونغو سابقاً، التقى كايسي مع زعيم البلاد جوزيف موبوتو. وتعود صلة هذا الأخير بوكالة المخابرات المركزية إلى عام ١٩٦٠، وهي السنة التي كانت الوكالة قد خططت فيها لاغتيال الزعيم الوطني باتريس لومومبا. في ٢٥ آب/ أغسطس ١٩٦٠ تلقى رئيس محطة الوكالة من مدير المخابرات المركزية آلن دالس رسالة تقول «إن إزاحة لومومبا يجب أن تكون هدفاً عاجلاً وأولياً لعملك الخفي». وقبل أن يبدأ تنفيذ مؤامرة الوكالة قتل لومومبا على يد أنصار موبوتو. وكان لكايسي علاقة شخصية وهامة مع موبوتو وكانا يتبادلان المعلومات باستمرار.

كتب كايسي بعض الملاحظات بالفرنسية ليلقيها في حفلة عشاء دعي إليها في تلك الليلة. قال: «بعد الحرب العالمية الثانية حضرت حفلة عشاء أقامها قادة المقاومة وتكلمت كما أتكلم الآن باللغة الفرنسية. وفي اليوم التالي قالت الصحف إن السيد كايسي كان يتكلم بلغة بلاده وأدركت أن ذلك يعني أنهم اعتقدوا بأني طليق بالفرنسية لدرجةٍ أبدو فيها كفرنسي، أو أن فرنسيتي كانت عاطلة جداً لدرجة أنهم ظنوا أني أتكلم بالإنكليزية».

وضجت القاعة بالضحك.

طار الفريق إلى زامبيا ومن ثم إلى جنوب إفريقيا. ذهب كايسي إلى حجرة القيادة وطلب من الطيّار أن يحلق على ارتفاع منخفض فوق زيمبابوي وأن يرتفع فقط عندما يصبح فوق شلالات ڤيكتوريا. تحليقة واحدة لم تكن كافية، طلب تحليقة أخرى وهو يحدّق من شباكه. في بريتوريا قام بجولات عادية في مقر الحكومة والسفارة الأميركية ومحطة وكالة المخابرات المركزية وحضر حفلة غداء اقتصرت على لحوم مشوية في الريف مع عشرة من رجال الأعمال. وعلق أحد هؤلاء، ولم يكن يعرف شيئاً عن وظيفة كايسي: «هذا الرجل يبدو بارعاً ويمكنه أن يربح الكثير من الأعمال التجارية». كان كايسي معجباً باستخبارات جنوب إفريقيا وأقام علاقات وثيقة معها. وكانت جنوب إفريقيا تشعر بالتهديد الشيوعي للمنطقة وقد أمنت حوالي ٢٠٠ مليون دولار لدعم حركة ثوار جوناس سافيمبي الذي كان يقاتل النظام الماركسي في أنغولا. كان كايسي ما يزال يأمل بإلغاء «توصية كلارك» لعام ١٩٧٦ التي تمنع دعم وكالة المخابرات المركزية الخفي لسافيمبي، ووعد المسؤولين في جنوب إفريقيا بأن الوكالة ستشترك معهم في هذا النزاع في أقرب وقت ممكن.

في ذلك الطقس الحار جمع كايسي ثيابه القذرة، نزع كل ثيابه تقريباً وسلمها إلى مستخدم تنظيف الملابس في الفندق الذي وعده بأنه سيعمل ٢٤ ساعة يومياً، ليسرع في تنظيفها. وفي منتصف تلك الليلة تبين أن المستخدم لم يعد الثياب إلى كايسي! وكان موعد إقلاع الطائرة في الساعة السادسة صباحاً، عندها قام مرافقوه باقتحام غرفة الغسيل في

الفندق لاستعادة الثياب وذلك لتأمين الملابس النظيفة لكايسي وتجنب التأخير أو تغيير جدول الرحلة. كانت التوقفات التالية في زيمبابوي، وكينيا التي وصلوها الساعة العاشرة مساءً. عقد كايسي في كينيا اجتماعين مع بعض أصدقائه من رجال الأعمال في الليل وفي صباح اليوم التالي على الفطور، وارتبك رئيس المحطة عندما لاحظ مدى معرفة كايسي بالبلد وتآلفه معه.

بعد رحلة ٢٢٠٠ ميل إلى القاهرة، اجتمع كايسي مع الرئيس المصري حسني مبارك ثم أمضى ساعات مع رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية الذي كان يشرف على أكبر منشآتٍ للوكالة خارج الولايات المتحدة. كانت معظم الأسلحة والمؤن للثوار الأفغان تنقل عبر مصر. ثم تابع الرحلة إلى تركيا التي لها حدود مشتركة مع الاتحاد السوفياتي والبحر الأسود وسوريا والعراق والبحر المتوسط، والتي كانت في رأي كايسي أحد أكثر البلدان حيوية وأهمية من الناحية الاستراتيجية في العالم. كان التوقف النهائي في المغرب لزيارة الملك الحسن الثاني. لم يسمح كايسي بأي سهو تجاه العلاقات الحيوية. كانت وكالة المخابرات المركزية تؤمن المعلومات والأمن للمغرب كما كانت تؤمن لقادتها الطائرات الحكومية، أحدث أنواع الأدوية، وكانت تساعد مواطنيها على الدراسة في الولايات المتحدة.

عاد الفريق إلى قاعدة أندروز الجوية، وكان معاونو كايسي متعبين، وطلبوا جميعاً العودة إلى منازلهم. أما المدير فقد عاد مباشرة إلى لانغلي.

السناتور وليم كوهين وهو جمهوري من ولاية ماين وعضو في لجنة استخبارات مجلس الشيوخ منذ تسعة أشهر فقط، تحدث قليلاً مع كايسي بعد إحدى جلسات الاستماع. كجمهوري أراد كوهين أن يدعم الإدارة في موضوع نيكاراغوا وكان يعلم أن غولدووتر قد وضعه شخصياً في اللجنة. ولكن كوهين أحس بأن كايسي وغولدووتر يمكن أن يخسرا بسهولة الإجماع في اللجنة. وكانت تسوية غولدووتر معلقة بخيط رفيع. قال كايسي إذا قطع المال عن عملية نيكاراغوا يكون الكونغرس مسؤولاً عما قد يحدث.

كان كوهين خجولاً واعتبر أن كايسي يمكن أن يكون على حق. استدعى الرئيس ريغان كوهين شخصياً وقال له: «هل تعلم لماذا استدعيتك؟» نريد أن تساعدنا إذا استطعت ذلك. أجاب كوهين أنه سيدعم الإدارة، ولكنه كان قلقاً.

قال كايسي لكوهين إن عليه أن يزور أميركا الوسطى. انظر بنفسك. اذهب إلى نيكاراغوا وتحدث مع الساندينيين. وكان يروق لكوهين، وهو مدّعي عام سابق، الذهاب إلى مسرح الأحداث والاستماع إلى الشهود وكان يحاول دائماً أن يعرف الحقائق بدقة. وحتى يتعرف على العالم السري لإشارات الاستخبارات قرأ كتاباً من ٥٣٢ صفحة عنوانه: «القصر المحيّر» صدر عام ١٩٨٢ عن وكالة الأمن القومي تأليف جيمس بامفورد. إن الجواب على عملية نيكاراغوا لم يكن كتاباً أو إيجازاً بل كان في الميدان.

لم يسقط كوهين ولم يتعثر في متاهات السياسة، وكان شاعراً وله مجلد شعري عنوانه

«الأبناء والفصول» صدر عام ١٩٧٨. كان يحب الحقيقة، وكان عام ١٩٧٤ صوتاً هاماً في لجنة القضاء في مجلس النواب التي صوتت على اتهام نيكسون بالتقصير. تحدث كوهين في مناقشة عامة على التلفزيون حول الاستنتاج بطريقة صحيحة وقال: «إذا كنت نائماً على الأرض، هنا، واستيقظت صباح اليوم التالي ووجدت أن الثلج يكسو الأرض حولك فإن الثلج حتماً قد سقط خلال الليل وإن لم تكن قد رأيته يسقط».

كان السناتور غاري هارت وهو ديموقراطي من ولاية كولورادو أفضل صديق لكوهين، وكان الاثنان يكتبان رواية عن التجسس وذلك بصورة سرية. وجاءت فكرة الرواية عند انتهاء جلسة لمجلس الشيوخ في آخر الليل وبعدما أظهرا شكوكهما في وكالة المخابرات المركزية وفي العاملين فيها. وعنوان الرواية: «الرجل المزدوج». وبدا أن الهدف منها إن لم يكن تجارياً فهو على الأقل لعبة روائية للحزبين معاً (الديموقراطي والجمهوري). وكان البطل سناتور ترأس لجنة تحقيق حول الإرهاب في العالم. وكان أحد الأشرار مدير وكالة المخابرات المركزية الذي كتم معلومات عن اللجنة وزرع امرأة عميلة له في اللجنة لتخبر وكالة المخابرات المركزية بما يجري!

في مطعم مجلس الشيوخ وفي أحد الأيام بعد الظهر خلال صيف ١٩٨٣ اقترب كوهين من هارت الذي سبق وكان عضواً في لجنة تشرش ولجنة الاستخبارات. وكان هارت قد ترشح لتسمية الحزب الديموقراطي للرئاسة وكان ما يزال في المؤخرة وقد أيّده ٤٪ فقط من الديموقراطيين لتسميته مرشحاً لانتخابات الرئاسة عام ١٩٨٤.

قال له كوهين موبخاً: «أنت تعلم أن عليك أن توسع أعمالك» واقترح عليه الاهتمام ببعض القضايا التي تثير المشاعر العميقة مثل أميركا الوسطى.

عندما كان في لجنة تشرش استنتج هارت أن وكالة المخابرات المركزية لم تكن تتقن الأعمال الخفية مثل عملية نيكاراغوا الآن. لقد اطلع هارت على السجلات السرية المؤلفة من ثمانية آلاف صفحة لمؤامرات الاغتيال في الخمسينات والستينات وخاصة ضد كاسترو. مثلاً في إحدى المؤامرات على حياة كاسترو أُعطي أحد عملاء وكالة المخابرات المركزية واسمه بالشيفرة AM/Lash أم لاش قلماً فيه إبرة تستعمل تحت الجلد ناعمة جداً لدرجة أن كاسترو لن يتمكن من ملاحظة إدخالها. وأوصى ضابط من الوكالة باستعمال سم قوي يدعى «الورقة السوداء ٤٠»، وجرى تسليم أدوات الجريمة في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٣. وكان تقرير المفتش العام للوكالة عام ١٩٦٧ متوفراً لاطلاع لجنة الاستخبارات. وجاء فيه «إن الرئيس جون كينيدي اغتيل في آخر لحظة».

لم تجد لجنة تشرش أي صلة بين المؤامرات ضد كاسترو واغتيال كينيدي ولكن هارت لم يؤمن بأن ذلك كان على سبيل الصدفة. كان ذلك تقريباً مثل ثلج كوهين الذي يكسو الأرض عند الصباح. لم يرَ أن الثلج يسقط ولكنه علم أن شيئاً ما قد حدث.

في الصباح الباكر ليوم الخميس ١٨ أيلول/ سبتمبر غادر كل من كوهين وهارت مع ضابط مرافقة من مشاة البحرية على متن طائرة س ١٤٠ إلى نيكاراغوا. وكان من المقرر أن يصلا مطار ماناغوا الساعة ٩,١٥ صباحاً.

أخطر الطيار أن مطار أوغوستو سيزار ساندينو قد أغلق، مما اضطره إلى التحليق حوالى ساعة في الأجواء القريبة من العاصمة ماناغوا. كان هناك نوع من الهجوم الجوي، وكانت قد أسقطت طائرة من طراز سسنا بمحركين ومجهزة بقنبلة ٥٠٠ رطل تحت كل جناح وتحطمت على برج المراقبة ومبنى المطار.

حلقت طائرة الشيخين حوالى ٤٥ دقيقة أخرى قبل أن تعود وتتجه إلى عاصمة الهندوراس، وهناك اتصلا بواشنطن لمعرفة ما جرى. وبعد قليل كان الجواب أن مطار ماناغوا مفتوح لهما.

لدى وصوله إلى مطار ماناغوا فوجىء هارت بالدمار. كان الدخان يتصاعد من كل مكان وقد دمر مبنى المطار. وكانت بقع الزيت والزجاج المكسور في كل مكان. وكان جسم الطائرة التي أسقطت قد تحول إلى نصفين. وكان طيارها ومساعده قد قتلا. وكان حوالي أربعين شخصاً في المطار ينتظرون للسفر قد فروا حفاظاً على حياتهم. وقتل أحد عمال المطار وكانت قاعة الشرف حيث كان من المقرر أن يعقد الشيخان مؤتمراً صحافياً قد أصيبت أيضاً بأضرار. وقال كوهين إنهما لو وصلا قبل الموعد المحدد بساعة لكانا لقيا حتفهما حتماً.

جاء الصحافيون النيكاراغويون ليطرحوا أسئلتهم. قال أحد المحررين إن هذا الهجوم الجوي كان بوضوح غارة للكونترا مدعومة من وكالة المخابرات المركزية.

قال كوهين: «وكالة المخابرات المركزية ليست خرساء». عندها أحضر المسؤولون النيكاراغويون حقيبة صغيرة كانت قد انتشلت من الطائرة. حدق كوهين وهارت بداخلها. كان هناك بيان يقول إن على الطيار أن يقابل أحد الأشخاص في كوستاريكا في أحد المطاعم، وفاتورة من ميامي وشهادة طيران من ولاية فلوريدا، وبطاقة ضمان اجتماعي أميركية وبطاقات مصرفية أميركية.

وكان هناك المزيد: الاسم المشفر للعملية وللعقد وغير ذلك. وأدرك هارت وكوهين أنها فعلاً من أوراق وكالة المخابرات المركزية.

قال المسؤولون النيكاراغويون إنه يوجد حول المطار مدفعان مضادان للطائرات بصورة دائمة، ولكن في ذلك الصباح أحضر تعزيز إلى المطار مؤلف من ١٧ مدفعاً. كان الهجوم الجوي متوقعاً. وكلما تحدث الشيخان إلى المسؤولين النيكاراغويين أكثر بدا واضحاً لديهما أن الساندينيين كانوا يحصلون على معلومات من داخل الكونترا. تلقيا إيجازاً عسكرياً من الساندينيين واجتمعا فيما بعد برئيس المجلس العسكري الحاكم دانييل أورتيغا الذي أعطاهما أمام الصحافيين أمثولة قاسية ضد الأميركيين. وعندما حاول كوهين أن يقلب الطاولة،

ويسأل عن الصحيفة النيكاراغوية الرئيسية لابرنسا التي كانت قد أغلقت بسبب انتقادها لسياسة الحكومة، أقفل المصورون كاميراتهم!

ذلك المساء تناول هارت وكوهين العشاء مع نورا استورغا، وهي سيدة مجتمع نيكاراغوية تحولت إلى ثائرة مع الساندينيين. كانت استورغا وهي تبلغ ٣٤ سنة من العمر أسطورة. عام ١٩٧٨ أغرت نورا أحد جنرالات سوموزا الكبار وهو الرقم ٢ في الحرس الوطني رينالدو بيريز ميغا الذي كان يعرف «بالكلب» ودعته إلى غرفة نومها حيث انقض عليه ثلاثة من عناصر الكوماندو الساندينيين وشقوا حلقه. ومنذ بضعة أشهر اقترح الساندينيون استورغا لتكون سفيراً لنيكاراغوا في الولايات المتحدة إلا أن إدارة ريغان رفضت ذلك. وأعجب كوهين وهارت بالدعابة التي كانت شائعة في ماناغوا: إذا طلبت منك نورا أن تمضي الليل معها فلا تفعل. إلا أن ذلك بدا ملائماً في النهار.

بعد العشاء ذهب كوهين وهارت إلى اجتماع في منتصف الليل مع رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية وقالا له إن المعلومات المتعلقة بعمليات الكونترا كانت تتسرب إلى الساندينيين. ارتبك رئيس المحطة وتردد وحاول التملص وبرر الغارة قائلاً إنها جهد أوّلي لسلاح الجو الخاص بايدن باستورا.

كان هارت مجروحاً ومذهولاً لأن هذه العمليات الغبية هي التي تقتل وكالة المخابرات المركزية. كيف يمكن التهرب من وجود اسم أحد العاملين في محطة وكالة المخابرات المركزية في سفارة الولايات المتحدة في كوستاريكا ورقم هاتفه في جيب الطيار. هذا مطار مدني وليس هدفاً عسكرياً. كيف تفكر أن ذلك يمكن أن يحقق شيئاً؟ إنها غلطة كبيرة تؤدي إلى تحول الشعب ضد الكونترا. لقد كان هناك عشرات المدنيين في المطار. افترض أن أحداً قصف مطاراً مدنياً في الولايات المتحدة؟

قال رئيس المحطة إن الهدف من القصف كان إظهار أن الكونترا جديّون ويمكن أن يضربوا العاصمة ماناغوا. قال هارت وهو يصرخ: هل تظن هذا مثل غارات دولتيل على طوكيو؟

ـ «حسناً» قال رئيس المحطة. الكونترا هم عملاء ولكنهم أحرار، ولا تستطيع الوكالة أن تتحكم بهم. وهم يحددون أهدافهم.

قال هارت: من الغبي والمجنون الذي كان يحمل أوراقاً خاصة بوكالة المخابرات المركزية في حقيبة صغيرة أثناء عملية قصف سرية؟ أنتم مجانين ومعدومو الكفاءة، واحمرّ وجهه وصرخ: «هذه سياسة سيئة ودبلوماسية سيئة وعمليات سيئة».

أرسل رئيس المحطة برقية إلى مركز قيادة الوكالة يقول فيها إن الشيخين غير السعيدين كانا على وشك العودة إلى واشنطن. كان طوني موتلي في رحلة إلى الهندوراس وتلقى خبر الغارة الفاشلة واتصل بكلاريدج.

قال موتلي: «ديوي أنت مجنون. كيف تفعل ذلك عندما يكون معاون وزير الخارجية يجول في المنطقة؟ لا أريد هراء كهذا عندما أسافر».

أجاب كلاريدج: «لا يوجد أي سيطرة فورية على هذا. لم نكن نعلم متى ستجري العملية، في هذا اليوم أو في ذاك. بإمكاننا أن نعرف فقط أنها ستجري خلال أيام». لقد أراد كايسي أخباراً، شيئاً ما يلفت الانتباه. وأضاف «حسناً لقد خرج الكونترا من الجبال كما أراد المدير».

في اليوم التالي توجه كوهين وهارت إلى السلفادور. وقاما بزيارة قرية سان لورنزو التي ضربها الشيوعيون وقطعوا عنها الكهرباء وحولوا الكنيسة إلى ركام وحطموا آلات الحياكة التي كانت تشكل المصدر الرئيسي لدخل سكان القرية.

تابع الشيخان جولتهما في السلفادور واستعملا طائرة هلكوبتر قديمة الصنع دون أبواب من الطراز الذي كان يستعمل في حرب ڤيتنام، ووضع كوهين سماعات على أذنيه ليستمع إلى حديث الطيار. وعلى ارتفاع حوالى ١٢٠٠ قدم فوق العاصمة سان سلفادور بدأت طائرة الهلكوبتر فجأة بالسقوط.

صرخ الطيار: «يا للعنة. أنا أفقد سائل الهيدروليك بسرعة، أريد أن أوقف هذه الطائرة الملعونة تحت».

ظن كوهين أن الطائرة ستسقط فوق المدينة، وأنهم سيلاقون حتفهم، ولكن ليس على أيدي الثوار الشيوعيين. لقد غير الطيار طريقه عدة مرات ليتفادى مدافع الشيوعيين وها هم الآن يتعرضون للخطر بسبب تسرب سائل الهيدروليك.

وبالاطلاع على كتيّب الصيانة بدأت الطائرة بالارتفاع فجأة حتى وصلت إلى علو عشرة آلاف قدم وكان ذلك مخيفاً.

سأل كوهين: «ماذا يجري؟».

أجاب مرافق الطيار: «علينا أن نبتعد عن مدى رمي الرشاش ٥٠٠ الذي يستعمله الثوار».

قرر كوهين أنه إذا كان لا بد من سقوط الطائرة فلتسقط من علو ألف قدم لا من علو عشرة آلاف قدم. واستعاد أحد قصائده الشعرية الأولى وعنوانها «سقوط حر»:

أنا لا أخاف من الطيران
أنا لا أخاف من الموت
العملية
نعم العمل. نعم.
ولكن الهلكوبتر لم تسقط ولم تتحطم.

ع٨ عندما عاد كوهين إلى واشنطن حضر كايسي إلى مكتبه في مجلس الشيوخ، وقال:

إن الوكالة لم تسمح بذلك القصف.

قال كوهين: إنها كانت خرساء وأسوأ من خرساء. لم يكن هناك حتى طريقة متطورة لإلقاء القنابل.

لم يوافق كايسي ولم يعترض أيضاً. وأدرك أن كوهين ليس سعيداً أبداً لأنه شعر بخطر الموت. وسأل بطريقة حية عن انطباعات كوهين.

قال كوهين: عليك أن تعلم أن عملياتك ـ أي عمليات الكونترا ـ مخترقة. لقد تمت زيادة عدد المدافع المضادة للطائرات من ٢ إلى ١٧ قبيل الغارة. ووعد كايسي بإجراء تحقيق.

علم كوهين فيما بعد أن الطائرة التي استخدمت في الغارة قد أمنتها وكالة المخابرات المركزية للكونترا.

وقال له أحد مسؤولي الوكالة إن الجميع في الوكالة أقروا الغارة. لقد كان باستورا قائد الكونترا هو المشرف على الغارة. لكنه لم يقل له إن الغارة كانت نتيجة ضغط من كايسي الذي «يريد أخباراً».

على الرغم من ذلك شعر كوهين بأنه لا يوجد مجال أمامه ليجعل من الغارة قضية، لأنها تظهر أنه إنما يهتم بسلامته الشخصية. وقرر المثابرة على دعم العمل الخفي وذلك للضغط على الساندينيين ليفاوضوا. لكنه لم يرحب بالعملية كلياً ولم يشعر بالثقة التامة حيال كايسي. لقد كان كايسي متزلفاً ولم يقل له القصة كاملة.

دعا كايسي السناتور هارت إلى الوكالة لتناول القهوة. قال له كايسي: أريد أن أؤكد أن أحداً لا يريد أن يقتلك.

قال هارت: المشكلة أن الكونترا أو وكالة المخابرات المركزية يمكن أن ينفذوا مهمة مجنونة كهذه. إن هذا الهجوم على المدنيين يظهر كمية هائلة من الكراهية.

قال كايسي: أنا أدرك خيبة الأمل التي أصبت بها أنت وكوهين.

أجاب هارت: أنت نسيت نقطتي. أنا لا أهتم بذلك. إنها السياسة، والناس وراء هذا الغباء. كيف يمكن أن تحدث هذه الغارة؟

قال كايسي: إن سياستنا تقضي بدعم القوى الديموقراطية. نريد منهم إعادة أخذ البلاد إذا رفض الساندينيون الاعتدال.

لم يرَ هارت أي فرق بين «إعادة الأخذ» و«الإطاحة» التي منعت بموجب القانون.

قال كايسي: نحن لدينا القائد صفر وهو يعني بذلك باستورا. يجب أن نسمح لهم بالقيام بأعمالهم الخاصة. أضاف كايسي: إن الهدف من الغارة كان لإثبات أن عمليات الكونترا ليست مناوشات حدودية ولكنها جهود وطنية ضد الحكومة الساندينية.

حاول هارت مرة ثانية أن يستدرج كايسي إلى أن يتحدث عن المردود العكسي لهذه العمليات.

أجاب كايسي أن هارت له بعض الأفكار الجيدة في موضوع الدفاع واقترح أن يجتمع كلاهما مع السناتور صمويل نان من جورجيا وهو خبير آخر في الدفاع لبحث بعض المسائل الدفاعية.

غادر هارت وهو متأكد أن وكالة المخابرات المركزية تنحرف وأنها ستنفجر من الداخل يوماً ما. لم يتصل به كايسي مرة أخرى لا حول مسائل دفاعية ولا حول أي شيء آخر.

بعد أسبوعين في ٢٠ أيلول/ سبتمبر مَثَل شولتز وكايسي أمام لجنة استخبارات مجلس الشيوخ لشرح عملية نيكاراغوا. كان الرئيس ريغان قد وقع مذكرة جديدة بناء لطلب لجنة الاستخبارات المقدم منذ أربعة أشهر. تضمنت تعابير تتراوح بين منع السلاح والإطاحة بالساندينين. كانت هذه الوثيقة السرية جداً على صفحتين ومؤلفة من خمسة مقاطع وهي أطول مذكرة وقعها ريغان، وكانت تسمح بالدعم المادي لمجموعات المقاومة النيكاراغوية، وبإعطائهم التوجيهات لتحقيق الأهداف التالية:

- حث الحكومة الساندينية على الدخول في مفاوضات مع الدول المجاورة.
- الضغط على الساندينيين وحلفائهم لوقف تهريب السلاح إلى السلفادور ووقف أعمال التدريب وتأمين قواعد الأمرة والسيطرة للثوار اليساريين في السلفادور.

كان الهدف المطلوب هو إعادة الديموقراطية إلى نيكاراغوا، والضغط من أجل المحافظة على حقوق الإنسان والحريات المدنية وحرية الصحافة وإفساح المجال للمعارضة السياسية لممارسة نشاطها بحرية. شعر كايسي بأن هذا يروق للديموقراطيين وللمعتدلين من الحزبين. لقد كانت هذه هي التسوية التي اقترحها أندرز ثم طرد من أجلها!

كان مجلس النواب قد صوَّت على قطع معونة ٨٠ مليون دولار للبرنامج الذي طلبه كايسي حول الأعمال الخفية، وذلك بأغلبية ٢٢٨ ضد ١٩٥ وبعد مناقشة عامة غير عادية حول عملية نيكاراغوا استمرت ثلاثة أيام.

أحب كايسي أن يأخذ معه شولتز إلى اللجنة. كان شولتز المعتدل في الإدارة.

اعتقد مونيهان أن هذا يشبه بداية الحرب الڤيتنامية. نعم إنها كانت مختلفة ولكن التيارات السائدة كانت هي ذاتها، خطوة معقولة تتبعها خطوة معقولة أخرى، وتجاهل المدلول الحقيقي لبعض الأحداث الدولية وتصويرها على أنها معتدلة عندما لا تكون كذلك. شعر مونيهان بأن كايسي وشولتز كانا يستغبيان نفسيهما ويستغبيان اللجنة أيضاً لأن من يقرأ المذكرة كما قرأها هو يرى عواقبها الوخيمة بين السطور. لقد جاء في المذكرة أن وكالة المخابرات المركزية تريد أن تمنع الساندينيين من تحقيق هدفهم في نشر الثورة خارج بلادهم وأن ترغمهم أيضاً على تغيير سياستهم الداخلية المتعلقة بالانتخابات والحقوق المدنية وتركيبة الحكومة. إنها كانت كمن يقول إنه سيفجر دماغ شخص دون أن يقتله.

لم يستطع مونيهان أن يبقى هادئاً وحاول أن يطرح موضوعه. قال: إن وكالة

المخابرات المركزية تقول إن المذكرة لا تهدف إلى الإطاحة بالنظام السانديني، فإن التأثير المتراكم لهذه الأعمال والأهداف يظهر أن الإدارة كانت فعلاً تريد الإطاحة به.

وافق السناتور والوب على تحليل مونيهان ولكنه طرح حلاً مختلفاً: «لماذا لا نقول ما نؤمن به؟».

قال غولدووتر: «هذا صحيح بالنسبة إلي».

قاطع السناتور جاك جارن وهو محافظ وجمهوري من ولاية يوتا قائلاً: «يجب أن نطيح بهم».

قال كايسي وشولتز: لا.

كانا يريدان أن يظهرا أنهما يتقيدان بتوصية بولاند وأنهما لا يعملان للإطاحة بالنظام. سرعان ما ضاع طرح مونيهان في النقاش. اعتقد كايسي بأنه قد رمى العظام للديموقراطيين وبأنه قد غلّف الأصولية المعادية للشيوعية لإدارة ريغان بغلاف حقوق الإنسان. كان الشيوخ واقعيين. لقد كانت المذكرة أفضل ما يمكن أن يحصلوا عليه. اقترحت اللجنة إعادة صياغة المذكرة إلا أن أعضاءها كانوا طرفاً في العملية الخفية وشاركوا فيها منذ سنتين وكانت المذكرة تذكر ببساطة ما كان يجري، وكان رفضها يعتبر تنصلاً من مسؤولية اشتراكهم، وهذا ليس جيداً برأي كايسي.

بعد يومين صوتت اللجنة على الموافقة بأغلبية ١٣ ضد ٢، وكان المعارضان هما السناتور ليهي والسناتور بايدن.

في ذلك الصيف ظهر أول تصدع علني داخل الإدارة عندما قال رئيس أركان البيت الأبيض جيم باكر إن كايسي زوده بأوراق إيجاز كان كارتر قد استعملها ليحضر خطاباً تلفزيونياً للأمة في حملة ١٩٨٠ الانتخابية الرئاسية. وبدأت التحقيقات من قبل الكونغرس ومكتب التحقيق الفدرالي.

قال كايسي: «لا أتذكر أنني تلقيت أو سمعت أو علمت بأي طريقة». وعقد اجتماعاً نهار الأحد ليرى ما إذا كانا يعالجان القضية بشكل مستقيم، ولكي يضعا الجدل جانباً ويحاولا إيجاد أرضية مشتركة لحل هذا الخلاف.

قال باكر: «قل إنك رأيتها»، وادعى أن ذلك لن يؤدي به إلى المشاكل. لكن كايسي قوّى من موقفه وقال: كلا لم أرها ولم أعطِ أوراق الإيجاز لباكر ولا لأي أحد.

بدأت المذكرات القديمة للحملة الانتخابية تطفو على السطح. واحدة من هوغل الذي كان أحد مساعدي كايسي في الحملة، والذي ادعى بأن ريغان كانت له عيون وآذان في معسكر كارتر. أوحت هذه المعلومات القليلة بأن عمل هوغل كجاسوس لكايسي يمكن أن يكون قد بدأ قبل دخولهما معاً إلى وكالة المخابرات المركزية.

حاولت(*) أن أعرف ما إذا كان هناك عملية تجسس منظمة في الحملة وذهبت إلى كايسي لإجراء مقابلة معه في ٢٨ أيلول/ سبتمبر في مقره المحاذي للبيت الأبيض. لم أكن قد التقيته أو تحدثت معه من قبل. كانت زاوية مكتب كايسي واسعة جداً وهي غرفة مزخرفة من طراز فكتوريا. كان ترحيبه حاراً وقلبياً مع أنه لم ينظر إلى عيني. وبدا أكبر مما توقعته. كما ظهرت علامات الكبر والتعب والإرهاق على رأسه ووجهه.

كان المدير يرتدي بزة زرقاء أنيقة، وكان قميصه مضغوطاً بشدة، كما بدت قبة القميص وربطة العنق غاليتي الثمن. نظرت في أنحاء المكتب. كانت هناك كوم من الملفات والأوراق بعلو قدم تقريباً، وقد دونت على الغلافات عبارة سري جداً باللون الأحمر. قام من وراء طاولة المكتب وجلس. بدا غير صابر وكأنه يقول لي أسرع وادخل في موضوعك. لخصت بسرعة ما كنت قد سمعته.

قال كايسي وهو يهسهس في كلامه: «إشاعات» عندما حاولت أن أسجل ملاحظات قال لي بلهجة لاذعة: «هذا غير قابل للتسجيل»، وقال إنه يمكنني أن أحضر في اليوم التالي لأسجل مقاطع من الحديث لكن هذه الجلسة هي من أجل أن أتفهم أن اتهامات باكر كانت منافية للعقل وللطبيعة. أوحت لهجته وسلوكه بأنني قد أصبح خارج المكتب إذا لم أؤيده. وكان عندما أعرض له مسألة ما يخرج وثيقة ليدعم موقفه الشخصي، وفي إحدى المسائل أخرج مذكرة من ست صفحات، وفي حالة أخرى أخرج مجلداً سماكته خمس أنشات يتضمن معلومات عما فعله هوغل في الحملة الانتخابية. بدأت أقلب المجلد وأتصفحه. كان عبارةً عن مواد صحافية وقوائم طويلة لمجموعات وأفراد دعموا ريغان. لقد كان ذلك نوعاً من الحشو.

اقترب كايسي مني وأزاح مجلد هوغل من يدي. لم يكن هناك شيء سري. أظهرت أني كنت أريد أن أنظر أكثر في المجلد وربما أردت درسه. قال كايسي: لا.

قلت: بما أننا في موضوع هوغل، ماذا عن المذكرات التي يفترض أنه قدمها؟

قال كايسي إن مكتب التحقيق الفدرالي أحضر مذكرات هوغل من مخزن الملفات العائدة إلى حملة ١٩٨٠ الانتخابية.

ـ ماذا قالت هذه المذكرات؟

هز كايسي كتفيه لا مبالياً. لم يكن يعلم، أو لم يكترث، أو لم يرد أن يقول.

ـ ولكن كان هناك مذكرة؟

قال: نعم، وبهدوء، ثم أضاف: لا شيء.

ـ ماذا عن مذكرات طوني دولان الصحافي الذي أتى به كايسي لحملة ريغان والذي أصبح الآن كاتب خطابات ريغان.

(*) المؤلف بوب وود ورد

هز كايسي كتفيه لا مبالياً إلى أبعد الحدود.

وعاد ثانية إلى الملفات وأظهر لي مذكرة حول إساءة استعمال موظفين فدراليين من قبل إدارة كارتر في البيت الأبيض.

ـ هل لي بنسخة عنها؟

أخذها كايسي بتهذيب وبقوة من بين يدي وقال: لا. أخذ كايسي يتعامل مع المذكرات بسرعة وقلب بعضاً منها قائلاً: إنها كانت دون معنى، معلومات عادية عن الحملة الانتخابية. كان هناك مذكرة من دولان وواحدة من هوغل حول امتلاكهما مصادر، ولكن لم تكن هناك عمليات استخبارية.

ـ هل تشهد بذلك بعد قسم اليمين؟

قال: بكل تأكيد، وأخذ يلامس البقعة ما بين ذقنه وشفته السفلى، وانتصب رأسه عالياً كأنه يتعجب كيف أضيع وقته في هذه المسائل، وقال: هذا شيء مزعج جداً. كانت له طريقة مؤثرة في انتظار السؤال. لم يجد أي نقطة في الجواب. لقد كانت الأسئلة صغيرة جداً بحيث أن أي جواب يمكن أن يؤدي إلى طريق لا يريد أن يسير فيها، أو إلى طريق آخر تؤدي إلى المشاكل. حاولت أن أبحث معه موضوعاً آخر.

وقف كايسي وقال: «أنظر، علي أن أذهب إلى اجتماع». عندها أخذ رزمة من أوراقه السرية وجهزها لكي يضعها في حقيبته. وكانت الرزمة سميكة لدرجة أنه لم يتحكم بها وتبعثرت الأوراق على طاولة المكتب. وفي ثوانٍ معدودة التقط الأوراق ووضعها في الحقيبة وأقفلها. وتمشينا إلى الخارج، وسلم كايسي الحقيبة إلى مرافقه. كان واضحاً أنه قد تأخر عن موعده. لحقته إلى الخارج وبقيت أتحدث معه، ولكنه بدأ يركض في القاعة. تركته هو ومرافقه، دخلا إلى مصعد وذهبا.

لم يجرِ أي تحقيق جدي من مكتب التحقيق الفدرالي أو في الكونغرس حول هذه المسألة، واختفت. في مجلس الشيوخ راقب صديق غولدووتر القديم الجنرال وليم كوين القصة باستمتاع وضحكات خافتة. لم يكن هذا لغزاً بالنسبة إليه. أحس كوين وهو ضابط استخبارات سابق بأن كايسي قد فعلها! لم يستطع كوين إثبات ذلك. لقد لعب كايسي بالقواعد والقوانين مثل أي ضابط مخابرات ذكي. وأهم قواعد التجسس كانت حماية المصدر الجيد. كانت التفرعات والتحولات ووضع الآثار الخاطئة تعد دائماً لحماية المصدر الجيد. لم يكن الكذب علناً أو الكذب بعد قسم اليمين أخطر من عمل المصدر. المصدر السري ينام مرتاحاً في الليل وهو يدرك أن انكشافه يمكن أن يطيح بالضابط المسؤول عنه الذي يمكن أن يكون مدير المخابرات المركزية نفسه.

توجه طوني موتلي إلى الكونغرس ذات صباح بصحبة كايسي للادلاء بشهادته حول عملية نيكاراغوا.

قال كايسي: «هؤلاء أبناء الزنى» وهو يقصد الشيوخ. لقد كانت أفكارهم وأقوالهم هراء. صعق موتلي بأسلوب كايسي أمام اللجنة ورأى كايسي ردة فعل الشيوخ وهم يتذمرون ويصرخون بأنهم لا يثقون بابن الكلبة! ولحسن الحظ لم يعد هناك المزيد من الكلام حول الهجوم الجوي على مطار ماناغوا. وشعر كايسي وموتلي وكلاريدج بحرية في متابعة الحرب. وبعد صدور المذكرة الرئاسية الجديدة أدرك كايسي أنه قد حان الوقت للبدء بالحرب الاقتصادية وقال لموتلي وكلاريدج في أحد الاجتماعات «دعونا نجعلهم يكدحون».

تساءل كلاريدج: ما أكثر المواضيع تأثيراً من الناحية الاقتصادية؟ ما المهم؟

إنه النفط. وضع كلاريدج خطة لمهاجمة مستودعات الوقود على ساحل نيكاراغوا ولكن ليس بواسطة هواة من الكونترا، بل ستتولى وكالة المخابرات المركزية تنفيذ العملية. استقدم كلاريدج بعض «المنحازين اللاتين» للعمل. وكان هؤلاء يكرسون كل وقتهم للعمل في الوكالة. كان كايسي يعرف كيف يتعامل مع البيت الأبيض. قدم الخطة إلى الرئيس وإلى مستشار شؤون الأمن القومي كلارك كخطوة منطقية تلي المذكرة التي تم تقديمها إلى الكونغرس.

في ١١ تشرين الأول/ أوكتوبر قام بعض عناصر اللاتين المدربين في وكالة المخابرات المركزية مستخدمين زوارق سريعة بتنفيذ غارة قبل الفجر على مستودعات الوقود في مرفأ كورينتو، على ساحل المحيط الهادىء، ثم بتفجير خمسة مستودعات تحتوي على معظم احتياط نيكاراغوا من النفط وأدى ذلك إلى إخلاء عشرين ألف نسمة من سكان كورينتو منازلهم بسبب النيران.

ابتهج كايسي لذلك. كان هذا عملاً كبيراً وليس مثل أعمال خرق الحدود التافهة. أخذ صور الاستطلاع لريغان في الحال، ورآه أركان البيت الأبيض مثل التلميذ الشاطر

الذي يحمل أوراق، علاماته.

طرحت في الوكالة أسئلة حول شمولية العملية وشدتها، كان هناك من اعتبر ذلك عملاً من أعمال الحرب. قال كلاريدج للجميع: هذا ما أراده الرئيس، وهو يعرف، وهذا ما يعجبه.

بعد ثلاثة أيام شنت الزوارق غارة أخرى على مرفأ ساندينو وهو مرفأ رئيسي آخر في نيكاراغوا. طلب موتلي من شركات النفط الأميركية تقديراً بالأضرار. أراد أن يعرف ما إذا كان التأثير طويل الأمد أم قصيره. أفادت تقارير الشركات الأميركية بأنها طلبت من النيكاراغويين دفعة أولى من المال قبل البدء بالتصليحات.

كان كايسي وكلاريدج مرتاحين تماماً. وكانت سمعة النيكاراغويين سيئة في دفع المال، وكانت التصليحات تستغرق وقتاً طويلاً. وحصلت مفاجأة، تلقت إحدى شركات النفط شيكاً بقيمة ١٠٠ ألف دولار من نيكاراغوا التي طلبت المباشرة بالتصليحات على الفور.

كان كايسي والآخرون مسرورين. لقد أدت هذه الهجمات إلى أضرار بالغة. وفي عملية أخرى لوكالة المخابرات المركزية تم تدمير أنبوب نقل النفط داخل نيكاراغوا. أعلمت مجموعة شركة أكسون نيكاراغوا بأنها لا تستطيع متابعة تموين ناقلات النفط.

لم يكتفِ كايسي بذلك. كان ضابط الاستخبارات القومية في أميركا اللاتينية جون هورتون في مكتبه ذات يوم وسأله كايسي: «ماذا نستطيع أن نفعل أكثر بالاقتصاد النيكاراغوي لنجعل هؤلاء الأوغاد يكدحون ويعرقون؟».

أجاب هورتون: ليس كثيراً.

قال كايسي: «حسناً، يجب أن نفعل شيئاً.. يا للعنة يجب أن نفعل شيئاً». وتابع: فكر في أي عمل شنيع أو حرب اقتصادية شاملة لأن الخطوة التالية يمكن أن تضع الساندينيين في الزاوية.

ذكره هورتون بتوصية بولاند.

قال كايسي إنها لا تعدو كونها قنصاً من الكونغرس! تحول الضغط إلى فريق عمل موتلي الذي طلب أفكاراً جديدة، وخفض عدد أعضاء الفريق للمحافظة على سرية الاجتماعات. وقد دعي فيما بعد «بالفريق الداخلي المحدود». كلاريدج والمقدم أوليفر نورث كانا في القلب. قال نورث إن البيت الأبيض سيوافق، ولكن إذا عارض شولتز فيكون «أنكى وزير خارجية». كان كلاريدج وليس نورث من يعرف تفاصيل العملية. رفض موتلي فكرتين من أفكار كلاريدج الثلاث. ولكن كلاريدج كان خلاقاً ويصعب التعامل معه، وليس دقيقاً دائماً، ولكنه كان دائماً يطرح أشياء جديدة.

في أحد الاجتماعات في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض اقترح كلاريدج زرع ألغام في مرافىء نيكاراغوا. وكان يعرف عن فعالية الألغام المائية من دراسة عن الحرب الروسية

اليابانية عام ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ في جامعة كولومبيا ـ مؤسسة الدراسات الروسية. ففي تلك الحرب قتل القائد البحري الروسي عندما انفجر لغم أدى إلى إغراق زورقه. اقترح كلاريدج برنامج ألغام محدود يهدف إلى تخويف المكسيكيين والآخرين الذين يزودون نيكاراغوا بالنفط لأن إغراق السفن لم يكن الهدف المطلوب. لكن شركة لويدز للتأمين في لندن ستتوقف حتماً عن تأمين السفن المتجهة إلى المرافىء الملغمة أو تزيد من أسعار التأمين لتجعل الدخول إلى تلك المرافىء صعباً جداً.

قال موتلي إنهم بحاجة إلى لغم مخيف يحدث دوياً عالياً. وافق فريق العمل على زرع ألغام ذات قوة تفجير ضعيفة وتحدث دوياً هائلاً. اصطحب موتلي كلاريدج إلى مكتبه في الطابق السادس في مبنى وزارة الخارجية لجلسة من عشرين سؤالاً. حسناً يا ديوي أخبرنا فقط مرة أخرى كيف يعمل هذا؟ وكان لكلاريدج أجوبته.

مرة ثانية كان كايسي قادراً على أن يقدم الخطة إلى الرئيس وإلى كلارك بشكل روتيني أي بتوسيع منطقي لمذكرة استخبارية كان الرئيس قد وقعها.

لم يكن شولتز في الاجتماع وعندما أعلمه موتلي فيما بعد أثنى عليه.

سرعان ما علم عناصر الفريق أن ترسانة الأسلحة الأميركية تحتوي على ألغام وحشية معدة لإغراق السفن. لهذا قامت وكالة المخابرات المركزية بتكليف مصنع سابق لشركة مارتن ماريتا في كارولينا حيث يمكن صنع ألغام محلية نارية وبعضها يحتوي على ٣٠٠ رطل من المتفجرات.

استأجرت الوكالة مركباً بحرياً كبيراً فيه مسطح يتسع لطائرتي هلكوبتر ليعمل كسفينة أم تنطلق منها الزوارق السريعة وطائرات الهلكوبتر لزرع الألغام. وستصبح هذه السفينة جزيرة عملانية في المياه الدولية.

رأى كايسي أن أحد حلفائه الحيويين في البيت الأبيض وهو مستشار شؤون الأمن القومي وليم كلارك ينهار. كان كلارك رجلاً مرهقاً وقد شبع من خلافات الأركان داخل البيت الأبيض التي غالباً ما كانت تؤدي إلى بقائه إلى آخر الليل وإلى إصابته بصداع أليم. لقد كان على خلاف مع ديفر وعلم بأن باكر ودارمان كانا ينتقدانه بصورة وقحة، أحياناً في وجهه، ومعظم الأحيان من وراء ظهره.

في ١٣ تشرين الأول/ أوكتوبر أذهل الرئيس ريغان واشنطن عندما أصدر قراراً بتعيين كلارك وزيراً للداخلية بدلاً من جيمس وات الذي استقال بعدما طلب منه الرئيس ذلك.

قال كايسي عن كلارك: «كان بيل يحب الدواجن وأعطاه الرئيس أكبر مزرعة في البلاد».

كان كايسي يعتقد بأن عدداً كبيراً من هؤلاء الكاليفورنيين غير جديين. والآن صار اتصال كايسي بالبيت الأبيض من خلال ميز الذي كان فوضوياً ودولان الذي كان دائماً بعيداً عن موقع الأحداث. بدأ كايسي يقوم بأعمال اللوبي من أجل تعيين جين كيركباتريك السفيرة

في الأمم المتحدة مكان كلارك. أراد من مستشار الأمن القومي أن يكون محافظاً وإذا استطاع الثلاثي باكر وديفر ودارمان زرع واحد من قبلهم في هذه الوظيفة فإن وكالة المخابرات المركزية ستضعف حتماً.

بعد عدة أيام كان كايسي في اجتماع مجموعة تخطيط الأمن القومي حول الشرق الأوسط عندما بدأ كلارك بتمرير ملاحظة مكتوبة على المجتمعين. كان ذلك عملاً غير عادي ورأى كايسي في الملاحظة قنبلةً يدوية قد نزع صاعقها. وعندما وصلته قرأها بذهول وارتباك. لقد قرر الرئيس أن يستغل رحيل كلارك لإعادة تنظيم أركان البيت الأبيض. سيصبح باكر المستشار الجديد لشؤون الأمن القومي ودارمان نائبه وديفر الرئيس الجديد لأركان البيت الأبيض.

بعد اجتماع مجموعة تخطيط الأمن القومي انضم كايسي إلى كلارك وميز ووينبرغر وطلبوا اجتماعاً مع الرئيس. تكلم كل من كلارك وميز طويلاً، وأخذ وينبرغر وكايسي دور المساندة، ولكن الجميع قالوا للرئيس إن هذه التعيينات سترسل إشارات خاطئة إلى السوفيات. كان باكر معتدلاً، وليس محافظاً حقيقياً، وكان دارمان ليبرالياً ومرادفاً لأليوت ريتشاردسون سكرتير نيكسون. ولن يستطيع جميعهم العمل بوجود هؤلاء في هذه الوظائف. كان كايسي متخوفاً من تعيين باكر مستشاراً لشؤون الأمن القومي لأن ذلك لا يطاق، وقال للرئيس وصوته يرتعش دائماً إن مستشار شؤون الأمن القومي كان في بعض الحالات قناة اتصال مدير المخابرات المركزية بالبيت الأبيض. إن هذه التعيينات تنسف جميع الجهود لتقوية خط ريغان في السياسة الخارجية واقترح كايسي كيركباتريك مرة ثانية.

قال الرئيس الذي كان يواجه أربعة من مستشاريه الكبار على شفير التهديد بالاستقالة إنه سينتظر قبل اتخاذ قراره النهائي.

علم باكر أن الجناح اليميني تكتل ضده، وعندما يصبح مستشاراً لشؤون الأمن القومي عليه أن يمرر على كل قضية ورقة عباد الشمس(*) المحافظة. ذهب باكر إلى المكتب البيضاوي فيما بعد واقترح على ريغان أن ينسى الفكرية

قال الرئيس: شكراً، وكان من الأفضل أن يبقى باكر رئيساً للأركان خلال الحملة الانتخابية الرئاسية القادمة.

واصل كايسي حملته من أجل تعيين كيركباتريك، وزارها في منزلها في بتسدا حين كانت تستريح بعد إصابتها ببرد قارس. كانت السفيرة في الأمم المتحدة قد لفت نفسها بحرامات، وأخذت حبوباً ضد البرد وكانت تقرأ لألكسي دي توكفيل. بدا وكأنها لن تحصل على الوظيفة، وحثها كايسي على أن تحصل على وظيفة في البيت الأبيض كمستشارة كبيرة مثل

(*) ورقة عباد الشمس: هي ورقة تغمس في أي مادة فتحدد ما إذا كانت من الحوامض أو من القلويات، وتستعمل هنا بشكل مجازي.

ميز. إن المحافظين يحتاجون إليها هناك. وإذا لم يتنبه المحافظون لأنفسهم فقد يفوقهم البراغماتيون عدداً.

اشتكت كيركباتريك من المعاملة الدنيئة. لم يكن لها اتصال مباشر مع الرئيس وكانت التسريبات تأتي من عدة أمكنة ومنها ما يقول إنها ستقال من وظيفتها في الأمم المتحدة. طلب كايسي منها أن تتجاهل التسريبات.

بعد برهة وافق اللاعبان الرئيسيان كلارك وباكر على مرشح تسوية هو روبرت مكفرلين وهو الشخص رقم ٢ في مجلس الأمن القومي. صادق الرئيس على التسوية. شعر كايسي أن فرصته لوضع امرأة في واجهة سياسة كايسي الخارجية قد ضاعت. كان مكفرلين بطيئاً. وهو ضابط سابق في مشاة البحرية برتبة مقدم، وكان مساعداً عسكرياً لكيسنجر لمدة سنتين ونصف، وعمل أيضاً كركن في لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ. وسيؤدي تعيينه إلى إطلاق يد باكر الذي كان يرغب في أن يصيغ السياسة الخارجية لتلائم الكونغرس.

في ١٧ تشرين الأول/ أوكتوبر أعلن ريغان تعيين مكفرلين مستشاراً لشؤون الأمن القومي، وأمضى الساعات التالية يلاطف كيركباتريك التي صرحت بأنها تريد أن تبقى في الأمم المتحدة.

في اليوم السابق كان قد قُتل سادس عنصر في مشاة البحرية الأميركية في لبنان وسأل أحد الصحافيين الرئيس ريغان: لماذا تبقى وحدات مشاة البحرية التي يبلغ عددها ١٢٠٠ عنصر في لبنان؟ أجاب ريغان بنبرة قوية: «لأني أعتقد أن ذلك حيوي لأمن الولايات المتحدة والعالم الغربي».

بعد ستة أيام في ٢٣ تشرين الأول/ أوكتوبر يوم الأحد حوالى الساعة ٦,٢٢ صباحاً بتوقيت بيروت تقدمت شاحنة مرسيدس كبيرة صفراء اللون باتجاه مركز قيادة مشاة البحرية في لبنان وانفجرت، وكان فيها ١٢ ألف رطل من مادة تي. أن. تي الشديدة الانفجار وقتلت ٢٤١ عسكرياً أميركياً.

منذ أكثر من سنة وفي ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٨٢ كان أحد التقديرات قد حذر من أن قوات حفظ السلام في لبنان قد تواجه مشاكل سياسية وعسكرية عسيرة. وتبين لكايسي أن وكالات الاستخبارات قد أمنت أكثر من مائة تحذير من تفجير سيارات مفخخة في الأشهر الستة التي سبقت انفجار السفارة الأميركية. والأسوأ من ذلك أن كايسي قد أرسل بعض ضباط وكالة المخابرات المركزية، بعد انفجار السفارة، لإجراء تحقيق وأنهم ألصقوا التهمة بالمخابرات السورية. وقد استعمل أحد ضباط وكالة المخابرات المركزية معدات اللسع الكهربائي أثناء التحقيق مع المشبوهين بغية الحصول على اعترافات مما أدى إلى وفاة أحد المشبوهين. كان يجب طرد هذا الضابط لأنه جعل التحقيق دون فائدة.

كان موت هذا العدد الكبير من العسكريين الأميركيين صدمة كبيرة سياسية ووطنية وعاطفية للإدارة. طلب كايسي من الموساد والاستخبارات العسكرية الإسرائيلية المساعدة في التحقيق. القسم السري ٤٠ وهو منسّق الاستخبارات المتعلقة بالإرهاب ركز على الموضوع.

كانت المخابرات الإسرائيلية على مر السنين تركز انتباهها على المصادر الاستخبارية البشرية داخل سوريا. كانت هذه المصادر أكثر الناس خطراً وتعقيداً، وتخدع الناس بأعلام كاذبة. إنهم عملاء الموساد الذين انتحلوا صفة رجال أعمال من لبنان أو من بعض الدول العربية وأوروبا، ليس فقط أوروبا الغربية بل أوروبا الشرقية أيضاً. وكان العملاء الإسرائيليون ينتحلون صفة مواطنين سوفيات. كان هؤلاء العملاء يصرفون مبالغ ضخمة من المال بحثاً عن المعلومات. كانت الجهود كبيرة والتكاليف كثيرة لأن الخطر كان شديداً ويمسّ مصير إسرائيل. وكانت نتيجة هذه الاستخبارات ملحوظة.

سرعان ما أرسلت إسرائيل إلى وكالة المخابرات المركزية معلومات تتحدث عن ارتباط مقاتلي الموت في بيروت بإيران وبسوريا. ومن ضمن هذه المعلومات:

ـ دفعة من ١٥٠ ألف دولار لرجل مال لبناني في الظل، وهو جاسوس يدعى حسن حمزة، قبضها من السفارة الإيرانية في دمشق التي غالباً ما كانت تسمى: «مركز عقل إيران الخارجي».

ـ يعتقد بأن ضابطاً في المخابرات السورية برتبة مقدم قد تورط في التخطيط للهجوم.

كما تمت ملاحقة رجل كبير السن يرتدي رداء بنياً ويضع عمامة سوداء على رأسه شوهد يتوجه إلى جمعية الصداقة الفلسطينية ـ السوفياتية في دمشق حيث قدّم شرحاً عن الهجمات قبل التفجير بثلاثة أيام. استطاع الإسرائيليون تحديد ١٣ شخصاً في تفجير مقر مشاة البحرية وتفجير مركز القيادة العسكرية الفرنسية في بيروت الذي حدث في النهار نفسه وأدّى إلى مقتل ٥٨ جندياً فرنسياً.

تأثر كايسي بهذه الأدلة، ولكن خبراء مديرية العمليات كانوا أقل تأثراً ومن ضمنهم رئيس فرقة الشرق الأدنى تشارلز كوغان وديك هولم وهو ضابط عمليات كبير. قالوا إن المصادر البشرية يحتمل أن تكون جيدة ولكن لا يوجد أي وسيلة للتأكد. كان في التعابير العامة مثل المخابرات السورية، الإيرانيون في دمشق، شيء من الصحة إلا أنه على حد قول هولم «لا يوجد بندقية مدخنة» وذكّر بأن المسؤولين الكبار الذين قيل إنهم تورطوا لهم غطاء دبلوماسي ويستعملون البريد الدبلوماسي والحقائب الدبلوماسية في اتصالاتهم.

في البيت الأبيض وافق ريغان على غارة انتقامية على وادي البقاع في لبنان معقل الإرهابيين وتراجع في آخر دقيقة وترك ذلك للإسرائيليين وللفرنسيين، الذين قصفوا منشآت عديدة لتدريب الإرهابيين ومن ضمنها ما سمي بمستشفى الخميني. ادعى الإسرائيليون بأن مسجداً قد استخدم لتفخيخ السيارات ولكن لم يؤخذ ذلك بعين الاعتبار ولم يقصف المكان المقدس.

كان موتلي يشرف على العلاقات مع أكثر من ثلاثين دولة في أميركا اللاتينية (كل مكان له طابع بريد أو علم). وكان قد أمضى معظم الأيام العشرة الماضية يدرس وضع جزر غرانادا الصغيرة التي تبلغ مساحتها ١٣٣ ميلاً مربعاً ويبلغ عدد سكانها ١١٠ آلاف وتنتج ثلث الاستهلاك العالمي من جوز الطيب. أضحت هذه الجزر هاجساً صغيراً للرئيس، كان زعيمها موريس بيشوب وهو ماركسي موهوب يبني مدرجاً بطول تسعة آلاف قدم، وكانت كوبا تساعده في ذلك، ووردت معلومات تقول إنه سمح للسوفيات باستخدامه.

اشتكى الرئيس ريغان علناً من التدخل العسكري الكوبي والسوفياتي في غرانادا، وأظهرت صور الاستطلاع الفوتوغرافية الثكنات الكوبية وعملية بناء مدرج الطائرات. تخوفت الإدارة الأميركية من تشكيل مثلث أحمر في نصف الكرة: كوبا في الشمال ونيكاراغوا في الغرب وغرانادا في الشرق على بعد تسعين ميلاً من حدود الولايات المتحدة إلى الجنوب.

وضع موتلي نفسه في حال إنذار عندما قامت مجموعة من المتطرفين الذين أفادت وكالة المخابرات المركزية بأنهم قريبون من كوبا بانقلاب عسكري في ١٩ تشرين الأول/ أوكتوبر وأعدمت بيشوب. وفرض اليساريون الجدد نظام منع التجول لمدة ٢٤ ساعة في اليوم كما طبقوا الحكم العرفي في الجزر. دعا موتلي مجموعة الأزمات إلى اجتماع في وزارة الخارجية، وكان الاهتمام الفوري منصباً على معرفة مصير ١٠٠٠ مواطن أميركي معظمهم من الطلاب كانوا في الجزر. لم تستطع وزارة الخارجية الاتصال بأحد من الذين يقولون إنهم يمثلون الحكومة الجديدة كما لم يعلن أحد أنه يمثل تلك الحكومة. ومن دون حكومة لن يكون هناك دبلوماسية. بادر موتلي إلى إجراء اتصالات مع الكنديين والبريطانيين لدرس إمكانية إجراء عملية إخلاء مشتركة لمواطنيهم. لم تؤدِ الجهود المبذولة لإجراء اتصال دبلوماسي مع الجزيرة إلى أي نتيجة ولم يكن لوكالة المخابرات المركزية أي مصدر للمعلومات في الجزيرة، وبدأ المسؤولون الأميركيون يتخيلون أسوأ الاحتمالات لأن حكومتهم لا تعرف شيئاً عما يجري.

كان قسطنطين منج قد مكث عدة شهور في وكالة المخابرات المركزية قبل أن ينتقل إلى مركزه الجديد في مجلس الأمن القومي منذ أسبوعين ليترأس قسم أميركا اللاتينية. وقد أصيب بخيبة أمل عميقة فهو قد تولى مركزه تحت أمرة كلارك الذي كان منفذاً حكيماً لإرادة الرئيس، وعليه أن يعمل الآن تحت أمرة مكفرلين الذي كان يعتبره بديلاً لتسويات وزارة الخارجية. شعر منج بأن مكفرلين لم يكن ريغانياً وبأنه كان يحتاج إلى شجاعة أكبر ليكون مستشاراً حقيقياً لشؤون الأمن القومي. في أوائل أيامه انقبض منج من جراء أزمة غرانادا وأعدَّ خطة موجزة لحماية المواطنين الأميركيين هناك. نظر مكفرلين إلى هذه الخطة بشيء من التعجب ولكنه وافق على أخذها بعين الاعتبار. اشترك مع منج في إعداد الخطة بعض أصدقائه المتشددين في وزارة الدفاع، وحذره أحد المسؤولين من أن مكفرلين قد يتخذ ذلك حجة لتغييره. عرض منج الخطة على الكولونيل أوليفر نورث. كان نورث شكاكاً. وكان

هناك تردد في الإدارة، ووزارة الخارجية تحبذ المفاوضات. أطلع منج كايسي على خطته وقال مدير المخابرات المركزية إنها تبدو جيدة.

اقتنع منج بأن السوفيات كانوا يعتزمون استعمال غرانادا ومرفئها الـذي يمتاز بعمق مياهه ومدرجها الجديد كجزيرة ـ قاعدة للصواريخ السوفياتية النووية أو للغواصات أو للطائرات.

وافق مكفرلين على حضور أكثر اجتماعات الإدارة سرية لدراسة الأزمة، وكان هذا الاجتماع يسمى مجموعة تخطيط الأزمات وذلك حول قضية غرانادا. في ذلك المساء وحوالى الساعة ٦,٣٠ تكلم منج مع كايسي على الهاتف الآمن. وكان المدير على وشك أن يغادر في رحلة إلى خارج البلاد. قال منج إنه قدم الخطة إلى مكفرلين وإن الأخير وافق على حضور اجتماع مجموعة تخطيط الأزمات، ويحتمل أن يعرض الخطة على الرئيس وحده، وذلك يحط من قدر منج.

في صباح اليوم التالي ٢٠ تشرين الأول/ أوكتوبر جمع نائب مكفرلين الأميرال جون بواندكستر مجموعة تخطيط الأزمات ومن ضمنهم موتلي ومنج ونورث وكلاريدج ومسؤولون كبار في وزارة الدفاع. ولتقليل الانتباه اجتمعت المجموعة في الغرفة ٢٠٨ في أحدث مركز عمليات تقني يتضمن أكثر الكومبيوترات تقدماً، وأجهزة اتصال سمعية بصرية آمنة.

أظهرت المعلومات أن سفينة نقل كوبية اسمها «فيتنام البطلة» كانت ترسو في مرفأ الجزيرة. قال منج إن كاسترو يملك جيشاً عديده ٣٠٠ ألف رجل وبإمكانه أن ينقل الآلاف جواً إلى غرانادا في وقت قصير، واقترح تنفيذ عملية إنقاذ واقتحام. وقال: علينا أن نستغل هذه الفرصة للمحافظة على الديموقراطية في هذا البلد. وأضاف: إذا لم نتحرك فإن هذه الجزر ستصبح قاعدة شيوعية للأسلحة النووية.

الساعة السادسة مساء ترأس نائب الرئيس بوش اجتماعاً لمجموعة الأوضاع الخاصة وهي أعلى هيئة لإدارة الأزمات في إدارة ريغان.

انتاب الجميع الخوف من حكومة يسارية جديدة قد تحتجز رهائن أميركية كما حصل في إيران. وتم درس احتمال «الانتزاع بالقوة» واحتمال «ضربة جراحية».

أراد مكفرلين أن يبقي الأسطول المخصص للبنان والمؤلف من ٢١ سفينة من ضمنها حاملة الطائرات أندبندس على طريق يمكن أن توصله إلى الكاريبي عند الحاجة. رفضت رئاسة الأركان المشتركة تنفيذ ذلك دون أمر رئاسي. وقال مكفرلين إنه من الجنون أن يطلب أمر رئاسي كي تسير مجموعة حاملة الطائرات في اتجاه معين. وأصرَّ رئيس الأركان المشتركة على رأيه بعناد.

نظم مكفرلين أمراً ووقعه الرئيس ريغان، وأبقي الأسطول البحري الصغير جاهزاً من أجل الكاريبي. في البدء عارض الجنرال خوسيه رئيس الأركان المشتركة العمل العسكري،

ولكن عندما تبين أن إنقاذ المواطنين الأميركيين سيتم من أماكن عديدة على الجزيرة، قال رئيس الأركان المشتركة إنه من الضروري القيام بعملية إنقاذ في الجزيرة كلها. اقترح منج على دارمان المحافظة على الديموقراطية، وكان يأمل في أن يخفف من صلابة جيم باكر. من خلال خدمته لمدة سنتين في وكالة المخابرات المركزية كانت له آراء منها أنه لم يتخذ أي إجراء كرد على العدوان الكوبي المستمر منذ السبعينات عندما أرسل كاسترو الآلاف من جنوده إلى إفريقيا (أنغولا والموزامبيق وأثيوبيا). ومنذ ثورة نيكاراغوا عام ١٩٧٩ كان واضحاً أن هناك هدفاً تالياً في هذا النصف من الكرة. وكانت هذه فرصة لا تتكرر، فالجزيرة صغيرة والعملية سهلة التدبير. رأى كايسي وشولتز أن الفرصة سانحة، فعدم وجود حكومة في غرانادا يسمح بتنفيذ معاهدات أمن مشترك كانت الولايات المتحدة قد عقدتها مع بعض الجزر الكاريبية الصغيرة.

قال كايسي: «هاي، تباً لها، دعنا نتخلص من هؤلاء الأوغاد».

كان شولتز في البدء ميالاً إلى مشروع أقل طموحاً، ولكنه عاد وحبذ الإعداد لعمل عسكري محتمل، ووافق على ذلك بقية أعضاء حكومة ريغان وكبار مستشاريه الذين غالباً ما كانوا منقسمين.

كانت الإدارة تحتاج إلى أرض أصلب وإلى شرعية أكبر. إن مدرج الـ٩٠٠٠ قدم والخوف على الألف أميركي وعدم وجود حكومة لا يبرر عملية شاملة. كما أن المستشارين القانونيين قد رفضوا خرق القانون الدولي.

في اليوم التالي الجمعة ٢١ تشرين الأول/ أوكتوبر ظهر الحل على السطح. كانت رئيسة وزراء الدومينيك يوجينا شارلز تترأس منظمة دول شرق الكاريبي والتي كانت تجتمع في ذلك النهار في باربادوس. أرسلت كلمة إلى المجتمعين تقول إن رغبة الأميركيين في التدخل العسكري يمكن أن تزداد إذا طلب المجتمعون ذلك. قررت المنظمة أن توجه طلباً إلى الولايات المتحدة للمساعدة على حفظ الأمن والديموقراطية في غرانادا. وصل الطلب الشفهي إلى البيت الأبيض الذي رد بأنه يريد طلباً خطياً رسمياً بالتدخل.

أما يوجينا شارلز فهي تبلغ ٦٤ سنة من العمر وهي عاطفياً مع الأميركيين وقد اعتبر موتلي أنها جعلت رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر تبدو مثل الهرة الصغيرة. واعتبرها منج جين كيركباتريك الكاريبي. عام ١٩٨٢ بدأت الولايات المتحدة بتمويل إنشاء طريق بطول ٣٠ ميلاً وكلفته ١٠ ملايين من الدولارات في الدومينيك.

أظهرت سجلات وكالة المخابرات الأميركية أن مبلغ ١٠٠ ألف دولار قد دفع لحكومة الدومينيك في عملية دعم خفية، واعتبر هذا المبلغ دعماً إضافياً. أحد الشيوخ في لجنة الاستخبارات اعتبر ذلك بمثابة إيفاء للدين، إلا أن شارلز أنكرت بشدة علمها بأي دفعة مالية مباشرة لها أو لحزبها أو لحكومتها. قالت إن قرارها بطلب تدخل الولايات المتحدة كان

مبنياً على تقويمها وتقويم زعماء الجزر المنضوية في المنظمة وهي أنتيغو وسان لوسيا وسان ڤنسنت.

في ذلك المساء أمضى منج ونورث ثلاث ساعات في إعداد قرار أمني قومي للرئيس، وذلك ليعطي الأوامر بالغزو، وأرسلاه إلى ريغان وشولتز ومكفرلين الذين كانوا يلعبون الغولف في أوغوستا في ولاية جورجيا في عطلة نهاية الأسبوع. ولم يوقع ريغان القرار.

حث منج مجلس الأمن القومي على أن يحضِّر ردود الفعل على التحركات السوڤياتية المحتملة. قال: يحتمل أن يقوم الليبيون بشن هجوم إرهابي، ويمكن أن يتحرك الروس في برلين أو في كوريا. اتصل بموتلي على الهاتف الآمن وقال له إن هذا الغزو سيردع سورينام عن الاقتراب من كوبا.

في الساعة التاسعة من صباح السبت ٢٢ تشرين الأول/ أوكتوبر اجتمع مجلس الأمن القومي في واشنطن. بوش وبواندكستر ومكماهون وموتلي ومنج ونورث اجتمعوا في الغرفة ٢٠٨، واشترك الرئيس ريغان ووزير الخارجية شولتز ومكفرلين من جورجيا مستخدمين سماعات هاتفية آمنة. وحوالي الساعة ١١,٣٠ كان هناك إجماع كامل.

في اليوم التالي ٢٣ تشرين الأول/ أوكتوبر أرسلت منظمة شارلز طلباً خطياً من ثماني نقاط للتدخل. وكان موت العسكريين الأميركيين في لبنان (هذا العدد الكبير لم يفقد منذ حرب ڤيتنام) بمثابة عاصفة هبت على ريغان الذي أدرك أنه القائد الأعلى للقوات المسلحة وانتابه شعور بأن قوى اليسار كانت تعمل بشكل منسق. الإرهابيون في لبنان والشيوعيون في غرانادا. وفي ذلك النهار وقع الأمر الرسمي لغزو غرانادا.

كان لكايسي «ضابط حالة» وهو إحدى النساء القليلات في مديرية العمليات التي ذهبت إلى غرانادا في مهمة مراقبة تحت غطاء منذ بضعة أسابيع ثم أرسلت مرة ثانية لتجميع المعلومات قبل الغزو. كان هذا أول تدخل عسكري واسع النطاق في هذا النصف من الكرة منذ غزو الدومينيك عام ١٩٦٥.

في اليوم التالي توجهت شارلز إلى واشنطن جواً بطريقة سرية وعلى متن طائرة حكومية أميركية.

قلق نورث من أن تفجير بيروت قد يمتص كل الاحتمالات وقد يكون سبباً لإلغاء الغزو، وبات الليل في مكتبه.

صباح ٢٥ تشرين الأول/ أوكتوبر بدأت القوات الأميركية عملية الإنزال بالاشتراك مع مئات من جنود الدول التي طلبت الغزو، وواجهت مقاومة عنيفة. لم تحذر المعلومات من وجود الأسلحة المضادة للطائرات، ولذلك أسقطت ثلاث طائرات هلكوبتر أميركية. كانت النتيجة قتل ١٩ عسكرياً أميركياً وجرح ١٥.

الساعة ٧,٣٠ من ذلك الصباح كانت نار غير عادية تشتعل في مدفأة المكتب

البيضاوي. اجتمع ريغان وشولتز ومكفرلين ومنج لمدة نصف ساعة مع رئيسة الوزراء شارلز على عصير وقهوة. طلب منها الرئيس أن تشترك معه في مؤتمر صحافي في ذلك الصباح ووافقت على طلبه. اصطحبها منج إلى غرفة طعام البيت الأبيض حيث قال لها إن الأوساط الصحافية الأميركية قد تبدو عدوة وسلبية وصعبة، وساعدها على تحضير الأجوبة لتواجه تشكيك الصحافيين.

في آخر دقيقة حذفت وزارة الخارجية من تصريح الرئيس كلمة المحافظة على الديموقراطية كسبب للغزو. اعترض منج لأن غياب هذه الكلمة يظهر أن الإدارة تريد حكومة يمينية على الجزيرة، ثم أعيدت الكلمة. الساعة ٩ والدقيقة ٧ ظهر الرئيس في غرفة الصحافة ليعلن عن الغزو.

قال: «في الصباح الباكر لهذا اليوم بدأت وحدات عسكرية من ست ديموقراطيات كاريبية ومن الولايات المتحدة بالإنزال». وأول سبب أعطاه لتبرير هذه العملية هو الطلب العاجل والرسمي من خمس دول أعضاء في منظمة دول الكاريبي التي ترئسها شارلز. ثم قدمها ريغان إلى الصحافيين، فظهرت إلى جانبه، وقالت: «إنها ليست مسألة غزو. إنها مسألة منع هذا الشيء أي الماركسية من الانتشار في جميع الجزر».

كان هذا العرض المثير في البيت الأبيض والخطابات والمقابلات الأخرى ضربة كبيرة في العلاقات العامة لصالح البيت الأبيض. بعد ذلك شاهد ريغان شريط ڤيديو لظهوره مع شارلز. قال الرئيس: «واو... إنها كانت عظيمة».

اكتشف منج أن نورث لم يكن مفتاح عملية غرانادا فقط، بل كان الضابط الأساسي في جميع عمليات دعم المقاومة المسلحة ومن ضمنها الكونترا.

كانت أقسام مجلس الأمن القومي محظورة على غير العاملين فيها، ولم يتورط أحد إلا مكفرلين وبواندكستر. لقد عممت المذكرات والرسائل على مستوى ضيق جداً، وكرئيس لقسم أميركا اللاتينية، كان لمنج فكرة ضئيلة عما يحدث. كان نورث يعمل بصورة غير معقولة لمدة ٨٥ إلى ٩٠ ساعة في الأسبوع، وقال له منج في أحد الأيام: أولي(*) لك أربعة أطفال مدهشين ونحن لسنا في حالة حرب. لماذا لا تمضي وقتك مع هؤلاء الأطفال الرائعين؟

أجابه نورث: «أنت على حق. الأسبوع القادم».

مساء الخميس ٢٧ تشرين الأول/ أوكتوبر أي بعد أربعة أيام فقط على تفجير مقر قيادة مشاة البحرية الأميركية في بيروت وبعد يومين على عملية غرانادا وافق كايسي على تناول طعام العشاء معي(*). كنت قد دعوته إلى منزلي ولكنه فضّل أن أذهب إلى منزله. اتصل بي سكرتيره وأبلغني أن أحضر الساعة ٦,٣٠ بعد الظهر وأعطاني عنوانه في طريق فوكسهال في

(*) اسم الدلع لأوليڤر.

(*) المؤلف وودورد.

شمال غرب واشنطن وكان من المقرر أن يلقي الرئيس ريغان في تلك الليلة خطاباً متلفزاً إلى الأمة حول لبنان وغرانادا.

فتح الباب شاب يرتدي بزة قاتمة اللون وهو من حراس الأمن في وكالة المخابرات المركزية. في منزل كايسي القرميدي وعند غروب الشمس تقريباً، ظهر المدير في بهو صغير وقدم تحياته لي ونزل خطوة على درج وقال: «نريد أن نذهب إلى تحت لتناول كأساً قبل العشاء». مشينا عبر ثلاث غرف جلوس مؤثثة بشكل جميل. كان الثراء والذوق الرفيع واضحين. ظهرت الرسوم الجميلة على الكراسي والكنبات والرسوم الشرقية على السجاد. توقفنا في الغرفة الثالثة أو الرابعة، وهي غرفة صغيرة. أحضر كايسي ويسكي مع صودا وجلسنا على زوج من الكراسي في جانب من الغرفة. جلس كايسي بهدوء ساكناً وهو يمسك بالكأس.

قال: نعود إلى الستينات عندما كان ألين دالاس مديراً للمخابرات المركزية وديك(*) هلمز معاونه في إحدى وظائف العمليات أو غيرها... كان القلق سائداً من أن عناصر وكالة المخابرات المركزية يتركونها بسبب ضآلة رواتبهم. وقد دعاني هلمز إلى الوكالة حيث كانت تعد نفقة خاصة لدعم العاملين والعملاء بقروض من أجل الدراسة الجامعية وشؤون أخرى». أضاف كايسي بأنه ساهم بشيء من هذه النفقة. كان عدد كبير من الموظفين يتركون. وقال: لقد سألت هلمز لماذا لم يترك؟ فأجابني: عندما تجلس هنا كل يوم وترى كل هذا وترى ما يفعله الروس تشعر... توقف ثم تابع... تشعر بأنك محاصر ولا تستطيع أن تترك. حرك كايسي قطع الثلج في كأس الكريستال وقد بدا أنه لم يكن يريد استعمال كلمة «محاصر» ولكن الشعور كان صحيحاً وهز رأسه.

ماذا عن وجهة نظر جورج كينان في أننا لا نفهم السوفيات وأن هناك سرعة غبية نحو الحرب، وأنها ستتوقف حتماً، وأننا أسأنا قراءة وفهم بعضنا؟

قال كايسي: آه، نعم. كان حازماً حيال الروس. لقد أخذوا سبعة بلدان أو ثمانية قبل وصول ريغان، ثم قال بحماسة: غرانادا هي أول تراجع لهم منذ الحرب العالمية الثانية باستثناء تشيلي عندما أطيح بالرئيس اليندي عام ١٩٧٣ (نسي أن يذكر مصر). قال كايسي انظر إنها المرة الأولى التي نطيح فيها بنظام شيوعي، وقد ظهر أسوأ مما توقعنا. لقد عثر على مستندات سرية مفخخة وكان علينا أن ننزع الفتيل منها لنحصل عليها سالمة، وقد حصلنا على كمية كبيرة من الوثائق.

في السابق كنا نعتقد بأن هناك حوالى ٦٠٠ كوبي على الجزيرة. ثم قيل إن عددهم ٧٠٠، ولكن لدينا الآن تقارير من قوة الغزو تفيد بأن العدد قد يصل إلى ١٠٠٠. الكوبيون

(*) ديك اسم الدلع لريتشارد.

في غرانادا هم عمال بناء مثل عمال البحرية الأميركية ومقاتلون أيضاً. كان للعمال الكوبيين حمّالات خاصة للبنادق أك ٤٧ الأتوماتيكية. وعثر على معدات اتصال للإرهابيين. قال: الكوبيون في غرانادا يشكلون ١٪ من عدد السكان الذي يبلغ ١٠٠ ألف، والعدد الموازي لهذه النسبة في الولايات المتحدة يربو عن المليونين. هل نتسامح مع ميليشيا أجنبية أو مع أفواج نظامية بهذا الحجم؟

قال كايسي: كان هناك مؤسسة كوبية للتدريب وقد خرج ثلاثة دبلوماسيين سوفيات من سفارتهم في غرانادا وهم يرفعون الأعلام البيضاء وقالوا إن عددهم مع عائلاتهم كان ٤٩ سوفياتياً. كان هناك أيضاً حوالى ٢٠ دبلوماسياً من كوريا الشمالية أحدهم رفيع المستوى. وكذلك بعض الألمان الشرقيين. كانوا جميعاً في السفارة السوفياتية. هذه الأرقام العالية نسبياً كانت عادية عندما كان السوفيات يعهدون إلى دولة أخرى بأن تكون وكيلة لهم أو تابعة لنفوذهم. كان هناك أيضاً عدد من عملاء المخابرات السوفياتية في الجزيرة.

لقد فعل السوفيات ما فعلوه في أفغانستان عام ١٩٧٩ عندما اختلفوا مع دميتهم وقتلوه واستبدلوه. لقد أرسل السوفيات «فرق اغتيال» وقتلوا موريس بيشوب. أضاف كايسي: هذه المسألة حقيقية فعلاً. توقف، ثم هز رأسه كأنه يريد أن يؤكد ذلك، وفجأة وقف بسرعة واقترح علي أن نذهب إلى الطابق العلوي لنبدأ بتناول الطعام.

كان في غرفة الطعام ثلاث كراسي ثم حضرت امرأة في أواسط الثلاثينات ترتدي ثياباً جديدة.

قال كايسي: «هذه ابنتي برناديت»، وكانت برناديت ملفتة للنظر. كانت تعمل ممثلة تجارية في نيويورك وكانت تبدو متحضرة جداً، وقد أعدت شعرها ومكياجها بشكل تام.

قال كايسي إن زوجته صوفيا كانت في منزلها في فلوريدا تشرف على التنظيف لأن بعض الأولاد تسللوا إلى الكاراج وأضرموا فيه النار.

كانت برناديت قد طبخت شرائح من لحم الغنم. كانت وليمة بسيطة وجيدة.

كان كايسي أكولاً شرهاً يسكب طعامه أولاً وخاصة شرائح الغنم. ظننت عدة مرات وأنا أحدق ببرناديت أنني أعرف هذه الابتسامة، ولكنها صدتني بعينيها الواسعتين عندما بدا كأني تجاوزت حدود اللياقة.

تحدث كايسي وقال: غرانادا، كانت شيئاً حدث خلال عطلة نهاية الأسبوع، كانت فرصة لإزاحة أشياء من طريقنا. كان القادة الجدد صغاراً ولم يمثلوا أحداً غير أنفسهم. لم يكن الأرشيف آخر ما عثرنا عليه، ولكنه كان من النتائج الهامة للغزو. أرسلت وكالة المخابرات المركزية خمسة محققين إلى غرانادا ليتحدثوا مع الكوبيين. لقد علمنا الآن أن الكوبيين يمكن أن يقاتلوا أكثر مما نتوقع.

كان لهم ضباط كبار برتبة جنرال أو كولونيل في غرانادا. أضاف كايسي بأن فترة حوالى

ستة أشهر تلزم لإعادة الديموقراطية، لكن ذلك سيحصل.

بقيت برناديت خارج الحديث. قال: يجب النظر إلى غرانادا من خلال الكاريبي بكامله. السوفيات ينفقون ٤ مليارات دولار كل سنة في هذه المنطقة منها ٣ مليارات دولار لكوبا ومليار دولار لباقي المنطقة. إنه مبلغ كبير بالنسبة إلى السوفيات الذين يتراوح عدد جنودهم في كوبا بين ستة آلاف وسبعة آلاف عنصر. ولهذا يستطيع الكوبيون إرسال نفس العدد إلى نيكاراغوا أو هم يرسلونه فعلاً. والآن علمنا أن هناك المزيد من الكوبيين في غرانادا وأكثر مما كنا نتوقع. ربما كان تقديرنا للتورط الكوبي والسوفياتي في . . . توقف كايسي وأسرع في لفظ الكلمة، نيكاواوا أقل من الواقع. لقد أُبلغ الكوبيون الذين أرسلوا إلى نيكاراغوا بوجوب حلق لحاهم المشابهة للحية كاسترو وإتلاف لباسهم العسكري وبأن ينخرطوا في الجيش النظامي النيكاراغوي. ونحن نعتقد بأن الكوبيين موجودون في كل وحدة من وحدات جيش نيكاراغوا. أما السوفيات والكوبيون فلهم حوالى ١٢ ألف رجل منتشرين في أنحاء أميركا اللاتينية. أما الولايات المتحدة فتنفق حوالى ٤٠٠ مليون دولار ولها حوالى ١٠٠ مستشار في السلفادور. يجب تصحيح هذا الخلل في التوازن.

من أين يأتي هذا المبلغ: ٤ مليارات دولار؟

قال كايسي إنه رقم هش ولم تثبت صحته، وأضاف أن الـ٤ مليارات دولار هو المبلغ المعتمد لدى الإدارة في تقديرها والذي تؤمن به.

كان كايسي قد قرأ مذكرات ليندون جونسون: «نقطة الأفضلية» حول غزو الدومينيك عام ١٩٦٥، ووجد أسباباً للتدخل تشبه أسباب غرانادا. أن يخذل الشيوعية وأن يحمي الأميركيين. قال: كان غزو غرانادا هاماً لأنه يعتبر خطوة لتصحيح الإخلال بالتوازن الإقليمي، ولأنه رسالة إلى السوفيات وإلى الكوبيين.

قال كايسي: «يعني أننا يمكن أن نضرب في نيكاراغوا» وأكّد بشدة على كلمة نضرب. وفي نفس الوقت سيزيد السوفيات من حذرهم. إن هدفهم الشامل في هذا النصف من الكرة هو أن نحول انتباهنا عن أرض المعركة الحقيقية، الشرق الأوسط. قال ذلك وكأنه كان واضحاً. إن الرهان الاستراتيجي وحقول النفط جعلت الشرق الأوسط اهتمامنا الأول.

انتهى العشاء والحلوى وكان كايسي يلعب بالآنية الفضية. نظفت برناديت الطاولة وأحضرت القهوة. وقف كايسي واقترح أن نذهب إلى غرفة الجلوس ونشاهد خطاب الرئيس الذي كان على وشك أن يبدأ.

وهكذا كان الكاريبي ميدان اللعب والشرق الأوسط ميدان النزاع الحقيقي. كان هذا هو التقويم الحقيقي لكايسي. عدنا إلى الغرفة الصغيرة. كان هناك كرسيان أمام التلفزيون وكان علينا أن ننتظر دقائق قليلة ليبدأ الخطاب. ماذا عن أفغانستان، كيف كانت الحرب تجري؟ أنا لا أشير إلى الدعم السري لوكالة المخابرات المركزية. عبس كايسي وقال: سوف

يزيد السوفيات من قوتهم ويخضعون الثوار.

ماذا عن الطائرة الكورية التي أسقطها الروس منذ شهرين؟ لقد قتل جميع الركاب (وعددهم ٢٦٩ راكباً) على متنها، وأعلن الرئيس حرباً أخلاقية على السوفيات، ووصف هذا العمل بالبربري.

كان جواب كايسي خالياً من التنميق. حسناً، آه، تحولت إلى غلطة من السوفيات لأنهم لم يعرفوا أي نوع من الطائرات قد دخل إلى أجوائهم الإقليمية. وبدا غير قلق من تناقضه مع الرئيس.

ـ «إنه جنون!»، قال ذلك وعيناه تتلألآن، وهز كتفيه وبدا واثقاً من نفسه.

ظهر الرئيس على شاشة التلفزيون وكان جالساً وراء طاولة مكتبه في المكتب البيضاوي، ورفع كايسي صوت التلفزيون.

بدأ ريغان خطابه مشيراً إلى إسقاط الطائرة الكورية واصفاً هذا العمل بأنه مجزرة وحشية. لم يتأثر كايسي وكانت نظرته توحي بالاحترام بينما كان ريغان يتابع حديثه حول تفجير مقر مشاة البحرية في بيروت وغزو غرانادا. وجفل كايسي قليلاً عندما قال الرئيس إنه في اليوم السابق للغزو كان لدى الوحدات العسكرية الأميركية «معلومات قليلة عن الأوضاع على الجزيرة».

قال ريغان: «لا تقلقوا، لقد خطط العسكريون ونفذوا حملة رائعة، كان هناك بعض الخسائر القليلة»، لكنه لم يعطِ الرقم، وأضاف: «كانت غرانادا مستعمرة سوفياتية وكوبية وكانت قد بدأت تستعد لتصبح معقلاً عسكرياً لتصدير الإرهاب ومحاربة الديموقراطية. لقد وصلنا إليها في الوقت المناسب».

لم يظهر كايسي أي ردة فعل، مع أن كلمة ريغان كانت من أقوى وأروع كلماته. وافق كايسي على أن الولايات المتحدة قد وصلت إلى هناك في الوقت المناسب.

قال ريغان: «إن الأحداث في لبنان وغرانادا مرتبطة ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً رغم أن المحيطات تفصل بينهما». وأضاف أن موسكو لم تساعد أو تشجع على العنف في هذين البلدين، ولكنها تؤمن الدعم المباشر إلى شبكة من التابعين والإرهابيين.

عاطفي وبصوت مؤثر قال الرئيس: والآن هل لي أن أخبركم شيئاً أظن أنكم تحبون معرفته؟ إنه شيء حدث لقائد مشاة البحرية الجنرال كيلي عندما كان يزور جرحى مشاة البحرية. اقتطف ريغان من كلام كيلي: «كان هناك جريح من مشاة البحرية في المستشفى ورأيت أنابيب تخرج من جسمه وتدخل إليه. لم يستطع أن يرى بشكل تام من جراء إصابته، انتزع نجومي الأربع من على كتفي ليتأكد أني أنا من أقول إنه أنا، وأمسك قبضة يدي بشدة. ولم يستطع الكلام. وضعت له قصاصة ورق في يده وكتب Semper Fi وشرح ريغان أن ذلك اختصار لشعار مشاة البحرية Semper Fidelis أي «مخلص دائماً».

كان الجنرال كيلي مشهوراً جداً ومن مشاة البحرية القُساة ولكنه بكى عندما رأى هذه الكلمات ولن يلومه أحد على ذلك.

كان كايسي شارداً.

انتهى ريغان بكلام عن الشرف والمثل والوطن والتضحية والله والصلاة والحرية، كان الخطاب الذي استغرق ٢٧ دقيقة مثيراً جداً.

سأل كايسي: هل تعلم من كتب هذا؟

قلت: أنت!؟

قال كايسي: رونالد ريغان، إنه كاتب موهوب وأعتقد بأن هذا هو أفضل خطاب له. ثم أضاف وهو يبدي إعجابه دون ارتباك أو تردد: هل تعلم مدى الجهد المبذول لهذا الخطاب؟

كان دون شك خطاباً قوياً وذكياً. كما أن كل من سمع هذا الخطاب يلزمه وقت طويل لتمحي من ذهنه صورة جريح مشاة البحرية أو النجوم الأربع لقائد مشاة البحرية، أو لينسى معنى: Semper Fi مخلص دائماً. ولكن ماذا عن الوقائع؟ لقد جعل السوفيات والكوبيين والإرهابيين خليطاً واحداً. وبدا كأنه يقول: : إن مشاة البحرية والغزو كانوا الجواب الوحيد.

قال كايسي: «لم أرَ أحداً يتكلم بهذه السرعة، ويتكلم كثيراً دون تعثر».

ثم رافقني إلى الباب وقال إنه سيشهد أمام لجنة استخبارات مجلس الشيوخ في اليوم التالي.

ـ ماذا غير ذلك؟

قال إنه سيلقي خطاباً خلال يومين في جامعة وستمنستر في ملتون في ولاية ميسوري حيث ألقى ونستون تشرشل منذ ٣٧ سنة خطابه الشهير حول الستار الحديدي بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة. وسلمني نسخة عن الخطاب الذي يتألف من ١٨ صفحة ويحتوي على بضعة مقاطع مكتوبة بخط يده.

قلت: هل هناك أي شيء آخر؟

نظر إلي وتصلب وجهه وكأنه يقول لي حان الوقت لتذهب. حضرت برناديت وقالت: ليلة سعيدة.

بعد عدة سنوات أخبرني كايسي بفخر أن آرث بوزوالد ذكر برناديت في إحدى مقالاته قبل أن تصبح زاويته في الصحيفة تهكمية ومرحة بشكل مميز. كان ذلك عام ١٩٥٦ عندما اصطحبها كايسي إلى المؤتمر الجمهوري في سان فرنسيسكو. كان عمرها ١٣ سنة وكانت في مقدمة الأطفال أمام إيزنهاور. حسناً، واقتطف بوزوالد من كلام برناديت قولها: «نحن فقط نجول ونحاول أن نتحدث إلى الناس كي يصبحوا جمهوريين... نحن نقول إنه أفضل

حزب». ماذا لو سألوا كيف تعلمت هذا؟ سألها بوزوالد. قالت: «إن والدي قال لي هذا».

في تلك الليلة طبعت مذكرات مفصلة حول العشاء والمناقشات. وبدا بشكل عام أن كايسي يقع في مكان ما بين خطابية ريغان وتحذيراته «الروس قادمون» من جهة، وبين تشكيك الصحافي من جهة أخرى. لقد امتدح خطاب الرئيس بوضوح وخصوصاً نظرته العالمية وشموليته، ولكن لم يَبْدُ أنه كان فرحاً.

تضمن خطاب كايسي بعض الأمور الحساسة. كم سيرتبك تشرشل إذا ما أفاق ونظر إلى العالم ورأى كيف أن السوفيات قد زادوا من قوتهم وكم توسعت سلطتهم، وعدد خمس مناطق: فيتنام، أفغانستان، القرن الإفريقي (أثيوبيا والصومال)، جنوب إفريقيا (أنغولا) حيث ما تزال توصية كلارك تمنع الولايات المتحدة من تقديم الدعم الخفي، الكاريبي وأميركا الوسطى.

بالعودة إلى لبنان وغرانادا جاء في الخطاب: «لأسباب سوف تفهمونها، أنا لست في موقع التوسع في التفاصيل. ومثل أي صحافي جيد أنا مستعد لأن أدخل السجن من أجل أحمي مصادري».

- «تشرشل سوف يحتفل بغرانادا». وشبه كايسي ذلك بتهديده للفاشية في الثلاثينات. «سوف يفرح لأنه للمرة الأولى يستعيد الغرب مستعمرة من الامبراطورية السوفياتية التي سرقت منها حريتها».

قال كايسي: «الامبراطورية السوفياتية وليس أمبراطورية الشر وهو التعبير السائد الذي استعمله الرئيس ريغان منذ ثمانية أشهر في فلوريدا. لقد أثبتت غرانادا أن السوفيات يمارسون الزحف الامبريالي بواسطة وكلاء عنهم. إنها مصغر لنيكاراغوا. وقال: لكي نتحدى استراتيجية الوكيل هذه، فإن «الولايات المتحدة بحاجة إلى استراتيجية مضادة وواقعية». يجب أن تتضمن تلك الاستراتيجية التأكيد على أن بلدان العالم الثالث سوف تصبح أرض المعركة الرئيسية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في السنين القادمة.

كان كايسي يعرف ماذا يريد أن يقول بدقة. وكان من عادته أن يعد خطاباته بنفسه. وكان زملاؤه يمزحون معه ويقولون: «الشيء الوحيد الأسوأ من أن يكون المرء رئيساً للجمهورية في لبنان هو أن يكون كاتب خطاباتك».

قبل نهاية الأسبوع أعلنت وزارة الدفاع أنه كان على جزيرة غرانادا ١١٠٠ كوبي وتم أسر ٦٠٠ منهم ولجأ المئات إلى التلال. أراد كايسي تقويماً شاملاً وسريعاً. كم كوبياً بقي في التلال؟ هل كانت غرانادا كما قال الرئيس قد «بدأت تستعد لتصبح موقعاً عسكرياً رئيسياً لتصدير الإرهاب؟».

صباح الأحد الباكر في ٣٠ تشرين الأول/ أوكتوبر اجتمع المحللون من سائر وكالات الاستخبارات في وزارة الدفاع. وفي المساء أنهوا تقويماً سرياً من عشر صفحات. طبع هذا

التقويم وتم تعميمه. تلقى كايسي نسخته نهار الاثنين. كان التقويم يتناقض بوضوح مع ما قاله الرئيس ومع كايسي نفسه ومع بلاغات وزارة الدفاع. جاء في التقويم أنه لم يكن هناك كوبيون في التلال. لقد قتل وأسر الجميع على يد القوات الأميركية التي يبلغ عددها ستة آلاف رجل. إن التقدير المبكر والمبالغ فيه جاء من المقابلات مع الأسرى الكوبيين ومن تضخيم قادة الوحدات الأميركية غير المتمرسين للقوى المواجهة على الجزيرة. كما جاء في التقويم أن مخازن الأسلحة في غرانادا كانت بعهدة الجيش والميليشيا. ولم تكن الأسلحة الموجودة كافية للإطاحة بالحكومات في الجزر المجاورة. لم يكن عمال البناء الكوبيون وحدات مقاتلة مموهة مع أن لديهم بعض أسلحة التدريب ومع أنهم اشتركوا في القتال.

قال كايسي عن التقويم إنه «لا يمكن تصوره»، ولكنه كان سرياً ولن يعلن.

تخوف المحافظون في الإدارة من هذا التقويم. قال هيرب ماير أحد مساعدي كايسي: «أظن أنه يلسع».

كان منج قد اقترح في مجلس الأمن القومي أن تطلب الإدارة من كاسترو أن يعلن في خطاب إذاعي استسلام وحداته في غرانادا! والآن تغيّر الوضع. لم يكن هناك وحدات عسكرية كوبية في الجزيرة. كبديل لذلك اقترح منج عدم إطلاق سراح الأسرى الكوبيين كي يقاسي الكوبيون من ذلك!.

قال طوني موتلي: لقد ربحنا.

أطلق بعد ذلك سراح الكوبيين.

أصبحت غرانادا رمزاً إيجابياً للإدارة يشار إليها بشكل روتيني على أنها «علامة للقساوة الجديدة» و«إعادة التأكيد على مبدأ مونرو» و«ضربة قوية» و«دبلوماسية المدفع»، وأنها دفنت ظاهرة إيران. كانت صورة الطلاب الأميركيين العائدين من غرانادا وهم يقبلون الأرض الأميركية عند نزولهم من الطائرات وصورة رئيسة وزراء الدومينيك شارلز وهي تتحدى إلى جانب ريغان وتعلن أن الولايات المتحدة هي منقذة الديموقراطية في الكاريبي أفضل تعبير عن الجو السائد.

بعد عدة أيام من الغزو استدعى وزير داخلية نيكاراغوا بورغ سفير الولايات المتحدة في ماناغوا وقال له: «في أي وقت تريد أن تخلي الأميركيين من نيكاراغوا فأنا مستعد لأشير عليك ما تفعل. نحن سنساعدك ولن يكون هناك أي مشكلة وهذا وعد».

في لانغلي تلقى كايسي هذا التقرير بفرح بالغ. لقد كان الساندينيون قلقين.

فيما بعد وعندما جاء طوني موتلي إلى نيكاراغوا واجتمع مع دانييل أورتيغا أثار قضية موريس بيشوب في غرانادا. وقال موتلي: القادة اليساريون ليسو سالمين من اليساريين الآخرين. ولا تكن موريس بيشوب نيكاراغوياً ميتاً في تابوت. كلما كانت رئيسة وزراء الدومينيك شارلز تتصل بموتلي كان يرد عليها ويأخذ قلماً وورقة ليسجل طلباتها.

عندما أشرف على طريق الثلاثين ميلاً أو العشرة ملايين دولار شعر بأنه يعمل وسيطاً بين السلطة المحلية (المختار أو العمدة) ومدير الأشغال العامة. بعد ذلك قدمت الولايات المتحدة مساعدة بقيمة مليوني دولار لمدارس الدومينيك و١٥٠ ألف دولار من أجل فرق المساعدة على اجتياز الأنهار في الجزيرة.

اقترح كايسي مذكرة سرية جداً تكرس مبلغ ٧ ملايين دولار كمساعدة للإذاعات ومكبرات الصوت (وهي آلات تقليدية في أميركا اللاتينية) وبعض الأعمال الإعلامية لوكالة المخابرات المركزية في الكاريبي. وكان ريغان متحمساً ووقع المذكرة فوراً.

كان مستقبل غرانادا السياسي غير ثابت. كان التنظيم السياسي الوحيد على الجزيرة بقايا «حركة الجوهرة الجديدة» اليسارية التي كان يتزعمها بيشوب. صمم كايسي وعدد من كبار المسؤولين في الإدارة الأميركية على أن ما أُخِذَ بالقوة يجب أن لا يضيع في صندوقة الاقتراع. وبموجب مذكرة رئاسية أخرى تم تخصيص مبلغ ٦٧٥ ألف دولار لتمويل العمل السياسي لوكالة المخابرات المركزية. خصص المال لمساعدات التعليم وللحصول على الأصوات في الانتخابات القادمة في غرانادا. قامت وكالة المخابرات المركزية بإجراء مسح انتخابي وتحليل للقوائم لتتأكد من انبثاق قائد قوي موالٍ للولايات المتحدة. وبعد ثلاثة عشر شهراً من الغزو فاز التحالف المدعوم من الولايات المتحدة والذي يترأسه السياسي المخضرم هربرت بلايز بنصر ساحق في الانتخابات. وكان من أول أعماله كرئيس للوزراء أن طلب من الرئيس ريغان إبقاء وحدة من ٢٥٠ جندياً أميركياً على الجزيرة.

ساعد الهجوم السوڤياتي على طائرة الركاب الكورية وإسقاطها (مقتل ٢٦٩ راكباً) وتفجير مقر قيادة مشاة البحرية في بيروت (مقتل ٢٤١ أميركياً) وغزو غرانادا (مقتل ١٩ أميركياً) على خلق جو ملائم لكايسي في اندفاعه للحصول على ٢٤ مليون دولار لعملية نيكاراغوا. كان العالم مليئاً بالأخطار ومن الصعب إقناع أحد بأنه قد حان وقت التراجع. كان كايسي يدعو إلى تدعيم العمود الفقري الأميركي. في هذه الأثناء صدر تقدير استخباري قومي جديد يستنتج أن الكونترا لن يتمكنوا من الإطاحة بالساندينيين وأنهم لن يحققوا انتصاراً عسكرياً ولا انتصاراً سياسياً. هذا يدل على أن عملية نيكاراغوا كانت أقل طموحاً مما ادعى الكثيرون في انتقاداتهم. كذلك جاء في مسودة ملخص سري جداً صادر عن البيت الأبيض أن الرئيس ريغان كان يبحث لأول مرة في طلب عفو عام عن الكونترا، وهذا يشير إلى إمكانية القيام بتسوية سياسية. في المؤتمر المشترك بين مجلسي الشيوخ والنواب حيث وافق الأول على تخصيص ٢٤ مليون دولار وصوّت الثاني على اقتراح لإنهاء برنامج الكونترا، كان مجلس الشيوخ هو الداعم للمذكرة الجديدة. قال الشيوخ إن تجديد «توصية بولاند» غير ضروري من أجل التثبت من أنه لم يصرف أي مبلغ بهدف الإطاحة بالساندينيين لأن المذكرة الجديدة أوضحت أن الهدف لم يكن ذلك.

حصل بولاند على تنازل رئيسي، وهو الموافقة على أن مبلغ ٢٤ مليون دولار كان سقفاً، أي أن المال يجب أن يبقى خلال السنة القادمة، وعلى الإدارة أن تطلب الاعتمادات.

في ٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣ وقع الرئيس ريغان قرار الموافقة على منح المساعدة فتحول إلى قانون، وبهذا كسب كايسي، وحول انتباهه نحو تلغيم المرافىء النيكاراغوية. وطلب تقارير من كلاريدج بشكل منتظم. هل لديكم أصحاب كفاءات لهذه المهمة؟ هل تم فحص الألغام؟ أصدر مدير المخابرات المركزية أوامره بسرية تامة.

***

في نهاية شهر كانون الثاني يكون قد مضى ثلاث سنوات على تولي وليم كايسي منصبه

كمدير للمخابرات المركزية كان واضحاً أن الجدل في أوساط الكونغرس والرأي العام حول عملية نيكاراغوا قد ازداد. كانت لعبة الاستخبارات مثل لعبة الغولف، وهي رياضة كايسي المحببة. بعد كل ضربة عاطلة يجب التعويض والحصول على أقصى ما يمكن من النقاط. اعتقد كايسي أولاً بأن العملية قد وضعت الحل ضمن الإدارة الأميركية، وثانياً بأنها كانت إعلاناً سياسياً عريضاً ضد الشيوعية، وثالثاً بأنها لفتت انتباه الكونغرس والأوساط الصحافية.

منذ بداية توليه منصبه، أولى كايسي اهتمامه بالاستخبارات البشرية، وحث مديرية العمليات على إجراء اختراقات. كان يطلب المصادر البشرية والمزيد من المصادر البشرية ثم المزيد من المصادر البشرية! عندما كان يرد إليه تقرير حول زعيم سياسي شاب أو وزير مهم كان كايسي يكتب على هامش ورقة التقرير: «هل نستطيع تجنيده؟» أو «تجنيده» فقط ويوقع الملاحظة بحرف «C». كان التجنيد مكلفاً وخطراً ومضيعاً للوقت، وحذر مكماهون ومدير العمليات من عدم الواقعية. لقد أمضى السوفيات عقوداً من الزمن وهم يزرعون وينشئون مصادرهم البشرية. ولكن كايسي لم يصبر ومضى يحث على تجنيد المصادر البشرية.

في أوائل كانون الأول/ ديسمبر أي في نفس الوقت تقريباً الذي حصل فيه كايسي على ٢٤ مليون دولار لعملية نيكاراغوا، زار الرئيس السوداني جعفر النميري واشنطن، وعقد اجتماعاً سرياً مع زعيم المعارضة الليبية الدكتور محمد يوسف المقريف الذي كان وزيراً للمالية وفر إلى مصر عام ١٩٧٩. اتهم القذافي بأنه طاغية وفاسد ويهدر عائدات أموال النفط الليبي. وأنشأ ما سمّاه جبهة وطنية الخلاص ليبيا كرست جهودها للقضاء على القذافي وللإطاحة بنظامه.

وردت في تقرير من مصدر سري من مديرية العمليات في ٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٣ معلومات عن اجتماع النميري والمقريف. جاء في التقرير أن القذافي قد يواجه المزيد من المشاكل في المستقبل. كان المصدر مسؤولاً سودانياً رفيع المستوى وكان يعلم أن المعلومات ستصل إلى الحكومة الأميركية. ولم يعرف ما إذا كان هذا المصدر يمرر هذه المعلومات بعلم الرئيس النميري أو دون علمه. وافق كايسي على حماية المصادر في التقارير المعممة على صعيد واسع، ولكنه كان دائماً يسأل: من هذا؟ وعلى الفور كان مدير العمليات يخبره أو يعطيه الملف.

كان واضحاً أن القذافي يحتقر النميري وكان يشك فيه من ناحية دعمه للمعارضة الليبية في الخارج. أما النميري فقد وعد في اجتماعه مع المقريف، استناداً لتقرير المصدر السرّي، بزيادة الدعم في مجالات التدريب والتجهيز بالأسلحة والذخائر، وإعطاء تسهيلات سفر بجوازات سفر سودانية ووثائق أخرى. وكان هذا تغطية هامة تحتاجها القوى المعادية للقذافي للعمل داخل ليبيا.

قال النميري للمقريف: إن له «كارت بلانش» أي يـدأ مطلقـة للنشاط ضـد ليبيا وخصوصاً في العمل العسكري. إنه إعلان موجز للحرب، وهو أقصى ما تسمح بـه أية دولة، حين تجعل حدودها منطقة عمليات عسكرية. قال النميري إن حركة المبعدين يجب أن تستمر في نشاطها من خلال جهاز استخباراته الخاصة ويدعى منظمة الأمن السودانية وأنه عند حدوث أي مشاكل يمكن الاتصال به مباشرة.

وجاء في التقرير أن المقريف قال إنه يؤمن بأن الولايـات المتحدة والسـودان حليفاه الوحيدان، وقال إنه بعد انتهاء مرحلة التدريب يأمل بأن يشن حملة ضد ليبيـا تؤدي إلى إظهار مصداقية منظمته. وتضمن التقرير تعليقاً من المصدر يفيد بأن المقريف لم يحدد أنواع الحملات التي كان ينوي القيام بها، ولكن كان الانطباع السـائد بـأنها نوع من النشـاط العسكري داخل ليبيا. وقال إن الليبيين «قد اخترقوا الاستخبـارات السرية و. . . . وإن المغرب ليس آمناً له ولا لمنظمته».

كان أي عمل عسكري دراماتيكي مضاد للقذافي داخل ليبيا يروق لكايسي. يبدو أن للمقريف ومنظمته بعض القوة. لم يكن كايسي قادراً على الحصول على مذكرة رئاسية تدعم تحركه ضد القذافي. كان للقذافي ترسانة ضخمة من الأسلحة والتجهيزات السوفياتية بقيمة مليارات الدولارات، وكان يلاحق المعارضة الليبية في الخارج بشكل مستمر.

تابع كايسي باهتمام المعلومات عن ليبيا والقذافي الذي كان يهدد الاستقرار في شمال إفريقيا والشرق الأوسط بكامله حسب رأي كايسي. لقد تظمت تقارير كثيرة وتقديـرات وتقويمات وأوراق رسمية عن القذافي وليبيا أكثر منها عن أي بلد آخر، أو زعيم آخر. أما عدد الاجتماعات التي كانت مخصصة لليبيا في وكالة المخابرات المركزية فقد ازداد كثيراً، عن حجم ليبيا وأهميتها. وفي بعض الأوقات حازت ليبيا على اهتمام أكبر من ذلك الذي حازه الاتحاد السوفياتي! وجاء في التقارير المتعلقة بالقذافي معلومات عن حياته الشخصية وحياته المنزلية وغزواته المتنوعة إلى الصحراء، وتحركاته الدبلوماسية، كما كان هناك تسجيل لمكالماته الهاتفية ولمحادثات أخرى. إن عدم وجود سفارة أميركية في طرابلس جعل الحصول على تلك المعلومات صعباً، ولكن كايسي يصرّ ويسأل: «ماذا عند القذافي. . . في هذا الأسبوع؟».

أما المشروع الذي حاز على اهتمام كايسي فكان تجنيد مصادر بشرية وتطويرها داخل الاتحاد السوفياتي، وكان بيل كولبي قد حث على ذلك منذ ثلاث سنوات، أي قبيـل أن يستلم كايسي وظيفته كمدير للمخابرات المركزية، كما أن الآخرين قد أشاروا إلى ذلك في مرات عديدة. لقد دفعت غريزة كايسي في ذلك الاتجاه. لقد كانت الصين والاتحاد السوفياتي من الأهداف الصعبة. وكان الروس هم الأصعب والأقل احتراماً. إن المجتمع السوفياتي المغلق قد جعل من المستحيل للعاملين في الاستخبارات أن يقيموا اتصالات. لم يكن هناك شيء في الاتحاد السوفياتي غير مشكوك بأمره. لا مكالمات هاتفية غير مسجلة، لا اجتماعات

بريئة، لا سفر دون مهمة ولا منزل آمن، وفي الحقيقة لا مكان آمن حتى داخل السفارة الأميركية.

تفهم كايسي ذلك وكان عليه أن يعثر على أجوبة عن أسئلة كبيرة حول النوايا الحقيقية السوفياتية. لم يكن الجواب مجرد مشكلة جمع معلومات، فقد أقنعه غايتس الذي كان يترأس الجانب التحليلي في وكالة المخابرات المركزية وآخرون بأنه كان أيضاً من الصعب على السوفيات فهم النوايا الحقيقية الأميركية. كان يعتقد بأن أحد محللي المخابرات السوفياتية قد نفي إلى سيبيريا لأنه فشل في التنبؤ بأن مزارع فستق يمكن أن يتغلب على رئيس الولايات المتحدة في انتخابات ١٩٧٦ الرئاسية. ونفى محلل آخر لفشله في التنبؤ بأنّ ممثلاً من هوليود سيطيح بمزارع الفستق وسيؤدي ذلك إلى أكبر عملية بناء عسكري في وقت السلم في تاريخ الولايات المتحدة.

شعر كايسي بأنّ تجنيد المصادر البشرية كان يلقى اهتماماً قليلاً في أيام تورنر. مع أنه كان هناك بعض النجاحات المحدودة، فقد شعر عناصر مديرية العمليات بأن تورنر قد أذعن للحواجز المعدّة ضد التجنيد في داخل الاتحاد السوفياتي. ضغط كايسي بشأن الأساليب المعتمدة للعثور على حل لجميع المسائل. لقد كان السوفيات يزيدون من أسفارهم، وأصبح من الممكن الاتصال بهم خارج الاتحاد السوفياتي. كان كايسي متأكداً من أن هؤلاء السوفيات يعارضون نظام الحكم في بلدهم، وكان يعتبر أن أي عرض للعمل لصالح الولايات المتحدة، كان بمثابة خدمة للمواطن السوفياتي!

كان أ.ج. تولكاشيف أحد المصادر السرية داخل الاتحاد السوفياتي، وكان قد جُنّد قبل إدارة ريغان. كان موظفاً في مؤسسة موسكو الفضائية، وعمل مع أحد ضباط العمليات في محطة موسكو في نظام متطور ومعقد، وسلمه أسراراً هامة.

كان هناك أيضاً الاختراق المباشر، وكانت لكايسي شكوك حيال هذا الأسلوب. وحذر وكالة المخابرات المركزية من المخبرين المزروعين ومن العملاء المزدوجين. لكنه شعر بأن من المهم أن يعلم الجميع أن الباب في كل محطة أو منشأة للاستخبارات الأميركية مفتوح دائماً. الاختراق المباشر له حسنات. نستطيع أن نبدأ بالعمل في فترة زمنية قصيرة. لم تكن الفترة الطويلة من التربية والرعاية، والتي تُعَدُّ غير مباشرة وغامضة، ضرورية. ومع أن عدداً من الاختراقات المباشرة كان دون فائدة وتطلب مزيداً من الجهد، فقد شعر كايسي بأنه من الطبيعي أن يطلب أي مسؤول رسمي في الاتحاد السوفياتي أو الكتلة الشرقية مساعدة الغرب. بحث كايسي مسألة تجنيد المصادر البشرية مرة أخرى مع النخبة في الفرقة السوفياتية في مديرية العمليات، وأوضح أنه كان يرغب في إجراء محاولات. قال: نعم، يمكن أن تحصل أخطاء. وتوقع أن بعض السوفيات يمكن أن يهاجموا. إذاً ماذا؟ قال: ذلك يثبت أننا فعالون. إذاً لم نحاول، ولم نجازف، مما يعني أننا لا نبذل الجهد الكافي. يجب أن نلاحق كل

دليل، يجب أن لا نغضّ النظر عن أي تلميح أو مفتاح أو حدس. هذه هي اللعبة الطويلة والعميقة مع الخصم الأساسي. أراد كايسي أن يلعب جيداً وبطريقة ضارية.

ازداد التنسيق مع مكتب التحقيق الفدرالي الذي كان يتولى مكافحة التجسس داخل الولايات المتحدة. وقد أعطته محطات وكالة المخابرات المركزية لوائح للأشخاص المقترح تجنيدهم، استناداً إلى سلوكهم خارج الولايات المتحدة وخاصة في الاتحاد السوفياتي، كما أعطته نسخاً عن ملفات الدبلوماسيين السوفيات أو عناصر المخابرات السوفياتية المبعوثين إلى الولايات المتحدة للعمل في السفارة السوفياتية أو في مهمات تجارية. وبدوره كان مكتب التحقيق الفدرالي يعطي معلومات عن الأشخاص السوفيات الذين عملوا في الولايات المتحدة، ثم انتقلوا إلى مراكز أخرى في الخارج، حيث يمكن لمحطات وكالة المخابرات المركزية أن تراقبهم وتقتفي آثارهم. لقد حصل مكتب التحقيق الفدرالي على الأفضل في هذا التبادل، لأن العوامل المادية والنفسية في الولايات المتحدة كانت أكثر ترغيباً في التجنيد والعمل مما هي خارج الولايات المتحدة. وقد جنّد مكتب التحقيق الفدرالي عدداً من المصادر الهامة والقوية معتمداً على معلومات وكالة المخابرات المركزية.

في أوائل أيام إدارة ريغان كان كايسي قادراً على استغلال التصدع في الستار الحديدي، وخصوصاً في أوروبا الشرقية، وركز انتباهه على بولونيا. أما في بلدان أوروبا الشرقية الأخرى فقد كان المسؤولون الرسميون يسافرون أكثر إلى خارج بلادهم، وكانت حركة التنقل بين الشرق والغرب تزداد، وتسمح بعمليات استكشافية دون ثمن.

بعد ثلاث سنوات كان لكايسي أكثر من ٢٥ مصدراً بشرياً داخل الاتحاد السوفياتي وفي دول أوروبا الشرقية يعطون المعلومات بشكل منتظم. وقد جُنِّد الجميع خلال عهده. وكان هؤلاء من بين العسكريين ومن عناصر المخابرات السوفياتية ومخابرات دول الكتلة الشرقية، ومن العاملين في الميادين العلمية وسائر ميادين الحياة.

كان كايسي فخوراً بواحد من هذه المصادر، وعندما علم بعض مسؤولي الولايات المتحدة الذين كانوا على لائحة السماح Bigot بحالة هذا المصدر تأثروا جداً. أقر كايسي بأنه لا يوجد أي مصدر في الوكالة أفضل من الكولونيل أوليغ بنكوفسكي، وهو بالفعل أسطورة. فمنذ أوائل الستينات كان بنكوفسكي ضابطاً في الاستخبارات العسكرية السوفياتية ومرّر آلاف الصفحات من الوثائق إلى وكالة المخابرات المركزية خلال ستة عشر شهراً، ثم ألقي القبض عليه وأعدم. لقد أمن معلومات هامة وحساسة تتعلق بتحديد هوية السلاح السوفياتي في كوبا خلال أزمة الصواريخ عام ١٩٦٢.

لم يعجب البيت الأبيض كثيراً باختراقات كايسي في الاتحاد السوفياتي، بل على العكس من ذلك، كان هناك الكثير من التذمر وخصوصاً من قبل آلن وكلارك مستشاري شؤون الأمن القومي وحتى مكفرلين، وذلك بسبب عدم وجود معلومات عن المكتب السياسي

للحزب الشيوعي السوفياتي. كان أركان البيت الأبيض يريدون معلومات سياسية تفيد الرئيس، ولم يتقدم كايسي على هذه الجبهة. كان هاجس أركان البيت الأبيض المعلومات التي تساعد الرئيس على التفوق على السوفيات في المناورات السياسية، وعلى أن يمارس دوره بمهارة أكثر في التعامل مع السوفيات. يمكن أن ترد المعلومات من داخل المكتب السياسي دون ثمن، لكن كايسي لم يحصل عليها. أراد البيت الأبيض أيضاً معلومات للرئيس يستخدمها كمهندس رئيسي للسياسة الخارجية الأميركية. ويمكن للمعلومات السرية الواردة من داخل أجهزة القرار السوفياتية أن تعطيه المجال لرشاقة في الدبلوماسية، وأن تسمح له بتطويق السوفيات في العلاقات العامة الدولية. إن أي خطاب في الوقت المناسب أو أي تقدم علمي أو مسألة تجارية يمكن أن يساعد في ذلك.

شعر كايسي بأن وكالة المخابرات المركزية تؤمن معلوماتٍ هامة في قطاع حساس من مسؤولية الرئيس. وكانت هذه المعلومات تساعد الرئيس في عمله كقائد أعلى للقوات المسلحة. لقد كانت بمثابة الإنذار المبكر والاستخبارات العسكرية. أدرك كايسي أن المعلومات لم تكن شاملة ولكنها غالباً ما كانت واضحة. وأعطت للرئيس ما يحتاج إليه عن التحركات العسكرية السوفياتية الرئيسية. لقد أتى قسم كبير من هذه المعلومات من مصادر تقنية، وكانت تتم مراقبة وقياس تحركات الوحدات العسكرية عبر الحدود بواسطة الأقمار الاصطناعية أو بواسطة التقاطات وكالة الأمن القومي. أوصل كايسي نجاحاته إلى البيت الأبيض، وكان يفتخر دائماً بأنه خلال إدارة ريغان لم يقدم السوفيات على مفاجأة كبيرة غير إسقاط الطائرة الكورية، وكان ذلك خطأ وليس خطة تستطيع الوكالة معرفتها مسبقاً.

كان كايسي مصمماً على توسيع المصادر البشرية في الحكومات الصديقة للولايات المتحدة. إن ذلك خطر، ولكنه ضروري، ويعطي البيت الأبيض صورة صحيحة وواضحة عن العالم. إن مصدراً بشرياً جيداً يحضر اجتماعات الحكومة يفيد أكثر من النسخ الحرفية المسجلة بواسطة أجهزة استراق السمع. إن هذا المصدر، من شأنه أن يشترك في القرارات، وفي أحاديث الممرات، وأن يشارك في حياة المجموعة وأحزابها، وفي القيل والقال والإشاعات وغيرها، ويمكن أن يدرك أن كلمات الزعماء التي تصل من أكثر الاجتماعات سرية أو من اللقاءات والأحاديث الهاتفية لا تخبر عن حقيقة الوضع. إن المصدر البشري الجيد يمحص هذه الحقائق ويخترق الشاشات الدخانية. إنه نافع بحق، ويتمنى الجميع وجوده، وهو بمثابة نظام إنذار لمدة ٢٤ ساعة يومياً.

في معظم المناطق غير المستقرة سياسياً في العالم: آسيا، إفريقيا، الشرق الأوسط، أميركا اللاتينية، كانت مخاوف الزعماء تدفعهم إلى تطوير المصادر البشرية. كان القلق الأساسي يأتي من جهود القوى الداخلية والخارجية لزعزعة الاستقرار: انقلابات عسكرية، عمليات إرهابية، اغتيالات، وغيرها. طلب هؤلاء الزعماء الحماية، وهذا يعني التدريب

والخبرات وأحدث المعدات. ولا يوجد أي بلد في العالم مجهز لتأمين تلك الحماية أكثر من الولايات المتحدة. ولا يوجد جهاز في الحكومة الأميركية له خبرة في حماية الزعماء والقادة بشكل سري وفي مساعدتهم أكثر من وكالة المخابرات المركزية. هذا ويحتاج العمل السري إلى مذكرة رئاسية، ويشمل جهود الوكالة للتأثير على الأحداث في أي بلد أجنبي. من الناحية التقنية، كان رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية يعطي النصائح لرئيس الدولة ولرئيس استخبارات الدولة. لقد تطور بعض الأعمال السرية إلى تقديم المساعدات الأمنية، وبرامج التدريب على الاستخبارات، هذه البرامج لم تكن معدة للإطاحة بالنظام بل على العكس لحمايته.

كانت الوكالة ترسل فريقاً من ثلاثة أو أربعة أعضاء بإشراف فرقة النشاطات الدولية الخاصة في الوكالة وبمساعدة مكتب الخدمات التقنية في مديرية العمليات. كان الفريق يسلم المعدات ويدرب على استعمالها. وقد خضع للتدريب الحرس الشخصي الخاص أو الحرس في القصر الجمهوري وعناصر الاستخبارات وعناصر من البوليس المحلي. كانت المعدات تشمل أفضل الأسلحة الأتوماتيكية والبنادق ومعدات الرؤية الليلية ذات التقنية العالية وأجهزة الاتصال الخفيفة وأحدث معدات الاتصال التي يمكن المحافظة على سرية العمل فيها، وحتى طائرات الهلكوبتر الخاصة. لقد رغب عدد كبير من هذه البلدان في الحصول على طائرات هلكوبتر متقدمة وأجهزة إنذار وبعض المعدات المستعملة في حماية رئيس الولايات المتحدة مثل البزات الخفيفة الواقية من الرصاص، بالإضافة إلى التقنيات المتطورة في الأبنية التي ترشد إلى الارهابيين وتؤمن الارتباط مع خدمات الاستخبارات والبوليس.

كان أحد هذه البرامج في القصر الملكي المغربي حيث أمنت وكالة المخابرات المركزية ولسنوات عديدة المساعدة التقنية والتدريب وأجهزة الاتصال للملك الحسن الثاني (خلال الحرب العالمية الثانية التقى ضابط أميركي صغير هو فرنون والترز بولي العهد الأمير حسن والذي كان يبلغ ١٣ سنة من العمر وبدأت بينهما صداقة استمرت إلى فترة ١٩٧٢ ـ ١٩٧٦ عندما كان والترز(*) نائباً لمدير المخابرات المركزية وكان يعتبر بمثابة «ضابط الحالة» للملك الحسن الثاني). لقد ساعد برنامج الوكالة المستمر على مر السنين في إبقاء الملك الحسن في السلطة منذ العام ١٩٦١ واستمرار حكمه أكثر من ٢٥ سنة وهو أطول حكم في أية دولة إفريقية وبالمقابل فقد سمح الملك الحسن الثاني لوكالة المخابرات المركزية ولوكالة الأمن القومي بحرية التحرك في بلاده، ووضع في المغرب معدات تجسس حساسة ومعدات تكنولوجية متطورة، وكان هذا مهماً بشكل خاص، لأن موقع المغرب على مضيق جبل طارق يتحكم بالمدخل الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

(*) فرنون والترز هو الآن مندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة.

كانت الولايات المتحدة ومحطة وكالة المخابرات المركزية في المغرب وفي عشرات البلدان تقول لزعيم البلاد: «نحن أصدقاؤك ونريد أن نعتني بك» وكانت هذه المساعدة في ظل البيئة السياسية المحلية المتقلبة في بلدٍ ما، تعني استمرار الحياة.

كان هناك جانب آخر للاستخبارات وللمساعدات الأمنية مبني على الاستغلال والشك اللذين يحتاجهما كل عمل استخباري جيد، لذلك يمكن أن ينقلب الأصدقاء إلى أعداء بين ليلة وضحاها. كانت الصداقات على درجات، وكان مفهوم المصلحة الوطنية يتغير. والملك الحسن الثاني يمكن أن يكون مع الولايات المتحدة في معظم القضايا لكن تبقى هناك نقاط خلاف لا يمكن تجنبها.

في عالم المافيا كانت عقيدة العراب أن يتقرب من الأصدقاء على ان يتقرب من الأعداء أكثر. وكان مبدأ وكالات الاستخبارات في العمل هو المحافظة على التقرب من جميع البلدان نظراً لتغير الصداقات والعداوات. كان فريق الوكالة يعلم من لديه نفوذ حقيقي ومعلومات حقيقية. ويعلم عن خصوصيات الزعيم الصديق وهفواته وعن عائلته ومستشاريه. كان هناك أيضاً عناصر لتركيز معدات استراق السمع على الخطوط الهاتفية وفي المكاتب والمناطق السكنية. كانت وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي تعلمان عن وضع أجهزة الاتصالات التي قدمتها إلى قوى الأمن والاستخبارات، وخصوصاً عن طريقة استعمالها وترددتها وشيفرتها إذا كان ذلك ممكناً.

كان تجنيد المصادر البشرية هو الأكثر أهمية. كان فريق الوكالة أو عناصر المحطة يتداخلون في أعمالهم مع عمال الراديو والحراس ويشرفون على جلسات التدريب وعلى الاجتماعات ويقيمون حفلات الغداء. وهكذا ازداد عدد الأشخاص الهامين في الاستخبارات الأميركية وتدرجوا من عمالة براتب إلى صداقات واتصالات غير رسمية يمكن استثمارها لحاجات خاصة.

كانت النتيجة اختراقات متعددة وفعالة، وعيون وآذان بشرية في كل مكان، ومعدات الكترونية في أهم البلدان الصديقة. اعتبر بعض عناصر الوكالة ذلك خطراً كبيراً. كانت الوكالة «حصان طروادة» متطوراً داخل البلد المضيف، يستغل نجاح المساعدة الأمنية للاستخبارات. شعر كايسي بأنه من الإجرام عدم استغلال التسهيلات المتاحة لهم. وفي بعض الأحيان كان يسمي هذه العمليات «واجباً» أو «عملاً تجارياً». لم تكن هناك مقاييس ولا قواعد ولا قوانين للتجسس في الخارج. كان هناك قاعدة واحدة فقط: «لا تدعهم يمسكون بك، وإذا حصل لا تقبل ذلك أبداً».

قال كايسي إنه يتم التعامل مع كل عملية بشكل خاص، لأن الانكشاف يعرض العلاقات مع البلد المضيف للخطر. تعرض أحد مصادر وكالة المخابرات المركزية في الهند للشبهة وأوقف عن العمل. كانت رئيسة وزراء الهند أنديرا غاندي تتخوف من أن يكون

للولايات المتحدة جاسوس في أوساطها. ولكن قرر البلدان أنه من الأفضل وضع هذه المسألة جانباً.

إذا كان كايسي مهتماً بمنع المفاجآت الدولية فعليه أن يقبل بخطر التجسس على الأصدقاء، فقد تعرض لانتقادات داخل الوكالة وقيل إنه لا يكترث بالثمن الغالي للفشل. لكن كايسي كان يحارب هذه العقلية: دفاع لا هجوم، أو حذر لا إقدام.

كان تعزيز سلطة رؤساء المحطات في الخارج من أهم أهداف كايسي: إن عمليات المساعدة الاستخبارية والمساعدات الأمنية تزيد من سلطة رئيس المحطة في البلد المضيف. لقد أعطي رؤساء المحطات بطاقات بلاستيكية دونت عليها الخدمات المتوفرة ومن ضمنها حماية رؤساء الدول. وقد عرضت هذه البطاقات على رؤساء الدول ليختاروا ما يريدون من القائمة. اعتمد عدد من رؤساء الدول بشكل كبير على هذه المساعدات الأمنية، وكانوا يطلبون آخر وأحدث المعدات التي تساعد في المحافظة على السلطة. لقد كانت هذه المساعدات والعمليات الناجحة تعطي قوة هائلة لرؤساء المحطات ضمن السفارات الأميركية وخصوصاً إذا أدت المساعدة الأمنية إلى الحصول على معلومات سياسية من القصر الجمهوري. لقد أمّنت هذه العمليات نوعاً من المعلومات التي كان المستشارون السياسيون في الإدارة، وزير الخارجية ومستشار الأمن القومي وأركان البيت الأبيض، يسعون إليها.

إذاً كانت عمليات الأمن ومساعدات الاستخبارات منتجة. وبالإجمال قدم كايسي مساعدات لاثني عشر بلداً منها، ومن زعماء هذه البلدان:

- الرئيس حسين حبري رئيس تشاد وهي مستعمرة فرنسية سابقة إلى الجنوب من ليبيا. وصل حبري إلى السلطة في السنة الفائتة (١٩٨٢) بعد ما تلقى مساعدة سرية شبه عسكرية من الوكالة كجزء من مشروع إدارة ريغان لتمريغ أنف القذافي.

- الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق، وللباكستان وضع جغرافي حساس فهي محاطة بدول غير صديقة. إيران في الغرب، وأفغانستان تحت السيطرة السوفياتية في الشمال، وقسم صغير من الاتحاد السوفياتي، وحدود مشتركة مع الصين، والعدو اللدود الهند إلى الشرق والجنوب. والأهم أن ضياء الحق سمح لوكالة المخابرات المركزية بتمرير كميات كبيرة من المساعدات شبه العسكرية للثوار الأفغان عبر الباكستان. لقد أراد كايسي والوكالة وإدارة ريغان لضياء الحق أن يبقى في السلطة، وكانوا بحاجة إلى أن يعرفوا ما كان يجري في حكومته. كانت محطة الوكالة في إسلام أباد من أكبر المحطات في العالم.

- الزعيم الليبيري صمويل دو. كان المقدم موسى فلانزامانتون نائب رئيس الحرس الشخصي عميلاً للوكالة، وقام بمحاولة لاستلام السلطة، بنصب كمين مسلح لسيارة دو. لم يصب دو واعتقل فلانزامانتون واعترف بارتباطه بالوكالة وبالغ في ذلك بصورة غير طبيعية ليلقي مسؤولية محاولة الاغتيال على الوكالة. كان ذلك مربكاً جداً في لانغلي وتخوف الجميع

من اتهام الوكالة بمحاولة الاغتيال. ونشير هنا أن العبيد الأميركيين المحررين هم الذين أنشأوا دولة ليبيريا وأنها كانت أول جمهورية في إفريقيا. وبدا واضحاً أن فلانزامانتون قد ارتبط مع الوكالة بأمل دعم طموحه السياسي. ولكنه أعدم بعد أسبوع من محاولة الاغتيال وماتت التهم معه.

- الرئيس الفيليبيني ماركوس وهو صديق هام للولايات المتحدة وهو الذي سمح لها بإبقاء قواعد بحرية وجوية في الفيليبين. كان ماركوس أيضاً يواجه ثورة شيوعية في بلاده.

- الرئيس السوداني جعفر النميري الذي أقام علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة وكان سداً ضد القذافي في إفريقيا.

- الرئيس اللبناني أمين الجميل. كانت الوكالة تعمل لعدم الإطاحة به ومنع اغتياله كما حصل مع شقيقه بشير الجميل.

- الرئيس دوارت في السلفادور وهو الذي بذل جهداً واسع النطاق لمنع وصول السلاح إلى الثوار اليساريين في السلفادور ومنعهم من السيطرة على البلاد. لقد كان من الضروري المحافظة على دوارت وسلطته.

كانت المساعدات الأمنية هي أفضل العمليات الاستخبارية، وأدرك كايسي أنه يجب أن يكون محامياً غير متسامح عن الأعمال الخفية حتى ولو لم تؤدِ إلى أية نتيجة. إنها كانت الطريق لوضع قدم الوكالة على الباب. وكانت الوكالة تحتاج إلى وضع قدمها أمام كل باب في العالم. هل كانت هذه الترتيبات تذهب بعيداً؟ نعم أدرك ذلك. كيف يمكن ضبطها؟ كان جواب كايسي بسيطاً. سوف يركز على المراقبة الذاتية وذلك بعد فضائح الرشوة في ما وراء البحار في السبعينات. وقد حظر الكونغرس على رجال الأعمال الأميركيين تقديم مدفوعات أو رشاوى في الخارج للحصول على أعمال والتزامات تجارية، كان كايسي يعلم طبعاً أن المدفوعات والهدايا للزعماء الأجانب أو لمصادر الاستخبارات كانت استثناء أي رشاوى شرعية. مثلاً كان كايسي يزور الرئيس الباكستاني ضياء الحق مرة أو مرتين في السنة وسرعان ما كانت له علاقات وثيقة مع ضياء الحق أكثر من أي عضو في الإدارة الأميركية. وهكذا عندما كان ضياء يطلب المساعدة من الولايات المتحدة أو يريد أن يُسمع رأيه لأحد، كان كايسي هو الطريق.

بالإضافة إلى ذلك كان الوجود العسكري أو إجراء المناورات في بعض أنحاء العالم يتضمن إجراء عمليات خفية. مثلاً في السنين السبع الماضية أجرت وزارة الدفاع سلسلة من المناورات في الهندوراس. وكانت هذه جرعة ثقيلة من دبلوماسية المدفع لتخويف جارتها نيكاراغوا. وفي سياق المناورات تركت معدات وقواعد مؤقتة وأراضي هبوط في الهندوراس. كان ينظر إلى هذه العمليات على أنها عمليات خفية وكانت لجنتا الاستخبارات في الكونغرس تتلقيان الإيجازات حين كان برنامج المساعدة الخفية لدعم حكومة قائمة يلقى تجاوباً.

لقد أظهرت عمليات الدعم الاستخباري والأمني للرئيس المصري أنور السادات حسنات وسيئات هذه الأنواع من الأعمال الخفية. وصل السادات إلى السلطة عام ١٩٧٠ وبعد سنتين طرد الروس من مصر. وسرعان ما بدأت وكالة المخابرات المركزية بتنفيذ برامج للحماية الشخصية ولمساعدة الاستخبارات، فقد أرادت الولايات المتحدة أن تحافظ على حياة أنور السادات، وطلبت الكثير من المعلومات حول السادات وسياسة قصره ومناوراته. كان معظم هذه المعلومات دون فائدة ولكنه سمح لعناصر الوكالة بالبحث عن مصادر تعطي معلومات عن أوهام وطموحات وسياسات عشرات الوزراء ومساعدي الوزراء.

لم يكن هناك تقويم كافٍ لاستخبارات «خذ» لأن الكمية غلبت النوعية عندما كانت البيانات والتقارير تتدفق على المحللين، وفي بعض الأوقات أمسى التقويم والتصنيف من الأعمال الصعبة. كلما عرفت الوكالة أكثر كلما كان لها الأقل وقد استعمل بعض الزعماء مثل السادات هذه العمليات كنوع من الاقتحام يفتح لهم باباً خلفياً إلى حكومة الولايات المتحدة. وهذه الطريقة تلتف حول القنوات الدبلوماسية العادية.

كان السادات يعامل مدير المخابرات المركزية «كضابط حالة» في بعض الأوقات. قال وليم كولبي في مذكراته: «الرجال الشرفاء» وهو يصف رحلة قام بها إلى فلوريدا عام ١٩٧٥ للقاء بروتوكولي مع الرئيس السادات الذي كان يزور الولايات المتحدة «لتقديم احترامات»، إنه قد انتظر بعد الظهر وأمضى الليل جالساً في سيارة خارج مقر إقامة السادات ولم يتمكن من مقابلته. عوضاً عن ذلك كان السادات قد سمح للصحافية المشهورة برباره والترز بإجراء مقابلة معه. ذكر كولبي هذه الحادثة لأنها كانت في نهاية الأسبوع الذي طرده فيه الرئيس فورد. لم يسافر كولبي من واشنطن فقط من أجل البروتوكول وتقديم الاحترامات!، وكولبي اللطيف لا يمكن أن يمضي الليل وخاصة ليلة السبت في سيارة إلا إذا كانت القضية هامة. كان يقول دائماً إن السادات ثمين جداً للمخابرات وإنه ليس من النوع الذي تدفع له الوكالة وتسيطر عليه، ولكن فتح نفسه وبلاده لوكالة المخابرات المركزية وللمصالح المشتركة المصرية ـ الأميركية. إنه كان شارعاً بوجهتي سير وشكل خطراً على الجانبين.

شكك بعض الخبراء في العلاقة مع السادات واستنتجوا أنها كانت طريقة السادات في العمل: يجعل الآخر يظن أنه يملكه ويسيطر عليه، وفي بعض الحالات باع نفسه للاعبين الكبار بنسبة ١١٠٪. كانت الولايات المتحدة تعتقد بأنها تملكه وهكذا اعتقد الجيش المصري وكذلك فكرت بعض الدول العربية. وفي بعض الأوقات بعد كمب ديفيد اعتقد الإسرائيليون ذلك أيضاً. كانت هذه طريقة السادات للإمساك بجميع الأوراق. إلا أن هذا التكتيك قد عزز من عزلته عن شعبه. لقد جاءه يوم الحساب وسط جو من الرضى الظاهر، وفشل حراسه الشخصيون وعناصر الأمن الذين عملوا طويلاً لحمايته. أدى اغتياله أثناء العرض العسكري في ٦ تشرين الأول/ أوكتوبر ١٩٨١ إلى إنهاء إحدى أهم العلاقات

الاستخبارية لوكالة المخابرات المركزية.

كان هناك أيضاً مجال حساس في جمع المعلومات الحساسة، التي كان كايسي يعتقد بأنها تؤدي إلى الحصول على كمية لا بأس بها في مجال الاستخبارات السياسية. لقد كان من محبذي الجدل الذي أثير خلال عهد كارتر ثم وضع حد له عام ١٩٧٨. في ذلك الوقت كانت وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي تشرفان على عمليات مراقبة إشارات الاستخبارات في الخارج بشكل منفصل. وكانت تقوم بهذا العمل في وكالة المخابرات المركزية مجموعة من نخبة العناصر أطلق عليهم اسم «الفرقة د» كانت تتألف من أقل من ١٠٠ شخص. وبشكل عام كانت وكالة الأمن القومي تقوم بالتقاط الاتصالات في الهواء، أما «الفرقة د» من وكالة المخابرات المركزية فقد كانت تزرع آلات الهاتف الصغيرة أو آلات استراق السمع في المنازل. كانت تتنقل من بلد إلى بلد ومن سفارة أميركية إلى سفارة أميركية أخرى، ونفذت بعض الاختراقات الخطيرة في مكاتب الحكومات الأجنبية في الخارج، وذلك بزرع معدات استراق سمع. بحلول عام ١٩٧٨ بدأ التنافس بين وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي يفلت من اليد. وكرد على هذا، قامت لجان المراقبة في الكونغرس بقطع التمويل عن وكالة المخابرات المركزية المخصص لجمع إشارات الاستخبارات، وهذا ما أجبر الوكالتان على توحيد جهودهما في السفارات.

في نهاية عام ١٩٨٣ كانت وحدات مشتركة من وكالة الأمن القومي ووكالة المخابرات المركزية تعمل في ثلث السفارات الأميركية في الخارج، وكانت كل وحدة تتألف من رجلين أو ثلاثة، وتعمل بطريقة سرية جداً، وكان عناصرها يجمعون ما بين الخبرة الشخصية لعناصر وكالة الأمن القومي والمهارات الجريئة لعناصر وكالة المخابرات المركزية. لقد سميت هذه الوحدات بـ«عناصر الجمع الخاصة» أو «مواقع الجمع الخاصة»، وأعطت نتائج ممتازة في الاستخبارات خصوصاً عندما كانت السفارة الأميركية في موقع مرتفع أو مشرف أو قريبة من وزارة الدفاع أو من وزارة الخارجية أو من بعض المكاتب الهامة في البلد المضيف. كان اختيار الموقع، يقع على عاتق وكالة المخابرات المركزية أو وكالة الأمن القومي حسب نوع المهمة المطلوبة وطبيعة الأهداف. وكانت «مواقع الجمع الخاصة» فعالة في عواصم دول أوروبا الشرقية بشكل خاص.

كانت التكنولوجيا المتطورة مفتاح النجاح، وقد طوّرت وكالة الأمن القومي ووكالة المخابرات المركزية تقنيات من الصعب أن تتخيلها الدول المضيفة: آلات استراق سمع إلكترونية متطورة أكثر من تلك التي تتحدث عنها روايات التجسس أو التي تظهر في الأفلام السينمائية، معدات التسجيل التي كانت توضع قرب خطوط الهاتف أو قرب الغرف دون اتصال مادي. وقد أمكن تسجيل المحادثات داخل الغرف وذلك بقياس الذبذبات على زجاج الشبابيك إلكترونياً بواسطة شعاع غير مرئي. يرسل هذا الشعاع من مصدر على بعد

مئات الأقدام عن الشباك ويصل إلى الشباك بزاوية حادة وينعكس ثم يستقبل في موقع استقبال على بعد مئات الأقدام ويكبّر. في أواخر السبعينات اكتشفت محطات الاستخبارات الأميركية أن الميكروفون العادي لآلة الهاتف كان يرسل بنبضات صغيرة جداً من خلال أسلاك الهاتف، وكانت هذه النبضات تعزل وتحول إلى صوت!. مع استعمال خطوط الهاتف والمعدات المتطورة جداً، أصبح الميكروفون في آلة الهاتف في أي غرفة أو مكتب آلة تسجيل بحد ذاته. كانت المواقع المشتركة لوكالة المخابرات المركزية ولوكالة الأمن القومي في عشرات السفارات الأميركية تؤمن استخبارات أفضل وأفضل ليس فقط لأن التكنولوجيا كانت متطورة بل لأن كايسي أيضاً كان يضايق ويزعج ويطلب المزيد من المعلومات. كان كايسي يسأل: لماذا لا تؤمن تغطية فلان؟ وكان يريد جواباً، وبشكل عام كان الجواب الوحيد المقبول هو تحقيق تلك التغطية.

أدرك كايسي أن قسماً من مهمته كان معالجة وضع البيروقراطية العملاقة. كان قد قرأ الكتاب الشعبي: «بحثاً عن الامتياز، دروس من أفضل الشركات الأميركية» وكان متأثراً جداً بالرسالة التي تدعو إلى العمل والالتزام والبساطة. أراد أن يقوم بكل هذه الأشياء ليحسن من عمل وكالة المخابرات المركزية. لقد عقد اجتماعات وطلب من كل فرع أن يعطي أفكاراً جديدة حول التحسين ورفع معنويات العاملين. بالإجمال تم عرض ثمانمائة فكرة، وقد قرأها جميعها خلال الفترة التي كان يمضيها في منزله بسبب المرض، وكتب استنتاجاته حولها. في شباط/ فبراير ١٩٨٤ نشرت صفحة واحدة من عقيدة وكالة المخابرات المركزية ووزعت في تسع نقاط تبدأ كل منها على الشكل التالي: «نحن......» وتوضح أن وكالة المخابرات المركزية كانت تعمل لصالح الرئيس. كانت الأهداف بناء لعقيدة كايسي: نوعية عالية جداً... أهداف غير منحرفة... جاهزية لتحدي العمل التقليدي... تكامل... أخلاق وشرف طبقاً لنص وروح دستورنا وقانوننا، القيم الأميركية... الإخلاص التام لبعضنا ولأهدافنا العامة... الثقة... المبادرة والالتزام والعمل نحو الأفضل. وكان من نتائج تعميم هذه العقيدة دعابات ومزاح في سائر أنحاء الوكالة.

في أوائل عام ١٩٨٤ ذكّر كلاريدج كايسي بأنه يحتاج إلى أكثر من الـ٢٤ مليون دولار التي كان الكونغرس قد أقرها. أجاب كايسي قائلاً «باه..» لقد كانوا يقاتلون بيد مربوطة وراء الظهر وكانت تلك هي الطريقة التي أرادها الكونغرس. إنها شيء غير معقول. ٢٤ مليون دولار أقل من ثمن طائرة حديثة. كان كايسي يعتقد بأن كلاريدج قد قام بعمل ممتاز عندما حافظ على جيش الكونترا الذي يبلغ عديده أكثر من عشرة آلاف مقاتل في الميدان، يشنون العمليات ويزرعون الألغام، وذلك بمبلغ ضئيل جداً. يجب أن يطلب كايسي حوالى ٢١ مليون دولار في منتصف السنة المالية، وسيكون ذلك صعباً، خاصة «أننا على أبواب حملة انتخابية رئاسية». هذا وكانت استطلاعات الرأي قد أظهرت أن أغلبية الأميركيين كانوا

يتخوفون من نشوب حرب في أميركا الوسطى. كانت الحسابات السياسية في البيت الأبيض بسيطة: أبعدوا نيكاراغوا ووكالة المخابرات المركزية عن عناوين الصحف. وكان جيم باكر يراقب.

كان كايسي بحاجة إلى طريق مختصرة في الكونغرس: هل هناك طريق تلتف حول الاجتماعات والمؤتمرات ودائرة المناقشات العامة والتسريبات؟ أراد أفكاراً جديدة. هل هناك طريقة للتغلب على الكونغرس؟ وبأنظمته الخاصة؟

منذ خمسين سنة تقريباً تعلم كايسي أنه يمكن تطبيق القوانين وتفسيرها بشكل خيالي. كان ذلك عام ١٩٣٧ عندما كان عمره ٢٤ سنة وكان قد تخرج من مدرسة الحقوق. كان قد وجد وظيفة، في وسط من الهبوط الاقتصادي حيث كان الحصول على وظيفة صعباً جداً، وذلك في «مؤسسة أبحاث الضرائب في أميركا» في نيويورك براتب ٢٥ دولار في الأسبوع. كان عليه أن يقرأ التشريعات والاتفاقات الجديدة وأن ينظم التقارير ويشرحها ويلخصها. أما رجال الأعمال الأميركيون وهم قادة الصناعة الأميركية فلم يتفهموا أو يرحبوا بهذه التشريعات. وكان يسجل ملخصاته وتقاريره على آلة تسجيل بدائية تستخدم أسطوانات من الشمع. كان كايسي يدرك أن رجال الأعمال لا يريدون التعليقات ولا المديح ولا الانتقادات، بل كانوا يطلبون أن يعرفوا ما يفعلونه لتحقيق أدنى تطابق وتوافق مع القوانين المرعية الاجراء. وكان كايسي ممتازاً في هذا المجال.

أعلن كايسي أنه يريد شيئاً خيالياً: «أنا لا أريد مخالفة القانون» عوضاً عن ذلك كان يريد الالتفاف حول القانون. كان يريد أدنى توافق ليحميه ويحمي الوكالة ويؤدي إلى الحصول على مزيد من المال للكونترا. خلال الأشهر السبعة الفائتة راقب كايسي بشيء من الذهول الكونغرس الذي تعرض للتلاعب من قبل أحد أعضائه، وكان ذلك درساً موضوعياً. في الوقت الصعب إذ كانت الوكالة قد حصلت على مبلغ ٢٤ مليون دولار للكونترا، طلبت حوالى ٣٠ مليون دولار لبرنامج المساعدات الخفية للمقاومة الأفغانية، عندها تقدم أحد أعضاء الكونغرس وهو ليس عضواً في لجنة الاستخبارات وحقق بنفسه الحصول على مبلغ ٤٠ مليون دولار إضافية لبرنامج أفغانستان، أي أكثر من المطلوب، وكان هذا العضو هو تشارلز ويلسون.

كان ويلسون طويل القامة أنيقاً نشيطاً، ديموقراطياً من ولاية تكساس، يتكلم كالصقور، وكانت منطقته الانتخابية مثلاً لروح تكساس المغامرة. في السنة الماضية قام ويلسون بثلاث رحلات إلى الباكستان حيث كان البرنامج الخفي لأفغانستان على وشك أن يبدأ في العمل. اجتاز الحدود إلى منطقة في أفغانستان تقع تحت سيطرة السوفيات، وذلك بصحبة عدد من الثوار، واستنتج أن مبلغ ٣٠ مليون دولار كان قليلاً. أراد المزيد من القتلى الروس. لقد قتل ٥٨ ألف أميركي في ڤيتنام ونحن ندين للروس بواحدة. في آخر رحلة

للباكستان علم ويلسون أن مشكلة الثوار كانت طائرات الهلكوبتر السوفياتية التي كانت تحقق التفوق الجوي. اقترح ويلسون تزويد الثوار بمدافع أورليكون السويسرية الصنع السريعة الرمي، وقال إن تلك كانت فكرة الرئيس الباكستاني ضياء الحق. وعاد ويلسون ينفخ في الصفارة لبعض أعضاء الكونغرس. لقد جعل منها حرباً صليبية ووجد وسائله في أنظمة الكونغرس. إن لجنة الاستخبارات في مجلس النواب هي اللجنة التي تعطي الإذن، ولكن الإذن كان الخطوة الأولى. يجب أن يقرر الكونغرس رسمياً منح المال بواسطة لجانه النافذة. وكانت هناك لجنة التخصيص في مجلس النواب التي كان ويلسون عضواً فيها. عندما اجتمعت هذه اللجنة لتبحث ميزانية وزارة الدفاع قال ويلسون إنه يريد شيئاً واحداً فقط: مزيداً من المال للثوار الأفغان المقاتلين الشجعان من أجل الحرية. ومع أن لجنة الاستخبارات لم تعطِ الإذن أراد الموافقة على تخصيص الأموال. قال ويلسون إنه في إحدى رحلاته إلى المنطقة حضر إليه أحد الأفغانيين عمره ١١ سنة وقال له لا تقتل جميع الروس لأني أريد أن أقتل واحداً عندما أكبر. وهكذا أثار ويلسون زملاءه بلهجته الخطابية وبتحديه.

كم يريد؟

قال ويلسون إنه يريد ٤٠ مليون دولار. وبما أن اللجنة كانت تبحث ميزانية وزارة الدفاع التي تصل قيمتها إلى ٢٨٠ مليار دولار تقريباً كان مبلغ ٤٠ مليون دولار تافهاً، أي كأن اللجنة كانت تناقش صرف مبلغ سبعة آلاف دولار وطالب أحد الأعضاء بزيادة دولار واحد. قال ويلسون إنه سيدعم الأعضاء الذين يؤيدونه في الـ٤٠ مليون دولار في أي مسألة أخرى. وكسب ويلسون.

فجأة حصل كايسي على ٤٠ مليون دولار إضافية لعملية أفغانستان، وكان المال المخصص مقتطعاً من ميزانية وزارة الدفاع. أثار مسؤولو وزارة الدفاع عاصفة داخل الإدارة، وعممت الوزارة دراسة تقول إن مدفع الأورليكون المضاد للطائرات لا يصلح لحرب العصابات. إن ذخيرته غالية الثمن ويحتاج إلى عناية فائقة ولن يقدر على السير على طريق غير معبدة أو صعبة مثل ممر خيبر. . . لكن ويلسون وهو خريج الأكاديمية البحرية كان صديقاً لوزارة الدفاع، وأذعنت الوزارة لرأيه.

أرسلت الإدارة من خلال مدير الخزانة ديفيد ستوكمان رسالة سرية إلى لجنتي الاستخبارات تطلب إعطاء الإذن بمبلغ الـ٤٠ مليون دولار. غضب غولدووتر وطار صوابه لهذا الدوران حول اللجنة. إذا لم تتحكم لجنة الاستخبارات بالعمليات الخفية وذلك بأخذ موافقتها المسبقة على النفقات فإنها تعتبر عندئذٍ غير موجودة.

تابع ويلسون حملته ونشط في مكاتب لجنة استخبارات مجلس النواب واستعمل عملية نيكاراغوا المثيرة للجدل لمصلحته. لقد رغب عدد كبير من زملائه الذين كانوا يعارضون عملية نيكاراغوا في أن يظهروا أنهم لا يتساهلون إزاء التوسع السوفياتي. قال لهم ويلسون

إن عملية أفغانستان هي الآلية الكاملة لإثبات ذلك. كان الديموقراطيون يعتبرون نيكاراغوا الحرب السيئة وأفغانستان الحرب الجيدة.

درس مكماهون نائب مدير المخابرات المركزية تقريراً يدعم زيادة الـ٤٠ مليون دولار ومدفع الأورليكون. لقد كان مدير العمليات في الوكالة عندما بدأت العملية (كان كايسي يسميه أب عملية أفغانستان). كان مكماهون يشكك دائماً حيال العمليات الخفية، ولكن تأييد الكونغرس لعملية أفغانستان جعله يقتنع بها. لقد ساعد موقف مكماهون الآن في تغيير التيار وأدى إلى موافقة كل من لجنة مجلس الشيوخ ولجنة مجلس النواب.

قال ويلسون لمسؤولي مديرية العمليات في وكالة المخابرات المركزية إنهم كانوا خجولين جداً. كان عليهم أن يطلبوا بأنفسهم المزيد من المال.

كان هذا نصراً غير متوقع بالنسبة إلى كايسي. إن مبلغ الـ٤٠ مليون دولار لم يكن دعماً لبرنامج أفغانستان فقط، بل أظهر أن الكونغرس يمكن أن يمشي أمام الإدارة في الأعمال الخفية. لم تكن الوكالة متآلفة مع مدفع الأورليكون فأحضر نموذج منه وجرى اختباره ثم تم شراء عشرة منه. يلزم فترة أشهر وربما أكثر من سنة لهذه المدافع كي توضع في العمل الميداني في أفغانستان، لكن الزخم النفسي كان مع الوكالة. تعجب كايسي وتساءل عما إذا كان يمكن توجيه ذلك نحو نيكاراغوا، وكان يبدو أنه كلما زاد الدعم لأفغانستان قلّ الدعم لنيكاراغوا. كان الدرس الحقيقي في طريقة ويلسون الذي حرك النظام بكامله: مدير العمليات وكايسي والإدارة ومجلس النواب ومجلس الشيوخ.

- ١٦ -

أراد معاون وزير الخارجية طوني موتلي أن يقوم بدوره في عملية نيكاراغوا التي كانت الأموال المخصصة لها على وشك أن تنفد. وكان أحد أصدقائه المخلصين السناتور تيد ستيفنس من ألاسكا رئيساً للجنة الفرعية للتخصيص في الدفاع. واقترح موتلي أن تتعامل الإدارة مع لجنة التخصيص كما فعل شارلي ويلسون عوضاً عن التعامل مع لجنة استخبارات مجلس الشيوخ التي يرئسها غولدووتر.

قال موتلي: من يعطي هذا الهراء للجنة الاستخبارات؟ والإدارة تستطيع التعامل مباشرة مع المسؤول الحقيقي أي لجنة التخصيص التي تمسك بالمال. وهكذا حمل موتلي طلباً بمبلغ ٢١ مليون دولار إضافية وقدمه لستيفنس وقال له إن هناك احتمالاً لتمريرها بقيمة واحد إلى خمسة. ووافق ستيفنس على إعطائه فرصة.

علم غولدووتر ذلك وقال: «هذه الإدارة الملعونة هي أسوأ عدو لي. إنها كانت دون عقل ودون شعور». لقد كان صديقهم وإلى جانبهم ومن نفس الحزب. قال له رجل الوكالة للعلاقات مع الكونغرس كلير جورج إن طوني موتلي كان يفعل ذلك دون علم البيت الأبيض. على الرغم من ذلك وفي ٢١ آذار/ مارس ١٩٨٤ كتب غولدووتر وموئيهان رسالة سرية مباشرة إلى الرئيس يحتجان فيها بشدة على مخالفة بروتوكول مجلس الشيوخ، وأرسلت نسخة عنها إلى كايسي. بعدها قدم وزير الخارجية جورج شولتز اعتذاراً لغولدووتر. وهذا ما أعاد غولدووتر إلى جانب الإدارة. في مساء الخميس ٥ نيسان/أبريل كان غولدووتر في الطابق الأرضي في مجلس الشيوخ يحاول أن يحصل على ٢١ مليون دولار لكايسي وذلك بعد الكوكتيل، وكان يعاني من مرض في وركه ومن آلام العملية الجراحية. كان عمره ٧٥ سنة أي أكبر من الرئيس بسنتين، ولأنه جمهوري وموالٍ للإدارة، كان يوبخ زملاءه في الكونغرس لتطفلهم على جهود الرئيس للدفاع عن الأمن القومي للبلاد. وبينما كان غولدووتر يتكلم كان السناتور بايدن أحد كبار منتقدي كايسي في لجنة استخبارات مجلس الشيوخ يجلس على مقعده الصغير ويقرأ مذكرة سرية أعدها أحد أركان اللجنة. نصت المذكرة على أن وكالة

المخابرات المركزية لعبت دوراً مباشراً في زرع الألغام تحت الماء في ثلاثة مرافىء نيكاراغوية. وقالت المذكرة إن المنفذين كانوا من العناصر «اللاتين المنحازين». فوجىء بايدن، لم يكن يعلم شيئاً عن هذا الموضوع، لكن من الممكن أن يكون قد فاته استماع أو إيجاز، لذلك وقف وحمل المذكرة لزميله في اللجنة بيل كوهين.

قرأ كوهين بعناية. لقد أوضحت المذكرة أن وكالة المخابرات المركزية خططت ونفذت تلغيم المرافىء. لم يكن هذا مسألة دعم أو تموين. كان هذا عملاً مباشراً من الوكالة، لم يكن التلغيم نشاطاً خفياً على الحدود. لقد كان خطوة إلى الأمام وعلى طريق ذلك اليوم المشؤوم عندما هوجم مطار ماناغوا. كان التلغيم عملاً من أعمال الحرب. اعتقد كوهين بأن عملية نيكاراغوا أصبحت حذرة أكثر من أي وقت.

مشى كوهين ناحية غولدووتر وسلمه المذكرة.

قال كوهين: باري ما هذه التفاهات؟ هل هذا صحيح؟ لماذا لم نطلع عليه؟

طلب غولدووتر الغاضب الذي فقد توازنه إذناً بالكلام في الطابق الأرضي، وبدأ يقرأ المذكرة السرية لزملائه. أسرع مدير أركانه روب سيمونز نحو كوهين وقال له: «أرجوك، أوقفه، أرجعه، لا تدعه يقرأ ذلك». لقد كان ذلك أحد كوابيس سيمونز وهو أن يقدم غولدووتر وبعض الشيوخ على أخذ معلومات حساسة وهامة إلى الطابق الأرضي معطياً كايسي والوكالة حجة لوقف إعطاء المعلومات للجنة، واتهامها بعدم الأهلية للثقة.

لم يتحرك كوهين بالسرعة الكافية نحو غولدووتر، وانطلق سيمونز وكاد أن يسحب المذكرة من يد غولدووتر. نظر غولدووتر وسيمونز إلى بعضهما البعض. قال غولدووتر: «تلغيم؟» لماذا لم يخبروني؟ يجب أن يعلموا. هل هذا شيء مرره كايسي على غولدووتر شخصياً؟ لا».

قال سيمونز إنه لا يملك المفتاح. لقد أنفذوا البرنامج الخفي عدة مرات في السنتين الماضيتين.

قال غولدووتر: أمسك ببيل كايسي وأعرف ماذا يجري.

لم يسجل حديث غولدووتر وسيمونز في محاضر الكونغرس. على الرغم من ذلك كتب ديڤيد روجرز وهو محرر في صحيفة «مول ستريت جورنال» القصة في عدد صباح اليوم التالي، ولم يذكر الحديث بنصه الكامل، وكان عنوان المقال: «دور الولايات المتحدة في تلغيم المرافىء النيكاراغوية كان أكبر مما فكرنا فيه أولاً».

أمضى سيمونز اليوم التالي يحاول الاتصال بجون مكماهون.

ـ «كنت مشغولاً» قال مكماهون عندما وصل إليه سيمونز أخيراً.

سأل سيمونز ببرود: هل علمت حول ذلك؟

كان مكماهون متملصاً، ولكنه قال إن كايسي قال ذلك لأعضاء اللجنة على مائدة

الفطور في الوكالة.

فيما بعد تحقق سيمونز من كلام مكماهون وتبين له أن غولدووتر لم يذهب إلى أي من دعوات كايسي للفطور في مبنى الوكالة. كانت المعلومات ترد ببطء إلى لجنة مجلس الشيوخ. لقد زرع حوالى ٧٥ لغماً مما يسمى «بالمفرقعات النارية» في ثلاثة مرافىء نيكاراغوية. لكن العديد من الألغام المصنوعة محلياً يزن الواحد منها حوالى ٣٠٠ رطل، وتحتوي على متفجرات من طراز س ـ ٤. كان سيمونز متآلفاً مع المتفجرات من طراز س ـ ٤. وكمية الـ٣٠٠ رطل كانت كافية لانفجار هائل، وقد جرح عدد من التجار والصيادين وجاء في أحد التقارير أن أحدهم قد قتل. كانت نيكاراغوا تتلقى معظم نفطها من المكسيك، والآن أصبح الاتحاد السوفياتي الممون الرئيسي للنفط (حتى ٨٠٪) وهكذا كانت النتيجة في رأي سيمونز دفع نيكاراغوا نحو الاتحاد السوفياتي.

تذكر سيمونز، التعبير الذي كان يستخدمه رعاة البقر عندما كان ضابطاً في عمليات الوكالة: «دعنا نبول عليهم قليلاً». كان التلغيم مثل عمليات الوكالة ضد كوبا في الستينات التي أديرت من ميامي. لقد تحولت الوكالة إلى بعبع ساعد كاسترو في السيطرة على شعبه.

قال غولدووتر لسيمونز: «أنت تعلم أني أشعر بأني كالمغفل، أخطأتُ في قيادة زملائي». لقد وجدت اللجنة لتمنع المفاجآت. وشعر غولدووتر فعلاً بأنه قد فشل. أضاف غولدووتر أن التلغيم يعرض الملاحة المحايدة للخطر. لقد ضربت سفينة بريطانية. تخيل إذا ضربت سفينة أميركية بلغم بريطاني زرع بشكل خفي في أحد المرافئ! . وأضاف: «قل لكايسي إني انتشلته من النار كثيراً».

ذهب غولدووتر في عطلة نهاية الأسبوع إلى مزرعة كوين على الساحل الشرقي لولاية ماريلاند التي أصبحت ملاذاً منتظماً في نهاية كل أسبوع. كان يقوم بأعماله اليومية الإلكترونية مثل تركيب هوائي التلفزيون أو وصل مكبرات الستيريو. لقد كانت عطلة نهاية أسبوع ربيعية جميلة. لكن غولدووتر لا يمكنه أن يتهاون مع الخيانة. إنها ضربة له في الصميم. لقد بدا واضحاً أن الإدارة وكايسي لم يثقا به.

حمل غولدووتر آلة تسجيل صغيرة وآلة كاتبة حيث سجل كل ملاحظاته وأفكاره ورسائله. ضغط على زر التسجيل وبدأ يقول في رسالة إلى كايسي: «عزيزي بيل.. أحاول أن أتخيل كيف أخبرك عن شعوري عندما علمت أن الرئيس قد أقر عملية التلغيم لبعض المراقىء في أميركا الوسطى». «إنه يعيدني إلى جملة صغيرة وبسيطة: لقد بوّلتم عليّ». أمر غولدووتر بإرسالها إلى كايسي.

اتصل كايسي بكوين وقال «لا أفهم درجة قلقه. إنه قلق جداً». قال كوين لكايسي إن غولدووتر يبرد بنفس السرعة التي يسخن فيها. تفهم كايسي ذلك وانتهى الكلام. هو أيضاً بالوا عليه، لقد شعر بأنه عالق في الوسط بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية اللذين أرادا

المزيد في نيكاراغوا والكونغرس الذي أراد القليل.

طلب البيت الأبيض من كايسي ما إذا كانت هناك طريقة لتحويل المال من عمليات أخرى للوكالة أو من «مال الرشاوى» إلى عملية نيكاراغوا. هل تستطيع الوكالة أن تغمس نفسها في مبلغ الـ٥٠ مليون دولار الاحتياطي؟ أليس ذلك هو الهدف؟

كانت النفقة الاحتياطية مخصصة للعمليات الطارئة أو عندما لا يكون الكونغرس في حالة انعقاد. أدرك كايسي أنه سيلفت الأنظار إذا أخذ قرشاً واحداً زائداً لنيكاراغوا. وأكثر من ذلك فقد عارض مكماهون والمستشار العام سبوركني والآخرون في مديرية العمليات بشدة أي عمل يبدو ضد إرادة الكونغرس وحذروا من أي محاولة للتعديل في النص أو في الروح لسلطة الكونغرس.

ظن كايسي أن التلغيم هو عملية أحلام، وأن نتائجها دون سفك الدماء الحقيقي. والآن بدا أن الدم الوحيد يمكن أن يكون دمه. أظهرت التقارير أن الألغام كانت تحقق أهدافها. فمنذ مدة ضربت سبع سفن بواسطة الألغام في مرفأ كورينتو وهو أكبر مرفأ في نيكاراغوا، أما السفن الأخرى فقد رجعت. كان القطن يكوّم في المخازن وهناك السفن المنتظرة والتي تخاف من الدخول إلى المرفأ. كانت القهوة (البن) والسكر وهما من صادرات نيكاراغوا الرئيسية يتراكمان أيضاً. كان هناك حديث في نيكاراغوا حول انهيار اقتصادي.

كتبت الصحف بشكل واسع عن التلغيم وأهدافه. ونشرت تصاريح للقيادة الساندينية تحمل الولايات المتحدة المسؤولية. إذاً، لماذا فوجىء مجلس الشيوخ؟ عاد كايسي ومساعدوه إلى نسخ عن الايجازات السرية إلى مجلس الشيوخ. كان هناك كلام واضح وإثبات بياني دامغ.

قبل شهر في ٨ آذار/ مارس قال كايسي للجنة الاستخبارات وهي مجتمعة: «لقد زرعت الألغام المغناطيسية في المرفأ على المحيط الهادىء «كورينتو» والمرفأ على الأطلسي «البلوف»، كما وضعت ألغام في محطة النفط في بورتوساندينو». وبعد خمسة أيام في ١٣ آذار أعاد كايسي نفس الكلمات وحذف كلمة مغناطيسي فقط، لأن بعض الألغام كان يعمل بتأثير صوت السفينة التي تمر فوقه.

لم يكن هذا كلاماً ارتجالياً. لقد قاله ولم يطرح أي من أعضاء اللجنة أي سؤال، وإذا كانوا لم يفهموا فتلك مشكلتهم. ذهب كايسي ليرى باد مكفرلين في البيت الأبيض حيث اعتُبِر التلغيم خطأً فادحاً وخاصة من قبل جيم باكر. لم يعارض أحد التلغيم عند إقراره، والسؤال كان: لماذا لم يبقَ سرياً؟

اعتقد مكفرلين بأن كايسي كان إحدى القوى المستقلة التي يحاول التنسيق معها. وكانت لكايسي أفكار مستقلة وتفويض من الرئيس. ولكن يمكن أن يكون كايسي مشكلة وخصوصاً في بعض المناورات والتسويات مع الكونغرس. اعتبر مكفرلين الذي كان يعمل في

الكونغرس لسنوات أنه من الحماقة والانهزامية أن لا يتفق كايسي مع لجنتي الإستخبارات.

في هذا الوقت استشهد كايسي بالسجلات (شهادة ٨ آذار/ مارس وشهادة ١٣ آذار/ مارس) وأبرز نسخاً عنها إلى مكفرلين. هل كان من المفروض أن يفعل أكثر من ذلك؟ لقد كان غولدووتر تعباً أو تحت تأثير الأدوية أو العلاج أو الاثنين معاً، وبدا مكفرلين مقتنعاً.

يوم الثلاثاء في ١٠ نيسان/ أبريل قدم كايسي عرضاً مفصلاً لمجموعة من الشيوخ ليسوا أعضاء في لجنة الاستخبارات، وشرح لهم متى وكيف أخبر اللجنة. لقد أمضى مئات الساعات في الكونغرس يدلي بشهادته. قال: كما يحصل دائماً لقد أجبنا عن كل سؤال يسأله أي سناتور في أي وقت، بشكل عام لم يكن التلغيم هذا الجزء الهام أو المكمل للعملية الخفية. ولا داعي لكل هذه الجلبة.

انتقد بعض الشيوخ الطبيعة المميزة لزرع الألغام. سأل أحد الشيوخ عن اللغم الذي انفجر تحت سفينة بريطانية، ما هذا العمل؟ هل كنا نربك أقرب الحلفاء؟ وكان قد انفجر لغم آخر تحت سفينة سوڤياتية. هل أراد كايسي أن يبدأ الحرب العالمية الثالثة؟ ما ردّ فعل الولايات المتحدة إذا انفجر لغم تحت سفينة أميركية تجارية وتبين أن المخابرات السوڤياتية قد زرعته؟

ذهب كايسي إلى لجنة الاستخبارات. لقد كان واضحاً من ردة الفعل وخاصة بين الجمهوريين أن هناك تباعداً. لقد قال لهم كايسي ولكن لم يسمع أحد ولم يفهم أحد. كان السناتور ديڤيد دورنبرغر وهو جمهوري من ولاية مينيسوتا ميالاً إلى الشك، فقد رأى أن مدير المخابرات المركزية كان يقول إن الولايات المتحدة قد ارتكبت عملاً من أعمال الحرب. وكان كوهين يغلي ببطء. كان هناك خطأ ما في ذلك المنطق، وكان كايسي يقول إن الألغام أُعِدَّت لتحدث أضراراً خفيفة، ومع ذلك أصبح التلغيم عملاً من أعمال الحرب العادية. لماذا جازف بذلك إن لم تكن هناك أية أهمية عسكرية أو استراتيجية؟ لقد اعتبر التلغيم تصعيداً لسياسة غامضة وغير واضحة. تعجب كوهين: متى تتوقف هذه الحرب الخفية؟ ومتى يصبح العمل الخفي حرباً بسيطة أو معقدة؟ كانت اللجنة هيئة استماع سرية، وإذا مرت عملية دون معارضة قوية فيمكن عندها أن يتسامح الجمهور. كان على اللجنة أن تحذر كايسي من التلغيم.

كان السناتور والوب من الشيوخ القلائل الذين وقفوا إلى جانب كايسي إلا أنه انتقد التلغيم واعتبره نصف تدبير. قال: يمكنهم أن يفجروا كل شيء في نيكاراغوا. قال بضعة ديموقراطيين من الليبيراليين إن الطريق الوحيد للخروج من هذا الوضع هو اعتماد برنامج خفي متكامل للكونترا، وقالوا إنهم سيدعمون هذه الخطوة. ضحك والوب وقال إنهم سيقولون ذلك في الجلسة السرية فقط. قال بعض الديموقراطيين في العلن إن الخطوة التالية كانت إرسال وحدات قتالية أميركية. وورد في تقارير صحافية أن خططاً كهذه كانت قيد

الإعداد. لهذا أصدر كل من كايسي وشولتز ووينبرغر ومكفرلين بلاغاً علنياً غير عادي من ثلاث صفحات وبتوقيع الأسماء الأربعة جاء فيه: «نحن نعلن أننا لم ندرس ولم نضع خططاً لاستخدام الوحدات العسكرية الأميركية لغزو نيكاراغوا أو أي بلد آخر في أميركا الوسطى».

لقد كان ذلك متأخراً جداً. فقد حصلت في مجلس الشيوخ الذي كانت تسيطر عليه حمى العداء للحرب، حركات مسرحية ليلة إصدار التصريح. قال غـولدووتـر في الطابق الأرضي بلهجة يفهم منها أن كايسي كان يطلق النار على أصدقائه أيضاً إنه شطب ملاحظاته عن سجلات الكونغرس وهذه أول مرة يقوم بهذا العمل منذ ثلاثين عاماً في مجلس الشيوخ. أضاف غولدووتر: «أنا مرغم على الاعتذار لأعضاء لجنتي لأنني لم أعلم الحقيقة حول هذه القضية، كما أنني أعتذر لجميع أعضاء مجلس الشيوخ لنفس السبب». كان واضحاً أن الحد الأخلاقي قد تم تجاوزه وأن هناك حاجزاً يفصل المقبول عن المرفوض. كان التلغيم مقبولاً. والرأي العام سأل السؤال: هل نحن أمة دون لياقات؟ لقد كان التلغيم عملاً قومياً ومظهراً للسلوك القومي الأميركي. إنه عمل حقير وجبان ومحاولة في الظل كزرع قنبلة في مطعم. لقد ساهم استنكار غولدووتر في تضخيم المسألة، وقد قال في مجالسه الخاصة عن التلغيم «إنها أقذر فكرة سمعت بها في حياتي».

قدم السناتور إدوارد كينيدي حلاً هادئاً يدين التلغيم ويدعو إلى عدم تخصيص الأموال للتخطيط لتلغيم المرافىء والمياه الإقليمية النيكاراغوية.

فاز الاقتراح بـ٨٤ ضد ١٢.

لم يستطع كايسي التصديق بأن الجمهوريين في مجلس الشيوخ قد فعلوا ذلك. يمكن للشيوخ أن لا يوافقوا ولكن هذه سياسة قومية رسمها الرئيس ونفذتها وكـالة المخـابرات المركزية بعد إعلام الكونغـرس وفقاً لـلأصول. لم يكن التصـويت رفضاً بـل كان تمـويتاً للنفوس.

قال الرئيس ريغان في عشاء رسمي على شرف رئيس جمهورية الدومينيك عن تصويت مجلس الشيوخ: «إذا لم يكن مُقيِّداً، أستطيع العيش معه. أعتقد بأن هناك هستيريا حول كل هذا الشيء. نحن لسنا في طريقنا إلى الحرب». تسربت رسالة غولدووتر إلى كـايسي من مجلس الشيوخ وطبعت ونشرت دون حذف أي كلمة.

في اليوم التالي ١١ نيسان/ أبريل ١٩٨٤ كان السناتور ليهي يتناول كأساً مع اثنين من مساعديه في مكتبه في مجلس الشيوخ وهو عبارة عن غرفة صغيرة شبيهة بالكهف كـان يستعملها قبله دانيل وبستر. كان ليهي مسروراً لأن التلغيم خرّب العملية الخفية كلها. أكثر من ذلك قال إنه كان متأكداً أن كايسي لم يحاول أن يخدع الشيوخ أو يخفي عنهم عملية التلغيم وخاصة غولدووتر.

لماذا؟

لأن ليهي علم منذ أسابيع: لقد توفي والده وكان غائباً لعدة أسابيع. ولدى عودته إلى مجلس الشيوخ طلب إيجازاً من الوكالة لوضعه في أجواء عملية نيكاراغـوا. وقد عـرضت الوكالة التلغيم بكل تفاصيله. لا يمكن بأي طريقة أن يخبروه، وأن لا يخبروا غولدووتر.

لماذا لم يقل أو يفعل شيئاً ما؟

قال ليهي إن السبب هو أن التلغيم كان امتداداً منطقياً لحرب خفية غير معلنة. أن نوافق على العملية الخفية يعني أننا نوافق على التلغيم. طبعاً لم يتقبل كايسي ذلك ولم يوافق على أن يكون العمل الخفي بديلاً لسياسة خارجية طويلة الأمد. كانت نوعية العمليات الخفية قذرة ومبتذلة. أضاف ليهي أن كايسي كان محقاً لأنه ذهل لهذا الاحتجاج العنيف. لقد وافق الكونغرس على كل شيء في الحرب الخفية، ولماذا رفض هذا؟

قال أحد مساعديه: «إنه عمل من أعمال الحرب».

قال ليهي: «هذا الشيء هو الحد الفاصل لأنه سيشق لجنة الاستخبارات ويقضي على تحالف الحزبين فيها. كان هناك عدد من المشاريع مرت بالإجماع، وكنا هيئة استماع لعدد من الأفكار الخالية من أي معنى» وأضاف أن كايسي والإدارة كانا بحاجة إلى لجنة متحدة تفيدهم عندما تطرح للبحث أفكار وخطط جنونية.

أضاف ليهي: لم أرَ كايسي أبداً في حالة الدفاع. إنهم كمجموعة من الأطفال يجلسون هناك. مثل لعبة رعاة البقر مع الهنود الحمر ومثل ألعاب بعد ظهر يوم السبت، لاتؤدي إلى أية نتيجة. وأضاف: «لقد وضعنا الناس في جو متحرك لا نستطيع أن نسيطر عليه، وكانت النتيجة النهائية بعض القتال في أميركا الوسطى».

كاد كلير جورج أن ينهي ٢٧ سنة من حياته المهنية في الوكالة بحريق! لقد تناوب سلوكه بين الدفاع والأسف العميق وقال في مكالمة هاتفية: «لقد بذلنا كل جهد لنطلعهم دائماً. لقد أوجزنا لهم، أوجزنا لهم، أوجزنا لهم ولا أعرف ماذا نفعل». وقال إن الشيوخ يقولون: «هؤلاء الأوغاد الشريرون في الوكالة». إنها السياسة. كل مشرع كان يرتب وضعه وفقاً لآخر مجرى للرياح. الشيء الوحيد الذي كنا قادرين على فعله هو أن نضع آلة تلكس وندعهم يرون الاتصالات اليومية. قال إن بعض الشيـوخ يمكن أن تكون لهم شكـاوي مشروعة، والبعض ليس لديهم أي عذر والبعض الآخر كانوا يتخذون مواقف خاصة، وإذا شاهد أحدهم أفلاماً سينمائية حول الموضوع لن يكتفي بها.

كان جورج غاضباً، وعندما هـدأ أدرك أن الحرب الخفيـة والتلغيم كانتـا مسألتـين حساستين. «إنها أشد المسائل عاطفية اقتنعنا بإخفائها وهذا انهيار كبير للمعنويات».

سئل جورج: كيف كان كايسي يتعامل مع الانتقادات؟ وكان كايسي في ذلك النهار يحضر جنازاً عائلياً.

أجاب: «بكل قوة» وأضاف بإعجاب: «عنده فقاقيع من المغنيزيوم».

خلال الأشهر التسعة التي أمضاها مسؤولاً عن العلاقات مع الكونغرس، كان لجورج غداء شهري منتظم في مطعم في قلب المدينة مع مدير أركان غولدووتر روب سيمونز للتأكد من أن الاتصالات كانت منتظمة.

كان جورج يعامل البيت الأبيض كحكومة مضيفة في بلد أجنبي حيث يعمل هو كجاسوس. قال سيمونز لجورج: «أنا لا أعتبرك «ضابط الحالة» الخاص لي، وآمل أن لا تعتبرني «ضابط الحالة» الخاص بك».

قال جورج: لا. لا. لا.

قال سيمونز: إنّ إنهاء قضية التلغيم في بيانين طويلين لم يكن كافياً. كانت اللجنة بحاجة إلى معلومات وتوقعت تزويدها بها. لم يرد جورج بأي جواب وتوقفت علاقتهما.

في اليوم التالي ذهبت(*) إلى الوكالة كي أتلقى إيجازاً حول رحلة أنوي القيام بها إلى ليبيا. وعدني وزير الخارجية الليبي بأني سأقابل القذافي. فوجئت بأن أحد الموجزين كان ضابطاً كبيراً في مديرية العمليات وهو رجل بارد أنيق لا يبتسم، وجاء في إيجازه: يتزايد شعور القذافي بأنه مهدد، وقد حرك حضائر القتل ضد المجموعات الخارجية المعادية له. للقذافي أحلام كبيرة جداً، وهو قائد دون قاعدة صحيحة، قال ضابط العمليات. إنه يبحث عن بلد. يتنقل دائماً وينام في أماكن مختلفة، يطغى عليه شعور بأن وكالة المخابرات المركزية تدبر لاغتياله.

لم أسأل ما إذا كانت الوكالة تدبر ذلك. وبدا أسلوب ضابط العمليات وكأنه لا يدع مجالاً لطرح مثل هذا السؤال.

كان القذافي يحاول اختراق الطوق النفسي. إنه مثل كاسترو عنيد وحقود. كان يحاول الاقتراب من أعدائه ويرسل إشارات إلى الولايات المتحدة يلمح بأنه يرغب في التباحث. أظهر الضابط تبايناً بين اتهام القذافي بالغدر والقول عنه إنه ضعيف. لقد قال ـ مثلاً ـ إن للقذافي حرساً شخصياً من الإناث وهو يدرك تماماً أن أي عربي يحاول اغتياله سيضطرب عندما يطلق النار على امرأة. إن إعادة تفسير القذافي للإسلام بذكاء قد سببت له المشاكل، واعتمد أصولية غير منظمة، ووضع سحابة فوق علاقته مع إيران ومع الشيعة. كان الخميني قد رفض دعوة للاجتماع بالقذافي. كانت علاقة القذافي مع السوفيات موضع شك إذ لا يوجد أي اتفاق رسمي أو سري معهم. كان القذافي يشتري الكثير من روسيا (حوالى مليار دولار كل سنة) مما يزيد عن حاجته، حتى لا يطلب قطع غيار في المستقبل.

ـ ماذا عن التقارير التي تفيد بأن القذافي يزود نيكاراغوا بالسلاح؟

قال الضابط: «إنه نادي العالم الثالث وهو الأكثر تضامناً، لم تكن الأسلحة المقدمة إلى نيكاراغوا ثقيلة بل خفيفة. قال إن الاقتصاد الليبي بدائي ولذلك من الصعب أن يصاب

(*) المؤلف بوب وودورد.

بأذى، ولذلك لن يؤدي الحظر الاقتصادي إلى أية نتيجة.

ـ ماذا يجب أن أسأل القذافي؟

ونظر إلي نظرة لاعب البوكر واقترح علي أن أسأله: لقد عرفت أن عندك الكثير من الحبوب المنومة. هل تعاني من مشاكل في النوم؟

كان هناك نوع من الازدراء الاجتماعي والعقلي للقذافي وميل إلى السخرية منه. ولكن كان له احترام كمقاتل.

قال الضابط: كان القذافي قد عانى من مشكلة في جهازه التنفسي عندما كان في العشرينات ولم يكن في صحة جيدة. إنه منفعل أكثر من اللزوم ومتوتر جداً وقادر على فعل الكثير وفعل القليل، في الفترة الأخيرة ألقى خطابات مروعة.

لقد تلقيت ما ظننت أنه معلومات صحيحة ومدروسة بعناية. ولكن كان لدي شعور بالتأني. وبينما كنت أراجع الحديث وملاحظاتي أدركت أنني لم أعرف ما إذا كنت قد اكتفيت. لم أستطع أن أغفل ملاحظة أن السؤال المقترح طرحه على القذافي كانت له أغراض أخرى.

بينما كنت أغادر مبنى الوكالة متأخراً بعد الظهر أخذني أحد مساعدي كايسي الكبار الذي كان متآلفاً مع عملية نيكاراغوا جانباً وطلب مني أن أتحدث معه. ذهبنا إلى مكتبه في الطابق السابع وأقفل الباب. «كانت هذه خلفية». قال وهو يرمي نفسه بسرعة على الكرسي (كان يعلم أنني سأستعمل هذه المعلومات دون أن أكشف عن مصدرها) كانت نهاية عملية نيكاراغوا تقترب بوضوح. لقد أفاد مدير العمليات بأن المال سينتهي في الأسبوع المقبل وربما قبل نهار الأحد القادم أي بعد ثلاثة أيام. أظهرت الحسابات أن ٢٢ مليون دولار من أصل ٢٤ مليون دولار قد صرفت منذ أسبوعين وبقي مليونان فقط. وكان من المتوقع أن لا يوافق الكونغرس الغاضب على مبلغ الـ٢١ مليون دولار المطلوب. ضحك بشدة وذكّرني بنتيجة تصويت مجلس الشيوخ ضد التلغيم بـ٨ ضد ١٢، وقال إنه كان يتوقع أن يقوم مجلس النواب بنفس الشيء (وبالفعل صوت مجلس النواب بعد عدة ساعات بـ ٢٨١ ضد ١١١).

قال: وهكذا ستبدأ الخطوات للمباشرة بعملية الانسحاب المؤلمة، وخروج الوكالة من نيكاراغوا.

تابع المسؤول: يدرس كايسي الآن إمكانية الطلب من دولة صديقة أن تتابع العمل وترسل المال إلى الكونترا حتى نعثر على حل لمشكلة التمويل.

ـ لكنك قلت إنكم على وشك الانسحاب؟

قال المسؤول: لقد قال كايسي إنه يمكن أن نحصل على المال عندما تهدأ عاصفة التلغيم، لكنه قال: إن المدير هو الوحيد في الوكالة يفكر في هذا.

ـ من أي بلد ستطلبون ذلك؟

من العربية السعودية، لكننا لم نتخذ قراراً نهائياً بعد.

سجلت ذلك في دفتر ملاحظات أحمله موضحاً أنني سأنشر هذه المعلومات. لكن لم أعلم ما إذا كان هذا بالون اختبار أو أنني إذا نشرت المعلومات فإن الطلب من السعودية سيصبح صعباً جداً.

وصف لي هذا المسؤول كيف كان كايسي يحرك الحرب الخفية والجدل الذي انتشر حول التلغيم وقال: «إن كايسي هو الذي طبخ».

كتبت كلمة «تباين» في دفتر ملاحظاتي لأنني اعتبرت ذلك محاولة لفصل الخط العام في وكالة المخابرات المركزية عن كايسي وحربه. وكتبت «طبخ» وغيرها. كانت هناك معارضة قوية في الوكالة وكان جون مكماهون في البداية يعتقد بأن هذا حماقة وتصور خاطىء. لقد دار همس حول هذا ولكن فوجئت بأنه قيل لي مباشرة، وطرحت أسئلة قليلة. ثم نظر إلي المسؤول كأنما كنت أسأله إلى أي جانب كان إبراهام لنكولن في الحرب الأهلية؟

قال: لقد كان مكماهون يعلم أننا سنصل إلى هذا لأنه لا يوجد دعم شعبي ولا دعم من الكونغرس وإننا سوف ننسحب. قال ذلك ثم تحول إلى الحديث عن وزارة الخارجية التي أصدرت مؤخراً رأياً قانونياً يقول إن التلغيم «كان عملاً دفاعياً»، وقال بازدراء: إن رأي وزارة الخارجية «لسوء الحظ كان هراء». القضية الحقيقية هي أن اليدين اليمنى واليسرى للإدارة لم تعرف الواحدة منهما ماذا كانت تفعل الأخرى. وأضاف أنه لا يتوقع أي شيء من القسم القانوني في وكالة المخابرات المركزية، فقد كانت العملية بكاملها لطمة قوية. كانت الجهود المبذولة تؤذي الاقتصاد النيكاراغوي، لكن تدفق الأسلحة نحو السلفادور لم يقلّ. لقد تراجع بعد غرانادا أما الآن فهو يزداد ويمكن أن يزداد أكثر.

قلت: ولكن نحن جميعاً ندرك أن السبب الحقيقي هو الإطاحة بالساندينيين.

ضحك، وضحك ثانية: بصوت مرتفع قائلاً إن هذا مضحك جداً، لا توجد أية فرصة لذلك. الحساب بسيط، هناك تفوق عددي بنسبة ٤ إلى واحد. كان الساندينيون يملكون قوة من الجيش والشرطة عديدها حوالى ٧٥ ألف وقد عيّن مجلس الأمن القومي سقفاً عددياً للكونترا بحيث لا يتجاوز عددهم ١٥ ألفاً، والسمسم ما يزال جافاً!

أجريت عدداً من المكالمات الهاتفية لأتبين ما إذا كان الإطار العام لهذه المعلومات صحيحاً، أو ما إذا كان يمثل موقف المحترفين في الوكالة. تكلمت مع جورج لودر المتحدث باسم الوكالة حول موقف مكماهون من عملية نيكاراغوا. كان موقفه المعارض للعملية معروفاً في الوكالة وفي الكونغرس. أضاف لودر أنه مهما كانت الآراء الشخصية والاستنتاجات يمكن أن يكون مكماهون قد قال كلمته، إلا أنه لا يعارض أية عملية للوكالة في الوقت الحاضر. نشرت القصة بكاملها على الصفحة الأولى في اليوم التالي كعنوان رئيسي وعلى ثلاثة عواميد بعنوان: «نفقات وكالة المخابرات المركزية للعمليات الخفية تنفد».

عندما عدت إلى مكتبي في صباح اليوم التالي تلقيت مكالمة من لودر، قال: لقد كنت متأكداً أن كايسي سيصاب بخيبة أمل لأنك صورته على أنه رئيس مهندسي عملية نيكاراغوا. أحد المساعدين الذي قيل عنه في القصة إنه مصدر مطلع قال: «كايسي طبخ كل شيء». كان لودر مثلجاً وقال إن جون مكماهون طلب منه إصدار بيان شديد اللهجة.

ـ مكماهون؟! سألت.

قال لودر وكأنه يسمع درساً: «إني متلهف لأن أشرح وجهة نظري حول ما نُشر عن عملية نيكاراغوا في صحيفة واشنطن بوست في عددها الصادر في ١٣ نيسان/ أبريل. بينما كان المدير كايسي يشجع المناقشة والاقتراحات في مجال الاستخبارات كنا متفقين معه حول جميع نشاطات الوكالة بما فيها النشاطات المتعلقة بنيكاراغوا، ويشاركني في هذا الموقف كبار موظفي الوكالة».

سألت: «ماذا عليّ أن أفعل، بحق الجحيم؟».

قال لودر: «لا أعرف، إن ذلك يعود إليك» وأضاف أنه سينشر البيان.

أما بيان مكماهون فقد نشر تحت إحدى قصص التلغيم، كان هناك ثلاث قصص أو أربع يومياً. كانت هناك قوى في وكالة المخابرات المركزية تنظم صفوفها ضد كايسي. ولا شك في أن مسؤول الوكالة الذي حشرني في الزاوية في اليوم السابق كان يعرف فن الإعلام. لقد نشر بذور الشك ورش عليها الماء، وتركها تنمو، ثم طلب منا إزالتها.

شاهد مكماهون الذي كان يعارض عملية نيكاراغوا التخلي الذي لا مفر منه عن الحرب التي طبخها كايسي. في نفس الوقت وافق على إصدار بيان مؤيد للمدير.

كان مكماهون مع الجانبين في هذه المسألة. وكان إذا تحولت المسألة إلى كارثة متوقعة الحصول يعود هو وحلفاؤه إلى حديثهم عن الشك، أما إذا انتعشت العملية فكان يعود إلى تصاريحه العلنية التي أيّد فيها كايسي.

في وزارة الخارجية قرأ طوني موتلي تصريح مكماهون باستمتاع. خلال سنة من عمله كموجه من قبل الإدارة لعملية نيكاراغوا توصل موتلي إلى أن يسخر من المناورات الداخلية في وكالة المخابرات المركزية. كان مكماهون محارباً بيروقراطياً مثالياً. لقد أدرك كل الذين عرفوه أنه يقاتل أكثر من نيكاراغوا. كان وراء القوة شبه العسكرية التي كان كايسي يحاول أن ينشئها. أدرك أن أيام حرب الكوماندو قد انتهت في الوكالة مع استثناءات قليلة مثل أفغانستان. لقد قال مئات المرات إن على الوكالة أن تسرق الأسرار وأن تحلل...

كان موتلي يرى أن مكماهون لم يكن موالياً. فهو الذي كان يؤيد سياسة كايسي، ويحوّل في غضون ساعات سياسة المدير باتجاه آخر وبصورةٍ غير مباشرة تدل على احتراف ماهر. كان من الصعب أن تعثر على عبارة أو جملة من مكماهون تتناقض مع كلام رئيسه. لقد كان يعلم كيف يتكلم عن الجانب المقابل وكيف يختار كلماته: «الانتقادات

ستقول. . . .» ولكن غالباً ما كان موقفه وتصاريحه في الطريق الأخرى. قال موتلي مرة لمكماهون: «جون أنا مرتبك لأن المدير قال العكس تماماً». استنتج موتلي أن مكماهون كان يفهم كايسي أكثر من أي شخص آخر. وتساءل موتلي عما إذا كانت لمكماهون مآخذ على كايسي. قال موتلي مرة وهو يمزح: «مكماهون ضبط كايسي وهو يرتكب فعلاً شنيعاً». عندما سمع مكماهون ذلك انفجر من الضحك واحمرّ وجهه المستدير وأخذ يقفز حول الكراسي البرتقالية في مكتبه في الطابق السابع وينظر من خلال الشبابيك الكبيرة إلى المناظر الطبيعية ويخرج إلى الشرفة المطلة على ريف ڤيرجينيا. لقد كان إفراطه الشديد في ردة فعله تحولاً تاماً لأنه لم يرغب في التعليق، وانتهى من ضحكه ولم يقل شيئاً. كان زملاؤه في الجامعة التي تخرج منها هولي كروس يسمونه «جاك الضاحك» و«الدجاجة الأم» و«الأكثر ترحيباً في أي جلسة حيوانية»، وذلك استناداً إلى الكتاب السنوي. كان يضحك من قلبه بعد كل حكاية نادرة. وكانت ضحكته مميزة في أي قاعة مسرح أو سينما مظلمة ومزدحمة. كانت أطروحة دراسته الأساسية حول الصراع العاطفي لأربع بطلات في مآسي شكسبير. إنه رجل غامض ولاذع وظريف. لقد عرف كيف يلعب مع كايسي.

لم يؤمن كايسي بأن مكماهون لم يكن موالياً. وعندما سئل عن احتمال عدم موالاته قال: أنا لا أعتقد بذلك.

أخيراً تخيل موتلي الجواب، كانت وكالة المخابرات المركزية تتجه نحو أزمة هوية، وكانت تكافح بكل دورها العالمي. هل كان موظفوها مخادعون أو قذرون؟ نعم لقد خدموا المدير والرئيس. هل حاربوا السوڤيات دائماً؟ نعم. هل راقبوا العالم بكامله؟ لقد حاولوا. هل كانوا محللين على مستوى عالٍ من الذكاء؟ وهل نظموا تقارير أذهلت القلة التي لها حق القراءة والاطلاع؟ هل قاموا بمراهنات كايسي؟ أو بمراهنات المؤسسة مع مكماهون كناطق باسمهم؟ لم يكن هناك أجوبة كاملة عن هذه الأسئلة. استنتج موتلي أن الأجوبة تتغير يومياً. وهكذا دخلت الوكالة في جو من التناقض الكامل.

أدرك موتلي أن البيئة اليومية للأجوبة يمكن أن تؤدي إلى أكثر من أزمة هوية، وإذا لم يتحقق الاستقرار يمكن أن يؤدي ذلك إلى انهيار معنوي كالذي حصل في السبعينات، ويمكن أن يحدث مرة ثانية. كان نصف رجال الوكالة يؤيدون كايسي بحماسة وينفذون رغباته.

بعد ظهر الجمعة ١٣ نيسان/ أبريل غادر غولدووتر في رحلة إلى الشرق الأقصى، وتسلم مونيهان رئاسة لجنة استخبارات مجلس الشيوخ بالوكالة مما أعاد قصة التلغيم إلى الواجهة. لقد شعر مونيهان بالخزي عندما علم عن التلغيم من صحيفة وول ستريت جورنال لأنه لم يكن في الطابق الأرضي لمجلس الشيوخ في تلك الليلة. اتصل بكلير جورج وسأله: ماذا فعلت؟ ماذا تفعل لنا؟.

أجاب جورج: السفينة التي نفذت التلغيم تعبر في هذا الوقت بالذات قناة باناما.

ووعد بألا تُزرع ألغام فيما بعد.

لم يكن هذا كافياً. كان من المقرر أن يحضر كايسي ومكماهون في ذلك النهار لمناقشة المسألة بكاملها مع مونيهان.

عندما وصل كايسي ومكماهون إلى مكتب مونيهان كان مكماهون يبتسم ويضع يديه حول كايسي.

سأل كايسي: هل خسر غولدووتر كلته(*)؟

بدا أن مونيهان يريد أن يتسامح لأن كايسي قدم نصف اعتذار. لكن فيما بعد رأى مونيهان خبراً على الصفحة الأولى من صحيفة واشنطن تايمز حول خطاب مستشار شؤون الأمن القومي مكفرلين في مؤتمر الأكاديمية البحرية حول التلغيم «كل التفاصيل الهامة... شارك بها الجميع... وفقاً للقانون... بكل إخلاص مع لجان المراقبة». كان مونيهان قد ساعد في صياغة قانون لجان المراقبة عام ١٩٨٠ الذي نص على وجوب إعلام اللجنة بشكل مستمر وكامل عن النشاطات الاستخبارية.

لم يحدث ذلك. لقد قيل عن التلغيم ٢٧ كلمة في حوالى عشر ثوانٍ خلال عرض استمر زهاء ساعتين و١٨ دقيقة، أي جملة واحدة في وثيقة من ٨٤ صفحة. أجرى ديڤيد برينكلي من شبكة إي.بي.سي التلفزيونية مقابلة مع مونيهان وكان من المقرر أن تبث يوم الأحد في ١٥ نيسان/ أبريل. قال فيها مونيهان: : «السناتور غولدووتر أعطى حكمه بشكل واضح، وبعد أربعة أيام أو خمسة، ما زالوا يرفضون حكمه. إنهم يريدون حكمي بالطريقة التي أرتئيها أي أن أقول: أنا أستقيل».

وهو يعني بذلك أنه يستقيل من منصبه كنائب رئيس لجنة الاستخبارات.

اندفع السناتور دورنبرغر نحو كايسي وقال: إن كايسي يحصل على علامتين من أصل عشر في مجال الثقة. وفي مقابلة مع أسبوعية تايم ذهب أبعد من ذلك. قال: لا توجد أية فائدة من اجتماعاتنا مع بيل كايسي. لا أحد منا يصدقه. لقد عاملنا بطريقة قاسية كأفراد، وقد تحول جميع أعضاء اللجنة ضده.

كان الرئيس ريغان ما يزال بعيداً عن هذا الصراع. وفي نهاية ذلك الأسبوع ظهر في فندق هيلتون في واشنطن في حفلة لجمعية مراسلي البيت الأبيض.

قال ريغان: «ما هذا الكلام عن انهيار العلاقات في البيت الأبيض؟ كيف يحدث أن لا يخبرني أحد؟» ضحك الجميع. «حسناً أنا عرفت ذلك. سأطلب من كل واحد من الآن وصاعداً أن يخبرني حول كل ما يحدث في أي وقت كان، فليوقظوني حتى في وسط اجتماعات الحكومة» وضحك الجميع أيضاً. لقد سجلت التقارير الرئاسية الرسمية أن الرئيس قد تلقى ٢٦ ضحكة أخرى في هذه الحفلة.

(*) كلة: لعبة للأطفال على شكل كرة صغيرة.

إلا أنه لم يتكلم عن التلغيم.

في مقابلة طويلة مع مجلة نيوز اندورلد ريبورت صرح كايسي بما يلي: «أعتقد بأن الشعب سيقلل اهتمامه بالأخبار المتعلقة بتلغيم مرافىء نيكاراغوا، إلا أنه سيهتم أكثر إزاء خطر خلق حالة من الهجرة إلى هذا البلد إذا وقعت أميركا الوسطى أو أي جزء منها تحت السيطرة الكوبية أو السوفياتية».

في نهاية الأسبوع أصدرت وكالة المخابرات المركزية تقديرها لتهديد السوفيات والكوبيين لنصف الكرة. هناك حوالى عشرة آلاف سوفياتي في كوبا وحوالى المائة في نيكاراغوا وربما عشرة آلاف كوبي في نيكاراغوا. عقدت وكالة المخابرات المركزية ووكالة الاستخبارات الدفاعية اجتماعاً لمدة ست ساعات للحصول على تقدير دقيق، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى ذلك. كانت الأرقام غير دقيقة، لكن الأرقام لا تخفي المشكلة ولا يحلها بيان لوكالة المخابرات المركزية يقول إن موضوع تلغيم مرافىء نيكاراغوا قد بحث مع أعضاء لجنتي الاستخبارات وأركانهم وأعضاء آخرين في الكونغرس إحدى عشرة مرة.

أحال سيمونز ذلك على كلير جورج قائلاً إن رجل الارتباط بين الوكالة والكونغرس له نفس عقلية كايسي.

في وكالة المخابرات المركزية رأى جون مكماهون أن القضية بدأت تفلت من الزمام، ويمكن أن تضع كايسي والوكالة مجدداً في طبق «الشوربا». وبوجود غولدووتر في الشرق الأقصى وموينيهان في حالة عداء، اتصل مكماهون هاتفياً بسيمونز. كان مكماهون وهو الضابط الإداري يعرف ماذا يعني الانقطاع. كان سيمونز خائفاً نعم، كان على وكالة المخابرات المركزية أن تبلغه، ولكن ذلك أيضاً كان من صلب وظيفته، أن يتحقق ويفتش. كان عليه أن يعرف من خلال تجربته في عمله في الوكالة أن المعلومات الجيدة، وحتى المعلومات التي كان معنياً بها، لا تأتي على طبق من فضة. كان سيمونز بحاجة إلى لطمة خفيفة.

قال مكماهون: «يجب أن نتخلص من هذه الضجة. إن هذا الوضع يؤذي الجميع. لماذا لا تقوم بما عليك وأقوم أنا بما علي». لقد كانا على وشك التضحية بالنفس. وكان مكماهون يميل إلى أن لديهما رؤساء مجانين، وأن عليهما أن يحافظا على السفينة عائمة.

أجاب سيمونز أن غولدووتر قد هوجم وأن البيانات والمعلومات المضللة التي أعطيت للصحافة تعيق عودة الأمور إلى طبيعتها. لم يثابر كايسي وجورج على إعلام اللجنة. إنها صدمة لغولدووتر بعد عمل خمس سنوات في اللجنة. علينا أن نساعد على خلق صورة جديدة للوكالة وضمان حماية الجميع وتأمين المال وإعادة بناء الجسور بيننا. لقد دمرت خمس سنوات من الجهود المخلصة بانهيار مريع في الاتصالات. باري وأنا نشعر بأننا وُضعنا في سلة القمامة، وبأن جميع توجهاتنا الفلسفية وخصوصاً الثقة قد تحطمت.

أضـاف سيمونـز: بما أنني أخـرجت ذلك من صـدري، دعنـا نخفف من لهجتنـا الخطابية.

ساد شعور في البيت الأبيض وفي مجلس الأمن القومي بأن كايسي قد سمم العناصر الجيدة في الكونغرس وجعل مناورات سياسة الإدارة الاستخبارية أكثر صعوبة. إنه ما يزال يلتزم بسياسة أكثر ضراوة في أميركا الوسطى. أراد البيت الأبيض إعادة تنظيم إطار مناقشة الموضوع وإبعاده، عن كايسي ووكالة المخابرات المركزية والأعمال الخفية.

من جانبه، رأى كايسي أن الحرب الخفية في نيكاراغوا هي جزئياً حرب عصابات. لقد حسم موقفه بأنه لن يجعل الساندينيين يتقدمون. وكانت سياسة الضغط، الإرباك، الضرب من جميع الجوانب وجميع الجبهات. كان كايسي خائفاً من أن توجه الصفعة إلى تردد البيت الأبيض، وكان جمهور الناخبين في داخل المدن ولم يرد البيت الأبيض أن يخسره. لقد تكلم البيت الأبيض بأصوات عديدة. لم يكن صعبـاً أن نعرف مـا يريـده الرئيس. لا قـوات عسكرية أميركية وكل الدعم الخفي ممكن عملياً وواقعياً. إلا أن الأخذ والرد بين الأركان أدى إلى نتائج مختلفة. جيم باكر أمر بالحذر في سنة الانتخابات في جانب، وفي جانب آخر، كان بعض مساعدي مكفرلين في مجلس الأمن القومي يضعون خططاً جديدة. وقد دعت إحدى هذه الخطط إلى حصار نيكاراغوا. دعت نصف أسطول الولايات المتحدة تقريباً إلى مراقبة جميع الممرات المائية التي توصل إلى نيكاراغوا. لم يحمل كايسي هذه الخطط على محمل الجد لكنه لم ينبذها. لم يكن أحد يعرف متى يتحرك الرئيس. لقد حدثت مفاجأة في غرانادا.

كان كايسي يعرف متى يقف رونالد ريغان وبماذا يؤمن، ولكن لم يكن أحد يعلم ماذا يريد ريغان أن يفعله، يمكن أن يقول «نعم» ثم «حسنـاً». . . ثم «لا» و«نعم» و«حسناً» و«لا»، وذلك على سبيل الإستعارة أو التعبير المجازي. كانت هناك متغيرات عديدة أخرى ابتداء من «لا» ومروراً «بنعم» إلى عدم القرار. كان بإمكان كايسي الحصول على لقاء خاص مع ريغان في البيت الأبيض. لقد لعب هذه الورقة مرتين في السنة تقريباً وكان الرئيس دائماً ودوداً، وكان يصغي باهتمام. ولكن بعد كل اجتماع كان يأتي السؤال الذي لا مفر منه من خلال باكر أو مكفرلين: فيمَ يفكر جورج (شولتز) أو كاب (وينبرغر)؟ وهذا ما يجيء بشولتز ووينبرغر إلى القضية. هذا سليم ولكن سوف يبدأ التأرجح بعدها. «نعم» «حسناً» «لا».

لم يترأس ريغان اجتماعات مجلس الأمن القومي أو مجموعة تخطيط الأمن القومي لا بصفة رسمية ولا بصفة غير رسمية. كان مكفرلين يترأسها عادة، وكان يزود ريغان بمفكرة من ورقة مزدوجة تحدد ما كان يقوله كل شخص والمدة التي استغرقها في التكلم. كان يمضي معظم وقته في الاطلاع على تقارير الحالة العامة. وكانت القرارات توقع من قبل مكفرلين ثم ترفع إلى الرئيس.

تسلم باكر ودارمان سجل الاتصالات الهاتفية اليومية، وذلك لكل مكالمة واردة إلى

ريغان ولكل واحدة أجراها. وضعت سجلات منفصلة للخطوط الهاتفية العادية وللخطوط الآمنة التي لم يجبها ريغان بسبب مشكلة السمع عنده. احتفظ عناصر الخدمة السرية بسجل لكل تحركاته واجتماعاته، حتى الحجاب في البيت الأبيض كانت لهم سجلات. كان هناك سجل لعطل نهايات الأسبوع وسجل لمكالمات نانسي الاجتماعية ودعوات الغداء والعشاء. وقد حُوِّلت بعض نشاطات نانسي إلى دائرة الرئيس. إن الحديث مع الرئيس بعد تحية بسيطة أو هاللو سريعة يمكن أن يصبح في ذهن الزائر تعبيراً قوياً أو حتى قراراً! وهكذا تابع باكر ودارمان كل شيء وتأكدا من أنه لا شيء يغيب عن شبكتيهما. لقد كان الرئيس مرتاحاً بوضوح حول هذا النظام الذي لم يخترقه أحد.

وردت تقارير إلى وكالة المخابرات المركزية تفيد بأن الأطنان من المعدات تتدفق نحو السلفادور. قدّم كايسي معلومات إلى البيت الأبيض تفيد بأن الثوار اليساريين في السلفادور يحضرون لشن هجوم واسع في الخريف. وقارن كايسي هذا بالهجوم الكبير في ڤيتنام عام ١٩٦٨. كانت مقارنة مبالغ بها. ولكن يجب زيادة الانتباه في سنة الانتخابات.

صدق موتلي هذه المعلومات، لكنها كانت مجزأة وغير بسيطة، وقال لكايسي: «كل ما نحتاج إليه خبر صاعق من ثلاثين ثانية لإثبات ذلك وإنهاء هذه الضجة». لكن الخبر الصاعق لم يأتِ.

بعد سلسلة من الاجتماعات والمناقشات في البيت الأبيض حصل كايسي على قرار واضح من الرئيس وهو ما كان يسعى إليه. وافق ريغان على أن على وكالة المخابرات المركزية أن تمضي في عملها في البرنامج الخفي حتى انتخابات تشرين الثاني/ نوفمبر. وعند إعادة انتخاب ريغان كما هو متوقع، ستبذل الإدارة جهودها فتحصل على مزيد من المال للكونترا وتكسب المعركة.

بالنسبة إلى كايسي كان المضي في العمل هو أن يسعى إلى حل بعض المشاكل مع الكونغرس، وهذا يتطلب بعض التذلل الشخصي من باب إلى باب.

قام كايسي بأول زيارة للسناتور ريتشارد لوغار، وهو جمهوري من ولاية أنديانا وعضو في لجنة الاستخبارات، وكان رئيس لجنة الحملة الانتخابية الجمهورية لمجلس الشيوخ. قال لوغار إن موقفه سيّئ. قال كايسي إنه حاول أن يعمل على إبلاغ الجميع، لكنه أقر بأن المراجع والمستندات الموجزة لعملية التلغيم لم تكن كافية.

أراد كايسي أن يثني مونيهان عن استقالته. كان مونيهان من المتشددين في السياسة الخارجية وكان مفيداً جداً للوكالة. وإذا حلَّ مكانه ليبرالي أو ديموقراطي ضد الوكالة كنائب لرئيس اللجنة، فسيكون ذلك كارثة.

ذهب كايسي إلى مجلس الشيوخ لمقابلة مونيهان في مكتبه. جلس على كرسي الجلد قرب المدفأة. كان فؤاده مسحوقاً بسبب شعوره بالندم. لقد أوضح أنه من صلب وظيفته أن

يطلع أعضاء اللجنة بشكل دائم وذلك على المستوى الذي يعتبره الأعضاء كافياً، وإذا لم يكتفوا يكون قد خذلهم مهما كانت جهوده صادقة ومخلصة. قال كايسي: أنا أعتذر بعمق، وناشد مونيهان بصفة شخصية أن يبقى نائباً لرئيس اللجنة.

تأثر مونيهان كثيراً فلقد بدا كايسي مخلصاً. إنه رجل معقد لـه شخصيات عـديدة مختلفة. لم يكن هناك مجال لرفض اعتذاره. ووافق مونيهان على سحب استقالته.

كان آخر فعل ندم من أفعال كايسي رسالة اعتذار بخط يده إلى غولدووتر.

يوم الخميس في ٢٦ نيسان/ أبريل واجه كايسي جميع أعضاء اللجنة. كان الجو متوتراً لأن بعض أعضاء اللجنة اعتقدوا بأن كايسي كان يقول: إن ما لم يحدث في هذا المكان لن يحدث مرة ثانية.

لكن كايسي أقر سريعاً بأن الإيجازات لم تكن ملائمة، وتمنى لو أنه قدم المزيد منها. لم يكن هناك نية لإخفاء أي شيء. لقد أطلع بعض الشيوخ وأطلع مجلس النواب أيضاً.

هناك سؤال عن التلغيم بحد ذاته: ألم يكن غير قانوني؟

قال كايسي: لا.

ثم أطلق العنان لجميع الاستياءات المكبوتة، وانقض الجميع على كايسي يسألونه عن القانون والحس الجيد والحكم والتطبيق الصحيح والتكامل في العمل. ألم نضرب بالألغام سفناً لحلفائنا البريطانيين والفرنسيين؟ لماذا صرحت الإدارة مسبقاً بأنها لن تقبل بأي قرار حول التلغيم من محكمة العدل الدولية؟ ولماذا تهزأ بالقانون الدولي في وجه العالم؟ ألا يؤدي التلغيم إلى دعم الإرهاب؟ ألم يؤدِّ ذلك إلى إدانة الولايات المتحدة أمام أعين المجتمع الدولي؟

قال كايسي: أنا أعتذر بعمق.

غضب السناتور جاك غارن الجمهوري من ولاية يوتا وقال إن الوكالة كانت دائماً تجيب على أسئلته، وحين يضطر، كان يذهب إلى مركز القيادة للحصول على الأجوبة. قال غارن: أنتم جميعاً حقيرون. كلكم حقيرون. الكونغرس مليء بالحقيرين. الـ ٥٣٥ عضواً كلهم حقيرون.

وقف الأعضاء ومن ضمنهم مونيهان الذي أراد أن يتفادى مواجهة أخرى، وقال: «ابتسم عندما تقول عني حقير».

بعد ذلك كتب غارن رسالة إلى غولدووتر اعتذر فيها عن الفوضى التي سببها في اللجنة وتسبب بتعطيل أعمالها. بعد الاجتماع أصدرت اللجنة بياناً جاء فيه تأكيد كايسي أن اللجنة لم تكن تعلم بشكل دائم أو بأسلوب منتظم حول التلغيم، وحول هجوم الزوارق السريعة على المرافىء النيكاراغوية. اتفقت اللجنة مع كايسي على اعتماد طرق جديدة لضمان عدم تكرار هذا التصدع في العلاقات.

في اجتماع هيئة استشارات الاستخبارات الخارجية للرئيس اقترح كايسي تعيين لجنة فرعية للتحقيق في التلغيم. وكان السؤال الرئيسي المطلوب الإجابة عنه هو: كيف تسربت الأخبار؟

قال عضو الهيئة إدوارد بنيت وليامز: «أنت سيد التحويل عن الأنظار، سنقبض عليك والبندقية الدخانية في يدك». ضحك كايسي، ولم يكن هناك أي تحقيق في التسريب.

عندما أتى مكفرلين إلى مجلس الشيوخ سأله مونيهان عن تصريحه العلني الذي قال فيه إن اللجنة قد أعلمت بشكل كامل وملائم حول التلغيم.

أجاب مكفرلين: «أوه.. إن ما قيل لي كان إما خداعاً وإما كذباً».

لخص مكفرلين في جلسة مغلقة مع اللجنة حادثة التلغيم: «عليكم أن تنظروا إلى المستقبل وأن تتعلموا من الماضي، وتتأكدوا من عدم حصول نفس الخطأ مرة ثانية إذا أردتم ذلك حقيقة؟».

- ١٧ -

كانت المكسيك سبب لعذاب آخر لكايسي في أميركا الوسطى في ذلك الربيع ويبلغ عدد سكانها ٧٧ مليون نسمة وكانت بمثابة قنبلة زمنية.

ومع أنَّ قسطنطين منج كان قد ترك الوكالة وأزيح إلى مجلس الأمن القومي، فقد بقي شبحه وقلقه حول المكسيك فيها. أدرك كايسي أنَّ المكسيك يمكن أن تصبح إيران ثانية على حدود الولايات المتحدة. إنَّ التشبيه بإيران يعطي رنيناً قوياً لأنها تعتبر الفشل الأساسي لإدارة كارتر.

قال منج إنَّ المكسيك كانت ملائمة وناضجة للثورة. وكانت فيها حكومة معادية للأميركيين وللرأسمالية وتعاني من أزمة ديون قد تؤدي إلى مصادرة الاستثمارات الأجنبية. كانت الأوضاع الاجتماعية فيها أرضاً صالحة لليسار الراديكالي.

علم كايسي أنَّ الرئيس المكسيكي ميغويل دي لامدريد كان بمثابة «ألم في المؤخرة» للإدارة الأميركية. كان دي لامدريد خريج جامعة هارفرد وكان مهتماً بحملةٍ لمكافحة الفساد في بلاده. لكنَّ مشاكل دي لامدريد الحقيقية كانت اقتصادية. كانت الأغلال تلتف حول عنق المكسيك، وبلغت الديون الخارجية ٨٠ مليار دولار.

كان هاجس دي لامدريد الآخر هو وضع حد لنزاع نيكاراغوا، وذلك بأن يضع الولايات المتحدة ونيكاراغوا على طاولة المفاوضات لإيجاد حل لخلافاتهما. عارض كايسي ذلك وامتعض من هذا التطفل لأنَّه يرى أنَّ لا جدوى من المفاوضات مع الشيوعيين. كان دي لامدريد مفكراً من الجناح اليساري وكان يدعو إلى عدم التدخل في شؤون الدول الأجنبية، وكان يقول إنَّ الولايات المتحدة هي التي دفعت الساندينيين نحو الراديكالية. شعر كايسي بأنَّ هذا ميل يساري يصعب تقبله من جار قريب يفترض أن يكون حليفاً، وأعطى أوامره لجمع المعلومات عن المكسيك وعن دي لامدريد، وتلقى الكثير من التقارير.

قال كايسي إنَّ أحد أهداف عملية نيكاراغوا كان حماية المكسيك وإذا سمح لنيكاراغوا بالبقاء كدولة يسارية في المنطقة فيمكن أن تمتد نار الثورة شمالاً. وإذا أخذنا بعين الاعتبار

الاندفاع اليساري الموجود حالياً في السلفادور يبقى فقط الهندوراس وغواتيمالا. وعندها ستفلت الهجرة من الأيدي لأنَّ العشائر تهرب دائماً من الشيوعية. إنَّهم «شعب القدم» كما سماهم كايسي.

وردت إلى كايسي رسالة سرية جداً وحساسة من هيئة استشارات الاستخبارات الأجنبية للرئيس، مؤلفة من خمس صفحات تتهم وكالة المخابرات المركزية بأنَّها دفنت رأسها في الرمال ولم تعرف ما كان يجري في المكسيك. ومن ضمن الذين كانوا وراء التقرير آن ارمسترونغ رئيسة الهيئة التي كانت سفيرة لدى بريطانيا والتي عاشت حياتها في مزرعة بقر في ارمسترونغ تكساس في جنوب الولاية على الحدود المكسيكية. كان بعض أعضاء الهيئة يؤيدون هذه النظرة، واعتبروا أنَّ إقدام المكسيكيين على السماح للسوفيات بإدارة أعمال تجسس كثيرة خارج السفارة السوفياتية كان عملاً غير ودي. عينت الهيئة أحد الخبراء السابقين في وكالة المخابرات المركزية في شؤون المكسيك بوظيفة مستشار، وأوصى هذا بدعم محطة وكالة المخابرات المركزية في مكسيكو.

تنبأ التقرير بحدوث اضطرابات يسارية وخاصة في أكابولكو وهاجم دي لامدريد وسماه التكنوقراطي. اعتبر التقرير الإشاعات التي روجها رجال الأعمال بمثابة حقائق، وعكس مواقف بدائية حول المكسيك وشعبها.

سأل كايسي مديرية العمليات عما إذا كان التقرير صحيحاً. وكان الردّ إنَّه على الرغم من أنَّ ما ورد في التقرير لم يكن معلومات محددة، إلاَّ أنَّه يجب أن يحمل على محمل الجد. لقد كانت الحقائق اعتباطية ولكنَّ الاستنتاج يمكن أن يكون صحيحاً.

كان منج قد بدأ منذ سنة بتنظيم تقدير استخباري حول المكسيك لكنَّه غاص في مستنقع الصحافة مع قضايا أميركا الوسطى، ولم يكن قد نظم أحد أي تقدير عن المكسيك منذ بضع سنوات. طلب كايسي من بديل منج جون هورتون الذي كان رئيساً سابقاً لمحطة الوكالة في مكسيكو أن ينظم تقديراً عن المكسيك، لكنَّ التقدم كان بطيئاً خلال الشهور الماضية وضغط كايسي من أجل الإسراع في إنهائه. قال كايسي لهورتون: «أنا لا أعرف لماذا يستغرق معك طويلاً، أستطيع أن أنظم ذلك في ساعة واحدة!».

كلف هورتون المحلل برايان لاتل كتابة المسودة الأولى. كان كايسي معجباً بلاتل وهو دكتور في التاريخ وكان جريئاً وباحثاً منقباً ودقيقاً وكان قد أعد ورقة استخبارية حول فيدل كاسترو أثارت إعجاب كايسي. قال إن كاسترو يسير نحو أزمة في منتصف حياته وأنَّه غير قادر على الإمساك بثورته غير الواقعية وأنَّه لا يضمن أي موقع له في التاريخ. لقد أهمل الخبراء في القضايا الكوبيّة ورقة لاتل واتهموه بأنَّه أعدّ رواية نفسية تشبه العمل الاستخباري.

توجه لاتل إلى المكسيك لمدة أسبوع ليلقي أول نظرة. وأمكن تحمل أعباء هذا النشاط

الجديد للمحللين لأنَّ ميزانية الوكالة سمحت بذلك. وعندما أكمل لاتل المسودة وهي بعنوان «المكسيك تحت حكم دي لامدريد»، حملها إلى هورتون وقال له: «كايسي يرى أنها جيدة».

كاد هورتون أن يحترق من الداخل. لقد كان من المفترض أن يتلقى كايسي مسودة التقدير في نفس الوقت هو ورؤساء الوكالات الاستخبارية الأخرى وليس قبلهم. لكنَّ لاتل كسر سلسلة التراتبية. إنَّ نفوذ كايسي يجب أن لا يتناسب مع معلوماته، وبإمكانه أيضاً أن يشوه التقدير بملاحظة عرضية. لكنه لم يكن يفعل ذلك. كما يجب الانتباه إلى أن رأي كايسي المسبق يمكن أن يقود التقدير. كان هورتون يريد الاطلاع على المعلومات الصعبة التي تشكل الخط العام للتقدير. قرأ هورتون مسودة التقدير التي وصفت المكسيك بأنَّها تعاني من خطر اندلاع ثورة كبيرة. كانت هناك اضطرابات في المدن واضطرابات في الريف مما ينذر بهروب رؤوس الأموال. كان المستثمرون ورجال الأعمال يتركون البلاد خائفين وكانت ثقتهم بالحكومة ضعيفة جداً. كان الفساد ينتشر في جميع أرجاء البلاد.

إنَّ كل من يطلع على مسودة لاتل يأخذ انطباعاً قوياً بأنَّ هناك عدم استقرار خطير في الجنوب. ألمحت المسودة إلى احتمال أن تحدث أعمال شغب، ويمكن أن يكلف الجيش المكسيكي بقمعها. إنَّها أصداء إيران. أدرك هورتون أنَّ معلومات الاستخبارات لا تدعم ما جاء في المسودة إلاَّ أنَّه وافق على أنَّ هناك فساداً واضطرابات وبطالة. وافترض التقدير أنَّ الأميركيين الموجودين في نفس المنطقة مثل المكسيكيين يمكن أن يصبحوا أيضاً ثوريين وراديكاليين. لكنَّ هورتون شعر بأنَّه لا يوجد أي دليل على أنَّ المكسيكيين سيتصرفون مثل الأميركيين.

أهم ما في المسودة وأخطره هو أنَّ السوفيات والكوبيين كانوا ينظمون صفوفهم بهدوء في المكسيك.

أدرك هورتون أنَّ كايسي يريد تقديراً مخيفاً يثير اهتمام هيئة استشارات الاستخبارات الخارجية للرئيس وقلق البيت الأبيض. أراد أن يظهر أنَّ المكسيك ضعيفة. لم يتفهم كايسي وأتباعه الاقتناع الراسخ عند المكسيكيين بعدم التدخل في شؤون الدول الأخرى، وبأنَّ أي رئيس مكسيكي لن يؤيد الولايات المتحدة في نيكاراغوا. قال كايسي لهورتون الذي عبّر عن قلقه أمامه: «أنت معجب بالحكمة التقليدية وتحب المناقشة فيها».

أجاب هورتون: «إنَّ هذه الاستنتاجات بشكل عام لا تأتي من الاستخبارات بل من التقديرات. وكان التقدير في بعض الأحيان تحريفاً للمعنى».

قال كايسي: «انتظر، يجب أن تؤخذ بعض وجهات النظر، بعين الاعتبار».

قال هورتون: «تقصد الاتساعات والنوادر، إنَّ أفكار رجال الأعمال الذين عملوا في المكسيك أو أمضوا عطلتهم في أكابولكو ليست معلومات استخبارية ولا حتى استخبارات بسيطة».

قال كايسي: إنك تريد أن تخفي الدلائل.

تصلب هورتون، إنّه أتهام جدي وقد استاء منه. قال كايسي متحدياً: «المكسيك قد تكون التالية بعد إيران».

وهكذا بدأت سلسلة من المناقشات اليومية بين كايسي وهورتون وكأنهما كانا أمام صفقة تجارية!. صمم هورتون أن يحذف من المسودة كل ما يتبين أنّه لا يستند إلى مصدر موثوق به. يمكن لإدارة ريغان أن تبني سياستها على الأحاديث المتداولة في نوادي الجمهوريين، لكنّ هورتون لن يسمح بأن يؤثر ذلك على التقديرات الاستخبارية.

تلقى هورتون مذكرة طويلة من كايسي يحاول فيها أن يضع بعض الآراء في التقدير. ثمّ وردت مذكرة أخرى منه تبين لهورتون أنّها من إعداد منج. كان ذلك تكتيك كايسي الذي لم يحب المسودات وإنما كان يفضل المذكرات لأنّها تقدم باسمه الشخصي.

وردت في المذكرات معلومات حول الفقر والفاقة في الريف، والاضطرابات في الأحياء السكنية الكثيفة في مكسيكو. كما وردت معلومات عن مجموعات تعمل بإشراف كوبي في مناطق نائية. معظم هذه المعلومات كان دون مصادر. حاول ضابط الاستخبارات بوب غايتس أن يجد حلاً وسطاً. لكنّ هورتون لم يعتقد بأنّ الحل الوسط كان كافياً. كانت المسألة في كيفية التعامل مع معلومات الاستخبارات إذ يمكن أن تكون قد تشوهت بالحدس وبالاشاعات. وكانت هناك عقدة أخرى لأنّ كايسي اعتبر تحدي هورتون توصية باتباع سياسة جديدة!. كان قلب كايسي الرئيسي في السياسة هو عملية نيكاراغوا وكانت الاضطرابات في المكسيك تلائم ذلك بشكل جيد. إنّ أي تنبؤ أو تقدير لا يتحدث عن اضطرابات لا يلائم سيناريو كايسي، وإذا اعتبرت الهجمة الشيوعية وما يتبعها من هجرة إلى الولايات المتحدة بعيدة الحصول فإنّ ذلك يعطي دعماً قليلاً لقضية الكونترا.

كان كايسي ينزعج عند أي ذكر للتقدير لأنّه يمكن لبقية وكالات الاستخبارات أن تبدي اعتراضات. والآن فإنّ المسودة بيد هورتون الذي لم يشأ أن يستمر دون دعم. وافق كايسي على تعميم المسودة بعد أن أعاد هورتون صياغتها وذلك من أجل الحصول على شيء ما على طاولة اجتماع هيئة الاستخبارات الخارجية القومية.

اتّصل هربرت ماير أحد مساعدي كايسي ونائب رئيس مجلس الاستخبارات القومية برؤساء وكالات الاستخبارات وقال لهم إنّ مسودةً ستعمَّم عليهم. وكان قد سمع من ممثليهم أنّ كايسي وهورتون كانا على وشك أن يقتل الواحد منهما الآخر بسبب هذه المسودة.

عقد الاجتماع في أوائل نيسان/أبريل (تقريباً في نفس الوقت الذي ساد فيه الاضطراب في مجلس الشيوخ حول تلغيم مرافئ نيكاراغوا) في شارع ف في مبنى قيادة المجموعة الاستخبارية قرب مبنى المكتب التنفيذي القديم. عرض هورتون ملخصاً شفهياً. كانت هناك أزمة في المكسيك لكن لا توجد أية إشارة لانهيار حقيقي.

قال كايسي: «إنَّ المسودة كانت بسيطة، وأنا منزعج لأنها لم تحتو على جميع الاحتمالات. أريد أفضل تقدير لإمكانية انهيار المكسيك». وأوضح أنَّ المكسيك كانت على شفير الهاوية. أظهر ممثل وزارة الخارجية قلقه وطلب من الجميع أن ينظروا إلى بقية شعوب أميركا اللاتينية كالأرجنتين والبرازيل التي تغرق في الديون الخارجية والتي هي بالفعل مصدر قلق كبير.

ركز مساعد رئيس مكتب التحقيق الفدرالي على نشاطات السوڤيات في المكسيك. كان مقر المخابرات السوڤياتية KGB في مكسيكو قاعدة الانطلاق الرئيسية لعمليات التجسس في الولايات المتحدة. وكانت المكسيك تؤمن حرية العمل للمخابرات السوڤياتية، وقد وردت معلومات جديدة تفيد بأنَّ وكالة المخابرات المركزية قد حددت بعض عملاء المخابرات السوڤياتية الذين يعملون في المكتب المكسيكي الخارجي، إلاَّ أنَّ المكسيكيين لم يظهروا أي اهتمام بذلك.

لاحظ أحد أعضاء هيئة الاستخبارات الخارجية القومية أنَّ هذا يبعد عن الموضوع الأساسي للتقدير وهو عدم استقرار المكسيك. وأشار أحدهم إلى أنَّ النفوذ السوڤياتي كان يزداد في المكسيك.

بدا ممثل وزارة التجارة، وهو محلل سابق في وكالة المخابرات المركزية، وكأنَّه يريد أن يسقط كايسي أرضاً. وكان لوزارة المالية أيضاً نظرة كئيبة وذلك لقلقها العميق حول أزمة الديون الخارجية إذ كانت البنوك الأميركية قد سلفت المكسيك مليارات الدولارات.

عبّرت وكالات الاستخبارات العسكرية ـ وكالة الأمن القومي ـ وكالة الاستخبارات الدفاعية ـ استخبارات الجيش ـ استخبارات القوات الجوية ـ استخبارات مشاة البحرية ـ عن قلق معتدل حول المكسيك. لم تكن القوات المسلحة المكسيكية موضع اهتمام استراتيجي كبير لأنَّ عددها يبلغ حوالى ١٢٠ ألفاً فقط.

كان كايسي وحيداً ولم يكن بجانبه إلاَّ وزارة المالية ووزارة التجارة ومكتب التحقيق الفدرالي وهي أقل أجهزة الاستخبارات أهمية، وقرر أن يضخّم المسألة.

قال كايسي وهو يضرب على الطاولة: «أريد تصويتاً حول فرصة الانهيار الكامل» وكان يعتقد شخصياً بأنَّ هناك فرصة ٥٠ ٪ إلى ٥٠ ٪ للانهيار، وعاد الحديث مرة ثانية، إلاَّ أنَّه تلقى دعم الأجهزة الثلاثة فقط.

قال كايسي: «أنا أعتبر أنكم تشعرون بأنَّ فرصة الانهيار هي بنسبة واحد إلى خمسة». ولم يجب أحد.

قال: أريد إعادة هذا، كما أريد أن يُذكر في التقدير أنَّ هناك نسبة ٢٠ ٪ للانهيار. لكن لم يكن هناك مجال لتقديم تقدير إلى الرئيس بهذا الاحتمال الضئيل.

كان هورتون متأكداً من أنَّ الرأي المهني كان إلى جانبه. إنَّ نسبة الـ٢٠ ٪ جاءت لأنَّ

كايسي جلس إلى رأس الطاولة. بعد الاجتماع أطلق كايسي شتائمه لهورتون وأعطى توجيهاته لهيرب ماير لإعادة كتابة النقاط المهمة.

إشتكى هورتون لغايتس الذي وعد بأن يراقب مسودة ماير، ولكن سرعان ما انغمس هورتون في نص ماير وبدأ يصحح الأخطاء التاريخية، ويخفف منَ اللهجة القاسية. أبدت وكالات الاستخبارات العسكرية عدم موافقتها في ملاحظة بارزة على الصفحة الأولى. نصت هذه الملاحظة على أنَّ الاستخبارات لا تؤيد الرأي القائل: هناك احتمال ٢٠ ٪ لاندلاع ثورة في المكسيك. عُمم النص النهائي الذي صُنِّف تحت طابع سرّي على مئات المسؤولين وقد قرأته حفنة ضئيلة منهم. كانت النتيجة زيادة عمليات وكالة المخابرات المركزية، وتمّ تعيين ضباط إضافيين في مكسيكو لمواجهة نشاط المخابرات السوفياتية، وهذه مسألة لم يذكرها التقدير بشكل صريح. شعر هورتون بأنَّ العملية بقيت عند حدود. وكلما زاد تفكيره فيها زادت مشاكله. لقد كان لها ثمن شخصي كبير. ورغم أن كايسي اعتذر منه بعد اجتماع هيئة الاستخبارات الخارجية القومية لكنَّ علاقتهما كانت قد انتهت. كان كايسي يشك فيه وكان هو يشك في كايسي.

تحت تأثير صدمة إيران اعتقدت الوكالة بأنَّه من الممكن أن تحمي نفسها بتنبؤ الثورات والانهيارات والكوارث. وبهذه الطريقة لن تظهر هي «المخطئة» إلاَّ أنَّها ستخطئ حتماً في التقارير التي تعوي كالذئاب. لقد تمّ التخلي عن إيران بعد جرح عميق وسمع هورتون كايسي يحذر رؤساء المحطات في أميركا اللاتينية: «فتشوا عن آية الله إنَّه رجل قادم يستطيع قيادة الجماهير الغاضبة». وما زال هذا التفكير يزعج الوكالة.

كان لهورتون شكاوى أخرى ضد كايسي. أفاد الجنرال بول غورمان قائد الوحدات العسكرية الجنوبية في باناما بأنَّ أحداثاً على وشك الوقوع في السلفادور بينما كان الرئيس دورات يسلم ضباطاً شرفاء ذوي سمعة جيدة وظائف قيادية.

سأل كايسي هورتون: «لماذا لا يظهر هذا في استخباراتنا؟» وأعطاه أمراً بالتحقق.

قال هورتون: إنَّ المعلومات المذكورة وردت في «يومية المخابرات القومية» التي عممت على أعلى المستويات.

قال كايسي: «لا أحد يقرأ هذه الزبالة» وكان يعني بذلك الرئيس ووزير الخارجية ووزير الدفاع ومستشار شؤون الأمن القومي، وهم الذين يحسب لهم حساب وهم غالباً لا يهتمون بهذه النشرة.

كانت ملاحظة كايسي تنم عن عدم اكتراث بالنشرة. ربما هو لا يعني ما يقول. لقد حاول دائماً أن يحصر تعميم هذه النشرة ومنع تصويرها وكان يشتكي عندما يظهر قسم منها في وسائل الإعلام. لكنَّ هذه الملاحظة عكست عدم حساسيته وميله لأن ينفس عن استيائه اليومي. كان موظفو كايسي يجهدون لإصدار النشرة. وإذا سماها المدير بشكل ارتجالي «زبالة»

فإنَّه قال ذلك عدة مرات بملء إرادته. إنَّ هذه النظرة يمكن أن تخيِّب آمال الذين كسروا ظهورهم من عناء تنظيمها كل يوم.

شعر هورتون بقلقه تجاه بعض جهود الاستخبارات خلال السنة التي أمضاها في وظيفة ضابط الأمن القومي لأميركا اللاتينية. لقد طلب كايسي تقويماً للمعارضة ضد كاسترو داخل كوبا. لم يكن هورتون قادراً على ذلك بسبب صعوبة الحصول على المعلومات وكانت مصادر الوكالة في كوبا ضئيلة وهزيلة، لكنَّ هورتون استنتج أنَّه يحتمل أن لا تكون هناك معارضة قوية في الداخل. وهذا لم يرق لكايسي وشكك فيه. كان يعتبر أنَّ ازدراء الشيوعيين كان ظاهرة عالمية شاملة. يجب أن يكون لكاسترو خصوم. إنَّ عقلية كايسي الصعبة وحدسه وثقته بنفسه لم تكن بديلاً عن المعلومات الحقيقية. لقد كان فخاً ذكياً. لقد كان كايسي يبدي سروره وبهجته فقط عندما يتلقى معلومات تدعم آراءه وسياسة الإدارة.

قبل الانتخابات الأرجنتينية بسنة واحدة نظم هورتون تقديراً استخبارياً قومياً خاصاً للتنبؤ حول الانتخابات. وكان صديقه رول ألفونسين، وهو محامٍ من يسار الوسط يترأس حزباً يسمى «حزب الوحدة المدنية الراديكالية»، له حظ كبير بالفوز. قال هورتون لكايسي الذي تذمر من هذه المعلومات: إنَّ نصر ألفونسين سيكون جيداً بعد ثمانية سنوات من الدكتاتورية العسكرية، ولكنَّ مركزه في يسار الوسط يحتمل أن لا يكون جيداً بالنسبة إلى الولايات المتحدة.

حدق كايسي بهورتون وقال: هل هو ماركسي لينيني؟

تعجب هورتون: هل هذا هو السؤال الوحيد لمدير المخابرات المركزية؟ وفاز ألفونسين.

بعد بضعة أيام من تصميم تقدير المكسيك ذهب هورتون إلى غايتس وقال له إنَّه يريد أن يترك وسوف يبقى فقط حتى إيجاد بديل له. ولكن لم يحدث شيء ولم يظهر أي تبديل. لهذا عاد هورتون إلى غايتس وقال إنَّ تاريخ عقدي ينتهي في آخر آيار/مايو، لماذا لا أترك في هذا الوقت؟ ووافق غايتس.

شعر هورتون بالغضب. كان كايسي مثل أي مدير تنفيذي لشركة كبيرة، جاء ليحلب الشركة قبل أن يرميها جانباً. كان كايسي يعتبر نفسه، كضابط قديم في مكتب الخدمات الاستراتيجية، ذا شعور عاطفي حول العمل الاستخباري.

كان هورتون يعرف أنَّ كايسي موضع احترام واعتبار الكثيرين وأنَّه يحتفظ بصلة مع جميع الناس. لقد أمضى هورتون الساعات جالساً في مكتب كايسي أمام الطاولة يجره كايسي من مسألة إلى أخرى. كان كايسي خشناً جداً مع الناس ومع هورتون بالذات.

كان هورتون يرى أنَّ كايسي لم يكن ملتصقاً بالوكالة بشكل كافٍ، وقد أصبحت الوكالة مرة ثانية آلة للإدارة. كانت التحريفات والتشويهات عديدة وكان بعضها ماكراً. لم

يشأ هورتون أن يكون شهيداً في هذه المسألة. لقد كان هناك نفور شخصي مع كايسي ويمكن أن يأتي شخص آخر ويتعامل بشكل أفضل. لقد فعل ذلك غايتس، كان هناك عامل آخر لقرار هورتون بالاستقالة وكان صعباً عليه أن يفهمه، لا لأنَّه لم يتفق مع كايسي بل لأنَّ مدير المخابرات المركزية كان «حيوانياً» في تصرفاته!

بعد عشرة أيام من الإيجاز الذي تركني حائراً(*) حول ما إذا كانت وكالة المخابرات المركزية قد أشبعتني بمعلوماتها عن القذافي أم لا، توجهت جواً إلى طرابلس. وكمعظم الزوار انتظرت أياماً موعدي مع الزعيم الليبي. أخيراً انتقل أحد مترجميه إلى غرفة مجاورة لغرفتي في الطابق الثاني عشر من فندق باب البحر، وهو يقع على شاطئ البحر المتوسط. أمضينا معظم الليل نتحادث دون كلفة ونقرأ وننتظر. تعبنا كثيراً. وعندما تمشينا في الخارج في الجو البارد كي نطرد النعاس عن عيوننا قال لي المترجم، وهو رجل قوي البنية، إنَّه مصاب بالذهول من جراء التصدع الداخلي في ليبيا. لقد تمّ إعدام ١٣ طالباً ومعارضاً في مكان عام في ذلك الشهر. وأضاف أنَّ هناك آلاف السجناء السياسيين الذين كانوا يجهرون بمعاداتهم للثورة وللقذافي.

قلت له: تعال هنا. كيف يمكن أن يكون هناك الآلاف؟ قال بلهجة صارمة: الآلاف. أنا أقول لك الآلاف. البلاد كلها في حالة غليان ونحن نتوقع شيئاً ما.

قلت له إنني أرسلت خبراً حول إعدام طالبين ليبيين في جامعة طرابلس لقد نصبت أعمدة المشانق في باحة الجامعة وطلب إلى آلاف الطلاب مشاهدة تنفيذ حكم الإعدام وقد أصيب العديد منهم بالغثيان وتركوا الجامعة وهم يبكون.

حوالى الساعة الخامسة صباحاً قيل لي إنَّ القذافي لن يستقبلني هذه الليلة! انتظرت معظم اليوم التالي وصبرت لأنَّ مترجم القذافي بقي معي في الغرفة المجاورة وأصيب مثلي بخيبة أمل واصطحبني إلى قاعة الفندق.

- «إني أرغب في أن تقابله»، صرخ المترجم وهو غاضب من القذافي وأضاف: «سوف ترى كم هو مجنون». وأشار بأصبعه إلى صدغه ليظهر أنَّ القذافي كان فعلاً مجنوناً أو مخبولاً.

قلت: مجنون؟

قال: أجل مصاب بالجنون، وأخذ سبابته وإبهامه ووضعهما على مسافة صغيرة وقال «رأس دبوس» كأنما كان يقول لي تعبيراً عامياً ليبياً.

قال إنَّ القذافي يتعاطى الحبوب المنومة والمخدرات. يعتبر نفسه ناسكاً ونصف إله.

لقد كان ذلك نسخة عن الصورة التي رسمها لي ضابط عمليات وكالة المخابرات. كانت نفس الكلمات، وكان موقف الاحتقار والسخرية نفسه من جهة، وموقف التعجب والتذمر من جهة أخرى. كأنَّ المترجم الذي أمضى مئات الساعات مع القذافي وضابط وكالة

(*) المؤلف بوب وودورد.

المخابرات المركزية الذي أمضى ساعات يدرسه، لها نفس التجربة. لقد خطر ببالي أن يكون المترجم من عملاء وكالة المخابرات المركزية وأنَّ هذا الحديث قد أُعِدَّ من قبل، أو أنَّ كلاً من الوكالة والمترجم كان على حق في تصوره.

تسربت نسخة عن الخبر الذي أرسلته حول الشنق في مكان عام إلى وزارة الخارجية الليبية، فنقلت بسرعة إلى المطار وأعدت إلى واشنطن. كان ذلك بمثابة عملية إبعاد حقيقية.

في واشنطن نشرت قصة طويلة عن ليبيا وعن معلومات المترجم، ولكن لم أنشر معلومات المترجم المتعلقة بالحبوب المنومة ولا المعلومات الخاصة من وكالة المخابرات المركزية. وظهرت في عدد الأحد تحت عنوان: «سلطة القذافي تتجه نحو الضعف».

في ٨ أيار/مايو بعد أسبوعين من مغادرتي إلى ليبيا كنت في مكتبي في واشنطن بوست ووردت برقيات عاجلة من ليبيا تفيد عن محاولة انقلابية ضد القذافي وعن هجوم حصل على ثكنة (باب العزيزية). أفادت التقارير بأنَّ معركة احتدمت داخل المدينة وجاء في أحد التقارير بأنَّ القذافي قد قتل.

بعد دراسة التقارير وتصنيفها في لانغلي بدا واضحاً أنَّها أكبر محاولة انقلابية ضد القذافي في الخمس عشرة سنة التي أمضاها في الحكم. لأول مرة توحدت القوى المعادية له خارج وداخل ليبيا بشكل واضح. وقد أحبطت المحاولة عندما اعتقل ثلاثة من مخططيها على الحدود التونسية الليبية. وكشفوا في التحقيق عن مكان تواجد ١٥ معارضاً في طرابلس كانوا يحضرون أنفسهم لمهاجمة القذافي. لقد ساعد الرئيس السوداني جعفر النميري المعارضين في الحصول على شيء ما على الأرض.

استنتج كايسي أنَّ ذلك يثبت ولأول مرة أنَّ الليبيين يرغبون في التخلص من القذافي، وأمر بإجراء تقويم حول مدى إصابته.

كان كايسي قلقاً لأنَّه كان على وشك أن يعاني من استجوابات علنية حول أوضاعه المالية والشخصية. كان مكتب ضريبة الدخل يلاحقه بنمط بطيء من الرسائل والملاحظات. كان عناصر المكتب يعيدون النظر في الضرائب على الحسومات التي حصل عليها كايسي في أواخر السبعينات أي قبل تعيينه مديراً للمخابرات المركزية. وكانت هذه الخلافات عادة تحل بالثقة بين دافع الضرائب ومكتب ضريبة الدخل. لكنَّ بعض شركاء كايسي كانوا يضحدون ادعاءات المكتب في محكمة الضرائب وبذلك يزجون اسمه في العلن.

لقد تخوف كايسي من الانتقاد في هذه الأمور لأنَّ معظم الناس لا يدركون طبيعة النظام الرأسمالي على حقيقته. ومثل أشياء كثيرة أعاده هذا إلى أيام مكتب الخدمات الاستراتيجية والحرب العالمية الثانية. كان مكتب الخدمات الاستراتيجية قد أعدَّ عملية جمع معلومات بسيطة وهامة. لقد أمر المواطنين الأميركيين بإرسال صور العطلة التي أمضوها في أوروبا وخصوصاً على الشواطئ والمرافئ. لقد قلّص أحد الضباط الصور إلى ميكروفيلم ثمّ

ألصقت على بطاقات الكومبيوتر. نفذ ذلك يدوياً بالمقص وبمواد التلصيق. وهكذا كان هناك مرجع جاهز حول أي شاطئ أو مرفأ، واستطاعت وحدات الحلفاء الحصول على معلومات قبل إرسال العملاء أو إسقاطهم من الطائرات وقبل غارات الكوماندو أو عمليات الإنزال أو القصف. خلال الحرب قال أحد رجال الأعمال لكايسي أن هذا النظام من الميكروفيلم يمكن أن يكون مهماً من الناحية التجارية بعد انتهاء الحرب.

وفعلاً بعدما انتهت الحرب عاد رجل الأعمال إلى كايسي وقدم له المال. استأجر كايسي مؤسسة هندسية في بوسطن لتصنع آلة تقوم بأعمال القص والتلصيق وأسس شركة اسمها «فيلم سورت» وبدأ كايسي يبيع الآلة والتقنية للشركات الكبرى في البلاد. عام ١٩٤٩ بيعت الشركة، وكانت حصة كايسي مئات آلاف الدولارات، وهي ثروة غير عادية في أيام ما بعد الحرب واشترى منزل ماي نول بخمسين ألف دولار.

منذ ذلك الوقت ركز كايسي على التطلع نحو المستقبل، وبدأ يبحث عن علاقات. كان بإمكانه أن يضع أمواله في البورصة لتكون آمنة وحرة من أي تعقيد إداري أو نزاعات أو دعاوى قضائية. لكن عوضاً عن ذلك وظّف أمواله في غواصة صغيرة لصيد الكنوز الغارقة في (الكي وست) وفي مؤسسة تستورد البالة من يوغوسلافيا وبلجيكا وفي برنامج إعادة الضريبة بالكومبيوتر وفي مؤسسة تخطيط للأوضاع.

كان أحد استثماراته الإعداد لتطوير قلم حبر يحول خط اليد مباشرة إلى الكومبيوتر. اشترى كايسي ١ ٪ من الأسهم بمبلغ ٩٥ دولار السهم وسميت المجموعة الاستثمارية «بين فرتر بارتنرز» واشترت معدات تكنولوجية هامة من مؤسسة أخرى بـ٤ ملايين دولار دفع منها مبلغ ١٠٠ ألف دولار فقط، والباقي (٣،٩ مليون دولار) كان سندات تدفع عند تطوير القلم والبدء بتسويقه. كانت خسائر بين فيرتر ٦ ملايين دولار خلال أربع سنوات. وبما أنّه شريك وله ١ ٪ فقد حصل على حسم ٦٠ ألف دولار في الضرائب وهذا ما لم يتقبله مكتب ضريبة الدخل.

أثار ذلك ضجة كبيرة: مدير المخابرات المركزية حصل على حسم ضرائب بقيمة ٦٠٠ مرة ثمن استثماره. (كان وزير العدل وليم فرنش سميث قد اتهم بالفساد علناً بسبب حصوله على حسم يبلغ أربعة أضعاف قيمة استثماره)!

في ١٠ أيار/مايو اتّصل كايسي بي(*) ليسألني ما إذا كان المحرر تشناك بابوك من الواشنطن بوست يتولى إثارة مشاكله في مكتب الضرائب. قدم كايسي تنازلاً، سيكون مديناً بمائة ألف دولار للضرائب القديمة. وكان هذا المبلغ لا يساوي شيئاً، وسيكون سعيداً لدفعه ويمكنه أن يتحمله.

كتب بابوك قصة طويلة حول ضرائب كايسي ومشاكله في الاستثمارات بعنوان: «مدير

(*) المؤلف.

المخابرات المركزية يتنازع مع مكتب ضريبة الدخل حول مبلغ ١٠٠ ألف دولار في الضرائب القديمة».

شهد كايسي في جلسة لمحكمة الضرائب في نيويورك، وهاجم محامي مكتب الضرائب وفنّد ادعاءاتهم بأنّه اتفق مع الذين يبيعون «حسومات الضرائب».

قال: «أرغب أن أستثني أي ملاحظة تقول إني اشتريت «حسماً للضرائب». لقد اشتريت المستقبل، لكن أن يقال إني اشتريت «حسم الضرائب» فذلك تحريف فاضح.» وذكر أنَّه كتب أول كتاب حول مخابئ الضرائب بعنوان «استشارات مخابئ الضرائب» قال كايسي: «أنا بدأت هذا الشيء بكامله» وأضاف وهو يتكلم بلهجة التعبير الكاثوليكي عن آلام المسيح: «وعندما أصبحت رئيساً لجهاز أمن التبادل تخلصت من خطيئتي».

لم يكن هناك أحد في الكونغرس أو في أي من الأوساط له جَلَدٌ لينظر إلى أدغال القضايا المالية لكايسي. كان كايسي متفاجئاً لأنَّ قليلاً من الصراحة والإخلاص قد ابتعد عنه.

ومع أنَّ الكونغرس كان يعيق طلب الإدارة لمبلغ ٢١ مليون دولار الإضافي للكونترا، شعر كايسي بأنَّه لا يوجد أي مسؤول منتخب وخصوصاً إذا كان ديموقراطياً في عهد شعبية ريغان الجمهورية يريد ما سماه كايسي «العين السوداء» التي ترافق التخلي عن حركة المقاومة. لقد ضغط من أجل موضوعه وحث الرئيس ومكفرلين على أن يلعبا الورقة السياسية، ولكنه أدرك أنَّ الكونغرس يستطيع أن يفعل أي شيء وأنَّ التأخير كان أفضل. في ٢٧ آذار/ مارس كتب مذكرة إلى مكفرلين: «في مواجهة المصاعب المحتملة في الحصول على المخصصات اللازمة لمتابعة مشروع نيكاراغوا السري لبقية السنة، أنا موافق لأن تبحث عن تمويل آخر من أي مكان»، «وأخيراً وبعد درس الوضع القانوني يمكنك أن تفتش عن مواطن أميركي ملائم ليبدأ بذلك».

وقع المذكرة بحرف C الكبير وسلمت إلى مكفرلين في البيت الأبيض.وطلب منه أن يعيد النسخة عندما ينتهي منها بحيث لا يكون هناك نسخ أخرى ولا توزيع ولا غيره..

أدرك كايسي أنَّ مكفرلين لم يكن من المؤمنين بعملية الكونترا الخفية، ولقد تابعها لأنَّ الرئيس كان يصر عليها. كان مكفرلين لاعباً آخر وليس قائداً أو حاكماً في نزاع. ويمكن لكايسي أن يتابع أساليبه الخاصة. بعد ذلك، اتّصل كايسي بمكتبه وقال إنَّه يريد من جميع العاملين بمسألة نيكاراغوا أن يحضروا إلى مكتبه عندما يصل. وبعدما علق قبعته ومعطفه جلس بهدوء على كرسيه الأزرق وسحب قصاصة ورق وقال: «أنتم تعلمون أيها الأصدقاء أنَّ البيت الأبيض سيتخذ بعض القرارات حول الكونترا. ما الذي سنحصل عليه من هذا؟».

وتمّ عرض بعض التفاصيل العملانية من الميدان وبعض التحليلات حول نشاط

الساندينين في الاجتماع.

قال كايسي: «من نحن يا للجحيم؟» «نحن نوع من التفكير الملعون. قلت لكم إنّ الكونترا لها الأفضلية الأولى على جدول أعمالنا والآن تعالوا نتخيل حاجة الرئيس وبعدها نتخيل كيف نلبيها».

كان تشاك كوغان رئيس فرقة عمليات الشرق الأدنى، وكان يدعى مستر هات واي شيرت. كان طويلاً نحيفاً ويبلغ السادسة والخمسين من العمر، سبق أن عمل ضابط عمليات في الهند والكونغو والسودان والمغرب حيث كان رئيس المحطة. وهو خريج جامعة هارڤرد انضمّ إلى صفوف الوكالة في الموجة الثانية في الخمسينات أي في خضم الحرب الباردة. وكان منظره رهيباً وعيناه مثل عيني رجل المباحث وكان يظهر أثر جرح على جانب وجهه، مما زاد في تأثير منظره.

بالنسبة إلى رئيس الفرقة لم يكن العمل في لانغلي قراءة البرقيات ولا إصدار الأوامر إلى المحطات. لقد شمَل العمل التنسيق والارتباط مع السفارات في واشنطن وهي قنوات اتّصال لمعلومات جيدة ولبيانات سياسية. هذه العلاقات توازي في أهميتها العلاقات الميدانية.

كانت إحدى علاقات كوغان القديمة مع السفير السعودي في الولايات المتحدة الأمير بندر، وهو رجل براق جميل عمره ٣٥ سنة، ابن وزير الدفاع السعودي سلطان بن عبد العزيز النافذ، ويمثل الصف الجديد من السفراء، وهو حيوي وجذاب وأنيق. كان طياراً في القوات الجوية وكان نوعاً من «الغاتسبي» العربي الذي يدخن السيكار الكوبي ويضحك بشكل عاصف، ويقدم صنف الهمبرغر من عند «المكدونالد» المسمى «بيغ ماك» في مكتبه الخاص على طبق من فضة.

خلال عهد كارتر وقبل تعيينه سفيراً طور الأمير بندر علاقاته مع الإدراة الأميركية من خلال المساعد الرئاسي هاملتون جوردان، واستطاع أن يوصل وجهات نظر العربية السعودية من خلاله، أما في إدارة ريغان فقد اختلفت الأمور. كان بندر يعتقد بأنّ السلطة موزعة بين الوزارات وبين عدة فرقاء في البيت الأبيض. وبما أنّ الإطار العام لسياسة الإدارة كان الولاء لإسرائيل وخاصة من زاوية وزير الخارجية جورج شولتز، فقد كان الاتّصال الرسمي من خلال كوغان مهماً جداً.

كسفير، كان لبندر مناورات غير عادية وكان له اتّصال مع كبار الأغنياء. وفي السعودية لا توجد لجان مراقبة. كانت وزارة الخارجية تدرك ذلك وتتوجه إلى السعودية من أجل الحصول على مساعدة عسكرية أو اقتصادية عندما تريد شيئاً قد يعارضه الكونغرس. وإذا كان ذلك الطلب يتماشى مع خط السياسة الخارجية السعودية، كانت السعودية توافق. كان للسعوديين رصيد لدى الدول التي ساعدوها ولدى الولايات المتحدة. لقد قامت دولاراتهم بعمل مزدوج.

كانت فرص هذه التدابير صعبة في ميدان الاستخبارات.

كان السعوديون مثلاً يدعمون المقاومة ضد النظام الماركسي في أثيوبيا، وكان هذا طبيعياً بالنسبة إليهم لأنّهم لم يحبوا أبداً اليساريين المتطرفين ولا الشيوعيين وخاصة أولئك المواجهين لهم على البحر الأحمر. لقد كان كايسي مسروراً لذلك. كانت العلاقة بين وكالة المخابرات المركزية والمخابرات السعودية جيدة وتعود إلى أيام الثري الكبير الشيخ كمال أدهم الذي كان رئيسها. عام ١٩٧٠، أمن السعوديون لنائب الرئيس المصري آنذاك أنور السادات دخلاً مالياً منتظماً. لقد كان من المستحيل أن نحدد أين تنتهي المصالح السعودية في هذه الترتيبات وأين تبدأ المصالح الأميركية.

الآن في ربيع ١٩٨٤ ترك كوغان فرقة الشرق الأدنى. وفي حديث وداعي مع بندر ارتجل مسألة الصعوبة التي كان يواجهها كايسي في الحصول على الأموال للكونترا. وتذكر كوغان المقالة التي نشرت في الواشنطن بوست في الشهر الفائت والتي جاء فيها أنّ العربية السعودية يمكن أن ترسل بعض المال للكونترا. سأل كوغان الأمير بندر: هل توافق على ما جاء في المقالة؟ وهل أنّ السفارة السعودية كانت مصدرها؟ قال الأمير: لا.

قال كوغان: يمكن أن تكون بالون اختبار. أحدهم هنا أو هناك كان يلمح إلى الاهتمام بالموضوع. كانت الكونترا تحتاج من ٢٠ إلى ٣٠ مليون دولار. إنّها حبوب فستق على حد قول كوغان.

قال بندر إنّه لم يسمع أي اقتراح وراء مقالة الواشنطن بوست، والتي بدا أنّها أتت من خارج الوكالة أو الإدارة. وفي الحقيقة جاء في المقالة أنّ كايسي كان يدرس الطلب من بلد آخر مثل العربية السعودية، أليس كذلك!

قال كوغان: إنّ وكالة المخابرات المركزية لم تكن تطلب. فهم بندر المغزى وقال إنّه سيسأل الرياض حول رغبتها في ذلك. وأضاف: «دعونا نتلقى جواباً رسمياً».

بعد أيام تلقى السفير بندر جواباً سلبياً من الرياض للأسباب التالية:

ـ إنّ السياسة الخارجية السعودية في أميركا الوسطى كانت تتناقض مع سياسة الولايات المتحدة، فالحكومة الساندينية في الأساس مؤيدة للعرب، بينما النظامان المدعومان من الولايات المتحدة في السلفادور وكوستاريكا متورطان في عمل دبلوماسي معادٍ للعرب وقد نقلا سفارتيهما في إسرائيل من تل أبيب إلى القدس.

ـ السعوديون لا يثقون بإدارة ريغان لجهة حفظ الأسرار. إنّ أي دعم خفي سعودي للكونترا سيتسرب ويربك الجميع.

قال بندر لوكالة المخابرات المركزية إنّه لا يمكنه القيام بما يطلبون. ولكن اتفقت الوكالة وبندر أنّ كل هذا كان من قبيل الاستطلاع وغير رسمي، وأنّ الوكالة لم تطلب شيئاً من السعودية وأنّ السعودية لم تقل لا.

لقد وضعت الأسباب اللازمة للإنكار والتجاهل فيها بعد. كان بندر قد أمضى أوقات

عديدة مع مكفرلين وكانا قد سافرا معاً في مهمات سرية إلى الشرق الأوسط. وكانا يلتقيان كل بضعة أشهر لمراجعة مناطق الاهتمام المشترك. استنتج بندر أنَّ مكفرلين كان يشعر بالعقدة الدونية كمستشار لشؤون الأمن القومي وهو الذي كان يعمل في ظل كيسنجر، ويعاني الآن من المقارنات غير الودية التي لا نهاية لها. ولكنه كان رجل الرئيس ويتمتع بولاء شديد كضابط سابق في البحرية وهو حامي ريغان وأوثق قناة حقيقية إلى الرئيس.

ذات ليلة التقى الاثنان في مقر إقامة بندر الشاسع في مكلاين فرجينيا. قال مكفرلين إنَّ الكونترا في ورطة وإنَّ أموالهم قد نفدت، ونتيجة ذلك ستكون خسارة سياسية شديدة للرئيس. وهذا يعني أنَّ الولايات المتحدة ستتخلى عن أصدقائها في الهندوراس وكوستاريكا والسلفادور، ويمكن أن تتفكك أميركا اللاتينية.

وتعجب بندر من عدم استمرارية السياسة الخارجية الأميركية. لماذا يتورطون في التزامات مثل الكونترا عندما لا يستطيعون الاستمرار فيها؟

بينما كانا يتكلمان شعر مكفرلين بأنَّ بندر كان سيتطوع للمساعدة، وكان بندر يشعر بأنه أُغْوِي. ثمّ وضعا أيديهما على بعضهما البعض واتفقا على أنَّ السعودية ستساهم بـ٨ ـ ١٠ مليون دولار وذلك بمعدل مليون دولار واحد كل شهر. على أن يتم هذا بسرية بالغة وأن يكون من أسرار علاقات الأمم وقادتها التي تبقى خافية إلى الأبد مهما كانت الظروف.

كان بندر يعلم عن إمكانيات وكالة الأمن القومي في التقاط الرسائل الدبلوماسية لذلك أرسل رسالة إلى الملك فهد بن عبد العزيز بالبريد.

في ذلك الشهر كانت إيران تزيد من تهديداتها لأعمال نقل النفط في الخليج وطلب بندر مقابلة شولتز لذلك. سرعان ما أرسل الرئيس ريغان رسالة إلى الملك فهد بن عبد العزيز يؤكد دعم السعودية في أية مواجهة مع إيران. وطلب فهد وبندر بضع مئات من الصواريخ المتطورة المضادة للطائرات من طراز ستيغنر. لكنَّ الولايات المتحدة وضعت قيوداً على الصفقة. أرسل الملك فهد رسالة سرية من سبع صفحات إلى بندر مع توجيهات صارمة بأن ينقلها مباشرة إلى الرئيس ريغان في البيت الأبيض، قرأ ريغان الرسالة وقال: «نحن لا نضع شروطاً على أصدقائنا».

عندها استعمل الرئيس أسلوب الطوارئ بتجاهل الكونغرس حول صفقة السلاح وخلال عطلة عيد اليوم التذكاري تمّ نقل ٤٠٠ صاروخ ستيغنر جواً وبطريقة سرية إلى السعودية.

عندها سافر بندر إلى السعودية وبعد موافقة الملك أحضر شيكاً حكومياً سعودياً بقيمة ثمانية ملايين دولار كدعم خفي للكونترا. أعطى مفكرلين رقم الحساب المصرفي للكونترا لمساعده المقدم أوليفر نورث وكان الرقم ٤٨ ـ ٥٤١ في البنك الدولي ب.أ.س في جزر كايمان. في يوم الجمعة ٢٢ حزيران/يونيه التقى مكفرلين وبندر في البيت الأبيض وسلم

مكفرلين السفير السعودي بطاقة مطبوعة فيها رقم الحساب وذلك لضمان السرية. قال بندر إنَّه سيذهب شخصياً إلى جنيف في سويسرا حيث يملك بيتاً ليجري عملية تحويل الأموال بواسطة مصرف سويسري. واتفقا على أن يرسل بندر كلمته بينما يكون المال في طريقه. وإذا كان عليهما أن يذكرا العملية على الهاتف اتفقا على شيفرة، وذلك بأن يقولا تسليم السجائر بدلاً من تسليم المال. وصل بندر إلى جنيف في ٢٧ حزيران/يونيه واتّصل بالبنك السويسري وطلب حضور أحد مسؤولي البنك إلى منزله حيث سلمه الشيك السعودي بقيمة ٨ ملايين دولار وأعطاه رقم الحساب في كايمان وأبلغه أنّه يريد صرف مليون دولار كل شهر. وطلب إيداع مبلغ الـ٨ ملايين دولار في الحساب العام للبنك وأن يحول من خلاله بحيث لا يمكن ملاحقة مصدره.

قلق مكفرلين من التأخير واتّصل ببندر وقال: «صديقي لم يحصل على السجائر وإنَّه يدخن كثيراً».

استغرق البنك السويسري أكثر من أسبوع قبل أن يُحصِّل الشيك السعودي، وتمّ تحويل أول مليون دولار في ٦ تموز/يوليو.

أرسل مكفرلين بطاقة إلى الرئيس يعلمه فيها أنَّ السعوديين بدأوا تمويل الكونترا بطريقة سرية. عبّر الرئيس عن تقديره العميق ودفع السعوديون خلال الأشهر الثمانية مبلغ ٨ ملايين دولار للكونترا، كانت في الحقيقة عاملاً حاسماً لبقائهم.

بعد مناقشات ومداولات بين نورث وكايسي وكلاريدج حول الاحتياجات اللوجستية والعملانية للكونترا، أرسل نورث مذكرة سرية إلى مكفرلين يطلب منها الإذن بالذهاب إلى أميركا الوسطى. وقع مكفرلين بأحرف اسمه الأولى على الموافقة على سفره وكتب: عليك أن تقوم بتسلل كامل. لا تعقد اجتماعات منظورة، ولا تعلم الصحافيين بوجودك في المنطقة.

كان لكايسي مصالح مشتركة مع إسرائيل. لقد سمح للإسرائيليين بالإطلاع على صور الأقمار الاصطناعية الاستطلاعية وزاد لهم التسهيلات في هذا المجال. وكانت إسرائيل مسرورة جداً. كانت وكالات استخباراتها بصدد تسديد الجميل وأعلنت سفارة إسرائيل في واشنطن أنَّ الاهتمام بتغطية أنباء نيكاراغوا في الأوساط الصحافية الأميركية يزيد عن الاهتمام بالاتحاد السوفياتي.

أنكرت إسرائيل رسمياً دعم الكونترا. ولكنَّ التقارير أفادت بذلك ومن المعروف أنَّ إسرائيل هي أكثر دولة في العالم تخفي أسرارها واستخباراتها. كانت إسرائيل ترغب في تقديم بضعة ملايين من الدولارات على شكل أسلحة أو مبالغ مالية إلى الكونترا لتحصل على رصيد في الكونغرس، إلاَّ أنَّ ذلك كان ينقصه الدليل على أنَّهم كانوا فعلاً يقومون بشيء ما.

بينما كنتُ(*) أقوم بجولة، التقيت بمصدر إسرائيلي حسن الاطلاع وسألته عن تمويل

(*) المؤلف

الكونترا. قال: «نعم إنَّه يحدث. إنها فرصة ذهبية ونظيفة ورخيصة». وأضاف: إنَّ الولايات المتحدة ستجد وسيلة لإعادة المال لإسرائيل عبر المساعدات السنوية العسكرية والاقتصادية التي تبلغ ٢،٥ مليار دولار. وإذا كان ثمة مشكلة تقنية في الكونغرس فهناك أشكال عديدة لإعادة المال. وذكر المصدر «هدية كايسي»، ولم تكن هذه مجرد صور الأقمار الاصطناعية ولكنَّ مجموعة من معلومات الاستخبارات. لم تكن إسرائيل تتلقى باستمرار معلومات القمر الاصطناعي المتطور ك هـ ١١. ولم يُلَبَّ طلبُ إسرائيل بتخصيص فترة من الزمن لها على الأقمار الاصطناعية!

أضاف المصدر: لم يكن لدى الولايات المتحدة حس استعلامي كذلك الموجود لدى إسرائيل التي يحيط بها الأعداء من كل جانب. بالنسبة إلى إسرائيل كانت المشاركة في معلومات الاستخبارات أهم من الدبلوماسية العادية أي من الطريق بين وزارة الخارجية الإسرائيلية ووزارة الخارجية الأميركية.

يجب إخفاء جميع المساعدات المقدمة إلى الكونترا. إنَّ أي نجاح كبير جداً ومنظور كان خطراً. إنَّ الوكالة وكايسي لا يدركان خطر التعرض والانكشاف. إنَّ هناك أشياء غير معلنة تحدث بين دولتين وتبقى بعيدة عن الأنظار. إنَّها لن تتحمل الكشف. لكنها كانت صحيحة، ولم يكن المصدر الإسرائيلي يعرف التفاصيل.

ـ إذن، كيف تستطيع أن تقول إنَّ ذلك صحيح؟

قال: إنَّ هناك حقائق لا تحتاج إلى تفاصيل: مثلاً إسرائيل تبيع الأسلحة إلى الهندوراس وهي الدولة التي يعمل منها الكونترا. والجواب يمكن أن يكون هناك.

ـ هل هو هناك؟

قال: أشك في ذلك لأنَّ الجواب سيكون متنقلاً.

اتَّصلت بكايسي فردّ علي بسرعة وقلت له أني علمت من مصدر موثوق عن الطريقة التي استعملتها الوكالة للحصول على المال السعودي للكونترا.

قال: «غير مسموح إطلاقاً نشره».

ـ ماذا عن الإسرائيليين؟

قال: «محادثات مكثفة ولكن لم يكن ذلك رسمياً.»

ـ ماذا عن الجنرال الإسرائيلي ساغي الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية وتلك الصور للأقمار الاصطناعية؟

قال: «إنه جيد أعرفه جيداً».

ـ الصور؟

قال: «هذه العلاقات... لا أريد التكلم عنها».

ـ من أين كان الكونترا يحصلون على المال؟ في الشهر الفائت كان هناك يأس واضح أما الآن فهناك ثقة زائدة.

قال: لم نيأس. الكونترا لا يريدون أن يتركوا.
- هذا ليس بديلاً عن المال.
قال: «هناك استعطاء واستجداء للمال».
- كيف؟ وممن؟
قال: «أليس مفروضاً علينا أن نعرف» ولم يضف شيئاً على ذلك.
- هل يمكن أن يتحسن وضعهم دون أن ينكشف ذلك؟ لقد كان الجميع يائسين في الشهر الماضي.
قال: «إنَّه من المغالاة أن تستعمل كلمة يأس».
- كيف تقول ذلك؟ لقد حددت الوكالة يوم الأحد موعداً لانتهاء المال.
قال: «الطبيعة الإنسانية» ثمّ عرض نظرية حول الأزمة. عندما تكون هناك مشكلة أو أخبار سيئة يقوم البعض بردة فعل وغالباً ما تكون كبيرة. وبعد وقت يركزون على البحث عن حلول. ثمّ يهدأون ويتعاملون مع المشكلة على أنَّها تغيير في الوضع النفساني دون أية مؤثرات خارجية. وبدا كايسي وكأنَّه يطبق ذلك على نفسه وعلى الكونترا.

- هل ستحصل على المال من الكونغرس، أي على مبلغ ٢١ مليون دولار؟
قال إنَّه يأمل بذلك ويثق بالكونغرس وأضاف: «الديموقراطيون لا يريدون أن يتحملوا المسؤولية». ثم قال: «إنَّه عامل نفسي أثناء لعبة شطرنج». قال كايسي إنَّ هذا العامل هو الخوف السياسي. أمس حاول الديموقراطيون إجراء تسوية وهي «نفقة بكفالة» وهي نوع من دفع بضعة ملايين من الدولارات مقابل انسحاب بشري منظم وإعادة الكونترا إلى مدنهم وقراهم. لم توافق الإدارة ولا الوكالة على هذا المشروع. أعاد كايسي تحذيره حول هجوم الخريف الذي يعد له الثوار في السلفادور والذي يمكن أن يكون قوياً جداً.
في صباح اليوم التالي ١٩ أيار/مايو ظهر على الصفحة الأولى لصحيفة واشنطن بوست مقال بعنوان: «وكالة المخابرات المركزية تسعى إلى مساعدة للكونترا من دولة ثالثة». كانت صيغة المقال بسيطة إلاَّ أنَّها زادت من احتمال أن يكون السعوديون أو الإسرائيليون هم الذين يقدمون مساعدات للكونترا. تضمن المقطع الثالث نفياً قاطعاً من مسؤول إسرائيلي رفيع المستوى قائلاً: «لم نعطِ أي شيء للكونترا بعلمنا أو بغير علمنا ونحن لسنا وكلاء للولايات المتحدة».

اتّصل بي المصدر الرسمي الذي كان قد تحدث معي. لقد كان مسروراً ومبتهجاً. كانت المقالة جيدة. لقد كانت ممتازة بالنسبة إلى الإسرائيليين إذ ظهر أنَّهم أكدوا تلك المساعدة لمؤيدي الكونترا وأنكروها في نفس الوقت لمعارضي الكونترا في الكونغرس والإدارة. اتّصل بي المتحدث باسم وكالة المخابرات المركزية جورج لودر. لقد كان مسروراً ولكنَّه كان يريد تمرير شيء عن القضية بطريقة ودية. قال «إنَّها كانت خطأ ولم نقم بذلك، لم نتوسل

الوكالة لا إلى السعوديين ولا إلى الإسرائيليين، لا بطريقة رسمية ولا بطريقة غير رسمية». وأضاف أنَّه ليس من عادة الوكالة أن تصدر بياناً. وهكذا أراد لودر أن يمرر حقيقة أنَّه لا يعلم.

لم أفاجأ بأنَّ لودر لا يعلم ما كان يفعل كايسي وكوغان، ولم أذكر له أني تكلمت مع كايسي بل قلت له إنني متأكد من مصادري.

قال إنَّه لا يمكن حصول ذلك، وقد تحقق جيداً وتكلم مع الجميع، وتكلم نحو الأعلى ومن ضمنهم «الرجل الكبير».

قلت: من؟

قال: «جون مكماهون» وهو يعطي انطباعاً بأنَّ لمكماهون السلطة العليا.

ـ هل تكلمت مع أحد آخر؟

قال: لماذا علينا أن نتحقق أكثر؟

حاولت أنَّ أبعد ذلك عن كايسي بسرعة لكني تأخرت.

قال لودر وهو يلتقط نفسه: آه.. حسناً، وأدركت من خلال صمته أنَّه يقول إنَّ له مدير مخابرات!

وهكذا لم يكن كايسي يدير عملية الكونترا من خارج مكتبه فقط، بل كان يدير أيضاً مكتبه للعلاقات العامة، ولم يكن يخبر مكماهون بما كان ينوي أن يفعله.

بعد عدة أيام وفي ٢٤ أيار/مايو استقبل كايسي الرئيس ريغان الذي حط من طائرة هلكوبتر خاصة في لانغلي. كان يوماً ربيعياً مشمساً. رافق كايسي ريغان إلى جمهرة من ٢٠٠٠ من العاملين في الوكالة الذين جلسوا على تلة مكشوفة مساحتها ٢١،٩ دونم.

حضر الرئيس حفلة افتتاح لإضافة ١٩٠ مليون دولار إلى القيادة وإنشاء ما سمي «جناح كايسي التذكاري». إن تقدم الوكالة وحاجتها إلى مزيد من الكومبيوترات وخازنات المعلومات تطلب تشييد بناء جديد من سبع طبقات.

قال ريغان لجمهور الحاضرين: «عملكم وعمل مديركم ومسؤوليكم الكبار كان مصدر وحي وإلهام للشعب الأميركي ولبقية شعوب العالم».

غضب كايسي من الضغط المتزايد من لجنة مجلس الشيوخ من أجل استلام كتاب رسمي حول عملية التلغيم في نيكاراغوا التي ما زالت تعامل على أنَّها خطيئة كبيرة. لقد كانت اللجنة تضغط من أجل اتفاق مع الوكالة، وبموجبه يتعيّن على مدير المخابرات المركزية أن يُعلم اللجنة مسبقاً عن أي نشاط في أي عملية سرية وحساسة، وعن أي شيء مصدّق من الرئيس. لقد ورد في الاتفاقية ما يلي:

ـ تأمين جميع المواد كتابة عند توقيع أية مذكرة رئاسية تتضمن تفاصيل المساعدة، وتفصيل الطبيعة الحقيقية وأهداف ومخاطر العملية الخفية.

ـ إفادة اللجنة عن النشاطات الجديدة لأي عملية خفية قيد التنفيذ عندما يكون هذا النشاط حساساً من الناحية السياسية، وما إذا كان لها نتائج عكسية إذا أعلن عنها، وما إذا كانت الفكرة العامة للعملية قد تغيرت أو ورطت أشخاصاً أميركيين أو صدقها مجلس الأمن القومي أو الرئيس.

ـ إعطاء تواريخ منتظمة حول العمليات قيد الإنجاز وإيجاز سنوي شامل حول جميع الأعمال الخفية.

ـ الإفادة عن أي موضوع يتعلق بنشاط الوكالة تكون اللجنة قد أظهرت اهتمامها به.

في ٦ حزيران/يونيه وقع غولدووتر وموينيهان الاتفاقية. وطلب كلاهما أن يعلما بما إذا كان كايسي قد وقعها أو لا في نفس النهار. توجه مستشار اللجنة غاري شاس الذي كان في السابق مستشاراً عاماً في الوكالة إلى لانغلي حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ليحصل على التوقيع. لقد قيل لشاس أن يحصل على التوقيع قبل أن يذهب إلى منزله

عندما وصل شاس إلى لانغلي توجه إلى عنصر الاستعلامات على المدخل واتّصل بكايسي طالباً الإذن بالدخول. لم يسمح له كايسي بالدخول وقال له: «أنا أقول لك بكامل قواي العقلية أن تذهب من هذه البناية إلى الجحيم»، أجابه شاس: «لا تضطرني أن أتّصل برئيس اللجنة أو نائبه لأطلعه على هذه النتيجة» وشرح له أنَّ هذه الوثيقة قد نوقشت على صعيد الأركان وأنَّ توقيعها هو عمل روتيني.

قال كايسي إنّه سيبحث الأمر مع أركانه ويمكن لشاس أن ينتظر في ردهة الاستعلامات. اتّصل شاس بلجنة الاستخبارات وقيل له أن ينتظر في مكانه.

في الطابق العلوي، كان كايسي غاضباً. الاتفاقية تسمح باختراق مكتبه. يمكنهم أن يستمعوا إلى هاتفه أو يكلفوا أحداً بأن يجلس في مكتبه وأن يسافر معه ويأخذ الملاحظات أو بأن يفتش في طاولة مكتبه وفي الأدراج والملفات!. لقد كان ذلك أبعد مما يقوم به البيت الأبيض. كانت اللجنة تغتصب العرش. تحقق كايسي أنَّ أركانه قد وافقوا. وإذا لم يستقبل شاس فإنّه سيطلق العنان لشياطين اللجنة.

اتّصل كايسي بردهة الاستعلامات وأبلغ شاس أن يحضر بعد ساعة.

قال وهو يحدق بالاتفاقية: ما هذا؟

شرح شاس أنّها لا تتعدى على أي دور تنفيذي للرئيس وأنها لا تتجاوز المراقبة من السلطة التشريعية. وأضاف شاس إنَّ رئيس اللجنة ونائبه يفضلان توقيعها لتوضيح هذه الأمور. بعد أكثر من ٢٠ دقيقة أخذ كايسي الوثيقة وخربش اسمه عليها بسرعة وسلمها لشاس.

بدلاً من أن يعود إلى منزله، عاد شاس إلى مكتب اللجنة حيث حيّاه عدد كبير من أركانها، ورفع الوثيقة عالياً.

- ١٨ -

أدرك كايسي أنَّ جورج شولتز وزير الخارجية هو الأكثر حضوراً في الإدراة بعد الرئيس ريغان. إنَّه الرجل المتعقل المعتدل والمفكر والبليغ. في ذلك الربيع راقبه كايسي وهو يتخذ موقفاً هاماً. في أحد اجتماعات البيت الأبيض قبض شولتز يديه على بعضهما البعض كأنَّه يصلّي واجتاز الباب ليبدأ البحث حول استعمال القوات الأميركية بشكل سري أو علني ضد الإرهاب. بعد فشل الدبلوماسية في لبنان حان وقت العمل. لقد طرد الإرهاب الولايات المتحدة من لبنان وهذه المشكلة لا يمكن حلها بالطرق الدبلوماسية. لقد أثارته المداولات حول موضوع الإرهاب ودفعته إلى رد فعل عنيف. إنَّ الإرهابيين لا يفهمون إلاَّ بلغة القوة والانتقام.

تسامح كايسي مع شولتز. كان لرجل الأعمال والاقتصاد جانب قاس وها هو يزداد قساوة. في اجتماع مجموعة تخطيط الأمن القومي توجه شولتز نحو الرئيس ريغان وقال بصوته العميق: «السيد الرئيس»، وأصغى الجميع، فأضاف: «إنَّ هيبتنا في الشرق الأوسط تعتمد على رصيدنا القوي، لذلك علينا أن نحسم أمرنا في السياسة الخارجية ونقوم بعمل ما ضد هؤلاء الجزارين الجدد».

بموجب المذكرة رقم ٣٠ التي وقعها ريغان عام ١٩٨٢ أرادت وزارة الخارجية اعتماد سياسة مضادة للإرهاب، وكان شولتز يريد لوزارة الدفاع ولوكالة المخابرات المركزية أن ينغمسا في المزيد. يجب أن يقوم أحد ما بهذا العمل القذر.

لقد حركت مبادرة وزير الخارجية سلسلة من مجموعات العمل والاجتماعات المنسقة في البيت الأبيض ومجلس الأمن القومي. وضع المقدم نورث مسودة وثيقة قرار للرئيس جاء فيها: «حان الأوان لنقتل هؤلاء الإرهابيين الأوغاد». دعت مسودة القرار إلى إنشاء فرق مدربة ومدعومة من قبل وكالة المخابرات المركزية مؤلفة من عناصر من جنسيات أجنبية مختلفة وذلك لضرب الإرهابيين الذين تعرضوا للأميركيين أو خططوا لهجمات ضدهم.

تلقى مكماهون نسخة عن مسودة نورث في مكتبه، وحاول الاتّصال بنورث فلم

يتمكن من العثور عليه إلاّ بعد منتصف الليل.

صرخ مكماهون: هل كان وجهك في الرمال في السبعينات؟ ألا تتقيد بأوامر ريغان التنفيذية التي تمنع التورط في أعمال الاغتيال؟ ماذا تحاول أن تعمل بالوكالة؟ ما الذي يوجب الهجوم العسكري؟ قال نورث: «نعم يا سيدي» وأقفل الخط. كلما بدأوا بالعمل كان مكماهون يقف في وجههم. قال نورث لأحد أصدقائه: «لقد فقد مكماهون أعصابه» ربما كان جيداً من قبل، لكنه الآن لا يحظى بأي تقدير من كايسي.

أراد كايسي عملاً يكون له صدى قوياً. عرض الموضوع على المستشار العام للوكالة سبوركين وكعادته طلب منه جواباً فورياً.

استنتج سبوركين أنَّ الأعمال المعادية لـلإرهاب يجب أن لا تتضمن الاغتيـال، وأنَّ الاغتيال السياسي قد منع بسبب المؤامرات القديمة ضد كاسترو. وكان لوكالة المخـابرات المركزية معطياتها الصحيحة. إذا وقع الرئيس مذكرة رسمية وأُعلمت لجان المراقبة المختصة في الكـونغرس بهـا، لن يكون هنـاك مشكلة. وقال إنَّـه إذا أوردت معلومات تفيـد بأنَّ الإرهابيين على وشك أن يضربوا فإنَّ حق الدفاع عن النفس يصبح واضحاً أمام الجميع. لم يكن كايسي ناجحاً في علاقته مع وزارة الدفاع. ولم يكن وينبرغر مرتاحاً لاستعمال السفن الحربية لمقاتلة المواطنين كما حصل في لبنان ولم توافق وزارة الدفاع على خطط وكالة المخابرات المركزية للانتقام من هجمات الإرهابيين. كانت تحبذ تقديم المساعدة الجزئية على أن تتولى وكالة المخابرات المركزية العمل القذر وتتحمل وحدها مسؤولية الفشل. ولكنَّ موقف وزارة الدفاع كان بيروقراطياً إذ كانت تنافس وكالة المخابرات المركزية في أعمال التدريب والأعمال شبه العسكرية.

أدرك مكفرلين أنَّه عندما لا يكون هناك إجماع بين مساعدي الرئيس فإنَّه لن يحصل إلاَّ القليل. واقترح إجراء دراسة. وفي ٣ نيسان/أبريل وقع الرئيس ريغان المذكرة السرية رقم ١٣٨ حول مكافحة الإرهاب التي كانت أكثر بقليل من وثيقة تخطيط تدعو ٢٦ وزارة ووكالة فدرالية إلى تقديم اقتراحاتها حول كيفية وقف الإرهاب. كما أنَّها أجازت مبدئياً درس إمكانيّة الهجمات العسكرية والغارات الانتقامية.

في تلك الليلة وفي خطاب ألقاه في حفلة عشاء في واشنطن دعا شولتز إلى دفاع فعّال واقترح اعتماد سياسة هجومية. وتحدث طويلاً وكانت لهجته اتهامية. وأمضى القسم الأكبر من الشهر اللاحق في إلقاء خطابات حول هذا الموضوع.

كـان كايسي ينـظر إلى المشكلة من زاوية أخـرى. إنَّ الإرهاب الـذي يمارسـه غير اللبنانيين في لبنان كان في الظل ومن الصعب تحديده وضربه. لقد كانت لديه قناعة ذاتية بأنَّ إيران وسوريا كانتا وراء قسم كبير منه ولم يكن لديه أي دليل يطلبه من القانون الأميركي أو يطالب به الرأي العام.

في آذار /مارس أظهرت التقاطات الاتّصالات وصور الأقمار الاصطناعية وتقارير بعض المصادر البشرية أنَّ ليبيا كانت تتدخل في السودان. أرسلت ليبيا طائرة مقاتلة سوفياتية الصنع من طراز ت.ب ٢٢ لقصف محطة إذاعة خارج العاصمة السودانية الخرطوم. كانت المعلومات واضحة جداً لدرجة أنَّ شولتز كان قادراً على التصريح علناً بلهجته العنيدة المحترفة ونظرته العابسة.

«إنها حقيقة»، إنَّ ليبيا قد نفذت الغارة. وما لم يكشف عنه شولتز هو أنَّ الطيار الليبي قد اعتقل واعترف بأنَّ هذه الغارة هي تجربة لغارات قد تشن قريباً على القاهرة.

أظهرت الاستخبارات أيضاً أنَّ ليبيا قد وقعت اتفاقية مع اليونان للتعاون البحري، وبما أنَّ اليونان عضو في حلف شمال الأطلسي فإنَّ هذه الاتفاقية تهدد الأسرار في أهم تحالف غربي. وفي داخل الولايات المتحدة كان مكتب التحقيق الفدرالي قد جمع أدلة قاطعة على أنَّ جمعيةً للطلاب الليبيين في إحدى ضواحي واشنطن كانت متورطة في أعمال إرهابية وأعمال تجسس. كان هناك اقتراح بإبعاد اللجنة الشعبية للطلاب الليبيين من الولايات المتحدة. لكنَّ مكتب التحقيق الفدرالي رأى أنَّ هذه اللجنة أمنت نافذة على النشاطات الليبية في البلاد. كان هناك قلق من أن تكون مؤتمرات الحزب الجمهوري والحزب الديموقراطي القادمة والألعاب الأولمبية في لوس أنجلوس في الصيف أهدافاً للأعمال الإرهابية.

كان القذافي مكروهاً من جيرانه لدرجة أنَّ السودان ومصر والعراق كانت تدعم بشكل سري المعارضة الليبية.

جاء في «يومية الاستخبارات القومية»: «أظهرت صور الأقمار الاصطناعية نشاطاً عادياً يوم الجمعة حول مقر القذافي». لقد أدى هجوم ٨ أيار/مايو إلى زيادة فرص المعارضة الليبية. وكانت مجموعة العمل المختصة بحوادث الإرهاب التابعة لمجلس الأمن القومي والتي تتألف من مسؤولين على مستوى متوسط في الوزارات الهامة والوكالات قد وضعت في حالة إنذار بشأن وضع القذافي. شجع كايسي شولتز لتولي القيادة لأنَّ الإدارة لن تقدم على عمل دون دعم وزارة الخارجية. أطلق نائب شولتز كينيث دام مبادرة لإعادة النظر في السياسة تجاه ليبيا.

في ١٨ أيار تلقى دام من قسم الاستخبارات في وزارة الخارجية تقريراً سرياً بعنوان «مواجهة الإرهاب الليبي» وضع معظم الخيوط داخل الإدارة: الرغبة في القيام بعمل مضاد للإرهاب، والشعور المعادي للقذافي، والاستخبارات الجيدة.

لقد وضعت الاختيارات في الصفحتين ٦ و٧ وتدرجت من عدم القيام بأي عمل إلى أكثر اختيار إيجابي وهو الرقم ٨، وهو: «إنشاء نظام من رد الفعل المباشر على الإرهاب الليبي وذلك بالبحث عن أهداف ليبية». ومن ثمّ الاختيار ٩: «شن عمليات خفية لإحباط وشل الخطط الليبية». وأخيراً الاختيار ١٠: «البحث في تغيير النظام الليبي».

في اليوم التالي السبت عقد دام اجتماعاً في مكتبه مع نخبة من كبار المسؤولين. ثمّ عرض أربعة اختيارات وكان الاختيار رقم ٤: «تدعيم السياسة الحالية باستخدام القوة. . . مثلاً إعادة تجربة الاختيارات العسكرية والخفية».

في ١٣ حزيران/يونيه تلقى بوب غايتس طلباً سرياً من هوغ مونتغمري رئيس قسم الاستخبارات في وزارة الخارجية: «بالإضافة إلى المراجعة السياسية التي يقوم بها دام فقد طلب أيضاً تقويماً من داخل الوكالة للتهديد الليبي ضد المصالح الأميركية». أعدت لائحة مؤقتة بمواضيع من أجل عرضها وشرحها. وكان على غايتس أن يوضح بدقة التهديد الذي يفرضه القذافي في جميع أنحاء العالم. هل كان القذافي رئيس الإرهابيين وبذلك يلزمه رد فعل من الولايات المتحدة؟ هل هو مزعج فقط ويجب مسامحته كما يقول الأوروبيون بشكل عام؟ طلبت وزارة الخارجية جواباً خلال ثلاثة أسابيع كما طلبت وزارة الخارجية من عناصرها التأكيد على حساسية الموضوع وسريته.

كان ضابط الأمن القومي لمنطقة الشرق الأدنى وجنوب آسيا قد قام بمراجعة سرية جداً يعرض فيها نواحي الضعف الليبية. أين كان القذافي ضعيفاً؟ كيف وأين تكون سياسة الولايات المتحدة ذات تأثير كبير؟ أسرع ممثلون لوكالة المخابرات المركزية ووكالة الاستخبارات الدفاعية ووكالة الأمن القومي بالعمل من أجل توضيح ذلك.

شكك ممثلو الاستخبارات في دقة المعلومات القليلة التي كانت تتوقع حدوث اضطرابات في ليبيا، وذلك في ردهم على صانعي السياسة في وزارة الخارجية. كانت ليبيا متعبة في العمل الدبلوماسي وكانت وزارة الخارجية تشك أكثر من وكالة المخابرات المركزية في تقارير المصادر والتقاط الاتّصالات.

وافق الجميع على أنَّ السياسة الحالية التي تعتمد فرض حظر تجاري على ليبيا كانت مضحكة وغير فعالة. ومع أنَّ الانسحاب المفاجئ لعمال النفط الأميركيين والبريطانيين قد سبب تراجعاً في إنتاج النفط الليبي بنسبة ٢٥ إلى ٥٠ ٪ في مدة قصيرة، فقد أظهرت بعض التقارير الاستخبارية أنَّ حملة القذافي المستمرة منذ خمس سنوات لزرع روح ثورية جديدة في ليبيا قد أعطت نتائج عكسية، وخلقت مناخاً ملائماً للإطاحة به. وقد حثه أفراد عائلته المقربين على التخلي عن سياسته التوليتارية وحذروه من أنَّ قبيلته وعائلته ستواجه الانعزال إن هو لم يعتدل في سياسته.

لقد كان حذر القذافي وتشكيكه من جوانب الضعف في نفسيته، مع أنَّ ذلك كان نوعاً من الوقاية. ورد في معلومات الاستخبارات أنَّ القذافي كان يرتدي دائماً سترة واقية من الرصاص وأنَّ وحدة من نخبة العسكريين المجهزين بشكل ممتاز ووحدة مضادة للانقلابات كانتا تحميان مركز قيادته في طرابلس حيث تقع معظم مراكز الاتّصالات ومحطة إذاعة المدينة.

أظهرت التقارير السرية والشيفرة الملتقطة وتقارير الاستخبارات أنَّ المعارضة الليبية في الخارج كانت تتلقى الدعم من ستة بلدان:

ـ مصر، التي كانت هاجس القذافي الشاغل.
ـ العراق، (جزئياً) كرد فعل على دعم القذافي لإيران في الحرب العراقية الإيرانية).
ـ المغرب، مع أنَّ العلاقات بينها وبين ليبيا كانت قد بدأت تتحسن.
ـ العربية السعودية، التي كان دعمها سرياً جداً.
ـ تونس، على الرغم من علاقة القذافي الوثيقة بأحد الوزراء الكبار.

لقد تضمنت اللائحة ثلاثة بلدان لها حدود مشتركة مع ليبيا.

لكنَّ مصر وإلى حد ما الجزائر كانتا مفتاح الضغط العسكري وسائر الضغوط على القذافي.

اتفق ممثلو الاستخبارات على تقويم لمصر والجزائر: «يمكن أن يكون للدولتين تحفظات جدية على التعاون مع الولايات المتحدة في نشاط خفي بهدف الإطاحة بالقذافي. هذه التحفظات تستند على عدم رغبة الولايات المتحدة وعدم قدرتها في الاشتراك بفعالية، وفي المحافظة على سرية هذه الأعمال».

استنتج ممثلو وكالة المخابرات المركزية ووكالة الاستخبارات الدفاعية ووكالة الأمن القومي أنَّ العسكريين الليبيين يتذمرون من الأوضاع القائمة. وتعليقاً على اعتراضات وزارة الخارجية كتبوا: «إنَّ بعض العمليات الداخلية الناجحة بالإضافة إلى بعض الضغوط الخارجية يمكن أن تشعل الشرارة ضد القذافي بواسطة العسكريين المستائين وربما كان لنائب القذافي الرائد عبد السلام جلود ولقائد القوات المسلحة ونائبه أقوى حافز لذلك».

كان التقويم يقول ذلك، في حين كانت وزارة الخارجية تعارض الاستنتاجات التي تدعم أي عمل خفي للإطاحة بالقذافي، ولكنَّ الآخرين تابعوا في الصفحة الخامسة وبحثوا في القيام بعمل قوي من قبل الولايات المتحدة:

«نحن نعتقد بأنَّه إذا دعمت المجموعات في الخارج بدرجة قوية يمكنها أن تبدأ في القريب العاجل حملة من أعمال العنف والتخريب التي يمكن أن تثير تحديات أخرى لسلطة القذافي. وإذا تضاعف نشاط المبعدين بالإضافة إلى عوامل أخرى (الإعلام المتزايده، تدهور ملحوظ في العلاقات مع الدول الأجنبية، ضغط اقتصادي قوي) فإنَّ العناصر المستاءة في الجيش يمكن أن تقدم على محاولة اغتيال أو أن تتعاون مع المبعدين ضد القذافي. وعلى أي حال نحن لا تحبذ ثورة عسكرية واسعة النطاق».

كانت هذه تقريباً دعوة لاغتيال القذافي على الرغم من الأمر التنفيذي الصادر عن الرئيس الذي يمنع التورط بصورة مباشرة أو غير مباشرة في دعم وتخطيط الاغتيال. يقول الأمر التنفيذي للرئيس ريغان رقم ١٢٣٣٣ عام ١٩٨١: «**منع الاغتيال** يمنع على أي موظف أو أي شخص يعمل لصالح الحكومة أن يعدّ أو يتآمر للاغتيال».

كان التقويم وثيقة تحريضية غير عادية تحث على عمل منسق وتحذر من الجهود الفاترة:

«تستنتج هذه الورقة أنّه لا يوجد أي عمل يقلل من التحريض على سقوط القذافي ويؤدي إلى تغيير ثابت وظاهر في السياسة الليبية. الاستنتاج الأساسي في هذه الورقة هو أنّ في ليبيا نواحي ضعف ظاهرة يمكن استغلالها بنجاح من خلال برنامج واسع النطاق بالاشتراك مع الدول المعنية ويشمل الأعمال السياسية والاقتصادية وشبه العسكرية. إنّ الأعمال شبه العسكرية أو الاقتصادية أو السياسية المتفردة لها تأثير قليل أو هي منعدمة التأثير». كانت دعوة لعمل خفي شامل. وقد عارض قسم الاستخبارات في وزارة الخارجية هذا الاستنتاج من أساسه. كتب مسؤول في وزارة الخارجية على الهامش في الصفحة الأولى وفي معارضة لاذعة: «ترتكز الورقة بشكل ثقيل جداً على إفادات غير ملموسة وجزئية وتفشل في إعطاء الوزن الكافي لشعبية القذافي الثابتة. إنّ قبضة القذافي الأمنية قوية لدرجة يصعب معها ظهور أية محاولة انقلابية.

انتهى التقويم الذي كان يتألف من ٢٩ صفحة طويلة، وصنّف على الشكل التالي:

سري جداً مع الكلمات المشفرة:

أمبرا Umbra (أي المعلومات من الاتّصالات التي حلت شيفرتها).

نوفورن Noforn (لا يمكن إطلاعها على الأجانب).

نو كونتراكت No contract (لا يمكن للمتعاقدين والعاملين بأوقات جزئية الإطلاع عليها).

بروبين Propin (تحتوي على معلومات تجارية).

أوركون Orcon (التوزيع محدود وجميع النسخ مرقمة).

صدرت الوثيقة في ١٨ حزيران/يونيه وأثارت جدلاً بين عدد من المسؤولين الحكوميين الذين كان لهم حق الإطلاع عليها. لقد حذف من التقويم اقتراح الولايات المتحدة حثّ العسكريين الليبيين على محاولات الاغتيال والدعوة إلى عمليات شبه عسكرية.

في ٤ تموز/يوليو أصدرت الوكالة ورقة أخرى سرية جداً حول ليبيا وكانت تتعلق بتقويم التهديد ونصت على أنّ القذافي كان يعمل بشكل مستمر ضد مصالح الولايات المتحدة ولكنّ القلق الوحيد كان حول ما ينوي القذافي أن يفعله في السودان.

جاء في هذه الورقة: «يحتمل أن تقدم ليبيا على تنفيذ عمل إرهابي في الولايات المتحدة. ونحن نعتقد بأنّ ليبيا يمكن أن تتعرض لضغوط قوية لشن عمليات ناجحة. ولليبيا بالتأكيد بعض العملاء ضمن حوالى ١٥٠٠ طالب ليبي في الولايات المتحدة ومن ضمنهم ٢٠٠ طالب متعصب ومؤيد للقذافي».

وفي موضوع التخوف من حصول القذافي على أسلحة نووية ذكر التقويم في الصفحة ١٣: «نحن نؤمن أنّه لا يمكن لليبيا إجراء تفجير نووي خلال السنين العشر القادمة».

بدأت مجموعة من وكالة المخابرات المركزية بوضع الإطار العام لخطة من أجل دعم

خفي للمبعدين الليبيين وعرضت كثيراً من البدائل السرية. كانت الحرب الكلامية بين الولايات المتحدة وليبيا تتخذ لهجات قاسية، وطرح بعض المسؤولين سؤالاً: ما سيكون الانطباع إذا لم نفعل أي شيء؟ كان الضغط شديداً وكان هناك الكثير من الكلام القاسي ولم يشأ أحد أن يبدو ضعيفاً. كانت الخيارات قد أعدت وعممت.

كان كايسي خارج المدينة، وعندما تلقى مكماهون الورقة فقد رباطة جأشه وقال: هذا جنون.

كان مكماهون يعرف شيئاً من تاريخ وكالة المخابرات المركزية المتعلق بليبيا. ففي السنوات التي تلت عام ١٩٦٩ أي عندما تسلم القذافي السلطة، نوقشت فكرة الإطاحة به وعارضت وزارة الخارجية أي محاولة وكسب الجولة. اتفق مدير المخابرات المركزية آنذاك هلمز ووزارة الخارجية على أنَّه لا مجال للقيام بذلك. وخلال عهد كارتر سأل تورنر ذات مرة مدير العمليات مكماهون: ما يمكن أن نفعله بالقذافي؟ فأجابه مكماهون: ليس كثيراً.

شعر مكماهون بأنَّ المجموعة التي نظمت الاختيار ليس لها اتّصال بمجموعات المبعدين الليبيين. كانوا مثل صبية الكشاف. اقترحت معلومات الاستخبارات أنَّهم لا يستطيعون إنزال زورق مطاط على الساحل الليبي. دعهم يطيحون بالحكومة وحدهم. دعهم يحتلون ليبيا ويحكموها وحدهم. كان القذافي قد اخترق حركة المبعدين وكان يلاحق كل خطوة يقوم بها الأعضاء وكاد أحد قادة الحركة أن يقتل.

كان مكماهون يعرف كيف يقضي على العملية الخفية بالأسئلة. طلب تفاصيل وهو يعرف أنَّ أحداً لا يعرفها.

هل تملك وكالة المخابرات المركزية اختراقات في ليبيا؟

كم عدد حراس القذافي؟ هل كانوا مخلصين له؟ ما هي فرص النجاح؟

كانت الأجوبة غامضة كما هو متوقع. قال مكماهون إنَّه إذا كانت هناك فرصة ٥٠ ٪ للنجاح يمكن المباشرة بتنفيذ العملية لكن لم تكن هناك حتى هذه النسبة. وأضاف: إذا لم يكن لدينا الأشخاص والأدوات للعملية فلماذا ندور حول أنفسنا. ثمّ سأل: ماذا عن منع الاغتيال؟ إنَّ هذه ليست عملية ضد نظام بل هي عملية ضد فرد. لم يكن هناك مجال لتحريك المبعدين لهذا العمل من جهة، وإبلاغهم من جهة ثانية أن اغتيال القذافي ممنوع.

عندما عاد كايسي أيد مكماهون في عدد من الأمور. لن يوافق حلفاء أميركا وخاصة في أوروبا وقد تخوف كايسي من هذا لأنَّ القذافي كان يكسب احترام الأوروبيين بدلاً من أن يخسره، وأبرز مثل على ذلك كان المعاهدة اليونانية الليبية. لا مجال لتنفيذ أي عملية دون دعم منسق من الحلفاء الأوروبيين. وإذا أقدمت الولايات المتحدة على تنفيذ العملية فإنَّ ذلك سيؤدي حتماً إلى عزلتها. ثمّ إنَّ هناك دعماً غير كاف من الإدراة الأميركية بحد ذاتها.

لم يكن كايسي في حالة تسمح له بمعركة أخرى، ذلك أنَّ عملية نيكاراغوا ما زالت تعاني من مشاكل مع الكونغرس.

كانت الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٨٤ ستجري بعد أشهر قليلة. ولم يكن هناك مجال لكايسي لأن يمشي في منحدر قاسٍ بالرغم من تأكده أنّه سيلقى تأييداً واسعاً من الشعب الأميركي ومن رونالد ريغان.

في ٢٢ حزيران/يونيه وجد كايسي رسالة سرية من وزير العدل وليم فرنش سميث في صندوقه الخاص. إنَّها مشكلة جديدة. تضمنت الرسالة ملخصاً عن تسرب تحقيق حساس لمكتب التحقيق الفدرالي وذلك منذ سنتين تقريباً. في ١٣ تموز/يوليو ١٩٨٢ التقطت وكالة الأمن القومي اتّصالات تجارية من مكتب شركة ميتسوبيشي في واشنطن إلى اليابان. ذكرت ميتسوبيشي تفاصيل معلومات حرفية عن «يومية الاستخبارات القومية» السرية جداً ليومي ٧ تموز/يوليو و٩ تموز/يوليو. وكانت تتعلق بتحركات القوات العسكرية الإيرانية والعراقية وتتحدث عن حشد ١٢٠ ألف إيراني مقابل ١٨٠ ألف عراقي في قطاع من جبهة القتال ـ كما تحدثت عن معلومات حساسة تفيد بأنَّ القيادة العراقية ستسقط قبل أن تبدأ محادثات السلام. قالت ميتسوبيشي إنَّ مصدر معلوماتها عضو غير محدد في وكالة استخبارات حكومية كان قد أعطاها لمؤسسة استشارية في واشنطن. كانت ميتسوبيشي قد تعاقدت مع هذه المؤسسة للعمل لصالحها. أما الالتقاط الثاني لوكالة الأمن القومي فكان اتّصالاً لشركة يابانية خارج واشنطن في ٢٩ تموز/يوليو تضمن مقتطفات كثيرة من يومية الاستخبارات القومية الصادرة قبل ثلاثة أيام. كان مدير وكالة الأمن القومي لنكولن فوير متلهفاً لمعرفة مصدر التسريب وطلب إجراء تحقيق.

ركز مكتب التحقيق الفدرالي انتباهه على شارلز واترمان أحد كبار محللي الوكالة وهو نائب رئيس مجلس الاستخبارات القومية، وهو رجل نحيل وأصلع وعصبي وضابط عمليات سابق وله خبرة عشرين عاماً في هذا المجال وكان مكلفاً بالتعامل مع مؤسسة واشنطن الاستشارية التي كانت تنشر مجلة إخبارية كل شهرين تتضمن معلومات هائلة عن الشرق الأوسط. في الحقيقة كان واترمان قد حصل على معلومات جيدة من هذه المؤسسة الاستشارية.

لم ينجح واترمان في عدد كبير من اختبارات كشف الكذب على آلة البوليغراف وذلك عام ١٩٨٣، وتذكر كايسي الحادثة ومأزقها الكبير. اقترح مكتب الأمن في وكالة المخابرات المركزية على واترمان أن يستقيل. كان واترمان متماسكاً وأنكر تسريب الأسرار، إلاَّ أنَّ كايسي كان يقول إنَّ كل عنصر من الوكالة كُلِّف بجمع المعلومات وإقامة العلاقات في المدينة كان يتكلم أكثر مما ينبغي. إنَّ بعض الأرقام حول قوة إيران والعراق لا تعني شيئاً، وهي نفايات نموذجية ليومية الاستخبارات القومية. وهكذا لم يأخذ كايسي بتوصية مكتب الأمن وأيّده في

ذلك مكماهون بل اكتفى بإعطاء واترمان إجازة لمدة أسبوعين دون راتب.

لكنَّ مكتب التحقيق الفدارلي لم يوقف تحقيقاته بل فتح التحقيق في القضية واعتبرها قضية تجسس جنائية. أعطي واترمان إجازة مفتوحة مع دفع الراتب في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٣ وتابع مكتب التحقيق الفدرالي عمله.

بعد سبعة أشهر قال وزير العدل سميث إنَّ وزارته لن تستطيع الإدعاء على واترمان لأنَّ المحاكمة ستكشف عن مصادر حساسة وأساليب حساسة. وأضاف إنَّ التحقيق توصل إلى مرحلة تمكّن وكالة المخابرات المركزية من اتخاذ أي تدبير. إنَّ تدبير الطرد مع بلاغ حول الأسباب يؤدي إلى ردع الآخرين. وأخيراً طلب وزير العدل إعلامه عن الإجراء النهائي المتخذ.

صرخ كايسي: يا له من ملعون. لقد كتبت الرسالة وزارة الخارجية أو بيروقراطية مكتب التحقيق الفدرالي وكلاهما انحنى ليحمي مؤخرته. لم يستطيعوا العثور على مصدر التسرب لذلك يحاولون إجبار كايسي على أن يرمي واترمان إلى الخارج، وكأنَّ لهم الحق في ذلك. لقد وقّع سميث الرسالة دون أن يراها وعمم نسخاً عنها في سائر أنحاء المدينة في الوكالات والوزارات. . .

قال كايسي: «هذا الشيء الملعون لن يتسرب»، ولكنه أدرك أنَّ رسالة سميث تظهره متساهلاً أمام مسرّب رئيسي. استدعى كايسي سبوركين وعرض عليه الرسالة وتقرير وزارة العدل حول التحقيق. آمن سبوركين بأنَّ واترمان كان بريئاً. لقد انكر واترمان التسريب، وذلك بعدما أقسم اليمين، كما أنَّ مفكراته لم تظهر أنَّ هناك اجتماعاً عُقد مع عناصر المجلة خلال أوقات التسْريب. كذلك انكر عناصر المجلة أن يكون واترمان هو المصدر. واسف سبوركين لواترمان عندما منح إجازة إدارية، وساعده في العثور على محامٍ. قبل ثلاثة أشهر كان سبوركين قد ذهب إلى المكتب الميداني لمكتب التحقيق الفدرالي في واشنطن ليحاول تقويم القضية إلاَّ أنَّ عناصر المكتب اعتقدوا بأنَّ سبوركين قد يعيق تحقيقهم.

لم يتفق سبوركين مع كايسي حول فعالية آلة كشف الكذب.

إذا قال العامل إنَّ الآلة تظهر خداعاً فإنَّه لا توجد أي طريقة لدحض هذا الإدعاء، مما يؤدي إلى إحراج شديد. لقد كانت رسالة وزير العدل دليلاً على ذلك. إنَّهم لم يدّعوا على واترمان لأنَّهم لا يملكون الدليل وليس لأنَّ المحاكمة تكشف مصادر أو أساليب.

أرادت وزارة العدل من كايسي أن يرفس مؤخرة أحد، وآلة كشف الكذب البوليغراف لم تكن أفضل من آلة التعذيب في القرون الوسطى أو من لولب تعذيب الأصابع. إنها كانت تسحق العقل بدلاً من أن تسحق الجسد.

شعر كايسي بأنَّه لا بدّ في هذا الجو من التسرب والتجسس من استعمال أي آلة حتى آلة البوليغراف، التي أعطت نتائج باهرة، وأخافت الناس. وأدّت إلى اعترافات وحذّرت

الوكالة من استخدام أشخاص غير صادقين في صفوفها. اتّصل كايسي بواترمان وطلب منه الحضور في اليوم التالي.

كان واترمان مسروراً وهو يقود سيارته آتياً إلى لانغلي معتقداً بأنَّ شيئاً ما سيحدث. كانت سبعة أشهر رهيبة من الانتظار وهي أسوأ فترات حياته، كان قد عمل في سراديب مخيفة للوكالة، ثم دار على محطات الشرق الأوسط ابتداء من عام ١٩٦٤. خدم في بيروت والقاهرة وعمان ثمّ عاد إلى بيروت وكان أخيراً رئيس محطة الوكالة في العربية السعودية. لقد استعمل آلة كشف الكذب وتعرض لها من قبل. قال له عامل الآلة وهو من عناصر مكتب التحقيق الفدرالي: أنت في مشكلة كبيرة. وكانت النتيجة على البوليغراف قياساً لاضطرابه الداخلي. لقد تحدث مع بعض عناصر المجلة حول الحرب العراقية الإيرانية ولكنَّ الحديث تناول المعلومات المتوفرة في وسائل الإعلام. شك واترمان في أن يكون مكماهون يعتقد بأنَّه سرب شيئاً ما وشعر بأنَّ له فرصة مع كايسي.

عندما وصل واترمان إلى مكتب كايسي في الطابق السابع كان سعيداً عندما رأى مدير المخابرات المركزية وحده. شرح كايسي رسالة وزير العدل وسلم واترمان نسخة عن تقرير وزارة العدل.

ـ «هذا غير صحيح» قال واترمان بانفعال.. كانت البراءة بادية في عينيه.

سأل كايسي: «ماذا بإمكاننا أن نفعل»؟

قال واترمان: «لن يستطيع المحللون الذين يعملون في العلن أن يستمروا في علاقاتهم مع العالم الخارجي إذا أنهيت خدماتي».

قال كايسي: «يداي مكبلتان».

قال واترمان: «لم أفعلها» وحدق مباشرة في عيني المدير.

قال كايسي إنَّه يصدقه ولكنَّ هناك ثلاثة أسباب: لم تعد تنفع للعمل في المدينة. وأنت الآن موضوع في صندوق مقفل لأنَّ مكتب التحقيق الفدرالي استنتج أنك قمت بذلك. وإذا تسرب شيء آخر سأتلقى التهم في أني أمالئ المسربين.

قال واترمان: «إنَّ كل ما قام به مكتب التحقيق الفدرالي هو أنه برهن على أنَّ آلة كشف الكذب كانت دقيقة. لم يكن هناك تحقيق. هناك شخص آخر سرب وهو لم يكتشف حتى الآن».

قال كايسي: «سأفكر ملياً قبل اتخاذ قرار».

كان كايسي في حالة تردد. لا يريد أن يخالف مبدأه في ركوب المخاطر. وعندما يكون رجاله في الخارج يجمعون المعلومات عليهم أن يعتمدوا مبدأ: أعطني شيئاً وخذ شيئاً. إنَّها الطريقة التي كان يتعامل بها الناس. إذا كانت الطريق باتجاه واحد لن يحصل الاجتماع بين واترمان ورجال المجلة. إنَّ شخصاً مثل واترمان يعرف الحدود جيداً ولا يتجاوزها. كان عليه أن يدعم رجاله إذا ارتكبوا أخطاء. وإذا لم يفعل فإنَّهم حتماً سيتوقفون ويتراجعون إلى قوقعتهم

كما حصل في الإدارة السابقة. عام ١٩٧٧ طرد تورنر اثنين من رجال وكالة المخابرات المركزية لأنهما اتّصلا بأحد المطرودين من الوكالة العامل السابق أدوين ويلسون. وعلم كايسي أنَّ تورنر دفع ثمناً باهظاً لذلك من معنويات الوكالة.

شعر كايسي بأنَّه لا يجوز طرد رجال وكالة المخابرات المركزية إلاَّ بسبب ارتكابهم أخطاء متعمدة وكبيرة، وهذا ما لم يحدث. تلك الليلة تناقش كايسي مع نفسه. إنَّه أصعب قرار يواجهه خلال السنوات الأربع. لقد كان واترمان تجسيداً للتصميم الذي يحتاج إليه كايسي إضافة إلى أنه أتقن عمله وكرس نفسه له.

في اليوم التالي اتّصل كايسي بواترمان وطلب منه الاجتماع به في مكتب البناية التنفيذية. وصل واترمان وبدا متضايقاً. قال كايسي: لقد فكرت، وفكرت، ولم أصل إلى نتيجة، آسف.. لا أستطيع أن أفعل أي شيء.

بدا التأثر على واترمان للحظة وقال: نعم سيدي وسلم عليه وخرج. في طريقه إلى الخارج ذكر واترمان نفسه أنَّهم جميعاً قد خدموا المدير بكل سرور. وهذا يعني أنَّ عشرين عاماً في وكالة المخابرات المركزية قد انتهت. إنَّه يستطيع أن يتذكر أول اجتماع سري له في الكويت عام ١٩٦٤. أرسلوه إلى الخارج وأرسلوا معه حرارة الخوف والشك. وأعطوه توجيهات تقضي بأن يتعرف في وقت ومكان محددين على «عربي يبدو أنَّه يتراقص». ماذا يعني ذلك؟ لم يعرف ولكنَّه وجد طريقة للاتصال.

لم يشأ كايسي أن يترك واترمان في السنة الأولى لخدمته كمدير. أما في السنة الرابعة فقد شعر كايسي بأنَّه لا توجد أية فرصة أمامه. كان التسريب مشكلة كبيرة.

كان الجدل المحيط بعملية نيكاراغوا قد أثار الغموض في مديرية العمليات. وبرزت مخاوف من أن يتحول الكونغرس والأوساط الصحافية والرأي العام مرة أخرى ضد وكالة المخابرات المركزية. قرر كايسي أنَّه قد حان الوقت لتغيير مدير العمليات جون شتان. إنَّ منصب المفتش العام كان ملائماً أكثر لطبع شتان الذي كان ضابطاً صلباً كثير الحذر. وكان كلير جورج بحاجة إلى أن يتخلص من العمل في الكونغرس. وجورج مثل كايسي احترق في عملية التلغيم، لكنَّه وقف بصلابة. وأعجب كايسي بطريقته في الإمساك بالموضوع. إنَّه مخلص ولين ويأخذ ويعطي ويدرك تماماً تطفل الكونغرس.

كان الفرق هاماً برأي كايسي بين شتان الذي انخرط في الوكالة في الستينات وجورج الذي انخرط في الخمسينات. كان جورج يحب الحياة، وكان حكيماً في تفكيره، ولكنَّ غرائزه ولدت في الحرب الباردة: العمل الاستخباري الجريء، الرشوة، الخيانة، الاختراقات الإلكترونية جميعها كانت طبيعية بالنسبة إليه. كان حساساً وتفهم أنَّ العمل كان قذراً، وأفهم الجميع أنَّ عليهم أن يواجهوا تناقضات كثيرة في عملهم.

أعلن كايسي التغيير في نهاية حزيران/يونيه. كانت العمليات التي يجري تنفيذها متنوعة

وكان طلب الأموال والعناصر البشرية يتقدم بسهولة نحو الموافقة في بعض المناطق، لكنَّه كان يتوقف بالنسبة إلى مناطق أخرى.

في تموز/يوليو حصل عضو الكونغرس شارلي ويلسون على ٥٠ مليون دولار أخرى لعملية أفغانستان الخفية. وبذلك أصبح مجموع المبلغ ١٢٠ مليون دولار (بعد أن أضيف المبلغ المطلوب من وكالة المخابرات المركزية والمبلغ الذي كان قد حصل عليه في السابق) وكان هناك حديث عن مضاعفة المبلغ في العام القادم. وبعد أن زايد السعوديون في دعمهم للثوار الأفغان على الأميركيين، بلغت كمية المساعدات للثوار حوالى نصف مليار دولار. لقد كان هذا جيداً بالنسبة إلى كايسي، ولكنَّه استنتج أنَّه من غير المعقول أن نضع كل البيض الخفي في سلة واحدة!

كان هناك عمليتان هامتان لدعم خفي ليس بسبب كمية المال بل بسبب المبدأ. وتدبر كايسي أمر بقائهما سراً. الأولى كانت ٥ مليون دولار في الموازنة لدعم المقاومة الكمبودية وكانت خطته تقضي بزيادة الدعم إلى ١٢ مليون دولار في نهاية السنة، مع أنَّ هذا كان يعتبر دعماً غير مباشر للخمير الحمر. والثانية كانت دعماً محدوداً بحوالى نصف مليون دولار سنوياً للمعارضة الأثيوبية ضد النظام الماركسي والتي كانت تدعمها سراً المملكة العربيّة السعودية. هذه المعارضة لها ميل يساري أيضاً. وفي الحالتين كان كايسي يرغب في أن يرقص مع الشيطان! لقد كان ينظر إلى الحركات المضادة للشيوعية بعين واحدة: نيكاراغوا، أفغانستان، أثيوبيا، كمبوديا، كانت أرض المعركة. هذه هي العقيدة الريغانية. زاد كايسي الموازنة السرية للعمليات الإعلامية وأصبحت الآن حوالى ٢٤ عملية دعم مالي لمؤسسات صحافية في الخارج.

سبق لوكالة المخابرات المركزية ان نظمت حملة إعلامية لصالح الحلف الأطلسي في الخمسينات والستينات بنجاح تام. والآن تحاول إدارة ريغان الحصول على التأييد الشعبي من أجل تركيز صواريخ بيرشنغ ٢ في أوروبا الغربية. عام ١٩٨٣ رصد كايسي ملايين الدولارات لدعم صحف أوروبية من أجل القيام بحملة تأييد لنشر الصواريخ غير أنَّ لجنتي الاستخبارات في الكونغرس قطعت النفقة. عام ١٩٨٤ حاول كايسي مرة ثانية إقناع اللجان بأن تعطيه بضعة ملايين من الدولارات لهذه الأسباب. قال الديموقراطيون في الجلسات السرية إنَّ أعمالاً كهذه تعتبر تدخلاً في الشؤون الداخلية للدول الحليفة الأعضاء في حلف شمال الأطلسي. وكان نشر صواريخ بيرشنغ ٢ موضوع مناقشة صاخبة في بريطانيا وألمانيا الغربية وإيطاليا. وتسرب أي خبر يفيد بأنَّ وكالة المخابرات المركزية تقوم بالدعاية لحلفائها كان من شأنه أن يدمر العلاقات مع الحلفاء ويحبط جهود نشر الصواريخ. وكان هناك قلق من أن يكون هذا الإعلام تراجعاً خطيراً بالنسبة إلى الأوساط الصحافية الأميركية.

قال كايسي إنَّ بضعة الملايين كانت فقط للمحافظة على شبكة من الإعلاميين والكُتّاب. إلاَّ أنَّ لجان الكونغرس لم تتقبل ذلك. لم تكن بضعة الملايين هذه كافية لإنجاز العمل فلماذا

نبدأ به؟ عندها، شُطب المال من الموازنة وأبلغت وكالة المخابرات المركزية باستعمال موازنة «التعهد والصيانة» للمحافظة على بعض الكتاب الأوروبيين. مرة أخرى قيل لوكالة المخابرات المركزية أن تستعد ولكن أن لا تفعل شيئاً.

كانت اللجان تبحث في كومة من المستندات بسماكة ثلاثة أقدام والآخرون في الكونغرس ومنهم السناتور وليم بروكسماير من ولاية ويسكونين الذي كان يبحث دائماً عن النفايات، كانوا يبحثون عن عمليات للاستخبارات الأميركية.

في أحد منشآت الجيش الأميركي في ما وراء البحار التي كان قد سمح لفريق التفتيش السوڤياتي بدخولها، وكانت مجهزة بأحواض من المياه الساخنة للراحة خارج أوقات العمل. وقد وضعت استخبارات الجيش آلات استراق سمع معقدة ومجهزة بأجهزة إرشاد متطورة. هذا الثمن الغالي وضع في الموازنة العسكرية في بند تحسين الأحواض الساخنة. كانت هذه دعوة مفتوحة لجائزة بروكسماير الشهيرة (غولدن فليس) لإظهار الهدر في أموال دافعي الضرائب الأميركيين. تدخل رئيس استخبارات الجيش الجنرال وليم أودوم شارحاً أنَّه كان عليه جمع المعلومات عن بعض القضايا الدقيقة.

كانت وكالة المخابرات المركزية تملك شقفاً فخمة نيويورك. وكانت هدفاً لجائزة بروكسماير. اقترح أحدهم أنَّ الجائزة يمكن أن تشكل غطاء ممتازاً لأنَّ الحكومة لن تسمح بتعرض المعلومات الحساسة للانكشاف والإعلان عنها. وفي النهاية، منعت وكالة المخابرات المركزية محققي بروكسماير من التداول بموضوع شركة تمليك زائفة (هي التي تملك شقق وكالة المخابرات المركزية في مدينة نيويورك).

كان هناك قلق آخر لكايسي في ذلك الصيف. فقد انبثقت الكنيسة الكاثوليكية في نيكاراغوا كأكبر قوة تعارض الساندينيين. كان الأسقف العام ميغويل أوباندو برافو الذي كان على رأس تسعة أساقفة، ينظم الكنيسة ويحذر الكاثوليك من العقيدة الماركسية اللينينية. واتهمته الصحيفة الساندينية الرسمية لاباريكادا بأنَّه متورط في نشاط سياسي يهدف إلى الإطاحة بالحكومة النيكاراغوية. ووصفته أنَّه رفيق السلاح لسوموزا وأظهرت إحدى صور الكاريكاتور في الصحيفة أسقفاً يحني صليباً مسيحياً ليجعل منه صليباً معقوفاً نازياً.

ورد مال كثير مخصص للإعلام في أميركا الوسطى وذلك استناداً إلى مذكرة الإعلام العامة. قرر أحد ضباط العمليات تخصيص ٢٥ ألف دولار للكنيسة الكاثوليكية في نيكاراغوا تسلم بواسطة إحدى المؤسسات الأميركية الخاصة.

ظن السناتور مونيهان أنَّها مزحة وعندما تبين له أنَّ الأمر جدي، استدعى مسؤولاً كبيراً في وكالة المخابرات المركزية وجلس معه قرب المدفأة في مكتبه الخاص. قال مكماهون: لا تفعلها، ذلك الرجل ـ أي الأسقف العام ـ هو قوة معنوية ولا يمكن إغراؤه بالمال مهما كانت الظروف». وافق كايسي على ما قاله مونيهان وحذف مبلغ الـ٢٥ ألف دولار.

عندما كانت الاعتمادات المخصصة للإعلام تذهب إلى منظمات خاصة كانت الوكالة تفقد السيطرة عليها. لكنَّ مونيهان كان يريد ليس السيطرة فقط بل التحكم التام. كان يمكن لمبلغ الـ٢٥ ألف دولار أن يصبح نقطة سم. فهل هناك علاج؟ من كان يقوّم المخاطر؟ أين كانت الحدود الأخلاقية؟ كانت الشيء الذي يعزز صورة الأميركي البشع. هل هي مسألة قذف الأموال إلى الخارج فقط؟ هل زاد الكونغرس ميزانية الاستخبارات أكثر من اللازم؟ ألم يسأل أحد هذه الأسئلة؟

أجاب كايسي أنَّ الأسقف العام لن يعرف المصدر لأنَّ المبلغ كان سيدمج مع نفقات أخرى. ولكنَّ جهده الأساسي كان باتجاه أن يضمن عدم تسرب هذه القصة أبداً لأنَّه سيُساء فهمها حتماً، إذ يمكن أن تظهر أنَّ وكالة المخابرات المركزية كانت تحاول توصيل الأموال إلى الثوار عن طريق الكنيسة وذلك بعدما فشلت الوكالة في تمويل الكونترا.

بدأت القصة تتسرب وتتعمم. اتَّصل كايسي بصحيفة الواشنطن بوست وقال: إذا نشرت القصة فإنَّ الأسقف العام في نيكاراغوا سيموت. ولم تنشر القصة. كما ألغي مشروع لإرسال مساعدة مالية إلى نقابات التضامن في بولونيا تتراوح بين ٢٠ ألف و٣٠ ألف دولار بواسطة الكنيسة الكاثوليكية في بولونيا، وذلك بسبب خطره السياسي.

بينما بدأت حملة ١٩٨٤ الانتخابية الرئاسية، أخذ كايسي يقوم بنشاطاتٍ جانبية. لا يمكنه أن يحضر ندوات خلال الحملات الانتخابية حول القضايا الاستراتيجية واجتمع مع أدوارد رولينز وهو كاليفورني من الجناح اليميني الذي كان كبير منظمي حملة إعادة انتخاب ريغان واتفق معه على توقع الفوز.

كانت الحقائب الصغيرة الثلاث التي كان كايسي يأخذها معه إلى البيت في الليل تحتوي على رزمات من الصحف والمجلات والقصاصات. لقد تابع أعمال الأوساط الصحافية بعين محلل الاستخبارات. إنَّ بعض المعلومات العلنية المنشورة في الصحف والتي تسمى «الاستعلام المفتوح» يمكن أن تساعد كثيراً في المناورات الداخلية ضمن الإدارة.

في ٣٠ آب/أغسطس نشرت مقالة في الواشنطن تايمز تستحق الاهتمام بعنوان: «خمسة مرشحين لخلافة كايسي في وكالة المخابرات المركزية». فكر كايسي في هذا الهراء. كانت صحيفة الواشنطن تايمز تعمل من أجل واشنطن مُحافِظَة في ظل رئاسة ريغان. وكان معظم محرريها قد عملوا سابقاً في مجلس الأمن القومي. وكانت الأولى في نشر الأخبار والمؤامرات. قرأ كايسي بغضب، على أنَّه أبدى نيته في ترك العمل الحكومي. بعد الانتخابات سواء فاز ريغان أم لم يفز.

وفكر كايسي بجدية في أن يطلب من الرئيس إعفاءه، ولكنَّ جون مكماهون والآخرين ذهبوا إليه لإقناعه بأنَّه الوحيد الذي يستطيع المحافظة على الزخم في الوكالة ويضمن استمرار دعم الرئيس ويضمن تدفقاً مستمراً من الأموال والعلاقات الجيدة مع أجهزة الاستخبارات

الأجنبية. تأثر كايسي بعمق من مناشدتهم. لقد أقنعوه بأنَّه إذا كان هو ووكالة المخابرات المركزية قد أخذا حجماً كبيراً في الصحافة فلأنَّه قد أظهر بأسلوبه في إدارة الوكالة أنَّها لم تفقد نفوذها في الحكومة أو عند الرئيس. كان هذا النفوذ والرصيد حيويين لاستمرار عمل الوكالة. ووافق أخيراً على البقاء.

نُسبت المقالة إلى بعض كبار المسؤولين في الإدارة وإلى عناصر داخل البيت الأبيض، وكان أحد الكُتّاب من أركان مجلس الأمن القومي سابقاً وهو جيرميا أوليري. نصت المقالة على أنَّ البيت الأبيض بدأ ينظم لائحة بالعناصر المقترح تعيينهم بديلاً عن كايسي وكان على رأس اللائحة جيم باكر رئيس أركان البيت الأبيض.

كان الفك الأسفل لكايسي يتجه نزولاً في لحظات كهذه. بعد خمسة أيام لاحظ في باب «داخل واشنطن» في صحيفة نيويورك بوست مقالاً بعنوان: «مدير وكالة المخابرات المركزية كايسي يترك خنجره وقناعه». وجاء في المقالة إنَّ كايسي أعلم البيت الأبيض بأنَّه يريد العودة إلى حياته الخاصة. ومرة ثانية كان جيم باكر على رأس لائحة البديلين.

لقد أظهرت استطلاعات الرأي العام تفوق ريغان على المرشح الديموقراطي مونديل بحوالى عشر نقاط. وكان هذا الفرق يزداد. كان التجديد لريغان أمراً لا مفر منه. ما هذه اللعبة؟ إنَّ أي خروج لأحد كبار المسؤولين الحكوميين أو أركان البيت الأبيض قد يثير سلسلة من ردود الفعل. كان جورج شولتز هو المفتاح، وكان وينبرغر وجين كيركباتريك وجيم باكر وكايسي نفسه يرغبون في وزارة الخارجية. لكن بدا واضحاً أنَّ شولتز يخطط ليبقى، وهذا يعني أنَّ وينبرغر سيبقى في وزارة الدفاع. كانت وزارة الدفاع ووزارة الخارجية الوزارتين اللتين طمح إليهما كايسي. لقد أحبَّ وكالة المخابرات المركزية الآن أكثر من أي وقت مضى. للمرة الثانية يعتقد كايسي بأنَّ سياسة البيت الأبيض يمكن أن تلعب دوراً أقل في القرارات وخاصة القرارات المتعلقة بالسياسة الخارجية وعمليات وكالة المخابرات المركزية وسيميل ريغان إلى تنفيذ رغباته.

كانت مقالات الواشنطن تايمز والنيويورك بوست تحمل على محمل الجد في دوائر الإدارة. وكان كايسي يتلقى بعض الأسئلة وبعض السخرية.

سخر منه طوني موتلي في إحدى العشيات قائلاً:

ـ «وهكذا جيم باكر سيأخذ وظيفتك»

أجاب كايسي بحدة: «إنَّه آخر من يمكن أن يحصل على الوظيفة».

لقد اشترك مع وينبرغر وكلارك وكيركباتريك في وقف قرار نقل جيم باكر إلى منصب مستشار شؤون الأمن القومي العام الفائت. ولكن ماذا يفعل لمنعه من أن يكون مديراً للمخابرات المركزية؟ وإذا طلب منه أن يترك منصبه سيكون له حتماً كلمة في اختيار خلفه، ولكن ليس له ڤيتو على أحد. كان باكر حائزاً على ثقة ريغان ويمكن أن يكون قد انتزع

منه وعداً. علم كايسي أنَّ باكر أراد أن يحصل على خبرة في السياسة الخارجية، وكانت طموحاته لا حدود لها. كان يطمح مثلاً لأن يكون وزير خارجية في إدارة بوش في المستقبل! لم تكن وكالة المخابرات المركزية ملائمة لمشاريعه المستقبلية.

كانت طريقة عمل كايسي تتلخص بأنَّه يمكن ملاحقة التسْريبات لمعرفة مصدرها وذلك بالجواب عن الأسئلة: لمصلحة من؟ من كان يريد نشر القصة؟ الجواب في هذه الحالة أنَّ شخصاً ما كان يريد منصبه أو إخراجه من الوكالة. لم تنجح جهوده لمعرفة مصدر التسريب لذلك قرر أن يسأل الرئيس مباشرة وكان ذلك أسلوباً إيرلندياً فظاً.

كتب كايسي رسالة إلى ريغان يظهر فيها قلقه حول الأخبار التي قيل إنَّها تسربت من البيت الأبيض. وشرح أنَّه لم يطلب العودة إلى حياته الخاصة ولا يخطط لها إلاَّ إذا رغب الرئيس في ذلك. وقال إنَّه يرغب بكل سرور في الخدمة خلال مدة رئاسة ريغان الثانية. وما زال هناك عمل يجب القيام به في وكالات الاستخبارات، ووضع قصاصتين من ورق الصحف تضمنتا المقالين، وقال إنَّ قصاصاتٍ كهاتين تؤثر على معنويات الوكالة وتخلق جواً من عدم الثقة وتزعزع الاستقرار الذي تمّ تحقيقه. إنَّ حوالى أربع سنين من العمل يمكن أن تتأثر وتتراجع. يجب وقف هذه التقارير الخاطئة.

نظم كايسي رسالته بعناية ليضرب على وتر ريغان الحساس المعادي للصحافة وللتسريبات والمؤيد لوكالة المخابرات المركزية. وعلى الفور اتّصل ريغان هاتفياً وعبّر عن دعمه القوي: «طبعاً يا بيل أريد منك أن تبقى إذا كانت هناك فترة رئاسية ثانية. أنت رجلي في الوكالة طالما أنا في الرئاسة».

كان هذا السرد كافياً بالنسبة لكايسي. كان ذلك ضماناً لا بل عقداً موقعاً. وشعر كايسي بأنَّه يركض نحو جادة بنسلفانيا ويقبّل الرئيس. إنَّه ملعون. طالما أعجب بهذا الرجل. إنَّه كان معلماً في التدبير والإدارة. فتش عن الرجال. اختر رجالك وتعلق بهم.

- ١٩ -

في أيلول/سبتمبر كان كايسي يمضي معظم أوقاته في لانغلي مركزاً انتباهه على احتمال تنفيذ هجمات إرهابية في الأسابيع التي تسبق الانتخابات. استدعى ضباط العمليات والمحللين والآخرين الذين يتسكعون حول البناية ويحتشدون في الممرات ويندفعون إلى المكاتب وإلى مركز العمليات، وأوضح لهم أنَّ المجموعة الاستخبارية بكاملها كانت في حالة إنذار لاحتمال حصول أعمال إرهابية. تخوف من أن يوجه ملقو القنابل المجانين ضربة ثانية تظهر عجز الولايات المتحدة وتنعكس سياسياً عليها. كانت رئاسة ريغان قوية، وعدم القدرة على وقف هذه الهجمات من شأنه أن يكون من أكثر مظاهر الضعف في السنوات المقبلة.

منذ سبعة عشر شهراً وكايسي يزج بأشخاص هامين في المشكلة: التدريب وتبادل المعلومات وتطوير شبكة عمل يشترك فيها حوالى مائة بلد. في أربعين بلداً في سائر أنحاء العالم كان هناك تطور بارز في إمكانيات الوكالة في التدريب شبه العسكري وإنقاذ الرهائن وحماية الأشخاص الهامين. وكانت وكالة المخابرات المركزية قد انتهت حديثاً من تدريب ٦٠ لبنانياً. لقد عمل حوالى خمسين شخصاً في قيادة وكالة المخابرات المركزية في مجال الإرهاب وعمل العشرات أيضاً في وكالة الأمن القومي وسائر وكالات الاستخبارات العسكرية. طلب كايسي نتائج، وكان هناك بعض النجاح. حددت الاستخبارات أنَّ سفير إسبانيا في لبنان مُلاحق واقترحت عليه وكالة المخابرات المركزية أن يغادر لبنان. لم يفعل ذلك وخُطف فيما بعد.

أدى تركيز الانتباه على الإرهاب إلى ورود تقارير كثيرة وفيض من المعلومات معظمها مشكوك في صحته. على الصعيد العملاني لم تنجح وكالة المخابرات المركزية في اختراق مجموعات الإرهاب في الشرق الأوسط. استنتج كايسي أنَّ السبب كان بسيطاً. لقد علم الإرهابيون أنَّ عملاء وكالة المخابرات المركزية لا يستطيعون القتل لأنَّه محظور عليهم اغتيال الأشخاص. وكان المتقدم لعضوية مجموعة إرهابية يخضع لاختبار فوري: اذهب واقتل شخصاً ما.

وردت في بعض التقارير السرية معلومات تفيد بأنَّ المتفجرات والقنابل الموقوتة كانت تنقل بواسطة الإيرانيين العاملين خارج سفارتهم في دمشق بحماية الحصانة الدبلوماسية. في شهر آب/أغسطس أظهرت التقارير أنَّ المتفجرات التي نقلت إلى لبنان قد فقد أثرها. ومع رحيل مشاة البحرية الأميركية من لبنان بقي هدفان أميركيان للإرهاب هما مقر إقامة السفير الأميركي وقسم سفارة الولايات المتحدة الأميركية في قطاع بيروت الشرقي الآمن نسبياً. أصيبت وكالة المخابرات المركزية وبعض وكالات الاستخبارات الأخرى بالهوس والذهول من التقارير. كان هناك نكهة (ها نحن ثانية نعود) لكن التحذيرات لم تكن دقيقة.

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين من يوم الخميس في ٢٠ أيلول/سبتمبر اندفع باص صغير يضع لوحة دبلوماسية إلى داخل قسم السفارة الأميركية في بيروت الشرقية وترنح في طريقه واجتاز الحواجز المتعرجة من الإسمنت المسلح والتي هي بشكل سن التنين والمُعَدَّة للتخفيف من سرعة الآليات القادمة. وتصدى لها أحد الحراس المسلحين ببندقية م ١٦ وحرس السفير البريطاني الذي كان يزور السفارة. فتحوا النار وأصابوا الباص الصغير بخمس طلقات، وسرعان ما اتجه نحو سيارة متوقفة على بعد ثلاثين قدماً من مدخل كاراج السفارة، وانفجر تاركاً حفرة بقطر ٢٦ قدماً. قتل ٢٤ شخصاً على الأقل من ضمنهم موظفان أميركيان وجرح تسعون شخصاً من ضمنهم السفير الأميركي ريجينالد بارثولوميو الذي وقع تحت الركام ثمّ انتشل وتبين أنّه مصاب بجروح طفيفة.

كان كايسي مريضاً في ذلك الوقت وأظهرت صورة سرية جداً فيها بعد أنَّ الباص الصغير أو واحد مثله كان معداً للتدريب خارج نموذج طبيعي لمبنى السفارة الأميركية في وادي البقاع. استنتجت الاستخبارات الأميركية أنَّ حزب اللّه كان وراء هذا الهجوم تماماً كما كان وراء الهجمات التي نفذت ضد السفارة الأميركية ومبنى مقر قيادة مشاة البحرية. تبين لكايسي أنَّ أحداً في البيت الأبيض لا يفكر بعمل انتقامي قبل الانتخابات. لقد أوقفوا النار لعدة أشهر وبعد أكثر من هجوم خطر.

ورد تقرير مثير من ضابط برتبة مقدم في الاستخبارات اللبنانية أظهر التخطيط الدقيق للعملية. جاء في التقرير أن الباص غادر بيروت الغربية في نفس النهار ولحق به شخصان يرتديان لباساً عسكرياً لقوى الأمن اللبنانية في سيارة ب ام ف برتقالية. وفي الطريق إلى مبنى السفارة صدم الباص سيارة أوبل صغيرة. أحس السائق بالارتباك وبدا مضطرباً ولم ينظر لا إلى اليمين ولا إلى اليسار ولم يعر انتباهه لسائق الأوبل. في هذه اللحظة تقدم راكبا سيارة الـ ب ام إلى سائق الأوبل ودفعا له مبلغ ٢٠٠٠ ليرة لبنانية (أي حوالى ٣٠٠ دولار أميركي في ذلك الوقت) وهو مبلغ أكثر بكثير من كلفة تصليح سيارة الأوبل. أخذ السائق المال وترك مكان الحادث. أحد المواطنين اللبنانيين الذي شهد هذا الحادث سمع صوت الانفجار في السفارة الأميركية بعد حوالى عشر دقائق وتوجه على الفور إلى الاستخبارات اللبنانية وأفادها

بمعلوماته. لم يسْتطيعوا العثور على سائق الأوبل ولكنهم صدقوا رواية الشاهد. لم تستطع وكالة المخابرات المركزية التأكد ولكنَّ التقارير وضعت احتمال أن يكون سائق الباص قد أعطي مخدراً قبل عمليته الانتحارية.

طلبت الاستخبارات اللبنانية مبلغاً يزيد عن المليوني دولار التي تتقاضاها كل سنة لتدفع لعملائها، ووعد كايسي بذلك إذا استطاع الحصول على المال. كان اللبنانيون يعملون ما بوسعهم لتأمين معلومات عن الهجمات الإرهابية، كما أنَّ العلاقة بين وكالة المخابرات المركزية والاستخبارات اللبنانية كانت تزداد وثوقاً.

لم يكن كايسي واثقاً من الإسرائيليين. لقد كان يعلم أنَّهم اخترقوا لبنان وسوريا بعملاء من الدرجة الأولى وكان عنده شعور قوي بأنَّهم يمتنعون عن إعطاء المعلومات التي تهدد حياة الأميركيين. كانت العلاقة بين وكالة المخابرات المركزية والموساد الإسرائيلي قد ساءت بعد غزو إسرائيل للبنان وبعد أن سحبت الولايات المتحدة مشاة البحرية الأميركية من لبنان. لقد كان لبنان بمثابة كارثة للدولتين، وعقد علاقتهما الفشل المشترك. لقد عملت الوكالتان معاً دون أن تحب الواحدة منهما الأخرى. كان مسؤولو الموساد يستخفون بوكالة المخابرات المركزية وأحدهم سمى عملاءها باللاعبين الذين لا يستطيعون اللعب. كان بيتر ماندي وهو الرقم ٢ في الموساد مسؤولاً عن الارتباط مع وكالة المخابرات المركزية. لم يسمح لعملاء الموساد ولعملاء وكالة المخابرات المركزية في لبنان أن يتعاملوا مباشرة مع بعضهم. كان هناك شعور في وكالة المخابرات المركزية بأنَّ ماندي كان يعطي القليل من تقارير المصادر البشرية الهامة للموساد وبشكل شحيح، ولا تقوم بذلك إلاَّ خدمة للمصالح الإسرائيلية. كان التقويم في لانغلي يقول إنَّ المشاركة الاستخبارية بين إسرائيل ووكالة المخابرات المركزية كانت مثل طريق باتجاه واحد. كان على كايسي أن يضغط على الإسرائيليين وأن يدعهم يعرفون أنَّ هناك مشاكل. كان كايسي قادراً على أن يقوم بذلك شخصياً ولكن عليه أن يضغط ضغطاً شديداً جداً.

أخيراً قرر كايسي أن يوفد مكماهون إلى إسرائيل. وكان مكماهون قادراً على أن يقرأ للموساد فصل الاضطرابات: من الآن وصاعداً ستتوقع وكالة المخابرات المركزية كل المعلومات التي تتعلق بأي هجوم إرهابي ضد المؤسسات الأميركية. قال لهم مكماهون بلهجة «لطفاً» و«عليكم اللعنة». وشعر بأنَّه حقق تقدماً سطحياً. وفي النهاية كان الموساد مثل وكالة المخابرات المركزية لا يثق بأحد.

إنَّ انفجار ٢٠ أيلول/سبتمبر جعل من مشاكل الاستخبارات مؤثرة، ولكن ذلك لم يكن انهياراً وكان على كايسي أن يقدم بعض الشروحات والتوضيحات للبيت الأبيض. كان جوابه بسيطاً. عاد عشر سنوات إلى الوراء إلى أيام تحقيقات تشرش وأيام إدارة كارتر أيضاً، وكلاهما كانا قد سحقا روح وكالة المخابرات المركزية. قال إنَّ احتراق الاستخبارات أو تربية

وتعهد مصدر بشري كان عملاً مخيفاً نظراً إلى المشاكل التي تنتج عنه. لم يستطع بناء شبكة عمل من مصادر بشرية في أربع سنوات. الرئيس كارتر أوقف المدفوعات السرية عن الأردن عام ١٩٧٧ عندما علمت بذلك الصحافة. في عهد كايسي بدأت وكالة المخابرات المركزية بعمل سري مع الأردن للمشاركة في جمع معلومات حول الإرهابيين وحول منظمة التحرير الفلسطينية.

شخص واحد تقبل كلام كايسي وتفهمه هو الرئيس ريغان. فبعد ستة أيام من تفجير بيروت الأخير كان الرئيس في جولة انتخابية في بولنغ غرين في ولاية أوهايو وسأله أحد الطلاب عن أمن سفارات الولايات المتحدة، قال الرئيس: «نحن نتلقى اليوم التأثيرات الناتجة عن تحطيم إمكانياتنا الاستخبارية في السنين الماضية وقبل وصولنا». وأضاف أنَّ الموقف الذي كان سائداً في السابق هو «أنَّ التجسس عمل غير شريف. وهذا ما دعانا إلى التخلص من عملاء استخباراتنا... لقد فعلنا ذلك إلى حد كبير».

وإذا كان هناك أدنى شك حول هدف هذه القنبلة فقد شرحه فيما بعد أركان البيت الأبيض للصحافيين. كان المقصود كارتر وتورنر. في اليوم التالي انفجر كارتر من الغضب وقال. «إنَّ اتهام ريغان هو إهانة شخصية له». وقال: «إنَّ التهمة خاطئة تماماً». وأضاف كارتر: «إنَّ الكوارث التي حصلت في الشرق الأوسط هي نتيجة لسياسة الرئيس المصابة بالخلل وللاحتياطات الأمنية غير الكافية لمواجهة الأخطار الداهمة».

وجاء رد تورنر علنياً، كان صوته يرتجف عندما كان يقرأ بيانه. قال: «إنَّ تعليقات السيد ريغان غير محترمة وليست بمستوى رئيس. إنَّ ريغان هو الذي خرّب وكالة المخابرات المركزية وذلك بوضع أشخاص فضوليين فيها، وسيّس الوكالة مع كايسي». ثمّ تساءل: «ماذا نقرأ عن وكالة المخابرات المركزية اليوم؟ تقرأ عن مدير له ارتباطات مالية مشبوهة ومتورط في عدم قانونية الحرب الخفية في نيكاراغوا... نحن لا نتعجب إذا كانوا لا يجمعون المعلومات في بيروت لأنَّهم كانوا يحاولون الإطاحة بالحكومة في نيكاراغوا». قرأ كايسي ذلك كله مراراً عديدة وبعناية، ولكنه لم ينجرّ إلى تبادل النار ولم يعط أي تعليق علني. لقد عرف ما كان يعنيه ريغان. لم تكن القضية قضية أرقام أو أموال أو أشخاص مع أنَّ هذه كانت جزءاً منها. كانت القضية هي مناخ عدم الثقة الذي خلقه تورنر. إنَّ روح الوكالة يجب أن تكون روح «أستطيع أن أعمل» بينما كان تورنر قد جعلها روح «لا أجرؤ».

بعد حين، ماتت الضجة وكان كايسي مكتفياً لأنَّ الناخبين تفهموا موضوعها.

بعد أن أمضى هورتون الصيف قلقاً حول استقالته من وظيفته كضابط الاستخبارات القومية لأميركا اللاتينية. أعطى مقابلة طويلة على آلة التسّجيل لمحرر من صحيفة في بورتلاند في ولاية ماين. قال هورتون، دون أن يذكر المكسيك، أنَّ هناك تقديراً استعلامياً هاماً وأنَّ كايسي «ضغط عليه كي يراجعه ويعيد صياغته».

وأضاف: «لقد رفضت أن أعيد صياغته وهكذا أعاد كتابة هذا الشيء فوق جسدي الميت» ثمّ أضاف «أنا ضابط استخبارات ولا أعمل لصالح الإدارة بل لصالح الحكومة».

مضت ثلاثة أسابيع قبل أن تصل أخبار شكوى هورتون العلنية إلى الأوساط الصحافية في واشنطن. في ٢٨ أيلول/سبتمبر كتبت صحيفة نيويورك تايمز في صفحتها الأولى: «أحد المحللين الذين سيتركون وكالة المخابرات المركزية يصطدم مع كايسي حول المكسيك».

شعر بوب غايتس المعاون لشؤون الاستخبارات بالخيانة. لم يلمح هورتون بأنّه سيصرح علناً. لم يفهم هورتون تجربته في عالم التحليل. كان اسم اللعبة الضغط. كان هناك دائماً ضغط من وزارة الخارجية أو من وزارة الدفاع أو من البحرية أو الجيش أو البيت الأبيض. عندما تضرب الوكالة على الوتر الحساس أو تصيب قضية هامة أو عندما تؤثر استنتاجاتها على السياسة يبدأ الناس بالصراخ.

كانت وزارة الخارجية عدواً دائماً للأعمال التي تقوم بها وكالة المخابرات المركزية في جنوب أفريقيا. وقد اختلف مساعد وزير الدفاع ريتشارد بيرل دائماً مع تحليلات الوكالة حول الإمكانيات الاستراتيجية للسوفيات. وفي السنة الماضية أعاد غايتس بنفسه فتح قضية الإنفاق الدفاعي السوفياتي، واستنتج أنّه كان أقل مما تقول وكالة الاستخبارات الدفاعية. كان ذلك كمن يراجع إحدى الوصايا العشر. ولكن غايتس انغمس. وكان هذا ضغطاً. لم يفهم هورتون الضغط الحقيقي. نعم يمكن أن تكون المناقشة قاسية جداً، ويمكن لكايسي أن ينشرها. كانت هذه الأشياء بحاجة للاختيار والمناقشة وغالباً ما تصبح عدائية. لقد أخطأ هورتون، من وجهة نظر غايتس. قبل ستة أسابيع فقط من الانتخابات الرئاسية كان على كايسي أن يتجادل مع هورتون. لقد شعر بأنّ هورتون كان يحاول الابتعاد عن معلومات التقدير التي تؤيد انهيار المكسيك. كان كايسي قد أفهم الجميع أنه لا يريد أن يجد تقديراً أمامه يقول شيئاً مثل: «شاه إيران سيمكث خمس سنوات في السلطة!» وبعد أشهر يسقط الشاه!

كان المدير متضايقاً من إدعاء هورتون بأنّه يعمل للحكومة وليس للإدارة، وكأنما هورتون كان يعتقد بأنّ هناك فرعاً إضافياً في الحكومة أي وحدات دائمة تحافظ على الحكومة. هذه كانت بيروقراطية، في رأي كايسي، وكانت تؤدي إلى مشاكل مع الحكومة وليس إلى حلول.

كتب كايسي رسالة شخصية إلى هورتون. الذي لما قرأها شعر وكأن كايسي كان يتهمه بتطويل شعره أو بتعاطي المخدرات!. القضية هي أنّه أراد مجالاً واسعاً للرأي. لم يطلب كايسي وجهة نظر بديلة للتقديرات. لقد أصبح جزءاً من آلية صنع القرار في إدارة ريغان. وكان اهتمامه الأساسي منصباً على الإطاحة بحكومة نيكاراغوا. لم تؤيده المكسيك في ذلك.

كانت متعجرفة في سياستها الخارجية وكانت ترسم سياسة مستقلة من عدم التدخل والمفاوضات. كان هورتون يعتقد بأنَّ كايسي كان يريد من التقدير أن يكون خنجراً يوجهه إلى قلب المكسيك.

رأى الديموقراطيون في لجنة استخبارات مجلس الشيوخ فرصة أمامهم. قرأ مونيهان التقدير. هناك فرصة واحدة إلى خمسة لعدم الاستقرار. وبما أنَّ المكسيك مفلسة فإنه لن يكون من الخطأ أن نتوقع بعض المشاكل. كان مونيهان يحب الاحتمال الرقمي. في ظل هذا القلق العجيب نجد أنَّ التنبؤ ينفع إلى حد ما. إذا قال الناس إنَّ هناك احتمالاً من ٨٠٪ إلى ٩٠٪ لسقوط الأمطار، عندها سيأخذ أحدهم مظلة الآخر الواقية للمطر!

في لجنة استخبارات مجلس النواب لم يحضر أحد من أصدقاء كايسي للدفاع عنه. وأذاعت اللجنة بياناً جاء فيه: «إنَّهم تفحصوا المسودات والنص النهائي للتقدير ووجدوا أنَّ الآراء المُعارِضة قد وضعت في مستهل التقدير وهذا عمل ترحب به اللجنة».

في يوم الجمعة ٢١ تشرين الأول/أوكتوبر أجرى كايسي حفلة استقبال لأركان لجنتي الاستخبارات في مجلس الشيوخ ومجلس النواب في غرفة الطعام في الطابق السابع من مبنى القيادة في لانغلي. لقد كانت مصالحة. وأراد أن يشكرهم للمصادقة على القانون الجديد الذي يعفي الملفات الهامة التقنية والأمنية العائدة لمديرية العمليات من قانون حرية المعلومات. كان من المقرر أن يوقع الرئيس القانون يوم الاثنين المقبل. لقد كانت المصادقة على القانون رمزاً لموقف جديد من وكالة المخابرات المركزية. خلال الحفلة تجول كايسي على جميع الحضور. لم يكن قد مثل أمام اللجنة منذ حوالى خمسة أشهر ولم يخطط لذلك في المستقبل القريب.

اقترب روب سيمونز منه وقال إنَّ النقاط الأساسية في مشروع حملة ١٩٨٠ الانتخابية الرئاسية حول الاستخبارات قد نفذت تقريباً بكاملها، بالإضافة إلى إعادة تنظيم حرية المعلومات، كما تمت المصادقة على وثيقة حماية هوية العملاء والتي تحظر نشر أسماء العملاء، كما أعيد بناء مكافحة التجسس وأعيد التركيز عليها، وتمت زيادة موازنة الاستخبارات بنسبة ٥٠٪ في السنين الأربع الماضية. دوَّن كايسي ملاحظاته حول هذا الكلام باختصار على ورقة منفصلة.

في اليوم التالي السبت استيقظ كايسي باكراً وكان يوماً ممتازاً للعب كرة القدم أو الغولف. لكنَّه ذهب إلى المكتب. لقد مضت عليه مدة لا بأس بها لم يذهب إلى خارج البلاد لزيارة محطات الوكالة في الخارج، وكان يريد أن يحافظ على الزخم في لانغلي. إنَّ حضور المدير إلى مركز القيادة يوم السبت هو بمثابة رسالة خفية إلى الحاضرين وإلى الغائبين. ويوم الاثنين سيتلقى مكالمات وأسئلة تافهة وملاحظات. . ارتدى سترة فضفاضة وقميصاً وربطة عنق واختار بنطلوناً أخضر ليعطي علامة غير رسمية لنهار السبت.

حضر أحد مساعديه الكبار في الوكالة إلى منزله الساعة ٨,٣٠ لتناول طعام الفطور وكانت فرصة لمراجعة أول جزء، أما كايسي فقد كان مشغول البال حول الجزء الثاني. كانت الانتخابات الرئاسية ستجري بعد ٢٤ ساعة وعندها سيجدد أربع سنوات لريغان وله. كانت صوفيا ما تزال ترتدي روب الحمام وقد وضعت سلطة التفاح والبيض المقلي وشرائح اللحم والخبز «التوست». كان كايسي مرتاحاً وفي أحسن حالاته عندما جلس إلى الطاولة في غرفة الطعام. كانت صوفيا إلى جانبه دائماً وكانت بالنسبة إليه النقيض لزوجة جورج سمايلي بطل روايات التجسس البريطانية التي ألّفها جون لوكاريه. كانت آن سمايلي تركز على نفسها أما صوفيا فكانت امرأة تكرس نفسها لزوجها بشكل كامل. كانت تمشط شعرها الأبيض القصير إلى الأمام ولم تستعمل «موديلات» الشعر المرتفعة الثمن بل كانت تكتفي باستعمال البخاخ (Spray). لقد تعلقت به منذ زواجهما في عيد ميلاد جورج واشنطن خلال الحرب العالمية الثانية. كانت لصوفيا مميزات أفضل من التي كانت لآن سمايلي.

شعر كايسي بأنّه قد قام بواجبه في وكالة المخابرات المركزية وذلك بنقل الرسالة الواضحة لإدارة ريغان. أميركا والقوة. لم يكن العالم آمناً لأنّ السوفيات ما زالوا يميلون إلى التوسع ولكن الولايات المتحدة كانت في وضع أفضل. هز برأسه عند ذكر العواطف المزعومة التي يكنها للأعمال الخفية. ثمّ قال: «هذا هراء» وأضاف «أنا هنا كبير المحللين» وكان عمله الحقيقي كما قال بيل كولبي هو الذهاب إلى البيت الأبيض ومعه تحليل جديد. كان هناك في كل يوم مشكلة جديدة في أي جزء من العالم.

كان الاتحاد السوفياتي الشغل الشاغل في سنوات ريغان. كان السوفيات يؤذون. كان اقتصادهم في مأزق وكان الفساد مستشرياً وذلك استناداً لأفضل وأحدث معلومات وكالة المخابرات المركزية. أوقف السوفيات استعمال مقولة «نحن المستقبل» التي كانت شائعة. والسبب أنّهم لم يكونوا كذلك. وبينما كان كايسي يحصي دول العالم ويعرض شؤونها كانت تحدث أشياء جديدة من خلال الدعم الخفي للثورات. وعلى الرغم من اعتزازه بنفسه ككبير المحللين بقي كايسي يرجع إلى الأعمال الخفية.

- كانت هناك أخبار جيدة عن عملية أفغانستان. عملياً، في تلك الجبال وفي أكبر أرض تخاف اللّه في العالم، كان الروس يخضعون من حماستهم واندفاعهم وكان دعم وكالة المخابرات المركزية يزداد.

- في أنغولا وعلى الرغم من حظر المساعدات الخفية الأميركية كانت هناك ثورة من ٢٥٠ ألف عنصر بقيادة جوناس سافيمبي.

- في كمبوديا كان هناك حوالى خمسين ألفاً يقاتلون الجيش الڤيتنامي وهو رابع جيش في العالم من حيث العدد، وكانت النتيجة تثبيت ذلك الجيش. وكانت مساعدة وكالة المخابرات المركزية تبلغ حوالى خمسة ملايين دولار سنوياً.

- في أثيوبيا كانت المقاومة ضد النظام الماركسي تتخذ شكلاً جديداً، وكانت المساعدات تأتي من المملكة العربية السعودية، وكانت وكالة المخابرات تقدم مساعدات قليلة.

- كان الكونترا فعالين في نيكاراغوا على الرغم من انتهاء الدعم الأميركي، وفوق كل هذا كانت عملية الجدل ناجحة، وكان كايسي يشعر بأنّه إذا أجريت انتخابات نزيهة. فإنّ الساندينيين سيخسرون حتماً، وكان تأييدهم يذوب تحت ضغط الكونترا ومعارضة الكنيسة الكاثوليكية.

- في السلفادور أصبح دور الجيش المدعوم من الولايات المتحدة أكثر ضراوة ضد وحدات الثوار الأربع. أشارت معلومات الاستخبارات إلى أنَّ السوڤيات والكوبيين كانوا يعتقدون بأنَّهم لن يكسبوا، وقد بدأوا يعززون موقفهم في نيكاراغوا. وفكَّر كايسي في أنَّ الولايات المتحدة كان يمكن أن تخسر السلفادور إذا كان الضغط سيستمر عليها.

استنتج كايسي أنَّ بعض هذه العمليات خطر. لكنَّ البديل كان أن نجعل الأمور تفلت من الزمام كما جرى في عهد كارتر. كان العمل الخفي بالاشتراك مع برنامج متكامل من الضغط الإعلامي والاقتصادي والدبلوماسي يعطي نتيجة فعالة.

شعر كايسي بأنّه قد ربح نقطة واحدة من منتقديه خلال الثلاث سنوات ونصف الماضية. لا يمكن لوكالة المخابرات المركزية أن تقلق بشكلٍ هاجسي. لقد كانت تعمل للرئيس. وإذا حصلت سياسة الرئيس على نقطة فإنَّ الوكالة تحصل أيضاً. وكذلك بالنسبة إلى وزارة الخارجية والجيش. هذه المؤسسات، وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية والجيش، لم تكن هشة ولا تتحمل التراجع والانتقادات.

لقد كان اندفاعياً ويركز دائماً على المشروع الكبير، وعندما نظر إلى بطاقة النتائج تحقق من بعض النجاحات الأخرى الهامة:

- لأول مرة يتركز الانتباه الحقيقي حول عملية النقل التكنولوجي التي تقوم بها شركات تجارية مدعومة من السوڤيات. وكانت هذه الشركات تعد لخداع القانون والالتفاف حوله وتشتري تجهيزات ذات تكنولوجيا متطورة وخططاً تكنولوجية.

- كان التبادل الاستخباري مع الصين مثمراً جداً، ليس من مراكز التنصت فقط، بل من معلومات من مصادر بشرية وتكنولوجية. يمكن أن يصاب السوڤيات بصدمة كبيرة إذا عرفوا التفاصيل.

- تحسنت المراقبة الشاملة للاتحاد السوڤياتي وكانت هناك تكتيكات أفضل لمراقبة غواصاته المجهزة بالصواريخ البالستية.

- كان هناك اختراق للنظام المصرفي الدولي يسمح بالحصول على البيانات من مجموعات المستندات الحقيقية والسرية التي كان يحفظها العديد من البنوك الأجنبية والتي تظهر

الاستخبارات السرية للاتحاد السوفياتي.

ـ تحسنت مكافحة التجسس وحققت اختراقات جديدة. كما وقد تبين أنَّ هناك اختراقات على مستوى عال في المخابرات السوفياتية لا يمكن الإعلان عنها. كانت وكالة المخابرات المركزية تشك في أن يكون هؤلاء عملاء مزدوجين.

ـ أصبحت الوكالة أقرب إلى تغطية العالم بكامله للمرة الأولى. وهناك جهود مكرسة للحصول على مصادر وشخصيات هامة في جميع بلاد العالم. لقد ازداد تجنيد العملاء في العالم الثالث وتضاعف في أميركا اللاتينية.

ـ تركّز الانتباه على بعض المشاكل طويلة الأمد. كانت وكالة المخابرات المركزية هي الوكالة الوحيدة التي تنظر بشكل منظم إلى جميع المشاكل الكبرى التي يمكن أن تبرز خلال خمس أو عشر سنوات. كانت تدرس اتجاهات العالم الثالث لغاية العام ٢٠٠٠ (مصادر التغذية ـ الماء ـ التطور الاقتصادي). وتعالج أسئلة مثل: ماذا يحدث إذا بلغ عدد سكان مدينة مكسيكو ٤٠ مليون نسمة؟ ماذا عن تأثير المخدرات في أميركا اللاتينية في المستقبل القريب؟ ومع اعتماد صناعة السيارات أكثر وأكثر على البلاستيك وبشكل أقل على الالمينيوم، ماذا سيحدث للبلدان التي تنتج البوكسايت؟ وإحدى هذه البلدان سورينام التي يأتي أكثر من ثلثي إنتاجها الوطني من البوكسايت. وفي بعض الحالات يمكن عرض المشاكل بسرعة وبكلفة أقل. وفي النهاية كان كايسي يريد تحديد المشاكل.

ـ على صعيد نزع السلاح لم يكن كايسي جاهزاً ليقول ما إذا كانت اتفاقية ما في المستقبل يمكن التحقق من تنفيذها. لم يؤمن كايسي بنزع السلاح.

ـ تم تعميم لائحة مراقبة فصلية لبعض البلدان غير المستقرة. وكانت الفيليبين في رأس اللائحة وتسودها الثورات والاضطرابات السياسية.

قام كايسي بتنظيم الوكالة وصياغتها كي تساعد زبائنها الستة الحقيقيين وهم الرئيس ونائب الرئيس ورئيس أركان البيت الأبيض ووزير الخارجية ووزير الدفاع ومستشار شؤون الأمن القومي. لم تكن الوكالة معدة لخدمة الكونغرس ولا لخدمة الأوساط الصحافية وعامة الناس. ومع أنَّ كايسي كان لائقاً مع البيت الأبيض، فإنَّ رسالته إلى أي شخصٍ من غير زبائنه الرئيسيين كانت تبدأ بالشتائم. أدرك كايسي من وجوه عديدة أنَّ إدارته كانت عملاً رفيع المستوى، وتعمل في جو خال من القيود سوى التي يفرضها بنفسه. وبما أنَّ نكران الذات لم يكن أسلوبه وكان حساب الاستخبارات حراً وواضحاً فقد طلب كل شيء. كان برنامج التقاط وكالة الأمن القومي شاملاً، بحيث أنَّ كبار المسؤولين كان لهم حق الإطلاع على مواد أكثر ويسجلون عليها تعليقاتهم. إنَّ زيارة اجتماعية بريئة إلى حفلة استقبال في السفارة قد تتحول إلى إرباك بالنسبة إلى المسؤول الحكومي. وحصيلة التقاط اليوم التالي يمكن أن تحتوي على تقرير السفير الملتقط أثناء إرساله إلى عاصمة بلاده، وهذا التقرير قد

يقتطف كلاماً من مسؤول أميركي دون أن يسميه. وبناء لقواعد عمل وكالة الأمن القومي فقد كانت أسماء المواطنين الأميركيين وحتى الموظفين الحكوميين تحذف. لكن في بعض الأحيان كانت الصفحات الاجتماعية في الصحف تذكر أسماء من يحضر حفلات السفارة، وعندها يجب القيام بتحريات قليلة فقط لتحديد هوية المواطن الأميركي الذي كان في الحفلة.

كانت الالتقاطات تكشف عن الأسلوب الذي كان يعتمده أي سفير أجنبي في واشنطن في تشويه تقاريره حيث كان يبالغ في إظهار المودة مع كبار المسؤولين الأميركيين الذين كانوا في بعض الأحيان يختصرون تعاملهم مع عناصر السفارة ويتجنبون حفلات الكوكتيل ما أمكنهم ذلك. أظهر أحد الالتقاطات أنَّ اليابانيين قد طوروا مصدراً جيداً في وزارة الخارجية واستخدموه من أجل مفاوضات تجارية هامة. وقرأ المسؤولون الأميركيون بتعجب المواقف الأميركية نقطة نقطة حتى قبل أن تقدم إلى الوزارات الأميركية الأخرى المعنية بالمفاوضات!

تبسَّم كايسي حول هذا. كان يعكس الميل لأن تكون الولايات المتحدة مرة ثانية في مركز الرابح على جميع الجبهات.

في أسلوبه الخاص والشخصي تبين لكايسي أنَّ التجسس له جذور مثالية. كان هناك شيء ما، وفي تلك الحالة كانت الولايات المتحدة هي التي تستحق أن نقاتل لأجلها بصعوبة. كان كايسي مسروراً من الوكالة ولكن بمقياس ١ إلى ١٠ كان يعطي نفسه علامة ٧. ربما علامة ٧ كانت جيدة لكنها ليست الفضلى. كان من الممكن أن يفعل الأفضل. وكان هذا هو السبب الذي دعاه إلى العمل يوم السبت، ليبقي الأفكار متحركة. هذا ما أثار سروره. كان له صبر قليل على إنجازات الإدارة. ونستون تشرشل كان يضع لائحة كتب عليها: «عمل اليوم»، وكان هذا ما يريده كايسي.

في اليوم التالي أُنذر كايسي بسبب التقاط برقية لوكالة أسوشياتد برس حول تقرير عن كتيِّب لوكالة المخابرات المركزية لتعليم الكونترا على حرب العصابات وتقديم الاستشارة لهم حول طريقة استخدام العنف للقضاء على بعض الأهداف مثل القضاة وضباط البوليس وموظفي الدولة.

يوم الأربعاء نشرت صحيفة نيويورك تايمز الخبر على الصفحة الأولى بعنوان «مسؤول كبير في وكالة المخابرات المركزية يعلِّم الثوار في نيكاراغوا كيف يقتلون». وكان من الصعب مواجهة المنطق الذي يعتبر أن «القضاء على» يعني «الاغتيال».

وكان الكتيِّب المؤلف من ٩٠ صفحة يحث الكونترا على خطف المسؤولين في الحكومة الساندينية.

تمَّ إعداد كتيِّب «العمليات السيكولوجية في حرب العصابات» منذ سنة وعمم بشكل

محدود على الكونترا. وكان يهدف إلى إعطاء الكونترا بعض التوجيه السياسي. وجاء فيه أنَّ العصابات المسلحة التي تطوف في الجبال في مهمات «اضرب واهرب» لم تعط أية نتيجة. كان على الكونترا أن يعملوا في القرى والمدن وبين الناس لنشر رسالتهم وأن يطوروا تنظيمهم السياسي ويحرزوا دعماً سياسياً. لقد استخدم الكتيِّب كأداة للتعليم.

أخذ كايسي قلم رصاص وتصفح الكتاب ووضع خطوطاً تحت العبارات الهامة. كان الكتيِّب مشوشاً ويحتوي على مجموعة من الأفكار الاعتباطية المتناقضة ومليئاً بالكلام الرنان مثل «النقد الذاتي»، «توجيه المجموعة»...

وجاءت فيه معلومات حول طريقة إعداد مخيم عصابات وتوجيهات مفصلة حول أسلوب تجنب الشعور العدائي بين السكان المحليين. «بناء مراحيض وحفر لرمي النفايات» قرأ كايسي هذا وضحك. إنَّ هذا الجنون يكون مضحكاً في ظروف أخرى. ودعا الكتيِّب إلى إرهاب تام وشامل وشجب الإرهاب الظاهر فقط.

تحت عنوان «وحدات الصدم» قرأ: يجب تجهيز هؤلاء الرجال بالأسلحة (السكاكين وشفرات الحلاقة والسلاسل والهراوات...) ويجب أن يكون سلوكهم سهلاً تجاه العناصر السذج والأبرياء.

ظهرت كلمة «القضاء على» تحت عنوان: «اختيار استعمال أعمال العنف للتأثير الإعلامي». جاء في الكتاب: بعد أن يتم اختيار مسؤول سانديني «من الضروري أن تجمع السكان المتأثرين ليصبحوا جاهزين دورهم ضد الظلم». وقد حذفت جملة واحدة من بعض النسخ ولكن ليس من جميع النسخ لسوء الحظ وتقول: «يمكن استخدام المجرمين المحترفين للقيام بالأعمال المطلوبة». وكان هذا يذكر عندما استأجرت وكالة المخابرات المركزية جون روسلي وهو عضو في المافيا ليغتال كاسترو في أوائل الستينات.

أدرك كايسي أنَّ الاغتيال موضوع مختلف في نفسية الأميركيين لأنَّه يتحدى الصورة الذاتية القومية والرصيد الأخلاقي العام. كان الاغتيال خطيئة أولى في السياسة الأميركية. وكان استعمال كلمة «القضاء على» ربما أسوأ من استعمال كلمة «اغتيال» لأنَّها تحوي الإنكار والتخفي. في ذلك العالم المتخفي لا تقول الوكالة ما تعنيه أبداً.

كان كايسي قلقاً جداً من أنَّ أحداً من كبار مسؤولي وكالة المخابرات المركزية لم يرَ خطر تحويل الحرب إلى كلمات. لم يكن من المنطقي أن نسير باتجاهين، أي التحذير من العنف ومن ثمّ الدفاع عن أعمال العنف وتبريرها!

لقد كشفت طبيعة هذه الحرب عن نفسها في هذا الكتيِّب.

كان الهدف سحق الحكومة الحالية. لا يمكن إنكار أسلوب العنف المتمثل بمبدأ «لا تأخذ أسرى». إنَّه من الطبيعي أن نتخيل ذلك ولكن أن نحوله إلى كتابة أو مبادئ مكتوبة؟

هبت عاصفة سياسية. قال رئيس لجنة استخبارات مجلس النواب «إنَّ الكتيِّب يعتنق

أسلوب لينين وليس أسلوب جفرسون! إنَّه يتوافق مع التكتيكات الثورية الشيوعية التي تعهدت الولايات المتحدة على نفسها بأن تحاربها في جميع أنحاء العالم». طلب غولدووتر إيجازاً كاملاً للجنة استخبارات مجلس الشيوخ. ودعا البعض إلى تعيين مدّع عام مختص. وهناك من طالب برأس كايسي. ووجه الديموقراطيون اتهامات حول أنَّ الولايات المتحدة كانت ترعى الإرهاب. في نهاية هذا النهار تحول كايسي إلى قرن من الموز!

في اليوم التالي قرر كايسي إصدار بيان يتعهد فيه بالخضوع للتحقيق. لكنَّ قضية الكتيِّب ومتفرعاتها سيطرت على الأخبار وأجبرته على الذهاب إلى البيت الأبيض الذي كان يستعد لتولي زمام الأمور. لقد استبدل اسم الرئيس باسم كايسي في بيان جاء فيه: «إنَّ الإدارة لم تدافع عن الاغتيال السياسي ولم تغفر له أو لأي هجمات أخرى على المدنيين ولا ترغب في ذلك». أبلغ كايسي بأن يكلف المفتش العام للوكالة بالتحقيق كما أنَّ هيئة مراقبة الاستخبارات التابعة للرئيس قد أعطيت التوجيهات للمباشرة بسبر أغوار القضية بشكل منفصل. بدأت لجنتا مجلس الشيوخ ومجلس النواب بطرح أسئلتهما.

كان كايسي يميل بشكل جزئي إلى أن يخرج من الظلال ويصرخ: «ماذا تتوقعون بحق الجحيم؟ إنها حرب وليست نزهة، إنها عنيفة وقذرة. الناس تقتل هناك. إنها كذلك. العالم كذلك».

في يوم الأحد ٢١ تشرين الأول/أوكتوبر أجريت المناظرة التلفزيونية الثانية بين ريغان ومونديل. كان كايسي يشاهدها مثل عشرات الملايين. كان السؤال الأول الذي وجه إلى ريغان سؤالاً حاداً حول كتيِّب الاغتيال كما سمي. سأل الصحافي جورج آن غاير الرئيس «إنَّ الإرهاب الذي ترعاه دولتنا ليس عملياً».

أجاب ريغان «لا ولكني مسرور لأنَّك سألت هذا السؤال لأنني أعلم أنَّه في عقول شعبي» وتابع يقول إنَّ اثنتي عشرة صفحة فقط من الكتيِّب كتبت بلهجة هجومية وأنَّ الذي أشرف على طبع الكتاب ونشره كان رأس وكالة المخابرات المركزية في نيكاراغوا.

سأل غاير: «السيد الرئيس أنت تعطي انطباعاً بأنَّ محطة وكالة المخابرات المركزية في نيكاراغوا توجه الكونترا هناك؟» قال ريغان: أخشى أن أكون قد أخطأت في الكلام عندما قلت رأس الوكالة في نيكاراغوا. لا يوجد أحد هناك يوجه هذا النشاط»، عندها قال إنَّه من رجال المخابرات المتمركزين في مكان آخر في أميركا الوسطى.

سأل مونديل ريغان بلهجة تحدٍ بعدما أعطى أمثولة عن الإرهاب السياسي والاغتيالات: «بماذا يكلف الرئيس عندما يقسم لاستلام السلطة؟».

تعثر ريغان في المناظرة وتساءل العديد عما إذا كان الرئيس قد خرف. سألت صحيفة وول ستريت جورنال السؤال مباشرة وأمام الجمهور. وفي المقال الرئيس على الصفحة الأولى: «سؤال جديد في سباق الرئاسة: هل بدأ عمر الرئيس العجوز بالظهور؟» قلق كايسي

لأنَّ هذه الأمور تخفي في داخلها مقومات الكارثة. ومع أنَّ الكونغرس لم يكن في حال انعقاد، طلبت لجنة استخبارات مجلس الشيوخ إيجازاً لأعضاء اللجنة ولأركانها الذين ما زالوا في واشنطن. وأرسلت الوكالة اثنين من صغار الضباط في مديرية العمليات الذين اشتركوا في عملية نيكاراغوا لمدة شهر تقريباً إلى الكونغرس تأكد كايسي من أنَّ التحقيقات لن تكمل ولن تظهر نتائجها إلاَّ بعد الانتخابات. كان يحتاج الآن إلى أحد ما كي يدافع عن الوكالة في العلن. أحد ما مستقل وله اعتباره ورصيده. وبما أنَّ علاقته مع غولدووتر قد رممت بعد قصة التلغيم قرر كايسي أن يدرس إمكانية تجنيد غولدووتر لهذه المهمة. لكنَّ رئيس لجنة الاستخبارات قد ذهب إلى بلدته في ولاية أريزونا. قرر كايسي أن يرسل له رسالة باليد. وبالفعل أرسل إليه مسودة تصريح صحافي لكي يصدره ويعلن فيه أنَّه لا يوجد شيء في هذا الكلام. لكنَّ غولدووتر أرسل جواباً من أريزونا يقول فيه إنَّه لا يستطيع ولا يرغب بالتعليق قبل انتهاء التحقيق وأضاف: «أنا تعب من إزالة أصابع كايسي من النار» وقال: «لا ترسل أحداً إلى هنا فأنا أرتاح».

كان كايسي بحاجة إلى مسرحية كبيرة. وعلى الرغم من زجر غولدووتر فقد أوفد إليه مدير العمليات كلير جورج بنفسه بصحبة أحد كبار ضباط العمليات فنسنت كانيسترارو إلى أريزونا. سيكون السناتور مسروراً لأنَّ هذين المسؤولين الكبيرين قد سافرا عبر البلاد كلها تقريباً للتحدث معه. توجه جورج وكانيسترارو في رحلة طيران بعد الظهر واستخدموا أسماء مستعارة ووصلوا إلى منزل غولدووتر. لم يكن غولدووتر في وضع خاص. لم يرد أن يستمع ولم يكن جاهزاً لإصدار بيان.

حاول جورج أن يشرح بلطف: «لكن انظر هنا».

قال غولدووتر بشكل قاطع لا. وكان من الأفضل لهما أن يغادرا. وسرعان ما كان مدير العمليات ومساعده على متن الطائرة المتوجهة إلى واشنطن.

أدرك السناتور مونيهان سبب إعداد هذا الكتيّب. لقد قرأ إبان دراسته في جامعة هارفرد ورقة حول تقنيات ماوتسي تونغ في الثورات: حدد صاحب الأرض واجعله منفرداً ثمّ حاكمه. ركز الكره على شخص واحد وأجعل الناس في القرية تقترع ثمّ أشهد عملية الإعدام. كان ذلك تكتيكاً فعالاً مترابطاً. لقد ورد في كتيّب القبعات الخضر خلال حرب فيتنام أنَّها تحضر عامة الناس للثورة وتعطيهم الدفع والشعور بالاكتفاء والشعور بالتحسن والتقدم وبأنَّهم يخدمون العدالة.

عندما تأكدت وكالة المخابرات المركزية من أنَّ أحداً من مسؤوليها الكبار ومن ضمنهم كايسي ومكماهون وشتان وكلاريدج (الذي لم يستطع قراءة الكتاب لأنَّه لا يعرف اللغة الإسبانية) لم يراجع الكتيّب ولم يصادق عليه، أرسلت هذا الاستنتاج إلى البيت الأبيض واقترحت إجراء تحقيق.

في اليوم التالي كتب كايسي رسالة شخصية إلى كل عضو في لجنة استخبارات مجلس الشيوخ ولجنة استخبارات مجلس النواب محاولاً شرح الموضوع. كان الهدف من الكتيّب أن يجعل سلوك الكونترا معتدلاً.

لكنَّ كايسي قد تعب. كلما كان الأمر يتعلق به كان الموضوع هو: كيف يتعامل أعضاء الكونغرس الديموقراطيون مع الصحافة يداً بيد؟ أحضر أحد مراسلي الأسوشياتد برس نسخة عن الكتيّب وسلمه إلى لجنة استخبارات مجلس النواب. صنفته اللجنة على أساس أنّه من إعداد وكالة المخابرات المركزية. جاء المحرر بأخباره وأخذت اللجنة تقفز إلى فوق وإلى تحت. هدد رجل كايسي للعلاقات العامة جورج لودر بأنّه سينشر يوماً مقالاً عن تسريبات لجان المراقبة في الكونغرس. قال لودر مازحاً إنَّ عنوان المقال سيكون: «كيف سرب الجميع وبالوا على أميركا».

أتى جورج شولتز بخطة سلام لنيكاراغوا وطلب تسليمها للرئيس الذي كان يقوم بجولة انتخابية في دي موان. اجتمع كايسي وكيركباتريك ووينبرغر واتفقوا على وجوب وقف شولتز. كان على كايسي أن يرمي بنفسه تحت عجلات طائرة الرئيس ويظهر أنَّه ستقدم استقالات إذا استمر وزير الخارجية في مشروعه. وتوقف شولتز.

في ٦ تشرين الثاني/نوفمبر فاز ريغان في الانتخابات ونال ٥٩ ٪ من الأصوات وفاز في ٤٩ ولاية، ولم يفز في ولاية مينيسوتا موطن مونديل، وناحية كولومبيا (أي العاصمة واشنطن وضواحيها).

- ٢٠ -

كانت النار تشتعل ببطء في مدفأة المكتب البيضاوي وتضفي جواً حمياً على الاجتماع بعد ظهر يوم خريفي، وذلك بعد الفوز في الانتخابات. عرض كايسي النقاط الهامة في ورقة منفصلة، وكان متأكداً أنّه خفض المسألة إلى أصلها. والآن مع دورة الرئاسة الثانية حان الوقت. كان يعد مذكرة رئاسية توجه وكالة المخابرات المركزية إلى تدريب ودعم وحدات من بلدان أجنبية في الشرق الأوسط وذلك لتنفيذ ضربات وقائية ضد الإرهابيين. عندما تظهر الاستخبارات أنّ منظمة إرهابية كانت على وشك توجيه ضربة إلى مؤسسة أميركية مثل سفارة أو قاعدة عسكرية، فإنّه يمكن لهذه الوحدات أن تمنع الإرهابيين من تنفيذ هجماتهم وأن تقتلهم. كان الرئيس يدرك تماماً أنّ المتعصبين ومفجري قنابل الاغتيال كانوا دليلاً واضحاً على عجز إدارته، ووافق على أن يقوم بعمل ما.

رفض وينبرغر أن يشرك العسكريين، لأنّ قصف المدمرة نيوجرسي للبنان لم يؤد إلى أية نتيجة. لقد كان القصف عنيفاً جداً، غير مميَّز، ولم تكن الإصابات دقيقة. كما أدت الغارات الجوية إلى مقتل ضحايا بريئة. كان جواب وزارة الدفاع: لا، شكراً، ليس نحن. وجمع وينبرغر يديه وقال: لا. وفي وكالة المخابرات المركزية أجاب مكماهون: لا، شكراً، الوكالة تقوم بالاستخبارات وليس بالقتل. ولكنّ كايسي كان عنيداً ودعمه شولتز.

أوضح كايسي للرئيس أنّ المذكرة كانت لتدريب الوحدات ووضعها في أماكن عملها وأنّه يتوجب إصدار مذكرة أخرى لتنفيذ أي عمل خفي. كان للإسرائيليين تجربة هامة في هذا المجال، ولديهم خبرة لا بأس بها في العمل الوقائي الخفي ولكن من الضروري أن تبقى عين الإدارة مفتوحة عليهم. يجب أن يظهر أي عمل من الإدارة على أنّه ضد الإرهاب وليس ضد العرب.

ولحسن الحظ لم يشأ أحد أن يعرف شيئاً عن هذه الوحدات. وكان من المقرر أن يبدأ تدريب ثلاث وحدات، كل وحدة تتألف من خمسة رجال في لبنان. وستنفذ الضربات الوقائية تحت غطاء بحيث لا يظهر أي أثر للوكالة أو للولايات المتحدة.

طلب الرئيس من كايسي أن يعلم لجنتي الاستخبارات في الكونغرس وأن يستعمل التدبير الاحتياطي في القانون الذي يسمح له بإعلام ثمانية أشخاص فقط هم رئيس لجنة الاستخبارات ونائبه في كل من مجلس الشيوخ ومجلس النواب وزعيم الجمهوريين وزعيم الديموقراطيين في كل مجلس أيضاً.

قال كايسي إنَّه سيتولى ذلك شخصياً ليؤكد على حساسية الموضوع. ولن يخبر أحداً من الأركان الكثيري الكلام. ورأى ذلك فرصة ليظهر أنَّ الوكالة يمكن أن تنفذ عمليات خفية بشكل صحيح.

وقع ريغان المذكرة الرسمية وتوجيهات تنفيذية لقرار أمني قومي. بلغت تكاليف الوحدات اللبنانية حوالى مليون دولار، وعندما يتوسع البرنامج إلى بلدان أخرى ستبلغ التكاليف ٣،٥ مليون دولار.

وصف الأميرال جون بواندكستر نائب مكفرلين الذي كان حاضراً في الاجتماع جلسة بعد الظهر لأحد الزملاء: كان كايسي يتمتم ورونالد ريغان يهز رأسه موافقاً.

صمم كايسي أن يرى ذلك قيد التنفيذ. وقد حاربه مكماهون حول كل خطوة من الطريق. وبدأ يشوش: هل يمكنهم الثقة بالأجانب وخاصة اللبنانيين؟ هل تستطيع وكالة المخابرات المركزية السيطرة عليهم؟ برأي مكماهون أنَّ أي جواب عن السؤال الثاني يؤدي إلى مشاكل. إذا كانت الوكالة تسيطر عليهم فهل تتورط في عمليات الاغتيال؟ ألا يعتبر ذلك اشتراكاً في ضربات وقائية وتخطيطاً لعمليات اغتيال منعه الرئيس ريغان بموجب أمر تنفيذي مهما كانت صيغة العمل وشكله؟ وإذا لم تكن السيطرة للوكالة أليسوا هم من يطلق صواريخ غير موجهة؟ وتعجب مكماهون أكثر: هل سيكون لديهم معلومات عن الهجوم الوقائي وهل هو فعلاً وقائي؟

ساعد سبوركين كايسي في هذا المجال وأصدر رأياً قانونياً يؤكد أنَّ الهجوم الوقائي لن يكون بالضرورة اغتيالاً أكثر مما لو أطلق رجل البوليس الطلقة الأولى على الرجل الذي يسدد البندقية نحوه. الوقاية هي دفاع عن النفس.

كان كايسي يركز على بيروت. هناك أزمة عاطفية للوكالة منذ ثمانية أشهر. وليم بكلي الذي خطف في بيروت كان معروفاً بأنَّه ضابط سياسي في السفارة الأميركية، ولكنَّه في الحقيقة كان رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية. كان كايسي متأكداً من أنَّ المسلمين المتطرفين الذين خطفوه يعرفون حقيقته. وضغط على مدير العمليات كل يوم تقريباً للعثور على مكان بكلي وإنقاذه. اتخذ تدابير غير عادية. سمح بدفع المال إلى المخبرين وأمر بالتركيز على التقاط المكالمات وكثّف من صور الأقمار الاصطناعية. أنشأ قوة عمل خاصة لإنقاذ الرهائن. كان يدرك أنَّه لا يستطيع لا هو ولا الوكالة المساومة على بكلي دون مخالفة سياسة الإدارة التي تمنع المفاوضات، ودفع فدية لإنقاذ الرهائن. كانت هذه المحنة مخزية. يجب

تقليص عناصر محطة بيروت إلى رئيس محطة وبضعة حراس أمن. وقد تمّ تحويل العديد من أعمالها الاستخبارية إلى الاستخبارات اللبنانية وهي مجموعة قاسية كانت فعلاً آخر أثر لسلطة الحكومة في العاصمة. وقد زودتها وكالة المخابرات المركزية بالمال والتجهيزات والدعم التكنولوجي.

أعلنت مجموعة تطلق على نفسها اسم منظمة الجهاد الإسلامي مسؤوليتها عن خطف بكلي. وكان كايسي متأكداً من أنَّ هذا الاسم كان شعاراً للمتطرفين الذين ظهروا أيضاً في تفجير المؤسسات الأميركية في بيروت.

أعاد خطف بكلي الكوابيس إلى ذهن مدير العمليات كلير جورج الذي كان رئيس محطة بيروت في عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦. وخلال وجوده في بيروت خطف مسؤولان حكوميان أميركيان واحتجزا لمدة أربعة أشهر ثمّ أطلق سراحهما. لقد عاش العذاب من قبل. حرك جورج نفسه محاولاً إنقاذ بكلي. إنّه لم يرد عودة بكلي فقط بل كان يريد أن يصدر إشارة إلى جميع ضباط العمليات في الخارج بأنَّ الوكالة ستقوم بأي شيء لإنقاذهم. أتى إلى بيروت فريق متخصص ومدرب وله خبرة في تحديد أماكن المخطوفين من مكتب التحقيق الفدرالي وعاد بعد شهر دون نتيجة.

آن الآوان لرد الضربة، لكن تبين أنَّ تدريب اللبنانيين يثير المشاكل، لا يمكن التحكم بهم، كانوا يرغبون في القتل، يرغبون كثيراً. وبدأ رجال كايسي يخمدون. لا أحد داخل الوكالة أراد أن يواجه. رأى كايسي وجوهاً مضطربة وضائعة وخائفة من المواجهة الحقيقية للمخاطر. لقد سار معهم في طريق طويلة خلال السنين الأربع الماضية، ولكنَّ العديد منهم وخصوصاً مكماهون ومدير العمليات لم يفهموا مراده.

كان كايسي يرى أن الشيخ محمد حسين فضل الله الزعيم المسلم الأصولي هو الداعم الأول للخاطفين ولمخططي خطف الرهائن في بيروت، وأنه كان على علاقة وثيقة بالانفجارات الثلاثة في المؤسسات الأميركية في بيروت، وأن عليه أن يرحل.

فيما بعد اتخذ كايسي قراراً مؤثراً. لقد بدأت البيروقراطية في الوكالة تقاوم أكثر فأكثر التدابير العملية المضادة للإرهابيين. أتى برجل إنكليزي كان قد عمل في الخدمات الجوية الخاصة البريطانية وهي نخبة قوات الكوماندو العملانية. هذا الرجل كان قد سافر كثيراً في الشرق الأوسط وكان يدخل إلى لبنان ويخرج منه عن طريق دولة عربية أخرى. ويمكن له أن يكون قائداً مثالياً للعملية المعقدة. وكالة المخابرات المركزية لن تقوم طبعاً بأي شيء، وسوف يمكن للوكالة أن تنكر تورطها ومعرفتها المسبقة. كان الارتباط مع أجهزة الاستخبارات الأجنبية أحد نشاطات الوكالة التي لا يستطيع أعضاء لجان المراقبة في الكونغرس الوصول إليها. رفض كايسي بشكل قاطع أن يعلم اللجان حول هذا العمل الحساس. وفي هذه الحالة فإنَّ وكالة المخابرات المركزية كمؤسسة لا تعرف. لم يكن هناك أي شيء مكتوب، ولم

تكن هناك سجلات.

شكل الإنكليزي فروعاً عملانية لينفذ الأقسام المختلفة لخطة الاغتيال، ولم تكن لأي فرع القدرة على الاتّصال بالفرع الآخر إلاّ من خلاله. تمّ استئجار عدة رجال للحصول على كمية كبيرة من المتفجرات. وتمّ استئجار رجل آخر للحصول على سيارة. ودفعت مبالغ مالية لمخبرين لمعرفة مكان تواجد الشيخ فضل اللّه في جميع الأوقات. وتمّ استئجار مجموعة أخرى للتخطيط لعمل خداعي بعد التفجير بحيث أنّه لا يبدو مرتبطاً بالولايات المتحدة. واستأجرت الاستخبارات اللبنانية الرجال الذين سيتولون تنفيذ العملية.

في ٨ آذار/مارس ١٩٨٥ توجهت سيارة محملة بالمتفجرات إلى ضاحية بيروت، ووصلت إلى حوالى ٥٠ قدماً من منزل فضل اللّه الذي يقطن في الطوابق العليا. انفجرت السيارة وقتلت ثمانين شخصاً وجرحت مائتين وتركت الدمار والنار وانهار بعض الأبنية. لقد قتل أو جرح جميع الأشخاص الذين صادف وجودهم في المناطق القريبة مباشرة وأصيب العديد بالرعب. لكنَّ فضل اللّه لم يُصب بأذى. وعلق أتباعه علماً أمام البناية التي تفجرت كتبوا عليه بأحرف ضخمة «صنع الولايات المتحدة».

عندما سمع كايسي الأخبار أصيب بمغص في معدته. يجب تغطية الآثار بدقة. عممت المعلومات التي تفيد بأنَّ الإسرائيليين كانوا وراء تفجير السيارة. لكنَّ وكالة المخابرات المركزية عبر مخابرات دولة صديقة حاولت أن تثبت عدم تورطها. كان هناك طريقة واحدة. لقد أعطوا معلومات لا تقبل الجدل ساعدت فضل اللّه في القبض على بعض العاملين المستأجرين. فسر كايسي ذلك بقوله: «أنا أطلق النار عليك وأنت تشك فيّ فأتحول إلى سائقي وأقول إنَّه هو الذي أطلق النار، عندها تتأكد أنني لست مشبوهاً». ما زال فضل اللّه هو المشكلة. والآن أكثر من أي وقت مضى.

ومع أنَّ مهمة قتل فضل اللّه قد فشلت فقد بدأت الاستخبارات اللبنانية تأخذ رصيدها واعتبارها الخاص على الرغم من دورها الصغير نسبياً. كان إظهار القوة ضرورياً. يجب إظهار أنَّ الدم يواجه بالدم والإرهاب يواجه بالإرهاب. كان كايسي متضايقاً لأنَّ علاقة وكالة المخابرات المركزية مع الاستخبارات اللبنانية وتدريب وحدات للقيام بأعمال وقائية قد وضعا الوكالة في خطر. لقد كانت تلك الاستخبارات على علاقة وثيقة بخطة الاغتيال. لقد أراد مكماهون قطع هذه العلاقة وقال إنَّ على الوكالة أن تتخلى بسرعة عن التدريب على النشاط السري المضاد للإرهابيين. لم يكن أمام كايسي أية فرصة وألغيت المذكرة الوقائية.

على الرغم من ذلك كان يجب المحافظة على بعض العلاقات المستمرة مع الاستخبارات اللبنانية لأنَّ وكالة المخابرات المركزية اعتمدت عليها من أجل الحصول على المعلومات ولوضع أشخاص في مراكز تنصت. في آذار/مارس استدعي إلى واشنطن ضابطان لبنانيان برتبة مقدم وثلاثة ضباط برتبة رائد من الاستخبارات اللبنانية للتدريب على برنامج

عالي المستوى في وكالة المخابرات المركزية في مجالي التدبير والإدارة وذلك لمدة ثلاثة أسابيع. نزل الضباط في فندق فور سيزونز في جورجتاون وكان يتم نقلهم عدة مرات في اليوم إلى منزل آمن في مكلين حيث تلقوا محاضرات حول تصنيف المعلومات وعقدوا اجتماعات مع كبار المسؤولين في وكالة المخابرات المركزية وكان طعام الغداء يقدم لهم على يد طباخ آسيوي.

في نفس الوقت الذي حصل فيه انفجار ٨ آذار/مارس تقريباً تلقى كايسي أحد أهم التقارير الاستخبارية في ولايته. كان من مصدر هام وحساس داخل الاتحاد السوڤياتي. كانت وكالة المخابرات المركزية تراقب مرض الزعيم السوڤياتي قسطنطين تشيرنينكو الذي مضى عليه أكثر من سنة في الحكم. جاء في التقرير أنَّ تشيرنينكو قد توفي لكنَّ نبأ وفاته لم يعلن للشعب السوڤياتي ولبقية العالم حتى يختار المكتب السياسي زعيماً آخر. أرسل كايسي التقرير إلى البيت الأبيض. ومرت عدة أيام. لم يكن هناك أي تأكيد. لكنَّ كايسي كان يثق بالمصدر. يوم الأحد ١١ آذار/مارس استدعي مسؤول سوڤياتي كبير كان يزور الولايات المتحدة إلى وطنه. وفي اليوم التالي أتت الإشارة الصحيحة. بدأ راديو موسكو يبث الموسيقى الكلاسيكية ومن ضمنها موسيقى راحمانينوف. في الساعة السادسة صباحاً أعلن نبأ وفاة الزعيم السوڤياتي وبعد أربع ساعات قال السوڤيات إنَّ الأصغر سناً من بين الأعضاء العشرة في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوڤياتي ميخائيل غورباتشيف (٥٤ سنة) قد تمّ اختياره أميناً عاماً للحزب. لقد أظهر هذا الحل السريع وغير الطبيعي للخلافة أنَّ مصدر الوكالة كان صادقاً وصحيحاً. لقد أخفي موت تشيرنينكو عدة أيام. وشك كايسي في ذلك. لقد كانت ضربة استخبارية جيدة لوكالة المخابرات المركزية. لم يعد هناك أي عمل استخباري هام سوى مراقبة القيادة الجديدة في الاتحاد السوڤياتي. ولكنَّ غياب التفاصيل الأخرى أظهر الثغرات في الاستخبارات. ما هو نفع هذه التقارير السرية جداً؟ ماذا كان على البيت الأبيض أن يفعل بها؟ لقد كشفت الأخبار القليلة الواردة من الداخل ضعف معلومات وكالة المخابرات المركزية حول سير العمل في النظام السوڤياتي. عملياً لم تعلم الوكالة أي شيء عن المناقشات التي دارت بصدد الخلافة.

أعجب كايسي بالأنباء الصحافية التي رحبت بغورباتشيف الرجل السوڤياتي الجديد المنفتح والبراغماتي. لقد كان ابناً للنظام السوڤياتي. وكان يقود النظام السوڤياتي مؤخراً ثلاثة رجالٍ متوفين هم ليونيد بريجينيف ويوري أندروبوف وقسطنطين تشيرنينكو. هذا ومن المتوقع أن يكون غورباتشيف مختلفاً. لكنَّ كايسي كان متأكداً من أنَّ الاختلاف سيكون سطحياً. وتنبأ بأنَّ غورباتشيف سوف يصدر الثورات والمشاكل بنكهة جديدة. وقد أعجب كايسي بأسلوب غورباتشيف في اللعب بأوراق الزعامة، ووضع بعض رجاله الهامين في مناصب حساسة، وفي المكتب السياسي. كانت تقارير كايسي إلى البيت الأبيض تحذر من الأخذ بالمظاهر.

ما زالت الكونترا بحاجة إلى المال. فمنذ تشرين الأول/أوكتوبر ١٩٨٤ عندما قطع الكونغرس النفقة نهائياً كان على كايسي أن يعمل وفقاً لقانون ينص على أنّه لا يمكن صرف مال لوكالة المخابرات المركزية بهدف دعم مباشر أو غير مباشر لعمليات عسكرية أو شبه عسكرية في نيكاراغوا عن طريق أي مجموعة أو منظمة أو حركة أو فرد.

صادق كايسي على برقية جاء فيها: «على المحطات الميدانية أن تتوقف عن العمل لتأمين دعم مباشر أو غير مباشر لمختلف الهيئات التي تتعامل معها بموجب هذا البرنامج». يجب أن يكون أي اتّصال مع الكونترا منفرداً ومكرساً لهدف جمع معلومات استخبارية إيجابية ومكافحة التجسس، وذلك لصالح الولايات المتحدة.

عندما قام الجنرال المتقاعد جون سنيغلوب وهو عضو سابق في مكتب الخدمات الاستراتيجية والذي كان يجمع التبرعات الخاصة من أجل الكونترا برفع الموضوع إلى كايسي أجابه: «جاك.. سأرميك خارج مكتبي».

لكن في اجتماعات معدودة مع قائد الكونترا أدلفو كاليرو الذي كان يسمي كايسي «العم بيل» أصغى المدير بعناية للتقارير التي تفيد عن تقدم الكونترا واعتذر لأنَّ الوكالة لا تستطيع القيام بأي شيء بطريقة مباشرة.

جوزيف كورز وهو ثري جداً من ولاية كولورادو صاحب مصنع بيرة وصديق قديم لكايسي، زاره في مكتبه التنفيذي وطلب منه المساهمة مع الكونترا. قال له كايسي بوضوح: «عليك أن ترى نورث» وكان كورز متعاطفاً جداً مع قضايا المحافظين، وحشر نورث في زاوية مكتبه. أقنعه نورث بأن يعطي مبلغ ٦٥ ألف دولار لشراء طائرة خفيفة يمكن استعمالها على مدارج قصيرة، وأظهر لكورز صورة الطائرة. سماها نورث «طائرتك».

كان اسم الطائرة مول وكانت تعطى للأشخاص الهامين في مشروع الجنرال سكورد الكبير الذي أعده نورث ومكفرلين في مجلس الأمن القومي.

في أوائل عام ١٩٨٥ أمر كايسي بإجراء أربعة تقديرات استخبارية قومية منفصلة حول نيكارغوا: البناء العسكري الساندنيي حتى ٦٥ ألف عنصر، والجهود التي انصبت على تضامن وتوحيد السلطة في نيكاراغوا، والدعم الخارجي من الاتحاد السوفياتي وكوبا، وجهود الساندينيين لتصدير الثورة إلى جارتهم السلفادور وإلى أي مكان في أميركا اللاتينية.

قلّص كايسي الوثائق الأربع إلى جملة منفردة وقالها للرئيس: «لقد أنشأ الاتحاد السوفياتي والكوبيون رأس جسر موحد ووضعوا خلفه مئات الملايين من الدولارات... تخريب عدواني».

بعد ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٨٥ وبعد خطاب الولاية الثاني راقب كايسي بسرور تبادل الوظائف بين وزير المالية دونالد ريغان ورئيس أركان البيت الأبيض جيم باكر، أي أنَّ باكر انتقل إلى وزارة المالية، وريغان وهو صديق قديم من أيام وول ستريت انتقل إلى رئاسة

أركان البيت الأبيض. كان لباكر دائماً مفكرته الخاصة وفرض ضغوطاً كبيرة على الرئيس. وتحت الثلاثي باكر وديفر وميز كان للرئيس نظام من المساعدين المتنافسين كل واحد منهم يحاول أن يقضي على الآخرين. والحقيقة أنَّ أحداً منهم لم يكن قادراً على الحصول على أي شيء هام.

أما دونالد ريغان وهو مليونير ورئيس سابق لشركة ميريل وشركة لينش فقد كان راغباً بصورة مباشرة في تنفيذ رغبات الرئيس بالاشتراك مع أركان موحدين يعملون مباشرة له: وجد كايسي أنَّ الرئيس مرتاح أكثر ومتحرر في هذا الترتيب. لقد كان مرتاحاً مع نفسه وآرائه وغرائزه. في الاجتماعات وفر ريغان على نفسه الحاجة إلى أن يغوص في مجالات الأوساط الصحافية والكونغرس والمصالح داخل واشنطن التي كانت تبدو في وجهات نظر باكر. ساعد دونالد ريغان الرئيس، وتحدث الرئيس أكثر وأعطيت الأفضلية لملاحظاته الدقيقة. وغالباً ما كان يسأله رئيس الأركان الجديد: ماذا تريد؟

رأى كايسي أنَّ الفرصة سانحة لبذل جهد مركز لكسب النفقة للكونترا ولكن عندما كان يذهب إلى لجنتي الاستخبارات في الكونغرس كانوا يسألونه: متى تستطيع الكونترا تحقيق بعض النتائج؟ قال لبعض الجمهوريين بصفة خاصة: «لا يوجد أي كرة كريستالية. لا أستطيع أن أخبركم».

وصل الملك فهد عاهل المملكة العربية السعودية إلى واشنطن في ١١ شباط/فبراير ١٩٨٥ في إحدى أوائل الزيارات الرسمية خلال الدورة الثانية من رئاسة ريغان. قبل عدة أيام اجتمع مكفرلين مع السفير السعودي الأمير بندر وذلك لإعطاء الملك فهد اهتماماً خاصاً، وبحثا عن رمز يؤكد على سلطة الملك وأهميته ووافقا على عقد اجتماع خاص مع الرئيس ريغان.

تحادث مكفرلين وبندر في موضوع الكونترا. شعر مكفرلين مرة ثانية بأنَّ بندر كان يتطوع. بالنسبة إلى بندر كان الأمر التماساً واضحاً. وأشار بندر إلى أنَّ السعوديين ينوون مضاعفة مساهمتهم السرية ورفعها إلى مليوني دولار شهرياً وأنهم سيدفعون ١٥ مليون دولار على الأقل.

في ١٢ شباط/فبراير ١٩٨٥ تحدث ريغان وفهد بإيجاز في جلسة خاصة. أوضح الملك للرئيس أنَّ عطاء السعودية للكونترا كان يزداد، وشكره ريغان. ولكنَّ ذلك كان تثبيتاً مؤقتاً وكان مكفرلين قلقاً ومتأكداً من أنَّ سياسة دعم الكونترا ستكون فعالة فقط إذا حصلت على دعم واضح من الكونغرس. يجب إيجاد نفقة جديدة ومباشرة من الخزينة الأميركية. سمع الرئيس نصيحة كايسي وتكلم علناً وقال: «إنَّ الكونترا هم إخواننا وإننا لا نستطيع أن نتخلى عنهم في لحظة حرجة». وقال إنَّ الهدف هو أن نجعلهم يصرخون. وأضاف في خطاب لاحق: «إنَّهم في المنزلة الأخلاقية للآباء المؤسسين».

في ذلك الربيع ذهل كايسي عندما تحول انتباه الكونغرس إلى قضية منفردة تعالت

ضجة إعلامية حولها، وذلك عندما كان الرئيس يخطط لزيارة مقبرة النازيين في بيتبرغ ـ ألمانيا الغربية حيث دفن جماعات ال س. س (جهاز المخابرات الألماني في عهد هتلر). وتجمعت تهم المعاداة للسامية وعدم الحساسية ضد ريغان وأصيبت الإدارة بالشلل، وتراوحت مواقف أركانها بين التردد والدفاع.

قلق كايسي لأنَّه لم تكن هناك استراتيجية تشريعية حول التصويت القادم على قضية الكونترا. ولكنَّه لا يستطيع أن يفعل إلاَّ القليل. لقد كان رمزاً سلبياً وأراد أن يخفف من ذلك. في أسبوع التصويت ذهب إلى بيتسبورغ ليلقي خطاباً ويزور الصحف. في البيت الأبيض بدا وكأنه لا يوجد أحد في المنزل! في ٢٤ نيسان/أبريل قدم الأعضاء الديموقراطيون المعادون للكونترا القضية إلى التصويت. وقد هزم اقتراح بتخصيص ١٤ مليون دولار للكونترا كمساعدات غير عسكرية بأغلبية ٢١٥ ضد ٢١٣ ـ وصعق كايسي. كان ذلك بأصوات متقاربة. فلو تغير صوت واحد لأدى إلى التعادل ولو تغير صوتان لكان ذلك نصراً. ولاحظ أنَّه لو لم يكن لتيب أونيل معرفة براهبات ماينول اللواتي كن يكتبن له الرسائل لكان لدينا الآن برنامج للكونترا.

ألقى كايسي خطابات بشكل منتظم في جميع أنحاء البلاد. وكان أول خطاب ألقاه في ١٧ نيسان/أبريل في كامبريدج ماسا تشوستس في مؤتمر لمعهد فلتشر للقانون والدبلوماسية. كان الموضوع هو الإرهاب. وجلس لمدة ٤٥ دقيقة إلى المنصة يحني ظهره ويصعب سماعه أو فهمه، وقرأ خطابه المؤلف من ٢١ صفحة. وكنت(*) قد وضعت خطاً تحت جملتين من الخطاب على نسخة منه كان قد سلمها لي قبل أن يبدأ بالكلام: «نحن لن نمتنع عن استخدام القوة لنتقي أو نرد على الأعمال الإرهابية التي تستحق استخدام القوة. العديد من البلدان ومن ضمنها الولايات المتحدة لها قوات خاصة وإمكانيات لتنفيذ عمليات ضد المجموعات الإرهابية».

لم يكن هناك ضرورة لأن يتوصل كايسي في نهاية خطابه إلى استنتاج. وعندما انتهى وقف بشكل غير متوقع، ولم يكن أحد من الحضور قد أدرك أنَّه انتهى من كلامه، وقال شكراً جزيلاً. وقد لاقى استحساناً معتدلاً. ثمّ وقف وأجاب عن الأسئلة لمدة عشرين دقيقة. ثمّ أوضح أنَّه قد مل. سأله أحد الحضور ومعظمهم من المحافظين الأكاديميين: «ما هو الفرق بين الكونترا ومنظمة التحرير الفلسطينية؟».

أجاب كايسي بغضب: ماذا؟ ثمّ أعيد السؤال، وتعثر في كلامه، وقال أخيراً: الكونترا لهم بلد يحاولون استرجاعه بينما منظمة التحرير الفلسطينية ليس لها بلد.

كان مدير المخابرات المركزية يدرك أنني أخطط لوضع كتاب حول وكالة المخابرات المركزية. وتقدم نحوي وسألني إذا كنت أرغب في أن أطير معه عائداً إلى واشنطن على طائرة

(*) بوب وودورد. المؤلف.

خاصة بوكالة المخابرات المركزية. كان الوقت حوالى العاشرة مساء، وخرجت من الفندق الذي كنت قد حجزت فيه، وخرج كايسي أيضاً وكان يرتدي معطفاً ثقيلاً غالي الثمن له أزرار عادية، وبدا مثل طفل لا يعرف كيف يرتدي ملابسه، وتتولى أمه ذلك.

كانت طائرته من نوع غلفستريم، وتؤمن رحلات بطيئة. جلس كايسي على المقعد وفك ربطة العنق وأحضر مرافقه لنا قنينة وسكي وعلبة فستق ما لبث كايسي أن التهمها بيديه. وتركنا المرافق نتحادث لمدة ساعتين دون مقاطعة. قال إنَّه يريد من الآخرين في الوكالة تجنب المقابلات مع الصحافيين وحدهم. ثمّ تابع ليجيب عن جميع الأسئلة التي تناولت مواضيع عديدة من ضمنها الجنرال دونوڤان والتمر الاصطناعي الجديد لاكروس المعد لكل ظروف الطقس وعملية نيكاراغوا ورئيس محطة بيروت المخطوف بكلي والمؤتمرات الجمهورية التي حضرها منذ عام ١٩٤٠ وريغان وحكومة ريغان ومكماهون ووكالة المخابرات المركزية. وحول والده قال كايسي جملة واحدة: «كان خادماً في فندق صغير في مدينة نيويورك طوال حياته».

بعد أسبوعين طرت إلى نيويورك لأحضر خطابه على مائدة غداء في نادي متروبوليتان.

قال كايسي في افتتاحيته: عندما يطلب مني الكلام أقول إنني سأتكلم عن حالة الاستخبارات وهو موضوع لا أستطيع الكلام فيه بحرية. وهكذا سأتكلم عن حالة العالم وهو موضوع أعرف عنه أقل ولكني أتكلم فيه بحرية أكثر. وتلقى ضحكة طويلة وجيدة. وكان مرتاحاً أكثر مما كان في كامبريدج. إنَّ رفض الكونغرس تأمين المزيد من المال للكونترا خلال تلك الأسابيع قد أدى إلى إغاظته. وقال إنَّ الولايات المتحدة هي عملياً في حالة حربٍ مع الاتحاد السوڤياتي. «وهذه ليست حرباً غير معلنة». وقارن هذا الوقت بالسنين التي لم يحمل فيها هتلر على محمل الجد. والماركسية اللينينية قد أطلقت الفرسان الأربعة لسفر الرؤيا: المجاعة والطاعون والحرب والموت.

وتابع كلامه بحرية ظاهرة: «في البلدان المحتلة ـ أفغانستان وكمبوديا وأثيوبيا وأنغولا ونيكاراغوا ـ فرضت الأنظمة الماركسية بواسطة خارجية، وحصلت فيها محرقة مماثلة للتي حصلت في ألمانيا النازية في أوروبا منذ أربعين سنة».

عرض علي مرة ثانية أن أعود معه بالطائرة. تحدثنا عن ريغان والكونترا ولبنان والإرهاب وأصدقائه وأمواله وأهدافه. وتحدث عن طفولته في كوينز وهو عالم من الاندماج الدائم. كان يتنقل سيراً على الأقدام من وإلى المدرسة الرسمية، وكان هناك عراك القبضات. لقد تذكر ذلك. إنَّها كانت العشرينات بعد الحرب العالمية الأولى عندما كان يتعارك مع الأولاد: «أربح حيناً وأخسر حيناً». هل يتذكر أحداً من الأولاد الذين ضربهم؟ أجاب «طبعاً، هل تظن أني أنسى أحدهم؟» وحدق بصعوبة وكانت أسنانه مليئة بالفستق وقال لي: «وخاصة الذي ضربني». سرعان ما عدنا إلى موضوع الكونترا والخسارة في

تصويت الكونغرس «البيت الأبيض لا يمكنه أن يفعل شيئاً. الرئيس غير متحمس. وهو ما يزال له غرائزه. ولكنّه لن يركز على الأهداف». وهز رأسه برعب ظاهر: «الرئيس لا يعير انتباهاً للتوسع السوڤياتي».

تابع كايسي أنه صعق بسلبية الرئيس. السلبية حول عمله وحول تقربه في الحياة. لم يدع إلى اجتماعات ولم يضع مفكرة يومية. لم يقل لكايسي ولا مرة: «دعنا نفعل هذا» أو «إحصل لي على ذاك» إلاً في رد الفعل على أعمال الآخرين أو على الأحداث.

كان هناك حائط عاطفي داخل الرجل. ربما كان ذلك ردة فعل لوضع والده الذي كان سكيراً وعاطلاً عن العمل، في أيام الكساد. وذكر كايسي بتعجب أنَّ رئيس الولايات المتحدة كان يعمل من الساعة الخامسة بعد الظهر أيام الاثنين والثلاثاء والخميس ومن الساعة التاسعة إلى الساعة الواحدة بعد الظهر يوم الأربعاء حيث ينصرف إلى ركوب الخيل بعد الظهر أو إلى تمارين أخرى. يوم الجمعة يترك وقتاً ما بين الواحدة والثالثة لكامب ديڤيد. وخلال ساعات العمل في المكتب البيضاوي كان له غالباً وقت حرّ لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات تقريباً. كان يطلب بريد المعجبين ويطلع عليه ويجيب عليه!. وقد أمضى أمسيات وحيداً مع نانسي في المنزل حيث كانا يتناولان طعام العشاء على طاولات التلفزيون. وفي ليالي السبت في كمب ديڤيد حيث يمكن أن يكون لديهم أي ضيف من زعماء العالم كان الاثنان مولعين بالسينما القديمة، وانضمّ إليهما الأركان في مشاهدة الأفلام. وبدا كأنَّ كايسي يقول إنَّ هناك عدم تمرس بالسلطة وعدم تحمل للمسؤولية.

رأى كايسي أنَّ ريغان غريب. لقد قال ريغان إنّه لو كان أكثر نجاحاً في العمل السينمائي لبقي فيه. إنّه دائماً مرح وليس له أي صديق حقيقي إلاً نانسي. وله ذاكرة نصف فوتوغرافية. وكان قادراً على دراسة صفحة مطبوعة أو خطاب خلال عدة دقائق. كان كايسي تلميذاً جدياً لريغان. ولكنه قال إنّه لم يعد متحمساً له.

كانت الطائرة تهبط في قاعدة أندروز الجوية التي خرج منها كايسي في زيارة لمدة عشرة أيام إلى الشرق الأقصى والفيلبين حيث كانت هناك مشاكل وحيث خطط لاجتماع مع الرئيس ماركوس.

قال: لا تقل كلمة لأي كان. ثمّ طلب مني أن أبقى في الخلف من الطائرة، حتى صعد إلى الطائرة الكبيرة التي كانت بانتظاره ورأيت مجموعة من رجال وكالة المخابرات المركزية ينتظرونه على مدخل السلم. وكان من المقرر أن تقلني سيارة كبيرة إلى سيارة تاكسي، وقال لي: «يمكن أن يظنوا أنني كتوم لأنني أحضرتك معي إلى هنا».

حتى هذا النهار لم أعلم لماذا وافق على هذه المحادثات وعلى غيرها.

سافر رئيس نيكاراغوا أورتيغا إلى الاتحاد السوڤياتي جواً وطلب مساعدة بقيمة ٢٠٠ مليون دولار. وهذا ما لسع جميع الذين اقترعوا ضد مساعدة الكونترا. قال عدد من

المشرعين إنهم لو علموا ذلك مسبقاً فإنَّهم كانوا سيصوتون إلى جانب المساعدة. لم يعلم كايسي أي توقيت أسوأ: توقيت الإدارة أم توقيت أورتيغا.

أدرك كايسي أنَّ رفض الكونغرس لم يكن بالضرورة نهائياً. في البيت الأبيض اقترح عضو مجلس الأمن القومي أوليڤر نورث في مذكرة لمكفرلين أن يقدم الرئيس طلباً علنياً من أجل تبرعات خاصة لنيكاراغوا. أجابه مكفرلين بأن ينتظر. ولكنَّه وافق على تشكيل مؤسسة تمويل من أجل حرية نيكاراغوا. يمكن أن تكون مؤسسة معفاة من الضرائب، وحسب نورث فإنَّ مبلغاً يتراوح بين ١٥ و٢٠ مليون دولار يرفع عدد قوات الكونترا إلى ٣٥ ألفاً.

كان لنورث أيضاً ترتيبات لكوريا الجنوبية وتايوان لكي تساهما في تمويل الكونترا. وزاد نورث من دوره العملاني عندما طرح خطة لإغراق السفينة التجارية «المونيبو» التي كانت تشحن أسلحة للساندينيين.

ومنذ أكثر من شهر علمت(*) أنَّ الرئيس ريغان قد وقع مذكرة لإنشاء ثلاث وحدات لبنانية سرية للقيام بهجمات وقائية ضد الإرهابيين. حاول لودر رجل كايسي الصحافي أن يثني الواشنطن بوست عن نشر الخبر. وقد اكتشفنا فيما بعد أنَّ مذكرة سرية جداً قد ألغيت بعدما أدى تفجير السيارة في بيروت إلى مقتل ثمانين شخصاً. وقد علمنا فقط عن دور الاستخبارات اللبنانية عند هذا الحد ولم نعلم شيئاً عن دور السعوديين أو مساهمتهم بمبلغ ٣ ملايين دولار للعملية. لم نرَ أي سبب لوقف نشر هذا الخبر بما أنَّ العملية قد فشلت والمذكرة أصبحت من التاريخ.

قال لودر بغضب: «إنَّه مثل الضرب بالمطرقة على جرح قديم»، ونشرنا الخبر في عدد ١٢ أيار/مايو بعنوان: «إلغاء خطة مضادة للإرهاب بعد تفجير دون أمر».

بعد ثلاثة أيام كتب لودر إلى كايسي. «بدا واضحاً أنَّ وودورد كان يخطط للمضي قدماً في هذا الخبر دون اعتبار لما قلته له. لقد قلت له بقوة إنَّ خبره غير مسؤول أبداً، وأنها كانت دعوة إلى القتل». قلت: «إنَّه لو كان فضل اللّه، ورأى عدداً كبيراً من أنصاره ومن ضمنهم نساء وأطفال قد ماتوا من جراء التفجير ثمّ قرأ الواشنطن بوست، فإنَّه لن يستطيع إلاَّ أن يقوم بأعمال انتقامية ضد الأميركيين في لبنان أو غيره. . . لقد قلت لوودورد إنَّ مكماهون طلب مني أن أقول له إنَّه إذا نشر الخبر فلن يستقبله أحد في البناية بعد الآن».

«. . . وأضفت فيما بعد أنَّ هذا النوع من الأخبار غير المسؤولة سيظهر لنا أنَّ الواشنطن بوست لا تحترم الأميركيين في بيروت وأنَّها تتابع حملتها العنيفة التقليدية ضد المؤسسات، وهذه المرة مع أعضاء لجان المراقبة في الكونغرس وأركانها الذين لهم مفكرتهم الخاصة للأعمال الخفية، وأنَّها تخلق مشاكل للمجموعة الاستخبارية».

(*) المؤلف.

«. . . أضفت أنني أعتبر أعماله وأعمال الواشنطن بوست خسيسة. في المستقبل سوف نتعامل معه بالأسلوب نفسه الذي نتعامل به مع جاك أندرسون ووكالة تاس والصحافيين الآخرين من هذا النوع». (*)

اتّصل بي كايسي إلى الصحيفة وقال لي: «حياة الناس في خطر. لست متأكداً أنَّ هذا الخبر يجب أن ينشر ولكني لا أستطيع أن أتحكم بذلك، ربما يجب علي أن أتحكم». وأضاف أنَّ ذلك سيجعل الحياة أصعب له ولوكالته. وقال إنَّ لهذه القضية عواقب وخيمة وعلينا أن ننظر بعناية ليس إلى الحقائق فقط بل إلى الانطباع الذي نوجده. «كان يجب ألا تنشر هذا» وكانت لهجته واقعية ولكنها صارت باردة كالثلج.

قرأ كايسي مذكرة من خمس صفحات من إعداد غراهام فولر ضابط الأمن القومي للشرق الأدنى وجنوب آسيا وعنوانها: «نحو سياسة تجاه إيران».

جاء في المذكرة: «تواجه الولايات المتحدة وضعاً صعباً في تطوير سياسة جديدة نحو إيران. . . إنَّ نظام الخميني يتداعى وربما يصل إلى مرحلة انتهائه. قريباً سنرى صراعاً على الخلافة وليس للولايات المتحدة أوراق لتلعبهـا بينما يمتلك الاتحـاد السوفيـاتي العديـد من الأوراق».

استند فولر على الدعامتين الأساسيتين لسياسة الولايات المتحدة: حظر الأسلحة عن إيران، والتحضير لردود الفعل على الإرهاب المنفذ بإيحاء إيراني. قال إنَّ هذه السياسات أصبحت سلبية وتخدم المصالح السوفياتية أكثر من مصالحنا.

«إنَّه من الضروري أن نفكر بسياسة أوضح أو أكثر تعرضاً للأخطار تضمن إسماع صوت الولايات المتحدة في الوضع الراهن».

«لم يتقدم أي شخص بفكرة لامعة حول العودة إلى طهران».

شعر كايسي بأنَّه قد حان الوقت لذلك. كان منذ أشهر يحث فولر على أن يأتي ببعض الاقتراحات. لقد قرر أن يقوم في دورة الرئاسة الثـانية بعملين معاً كل شهـر في وكالـة المخابرات المركزية. يجب أن يكون هناك معنى لهذين العملين. كان يتمتع بالحرية وبإمكانه أن يتخذ مبادرات وبإمكانه تحريك أشياء وتمرير بعض الأفكار الجديدة. أرسل نسخة عن ورقة فولر إلى شولتز.

بعد ثلاثة أيام صدر تقدير استخباري قومي خاص بعنوان: «إيران: نظرة عامة لعدم استقرار قريب» جاء فيه بوضوح إنَّ الولايات المتحدة لن تكون لاعباً في إيران. وكان كايسي سعيداً عندما علم أنَّ عدداً من أركان مكفرلين في مجلس الأمن القومي قد أعدوا مسودة قرار

(*) حفظت الملاحظات المفصلة لجميع محادثاتي مع لودر وليس لدي أي شيء جديد أقول إنَّه قاله أو أتذكر أنَّه قاله. المؤلف.

أمني قومي إلى الرئيس ريغان ليوقعه. تتضمن السماح للولايات المتحدة ببيع الأسلحة إلى إيران وبتأمين تجهيزات عسكرية متنوعة لإيران تحدد وفقاً لكل حالة. كتب كايسي إلى مكفرلين: «أنا أؤيد بقوة الاندفاع الذي تعبّر عنه المسودة حول السياسة الأميركية تجاه إيران وخاصة لجهة التركيز على اتخاذ خطوات صلبة ومنتظمة لدعم جهود الولايات المتحدة لضمان أن لا يكون الاتحاد السوفياتي المستفيد الوحيد من التغيير والاضطرابات في هذا البلد الحساس».

كتب شولتز لمكفرلين يقول إنّه «غير موافق وخصوصاً أنَّ مجموعات على علاقة وثيقة بإيران تحتجز رهائن أميركية في لبنان». وكتب وينبرغر «سخافة» على نسخته وقال إنَّ «هذه سخرية كمن يدعو القذافي إلى غداء عائلي». لكنّ كايسي كان يعلم أنَّ رفض وزيري الخارجية والدفاع لم يكن مميتاً للفكرة.

استمر احتجاز الرهائن في بيروت. ديفيد جاكوبسون مدير مستشفى الجامعة الأميركية خُطف في ٢٨ أيار/مايو ورئيس محطة وكالة المخابرات المركزية كان ما يزال محتجزاً منذ أكثر من سنة. يجب القيام بعمل ما حتى ولو كان غير عادي.

في البيت الأبيض وضع نورث خطة. قام مسؤولان من مكتب المخدرات بالاتصال بأحد المخبرين اللذين استخدماه عن طريق تهريب الهيروين في الشرق الأوسط. قال إنَّه يلزمه ٢٠٠ ألف دولار لتحرير رهينتين أميركيتين وقد يكون بكلي بينهما. وشكّ عاملو وكالة المخابرات المركزية في ذلك. كانت سياسة الولايات المتحدة تقضي بعدم دفع أية فدية. كيف يمكنهم التأكد من أنَّ المخبر كان صادقاً؟ وحصل مكفرلين على موافقة الرئيس على خطة لتقديم المال. وكلف نورث بهذا العمل. اتصل نورث بالملياردير التكساسي روس بيروت الذي استأجر عام ١٩٧٩ فريق كوماندو مؤلف من سبعة عناصر لإنقاذ اثنين من موظفيه المحتجزين في إيران ـ ونشرت هذه القصة في كتاب كين فوليت «على أجنحة النسور» والذي كان من أكثر الكتب مبيعاً وأعدّ للتلفزيون كمسلسل ولقي نجاحاً كبيراً ـ كان بيروت يخدم في هيئة استشارات الاستخبارات الخارجية للرئيس منذ العام ١٩٨٢ وكان يرغب دائماً في مساعدة البيت الأبيض، وقد أرسل المال المطلوب.

في ٧ حزيران/يونيه ١٩٨٥ تلقى مفكرلين مذكرة تحت طابع سري جداً/للنظر فقط/حساس/تنفيذي من أربع صفحات. قال نورث: إنَّ مبلغ الـ٢٠٠ ألف دولار سيكون فقط دفعة أولى وأنَّه اجتمع بالوسيط في واشنطن. أضاف نورث أنَّه يمكن إنقاذ الرهائن بدفع مليون دولار لكل شخص، وافترض أنَّه لا يمكن التفاوض بأقل من هذا السعر لكثرة الأشخاص المطلوب رشوتهم. ووقع مكفرلين بالأحرف الأولى ««RCM» في خانة المصادقة. وتمّ تسليم ٢٠٠ ألف دولار للمخبر ولم يحدث أي شيء.

في ١٤ حزيران/يونيه ١٩٨٥ قام رجلان لبنانيان بخطف طائرة تابعة لشركة تي ـ

دبليو- أي TWA الرحلة ٨٤٧ في طريقها من أثينا إلى روما وأجبراها على الهبوط في مطار بيروت ومن ثمّ طارت إلى الجزائر. وهكذا بدأت محنة خطف استمرت سبعة عشر يوماً. تلقت غرفة الأوضاع في البيت الأبيض ومركز عمليات وكالة المخابرات المركزية أفضل المعلومات من مراسلي التلفزيون الذي أجروا مقابلات مع الطيار وأشرفوا باستمرار على مسرح عملية الخطف. وقد قتل بحار أميركي يدعى روبرت دين ستيثم وعمره ٢٣ سنة لكن جميع المسافرين الآخرين ومن ضمنهم ٣٩ أميركياً أطلق سراحهم دون أذى.

أدرك مكفرلين وكايسي وبعض المسؤولين الرئيسيين في الأمن القومي أنَّ الإدارة كانت محظوظة بالمقارنة مع أزمة الرهائن في عهد كارتر والتي استمرت لمدة ٤٤٤ يوماً. ولكنهم أدركوا أيضاً أنَّ الرحلة ٨٤٧ لشركة TWA قد أظهرت ضعف الإدارة في مكافحة الإرهاب وعدم فعالية سياستها في هذا المجال. لقد حرضت مشاهد التعذيب التي عرضت على شاشات التلفزيون المجانين والمتعصبين ليضربوا ضرباتهم، ثمّ يستدعون بعدها كاميرات التلفزيون. مع أنَّ كايسي لم يكن متأكداً ممن كان وراء عملية خطف الطائرة فإنَّ معلومات الاستخبارات ركزت على القذافي وليبيا. وكان القذافي يستعمل معدات عادية وغير معقدة وشيفرات في اتصالاته وكانت وكالة الأمن القومي تحل الاتصالات الملتقطة فوراً. وأظهرت هذه الاتصالات أنَّ القذافي هو أكثر الإرهابيين فعالية. كما أنَّ رجاله كانوا يتركون آثاراً وراءهم. أما سوريا وإيران فكانتا على العكس من ذلك منظمتين وتعملان في الخفاء. وقد سنحت الفرصة الآن لتحقيق الهدفين التوأمين: مقاتلة القذافي ومقاتلة الإرهاب.

حافظ كايسي على قرع الطبول وحث الضمائر حول نشاطات القذافي من خلال تقارير الاستخبارات والتقديرات الدورية. في آذار/مارس ١٩٨٥ صدر تقدير استخباري قومي خاص بعنوان: «قذافي ليبيا: تحدي مصالح الغرب والولايات المتحدة» يقع في ٢٣ صفحة ويتنبأ بأنَّ القذافي سيثير المشاكل في العالم خلال الثمانية عشر شهراً القادمة. أظهرت الاستخبارات أنَّ ليبيا كانت تمول حوالى ٣٠ منظمة إرهابية وثورية وراديكالية. تضمن هذا التقدير خريطة كاملة للعالم بالألوان تظهر فيها مخالب التخريب وهي تتمدد في العالم، كما ظهرت صور التوسع السوفياتي في الخمسينات في خريطة جون بيرش، وتبين منها أنَّ العالم يتجه نحو اللون الأحمر بازدياد واضح. وفي هذا التقدير كان اللون الأحمر على الخريطة يمثل المناطق التي كان القذافي يدعم فيها المجموعات الإرهابية ومجموعات الثوار ومن ضمنها غواتيمالا، السلفادور، كولومبيا، تشيلي، الدومينيك، إسبانيا، تركيا، العراق، لبنان، باكستان، بنغلادش، تايلاند، الفيلبين، النيجر، تشاد، السودان، ناميبيا وثمانية بلدان إفريقية أخرى.

وكان اللون الأصفر يمثل المناطق التي تتدخل فيها استخبارات القذافي وذلك عن طريق تأمين الدعم المالي للمعارضة السياسية أو للسياسيين اليساريين، ومن ضمنها النمسا،

بريطانيا، كوستاريكا، سانت لوسيا، الدومينيك، انتيغوا، أستراليا.

وفي خريطة أخرى للتقدير رسمت دائرة كبيرة مركزها ليبيا وتمتد حول النصف الشمالي لقارة إفريقيا إلى البحر المتوسط وتصل إلى قرب موسكو. كان هذا هو المدى الأقصى الذي يستطيع فيه القذافي مد قواته العسكرية بواسطة القاذفات السوفياتية تي يو ٢٢ وغواصات من طراز ف. وجاء في التقدير أنَّ القذافي أصبح واثقاً من نفسه ويطمح إلى مزيد من المغامرات الخطرة. أضاف التقدير في قسم حساس: نحن نعتقد بأنَّ القذافي يمكن أن يوجه ضربة إلى الأشخاص الأميركيين أو المؤسسات الأميركية إذا توفرت له الشروط التالية:

- إذا استطاع أن يكمل هجومه دون انتقام أميركي.
- إذا تبين له أنَّ الولايات المتحدة قد ساهمت بتهديد شخصه أو كانت تحاول فعلاً الإطاحة بنظامه.

كان كايسي فخوراً بالتقدير الذي وضع الأصبع على المشكلة. وقد اعترض قسم الاستخبارات في وزارة الخارجية على التقدير وقال أنَّ هدف القذافي الأساسي كان القضاء على خصومه والهدف الثاني كان السيطرة الإقليمية.

في البيت الأبيض أبقى مكفرلين القذافي في دائرة الانتباه.

في ٣٠ نيسان/أبريل وقع الرئيس ريغان توجيهات قرار أمني قومي رقم ١٦٨ وعنوانه: «سياسة الولايات المتحدة تجاه شمال إفريقيا». وجاء في هذه التوجيهات التي بلغت ست صفحات: تشكيل مجموعة داخلية من مجلس الأمن القومي لمراجعة الاستراتيجية تجاه ليبيا وتحضير الخيارات السياسية لاحتواء نشاطات القذافي التخريبية». وكان هناك ستة أوامر للوزارات الأساسية، والأكثر أهمية كان تكليف وزارة الدفاع دراسة برنامج للمناورات العسكرية، ووضع اختيارات للمستقبل وتوصيات. وكان الاسم العملاني للمناورات العسكرية قرب الساحل الليبي: «ستيرستيب».

بينما كان كايسي يتابع حملته ضد القذافي أدرك الجميع في وكالة الأمن القومي والمحللون في جميع وكالات الاستخبارات أنَّه كان دائماً يريد تقارير. وهكذا أذكوا النار. وجاء في «يومية الاستخبارات القومية» عدد ٩ أيار/مايو ١٩٨٥ تحت طابع سري جداً: «مراجعة حول ليبيا بمناسبة ذكرى مرور سنة على المحاولة الانقلابية في ٨ أيار/مايو ١٩٨٤» عندما هوجم مقر القذافي. جاء في المراجعة أنَّ القذافي ما زال إرهابياً فعالاً وأنَّ ليبيا كانت تخطط لتفجير شاحنة محملة بالمتفجرات في السفارة الأميركية في القاهرة. وكان المبعدون الليبيون برئاسة الجبهة الوطنية لخلاص ليبيا يأملون بتفجير مؤسسة عسكرية في ليبيا لإثبات وجودهم على أرض القذافي.

كانت متابعة النشاطات الليبية تتم يومياً. وكانت ليبيا تفاوض لشراء طائرات ميغ ٢٩ المتطورة ودبابات ت ٣٢ من الاتحاد السوفياتي، كما كانت تفاوض على صفقة أسلحة بقيمة

٥٠٠ مليون دولار مع اليونان وكانت تخطط لمناورات عسكرية لمدة شهرين مع تركيا. ورد تقرير من مصدر بشري عن تشكيل وحدتين بحريتين للعمليات الخاصة وذلك لتنفيذ عمليات كوماندو وعمليات إرهابية بقيادة الكولونيل حجازي وهو من المساعدين للعقيد القذافي. وأظهرت صور الأقمار الاصطناعية شحنات صواريخ لطائرات ميغ ٣٤ وطائرات فلوغر الاعتراضية وغيرها.

استنتج أحد التقارير أنَّ خصوم القذافي في المنفى لم يشكلوا أي تهديد رئيسي لحكمه، ولكنه لاحظ أنَّ المبعدين كانوا يتلقون الأموال ويتدربون ويستعملون أراضي مصر والجزائر والعراق ويدعمهم جناح ياسر عرفات في منظمة التحرير الفلسطينية.

هكذا وبعد أزمة طائرة TWA في حزيران/يونيه قررت الإدارة أن تبدأ العمل. في منتصف تموز/يوليو عقد اجتماع لمجموعة تخطيط الأمن القومي في البيت الأبيض بحضور الرئيس ريغان وبعض كبار المستشارين في السياسة الخارجية. افتتح مكفرلين الاجتماع قائلاً إنَّ القيود الاقتصادية والضغوط الدبلوماسية لم تنه القذافي ولم تحجمه، وهناك حاجة إلى تدابير أقوى. وافق شولتز ووينبرغر والآخرون. وكان هذا الإجماع الواسع نادر الحصول وتمّ اعتماد خطة على جميع الجبهات.

كان اسم الشيفرة السري جداً الذي أطلق على جميع العمليات والخطط الموجهة ضد القذافي هو: «الوردة» وسمح لبضعة مسؤولين فقط من ضمنهم الرئيس وكايسي بالاطلاع على العمليات.

تحت «الوردة» أعطى اسم الشيفرة «الزنبقة» للعمليات التي تستهدف الإطاحة بالقذافي وذلك بدعم حركات المبعدين المعادية له ومنها الجبهة الوطنية لخلاص ليبيا. وكذلك دعم جهود بعض البلدان الأخرى مثل مصر التي كانت تريد الإطاحة به أيضاً.

«الزهرة» كان أيضاً الاسم السّيفرة الذي أعطي للضربة العسكرية الوقائية على ليبيا بالإتفاق مع حلفاء الولايات المتحدة وخاصة مصر. كانت مهمة الولايات المتحدة تأمين الدعم الجوي وهناك هدف واحد فقط هو ثكنة القذافي التي تعتبر مركز تنسيق العمليات العسكرية والإرهابية.

في أحد الاجتماعات طرح سؤال كان قد حيّر الإدارة الأميركية منذ سنين: هل يعتبر هذا اغتيالاً؟ قال الرئيس إن عليهم أن لا يقلقوا حول منع الاغتيال وإنه مستعد شخصياً لتحمل حرارة الموقف إذا قتل القذافي. لم يسأل أحد المزيد واعتبرت المشكلة بحكم المحلولة. وجرى تنسيق بين الضغط السري في «الزنبقة» والتخطيط العسكري في «الزهرة» وفي حال فشل هاتين العمليتين فيمكن أن تشكلا حالة إنذار وأزمة داخل ليبيا تمكّن العناصر المعادية للقذافي في الجيش الليبي من الإطاحة به. وتم تحضير خطاب للرئيس للاعلان عن الهجوم الانتقامي أو الوقائي فور حصوله.

في لانغلي أجرى بوب غايتس المعاون لشؤون الاستخبارات دارسة سريعة حول شروط وأوضاع العمل العسكري الوقائي وقدمها إلى كايسي. وجاء في الاستنتاج الذي قدمه في ورقة سرية جداً في ١٥ تموز/ يوليو: «على الرغم من المحاذير الموجودة فإن هناك فرصة لإعادة رسم خريطة شمال افريقيا.».

خلال أزمة خطف طائرة الـTWA في حزيران/ يونيه قال جون شاهين الصديق القديم لكايسي إن رجلاً متهماً بمحاولة بيع الأسلحة لإيران صرح بأن وزارة الخارجية الإيرانية كانت تواقة لتبادل صواريخ تاوTow المضادة للدروع بالرهائن الأميركية. اعتبر كايسي هذا بمثابة إشارة.

في ٨ آب/ اغسطس وبينما كان العمل في خطة ليبيا مستمراً حضر كايسي اجتماعاً لمجموعة تخطيط الأمن القومي في البيت الأبيض في منزل ريغان بحضور الرئيس وبوش وشولتز ووينبرغر ودونالد ريغان ومكفرلين وبواندكستر. عرض مكفرلين خطة تقوم إسرائيل بموجبها بشحن صواريخ تاو المضادة للدروع إلى إيران وتعوض الولايات المتحدة النقص في الترسانة الإسرائيلية. وكعلاقة ثقة تتولى إيران إطلاق سراح بقية الرهائن الأميركية في لبنان.

عارض شولتز ووينبرغر ولكن كايسي أعجب بالاقتراح الذي تبين أن وراءه ديڤيد كيمحي الرجل رقم ٢ في وزارة الخارجية الإسرائيلية. حضر مكفرلين باكراً إلى كايسي وأوجز له عن احتمالات النجاح. كان كيمحي قد طلب من مكفرلين أن لا يستشير أحداً في الحكومة الأميركية ولكن مكفرلين قال إنه يحتاج إلى تقويم كايسي الشخصي. وكان من المقرر أن تبقى وكالة المخابرات المركزية خارج العملية. وهذا الإبعاد قد يؤدي إلى تحرير بعض الرهائن وذلك لأن تورط وكالة المخابرات المركزية يحتاج إلى مذكرة ويليها إعلام لجنتي الاستخبارات في الكونغرس. ولا يمكن الثقة بالكونغرس في هذا النوع من العمليات.

تلقت وكالة المخابرات المركزية تقارير تفيد بأن رئيس محطة بيروت بكلي وهو محتجز الآن منذ حوالي ١٨ شهراً قد قتل. إلا أن كايسي تمسك بالأمل خصوصاً إذا تحسنت العلاقة مع الإيرانيين.

عين المقدم أوليڤر نورث ضابطاً عملانياً للعملية، وأصدرت له وزارة الخارجية جواز سفر باسم وليم غود ووضع نائب مكفرلين الاميرال بواندكستر قناة خاصة داخلية في مكتب نورث على جهاز الكومبيوتر الخاص بمجلس الأمن القومي وسمي «الشك الأبيض الخاص».

في ١٢ أيلول/ سبتمبر اتصل نورث بشارلز آلين ضابط الأمن القومي لشؤون مكافحة الإرهاب في وكالة المخابرات المركزية، والذي كان أفضل المطلعين على الوضع في إيران في وكالات الاستخبارات الأميركية. أدرك نورث أنه لا يمكن الوثوق بإيران وطلب الإطلاع على المعلومات المتوفرة، وطلب من وكالة الأمن القومي التنصت على أهداف في إيران ولبنان. وكان الهدف الأول هو الوسيط الإيراني ما نوشر غوربانيفار الذي كان على لائحة المراقبة

لاتصالاته الهاتفية بأفضلية مطلقة وكذلك على برقياته وتحويلاته المصرفية. كان غوربانيڤار الوسيط الهام بين إيران وإسرائيل في نقل السلاح. أعطى نورث توجيهاته بأن يقتصر تعميم الالتقاطات عليه وعلى كايسي ومكفرلين ووينبرغر الذي يجب أن يبقى مطلعاً لأن وزارة الدفاع ستتولى استكمال الترسانة الإسرائيلية. ومنعت هذه الالتقاطات عن شولتز وعن الجميع في وزارة الخارجية.

كان غوربانيڤار معروفاً جيداً في وكالة المخابرات المركزية وكان مصدراً سرياً منذ عام ١٩٧٤ وهو رجل ذو عدة وجوه، نصف سياسي ونصف رجل أعمال ومن الذين يتسكعون على أبواب أجهزة الاستخبارات. عام ١٩٨١ صب الزيت على نار الاشاعات حول فرق الضرب الليبية، التي زعم أنها أتت إلى الولايات المتحدة لقتل ريغان وكبار مساعديه. وكشفت الوكالة أن معلومات غوربانيڤار ليست خاطئة فقط بل من نسجه. عام ١٩٨٣ أنهت الوكالة علاقتها معه كمصدر. عام ١٩٨٤ أصدرت الوكالة مذكرة حذرت فيها من أن غوربانيڤار هو مركب أخبار موهوب لقد عرض مرة تقديم معلومات حول إيران لدولة أخرى بشرط أن يسمح له بتهريب المخدرات من تلك الدولة. وقد فشل في اختبارين لكشف الكذب على آلة البوليغراف في وكالة المخابرات المركزية. كان كايسي حذراً من خطر غوربانيڤار. ولكن الأخير كان من الناس الذين سرعان ما يصبحوا من عملاء أجهزة الاستخبارات!

كانت عملية بيع الأسلحة معقدة بسبب عدم الثقة بين إيران وإسرائيل، فإيران لا تدفع ثمن الأسلحة حتى تستلمها وإسرائيل لا تسلم صواريخ تاو حتى تقبض ثمنها. ولكسر هذا الجمود حصل غوربانيڤار على قرض من رجل الأعمال السعودي عدنان خاشقجي الذي أمن مبلغ خمسة ملايين دولار ثمن ٥٠٨ صواريخ تاو. في ١٥ أيلول/ سبتمبر أطلق سراح الرهينة الأميركية بنجامين وير.

رأى كايسي أن الرهائن والارهابيين يستهلكون البيت الأبيض والرئيس، وأن البيت الأبيض قد نظر إلى اطلاق سراح وير باهتمام كبير.

بعد فترة بدأ مجلس الأمن القومي يدفع بخطة «الزهرة» إلى هجوم عسكري أميركي مصري على ليبيا. كانت هناك انقسامات عميقة بين كبار مساعدي ريغان، فقد عارض شولتز واستدعى بصورة سرية السفير الأميركي في القاهرة نيكولاس فيليوتيس إلى واشنطن وذلك كي يرد بالحجة على خطط مجلس الأمن القومي. قال أحد كبار مساعدي شولتز لفيليوتيس عندما وصل إلى واشنطن: «لن تصدق أن هؤلاء المجانين في البيت الأبيض قد وصلوا إلى هذه النتيجة»، وبعد أسبوع من العمل المكثف اعتقد شولتز وفيليوتيس بأنهما قد حوّلا الخطة إلى خطة طوارىء وإلى سيناريو رد فعل ودفاع.

كان مكفرلين يركز على القمة المقبلة بين ريغان وغورباتشيف وعهد إلى نائبه بواندكستر

بالتخطيط لعملية ليبيا. أصرَّ بواندكستر على أن يزور القاهرة بنفسه ليجتمع مع الرئيس المصري حسني مبارك وذلك لمتابعة «الزهرة». حاولت وزارة الخارجية وفيليوتيس إلغاء الزيارة إلا أن بواندكستر وصل إلى القاهرة بعد عطلة عيد العمال حاملاً معه وعداً بالدعم القتالي المباشر من الولايات المتحدة. وقبل أن يعرض بواندكستر نصه المتشدد للخطة قاطعه الرئيس المصري مبارك وهو رجل غير صبور ويفضل التكلم على الاستماع، قائلاً:

- «أنظر أيها الاميرال. عندما نقرر أن نهاجم ليبيا سيكون ذلك قرارنا وفي الوقت الذي نحدده».

عقد بواندكستر اجتماعات مع مسؤولين كبار في وزارة الدفاع المصرية الذين تلقوا عرضه بطريقة أفضل. وعلى الرغم من نفور مبارك الظاهر اقتنع بواندكستر بأن الرئيس ريغان كان راغباً في العمل وفي النهاية هذا هو العامل الأهم.

في تشرين الأول/ اوكتوبر خطف أربعة عناصر من منظمة التحرير الفلسطينية السفينة الإيطالية أكيلي لاورو وعلى متنها ٤٣٨ شخصاً. عندها أعطى البيت الأبيض إنذاراً حول الإرهاب. وقتل شخص أميركي واحد عمره ٦٩ سنة يدعى ليون كلينغوفر وهو مشلول ويستعمل الكرسي الخاص بالمعاقين ورمي في البحر. كانت هذه إشارة واضحة. فالسفينة التي تحمل الرهائن والخاطفين كانت تتجه إلى مصر.

كان الرئيس المصري مبارك يكره نظام أمن الاتصالات الذي جهزته به الولايات المتحدة. وكانت له آلة من طراز «اضغط لتتكلم» إذ إن الشخص في الطرف المقابل لن يستطيع الاستقبال وهو يتكلم. وهذا ما جعل من الصعب عليه أن يقاطع. ولهذا استعمل مبارك الهاتف العادي. أعطيت الأوامر لجمع المعلومات في مصر بواسطة وكالة الأمن القومي والاقمار الاصطناعية. وفي صباح يوم الخميس ١٠ تشرين الأول/ اوكتوبر التقط حديث بين مبارك ووزير خارجيته ووصلت المعلومات إلى غرفة الأوضاع في البيت الأبيض في غضون ساعة ونصف في رسالة مشفرة وسرية جداً. كان مبارك قد أعلن أن الخاطفين الأربعة قد غادروا مصر. إلا أن مبارك وفقاً لما جاء في الالتقاط أخبر وزير خارجيته بأن الخاطفين ما زالوا في مصر. وقال إن جورج شولتز يكون مجنوناً إذا فكر في أن مصر يمكن أن تسلم الخاطفين إلى الولايات المتحدة كما طلب. مصر دولة عربية ولا يمكنها تسليم الإخوة في منظمة التحرير الفلسطينية.

بحلول الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم (١٠ تشرين الأول/ اوكتوبر) ورد إلى غرفة الأوضاع في البيت الأبيض التقاط آخر ذكر فيه مبارك رقم الطائرة التي ستقلع في غضون بضع ساعات وعلى متنها الخاطفون الأربعة. وكانت الطائرة المصرية من نوع بوينغ ٧٣٧ جاثمة على المدرج في قاعدة الماظة الجوية في القاهرة.

أدرك نورث أن معلومات دقيقة كهذه كانت نادرة الحصول وهي فرصة لا تعوض،

وقدم خطة عاجلة إلى بواندكستر: اعتراض الطائرة المدنية المصرية وإجبارها على الهبوط في مطار تابع لحلف الأطلسي في صقلية، ومن ثم إلقاء القبض على الخاطفين. تم إبلاغ الرئيس الذي كان في شيكاغو بالخطة ووافق عليها.

خلال بقية بعد الظهر أمنت وكالة الأمن القومي عشرة التقاطات لمبارك يشرح فيها الخطة النهائية لنقل الخاطفين إلى خارج مصر وبدا كأن بواندكستر ونورث كانا في مكتب الرئيس المصري. أظهرت الالتقاطات تألم الرئيس المصري وهو يناور لأنه في البدء لم يعلم بمقتل كلينغوفر وعندما عرف ذلك أدرك أن الولايات المتحدة ستتدخل. لقد صرخ على مساعديه طالباً أن يعرف لماذا لم يخبروه في الحال.

أوصلت وكالة الأمن القومي إلى البيت الأبيض معلومات تتعلق بتوقيت وصول الخاطفين الأربعة إلى الطائرة ورقم الرحلة وخطة طيران عناصر منظمة التحرير الفلسطينية إلى الجزائر. بعد الظهر قامت أربع طائرات ف ١٤ من حاملة الطائرات الأميركية ساراتوغا باعتراض الطائرة المصرية وإجبارها على الهبوط في صقلية في إيطاليا. وكان من المقرر أن تحاكم إيطاليا الخاطفين.

في صباح اليوم التالي وقف ريغان عندما دخل بواندكستر إلى الغرفة ورفع يده بتحية عسكرية وقال: «أنا أحيي البحرية». كانت رزمة من الأوراق بسماكة انش تقريباً تحتوي على نصوص أحاديث مبارك وهي مفتاح العملية وأعطت فكرة واضحة عن الخطط الخاصة والنوايا والحالة العقلية. وكشفت عن تصميم مبارك على تسليم الخاطفين إلى منظمة التحرير الفلسطينية. بعد هذا النجاح الباهر تدفق المديح على ريغان من الرأي العام الجمهوري والديمقراطي. لقد كان ذلك أول نصر ساحق وواضح على الإرهابيين. عندما التقى الرئيس بكايسي في المرة التالية أحنى ظهره أمام مدير المخابرات المركزية. لقد كان نصراً رائعاً لكايسي. قال عدد من المشككين ومن ضمنهم غايتس إن الاستخبارات التكتيكية لم تكن عملاً دائماً وواقعياً وعندما تقوم بها وكالات الاستخبارات فإن ذلك يكون من قبيل الحظ. لكن كايسي صنع حظه الخاص وكان ذلك دليلاً على قيمة التجسس وأهميته.

بعد حوالى أسبوعين اكتشف الرئيس مبارك جهاز تسجيل في مكتبه الخاص، ولكن كان لوكالة الأمن القومي أساليب أكثر تطوراً للحصول على النصوص، ومن ضمنها نص آخر في ذلك الشهر يظهر غضب مبارك من السوريين لإعادة جثمان كلينغوفر الذي رسا على الشاطىء إلى حكومة الولايات المتحدة. قرأ كايسي بإعجاب شديد تقريراً يفيد بأن الدبلوماسيين السوفيات الثلاثة الذين اختطفوا في بيروت ذلك الخريف قد أطلق سراحهم بعد شهر، وكان الرابع قد قتل بعد خطفه بقليل إلا أن الثلاثة تحرروا. وسرعان ما وصلته معلومات أكيدة من الإسرائيليين بأن هذا العمل الفذ قد تحقق بعد أن اعتقلت المخابرات السوفياتية KGB أحد أقارب أحد زعماء حزب الله وأطلقت النار على رأسه وأرسلت جثته

إلى حزب الله، وأرفقت بها رسالة تقول إن اعضاء آخرين في حزب الله سيموتون بنفس الأسلوب إذا لم يطلق سراح الدبلوماسيين الثلاثة. وبعد ذلك بوقت قصير أطلق سراح الثلاثة وهم: ملحق في السفارة، والممثل التجاري، وطبيب في السفارة، وتركوا على بعد مسافة قليلة من مبنى السفارة السوڤياتية. ووزع بعدها بيان بالهاتف على الصحف يقول إن اطلاق سراح المخطوفين يدل على حسن النية.

أدرك كايسي أن السوڤيات كانوا يفهمون لغة حزب الله. في ذلك الخريف دعا المدير برنارد مكماهون وهو مدير أركان لجنة استخبارات مجلس الشيوخ في الأشهر التسعة الفائتة إلى مكتبه في لانغلي ليتحادث معه. مكماهون وهو نقيب بحري متقاعد، لم يكن قريباً لجون مكماهون، كان مساعد تورنر التنفيذي لبضع سنوات في وكالة المخابرات المركزية. سأله كايسي عن تورنر وكيف كان يدير مكتبه ومواقفه ورجاله، وسأل مكماهون عن جميع العناصر وطلب منه تقويماً عن الفترة الماضية والفترة الحالية. لقد أراد ذلك بشكل صريح وقال: أليس الناس مدهشينَ هنا؟ وافق مكماهون: نوعية جيدة وأدمغة كثيرة.

قال كايسي: وهل تعلم لماذا يقومون بأعمالهم؟ ثم أضاف: لماذا تظن أنهم هنا؟ على ماذا يدل ذلك؟

قال مكماهون: الإثارة ـ الوطنية.

أجاب كايسي: لا. لا. لا. لدينا فرصة لبناء سياستنا الخارجية. نحن في القسم الحاسم. نحن الوكالة الفاعلة للحكومة.

تلقيت خبراً صغيراً في ذلك الخريف يفيد بأن هاجس القذافي في البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية قد وصل إلى الذروة. وأنه قد أعدت خطط لعمل خفي جدي للقضاء عليه.

قال أحد المصادر: «شولتز يوحي بالثقة» وأضاف أن وزير الخارجية كان المدافع الأقوى: «ووصف الفكرة بأنها من وحي الله».

عرض القسم الخفي المتعلق بوكالة المخابرات المركزية من «الزنبقة» على لجنتي الاستخبارات في مجلس الشيوخ ومجلس النواب وقد وافقت اللجنتان عليه بأغلبية ضئيلة، ثمانية ضد سبعة في مجلس الشيوخ وتسعة ضد سبعة في مجلس النواب. ومع أن رئيس لجنة استخبارات مجلس الشيوخ الجديد ديڤيد دورنبرغر ونائب الرئيس الجديد باتريك ليهي كانا جديين فإنهما لم يتمكنا من تأمين أغلبية كبيرة في لجنتهما وسألا: كيف تتجنب خطة دعم المبعدين والمنشقين الاغتيال طالما أن حركة المبعدين تريد قتل القذافي؟

أجاب كايسي إن وكالة المخابرات المركزية يمكن أن تساعد الذين يريدون الإطاحة بالقذافي وقد يحاول هؤلاء اغتياله إلا أن الوكالة ليس لديها خطة بهذا الشأن.

قال دورنبرغر وليهي: إن دعم القتلة يعتبر ارتكاباً لجريمة قتل. تمسك كايسي بحجته.

لقد سمح الرئيس بذلك ويمكن للكونغرس أن يقطع النفقة.

قال الشيخان: حسناً. ثم طلبا تفاصيل عملانية محددة. متى وأين ومن وماذا؟ وتأملا في جميع الملفات ثم أرسلا رسالة سرية جداً للرئيس ريغان يحتجان فيها بعنف ويتساءلان كيف لا يعتبر ذلك اغتيالاً؟

أجاب البيت الأبيض أنه لا يوجد خطط للاغتيال وطلب من الشيخين أن يحذفا كلمة اغتيال الملهبة من رسالتهما. رفض الشيخان.

شعر ليهي بأن الإدارة كانت تخدع اللجان وتخدع نفسها تحت اسم مكافحة الإرهاب (مثل اسم مكافحة الشيوعية في نيكاراغوا) سوف يزجون البلاد في حرب خفية أخرى. وكما حصل في نيكاراغوا فإنها لن تبقى خفية وستُفقد السيطرة عليها أيضاً.

كان كايسي قلقاً من أن تستأنف الوكالة توريط نفسها في تفاصيل العمليات.

في يوم السبت في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر اتصلتُ(*) بكايسي. كان صديقه المحارب القديم في مكتب الخدمات الاستراتيجية جون شاهين قد توفي في اليوم السابق وقدمت له تعازيَّ. قال كايسي بأسى: نعم، رجل ممتاز.

قلت إننا سننشر خبراً يقول إن ريغان قد سمح لوكالة المخابرات المركزية بالقضاء على القذافي بشكل خفي. وأن الصحيفة لا تنوي أن تنشر التفاصيل كافة بل ستذكر أن التنفيذ سيتم عن طريق تقديم مساعدة من الوكالة إلى بلدان دون أن نسميها أو للمبعدين الليبيين الذين يريدون الإطاحة بالقذافي.

قال كايسي: بعض الناس لن ينشروها.

وآخذاً بعين الاعتبار الجدل الدائر ضمن الإدارة وضمن لجنتي الاستخبارات في الكونغرس قلت إنني لا أرى لماذا أو كيف لا ننشر ذلك.

وعلا صوته كصوت الخنزير.

قلت: لقد ذكرت قضية الاغتيال ويمكن أن تظهر ملامحها في الخبر.

قال: حسناً نحن لا نغتال، وبدا منقبضاً وكأنه يميل إلى عدم التكلم وقال «وداعاً»، بلطف.

بعد نصف ساعة اتصل بي ليوضح النقطة الأساسية وهي أن الرئيس ووزير الخارجية كانا مهتمين بوقف الإرهاب وليس بدعم اغتيال القذافي. وقال إن دراسة العملية على أعلى المستويات ركزت على الأهداف الأساسية والهامة.

قلت إن هذه النقطة قد ظهرت بوضوح في الخبر.

لم يعرض شيئاً آخر وأقفل الخط.

(*) المؤلف

تذكرت وصف برادلي(*) منذ ثلاث سنوات ونصف لاعتدال اعتراض كايسي حول قراره بنشر خبر عن عملية نيكاراغوا، فهو إما أن يكون قد اعتبر ذلك أمراً لا مفر منه وأما أنه شعر بأن الكشف عن ذلك العملي الخفي يخدم أهدافه وأهداف الوكالة.

نشرت الخبر في اليوم التالي الأحد ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٥. وفي ذلك اليوم وبينما كان الرئيس عائداً من عطلة نهاية الأسبوع في كمب ديفيد تلقى أسئلة كثيرة حول الموضوع وأصدر البيت الأبيض بياناً جاء فيه: «بينما لا نؤيد بأي طريقة الادعاءات والاستنتاجات المنشورة في مقال في صحيفة واشنطن بوست حول تقارير تتعلق بليبيا فإن الرئيس قد أمر بفتح تحقيق حول الكشف عن وثائق للاستخبارات الأميركية مذكورة في هذا التقرير الإخباري بهدف تحديد المسؤول عن هذا الكشف واتخاذ التدابير المناسبة».

في الحقيقة ساد البيت الأبيض جو من الراحة. لقد تسربت «الزنبقة» فقط وهي خطة الوكالة الخفية وكتبت بتعابير عامة. أما التخطيط العسكري السري جداً فقد بقي مكتوماً. «الزهرة» يمكن أن تستمر.

ذهب كايسي ليقابل الرئيس وأعطاه نسخة عن مقالة الواشنطن بوست وقال: أنظر. قلت لك إن لجنتي الاستخبارات تفيدان، هؤلاء الأوغاد كلهم يسربون. وشرح لريغان أن مسألة الاغتيال قد تمت تسويتها مع اللجان وأصبحت خارج أسماعهم تماماً.

كتب الرئيس رسالة من صفحتين إلى لجنتي المراقبة (الاستخبارات) تقول دون تحديد إن اللجان قد سربت، وإنه كان أسلوباً غير دقيق لوقف العمل الخفي الذي عارضته أقلية في اللجان. إن التسريب بحد ذاته يعتبر أسوأ شيء للأمن القومي وهو يهدد لجان المراقبة. عملياً يكون الرئيس قد اتهمهم بالخيانة.

اتصل السناتور دورنبرغر بدونالد ريغان وقال له: «سنتنافس لنعرف من سربها». وقامت اللجنتان بإجراء تحقيق وتبين أن الخبر يحتوي على مقاطع من تقرير سري جداً من ٢٩ صفحة عنوانه «تقويم التعرض للأخطار» والذي استنتج أن العناصر المستاءة من العسكريين الليبيين يمكن أن تقدم على الاغتيال ولم تكن أي من اللجنتين قد اطلعت على هذا التقويم. وهذا ما يشير بقوة إلى أن التسريب كان من الإدارة نفسها. وبعد حوالى أسبوع برأت اللجنتان نفسيهما في رسالة إلى الرئيس.

لم يجب ريغان.

اجتمع سفير الولايات المتحدة في القاهرة فيليوتيس: مع وزير الدفاع المصري أبو غزالة. تألم أبو غزالة من أن القسم المتعلق بوكالة المخابرات المركزية من الخطة قد تسرب وسأل فيليوتيس كيف تستطيع مصر الثقة بالولايات المتحدة؟ وعبّر عن قلقه حول التخطيط

(*) برادلي رئيس تحرير صحيفة واشنطن بوست.

العسكري وتساءل: ماذا عن خليج الخنازير؟ هل تسحب الولايات المتحدة قواتها في آخر لحظة؟

أجاب فيليوتيس أن الرئيس ريغان قد أصيب بخيبة أمل من التسريب وأنه سوف يتخذ إجراءات ضد الذين قاموا بذلك. وتابع فيليوتيس أن القصة سوف تذبل لأنها لم تسبب أي جدل سياسي. الجميع في الولايات المتحدة يريدون التخلص من القذافي.

كان أحد محللي كايسي قد أنهى دراسة كاملة عن الأهداف في ليبيا. حدد في وثيقته السرية جداً أن أفضل وقت للقيام بضربة جوية في ليبيا هو قبل الفجر تماماً. ولكن وزارة الدفاع تولت إجراء دراسة خاصة حول العمل العسكري المباشر من الولايات المتحدة ورسمت صورة كئيبة للنجاح وكانت عملياً لا توافق على تنفيذ العملية. كانت الخطة تقضي بهجوم مفاجىء على ليبيا بالتنسيق مع مصر. قالت وزارة الدفاع إن عملية كهذه تحتاج إلى ست فرق أي ٩٠ ألف رجل، وتساءل مخططو وزارة الدفاع: هل نريد أن نشن حرباً على ليبيا؟

كان جواب ويتبرغر ورئاسة الأركان المشتركة: لا.

في ذلك الخريف ذهب كايسي إلى المستشفى وأجرى فحوصات طبية. الأمور ليست على ما يرام. لقد عرف. جاء في التشخيص أنه مصاب بسرطان في غدة البروستات. وأن الفرص ليست جيدة بالنسبة إلى عمره (٧٢ سنة) طلب الادبيات المتوفرة عن المرض وسرعان ما وافق على اتباع علاج مكثف بالأشعة يومياً، بالإضافة إلى علاج كيميائي. شرح وضعه الصحي المخيف لصوفيا لكنه قرر أن لا يخبر أحداً في الوكالة أو في الإدارة. لكنه تولى بنفسه إعلام الرئيس. لقد أدرك أنه لا يوجد جدول زمني غير محدد للعمل وأن الأمور يجب أن تجري.

في مساء ٢١ تشرين الثاني /نوفمبر اتصل نورث بديوي كلاريدج الذي نقل إلى رئاسة فرقة أوروبا بعد قضية تلغيم موانىء نيكاراغوا. كان نورث هائجاً ومنفعلاً. قال إنه يحتاج إلى الحصول على إذن لطائرة إسرائيلية بالهبوط في البرتغال لأسباب إنسانية.

أرسل كلاريدج رسالة عاجلة عن طريق قناته الخاصة يستدعي فيها رئيس محطة البرتغال إلى السفارة الأميركية الساعة الثالثة صباحاً، وأعطى توجيهاته لرئيس المحطة بوجوب إزالة جميع العقبات وتأمين هبوط الطائرة الإسرائيلية.

قال كلاريدج: «إن هناك مبادرة من مجلس الأمن القومي لهذه العملية وهي تحظى باهتمام أعلى المستويات في الحكومة الأميركية» وعليه أن يخبر المعنيين في البرتغال بأن هذا لن يمر دون تقدير. يجب عدم إعلام السفير الأميركي في البرتغال بذلك! كان على رئيس المحطة أن يلتقي الجنرال سكورد الذي كان يستخدم اسماً مستعاراً «ريشارد كوب» والذي طار إلى ليشبونه عاصمة البرتغال. لكن البرتغال رفضت الطلب. عندها طلب نورث اسم شركة

شحن جوي موثوق بها. اقترح القسم الجوي في وكالة المخابرات المركزية شركة سانت لوسيا الجوية التي سبق لها وقامت بأعمال خفية لصالح الوكالة. تعذر الاتصال بكلير جورج، ولذلك بحث كلاريدج الوضع مع مدير العمليات بالوكالة إد جوشنوسيز الذي أخبر نورث بأن شركة سانت لوسيا جاهزة لأي عملية نقل خاصة.

طلب نورث من شركة سانت لوسيا أن تؤمن طائرتي بوينغ ٧٠٧ قادرتين على حمل صواريخ هوك المضادة للطائرات إلى إسرائيل حيث تحول هناك إلى طائرات إسرائيلية لإعادة نقلها إلى إيران. كان نورث يدير العملية من خلال حساب مصرفي في سويسرا شركة لاك ريسورسز (الحساب رقم ١ ـ ٢٢ ـ ٤٣٠ ـ ٣٨٦ كريدي سويس).

قال نورث لبواندكستر على الكومبيوتر الخاص: «إن كلاريدج يستحق وساماً لأنه حصل على شركة طيران في وقتٍ قصير».

لكن الإسرائيليين لم ينتظروا وحرروا الطائرات التي كانوا سيستعملونها لنقل الأسلحة إلى إيران من الانتظار. قال نورث إن هذا الإجراء الإسرائيلي كان لتوفير المال وعرض عليه بواندكستر فكرة جديدة هي تحويل خط سير إحدى طائرات الجنرال سكورد التي كان من المقرر أن تشحن حمولة من الذخيرة للكونترا.

وقال نورث: «ساعدني، لم أواجه أي شيء معقد مثل هذا في حياتي» قال بواندكستر إنه سيجتمع مع أحد قادة الكونترا تلك الليلة وسيبلغه أن الذخيرة ستتأخر بضعة أيام. قال نورث لبواندكستر: هذا سيء جداً إنها أول رحلة طيران مباشرة منا للكونترا.

كان نورث في غرفة الأوضاع صباح الأحد يراجع تقارير حول خطف طائرة لشركة مصر للطيران إلى مالطا. طلب نسخة عن مقال نشرته الواشنطن بوست منذ ثلاثة أسابيع حول عملية خفية بهدف القضاء على القذافي. ثم طلب ترجمة لما كان يقوله القذافي في ذلك الصباح. قال نورث ربما تبيّن أن مقالة الواشنطن بوست قد أثارت القذافي. لم تكشف الالتقاطات عن أي اتصال للقذافي بالخاطفين. وفي ذلك اليوم اقتحم رجال الكوماندو المصريين الطائرة وقتلوا ٥٧ راكباً من أصل ٨٠ كانوا على متنها.

في يوم الإثنين ٢٥ تشرين الثاني /نوفمبر علم مكماهون أن الوكالة طلبت السماح بالطيران عبر البرتغال من أجل شحن الأسلحة إلى إيران. ضرب مكماهون على رأسه. هناك قانون يمنع شحن الأسلحة إلى إيران. أين هي المذكرة التي تسمح لرجال وكالة المخابرات المركزية بالاضطلاع بدور مباشر في هذا العمل الخفي؟

قال جوشنوسيز إنّ الوكالة لم تقم بذلك تقنياً. وإنّ نورث قد حضر، وأبلغ أنّ الوكالة لا تستطيع القيام بذلك. وكان نورث يعلم عن شركة سانت لوسيا وأنّ الترتيبات التي أجريت مع الشركة كانت اتفاقاً تجارياً بحتاً وليست عملاً خفياً.

قال مكماهون: انظر، تجربة جيدة. لقد عرف العمل الخفي عندما رآه. أوليفر نورث

يخاطر وهناك حادثة تنتظره. وها هو قد جرَّ الوكالة إلى وضع سيء وكلاريدج قد أرسل وتلقى حوالى عشرين رسالة إلى البرتغال وإلى محطات أخرى في الوكالة.

منذ فضيحة واترغيت وضعت الوكالة قواعد صارمة واشترطت موافقة المدير أو نائبه على أي مساعدة عملانية تقدم إلى البيت الأبيض. وقد سميت هذه القواعد «قاعدة غوردن ليدي» لأنَّ الوكالة كانت قد جهزت فريق ليدي للسطو في واترغيت بأسماء مستعارة وآلات تبديل للصوت وشعر مستعار أحمر مما تسبّب في جرّ الوكالة إلى وحل واترغيت. إنها مخالفة واضحة لقواعد الوكالة.

كان كايسي في الصين، وشعر مكماهون بأنَّ عليه أن يتحرك بسرعة. اتّصل بسبوركين بعد الظهر وطلب منه أن يحضر مسودة مذكرة تغطي استخدام طائرات الوكالة بمفعول رجعي. قال مكماهون سأحضر بعض ضباط العمليات ليوجزوا لك عن المسألة. حضر سبوركين وأوجزوا له عن الوضع في عشرين دقيقة. إنها كانت صفقة أسلحة من أجل الرهائن.

استدعى سبوركين عدداً من كبار محاميه وانتزع من جيبه محفظته، ووضعها على طاولة المكتب، مما يدل على أنَّها ستكون ليلة طويلة. لقد حان الوقت للقيام بعمل حقيقي. قال سبوركين: لندع الرئيس يرخص بها. لقد أراد طابع الرئيس عليها. وكانت مذكرة سياسية مضمونة للوكالة ولكايسي. الرئيس يملك الصلاحية ويستطيع حمايتهم وهذا هو التصرف الحكيم والمتعقل.

كانت المسائل حساسة جداً. الأسلحة إلى إيران، الرهائن وسلامتهم وحتى رئيس المحطة بكلي الرهينة منذ عشرين شهراً ربما توفي وربما ما زال على قيد الحياة. هذا لا يمكن أن يتسرب. لقد بُحث موضوع الامتناع عن الكلام لدى لجان المراقبة. كان كايسي تواقاً ليقطع علاقته باللجان. كانت المذكرات تتسرب. وقد نشرت مذكرة حول الضربات الوقائية ضد الإرهابيين وكذلك مذكرة حول القضاء على القذافي. وهذا التسريب يمكن أن يعيق العمليات. أما القانون الذي يلزم بإعلام لجان الكونغرس فقد كانت فيه ثغرات. لقد توقع ظروفاً غير عادية إذا لم تتلق اللجان إعلاماً مسبقاً. ومع هذا فإنَّ القانون لم ينص على أنَّ الرئيس يمكنه الامتناع عن إعلام اللجان، بل قال إنَّه في تلك الحالات سوف يصرح عن الأسباب التي أدت إلى عدم إعلام اللجان مسبقاً.

تابع سبوركين عمله ونظم مشروع مذكرة من صفحة واحدة فقط ليوقعها الرئيس: «أنا أوجه مدير المخابرات المركزية كي لا يوجز للكونغرس. . . . حتى يحين الوقت المناسب وأعطيه توجيهات مغايرة».

علم سبوركين من أيامه الماضية في جهاز أمن التبادل أنَّه كان من غير العادي في عالم الشركات أن يمنح المسؤولون التنفيذيون إذناً للقيام بنشاطات مع مفعول رجعي طالما كان

ذلك النشاط متفقاً مع السياسة العامة للشركة. ولتغطية عناصر وكالة المخابرات المركزية الذين ساعدوا أوليڤر نورث كتب سبوركين: «إنَّ كل الأعمال السابقة التي قام بها مسؤولون رسميون من الحكومة الأميركية ضمن هذا الجهد قد صدقت بموجب هذا».

كان كايسي يرفض الأساليب المرهقة للحكومة وكان الرئيس يشعر بجمود البيروقراطية. في اليوم التالي أخذ سبوركين المسودة إلى مكماهون الذي مررها إلى كايسي لأنّه لا يريد أن يقوم بهذا العمل وحده. اعتقد كايسي بأنَّ المذكرة عمل قانوني متقن وعمل بطولي يسمح للرئيس بأن يختبر صلاحياته وسلطاته.

كان كايسي قد شبع من لجنتي الاستخبارات. ووصلت الحرب الكلامية مع رئيس لجنة استخبارات مجلس الشيوخ دورنبرغر إلى مستويات عالية. لقد جاء الوقت ليقول لهم اذهبوا إلى الجحيم.

المنشق السوڤياتي ڤيتالي يورتشينكو وهو من كبار مسؤولي المخابرات السوڤياتية KGB الذي لجأ إلى وكالة المخابرات المركزية في ذلك الصيف فرَّ من مرافقه في مطعم جورجتاون وعاد إلى السفارة السوڤياتية في أوائل تشرين الثاني/نوفمبر. عقد يورتشنكو مؤتمراً صحافياً في السفارة السوڤياتية في واشنطن وأثار ضجة كبيرة، وصرح بأنَّ وكالة المخابرات المركزية كانت قد خطفته، وكشف عن عشاء مع كايسي عندما ظهر مدير المخابرات المركزية وسحاب بنطلونه مفتوح! ولقي ذلك ضحكاً كثيراً.

أقرَّ كايسي بأنَّ الوكالة قد أخطأت عندما أمسكت بيورتشنكو وهو من قدامى عناصر المخابرات السوڤياتية (منذ ٢٥ سنة) وتظاهر بأنّه من المنشقين. وفشلت الوكالة في تأمين مرافقين يتكلمون اللغة الروسية ولم تتعاطف بشكل كامل مع الرجل الذي كان يخون بلاده. لكن دورنبرغر ولجنة مجلس الشيوخ احتجوا بشدة ضد كايسي وادعوا أنَّ الوكالة قد أخطأت في عملها بشكل فاضح. كان الشيوخ نجوم الأخبار يومياً وكانوا ينتقدون كايسي ويشككون فيه وبوكالته.

كان يورتشينكو قد ساهم في تحديد عنصرين خائنين من وكالة المخابرات المركزية. قبل أن يرتد إلى الولايات المتحدة كان يورتشينكو قد رقي إلى رتبة مساعد في القسم الأول في المخابرات السوڤياتية وكان مسؤولاً عن التجسس في الولايات المتحدة وكندا وعندما وقع في أيدي وكالة المخابرات المركزية سئل طبعاً عما إذا كان للمخابرات السوڤياتية عملاء في وكالات الاستخبارات الأميركية. قال يورتشنكو: هناك فقط ضابط سابق في الوكالة كان على وشك أن يعمل في محطة الوكالة في موسكو ولكنه لم يعين وكان اسمه بالشيفرة روبرت، اجتمع مع عناصر من المخابرات السوڤياتية في النمسا في السنة الماضية، وباعهم أسرار حيوية.

توجه عناصر الوكالة على الفور إلى ملف أدوارد لي هوارد الذي انخرط في صفوف

الوكالة عام ١٩٨١ وكان عمره ٢٩ سنة وهو خريج جامعة تكساس بامتياز، وكان قد أمضى سنتين مع وحدات السلام في كولومبيا، وهو حائز على شهادة ماجستير في إدارة الأعمال. وهو سريع وطليق في اللغات ومرن في التعامل، وكان ملائماً للعمل في المخابرات في عهد كايسي. كان متآلفاً مع البنادق والمسدسات والمشروبات الثقيلة! وأفاد الوكالة بأنّه يتعاطى المخدرات ثمّ توقف، لكن ذلك كان سائداً بين شباب جيله.

تمّ اختيار هوارد للفرقة السوفياتية وعين للعمل في محطة موسكو تحت غطاء، وخضع لتدريب مكثف على تقنيات المراقبة وتفادي المراقبة. وكان من المقرر أن يوجّه هوارد في موسكو أحد العملاء، وسيعمل في الشوارع مثل القليلين الذين كانوا يؤمنون الاتصال مع المصادر البشرية.

قبل عام ١٩٧٢ كانت إدارة عمليات الاستخبارات في موسكو تتم من لانغلي، ولم يعرف ضباط العمليات الهويات الحقيقية للمخبرين ولا المعلومات التي ترد من الالتقاطات الألكترونية.

بعد العام ١٩٧٢ أعطي رئيس محطة موسكو صلاحية إدارة عملياته.

كان الجو العام في موسكو معادياً وكانت الأعمال مهمة جداً. وكان عدد ضباط العمليات قليلاً، وكانوا يعملون كثيراً، وكان كل واحد منهم من رئيس المحطة حتى أصغر ضابط، قادراً على أن يحل مكان الآخر. وهذا يعني أنّه لم تكن هناك غرف مستقلة، وكل ضابط كان يعرف الصورة. ولدى وصول هوارد إلى موسكو كان قادراً على أن يبدأ العمل في الحال وأن يتعرف على المصادر والأساليب القديمة والحديثة. لم يكن هناك وقت للضباط الآخرين ليوجزوا له واستغرق أياماً وأسابيع ليتآلف مع عمله.

كان ضباط العمليات في محطة موسكو بحاجة إلى جو معاكس للجو الروسي السائد من عدم الثقة. لقد كانوا بحاجة إلى شيء يجمعهم مع بعضهم البعض. كانت هناك ثقة تامة بين الضباط، وعملوا كوحدة متماسكة.

قبل أن يعين هوارد في محطة موسكو تلقى إيجازات كثيرة واطلع على جميع الملفات في لانغلي وأعد لكي يتعلم كل شيء. في أوائل عام ١٩٨٣ وعشية ذهابه إلى موسكو خضع لاختبار كشف الكذب على آلة البوليغراف. وكشفت النتيجة عن خداع وشرب ثقيل ومثابرة على تعاطي المخدرات وملاحقة النساء وحتى عن لصوصية ظريفة! وعوضاً عن ذهابه إلى موسكو طرد من الوكالة وأصبح حراً. ماذا كان من المفترض أن يفعلوا معه؟ أن يضعوه في مزرعة حبش؟ لقد كانت له حقوقه الدستورية كمواطن ولم يكن كايسي مدركاً من هو هوارد.

هذه القطع تلائم بعضها البعض لتشكيل صورة الموزاييك. منذ سنة تلقّى كايسي برقية من رئيس محطة موسكو تفيد بأنّه قد حدث خطأ جسيم. المصادر البشرية التي كان

يزداد عددها ومشاريع جمع المعلومات بالطرق التكنولوجية صمتت جميعها فجأة. كانت البرقية مثل افتتاحية رواية تجسس ولكن لم يعرف أحد ما يجب أن يفعل. وبدا كأنّه لا توجد مفاتيح لحل هذا اللغز في الوقت الحاضر. ربما كان ذلك حادثاً إذ لم يستمرّ إلى الأبد أي مصدر بشري أو أي نظام تقني لجمع المعلومات.

عندئذ أوقف بول ستومبو، وهو ضابط في وكالة المخابرات المركزية يعمل تحت غطاء السكرتير الثاني في السفارة ثمّ أبعد بسبب التجسس. كان ستومبو ضابط الحالة لخبير الطيران تولكاشيف الذي أمن معلومات حساسة منذ سنوات حول الأبحاث السوفياتية عن التسلل وتكنولوجيا الحد من تأثير الرادار. وسرعان ما أوقف تولكاشيف في موسكو ثمّ أعدم. فيما بعد: أبعد أربعة ضباط من وكالة المخابرات المركزية يعملون تحت غطاء في السفارة في موسكو، وعملياً أقفلت المحطة وأوقفت عملياتها.

عندما أنذر يورتشينكو وكالة المخابرات المركزية، رسم الاستنتاج الواضح. حدد مكتب التحقيق الفدرالي مكان إقامة أدوارد لي هوارد في نيو مكسيكو ووضعه تحت مراقبة شديدة لكنّ هوارد ضلل مكتب التحقيق الفدرالي وهرب ثمّ ظهر في موسكو ومنح حق اللجوء السياسي.

هاجمت لجنة استخبارات مجلس الشيوخ بعنف وكالة المخابرات المركزية حول هذا، وتساءل بعض الشيوخ عما إذا كانت هناك عيون وآذان أخرى في الوكالة. كان كايسي والوكالة قادرين على لوم رئيس الفرقة السوفياتية الذي رحل الآن. لكنّ خسارة الاستخبارات وخيانة هوارد كانتا ضربتين رئيسيتين تسببتا في إلغاء سنوات من الجهد والعمل. كانت محطة موسكو التابعة للفرقة السوفياتية قدس الأقداس ومكاناً لا يمكن اختراقه. أظهرت هذه الحالة أنّ الجميع كانوا نائمين ولم يكونوا جديين في عملهم حول الاستخبارات ضد الاتحاد السوفياتي. لقد كانت المسألة كبيرة جداً لدرجة أنّ عدداً من الخبراء استنتج أنها تفوق إنجازات كايسي أهمية.

كان كايسي يتأرجح بين الذل والدفاع. وغضب بشدة من موظفيه في داخل الوكالة، وفي الخارج نصب حائطاً وقال لأحد الشيوخ من لجنة الاستخبارات: «أنت تدفع مالك وتستغل فرصك، أما نحن فلنا تفاحة رديئة وطرق رديئة. لا تنفث على رقبتنا. نحن سنتولى العناية بها. نحن نفهم كم هو خطير هذا وسنقوم بإصلاحه».

كان الجميع يعانون من مشاكل التجسس. عندما كان غولدووتر رئيساً للجنة الاستخبارات كان مكتبه يفتش مرتين في الأسبوع بحثاً عن أجهزة الالتقاط وعثر مرة في طاولة مكتبه على ميكروفون وسلك ولم يتمكنوا من اقتفاء أثره. ومرة ثانية اكتشفت آلة تسجيل ولم يستطع أحد أن يعرف من وضعها، هل هي المخابرات السوفياتية أم إحدى

المخابرات الأجنبية؟ كان هذا ممكناً، أن نفقد الأسرار من مكتب غولدووتر!(*)

في جو من الجدال الصاخب اقترح الكونغرس على إلغاء توصية كلارك عام ١٩٧٦ التي تمنع المساعدة العسكرية الخفية للثوار في أنغولا، واعتبر كايسي هذا نصراً شخصياً. وفي اجتماع لمجموعة تخطيط الأمن القومي في البيت الأبيض في ذلك الشهر قال الرئيس: «نريد أن يعرف سافيمبي أنَّ الفارس آت».

وقع الرئيس مذكرة سرية لتأمين حوالى ١٣ مليون دولار كمساعدة شبه عسكرية. وتسرب هذا بسرعة. وكان رد فعل الرئيس هذه المرة جازماً إذ قال في لقاء مع محرري الصحافة ومراسلي شبكات الإعلام في ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥: «نحن جميعاً نؤمن بأنَّ العملية الخفية هي أكثر فائدة لنا ولها فرص نجاح أكثر من الاقتراحات أو الافتراضات العلنية». إنها لحظة غير عادية وتزيل أي غطاء أو ذريعة، لكن لم تكن موضع انتباه لأنَّ العمل الخفي قد أصبح عملاً علنياً.

كان دورنبرغر هائجاً غاضباً، وقال في مقابلاته إن وكالة كايسي ينقصها حس الإدارة وأنها لا تفهم الاتحاد السوفياتي. كان كايسي يخطط لإرسال رسالة علنية إلى دورنبرغر رداً على تصريحاته، إلا أن أحد مساعدي الأخير اتصل بكايسي على الهاتف في سيارته وحثه على الإحجام عن ذلك. كان دورنبرغر يميل إلى الكلام الفظ القاسي وكان له حس غريب من المرح، وكانت تنتظره ظروف صعبة. قال المساعد لكايسي: «لا تفعل ذلك، ستطلق النار على قدميك وعلى أقدامنا».

صرخ كايسي: «أيها الملعون سأقول ما أريد» ورمى السماعة في مكانها.

حملت الرسالة العلنية شعوراً بالخيانة وجاء فيها أن دورنبرغر كان يقوم بمراقبة الاستخبارات من خلال الأوساط الصحافية بأسلوب يورط المصادر الاستخبارية الحساسة وأساليب الاستخبارات.

كان دورنبرغر يتجه نحو أزمة حياة زوجية. لقد ترك زوجته وكان على علاقة مع سكرتيرة سابقة أوصى بها للعمل في البيت الأبيض، ثم انتقل إلى مساكن «الملاجىء المسيحية»، وكان زملاؤه الشيوخ يقولون عنه إنه «يسوع الغريب» و«غير مستقر» وكان على وشك أن يصاب بانهيار عقلي. هذا هو الرجل الذي كان على كايسي أن يتقاسم معه أكثر أسرار الأمة أهمية.

قدم كايسي إلى البيت الأبيض المسودة حول مذكرة إيران التي كتبها سيوركين. لقد تضمن أمراً رئاسياً غير عادي يمتنع مدير المخابرات المركزية بموجبه عن إعلام الكونغرس. قال كايسي في مذكرة تغطية إلى بواندكستر إن هذا يجب أن يوقعه الرئيس، وأن لا يمر على أيدٍ دون مستوانا.

(*) اعترف غولدووتر في مقابلة مع المؤلف في ٨ أيلول/سبتمبر ١٩٨٦ باكتشاف الآلتين في مكتبه.

بعد أسبوع استقال مكفرلين المتعب والذي كان على وشك الإنهيار العصبي من وظيفته كمستشار لشؤون الأمن لقومي. وبدا بواندكستر على أنه الاختيار الواضح ليخلفه. كان يريد أن يعجّل بموضوع إيران وليبيا والكونترا. سمع مايك ديفر الذي كان قد ترك البيت الأبيض في مطلع هذا العام وفتح مؤسسة خاصة للعلاقات العامة، شيئاً من هذا، واتصل بنانسي ريغان ليعبر عن عدم ارتياحه. كان يعتقد بأن العسكريين لا يصلحون لوظيفة مستشار لشؤون الأمن القومي، قالت نانسي: حسناً، ماذا بإمكاننا أن نفعل؟ اتصل ديفر من نيويورك بجورج شولتز على هاتف عمومي وقال: هل بواندكستر هو الرجل الصالح لهذه الوظيفة؟ لقد كان الاميرال كتوماً جداً وكان لريغان هذا الجانب وسوف يروق له بواندكستر. إنه ممتاز كرقم ٢ ومفيد جداً في المراكز القيادية.

قال جورج شولتز: «أظن أنه سيكون جيداً. وعلى أي حال فقد تأخرت لأن الرئيس وقع ذلك وسوف يعلن خلال ربع ساعة»

كان كايسي مسروراً من هذا التغيير. كان بواندكستر متشدداً ولم يكن بحاجة لأن يلعب مع الكونغرس أو مع الأوساط الصحافية. عرض بواندكستر في أول إيجاز للرئيس، كمستشار لشؤون الأمن القومي في ٥ كانون الأول/ ديسمبر، مذكرة إيران كما وضعتها وكالة المخابرات المركزية كمسودة. كان مكماهون يزعج بواندكستر طوال الأسبوع ليوقع المذكرة ويخرج وكالة المخابرات المركزية من الصنارة. وكان بواندكستر يرى هذه المذكرة على أنها «حماية ظهر» للوكالة. تحدثت هذه المذكرة الصغيرة المؤلفة من صفحة واحدة عن الرهائن والأسلحة، ولم تتضمن شيئاً عن الانفتاح الاستراتيجي على إيران. لكن ريغان قرأها ووقعها. وضع بواندكستر النسخة الوحيدة في خزانته ثم مرر إلى وكالة المخابرات المركزية من خلال نورث أنها قد وقعت.

في ٧ كانون الأول /ديسمبر دعا بواندكستر إلى اجتماع آخر حول إيران في البيت الأبيض. حضر مكماهون عن كايسي. عارض شولتز فكرة الأسلحة مقابل الرهائن. إنها تعطي إشارة إلى الإيرانيين أنه يمكنهم خطف الناس لقاء فائدة. قال وينبرغر إن الفكرة عرضت الولايات المتحدة لابتزاز من إيران وإسرائيل.

تساءل مكماهون: هل هناك معتدلون في إيران يمكن للولايات المتحدة أن تتعامل معهم؟ لقد قتلوا جميعاً أو سجنوا. قال الرئيس: علينا أن لا نترك أي حجر دون أن نستخدمه، وذلك بهدف إطلاق سراح الرهائن، ويجب اتخاذ الخطوة التالية، إيفاد مكفرلين وهو الآن مواطن عادي والمقدم نورث إلى لندن للاجتماع مع الوسيط الإيراني غوربانيفار.

في ١٠ كانون الأول/ ديسمبر قدم مكفرلين تقريراً إلى الرئيس ووينبرغر وكايسي وقال إن غوربانيفار ينقصه التكامل والثقة. كان الرئيس مستغرقاً في تفكير حالم وحزين، وعرض أن تقوم إسرائيل بشحن مزيد من الأسلحة لإيران، ويمكن تبرير ذلك في المستقبل بأن الولايات المتحدة كانت تريد التأثير على مستقبل إيران.

أشار كايسي إلى أن هناك سابقة. لقد بلغت مبيعات الأسلحة الإسرائيلية لإيران وبطريقة سرية حوالى ٥٥٠ مليون دولار. ولن تستطيع أية أمة أن تدير ظهرها لمستقبل إيران. في ذلك النهار ارسل كايسي مذكرة إلى مكماهون: «بعد انتهاء الاجتماع شعرت بأن الرئيس لم يتقبل كلياً فكرة تشجيع الإسرائيليين على نقل الأسلحة إلى إيران، وشككت في أنه ينوي ركوب هذه المخاطرة وتحمل مسؤوليتها في المستقبل إذا أدى ذلك إلى إطلاق سراح الرهائن. يبدو أن مكفرلين يعمل بشكل صحيح».

بعد تسعة أيام اجتمع كايسي مع مايكل ليدن وهو مستشار في مجلس الأمن القومي ومقرب من مكفرلين ونورث. قال ليدن أن غوربانيفار سيحضر إلى واشنطن وبحوزته معلومات هامة واقتراحات للعملية. وضع كايسي ليدن ونورث على اتصال مع رئيس مكتب إيران في الوكالة.

في واشنطن نزل غوربانيفار في فندق ماديسون باسم مستعار هو نيكولاس كراليس. اقترح ليدن ونورث وغوربانيفار بعد سلسلة اجتماعات عملية لَسْع ضد القذافي حيث يدفع الزعيم الليبي بموجبها عشرة ملايين دولار ثمن اختفاء زعيم المبعدين الليبيين «المقريف» الذي سيعود بعدها إلى الظهور إرباكاً للقذافي، وقال غوربانيفار إن لديه معلومات عن فريق اغتيال إيراني مؤلف من ثلاثة أشخاص لاغتيال بعض المعارضين الإيرانيين في أوروبا. وسمى غوربانيفار مصدر معلوماته الذي كان قد تبين في السابق أنه كاذب.

أرسل رئيس مكتب إيران في وكالة المخابرات المركزية مذكرة إلى كايسي: «إن تقرير غوربانيفار حول هذا الفريق كان من البقايا القديمة لتقاريره السابقة حول الارهاب، والتي تبين أنها ملفقة، وذلك بعد التحقيق فيها وإجراء اختبار كشف الكذب على آلة البوليغراف... كانت هذه مشكلة دائمة خلال السنوات الأربع التي عرفناه فيها... ومن الصعب أن نجد في ملفه أي تقرير يستند إلى وقائع صلبة».

قبل يومين من عيد الميلاد أرسل كايسي مذكرة سرية إلى الرئيس حول خمس عمليات منفصلة لإنقاذ الرهائن. قال إنه يريد الذهاب إلى خارج المدينة وأنه آسف لأنه لن يستطيع أن يلتقي الرئيس في الأعياد، وأول أربع عمليات ستساهم فيها بلدان أخرى تدعم الوكالة سراً، أما الخامسة فتتعلق بإيران. فيما يتعلق بغوربانيفار قال كايسي إن لعبته خطرة ولكنها مفيدة جداً. كان تقرير غوربانيفار حول فريق الاغتيال الإيراني محيراً. «لقد تحققنا من تحركاتهم ولكننا لم نتأكد من أهدافهم» وأضاف المدير للرئيس: «يمكن أن يكون ذلك خداعاً للتأثير علينا. يجب أن ننتبه ونكون حذرين عندما نتكلم مع غوربانيفار، وعندما تكلم رجلنا معه يوم السبت وسأله عما إذا كان هناك مجال لأن يخضع لاختبار كشف الكذب على آلة البوليغراف أجاب أنه موافق».

- ٢٢ -

كان كايسي يبذل جهوداً خاصة لتمويل الكونترا مباشرة من الولايات المتحدة. وكان مكفرلين قد تبنى قبل استقالته جهود نورث للتمويل الخاص وذلك بأن أنكر أمام الكونغرس أنَّ نورث كان يسهل التبرعات الخاصة. كان هناك خلاف داخل الكونغرس حول موضوع الكونترا إذ كان اليسار المتطرف فقط يطلب التخلي عن الكونترا نهائياً. وظن كايسي أنَّ بإمكانه أن يستغل هذا الخلاف لمصلحته. شهد هذا الصيف تساهلاً نسبياً من قبل الكونغرس، فقد وافق على تقديم مساعدات إنسانية وغذائية وطبية للكونترا بقيمة ٢٧ مليون دولار. كذلك حذر كايسي من أن يقوم الجيش السانديني بسحق الكونترا لأنَّه كان أقوى منها. طلبت الوكالة السماح بإعطاء الكونترا معدات خاصة للاتصالات وتزويدها «بنصائح» استخبارية فوافق الكونغرس أيضاً. لكنَّ المشرعين لم يوافقوا على تعميم «النصائح»، وكثرت الرسائل من وإلى لجنة استخبارات مجلس الشيوخ ولجنة استخبارات مجلس النواب تطلب تحديد ما إذا كان يمكن تقديم نصائح في مجال النقل أو اللوجستية. إلاَّ أنَّ كايسي كسب مصادقة الكونغرس لمدة نصف سنة واستفاد من الغموض المحيط بالقضية ليأخذ مهلة أكبر. أدرك أنَّه في حرب أدغال وأنَّ نصائح وإرشادات المخابرات وأجهزة الاتصالات الحديثة هي أكبر أهمية للعصابات من الأسلحة الجديدة والذخائر. وتمّ إعداد مسودة مذكرة وقعها الرئيس ريغان وخصص بموجبها ١٣ مليون دولار لهذا العمل.

لقد سمح القانون الجديد لكايسي بأن يساهم مباشرة في جمع معلوماته الخاصة حول الكونترا. اقترح نورث عليه أن يتكلم مع الجنرال سكورد الذي كان يدير عملية الدعم الخاصة. قبل الميلاد تماماً اتصل كايسي بسكورد وطلب منه الحضور إلى لانغلي في الحال. كان الطقس عاطلاً وتأخر سكورد لكنَّ كايسي انتظره. استقبل كايسي الجنرال سكورد وكان ذلك أول لقاء بينهما، لكنهما كان يعرفان الكثير عن بعضهما البعض وعندما جلس كل منهما على كرسيه طلب كايسي تقويماً.

نظر سكورد من خلف نظارتيه المشابهتين لنظارات الطيارين، وهو ثابت واثق من نفسه وهو الخبير في اللوجستية والتموين، وقال: ليس لدى الكونترا أية فرصة للفوز إذا لم تنفذ عملية النقل الجوي ميدانياً. يمكن أن تنقل الأسلحة والمؤن إلى الجوار وليس إلى المقاتلين في الأدغال وحتى إذا أنجز هذا العمل فإنَّه يتحفظ حول قدرة الكونترا على تحقيق النصر: لم يكن هناك جبهة فعالة من الجنوب أي من كوستاريكا.

وقال الجنرال: إضافة إلى عدم ملائمة جهود التموين فإنَّه لا توجد أية إمكانية للاستخبارات. وبصراحة فإنَّه لم يجد بين الكونترا الزعامة المؤهلة لتحقيق النصر العسكري.

وافق كايسي، وكان معجباً بجهود الجنرال سكورد بالرغم من الظروف الصعبة، وسأل: كيف بإمكاننا أن نساعد؟ أجاب سكورد: بمعلومات الاستخبارات.

سجل كايسي بعض الملاحظات باختصار ووعد بالبحث فيها.

قال سكورد: السيد المدير عندما تحصلون على رخصة الصيد، فإنَّ جميع المصادر التي نخلقها تكون لكم، أعني أنهم يستطيعون أن يمضوا في الموضوع معكم وأنا أؤكد ذلك. أجاب كايسي: شكراً جزيلاً.

بعد يومين من عيد الميلاد ضرب الإرهابيون في هجمات منسقة مطاري روما وڤينا وقتل ١٩ شخصاً من بينهم خمسة أميركيين ومن ضمنهم ناتاشا سيمبسون وعمرها ١١ سنة. كانت الصور التلفزيونية لما سمي بمذبحة عيد الميلاد رهيبة. الجثث والدمار في أنحاء المطار. ضربة وكضربات المافيا. صعق الرئيس ريغان الذي كان في مزرعته في كاليفورنيا، ودارت الشكوك في وكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي حول مسؤولية ليبيا؛ عقدت جولة من الاجتماعات في البيت الأبيض، وكان رجلا كايسي في هذه الاجتماعات برت دان من مديرية العمليات وريتشارد كير نائب غايتس. لقد اعتقدا بأنَّ أبو نضال الذي كان في ليبيا منذ مدة كان وراء هذه الهجمات إلاَّ أنَّهم لم يتمكنوا من التأكد. وقد ثبت أصعب دليل بالصدفة: تقرير يفيد بأنَّ عملاء القذافي قد حوّلوا مبلغ مليون دولار لرقم حساب أبو نضال في مصرف في بلغاريا. إلاَّ أنَّه تبين أنَّ ذلك قد حدث منذ بضع سنوات. تمّ عرض أهدافٍ لرد فعل عسكري تدرجت من مخيم لتدريب الإرهابيين قرب ملعب غولف سابق في طرابلس إلى مبنى قيادة مخابرات القذافي في قلب مدينة طرابلس. في اليوم التالي حذرت وزارة الدفاع من أنَّ هناك ١٥٠٠ مستشار سوڤياتي في ليبيا منهم ٦٠٠ يساهمون مباشرة في الدفاع الجوي. كم سوڤياتياً يمكن أن نقتل في ضربة جوية أميركية؟ وماذا يعني ذلك؟ أوقف كل شيء بانتظار عودة الرئيس.

بعد فترة طلب نورث من سيوركين أن يعد مسودة مذكرة جديدة حول إيران تسمح بعملية استخبارية سرية بالتنسيق مع استخبارات صديقة (أي إسرائيل) وبعض الأفراد (غوربانيڤار وسكورد) وكان لها هدفان: إقامة حكومة معتدلة في إيران، والحصول على استخبارات هامة. لم يؤت على ذكر الرهائن.

سحب سبوركين كايسي من ملعب غولف في فلوريدا ليتكلم معه على الهاتف. لم يكن الخط آمناً لذلك قال له سبوركين إنّه قد طلب منه تأمين بعض الخدمات للبيت الأبيض وأن يحضر اجتماعاً آخر. هل كان كايسي يعرف ما يجري؟

قال كايسي: لا

ـ هل تريد مني أن أحضر هذا الاجتماع؟

ـ اذهب ولكن ابق على اتصال معي.

تلك الليلة في ٣ كانون الثاني/يناير اجتمع سبوركين مع نورث الذي قال إنّه سيشاور كايسي.

في صباح يوم الأحد ٥ كانون الثاني/يناير اتصل نورث بسبوركين في منزله وكان من المقرر أن يلتقي الاثنان مع المدير الذي كان قادماً من فلوريدا في منزله.

قرأ كايسي المذكرة الجديدة حول إيران وقال لنورث وسبوركين أنها تبدو جيدة.

وبينما كانا يتركان المنزل أوقف سبوركين نورث في المدخل وقال له: قل لي مجدداً لماذا لا نضع الرهائن في هذه الوثيقة؟

قال نورث: إنَّ وزارة الخارجية لا تريد ذلك لأنَّها تصبح مثل السلاح مقابل الرهائن.

قال سبوركين: حسناً، هذا لا يبدو صحيحاً بالنسبة إلي. تعال لنرى المدير مجدداً.

عادا لمقابلة كايسي وقال سبوركين أنَّ هذه أكثر المذكرات حساسية ويجب أن تكون مخلصة. ولهذا تمّ إضافة هدف ثالث: «إطلاق سراح الرهائن المحتجزة في بيروت».

في الأسبوع التالي تأرجحت أفضليات العمل في البيت الأبيض بين إيران وليبيا. في يوم الاثنين ٦ كانون الثاني/يناير وفي اجتماع لمجموعة تخطيط الأمن القومي حول ليبيا في غرفة الأوضاع، صادق الرئيس ريغان على خطة لتكثيف وتوسيع الجهود الخفية للإطاحة بالقذافي والاستمرار في التخطيط السري (عملية الزهرة) لضربة عسكرية مصرية أميركية محتملة ضد ليبيا. وأجّل اتخاذ قرار حول هجوم جوي أميركي مباشر. وفي اليوم التالي اجتمعت مجموعة تخطيط الأمن القومي لدراسة الخيار العسكري. أحضر شولتز معه رأياً من المستشار القانوني لوزارة الخارجية يقول إنَّ الإرهاب هو اعتداء مسلح وإنَّ الرد العسكري هو دفاع عن النفس. عارض وينبرغر وقال: افترض أنَّ القذافي أسقط طائراتٍ أميركية وأسر طيارين أميركيين، سيكون هناك المزيد من الرهائن. وكان تأثير كلمة الرهائن عليهم قوياً. رفض الرئيس الخيار العسكري وخرج وينبرغر من غرفة الأوضاع وهو يبتسم.

انتقل الرئيس ونائب الرئيس ووينبرغر وكايسي ورونالد ريغان وميز وبواندكستر إلى المكتب البيضاوي للبحث في موضوع إيران.

قدم بواندكستر خطة للاستمرار في بيع الأسلحة. لقد طلبت إيران مظهراً للثقة والصفقة ستأخذ طريقها للتنفيذ في مدة قصيرة من ٣٠ إلى ٦٠ يوماً وسوف تطلق إيران سراح خمس رهائن أميركية. وبسبب حساسية القضية والخطر الداهم على حياة الرهائن لن

تُعلم لجنتا الاستخبارات في الكونغرس حتى يتحرر الرهائن ويصبحوا على متن الطائرة في طريقهم من لبنان.

كان شولتز متوتراً وقال إنَّه يعارض. إنَّ هذا سينسف كل سياسة الولايات المتحدة حول الإرهاب والتي أعاد تذكيرهم بها: عدم التعامل مع الإرهابيين وعدم بيعهم السلاح وعدم دفع أية فدية لقاء إطلاق سراح الرهائن.

عارض وينبرغر أيضاً وقال إنَّ الخطة ستعرض الولايات المتحدة للابتزاز. عندما لا يحصل الإيرانيون على ما يريدون فإنَّهم يهددون بكشف هذا الترتيب في «طراز شرق أوسطي».

قال بواندكستر إنَّ هذا وضع خاص وهو استثناء وليس مغايراً للسياسة العامة.

قال شولتز: إنها لن تنجح.

كان كايسي يحبذ ذلك كثيراً وقال إنَّ الصفقة ستنفذ بسرعة وإذا لم تعط أول صفقة أسلحة النتائج المرجوة ستتوقف العملية. إن لإيران دوراً خاصاً في العالم ولها موقع خاص على الخريطة مباشرة تحت الاتحاد السوفياتي. لا يجوز أن تدير الولايات المتحدة ظهرها لإيران وتتركها فريسة للنفوذ السوفياتي.

سأل أحدهم: ماذا عن الوسيط الإيراني غوربانيفار؟ وكانت ملاحظة وكالة المخابرات المركزية عام ١٩٨٤ قد أعلنت أنَّه ملفق كبير. هل تستطيعون استخدامه؟ وهل هو موضع ثقة؟ أجاب كايسي أنَّ غوربانيفار يستطيع تسليم الرهائن وأثبت ذلك بإطلاق سراح وير منذ ثلاثة أشهر. كانت له اتّصالات قوية في إيران ومع هذا فشل في اختبار كشف الكذب على آلة البوليغراف وسيخضع لاختبار آخر.

انفض الاجتماع بانطباع أنَّ الرئيس سيمشي قدماً في الموضوع.

في ١١ كانون الثاني/يناير وصل غوربانيفار إلى واشنطن وتعرض لاختبار كشف الكذب على آلة البوليغراف في فندق فورسيزونز. وصل تقرير الاختبار إلى كايسي. لقد أظهر خداعاً ومكراً في جميع الأسئلة الحيوية، ولفق معلومات حول نشاط الإرهابيين. ظهر خداعه في ١٣ سؤالاً من أصل ١٥.

أُعطي الأشخاص الذين سئل عنهم غوربانيفار أحرفاً للتعريف عنهم في التقرير وذلك حماية لهم وتدرجت الأحرف من A إلى L. مثلاً كان لغوربانيفار معلومات عن C الذي طلب من شخص إيراني آخر ٣٠٠ كلغ من متفجرات البلاستيك لاستعمالها ضد المؤسسات الأميركية في العربية السعودية. وكان C يخطط لتسليم أسلحة بقيمة ٦ ملايين دولار للإرهابيين.

أعطى كايسي توجيهاته لشارلي آلن ليقابل غوربانيفار لمدة خمس ساعات في ١٣ كانون الثاني/يناير. وسرعان ما قدم آلن تقريراً من تسع صفحات جاء فيه: «غوربانيفار رجل مثير

ومغرور ويجب مراعاة غروره ويملك طاقة كبيرة للعمل. ذكي وكان قد كسب مبلغاً لا بأس به من المال في تجارة الأسلحة وتأمين خدمات أخرى. إنّه صادق حول ما يأمل بالحصول عليه من الولايات المتحدة».

وفيما يتعلق بالرهائن جاء في التقرير: إنَّ غوربانيفار سوف يعمل مع البيت الأبيض في هذه القضية وسيكون ذلك موضوعاً منفصلاً. «لدينا إثبات قوي على أنّه وثيق الصلة برئيس الوزراء ووزير النفط وبعض المسؤولين. إنّه لا يغالي ولا يضخم الأمور». «إنَّ أسوأ طريقة للتقرب منه هو محاولة إرشاده وتعليمه..»

في الليلة التالية التقى كايسي بنورث وأبلغه أنَّ وينبرغر استمر في خلق الحواجز حتى أخبره بواندكستر أنَّ الرئيس أراد لمبادرة إيران أن تبدأ بالعمل. اقترح كايسي اجتماعاً.

وفي ١٦ كانون الثاني/يناير عقد اجتماع في مكتب بواندكستر ضمه وكايسي ووينبرغر وميز. قال وزير العدل ميز إنَّ رأيه في الامتناع عن إعلام الكونغرس كان قانونياً. وبموجب المذكرة المقترحة يمكن إعلام الكونغرس عند إطلاق سراح الرهائن واتفقوا على أن يقدم الرئيس تقريراً إلى الكونغرس يبرر ما فعله حتى لو كان ذلك يعني أنّه سيترك الحكم على الأثر.

وقع الرئيس ريغان المذكرة في اليوم التالي، وهي تسمح ببيع الأسلحة إلى إيران من خلال وكالة المخابرات المركزية: ووضع بواندكستر النسخة الوحيدة في خزانته.

توجه مدير العمليات في وكالة المخابرات المركزية كلير جورج إلى البيت الأبيض وقرأ المذكرة في مكتب بواندكستر. ستحتاج الوكالة إلى ٤٥٠٨ صواريخ تاو. رفض جورج استخدام غوربانيفار بسبب تعامله السابق ونتائج اختبار كشف الكذب على آلة البوليغراف (الشيء الوحيد الذي كان صادقاً فيه هو اسمه!).

درس كايسي الوضع بسرعة. لقد كان غوربانيفار نذلاً وللوكالة تجارب كثيرة معه أثبت فيها عدم مصداقيته. لكن كان هناك شيء ما في هذه القناة. قال كايسي لا أحد غيره يقوم بذلك، دعنا نرَ أين يذهب بنا وإذا لم يسلم الرهائن فسوف نوقف العملية.

توجه مكماهون إلى مكتب بواندكستر ليقرأ المذكرة واكتشف أنَّ مستشار شؤون الأمن القومي كان يخطط لإعطاء معلومات استخبارية تساعد الإيرانيين في حربهم مع العراق.

قال مكماهون. «يمكن أن يعطيهم ذلك دعماً دفاعياً قوياً قد يؤدي إلى نتائج مفاجئة وعنيفة». أه يا إلهي الوكالة تقوم الآن بعملية لتأمين معلومات للعراق عن وضع الجبهة. هل كانت الوكالة والحكومة الأميركية تؤمن معلومات الاستخبارات لكلا الجانبين؟ إنَّ هذا يدعو إلى السخرية.

أصرَّ بواندكستر على أنّه سيختبر القناة بألف صاروخ تاو ليرى ما إذا كان الرهائن سيطلقون.

اعترض مكماهون.

قال بواندكستر: «يجب أن لا نفقد هذه الفرصة» وأضاف دون أن يتحدى وجهة نظر مكماهون مباشرة: «يجب أن نتابع، وإذا فشلنا فإنّ خسارتنا ستقتصر على ألف صاروخ تاو ومعلومات قليلة وإذا نجحنا فإننا ربما نغير أشياء كثيرة في الشرق الأوسط».

أسرع مكماهون بالعودة إلى لانغلي. لاحق كايسي الذي كان في الخارج بالبرقيات، ثمّ أقنع نورث بعدم تزويد إيران بكامل الصورة الاستخبارية على الجبهة، وسيكون قسم منها كافياً لإظهار الثقة.

في حوالى الساعة الخامسة من مساء ٢٣ كانون الثاني/يناير توجه بواندكستر إلى غرفة الأخبار في الواشنطن بوست ودخل مكتب برادلي. كان بحوزتنا أخبار عن ليبيا معدة للنشر في عدد اليوم التالي، تفيد بأنّه من المقرر أن يوفد الرئيس ريغان في اليوم التالي وبصورة سرية رئيس قسم التخطيط في الأركان المشتركة الجنرال ديل ڤاسر إلى القاهرة ليتابع التخطيط السري للقيام بهجوم مشترك على القذافي (الزهرة).

قال بواندكستر لبرادلي إنّ نشر هذا الخبر سيعيق الرئيس في تعامله مع الإرهاب والقذافي. وقال كمن يعلن حرباً: إنّه غير مسموح لأي صحيفة أميركية أن تنشر خططاً سرية، وإذا نشرت الواشنطن بوست هذا الخبر فسوف يلغي المصريون مهمة ڤاسر. قال بواندكستر إنّ الخبر كان أكثر تعقيداً لكنّ الواشنطن بوست اكتفت بالخطوط العامة.

قال برادلي إنّه لا يفهم لماذا يستشهد بواندكستر بالأمن القومي إذا لم يكن الرئيس يخطط لعمل جدي. وطلب بواندكستر إعلامه عن نية برادلي في النشر، ثمّ غادر.

بعد أخذ ورد قرر برادلي أن ينشر ملخصاً صغيراً حول مهمة ڤاسر، وأن يضعه ضمن مقال عن تحركات حاملتي طائرات أميركية للقيام بمناورات قرب الساحل الليبي. ويرد ذلك في المقطع الخامس: «أمر الرئيس ريغان بإرسال مبعوث إلى مصر لإجراء مباحثات حول التنسيق المحتمل حول الخيارات العسكرية».

اتّصل برادلي ببواندكستر ليخبره أنّه لن يذكر اسم ڤاسر ولا موعد مغادرته في اليوم التالي. اعترض بواندكستر بعنف لأنّ نشر الخبر سوف يؤدي إلى إلغاء مهمة ڤاسر السرية لأنّ المصريين كانوا حساسين من التسريبات بطريقة غير معقولة. وفي صباح اليوم التالي أوردت معظم وسائل الإعلام نبأ يفيد عن خطط أميركية لإجراء مناورات لحاملات الطائرات بالقرب من السواحل الليبية ولم تأت الواشنطن بوست على ذكر مبعوث أميركي غير مسمى. لم يتلق البيت الأبيض أسئلة صحافية حول الموضوع كما أنّ السفارة المصرية لم تتصل بوزارة الخارجية أو بمجلس الأمن القومي. ذهل بواندكستر، وعندما سأل أحد أركان مجلس الأمن القومي ماذا نفعل؟ أجاب دون فورتييه وهو نائب بواندكستر «حظر توزيع صحيفة الواشنطن بوست في مصر». وضحك الجميع.

أجّل بواندكستر مهمة ڤاسر لعدة أسابيع. وبعد اجتماع آخر في البيت الأبيض كتب بواندكستر أنَّ الرئيس وافق على استمرار خطتي «الوردة» و«الزهرة» وفي حال الهجوم على ليبيا سيكون دور الولايات المتحدة تأمين مساندة قتالية داخل ليبيا. وكانت مهمة ڤاسر بحث أربعة خيارات مع مصر ثلاثة منها دفاعية والرابع ضربة وقائيّة في ليبيا. سافر ڤاسر إلى مصر وأجرى مباحثاته ثمّ عاد وأبلغ بواندكستر أنها كانت مثمرة.

قلّب كايسي صفحات التقرير الفصلي حول عدم الاستقرار السياسي. وشمل هذا التقرير ٣٦ بلداً وضعت في ثلاث فئات:

- بلدان ذات أهمية استراتيجية عالية بالنسبة إلى الولايات المتحدة.
- بلدان ذات أهمية استراتيجية متوسطة.
- بلدان قليلة الأهمية. كما وضعت ثلاث فئات إضافية: عدم استقرار سياسي عالٍ، وعدم استقرار سياسي متوسط، وعدم استقرار سياسي ضعيف، وهذا ما جعل في البيان المنظم تسع خانات.

كانت الفيليبين في خانة الأهمية الاستراتيجية العالية وعدم الاستقرار السياسي العالي. كان الرئيس ماركوس الذي مضى على حكمه عشرين سنة منها عشر سنوات كحكم عرفي قضاها في حالة صحية متدهورة. وقد رأى كايسي أنّه قد يواجه مصير شاه إيران، وشعر بأنّه من المهم عدم التخلي عن ماركوس. انتقل رئيس محطة مانيلا روبرت غريلي إلى قيادة الوكالة ليترأس فرقة شرقي آسيا في مديرية العمليات، وسرعان ما صار من مافيا كايسي الإيرلندية في لانغلي. كان غريلي يصر على أن لا تقتصر اتّصالات الوكالة على ماركوس بل أن تتوسع لتشمل المعارضة السياسية. وفي السنوات الماضية دُرس موضوع تقديم دعم سياسي خفي لخصوم ماركوس وتقديم مساعدة مالية تبلغ حوالى ١٠٠ ألف دولار كمصاريف طباعة وسفر، وذلك لبناء جسور مع المعارضة الفيليبينية. ولكنَّ عملاً كهذا، يمكن أن تتسرّب المعلومات عنه، مما يؤدي إلى تعريض العلاقات للخطر. ما زال ماركوس شخصية نافذة وصديقاً كبيراً. زار كايسي الفيليبين وكانت له لقاءات شخصية ومنتظمة واستخبارية مع ماركوس الذي كان يسبح عكس التيار. وكانت الفيليبين تحتوي أكبر قاعدتين عسكريتين أميركيتين خارج الولايات المتحدة، وهما قاعدة كلارك الجوية وقاعدة خليج سابيك البحرية اللتان تتمتعان بأهمية استراتيجية بالغة، وهكذا فإنَّ أي اضطرابات في الفيليبين يمكن أن تظهر الانتفاضة خلال عهد كارتر تافهةً بالنسبة إليها.

كان السؤال الدائم لكايسي في الوكالة: ماذا عن الفيليبين؟ كانت المشكلة هي الثورة الشيوعية وليس ماركوس. إلاّ أنَّ وزارة الخارجية وبعض محللي الوكالة لم يروا ذلك وكشفوا عن فساد ماركوس وعزلته وضعف شعبيته. وبعد تنظيم تقديرين بقي كايسي متعلقاً بماركوس لأنَّ البديل سيكون كورازون أكينو أرملة زعيم المعارضة السابق بنينو أكينو التي

شعر كايسي بأنّها ضعيفة وقد تسلم البلاد للشيوعيين. كانت ربة منزل وليس لها خبرة سياسية ومن المضحك أن نتخيل أنّها تستطيع الوقوف ضد الشيوعيين.

أما شولتز فقد انقلب رأيه ورأى أنّ ماركوس قد انتهى. ولكنّ زوجة الرئيس السيدة ريغان (التي كانت على علاقة وثيقة باميلدا ماركوس) وكايسي لم يتزحزحا عن رأيها. بالنسّبة لشولتز كان ذلك أكبر دليل على أنّ كايسي قد فقد النظرة الصحيحة إلى الأمور. إنّ موقف كايسي المؤيد لماركوس بشدة أبقى سياسة الولايات المتحدة إلى جانب القيادة الفيليبينية. دعا ماركوس بكل ثقة إلى إجراء انتخابات مبكرة في شباط/فبراير ١٩٨٦ جذبت انتباهاً واسعاً، واستنتج عدد من مراقبي الكونغرس الأميركي أنّ ماركوس سيحاول تزويرها. ظهرت في الأخبار صور جثث العاملين في حملة أكينو، ومع ذلك قال الرئيس ريغان في مؤتمر صحافي إنّ هذا يمكن أن يكون قد حصل في الجانبين. هذه الملاحظة وقفت في وجه جميع الحقائق والإثباتات، وفي النهاية لم يستطع لاهو ولا كايسي إنكارها. وهكذا تمّ اعتماد الحل الذي لا بدّ منه، وهو إرسال ماركوس إلى المنفى وإعلان أكينو رئيسة للبلاد.

في ٢٧ شباط/فبراير اجتمع كايسي وكلير جورج مع بواندكستر ونورث حول المسألة الإيرانية. كان كايسي تواقاً لأن يزيح إسرائيل وغوربانيفار من المفاوضات الدائرة. وكان تبرير كايسي هو أننا لا نستطيع أن نتحمل المزيد من المحادثات الهاتفية التي يستطيع السوفيات والآخرون الاستماع لها ونحن بحاجة أيضاً إلى خطة دائمة للتصرف في حال تسرب المباحثات. إنّ حقيقة هذه المباحثات بين الولايات المتحدة وإيران يمكن أن تغير العالم كله. وقد يتجه العالم العربي نحو الجنون إلاّ إذا تمّ شرح لوضع المباحثات بشكل ملائم.

وفي حديث عن الخطوة التالية التي تضمنت اجتماعاً بين مكفرلين وممثل عن إيران قال كايسي يجب أن نتأكد أنّ تسريب نبأ هذا الاجتماع هو عمل لمصلحة إسرائيل. هناك أربعة رجال فقط في إسرائيل يعرفون عنه، وقد اعتقدوا الآن بأنّ رئيس مجلس الشورى الإسلامي رفسنجاني سوف يحضر للقاء مكفرلين في أوروبا، وكان نورث عائداً لتوه من ألمانيا الغربية حيث التقى مسؤولاً من مكتب رفسنجاني.

أرسل مكفرلين رسالة على الكومبيوتر من منزله إلى نورث يقول فيها: «حسناً فعلت ـ إذا عرف العالم أنك حافظت على تكامل سياسة الولايات المتحدة وروح المبادرة فيها، فسوف يعينونك وزيراً للخارجية لكنهم لا يستطيعون الآن ـ هذه هي حالة الديموقراطية في القرن العشرين».

في تلك الليلة أجاب نورث: «تأكد أننا نسير في الإتجاه الصحيح وسوف يتبنى شولتز هذا في المستقبل عندما يوجز له بواندكستر. بالاتكال على اللّه ومساعدته وإلهامه لنا وبعملنا الشاق سوف نجد عما قريب الرهائن في منازلهم ونكون في طريقنا نحو علاقات إيجابية أكثر من مقايضة صواريخ تاو بحياة الناس. . . . بواندكستر على حد علمي مهتم جداً بهذه المسألة وبأنها تسير وفقاً للخطة الموضوعة. إنّ دوري فيها كان سهلاً بالمقارنة مع دوره إذ إنّه

يتوجب علي أن أتعامل مع الأعداء فقط بينما عليه أن يتعامل مع الحكومة».

أضاف نورث أنّه سيحاول عقد اجتماع مع مكفرلين وبواندكستر وسكورد الذي كان يدير عملية النقل الخاص للأسلحة إلى الكونترا وقال: «سيعود سكورد غداً من أوروبا حيث يعمل في تأمين صفقة سلاح للكونترا، وهو رجل متعدد المواهب».

تشاءم رئيس فرقة الشرق الأدنى في وكالة المخابرات المركزية توم تويتن الذي كان حاضراً في لقاء نورث في أوروبا لأنَّ الرجل الذي حضر من مكتب رفسنجاني كان متخوفاً ويرى أنَّ الولايات المتحدة هي الشيطان الأكبر، وكذلك غوربانيفار فإنَّه قد كذب على الفريقين إذ وعد الولايات المتحدة بإطلاق سراح جميع الرهائن ووعد الإيرانيين بالتجهيزات العسكرية والصواريخ المتطورة. وكان هذا من أجل إحضار الجميع إلى طاولة المفاوضات وعندما يجلس الجميع إليها سيراقب غوربانيفار المباراة العنيفة. تمّ شحن ١٠٠٠ صاروخ تاو إلى إيران وهي أول شحنة أميركية مباشرة، ولكن لم يطلق سراح أي من الرهائن. تصرف غوربانيفار وكأنَّ الكرة ما تزال في ملعب الأميركيين وقال في اجتماع آخر إنَّ الإيرانيين لا يريدون صواريخ تاو لأنها لا تقدم لهم شيئاً.

شبع بواندكستر من هذا وأراد أن يوقف القضية برمتها. قال لنورث: «انسَ القضية لأنَّ فيها الكثير من التحركات المختلطة والتعامل المزدوج ولن تؤدي إلى أية نتيجة».

أما نورث فإنه بدلاً من ذلك تابع العمل في القضية. لقد تفهم هاجس الرئيس العاطفي لإطلاق سراح الرهائن. لقد كانوا خائفين من أن تعود الوشاحات الصفر، وهو خوف يمكن أن ينتاب الرئيس كما انتاب الرئيس السابق حول إيران.

وافق كايسي على وجوب استمرار المبادرة لأنَّ الأخطار كانت قليلة والأسلحة التي تقدم لم تكن ذات دلالة كما أنَّ المعلومات المقدمة إلى إيران لا تسمح بحسم الحرب العراقية الإيرانية.

كان مكماهون قلقاً حول توسيع دور الوكالة كما أنَّ ترتيبات تسليم المعلومات السرية للعراق، عدو إيران، والبيانات المأخوذة عن صور الأقمار الاصطناعية، وإعطاء المعلومات والبيانات التكتيكية للجانبين، كل ذلك وضع الوكالة في موقف حرج، وهذا ليس نظرياً لأنَّ الحرب كانت دموية، فقد دفع الإيرانيون بموجات بشرية من المراهقين والجنود غير النظاميين وقد بلغ عدد القتلى والجرحى والأسرى في هذه الحرب حوالى المليون في الجانبين. إنها ليست لعبة، إنها مذبحة.

كان هذا هو المشروع، وخداع الكونغرس قنبلة موقوتة. كان مكماهون متأكداً من ذلك. إنَّما كانت آخر محاولة. توجه إلى كايسي وقال له إنَّ أربع سنوات كنائب مدير الوكالة و٣٤ سنة خدمة في الوكالة تكفي، وأنَّ زواجه كاد أن ينفك. إنَّه يحتاج إلى تغيير ما، يريد الخروج من الوكالة.

أصيب كايسي بخيبة أمل. كان مكماهون منافساً جيداً. كان يتذبذب صعوداً أو نزولاً حول العمل الخفي ولكنه في النهاية كان يخضع لسلطة الرئيس ومدير المخابرات المركزية. قال مكماهون إنَّه كان يخطط لأن يتسلم وظيفة نائب رئيس لمشاريع استخبارات سوداء لفرع شركة لوكهيد في كاليفورنيا.

قال كايسي: أنت ممتاز كي تكون بائع طائرات، يجب أن تذهب فوراً وتبدأ عملك الخاص وتجرب فرص الرأسمالية. تبسم مكماهون وأعد رسالة الاستقالة إلى الرئيس وعبَّر عن مشاعر مختلطة لمغادرته، ونوّه بأنَّ كايسي كان شخصية هامة ووحيدة. وهكذا رقى كايسي غايتس إلى نائب مدير المخابرات المركزية، فأصبح الرجل رقم ٢ في الوكالة، وهو محلل كبير لم تقتصر اهتماماته على الأعمال الخفية.

في ١ آذار/مارس أقامت برناديت كايسي سميث حفلة عشاء في ذكرى مرور ٤٥ عاماً على زواج والديها في فندق واترغيت وكانت حفلة رسمية حضرها سبعون شخصاً من ضمنهم كسينجر، سبوركين، طوني دولان، جين كيركباتريك، مكماهون، غايتس، ميز، إلاَّ أنَّ ريغان لم يحضر وكان من المفترض أن يحضر بوش غير أنَّه تغيب. بعد العشاء قالت برناديت: «أردت أن يكون هذا نصْف مفاجأة» ثمّ توقفت وقالت: «ولكن تعلمون أنَّه من الصعب أن يبقى ذلك سراً وعلى الوالد بصورة خاصة»، وضحك الجميع وصرخ أحد الحاضرين قائلاً: «هذا ما قاله الحلفاء» وتعالى ضحك كثير. ثمّ تحدث ميز وقال: «إنَّه لولا عمل كايسي عام ١٩٨٠ لما كان معظم الناس الموجودين في هذه القاعة هنا». قال إنَّ بيل وصوفيا كان لهما زواج مميز. قالت برناديت: «آمل أن تكون هنا بعد ٤٥ سنة للاحتفال بالذكرى التسْعين لزواج أبي وأمي»، وضحك الجميع.

على الرغم من أنَّ مكماهون كان قد أعد رسالة استقالته وقدمها فإنَّه لم يتوقف عن العمل، وفي ١٤ آذار/مارس حضر اجتماع مجموعة تخطيط الأمن القومي عن كايسي حيث كان في الاجتماع جميع المسؤولين الكبار. أمر الرئيس ثلاث مجموعات من حاملات الطائرات بالتجمع قرب الساحل الليبي لتنفيذ عملية تدعى «بريري فاير» ووقع توجيهات قرار حول قواعد التدخل.

ـ إذا هاجم القذافي سفينة أو طائرة أميركية سيكون رد الفعل موجهاً ضد مصدر التهديد مهما كان سفينةً أو مطاراً أو موقع صواريخ. ولا يسمح لقائد القوة الأميركية بالرد بصورة غير متناسبة كثيراً مع الضربة الليبية إلاَّ وفقاً لاعتبارات معينة. لكنَّ وينبرغر اعترض وطلب تقليص العمل العسكري إلى أقل مستوى.

ـ إذا أدت الضربة الليبية إلى خسارة أميركية، وأعطى الرئيس إشارة الرد، عندها يجب ضرب خمسة أهداف ليبية يفضل أن تكون طائرات سوڤياتية الصنع جاثمة على أرض المطار.

ـ إذا باشر القذافي بالهجوم على الوحدات الأميركية، عندها وبعد أن يعطي الرئيس الأمر، تقصف الطائرات الحربية الأميركية مؤسسات النفط وأهدافاً اقتصادية أخرى داخل الأراضي الليبية. لقد جرى نقاش كثير حول شخصية القذافي واهتم الرئيس ريغان بشكل خاص بتفاصيل الحياة الشخصية للقذافي كما جمعتها وكالة المخابرات المركزية. في رحلة إلى إسبانيا ومايوركا لم يثق الزعيم الليبي بعمال الفندق الذي نزل فيه وكلف مساعديه بشراء حرامات من عدة محلات تجارية ليستعملها عوضاً عن حرامات الفندق. كان ريغان، في عدة مرات، قد اعتبر القذافي واحداً من الجن، وقال مرةً: «يمكن للقذافي أن يختلس النظر إلى نانسي وهي في الحمام». تحدث الجميع عن القساوة التي يريدون الظهور بها تجاه القذافي وعن ضربة بعنف بالغ وأنَّ لديهم شوكة يغرزونها في عين حلفائهم الأوربيين. كان لديهم من الأسباب أكثر من تلك التي أدت إلى غزو غرانادا.

سأل دونالد ريغان: «هل ستستعملون الأسلحة النووية؟!» قفز الآخرون وصرخوا وكان الجواب: لا. قال رئيس أركان البيت الأبيض إنَّه أراد أن يتأكد أنَّهم لا يريدون ذلك.

قبل البدء بعملية «بريري فاير» توجه وينبرغر إلى لندن للاجتماع مع قائد الأسطول السادس نائب الأميرال فرانك كلسو، وأعطى الوزير توجيهاته بوجوب استخدام الأسلحة المؤثرة جداً وكأنَّ الولايات المتحدة ترد على هجوم أو اعتداء. وأعطى وينبرغر أوامره بقصف أهداف محددة ومركزة وبألا يجري أي قصف غير ضروري.

رأى بواندكستر ونائبه فورتييه أنَّهم إذا ضربوا الأهداف العسكرية الليبية بقساوة فإنَّ ضباط القذافي سوف يقتنعون بأنَّ مشاكلهم كانت نتيجة لمغامرات القذافي الإرهابية، وعندها يحتمل أن يتحركوا للإطاحة به.

لم يكن كايسي واثقاً من العملية بشكل كامل. فالعمل العسكري والتهديد به والتخطيط السري المصري الأميركي للهجوم على ليبيا كان شيئاً جيداً وقد دعمه بشكل كبير، ولكنه رأى أنَّ هذه الأعمال سوف تجعل من الصعب على الوكالة أن تنفذ خططها السرية ضد القذافي وستؤدي إلى تقويته في بلده وفي البلدان العربية الأخرى. وأنها ستزيد من التعاطف معه وستعطي لادعاءاته في أنَّ الولايات المتحدة كانت الأمبريالية الأولى، مصداقية عند الجميع.

لم يظهر أنَّ المبعدين الليبيين كانوا أقوياء أو يقومون بواجباتهم وكان مكماهون على حق عندما قال إنَّهم مثل صبية الكشافة ضعفاء وهواة. واتفقت الوكالة مع الاستخبارات الإسرائيلية حول الخطط الموضوعة للإطاحة بالقذافي إلاَّ أنَّ الموساد قال: لا. ومرر الفرنسيون كلمة تفيد بأنَّ الحل الوحيد للإطاحة بالقذافي هو أن تبقى جميع الخطط سرية جداً، وتحدثوا عن خطط جريئة، ولكن عندما طلبت منهم المساعدة رفضوا وقالوا أنَّهم يتخوفون من أن يؤدي العمل العسكري السري الأميركي إلى تقوية القذافي لا إلى إنهائه.

قال كايسي إنَّ الحل الوحيد هو تغيير المذكرة للسماح لوكالة المخابرات المركزية بالعمل مباشرة ضد القذافي وليس من خلال المبعدين، لكنَّ البيت الأبيض كان يركز على «بريري فاير».

كان من المقرر أن تبدأ «بريري فاير» ليل السبت في ٢٢ آذار/مارس ولكنها تأجلت يوماً بسبب الرياح القوية في خليج سرت. وبدأت مناورة البحار العالية في ٢٣ آذار/مارس وظهر على الأفق ٤٥ سفينة حربية و٢٠٠ طائرة وحتى غواصات هجومية تعمل على الطاقة النووية من طراز لوس أنجلوس ٦٨٨. تجاوزت ثلاث سفن خط العرض ٣٢ وهو يبعد أكثر من ١٢٠ ميلاً عن الشاطئ الذي رسمه القذافي واعتمده كحدود للمياه الإقليمية متحدياً الحدود المعترف بها دولياً للمياه الإقليمية وهي ١٢ ميلاً. كانت أكثر من مائة طائرة تحلق فوق الأسطول وتشكل مظلة جوية لحمايته. في خلال ساعتين أطلق الليبيون صاروخين من طراز سام ٥ من قاعدة صواريخ برية على طائرات الاستطلاع الأميركية، وأخطأت الصواريخ السوڤياتية الصنع أهدافها. ثمّ أطلقت أربعة صواريخ أخرى على الطائرات الأميركية.

قامت الطائرات الأميركية من على بعد ٤٠ ميلاً بإطلاق صواريخ هارم الدقيقة على الرادارات الليبية ودمرتها، كانت هذه الصواريخ تحتوي على رؤوس متفجرة يبلغ وزن الحشوة فيها ٤٦ رطلاً مما يحد إلى أقل ما يمكن من الخسائر البشرية الليبية. وخلال يومين أُغرق زورق دورية ليبي بواسطة الوحدات الأميركية. بينما كان الرئيس ريغان يتلقى كل جديد في وقت حصوله سأل عن الخسائر البشرية الأميركية. لم يكن هناك خسائر بشرية أميركية. أحصت الاستخبارات مقتل ٧٢ ليبياً. بحلول يوم الأربعاء في ٢٦ آذار/مارس حوالى الساعة ١،٣٠ بعد الظهر بتوقيت واشنطن انتهت مناورات بريدي فاير. في عدد الصباح من الواشنطن بوست وردت الخطوط العامة لبعض الخطط وورد أنَّ بواندكستر وفورتييه قد زارا مصر سراً منذ ستة أشهر لبحث التنسيق في عمليات عسكرية محتملة ومشتركة ضد ليبيا.

بعد الظهر تلقيت(*) مكالمة من أحد أركان مجلس الأمن القومي الذي قال إنَّه يتكلم نيابة عن بواندكستر وفورتييه.

قال: «عليك أن تعرف إنَّهم ليسوا سعداء هنا. . . أن تذكر اسمي بواندكستر وفورتييه عندما تكون في مواجهة مع القذافي وأنت تعلم نزعته إلى الإرهاب والاغتيال وأنَّ تكشف عن مهمتها السرية في أوج المواجهة فإنَّ هذا كله يزيد من تعرضها. . . . وكل يخاف على عائلته، وهذا لا يطاق. لقد تمّ تحديد بواندكستر وفورتييه كهدفين» ثمّ أوضح أنَّ معلومات الاستخبارات تؤيد هذا.

(*) المؤلف

تابع المسؤول قائلاً: «لم أرَ فورتييه مصاباً بخيبة أمل أبداً حول أي شيء. . . . إنّه يريد أن يتصل بك. . .

. . . لقد ارتفعت نسبة الخطر على بواندكستر وفورتييه وهذا لا يتلاءم مع الوظيفة ولا أعلم ما نستطيع أن نعمله»، قال ذلك بلهجة يائسة.

الجمعة ٢٨ آذار/مارس حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر تلقى برادلي مكالمة من بواندكستر: «أنا أتكلم كي أحتج على مقال بوب وودورد وخاصة لذكر اسمي واسم فورتييه» سأله برادلي: أنت تعني لأنّه سمّاك أنت وفورتييه، وضعكما القذافي على لائحة الاغتيال؟

قال بواندكستر: بالضبط.

قال برادلي: أظن أنّ ذلك خارج الاحتمال. وبعد هذا فقد كان الكثيرون على متن هذه السفن ومن المشتركين في هذه العملية، والقذافي يستطيع بالتأكيد أن يعرف من يساهم في قرارات الأمن القومي.

قال بواندكستر: «أنا فقط أريد أن أسجل احتجاجي». وأضاف أنّه إذا عثر على جثته أو جثة فورتييه مفجرة أو مخترقة بالرصاص فإنّ الواشنطن بوست سوف تتحمل مسؤولية ذلك، وأضاف أنّ وودورد لم يتصل بأحد ولم ينذر بأنّ أسماء سوف تظهر. قال برادلي: لقد تحدثنا مع أناس كثيرين.

فيما بعد أرسل لي برادلي بطاقة صغيرة كتب عليها حديث بواندكستر الهاتفي.

بعد بضعة أيام تحدثت مع مصدر مطلع في الإدارة وأعدت على مسمعه ما قيل عن مخاوف بواندكستر وفورتييه. قال المصدر: «أوه لقد خاب أملهما لأنّ الحرب قد انتهت». وأضاف أنّ التصميم على توجيه ضربة ثانية إلى القذافي كان محموماً.

هذه المرة، وفي القاهرة تمت قراءة المقالات المتعلقة بالتخطيط العسكري السري مع مصر وقد كتب رئيس تحرير صحيفة الأهرام شبه الرسمية إبراهيم نافع وهو مقرب جداً من الرئيس حسني مبارك: «لقد حاولت الولايات المتحدة إشراكنا في عمل ضد ليبيا»، وعدد ثلاث محاولات وأعلن أنّ مصر قد رفضت جميع العروض. إلاّ أنّ سفير الولايات المتحدة في القاهرة فيليوتيس وجه برقية سرية إلى واشنطن قال فيها إنّ الرئيس مبارك أبلغه بصفة خاصة أنّ مصر يمكنها أن تتابع التخطيط وأنّ كشف الصحافة الأميركية عن الخطط كان له نتائج صغيرة لا تعدو كونها حفراً صغيرة في الطريق.

مع أنّ عملية «بريري فاير» أو توجيه ضربة عنيفة للقذافي يحد من دور وكالة المخابرات المركزية، فقد أدرك كايسي أنّ الرئيس ريغان كان يريد تغيير النظام في ليبيا ولا شيء غير ذلك. إنّ أي هجوم وقائي أو ضربة انتقامية لليبيا بحاجة إلى إثبات يظهر علاقة ليبيا بعمل إرهابي محدد. أعطى كايسي أوامره لوكالة المخابرات المركزية ووكالة الأمن القومي والأقمار الاصطناعية للعمل. أراد أجوبة. أراد انتباهاً غير عادي حول هذا الموضوع. إنّ

إلقاء القبض على خاطفي الباخرة أكيلي لاورو قد أظهر أنَّ الاستخبارات الجيدة تستطيع تغيير الكثير.

قبل عدة أسابيع من مناورات خليج سرت بدأ رجال كايسي بالتقاط الرسائل من مركز مخابرات القذافي في قلب مدينة طرابلس. لقد كانت ضربة استخبارية موفقة، فقد استطاعوا بحساب واحد حل شيفرة ٣٨٨ رسالة، بالرغم من أنَّ طريقة التشفير كانت سراً وثيقاً. في ٢٥ آذار/مارس ومباشرة بعد بريدي فاير أرسلت رسالة من طرابلس إلى ثمانية أعضاء في المكتب الشعبي الليبي (أي السفارة الليبية). هذه الرسالة المؤلفة من ثلاثة أسطر طلبت منهم أن يتخذوا وضع الحذر وأن يكونوا جاهزين لمهاجمة أهداف أميركية تنفيذاً للخطة المرسومة. لقد أرسل هذه الرسالة رئيس الاستخبارات الليبية.

بعد عشرة أيام أي في ٤ نيسان/أبريل تمّ التقاط رسالة من مكتب الاتّصال الشعبي الليبي في برلين الشرقية إلى مركز القيادة في طرابلس جاء فيها: «ستكون طرابلس سعيدة عندما ترى عناوين الصحف غداً».

بعد بضع ساعات أي في الساعات الأولى من ٥ نيسان/أبريل تمّ التقاط رسالة أخرى من برلين الشرقية إلى طرابلس تفيد بأنَّ عملية تجري الآن وأنّه من الصعب اقتفاء أثر الليبيين إلى برلين الشرقية. خلال عشر دقائق وفي الساعة ١،٤٩ فجراً بتوقيت برلين انفجرت قنبلة في نادي ديسكوتيك لابيل في برلين الغربية، والمعروف أنّه مركز التقاء للعسكريين الأميركيين خارج أوقات الخدمة. أدى الانفجار إلى مقتل أميركي واحد هو الرقيب كينيث فورد وامرأة تركية، وأصيب ٢٣٠ شخصاً بجراح بينهم ٥٠ عسكرياً أميركياً. هذه الرسالة الملتقطة أمنت تحذيراً مسبقاً كان بإمكانه تفادي الكارثة إلاّ أنَّ المسؤولين تأخروا مدة خمس عشرة دقيقة لإخلاء ديسكوتيك لابيل. مع أنَّ الرسائل بدت، وهي منفردة، غامضة إلى حد ما، ولكنها إذا جمعت معاً فإنّها تؤمن عناصر حاسمة لمحللي الاستخبارات. لم يكن هناك أي رسالة من طرابلس تأمر بتفجير لابيل، ولكنَّ طرابلس لم تكن تتورط في اختيار الهدف والتوقيت، بل تركت ذلك للعاملين في مسرح العمليات. كانت جميع الشكوك مقنعة.

بدأ التخطيط السري لشن غارة عسكرية انتقامية، وثابرت الإدارة خلال عشرة أيام على إرسال إشارات علنية مربكة، بعضها يحتمل إجراء ضربة وبعضها ينفي وبعضها يؤكد. هذا الارتباك في الإدارة الأميركية أثار شكوكاً حول أن يضغط الرئيس ريغان على الزناد. أحد المشككين الكبار كان المقدم نورث الذي اعتبر القذافي سيد الإرهاب، واعتبر نفسه سيد مكافحة الإرهاب. ولكنَّ البعض في الإدارة قالوا إنَّ الرئيس لن يعمل.

إنَّ خصوصية المعلومات الملتقطة كانت نادرة لدرجة أنَّ عدداً كبيراً من المسؤولين لن يبقوا صامتين. قال السفير الأميركي في ألمانيا الغربية في تصريح علني عن تفجير لابيل: «هناك دليل واضح جداً على التورط الليبي» كما صرح قائد الحلف الأطلسي الجنرال برنار

روجرز في خطاب في ٩ نيسان/أبريل إنَّ هناك دليلاً غير قابل للنقاش على مسؤولية ليبيا.

عممت وكالة الأمن القومي «نصيحة سرية» تقول إنَّ هذه التعليقات تعيق بشكل كبير الحصول على المعلومات. وتمّ تحديد تعميم الالتقاطات.

في يوم الاثنين ١٤ نيسان/أبريل الساعة السابعة مساء أي الساعة الثانية فجراً بتوقيت ليبيا قامت حوالى ٣٠ طائرة من القوات الجوية والبحرية بقصف مدينة طرابلس ومدينة بنغازي التي تبعد عنها ٤٥٠ ميلاً، منها ثماني أو تسع قاذفات ف ١١١ كل منها تحمل ٤ قنابل من وزن ٢٠٠٠ رطل موجهة بأشعة ليزر كانت معدة لقصف ثكنة القذافي التي تسمى «باب العزيزية» وسقط أكثر من ٣٢ قنبلة من طائرات ف ١١١ على الثكنة لكنها أصيبت بأربع قنابل أو بقنبلتين. وكان على عدد من طائرات ف ١١١ العودة بعد رحلة طيران لمسافة ٢٨٠٠ ميل أي لمدة ١٤ ساعة من إنكلترا، والجديد بالذكر أنَّ فرنسا قد منعت الطائرات من التحليق في أجوائها مما جعل الطريق أطول. إنَّه فشل تقني ولكنه بقي سرياً. حتى محللو وكالة الاستخبارات الدفاعية لم يعطوا التفاصيل. أما القذافي الذي كان نائماً في خيمة منصوبة على الطراز البدوي فلم يصب بأذى، وقد جرح اثنان من أبنائه وقتلت ابنته بالتبني وعمرها ١٥ شهراً فقط.

في الساعة التاسعة ليلاً ظهر الرئيس ريغان على التلفزيون ليعلن عن الضربة وقال إنَّه قد توفر دليل واضح حول تورط ليبيا في تفجير برلين الغربية، ولخص ثلاثاً من الرسائل الليبية الملتقطة وقال إنَّ هذه الغارة هي دفاع عن النفس.

قال ريغان في مكتبه البيضاوي: «اليوم فعلنا ما يتوجب علينا أن نفعله، وسنفعله مرةً ثانية إذا كان ذلك ضرورياً».

- ٢٣ -

كان كايسي مشغولاً بكابوس آخر في مكافحة التجسس منذ أكثر من ستة أشهر. وكان المرتد عن المخابرات السوڤياتية يورتشنكو قد ساعد في كشف هوارد وجاسوس آخر في وكالة الأمن القومي. كان يورتشنكو قد أخبر محققي وكالة المخابرات المركزية عن حادثة حصلت عندما كان رئيس ضباط أمن المخابرات السوڤياتية في السفارة السوڤياتية في واشنطن من العام ١٩٧٥ إلى ١٩٨٠. كان السوڤيات يتلقون معلومات هامة من وكالة الأمن القومي عن طريق مخبر كان يتصل بهم إلى السفارة السوڤياتية. لم يكن يورتشنكو يعلم من هو. لكنه تذكر أنَّه تحدث مرة معه على الهاتف. مررت وكالة المخابرات المركزية هذه المعلومات إلى مكتب التحقيق الفدرالي الذي عاد إلى التسجيلات القديمة لمكالمات السفارة السوڤياتية. في تسجيل عمره ست سنوات، سمعوا متكلماً لم يعرّف عن هويته يقول: «لدي بعض المعلومات الهامة لأبحثها معك وأعطيها لك». من هذه التسجيلات ومن معلومات يورتشنكو التي تفيد بأنَّ المتكلم كان من وكالة الأمن القومي ركز مكتب التحقيق الفدرالي على المجموعة السوڤياتية في وكالة الأمن القومي التي تتألف من ألف موظف. عرضت التسجيلات على بعضهم واستمعوا إليها وتمكنوا من تحديد زميل سابق هو رونالد بيلتون عمل في وكالة الأمن القومي من عام ١٩٦٥ إلى عام ١٩٧٩ في قلب المجموعة السوڤياتية وعندما استقال كان دخله يساوي ٢٤٥٠٠ دولار سنوياً. أظهر تحليل الصوت أنَّه كان بيلتون.

ومع أنَّ بيلتون كان موظفاً بسيطاً فإنَّ مركزه كان يسمح له بالدخول إلى الغرف الحساسة والإطلاع على المعلومات المشفرة التي تتعلق بستين إشارة شيفرة سوڤياتية أو وصلات للاتّصالات كانت جميعها من أهداف وكالة الأمن القومي. وكان يقوم بأعمال الموازنة وصيانة المعدات وتخطيط البرامج وحل المشاكل. وكان بيلتون يبلغ ٣٨ سنة من العمر وكان مفاوضاً جيداً ويتمتع بذاكرة غير عادية. وبكلمة أخرى كان بالنسبة إلى السوفيات الوحي الملهم. وإذا قدر لهم أن يختاروا من بين آلاف العاملين في وكالة الأمن القومي لن

يتوصلوا إلى أي شخص أفضل منه. كان بيلتون واحداً من المهمين على مستوى منخفض في أية بيروقراطية. لقد كان لديه نظرة شاملة وتفهم واسع للأمور التقنية.

حدد مكتب التحقيق الفدرالي مكان بيلتون كبائع زوارق في مدينة أنابوليس في ولاية ماريلاند في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥. وقد قابله اثنان من عملاء المكتب في فندق هيلتون في أنابوليس واعترف ببعض التجسس. صرح بأنَّه أصيب بإفلاس شخصي عام ١٩٧٩ عندما كان لا يزال موظفاً في وكالة الأمن القومي ولكن لم يتنبه أحد من زملائه لذلك. وبعد سلسلة من الأعمال التجارية الفاشلة إتجه إلى السوفيات عام ١٩٨٠ وسافر فيها بعد إلى فيينا واجتمع بمسؤول في المخابرات السوفياتية ومكث في منزل السفير السوفياتي عدة أيام، وقد قبض مبلغ ٣٥ ألف دولار أميركي لقاء معلومات حول تقنيات التجسس تبلغ قيمتها عشرات الملايين من الدولارات.

بعد اجتماع بيلون مع عميلي مكتب التحقيق الفدرالي تمّ توقيفه فوراً ووجهت إليه تهمة التجسس. قال مكتب التحقيق الفدرالي في أوراق المحاكمة أنَّ بيلتون أمن للعملاء السوفيات معلومات حول «مشروع جمع معلومات أميركي يستهدف الاتحاد السوفياتي» وهذا ما أعطى انطباعاً لدى وسائل الإعلام بأنَّ إحدى العمليات الهامة في وكالة الأمن القومي قد بيعت. وذكر المحامي الذي عينته المحكمة للدفاع عنه في مرافعته لإطلاق سراحه بكفالة، الاسم المشفر ايفي بلز، عندها أوقف القاضي الاستجواب ومنع الكشف أكثر من ذلك عن الموضوع.

مع أنَّ ايفي بلز تعود إلى أواخر السبعينات عندما كان تورنر مديراً للمخابرات المركزية، فقد تعرضت للشبهة عام ١٩٨١، واستطاع كايسي ووكالة المخابرات المركزية بعد انكشاف أمر بيلتون أن يجمعا قطع الموزاييك لتشكيل الصورة الواضحة.

في أعماق بحر أوختسك على الساحل الشرقي للاتحاد السوفياتي وفي قاع المحيط وضع فريق من البحرية الأميركية ووكالة الأمن القومي آلات استراق سمع صغيرة مضادة للماء معقدة ومتطورة جداً في لولب له غطاء يلائم كابلاً سوفياتياً تحت الماء مخصصاً لخطوط الاتّصالات العسكرية وخطوط الاتّصالات الأخرى. يتصل غطاء اللولب بالكابل الكترونياً دون أن يلامسه أو يلامس أياً من الأسلاك الموجودة في داخله. وإذا رفع السوفيات الكابل إلى فوق سطح البحر للتفتيش أو للعناية فإنَّهم لن يعثروا على أي أثر مادي لوجود اللولب ويمكن للغطاء أن يبتعد عن الكابل وأن يبقى في قاع المحيط دون أن ينكشف. كانت اللوالب في الغطاء تسجل الرسائل والإشارات على مختلف أقنية الاتّصالات لمدةٍ تتراوح بين أربعة وستة أسابيع، وكان الغلاف يصلح لفترتي تسجيل في السنة.

كان أحد أخطر مظاهر عملية ايفي بلز هو نزع اللوالب، وفي داخلها تسجيلات لاتّصالات مخزونة. كانت إحدى الغواصات المجهزة خصيصاً لهذه المهمة تعود إلى بحر

أوختسك. وكان رجال الضفادع يستخدمون غواصة صغيرة جداً أو إنساناً آلياً تحت الماء وكانوا بذلك يحددون مكان الغطاء وينزعون اللوالب ويضعون غيرها. كانت اللوالب ترسل إلى وكالة الأمن القومي لتسجيلها وحل شيفرتها. ومع أنَّ الرسائل التي كانت تجمع من هذه اللوالب تعود لعدة أشهر فقد أمنت معلومات وبيانات هامة. كانت اختبارات الصواريخ البالستية السوفياتية من المعلومات التي تمّ الحصول عليها من الكابل. وكانت الاتّصالات السوفياتية في شبه جزيرة كمتشتكا قرب بحر أوختسك حول هذه الاختبارات ترسل عبر هذا الكابل.

كان السوفيات يعتقدون بأنَّ اتّصالات الكابل تحت البحر أو عبر الخطوط المطمورة تحت الأرض منيعة ضد الالتقاط من قبل الولايات المتحدة. واستناداً إلى هذا استعملت أجهزة عادية التشفير على بعض الأقنية في كابل بحر أوختسك. كما كانت بعض المعلومات على بعض الأقنية غير مشفرة. وكان الروس يستعملون أفضل نظام تشفير لهم في أكثر الاتّصالات تعرضاً والتي تتم عبر الموجات الهوائية ومن ضمنها الموجات الراديوية والميكروويف (الموجات الصغيرة جداً) واتّصالات الأقمار الاصطناعية.

استمرت عملية بحر أوختسك حتى عام ١٩٨١ عندما رأى أحد الأقمار الاصطناعية الأميركية عشرات القوارب البحرية السوفياتية تتجمع فوق البقعة التي وضع فيها الغلاف تحت سطح البحر تماماً. وكان أحد الزوارق السوفياتية الذي يستعمل عادة لعمليات الانقاذ تحت سطح البحر قد قطرته البحرية السوفياتية حول العالم بكامله تقريباً وجاءت به ليشترك في العملية. وفيما بعد عندما ذهبت الغواصة الأميركية لتجمع اللوالب وتضع غيرها لم تعثر على الغلاف. عندها ظنت وكالة الأمن القومي أنَّ الغلاف قد وقع في أيدي السوفيات وأنَّ العملية قد انكشفت.

درست البحرية الأميركية جميع المعلومات ونظمت تقريراً سرياً سمح لعدد قليل من المسؤولين بالإطلاع عليه. واستبعدت الحظ أو الصدفة. كان السوفيات يعرفون ما يفعلون وتوجهوا إلى مكان الغلاف بدقة. واستنتج التقرير أنَّ هناك تسريباً وفي الغالب تجسساً وأنَّ السوفيات كان لهم مصدر بشري. لكن لم يعرف أحد من هو. وبقيت خسارة الغلاف واللولب عام ١٩٨١ غامضة حتى كشف يورتشنكو عن المفاتيح التي قادت إلى تحديد بيلتون بعد أربع سنوات.

رأى كايسي أن يحاكم بيلتون دون أن ينكشف أي شيء عن ايفي بلز أو عن بقية المشاريع السرية. كان العيب الأساسي في عملية ايفي بلز يعود إلى الأشهر التي تفصل بين وقت إرسال الرسائل السوفياتية ووقف التقاطها بواسطة الغواصة. تحول رئيس الاستخبارات البحرية الأميرال جون بوتس ورئيس أركان المجموعة الاستخبارية نائب الأميرال أدوارد بوركالتر إلى داعيتين لحل جريء لمشكلة المعلومات الفورية (أي التي تصل فور وقع الحدث)

بعد الاشتباه بعملية ايفي بلز. يمكن وصل الكابل الملقى تحت الماء والموجود في غرينلاند بعدة غلافات تركز على الكوابل البحرية الهامة على الساحل الشمالي للاتحاد السوفياتي. عندئذ تصبح الاتّصالات متوفرة للاستعمال الفوري من قبل وكالة الأمن القومي وتبلغ المسافة من غرينلاند تحت الثلج في القطب الشمالي إلى الساحل الشمالي للاتحاد السوفياتي حوالى ١٢٠٠ ميل، وتبلغ كلفة الكابل الملقى في قعر المحيط مليون دولار لكل ميل وتبلغ الكلفة الكاملة إذاً مليار دولار وهي باهظة، وإنما على حد قول الأميرالين تستحق ثمنها. لقد كان الجو في لجنتي الاستخبارات في الكونغرس مناسباً تماماً. على الرغم من الشك في الأعمال الخفية الذي كان سائداً فقد كان المشرعون بحاجة إلى عمل يثبت جديتهم في العمليات الاستخبارية. ودعا اقتراح آخر إلى صرف مليار دولار لوضع كابلات حول العالم مستخدماً نفس التقنية لوضع لوالب في جميع أنحاء العالم.

لقد علمنا عن عملية ايفي بلز في أوائل عام ١٩٨٥ ولكننا لم نكن واثقين من أنها قد تعرضت للشبهة من قبل السوفيات، لذلك قرر برادلي أن لا ننشر شيئاً. بعد إلقاء القبض على بيلتون تأكدنا أنَّ واحداً من مشاريع جمع المعلومات الذي باعه كان ايفي بلز. بما أنَّ السوفيات قد أمسكوا بغلاف اللولب فإنَّهم تأكدوا بوضوح أنها آلة استراق سمع. شعر برادلي بأنَّه من المفيد أن نشرح التفاصيل لنظهر الضرر الذي يمكن أن يتأتى من آلاف الكتبة والتقنيين والمترجمين ومنظمي المعلومات الذين كانوا يعملون على أحدث تكنولوجيات التجسس.

في ٥ كانون الأول/ديسمبر توجه برادلي وليونارد داوني المحرر التنفيذي للواشنطن بوست لزيارة مدير وكالة الأمن القومي الجنرال وليم أودوم. كان أودوم منذ عشر سنوات ضابطاً برتبة مقدم يعمل في أركان مجلس الأمن القومي في عهد كارتر وكانت هذه انطلاقة هامة في حياته المهنية. كان رجلاً شديداً نحيفاً صخرياً وكان صقراً كبيراً تجاه السوفيات ومؤمناً بطريقة الجمع التقني للمعلومات. قال أنَّ نشر أي خبر عن ايفي بلز سوف يخبر الروس عن شيء لا يعرفونه. ولكنه خلال ثلاثين دقيقة من الشرح والمناقشة بدأ يميل إلى أن يخبرنا عن السبب الحقيقي. كان يحس بالإنذار وقال إنَّ قضايا الأمن القومي كانت على المحك. بعد ذلك قال داوني إنَّه يظن أنَّ أودوم يريد أن يعرف مصادرنا حول ايفي بلز. قال برادلي يجب أن نفترض أنَّ خطوطنا الهاتفية مراقبة.

بدأت أنا(*) وبات تايلور بإجراء مقابلات دون استعمال الهاتف. لم يشأ مسؤولو الوكالة أن تجري محاكمة بيلتون بشكل علني ولاحظ أحد المسؤولين أنَّ استراتيجية وكالة الأمن القومي تجاه الصحافيين كانت غالباً ما تعتمد التأخر وكسب المزيد من الوقت. لا

(*) المؤلف.

يمكن لأي عملية أو أي اختراق أن يستمر إلى الأبد. كانت العملية تعيش يوماً بيوم وإذا استمرت أسبوعاً إضافياً تكون محظوظة جداً. قال هذا المسؤول إنَّه على الرّغم من خيانة بيلتون فإنَّه من الممكن أن يكون قد فات السوفيات بعض المعلومات. وقد ذهل مسؤولو الاستخبارات في الولايات المتحدة من فشل الجواسيس السابقين في الكشف عن معلومات كثيرة للسوفيات أو من الفشل السوفياتي في تفهم ذلك.

بالإضافة إلى ايفي بلز فقد ثبت في النهاية أنَّ بيلتون قد عرض للشبهة سبع عمليات شيفرة ومن ضمنها تلك التي تستخدم في السفارة الأميركية في موسكو وعملية شيفرة أميركية، بريطانية مشتركة، وأخرى تتعلق بطريقة جديدة وفعالة وسرية لالتقاط الإرسال السوفياتي بالميكروويف (الموجات القصيرة جداً) وأخرى تتعلق بالتجهيزات التي تؤمن الاتّصالات الملتقطة بالكومبيوتر لإجراء التحليل الفوري. كان المسؤولون قلقين من أنَّ أي خبر ينشر عن ايفي بلز سوف يطلق حمى المناقشات في الأوساط الصحافية للحصول على سبق في المعلومات، وستتبعها عدة أخبار تكشف عن تفصيل هنا وتفصيل هناك. كان هناك أسئلة دقيقة. ماذا تذكر بيلتون؟ بماذا كان يحتفظ؟ ماذا أخبر السوفيات بالضبط؟ كيف تمّ تفسير ذلك؟ هل صدقه أحد؟ الشبهة لا تعني أنَّ مقدرة ما أو تقنية ما أو مصدراً ما يستمر إلى الأبد. إنَّ نشر خبر عن بيلتون يفسح المجال لتدفق الأسئلة واحتدام المناقشات ويسلم وكالة الأمن القومي لقمة سائغة للمحررين.

كانت الصحف القديمة تحتوي على بعض المفاجآت. منذ أكثر من عشر سنوات كتب سايمور هرش على الصفحة الأولى لصحيفة نيويورك تايمز عن عمليات لغواصات أميركية بالقرب من السواحل السوفياتية: «قال أحد المصادر كانت الغواصات قادرة على التنصت على كوابل الاتّصالات الأرضية السوفياتية في قعر المحيط وهي قادرة أيضاً على التقاط الرسائل العسكرية على أعلى المستويات وبعض الاتّصالات المهمة».

كما جاء في تقرير لجنة بايك حول نشاطات استخبارات الولايات المتحدة عام ١٩٧٦: «شهد برنامج استطلاع لغواصات البحرية الأميركية وهو ذو تقنية عالية وغالباً ما يعمل في مياه عدوة تسع مواجهات على الأقل مع مراكب بحرية عدوة في السنين العشر الماضية وأكثر من ١١٠ احتمالات كشف منها ثلاثة احتمالات قوية جداً». وقالت اللجنة أنَّ تقويم البحرية الخاص للبرنامج بأنَّه قليل المخاطر كان غير دقيق.

عرضت أنا وتايلور البحث على برادلي. كان الجنرال أودوم قد أعطانا انطباعاً بأنَّ إمكانية تسجيل الكوابل عند الغواصات والمعدات الأميركية كانت من أسرار الدولة وأنَّ أي نشر لهذه المعلومات يعتبر كارثة. اتّصل برادلي بأودوم. قال مدير وكالة الأمن القومي: «كنت آمل أن لا تعثر على ذلك». قال برادلي إنَّ محرريه سيعودون إلى القضيّة. وأضاف أنَّه يشعر

بخيبة أمل لأنَّ إحدى المجلات الصادرة عن منشورات هارفرد(*) قد أعادت نشر ما كانت نيويورك تايمز قد ذكرته عن تسجيل الكوابل. فإذا كان نشره ممكناً هناك فلم لا تنشره الواشنطن بوست؟

في ٢٧ كانون الثاني/يناير ذهبت أنا وبرادلي ومحرر المحليات روبرت كايسر إلى مركز قيادة المجموعة الاستخبارية لمقابلة أودوم وكبار معاونيه وكان معنا مسودة لمقالة عن ايڤي بلز التي كنا قد خططنا لنشرها وكنا نأمل منهم أن يدلونا على أي شيء يشعرون بأنَّه يؤذي الأمن القومي. احتشد مسؤولو وكالة الأمن القومي حول المقالة وقرأوا الصفحات الثماني كما كنا ننتظر. وأصبح أودوم مطوقاً وتذمر معاونوه فسأله برادلي لماذا لا ننشر طالما أنَّ السوڤيات يعرفون كل شيء حول هذا؟ لقد علموا ذلك من بيلتون واستخرجوا الغلاف العائد لايڤي بلز من قعر المحيط، والآن وأثناء محاكمة بيلتون لماذا لا نخبر الناس بذلك؟

قال أودوم إنَّهم سيأخذون المقالة ويدرسونها ويعرضون مختلف الخيارات ثمّ يعيدونها إلى برادلي.

في اليوم التالي في ٢٨ كانون الثاني/يناير بعد أن انفجر المكوك الفضائي تشالنجر اتَّصل أودوم ببرادلي. قال أودوم إنَّه هو ووكالة الأمن القومي وحكومة الولايات المتحدة لا يريدون نشر المقالة. إنَّه لم يكن ليساعد على تحريرها أو يتوسط من أجل كتابة نص نظيف. إنَّ نشرها يثير الانتباه والاهتمام وهذا مضر جداً. وأضاف: وحتى لو كان السوڤيات قد علموا فإنَّهم لم يدركوا بالتحديد ما كانت الولايات المتحدة تعلم أنَّهم يعرفونه. ونحن نريد حماية هذا الشيء ولهذا يجب أن تنسى الموضوع بأكمله.

في ٧ شباط/فبراير تناولت طعام الغداء أنا وبرادلي وكايسر وداوني مع أحد كبار المسؤولين السابقين في وكالة المخابرات المركزية وهو على اطلاع واسع على التوتر والحساسية بين الأمن القومي والأوساط الصحافية. عرض برادلي معلوماته حول ايڤي بلز وتسجيل الكابل وخيانة بيلتون والمحاكمة الجارية وتساءل لماذا يعارضون النشر؟

أجاب المسؤول السابق في وكالة المخابرات المركزية: «إنَّ المرأة التي تدافع عن طفلها هي لا شيء بالنسبة إلى ضابط الاستخبارات الذي يدافع عن عمليته».

قال برادلي: ولكنَّ السوڤيات يعلمون.

سأل: آه ولكن بالتحديد من؟ أي سوڤيات؟ لم يكن هناك من يقول. يمكن أن يكون اكتشاف اللولب نصراً كافياً للزعماء الذين أعلموا به. ويمكن أن يكون مربكاً للمسؤولين العسكريين أو المخابرات السوڤياتية لأنَّ الكابل قد تعرض للتسجيل لفترة من الزمن. وأضاف «حسناً لا نعرف وبالتأكيد لن نعرف». ثمّ قال إنَّ ذلك كان المأزق بحد ذاته. لقد

(*) مجلة «الأمن الدولي» عدد شتاء ١٩٨٥، ١٩٨٦ مقال بعنوان الحرب النووية في البحار بقلم ديزموند بال.

كنا ننظر من الزاوية الخطأ. انظر إليها من وجهة النظر السوفياتية سترى أنَّها اشتباه خفيف منذ أربع أو خمس سنوات في بعض البحار ومحاكمة هادئة في الولايات المتحدة دون الكشف عن التفاصيل. إنَّها نهاية القضية ولكن أنظر إلى البديل إذا نشرت: ستوضع الوحدات العسكرية والاستخبارية السوفياتية في وضع الإنذار وتطلب جواباً وتحقيقاً لأنَّ الأرض الأم أرض الاتحاد السوفياتي كانت ضحية عملية تجسس في مكان محدد وفي وقت محدد. ويمكن أن يؤدي هذا إلى هبة للشعور الوطني السوفياتي وسيبدأون بالبحث على مزيد من أعمال التجسس الموجهة ضدهم، وسيأخذون أقصى حذرهم وسيمشون على رؤوس أصابعهم، وهذا قد يؤدي إلى الاشتباه بعمليات أخرى بعيدة جداً عن هذا الموضوع. قال إنَّه لم يكن يعلم عن عملية تسجيل الكوابل، وإنَّ ما قاله كان على سبيل الافتراض وأضاف أنَّ هدف ضابط الاستخبارات هو أن يجعل الطرف المقابل نائماً ويجعله يشعر بالثقة والأمن، ولهذا السبب رفضت الاستخبارات الأميركية نشر المقالة. إنَّها لا تريد أن تنذر الجانب الآخر.

تابع حديثه بلطف قائلاً إنَّ نشر المقالة في الواشنطن بوست سيأتي بالمسألة إلى طاولة الزعيم السوفياتي الجديد غورباتشيف الذي مضى على استلامه السلطة أحد عشر شهراً. قال إنَّ النشر سوف يضع قضية التجسس الأميركي داخل أمعائه وسوف يشتعل غضباً. ربما لم يخبروه. إنَّهم يخادعون في نظامهم كما نفعل نحن. إنَّ التسجيل على كابلهم كان أيضاً ضربة كبيرة لهم حتى ولو تمّ كشفه فيما بعد لأنَّه يجب أن لا يحصل أبداً.

فيما بعد كنا نرجع إلى هذا الحديث ونسميه بيان غورباتشيف المؤثر. قبل نشر المقالة يجب أن نقوِّم ما كان يعرفه غورباتشيف ومتى عرفه. وبتعبير عملي لم يكن هناك مجال للنشر. كنا واثقين جداً من أنفسنا. كانت المعلومات موجودة في أيدي السوفيات وهذا ما تأكدنا منه ولكن غورباتشيف ربما كان يعلم وربما لا يعلم. إنَّ ما جرى على الغداء كان رزيناً ويمكن أن يكون له نتائج غير مقصودة.

بدأنا بتسويق المقالة في المدينة علّنا نعثر على أحد المسؤولين يقول لنا إنَّ نشرها جيد ومفيد. قال برادلي إنَّه سيتباطأ ليرى ما سيجري. لم يخبرنا أحد ما المضر في هذه المقالة. كان واضحاً أنَّ المجموعة الاستخبارية لا تريد من الأوساط الصحافية أن تلوث مكان وجودها بكثرة الزيارات ربما لأسباب وجيهة وغير معروفة وربما لأنَّها لا تريد المزيد من المناقشة حول عمليات جمع المعلومات أو المزيد من الحديث عن إخفاقهم في قضية بيلتون. رأينا أضواء صفراء تحذيرية ولكننا لم نرَ أضواء حمراء.

أخذت آخر مسودة للمقال إلى البيت الأبيض وأعطيتها لمسؤول رفيع المستوى وطلبت الحصول على جواب منه. إذا كان هناك اعتراض فإننا نأمل أن نعرف ما هو هذا الاعتراض. لقد حذفنا أربعة مواضيع جزئية من المسودة الأولى التي عرضت على الجنرال أودوم لأننا تصورنا أنَّ السوفيات يمكن أن لا يكونوا على علم بها. قالت المسودة إنَّ بيلتون كشف عن

عمليات للبحرية الأميركية لاستراق السمع عن طريق وضع أجهزة تنصت في الكابل السوڤياتي في قاع البحر. وقالت إنَّ ذلك حصل عام ١٩٨١ وإنَّ عملية ايڤي بلز كانت على الكابل المركز في بحر أوخشوك. وعد الرجل في البيت الأبيض بأن يبذل جهده.

في ٢٠ شباط/فبراير ١٩٨٦ طار الرئيس ريغان إلى غرانادا للاحتفال بذكرى نصر عام ١٩٨٣ وفي طائرة الرئاسة عرض مسؤول البيت الأبيض مسودة المقالة على شولتز ووينبرغر وبواندكستر ودونالد ريغان واستنتجوا جميعاً أنَّ النص الأخير كان مرفوضاً بشدة. واستنتجوا ببعض المرح أنَّهم أمسكوا الواشنطن بوست بالحبال. إنَّ تصرفنا غير العادي وذلك بتقديم عدة مسودات مختلفة للمقالة إلى وكالة الأمن القومي والبيت الأبيض كشف عن ترددنا وعدم ثقتنا. قال المسؤولون إنَّ المقالة يمكن أن تؤذي الأمن القومي الأميركي ليس لأنَّ سراً قد انكشف بل لأنها ستحدث ضرراً في العلاقات الأميركية السوڤياتية. وإذا حمل السوڤيات المعلومات الواردة في المقالة على محمل الجد وبشكل رسمي فيمكن أن يعلموا ما تخوف منه الجنرال أودوم أي سوف يعلم السوڤيات ما يعرف الأميركيون أنَّهم يعرفونه عنهم! بالإضافة إلى ذلك كان في عمليات وكالة الأمن القومي سلسلة من الأسرار المتشابكة وكان من الصعب نزع عملية واحدة وفصلها عن بقية العمليات ثمّ شرحها في العلن دون أن يؤدي ذلك إلى ضرر كبير. لكنَّ القلق الأساسي كان حول ديناميكية العلاقات الأميركية السوڤياتية، والمقالة يمكن أن تؤذي هذه العلاقات. ويدخل كل هذا في باب الأمن القومي.

أجابنا مسؤول البيت الأبيض فيما بعد أنَّها قضية رفيعة المستوى وعلى برادلي أن يتكلم مع بواندكستر.

لم يقتنع داوني بأنَّنا لا نخبر الروس بشيءٍ جديدٍ وعلينا أن نتأكد دائماً من هذا.

قال برادلي إنَّ هناك ست مسودات للمقالة وكل مسودة جديدة تخفف من نشر التفاصيل. كان يمكن للمسودات الأولى أن تسبب المشاكل، وقال: «يجب أن لا ننشر المواد التي يحاكم عليها غيرنا بالخيانة» وأضاف: قولوا لي ما الهدف الاجتماعي من هذه المقالة؟

كان بيلتون واحداً من أكبر الجواسيس الذين عملوا لصالح الروس. لقد أعطاهم جوهرة التاج في أعمال جمع المعلومات وليس فقط في ايڤي بلز. لقد وضعه عمله في وكالة الأمن القومي على تقاطع طرق المعلومات الواردة من جميع عمليات الاستخبارات التي كانت تستهدف الروس. وقد تعرض لاستجواب من السوڤيات في ڤيينا لعدة أيام في عدة رحلات وعلى مدى سنوات عديدة وكنا نحاول أن نبحث ونتبين لكي نخبر قراءنا عما باعه بيلتون. إنَّ ما جاء في المقالة يظهر كم هو سهل أن تتمشى إلى السفارة السوڤياتية وتبيع الأسرار الأميركية! بقي برادلي غير متأكد مما سيعمل وقال إنَّه سيتصل ببواندكستر(*).

(*) بعد يومين حضر كل من كايسي ومدير مكتب التحقيق الفدرالي وبستر إلى مكتب برادلي ليظهرا تلقهما حول مقالة أعدها المراسل في البيت الأبيض لوكانون وأنا وخططنا لنشرها في اليوم التالي حول وثيقة

في أواسط شهر اذار/مارس قال لنا مسؤول رفيع المستوى في مكتب التحقيق الفدرالي إنَّ وزارة العدل على وشك أن تخسر المعركة بإدانة بيلتون بسبب المخاوف من أن تكشف المحاكمة عن الأسرار.

ـ لماذا لا ننشر ما يعرفه الروس حالياً؟

قال المسؤول: يجب أن يتلاءم ذلك مع أجواء عمليات الاستخبارات. إنَّ أي كلام حول طرق الحصول على المعلومات يثير الانتباه في جميع أنحاء العالم. وأفضل ضربات الاستخبارات تحصل عندما يرتكب أحد ما في الجانب الآخر خطأً أو يرى شيئاً ما ويفشل في التحقق منه. إنَّ حشر السوفيات في قضايا الاستخبارات يؤدي إلى إطلاق العنان لقوى مكافحة التجسس التي أردنا دائماً تقييدها. وأضاف: «سأتكلم مع وزير العدل إذا أردت».

لا حاجة لذلك لأنَّ ميز هو الوحيد الذي لم يستشر بعد.

في يوم الجمعة ٢١ آذار/مارس شاهدت كايسي في حفلة استقبال كبرى أقامها ناشر النيويورك تايمز آرثر أوكس سولزبرغر في نادي واشنطن الدولي في قلب مدينة واشنطن وكان الحضور قد بدأوا يغادرون النادي والحفلة على وشك أن تنتهي. كان كايسي يتحدث مع محرر من صحيفة نيويورك تايمز، وكان يحرك الشراب في كأسه بأصبعه. تمشيت نحوه وسألت عما إذا كان بالإمكان أن أصافحه. قال «ها أنا أتكلم معك» ورمى يداه علي وجذبني باتجاهه وقال: «إنك تقيم حفلة كبيرة جداً» وذهل عدد كبير من الناس في القاعة وذهلت أنا أيضاً وتابع كايسي يقول لي: «رجالك هنا».

لقد ظن أني سولزبرغر. قلت له بارتباك أنا من صحيفة الواشنطن بوست. وبدا أنَّه فكر في ذلك حوالى نصف ثانية ثمّ قال: «إنَّها مزحة جيدة» وضحك وتلفت إلى الوراء وأخذ ينظر حتى رأى سولزبرغر وذلك ليجعلني أعرف أنَّه قد أدرك غلطته. ثمّ سألني عن كتابي عن وكالة المخابرات المركزية. وكان يعرف منذ أكثر من سنة أني أعمل في كتاب، وتحدثنا عدة مرات في هذا الموضوع، وسألني عما إذا كان يستطيع أن يجري له مراجعة أمنية ليتأكد من أنني لم أكشف عن شيء يجب أن يبقى مكتوماً. قلت إنني سأفكر بذلك. قال: «امضِ قدماً في كتابك وانتقدني إن شئت» وأضاف: «إنه كتابك».

وسرعان ما كنا في الزاوية لوحدنا وسألته لماذا يصر الجنرال أودوم والآخرون على عدم نشر الأخبار المتصلة ببيلتون وعملية ايفي بلز التي باعها بيلتون للسوفيات.

قال وهو يمسك الكأس بيديه الاثنتين، «إذا نشرت ذلك فإنَّ الرأي العام سوف يبني

= ساندينية حصل عليها كايسي وتحتوي على الخطوط العامة لعمليات اللوبي. كان كايسي يحاول الحصول على ١٠٠ مليون دولار للكونترا من الكونغرس وكان الساندينيون يحاولون هزيمته. إنَّ نشر المقالة يمكن أن يعرض المصدر للخطر كما قال كايسي وويستر، لكنَّ نص الوثيقة الموجودة عندنا لم يكشف عن مصدر الاستخبارات، ولهذا نشرنا المقالة.

أوهاماً. لقد كلفت أودوم أن يتولى شؤون هذه المسألة وهو يعرف الكثير عنها».

قلت: الرأي العام؟

لم يجب كايسي.

بعد نهاية الأسبوع أخبرت برادلي حول تأكيد كايسي أنَّ القضية كانت تتعلق بالرأي العام، لكنَّه لم يكن سعيداً لأننا ما زلنا نلاحق الموضوع. في ذلك المساء كتبت له مذكرة أقول فيها إنَّه من الخطأ أن نوقف الأسئلة، ويجب أن نصل إلى حل.

اصطحبني برادلي إلى طعام الغداء وكان قد قال عدة مرات خلال السنة الماضية عن وكالة المخابرات المركزية: «حقاً، ليس هناك من سيطرة عليها أليس كذلك؟»

قلت، لا أعلم. إنَّ عدداً من رجال الاستخبارات ومن الذين يستعملون معلومات الاستخبارات غير مرتاحين وخاصة من كايسي. إنَّهم يعتقدون بأنَّ الولايات المتحدة كانت تضغط كثيراً ليس فقط في الأعمال الخفية ولكن في عمليات جمع المعلومات. قال البعض إنَّها نوع من حرب المخابرات ضد الاتحاد السوفياتي. وكانت كل النشاطات عبارة عن جمع سلبي للمعلومات: آلة التقاط هنا، آلة استراق سمع هناك، أقمار اصطناعية أو غواصة في بحر ما، فالولايات المتحدة متفوقة جداً على السوفيات في مجال التكنولوجيا. لقد كان السوفيات يخافون كثيراً من التكنولوجيا الأميركية. كل هذا بالإضافة إلى الأعمال الخفية يمكن اعتباره حرب مخابرات حقيقية.

قال برادلي: ما الهدف الاجتماعي من نشر هذا؟ أريد أن أعرف. نحن لا نستطيع أن ننشر أي حقيقة أو أي سر.

وافقته على ذلك: ثمّ قلت إنَّه في إحدى عمليات الغواصات التي نفذت ضد الاتحاد السوفياتي كانت للولايات المتحدة خطط لإرسال غواصة نووية ليس فقط إلى المياه الإقليمية السوفياتية بل إلى داخل أحد الأنهار السوفياتية. أبدى برادلي دهشة وقال: غير معقول.

وقلت: لدينا معلومات عن إمكانية حصولها. يمكن أنَّها حصلت ويمكن أنَّها لم تحصل. تصور أنَّ إحدى غواصاتنا قد أُسرت في نهر سوفياتي أو في ميناء سوفياتي. يمكن لذلك أن يجعل حادثة بويبلو عام ١٩٦٨ غير مهمة. (لقد أسرت سفينة التجسس الأميركية بويبلو عام ١٩٦٨ عندما كانت على بعد ١٣ ميلاً من ساحل كوريا الشمالية) أما الجنرال أودوم فقد تحول أسلوب مناقشته معي إلى أسلوب «ثق بي» و«كيف تجرؤ» وكان على وشك أن يسألني «مع أي جانب أنت؟»

سأل برادلي مرة ثانية: هل كانت السيطرة مفقودة على الوكالة؟

كانت وكالة الأمن القومي تصل إلى كوابل غير سوفياتية تحت البحار وذلك لأنَّ الولايات المتحدة كانت تقيم شبكة كوابل كبيرة تحت الماء في المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ. ومرة ثانية ربما كان لذلك معنى وربما لا. لقد كان الناس الجديون قلقين من أنَّ

الولايات المتحدة كانت تسمح للسوڤيات بالتقاط المحادثات الهاتفية من أبراج في واشنطن مستخدمين الميكروويف (الموجات القصيرة جداً). لقد كان ذلك غزواً كثيفاً لخصوصيات المواطن الأميركي. إذا ربطت كل ذلك ببعضه تدرك أنَّ هناك تفاهماً ضمنياً على أنَّ الولايات المتحدة تستطيع بالمقابل أن تجري جمع معلومات الكتروني من السفارة الأميركية في موسكو.

لم يتقبل برادلي ذلك ولم يكن أحدنا مؤهلاً ليقول نعم حقيقةً أو نعم بالتأكيد أو نعم تماماً لذلك لم نستطع أن نخرق حرمة الأمن القومي.

اتفقنا على أن يتكلم برادلي مع أحد مصادر الخبر وهو مسؤول سابق في الاستخبارات ويعرف عن الموضوع أكثر من أي مسؤول حالي في الحكومة وهو يستطيع أن يقول بكل ثقة إنَّ الخبر عن ايڤي بلز لن يزوِّد الروس بشيء لم يعرفوه.

أمضينا معظم شهر نيسان/أبريل حول قصف ليبيا. لم يجتمع برادلي مع المسؤول السابق في الاستخبارات حول ايڤي بلز حتى آخر هذا الشهر. أقنعه المسؤول أنَّ المقالة كما أعدت لن تخبر السوڤيات بأي شيء لا يعرفونه. وفي يوم الجمعة في ٢٥ نيسان/أبريل الساعة الثالثة بعد الظهر طلب مني أن أتّصل بالبيت الأبيض وأن أبلغهم أنَّ الخبر سينشر خلال يومين.

قال المتحدث باسم مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض: «يجب أن نعترض» وقال مرة ثانية إنَّ المقالة بمجملها يمكن أن تخبر السوڤيات بأشياء لا يعرفونها. وأضاف أنَّ برادلي مدين للجنرال أودوم بمكالمة قبل النشر. وكان أودوم يشعر بأنَّه حصل على تعهد. إنما لا يبدو أنَّ ذلك قد حصل.

في صباح اليوم التالي اتّصل أودوم ببرادلي الذي كان قد ذهب إلى لونغ أيلاند لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وقال له إنَّه يعارض النشر بشكل قاطع وغير قابل للتغيير. قال برادلي «لقد تكلمت مع أشخاص برتبتك، مخلصين مثلك للولايات المتحدة، وهم لا يرون شيئاً في المقالة لا يعرفه السوڤيات».

أقرَّ أودوم بأنَّ المقالة لا تخبر السوڤيات بأي شيء لا يعرفونه. لقد كان قلقاً في الحقيقة حول البلدان الأخرى التي لم تكن تعرف شيئاً عن هذه الإمكانية.

قال برادلي إنَّه إذا تخلى أودوم عن موضوع السوڤيات وتحول إلى موضوع آخر فإنَّه يكون قد تأخر كثيراً في اللعب. طلب أودوم من برادلي أن يعلق قراره بانتظار أن يتحدثا مرة ثانية.

شعر برادلي بأنَّه لا توجد لديه أية فرصة، ولم يشأ أن يسير في الضوء الأحمر مسافة بعيدة.

بعد ذلك حاول البعض في سائر المجموعات الاستخبارية الأميركية إقناع أودوم أن يخبر برادلي بالضبط عما كان يزعجه من نشر المقالة إلاَّ أنَّ أودوم رفض.

في أول أيار/مايو التقى أودوم وبرادلي على طعام الفطور. أصر أودوم الذي بدا أكثر هدوءاً على أنَّ سبب عدم الموافقة على النشركان البلدان الأخرى لكنه لم يعط مثلاً. دافع برادلي عن رأيه لأنَّه إذا كان هناك سبب قوي فيجب أن يعرفه.

قال أودوم إنَّه شعر بالانزعاج لأنَّ الكثير من معلومات الاستخبارات الحساسة كان يتسرب. وكان هو وبعض المسؤولين يدرسون احتمال استخدام قانون ١٩٥٠ الذي يفرض عقوبات جنائية ضد من ينشر أي معلومات سرية حول الاستخبارات.

قال برادلي إنَّه يريد أن ينشر.

قال أودوم: هل هذه طعنة؟ وهل سيكون هذا آخر خبر عن ايفي بلز؟

قال برادلي إنَّه غير متأكد، لكنَّه أضاف أنَّه سيبذل جهده لذلك وأنَّ الواشنطن بوست لن توزع التفاصيل هنا وهناك.

فيما بعد وفي النهار نفسه قال برادلي: إنَّه لا يوجد أي مانع، لقد اجتزنا الجسر. أخذنا المسودة وأعدنا صياغتها وأعدَّت للنشر صباح الأحد القادم.

وإذا كان أحد الأسباب التي قيل إنَّها تمنع نشر المقالة هو إمكانية تأثيرها على غورباتشيف، فإنَّ الوقت قد أصبح ملائماً الآن لأنَّ الزعيم السوڤياتي له اهتمامات أكبر وأخطر. لقد وقع في هذا الوقت حادث نووي في تشيرنوبيل.

في يوم الجمعة ٢ أيار/مايو زار كايسي لويل جنسن رئيس الغرفة الجنائية في وزارة العدل واقترح على الوزارة أن تستند إلى قانون ١٩٥٠ وتتهم من ينشر أسراراً تتعلق بالاستخبارات بجرم جنائي. وأحضر معه لائحة بأسماء خمس منظمات إعلامية كانت قد نشرت معلومات حول الاتّصالات الملتقطة وهي الواشنطن بوست، النيويورك تايمز، الواشنطن تايمز، تايم ونيوزويك. والخبر الذي نسبه للواشنطن بوست كان الذي كتبته أنا حول التقاط البرقيات الليبية التي أظهرت مسؤولية القذافي عن انفجار نادي الديسكو في برلين الغربية.

كان جنسن بارداً تجاه فكرة الادعاء على الصحافيين. وأراد أن يتجنب مواجهة مع المادة الأولى من الدستور الأميركي. قال كايسي: «يجب أن تلعبوا بقساوة مع هؤلاء الأوغاد». لقد أراد من جنسن أن يهدد الصحافيين بالمحاكمة وذلك ليوقف نشر الخبر عن ايفي بلز. قال جنسن إنَّ هذا لا يؤدي إلى أية نتيجة لأنَّ الحكومة كانت قد خسرت الدعوى في قضية أوراق وزارة الدفاع في المحكمة العليا.

بعد الظهر اتّصل كايسي ببرادلي من هاتف سيارته وقال له دعنا نتحدث معاً، واتفقا على الالتقاء في نادي الجامعة خلف مبنى الواشنطن بوست مباشرة أي بمحاذاة السفارة السوڤياتية.

ذهب برادلي وداوني للقاء كايسي الساعة الرابعة بعد الظهر وسلموا كايسي نسخة عن

مسودة المقال. قرأها كايسي بهدوء ثمّ رفع رأسه فجأة ونظر وقال: «إنَّ نشر هذه المقالة يعرض الأمن القومي للخطر». وأخذ يحرك الكأس بيده وقال: «أنا لا أهددكم ولكن عليكم أن تعرفوا أنكم إذا نشرتم هذا فسوف أطلب محاكمتكم»، وأضاف أنَّ الواشنطن بوست لم تكن المشكلة الوحيدة، «لدينا خمس مخالفات»، ثمّ شرح أنَّه كان يعني الواشنطن بوست وأربع صحف أخرى وأضاف أنَّه قادمٌ لتوِّه من وزارة العدل وأنَّ الدعاوى الخمس كانت معلقة بانتظار توصيته. وأعطى انطباعاً بأنَّ القطار قد انطلق.

سأل برادلي عما إذا كان ذلك يعني قانون ١٩٥٠.

أجاب كايسي: «ياه ياه لم أعد أمارس القانون ولكنك تعرف عما أتكلم».

حاول برادلي وداوني أن يحصلا على بعض المعلومات الخاصة. ما كانت المشكلة؟ لقد كانت أولاً السوڤيات ثمّ البلدان الأخرى والآن ما هي؟

قال كايسي: انظر «علق نشر الخبر لمدة أسبوع». لقد كان يريد الاتّصال بالرئيس الذي كان موجوداً في اليابان لحضور اجتماع القمة الاقتصادية، والرئيس سوف يتكلم مع برادلي.

سأل برادلي: أهي مهمة لهذه الدرجة؟

قال كايسي: نعم. ثمّ أضاف إنَّ نشر المقالة يعرض حياة الكثيرين للخطر. وفي طريقه إلى خارج النادي قال كايسي لداوني: كيف حالك مع أولي؟ وكان داوني قد كشف عن نورث اسمياً أنَّه الضابط الفعال في مجلس الأمن القومي الذي كان يساعد الكونترا. وكان نورث قد احتج في رسالة إلى داوني. كان كايسي يعرف كل ذلك. نظراً لهذا التصعيد المفاجئ قرر برادلي وداوني عدم نشر المقالة نهار الأحد القادم وعادا إلى مكتبيهما وتداولا مع محاميها في الأمر. إنَّ قانون ١٩٥٠ يحدد بوضوح أنَّ كل من ينشر معلومات عن اتّصالات المخابرات يكون عرضة للاتهام. شكك المحامون في دستورية القانون وحثوا على التزام الحذر.

كنت مقتنعاً أنا وتايلور بأنَّ نشر المقالة لا يسبب الأذى. يبدو أنَّ كايسي كان يبلف. كان يريد أن يمنع الأوساط الصحافية من الكتابة في هذه المواضيع.

قال تايلور: «إنَّ المقالة تخلق أجواء للاستنتاج وهذا ما يريدون تجنبه».

قرر برادلي أن يثير هذه الأمور في العلن وأعطى الملاحظات التي دونها في اجتماعه مع كايسي لمحرر في الواشنطن بوست يدعى جورج لاردنر وطلب منه تعميمها.

في الساعة ٥،٤٥ تلقى برادلي مكالمة من كايسي. قال كايسي إنَّه تلقى مكالمة من هنري غرنوالد رئيس تحرير مجلة تايم وأنَّ الأخير قال له إنَّ هناك تقريراً يفيد بأنَّ مجلة التايم على وشك أن تقدم للمحاكمة. هل كان برادلي يعرف شيئاً عن هذا التقرير؟

أجاب برادلي: بالتأكيد أعرف وأضاف أنَّه كلف أحد المحررين أن ينشر مقالاً حول

هذا الموضوع في عدد اليوم التالي.

قال كايسي: «أعتقد بأنَّ ذلك كان حديثاً خاصاً».

قال برادلي: «أنت طلبت الاجتماع بي ولم تحدد أية شروط أو قواعد لهذا الاجتماع».

لقد قدم كايسي معلومات مهمة للواشنطن بوست ولصحف أخرى أيضاً. كان على الواشنطن بوست أن تنشرها. لقد كانت أخباراً. وانتهت المكالمة ولكن بعد عدة دقائق اتّصل كايسي مرة ثانية ليسأل ما الخطوة التالية؟ «وهل سأقرأ حول ذلك؟»

- «نعم».

- «ظننت أننا سنتحادث أكثر في هذا الموضوع».

- «ما المزيد الذي ستقوله؟»

- «متى سأقرأ ذلك؟»

- «غداً صباحاً»

- «وهل ستذكرون اسمي؟»

- بالتأكيد.

قال كايسي إنَّه لم يتصل به أحد من المحررين.

قال برادلي: «أحد المحررين اتّصل برجالك صباح هذا اليوم».

قال كايسي: «ليس لي علم بذلك».

وفي صباح اليوم التالي نشرت مقالة بعنوان: «الولايات المتحدة تدرس محاكمة الصحف التي تنشر التسريبات» ووردت في هذه المقالة أسماء الصحف الخمس التي ذكرها كايسي وورد أيضاً أنَّه تحت تأثير ذلك امتنعت الواشنطن بوست عن نشر مقالة حول الإمكانيات الاستخبارية للولايات المتحدة.

في اليوم التالي تناول برادلي طعام الفطور مع محامي الواشنطن بوست أدوارد بنيت وليامز. قال وليامز إنَّ الحكومة تستطيع أن تدعي ولكنَّه يشك في ذلك لأنَّ لديه «تجارب كثيرة حول جبنهم». والآن فإنَّ كايسي والواشنطن بوست يتمركزان كلٌ في زاوية. قال وليامز إنَّ علينا أن ننتظر.

يوم الجمعة نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقالة جاء فيها: «استناداً إلى معلومات من بعض المسؤولين، قالت وكالة المخابرات المركزية إنَّ نشر مقالة الواشنطن بوست يضر كثيراً لأنَّه يؤكد صحة ما حصل عليه السوفيات من بيلتون. وقالت إنَّ السلطات السوفياتية لم تكن متأكدة تماماً من معلومات بيلتون...»

بالنسبة إلينا بدا وكأننا نعطي المخابرات السوفياتية كل ما تحتاجه لمراجعة المعلومات التي أدلى بها بيلتون في الاستجوابات الماراتونية التي تعرض لها في فيينا. في اليوم التالي تلقت كاترين غراهام رئيسة مجلس إدارة شركة الواشنطن بوست مكالمة من الرئيس ريغان. هنأت الرئيس على القمة.

قال ريغان إنَّه تحدث مع كايسي وإنَّ نشر المقالة المتعلقة ببيلتون سيكون مضراً. وأضاف الرئيس أنَّ هذا مهم جداً، وقال إنَّ إفشاء الأسرار دون ثمن كان مخاطرة. وقال إنَّ الاستخبارات الجيدة منعت حصول ١٢٥ حادثاً إرهابياً خلال السنة الماضية. وكان ريغان قد كشف عن هذا الرقم في مؤتمر صحافي سابق.

قالت غراهام للرئيس إنَّ برادلي كان حذراً ومنتبهاً وهي بصفتها مالكة لصحيفة الواشنطن بوست تستطيع أن تطلب منه أن لا ينشرها وكذلك يستطيع ابنها دونالد غراهام ناشر الواشنطن بوست. وإنهما لم يفعلا ذلك لأنَّه من الأفضل للجميع أن يتخذ برادلي القرار بنفسه.

وبدا أنَّ ريغان قد فهم ذلك، وقال وداعاً.

قالت غراهام لبرادلي إنها تأثرت بكلام الرئيس وإنها تعجبت كيف كتبنا هذه المقالة. فإذا كانت وكالات الاستخبارات تحاول الإطاحة بالحكومات علينا أن ننشر كيف تستطيع الولايات المتحدة أن تجمع معلومات كافية.

لقد قام السوفيات بهذا العمل ضدنا. وحتى إذا تقدمنا في مختلف التكنولوجيات فهل علينا أن ننتظر السوفيات أن يلحقوا بنا؟

قال برادلي إنَّ المقالة تتحدث عن عملية استخبارية تسمى ايفي بلز كشف عنها بيلتون منذ خمس سنوات. ولا شيء أكثر.

قالت غراهام إنَّ الرئيس كان قلقاً بشكل كبير، وإنها تأمل أن يكون برادلي حذراً أكثر.

شعر كايسي بأنَّه امتلك الأوراق: الرئيس ريغان وكاترين غراهام.

في صباح ١٩ أيار/مايو وعندما بدأ اختيار هيئة المحلفين لمحاكمة بيلتون قال مراسل شبكة ان بي سي التلفزيونية الأميركية في برنامج «هذا اليوم»: «يظهر أنَّ بيلتون قد سلَّم السوفيات أحد أكثر الأسرار أهمية وحيوية لدى وكالة الأمن القومي وهو مشروع اسمه بالشيفرة ايفي بلز ويعتقد بأنَّه عملية استراق سمع تحت الماء سرية جداً كانت الغواصات الأميركيّة قد نفذتها داخل الموانئ السوفياتية».

اتَّصل برادلي بكايسي الذي لم يكن قد سمع ما بثته شبكة أن بي سي وقال: ها أنتم تقولون لنا لا تنشروا. ماذا ستفعلون؟

في ذلك اليوم بعد الظهر أصدر كايسي بياناً يقول فيه إنَّه أحال شبكة ان بي سي على وزارة العدل للادعاء عليها.

لقد أصبح واضحاً أن علينا أن ننشر مقالتنا ولو بشكل مبتور. ونشرت المقالة في عدد ٢١ أيار/مايو تحت عنوان: «بيلتون يكشف للسوفيات عن آلة تكنولوجية متطورة لاستراق السمع» وجاء فيها «أنَّ بيلتون كشف عن عملية أميركية ناجحة جداً وطويلة الأمد وغالية

الثمن اعتمدت التكنولوجيا المعقدة لالتقاط الاتّصالات السوفياتية، وجاء أيضاً أنّ الغواصات قد استعملت في هذه العملية وأنّ الآلة قد وقعت في أيدي السوفيات».

أصدر كايسي بياناً معتدلاً يقول فيه إنّ مقالتنا هي موضوع دراسة ومراجعة في الوكالة ليرى ما إذا كان سيتم الادعاء. في اليوم التالي بدأت محاكمة بيلتون وبدأت أنا وتايلور ننشر تفاصيل أكثر وأكثر عن ايفي بلز. في المقالة الأولى حددنا مكان ايفي بلز في بحر أوخشوك.

بعد خمسة أيام أصدر كايسي وأودوم بياناً مشتركاً يحذر من نشر تفاصيل المعلومات التي كشف عنها في محاكمة بيلتون، ومن نشر أية تأملات تتعلق بها.«هذه الحقائق والتأملات يمنع الكشف عنها لأنّها تعرض الأمن القومي للخطر».

كان هذا موضع استهزاء عام. فالقول بأنّ الحكومة كانت تشن حرباً على التأملات كان سخيفاً.

قال كايسي لوكالة أسوشياتد برس في ٢٩ أيار/مايو انه جهد للتخفيف من مستوى الضجة: «أنا أعتقد بأنّ الصحافة كانت هستيرية حول هذا الشيء وتقول إنّنا نحاول تمزيق المادة الأولى من الدستور والحد من حرية الصحافة. نحن لا نحاول أن نفعل ذلك» وبالنسبة إلى الحذر والتأملات قال كايسي: «إذا كان علي أن أصدر بياناً جديداً فإني لن أستعمل كلمة تأملات بل سأستعمل كلمة استنتاجات».

اتّصل كايسي ببرادلي وكان هذا الاتّصال رقم عشرين تقريباً هذه السنة.

قال كايسي: لا أريد مباراة في التبول(*).

(*) في ٥ حزيران وبعد ١٣ ساعة من التداول اتهمت هيئة المحلفين بيلتون بقضيتين تتعلقان بالتجسس: الأولى التآمر، والثانية الكشف عن اتّصالات الاستخبارات السرية. ثمّ حكم عليه فيها بعد بثلاثة أحكام بالسجن المؤبد وحكم بالسجن لمدة عشر سنوات.

- ٢٤ -

في شتاء وربيع ١٩٨٦ كانت ليبيا تسيطر على اهتمامات إدارة ريغان في العلن، بينما كانت إيران ومن خلف الأضواء تحتل المركز الأول في روزنامة السياسة الخارجية في البيت الأبيض وفي وكالة المخابرات المركزية.

في ١٠ آذار/مارس جلس مكفرلين وراء مكتبه في منزله في ضواحي واشنطن وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء. أدار جهاز الكومبيوتر للاتّصال بالبيت الأبيض ووضع الشيفرة التي تسمح له بتلقي الرسائل السرية. كان هنالك ضوء يدل على أنَّ رسالة كومبيوتر كانت على وشك الظهور. ربما أولي. ضغط على المفتاح فقرأ: «التقيت مع صديقك القديم غوربانيفار في باريس بناء لطلبه يوم السبت. تكلم طويلاً وطاب منا تسهيل بعض الأشياء القليلة.. مثل زيادة في الأسلحة لمساعدته في عملية تحرير الرهائن». وأضاف: «بوب غايتس جمع معلومات جيدة حول التهديد السوفياتي...» وطلب نورث أيضاً نصيحة شخصية قائلاً: ألم يحن الوقت للعودة إلى مشاة البحرية؟

لقد فقد مكفرلين مركزه في البيت الأبيض ولم يحقق ما كان يأمل فيه في الخارج. كان يتعطش إلى دور حتى بعد ثلاثة أشهر من رحيله. بدأ بطبع رسالة إلى أولي: نعم يجب أن يبحث الاثنان مستقبل نورث. بصراحة أتوقع أن تشتد حرارة الكونغرس عليك في الصيف كما أنَّها ستلفحني عندما تترك البيت الأبيض وعندها لن نجد أحداً يقوم بكل ما قمت به (أو حتى بجزء صغير) وإذا لم ننجز عملنا فإنَّ كل جهود السنين الخمس الماضية ستذهب أدراج الرياح.

كيف يكون السيناريو «نورث يترك البيت الأبيض في أيار/مايو ويأخذ إجازة لمدة ٣٠ يوماً ويتابع مكفرلين ونورث العمل في مسألة إيران ويبنيان إمكانيات سرية للعمل هنا وهناك».

أدرك نورث أنَّ مبادرة إيران قد انتهت ولكنَّه لم يكن على وشك أن يترك القاعدة القوية التي وسَّعها بشكل دراماتيكي وجهزها بنظام اتّصالات خاص. في أوائل هذه السنة

تسلم ١٥ آلة ك ل ٤٣ من وكالة الأمن القومي تسمح له بإرسال رسائل سرية من وإلى الذين يساعدونه في جهود مكافحة الإرهاب وإطلاق سراح الرهائن، وقرر أيضاً أن يستعملها من أجل الكونترا. سلّم آلة للجنرال سكورد وأخرى لرئيس محطة وكالة المخابرات المركزية في كوستاريكا الذي كان يعمل تحت اسم مستعار هو توماس كاستلو وكان يقدم مساعدة كبيرة للكونترا.

استقبل الرئيس ريغان في أواخر آذار/مارس في المكتب البيضاوي نورث وكاستلو ووزير الأمن العام في كوستاريكا وبواندكستر، وكدلالة على دعم الرئاسة أخذ الرئيس معهم صورة تذكارية في جلسة قصيرة.

بحلول شهر نيسان/أبريل كان نورث قد أكمل عمليات إيران والكونترا. وأخبر مكفولين في ٧ نيسان/أبريل: «بناء لطلب من بواندكستر حضرت لرئيسنا ورقة تشمل الخطط والترتيبات من أجل العملية التالية لشحن الأسلحة إلى إيران». جاء في ورقة نورث «إطلاق سراح الرهائن الأميركية في بيروت» أنَّ القسم الأكبر من مبلغ الـ١٥ مليون دولار الذي ينتظر أن تدفعه إيران ثمناً للأسلحة يمكن أن يوضع جانباً ويستعمل للكونترا. وقد صادق بواندكستر على هذا التحويل. وكان كايسي والإدارة يحاولان الحصول على موافقة الكونغرس على تقديم مساعدات عسكرية وأسلحة للكونترا ولكنَّ ذلك كان يسير ببطء. ثمّ تابع نورث:

«. . . ١٢ مليون دولار تستعمل بشكل خاص لشراء المواد الضرورية المطلوبة لقوات المقاومة الديموقراطية في نيكاراغوا وذلك لملء فراغ الفترة الممتدة من الآن وحتى إقرار المساعدة في الكونغرس».

تحت عنوان «توصية»: كتب نورث: «الرئيس يوافق».

في ٨ نيسان/أبريل أعطت هيئة الإشراف على الاستخبارات وهي هيئة كانت قد شكلت بعد مخالفات الاستخبارات في السبعينات للتأكد من قانونية العمل، تحليلاً قانونياً إلى بواندكستر، جاء في ذلك التحليل أنّه استناداً إلى بمذكرة «الاتّصالات» وإلى مذكرة «النصائح» تستطيع أية وكالة في الولايات المتحدة أن تقوم بتدريبات عسكرية أساسية للكونترا على أن لا يشمل التدريب الاشتراك في تخطيط وتنفيذ العمليات العسكرية.

تدفقت الرسائل على نورث من شبكة الاتّصالات الخاصة من سكورد حول «إسقاط» الذخيرة (من الطائرات). في ١٢ نيسان/أبريل أفاد رجل وكالة المخابرات المركزية كاستلو نورث عن عملية إنزال جوي ناجحة للكونترا وعن خططه للأسابيع القادمة. وأضاف: «إنَّ هدفي هو تشكيل قوة من ٢٥٠٠ رجل تستطيع أن تضرب في الشمال الغربي ثمّ تتجمع. . . . لتشكل قوة جنوبية قوية. وهذا يؤدي إلى تشكيل قوة معارضة هائلة على ساحل الأطلسي. أنا أعلم أنَّ هذا تخطيط طموح ولكن صدقني بمساعدتك نستطيع أن نتوصل إلى نتائج ممتازة».

اتّصل نورث بمكفرلين عن طريق الكومبيوتر وسأله: «نحن نحاول الحصول على ١٠ قواذف بلوبايب و٢٠ صاروخاً... وقد دفع ديك سكورد ١٠ ٪ مقدماً».

أجاب مكفرلين: «هل لك أن تسأل وكالة المخابرات المركزية عن البلدان التي باعها البريطانيون صواريخ بلوبايب على أن أتّصل أنا ببلد منها على الأقل. كيف تجري الأمور حول إجراءات نقل المواد؟ هل أستطيع أن أفعل لك شيئاً؟ إذا كنت تحتاج لبعض الهواوين والمدفعية اتّصل بي».

كان الوقت اللازم لقطع المسافة بين الغرفة ٣٠٢ والغرفة ٣٤٥ في البناية التنفيذية أقل من دقيقة. كان نورث يقوم بهذه الرحلة القصيرة من مكتبه إلى مكتب كايسي عدة مرات. لم يكن كايسي رئيساً بل صديقاً حميماً، وظهر المدير بصورة الأب والحميم والناصح والموجه بالنسبة إلى نورث. وعندما نفذ نورث عملية التموين السرية للكونترا عام ١٩٨٤ كان كايسي هو الذي رسم الخطة وأعطى توجيهاته لنورث بأن يشكل هيئة خاصة يترأسها مدني من خارج الحكومة. يجب أن يكون هناك غطاء غير رسمي لعملية خفية، ويجب إبعاد ذلك عن وكالة المخابرات المركزية. أوصى كايسي بالجنرال سكورد لهذا العمل وشرح لنورث كيف يعد حساباً مالياً خاصاً بالعمليات تتم إدارته خارج مجلس الأمن القومي وذلك لصرف تكاليف السفر وتكاليف بعض النشاطات المعادية للساندينيين داخل ماناغوا.

أخذت نشاطات نورث تزداد خطورة، وكان كايسي أحد القليلين الذين يعرفون ذلك. وتبين له أنَّ نصائح كايسي لا تقدر بثمن. لقد كان كايسي يعرف كيف ينجز عمله دون أي تردد. لقد حذر نورث من أنَّ مكالماته على الخطوط الهاتفية العادية مع أميركا الوسطى كانت عرضة للتنصت والالتقاط من قبل المخابرات السوفياتية من مركز تنصت خاص في كوبا. ولهذا حصل نورث على آلات ك ل ٤٣ المشفرة من وكالة الأمن القومي. وأمن له كايسي آخر المعلومات حول سماسرة السلاح للكونترا وأوصى بوقف التعامل مع اثنين منهم الأول بسبب ارتباطاته المشبوهة والآخر لأنّه اشتبه حوله بأنّه كان ينقل معلوماتٍ عن التكنولوجيا الجديدة إلى دول الكتلة الشرقية.

شرح نورث لكايسي أنّه أعد هو والإسرائيليين مشروعاً لتحويل أرباح صفقة بيع الأسلحة إلى إيران إلى الكونترا. وانفعل كايسي لذلك لأنَّ ذلك من سخرية الأقدار، فقد حاولت إيران مؤخراً أن تشحن السلاح إلى الساندينيين وأمنت لهم اعتمادات نفطية بقيمة ١٠٠ مليون دولار خلال السنين الماضية. أن ندع آية اللّه يموّل الكونترا!؟ لا شكّ في أنَّ ذلك سيكون ضربة استراتيجية كبيرة ولسعة كبيرة، أن نجعل عدواً يموّل صديقاً. وقال كايسي أنَّ هذه عملية بالغة السرية.

هكذا أصبح عالم نورث مقيداً ومحصوراً، ولم تعد قنوات الاتّصال الداخلية في مجلس الأمن القومي آمنة له. وصار يتعامل مع وثائق ومستندات من خارج الحكومة. لكنّه استطاع

أن يتحدث بحرية مع كـايسي الذي كـان يعتبر بحق عـراب عمليات التمـوين للكونـترا ولإيران.

حذر كايسي نورث من أنَّ غوربانيفار كان بشكل شبه أكيد عميـلاً للاستخبـارات الإسرائيلية. وهذا يعني أنَّ عليهم أن ينتبهوا أكثر لا أن يتوقفوا عن استخدامه. وأوصى كايسي بأن نتحقق ممن نتعامل معه. وعندما بدا أنَّ نورث كان على وشك القيام برحلة سرية تمهيدية إلى إيران قال له كايسي إنَّه يحتمل أن يؤخذ كرهينة، وكان عليـه أن يحضر نفسه لمواجهة تعذيب محتمل، وأضاف أنَّ هناك طريقة واحدة فقط لمواجهة ذلك: أن يأخذ نورث معه الوسائل اللازمة للتصرف بحياته!

سرعان ما بدا أنَّ حياة نورث بأكملها أضحت في خطر وأنَّ عدداً قليلاً فقط يعرف ذلك، حتى إنَّ نائب بواندكستر لم يكن عالماً. قال كايسي إنَّ أحداً ما يجب أن يقوم بهذا الدور وأن يتقبل تلقي الضربة إذا انكشفت العمليات السرية لمجلس الأمن القومي. أجاب نورث أنَّه يتفهم حقيقة عمله وأنَّه مستعد لأن يتلقى السهام في صدره.

كان كايسي شخصية جذابة بالنسبة إلى نورث. كان متعدد المواهب وبإمكانه أن يقرأ كتاباً كاملاً في رحلة طائرة. أدرك نورث أنَّ كايسي كان القوة المحركة للجهود التي تدعم سائر حركات المقاومة المعادية للشيوعية في العالم. كان ينظر إلى العالم من زاوية المصالـح السياسية الخارجية للولايات المتحدة. كان رجلاً متفهماً، ورجل عقيدة.

رأى نورث أنَّ كايسي هو الوحيد في الإدارة الذي كان يفكر في المستقبل. لقد تحدث كايسي عن هيئة مستقلة ذاتية التمويل يمكنها العمل بمعزل عن الكونغرس ومخصصاته. تعمل هذه الهيئة بسرية مطلقة إما وحيـدة وإما بـالاشتراك مـع أجهزة الاستخبـارات في الدول الصديقة. ويكون هذا استناداً إلى تقاليد الرأسمالية مشروعاً مربحاً جداً أو «عملية خفية متكاملة» كما سماها كايسي.

أعطى نورث أسماء مشفرة لبعض الاقتراحات لا لدفع الفدية أو إنقاذ الرهـائن أو مكافحة الإرهاب بل لبعض العمليات الأخرى وهي ت هـ ١ و ت هـ ٢ و ت هـ ٣.

أدرك كايسي ونورث أنَّه يجب أن يكون لديهما القدرة على التحرك فوراً إلى العمل، وكما قال كايسي: «أنت بحاجة إلى شيء ما تستطيع أن تسحبه من على الـرف وتستعمله فوراً».

أدرك بواندكستر بشكل كبير جهود نورث على جميع الجبهات وأرسل له رسالة خاصة بالكومبيوتر في ١٥ أيار/مايو جاء فيها: «كن حذراً، أنـا متخوف من افتضـاح أمر دورك العمـلاني. من الآن وصاعـداً لا تتكلم مع أحـد أبداً حتى كـايسي، لا تتكلم إلاَّ معي بخصوص أي من أدوارك العملانية، وفي الحقيقة أنت بحاجة إلى أن تخلق رواية تغطية تفيد بأنني أصريت على وقفك عن العمل».

أجاب نورث بواندكستر بأنَّ لديه أكثر من ٦ ملايين دولار متوفرة للكونترا، وهذا ما يخفف من اللجوء إلى بلدان أخرى طلباً للمساعدة لكنه لا يُقلل من الحاجة الملحة لأن تتولى وكالة المخابرات المركزية إدارة هذا البرنامج. «وإذا لم نفعل ذلك ستتعرض لمزيد من الأخطار من جراء محاولتنا إدارة هذا البرنامج على مسؤوليتنا المادية والسياسية. أنا لا أشتكي بكلامي هذا وأنت تعلم أني أحب العمل ولكنَّ علينا أن نُحيل بعض هذه الأعمال إلى وكالة المخابرات المركزية بحيث أستطيع أن أنام أكثر من ثلاث ساعات في اليوم». ثمّ ذكر أنّه سيكون هناك المزيد من المال قريباً وهذا بالتأكيد يؤدي إلى إيقاظ الديموقراطيين المعادين للكونترا في الكونغرس.

«أنا لا أعير اهتماماً لما يقولونه عني، فإنّه يمكن أن يكون إرباكاً سياسياً للرئيس ولك».

«لقد كان الرئيس يعرف تماماً لماذا كان يجتمع ببعض الأشخاص ويشكرهم على دعمهم للديموقراطية في أميركا الوسطى». بعد أيام قليلة اقترح نورث على بواندكستر أن يعقد اجتماعاً هادئاً يحضره الرئيس ومكفرلين وكايسي وشولتز ووينبرغر. كان هو ومكفرلين على وشك الذهاب إلى طهران حاملين معهما الأسلحة.

في ١٩ أيار أجاب بواندكستر بأنّه «لا يريد الاجتماع مع رونالد ريغان وشولتز ووينبرغر».

كان كايسي قد تعرض لضغوطات من الجنرال سكورد الذي حضر للقائه وقال: «السيد المدير أنت وأنا صرنا كباراً لنضيع وقتنا، أنا أتيت لأشتكي من منظمتك.... أنا لا أتلقى أي دعم. أريد معلومات من الاستخبارات. أريد توجيهات وأي دعم تقدمه لي... أنا أريد... ولكن عوضاً عن ذلك فإننا نتلقى الكثير من الأسئلة حول طبيعة منظمتنا؟ كيفية تنظيمها؟ من يملكها؟ من لديه الأسهم؟ ماذا يفعل سكورد؟ تماماً كأنّه تحقيق حول منظمتنا... أنا لا أحتاج إلى الخضوع لتحقيق. أنا أحتاج للدعم».

وعد كايسي بأن ينظر في هذا الموضوع. وبعد قليل وبينما كان كايسي في مكتبه في البناية التنفيذية اتّصل بنورث على الهاتف وطلب منه أن يحضر إليه. وهكذا حضر نورث مع سكورد.

قال كايسي: أنا سعيد بأن أراك ثانية أيها الجنرال.

أعلمه نورث بأنَّ تبرعات الكونترا كانت على وشك نهايتها، وكان هناك نقص كبير في التمويل مرة ثانية.

قال كايسي إنَّ هناك أناساً في الإدارة متفائلين بالحصول على تمويل مباشر للكونترا من الكونغرس في ذلك الصيف، ولكنه أقر بأنّه لا يعتقد بذلك، وأنّه متشائم. طلب نورث من سكورد تقويماً.

قال سكورد إنّه لم يعد لديه المال الكافي وأنّه بحاجة إلى أجهزة ملاحة متقدمة وغالية

الثمن وإلى رادارات للطقس.

سأل كايسي: كم هو المال الذي تحتاجه؟

قال سكورد: حسناً هذا يعتمد على الفترة الزمنية التي تتحدث عنها. طالما أنَّ حكومة الولايات المتحدة لا تدعم الكونترا فإنَّنا لا نستطيع أن نبدأ بالعمل.

قدّر سكورد أنَّه عندئذ سيحتاج إلى ١٠ ملايين دولار. «١٠ ملايين دولار» قال كايسي ثمّ أعاد: «١٠ ملايين دولار». يمكن أن يعطينا السعوديون ذلك ولكنني لا أستطيع التقرب منهم. والقانون الحالي يسمح لوزارة الخارجية بأن تلتمس من أجل الكونترا وفي ظروف إنسانية. ونظر كايسي إلى الجنرال وقال: لكنك تستطيع.

قال سكورد: ولكن أيها السيد المدير أنا لست مسؤولاً رسمياً في حكومة الولايات المتحدة، وأنا لا أعتقد بأنَّ هؤلاء الناس يهتمون بالتبرع من المواطنين العاديين، وأظن أنَّ ذلك سيكون غباء كبيراً.

قال نورث: حسناً من المفضل أن يبدأ أحد بالنظر إلى هذا الشيء في الحال لأنَّ الوضع ميؤوس منه.

قال كايسي إنَّ شولتز يمكنه التقرب من السعودية وأنَّه سيتحدث معه حول ذلك.

لم تطلب وزارة الخارجية من السعودية. بل حصلت فيما بعد على ١٠ ملايين دولار من سلطان بروني وهي دولة صغيرة غنية بالنفط في جزيرة بورنيو بعد اجتماع لمدة ثلاث ساعات بين شولتز وسلطان بورنيو.

في السنة الفائتة كانت وكالة المخابرات المركزية قد أمنت خدمات أمنية للسلطان بموجب مذكرة سرية تسمح للوكالة بأن تبذل جهودها لحماية الزعماء الأصدقاء للولايات المتحدة وتوثيق العلاقة معهم.

أمّن نورث في الحال رقم الحساب في البنك السويسري لكي يودع المبلغ فيه، إلاّ أنَّ سكرتيره فون هول أخطأ في إعطاء الرقم الصحيح، وكانت النتيجة أن ذهب مبلغ العشرة ملايين دولار إلى حساب خاطئ ولم تتلقاه الكونترا.

في أواخر أيار/مايو ذهب مكفرلين ونورث وبعض الآخرين منهم جورج كاف وهو رئيس سابق لمحطة الوكالة في طهران والذي كان يتكلم اللغة الفارسية تحت غطاء إلى طهران بأمل إطلاق سراح جميع الرهائن ولكنهم عادوا صفر اليدين. جاء في أحد تقارير «كاف» لكايسي أنَّ غوربانيفار اقترح استعمال المال الزائد لشراء أسلحة للمقاومة الأفغانية وللكونترا.

عبر مكفرلين لبواندكستر عن قلقه على نورث في ١٠ حزيران/يونيه «يبدو من الواضح أنَّ اليسار الديموقراطي يلاحقه وسيتمكنون منه في آخر الأمر». وأوصى مفكرلين بإرسال نورث إلى مركز بشسيدا الطبي الخاص بالبحرية لإجراء اختبار طبي بغية الحصول على نتيجة غير صالح للخدمة بحيث يستطيع أن يتقاعد من الخدمة في مشاة البحرية. وأضاف «سيكون

ذلك خسارة أساسية للأركان ولجهود الكونترا لكنني أظن أنّه ربما وجدنا طريقاً لاستمرار القيام بهذه الأشياء».

حصل تحول سريع في الكونغرس ضد الساندينيين.

ففي ٢٥ حزيران/يونيه وافق مجلس النواب بأغلبية ٢٢١ ضد ٢٠٩ على مشروع قانون كان قد وافق عليه مجلس الشيوخ يقضي بإعطاء ١٠٠ مليون دولار للكونترا. ستعود الوكالة للعمل عندما يبدأ مفعول المساعدة في تشرين الأول/أوكتوبر.

استدعت لجنة استخبارات مجلس النواب نورث في الصيف وأنكر أن يكون قد أعطى نصائح عسكرية للكونترا، وأنكر علمه عن عمليات عسكرية محددة للكونترا. بعدما تلقى بواندكستر نسخة عن إنكارات نورث أرسل إليه رسالة يقول فيها «لقد قمت بعمل جيد».

أدرك نورث أنّه سرعان ما يخرج من العملية لأنّ الكونغرس قد أقر مساعدة بـ١٠٠ مليون دولار. أحصى نورث شبكة العمل الخاصة به «مشروع الديموقراطية». وفي ٢٤ تموز/يوليو كتب إلى بواندكستر بأنّ الوقت قد حان لوكالة المخابرات المركزية كي تشتري هذه الأشياء الثمينة، وقد قدر نورث قيمتها الإجمالية بـ٤،٥ مليون دولار ومن ضمنها ستة مخازن للطائرات، مؤن، مؤسسات صيانة، سفن، زوارق، بيوت نقالة، آليات، مواد غذائية، ذخيرة، أجهزة اتّصال، مدرج بطول ٦٢٥٠ قدم في كوستاريكا. كل هذه المؤسسات والأشياء تملكها شركات تعمل فيها وراء البحار ولا علاقة للولايات المتحدة بها. ومن السخف أن تذهب لمجرد أنّ وكالة المخابرات المركزية لا تريد أن تلوث سمعتها بأخذ هذه الأشياء، ثمّ تتفق من ٨ إلى ١٠ ملايين دولار لتشتري عوضاً عنها بعد أسابيع أو أشهر.

وافق بواندكستر وطلب من نورث أن يتكلم مع كايسي حول هذا. لكن كايسي يريد أن يحافظ على مسافةٍ بين الوكالة وهذه الشركات.

علم غوربانيفار أنّه سيتم التخلي عنه في عملية الأسلحة لإيران وذلك لصالح قناة اتّصال جديدة وسرية من خلال ابن شقيقة رجل إيران القوي هاشمي رفسنجاني رئيس مجلس الشورى وهكذا دفع غوربانيفار اتّصالاته مع إيران إلى حد قوي، وفي ٢٦ تموز/يوليو أطلق سراح الرهنية الأب لورنس جنكو الذي كان قد مضى على احتجازه ١٨ شهراً. كتب كايسي مذكرة سرية إلى بواندكستر: «إنّ الاتّصال الإيراني قد أعطى نتيجة هذه المرة بعد سلسلة من الفشل. . وأعتقد بأنّ علينا أن نتابع، وأنا أعتقد بأنّ هذا هو الطريق الوحيد إذا أخذنا بعين الاعتبار التوازن الدقيق بين القوى في إيران».

صمم كايسي وشولتز على إنهاء ما بدأوا به في ليبيا. عممت وكالة المخابرات المركزية على نطاق واسع معلومات عن المنازل السبعة التي كان يستعملها القذافي وذلك من أجل أن تتسرب إلى القذافي وتجعله يعتقد بأنّه مراقب. قال أحد المصادر إنّ القذافي تصرف بشكل عجيب في اجتماع مع مسؤولين يمنيين ويحتمل أنّه كان قد أصيب بانهيار عصبي. شعر كايسي

بأنّه وضع القذافي في الحبل وبأنّ على الولايات المتحدة أن تستمر في الضغط عليه وأن تضايقه وتسبب له فقدان ثقته بنفسه، وأن تحاول خلق قوة تقدر على الإطاحة به وبنظامه.

يمكن لوزارة الدفاع أن ترسل طائرات بمحاذاة الساحل الليبي لخرق جدار الصوت وإحداث دوي هائل. قال كايسي «أقدموا على إذلاله». كانت الذكرى السابعة عشر لثورة القذافي في ١ أيلول/سبتمبر. وكالعادة كان القذافي سيتكلم في هذه المناسبة. يمكن أن يرعبوه حتى لا يظهر في المناسبة. لقد نقل حديثاً مركز قيادته من المنطقة الساحلية مئات الأميال نحو الداخل، بحيث يصعب على القاذفات الأميركية أن تصل إليه.

أوفد كايسي اثنين من مساعديه لشؤون الاستخبارات ريتشارد كير وتوم تويتين (كانا معروفين بتوم وديك) إلى البيت الأبيض ليشرحا إمكانيات الوكالة في فرض ضغوط نفسية على القذافي. وكان تويتين قد عمل في مديرية العمليات منذ خمسة وعشرين عاماً وخدم في مدينة بنغازي الليبية ورأى أنّه من السهل أن تنشر وكالة المخابرات المركزية قصصاً خاطئة في الخارج عن القذافي من أجل إثارة أعصابه.

كان الفصل صيفاً وكان العمل قليلاً نسبياً ويمكن أن يحقق رونالد ريغان نصراً وذلك بتوجيه ضربة إلى القذافي. تمّ إعداد مجموعة حكومية للأزمات مع أنّه لم يكن هناك أزمة، ودعيت للاجتماع في ٧ آب/أغسطس بعد الظهر في غرفة الأوضاع. كانت وزارة الخارجية قد أعدّت مذكرة سرية من سبع صفحات وسلمتها إلى المشتركين الأحد عشر من البيت الأبيض ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية.

دعت وزارة الخارجية في مذكرتها إلى أعمال دبلوماسية وعسكرية وإعلامية خفية ومنسقة بهدف الإسراع بالإطاحة بالقذافي على أيدي الليبيين. . . . سلسلة متتابعة من الأحداث الحقيقية والوهمية.

وجاء تحت عنوان الخطوات التالية الممكنة: «أنّ الهدف القريب لاستراتيجيتنا هو أن نجعل القذافي يستمر في شكه في الغير بحيث:

ـ يشك في أنّ الجيش وبعض العناصر الأخرى في ليبيا يتآمرون ضده (ربما بمساعدة سوڤياتية) ويزيد من ضغطه على الجيش الذي قد يقوم بانقلاب عليه أو يحاول اغتياله».

«إنّ العمل مع المبعدين لا يرجح إسقاط النظام إلاّ أنّه يجب أن تعزز صورتهم في عقل القذافي. إذاً يجب أنْ نبادر إلى القيام بأعمال خفية مباشرة تحتاج إلى دعم عسكري متزايد. يجب أن نقوم ببعض الأعمال العسكرية العلنية لنعطي المصداقية للإشاعات التي تقول إنّ الولايات المتحدة تخطط لأعمال أخرى».

أوصت وزارة الخارجية بإيفاد بعثة خاصة إلى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا لتوجز لهم عن ضرورة زيادة الضّغط على القذافي في هذه الأوقات ولكن دون أن تتوسع في شرح تفاصيل استراتيجية. هذا الحوار والشرح سيكونان وقوداً لنار الإشاعات التي تلهب ليبيا حول حصول هجوم أميركي آخر.

أشارت مذكرة وزارة الخارجية إلى ما يلي:

١ـ نشوب قتال بين مجموعات تتنافس للسيطرة في عصر ما بعد القذافي.

٢ـ التهديد باندلاع الثورات في الدول المجاورة لليبيا، والحاجة إلى استمرار في ردع القذافي.

٣ـ خليفة القذافي المحتمل.

٤ـ أوضاع الليبيين في ظل حكم القذافي.

إنَّ زيارة مسؤول كبير في وزارة الدفاع إلى تشاد في هذا الشهر تعطي الفرصة لتسريب معلومات خاطئة لتصل إلى القذافي تفيد بأنَّ الولايات المتحدة وفرنسا تعدان خطة طوارئ للدفاع عن «خيار تشاد»، وزيارة أخرى لمسؤول وزارة الدفاع إلى تونس وبقية الدول المجاورة لليبيا سوف تؤمن فرصاً مماثلة لتسريب معلومات خاطئة.

اقترحت المذكرة إعطاء إشارات استخبارية خادعة تظهر أنَّ الطائرات الأميركية كانت تحلق فوق مراكز القذافي وبث أخبار عن تحركات مجموعات حاملات الطائرات القتالية ثمّ عدم متابعتها.

وتحت عنوان «في الصحافة الأجنبية» جاء في المذكرة:

يجب نشر مقالات في الصحف الأجنبية حول المنشقين العسكريين الليبيين وحول وجود جماعات سرية في الجيش الليبي. وحول معلومات عن تخطيط عمليات مشتركة ضدّ القذافي وأنَّ السوفيات يعدون لانقلاب عسكري. يجب تزويد الاستخبارات الليبية بصور للمنشقين الليبيين وهم يجتمعون مع المسؤولين الرسميين السوفيات في باريس وبغداد وغيرها، ونشر معلومات حول خطة انقلاب أميركية بمساعدة مسؤول ليبي رفيع المستوى.

عمليات خداع، استعمال الراديو السري، كشف عمليات دفع الأموال، استعمال الغواصات والطائرات الأميركية، إنزال معدات مثل زوارق مطاطية على السواحل الليبية للإيحاء بأنَّ هناك تخطيطاً لانقلاب أو أنَّه في طريقه للتنفيذ.

اقترح هوارد تيشر مدير المكتب السياسي العسكري لوكالة الأمن القومي في مذكرة سرية جداً أن ترغم الإدارة الأميركية فرنسا على الاشتراك ببعض الأعمال من أجل إخراج القوات الليبية من تشاد، واقترح أن يلتف البيت الأبيض وراء ظهر الحكومة الفرنسية ويقيم اتّصالات عسكرية مع فرنسا لأنَّ الاتّصالات السياسية أثبتت فشلها في مطلع هذه السنة، مع الأخذ بعين الاعتبار رغبة بعض الجنرالات الفرنسيين في التعاون معنا ضد القذافي، ويمكن أن نشجعهم كي يقدموا الاقتراح للحكومة المدنية الفرنسية.

في ٧ آب/أغسطس اجتمع عشرة من كبار المسؤولين الحكوميين في غرفة الأوضاع لدرس التقارير ورسم الخطة. لم يصدق الجنرال جون مولونغ الممثل الشخصي لرئيس

الأركان المشتركة أنهم بصدد اعتماد سياسة خداع وتظاهر، وتساءل: ماذا إذا تسربت معلومات.

قال أحد المجتمعين: ألا نثق ببعضنا البعض؟

بعد بضعة أيام تلقى كايسي مذكرة سرية جداً عنوانها بالشيفرة فكتور من بواندكستر للتحضير للاجتماع القادم لمجموعة تخطيط الأمن القومي مع الرئيس حول ليبيا.

قرأ كايسي: «لقد تحطمت هالة القذافي الذي لا يقهر! وهيبته فقدت بريقها وأضحى إمساكه بقبضة الحكم موضع شك».

«يجب أن نشجع المعارضة الداخلية على العمل وأن نزيد من مخاوف القذافي بإقناعه بأنَّ أعمالاً أميركية أخرى ستحصل... مزيد من العمل الخفي المباشر.... عمليات عسكرية علنية لدعم الإشاعات التي تتحدث عن نيّة الولايات المتحدة في القيام بمزيد من الأعمال العسكرية.

... إعطاء الوقود للإشاعات عن الأعمال العسكرية... مناورات من جانب واحد ومناورات مشتركة لخداع الدفاعات الليبية المنهكة... عمليات خداع... مقالات في الصحف الأجنبية تركز انتباه الأوساط الإعلامية على القتال بين المجموعات الليبية. السباق على خلافة القذافي... تخيلات وأقاويل حول خلفاء القذافي المحتملين... الحالة العامة للمجتمع الليبي. الإشاعات حول التخطيط الأجنبي لاستئناف العمليات ضد القذافي».

«إنها فرصة تبشر بالنجاح لتحقيق تغيير حاسم في الدعم الليبي للإرهاب وتساهم في إسقاط القذافي».

أعجب كايسي بهذه المذكرة.

أرسل بواندكستر أيضاً مذكرة إلى الرئيس.

- «سري جداً/حساس.

«لقد استنتجت معظم التقديرات الاستخبارية أنه على الرغم من التوتر الشديد والصدمة الذاتية للقذافي والأضرار التي أعقبت غارة ١٤ نيسان/أبريل ما زالت السلطة في ليبيا بيده وبشكل قوي».

وجاء تحت عنوان: الفرص:

«هناك إجماع داخلي على أنَّ سياسة الولايات المتحدة في فرض الضغط على النظام الليبي وعزله لها تأثير واضح، وتثير القوى الداخلية الليبية التي سوف تعمل على تغيير النظام».

«هناك إجماع أيضاً على أنَّ قيادة بديلة للقذافي ستكون أفضل بالنسبة إلى الولايات المتحدة والأمن الدولي».

«خلال اجتماع مجموعة تخطيط الأمن القومي سوف تقدم إليك خطة من إعداد وزارة

الخارجية ووكالة المخابرات المركزية تقترح فيها سلسلة من الأعمال الخفية والدبلوماسية والعسكرية والإعلامية. وأحد العناصر الهامة في استراتيجية هذه الخطة أنّها تجمع ما بين أحداث حقيقية وأحداث وهمية (من خلال برنامج معلومات خاطئة) وهدفها الأساسي هو أن تجعل القذافي يفكر في أنَّ هناك معارضة ليبية قوية في الداخل وفي أنَّ كبار مساعديه غير موالين له وفي أنَّ الولايات المتحدة على وشك التحرك عسكرياً ضده».

«سوف تتشجع القوى الداخلية الليبية التي ترغب في الإطاحة بالقذافي. . . . وتحطيم معنوياته وتنشيط أولئك الذين يسعون للحلول مكانه».

«مع أنَّ التقويم الحالي للمجموعة الاستخبارية هو أنَّ القذافي قد هدأ مؤقتاً في دعم الإرهاب، إلاَّ أنّه سيتحرك قريباً نحو مزيدٍ من هذه الأعمال».

في الساعة ١١ قبل ظهر ١٤ آب/أغسطس اجتمع الرئيس ريغان مع شولتز ووينبرغر وكايسي وبواندكستر والأميرال وليم كراو رئيس الأركان المشتركة.

مدح بواندكستر كثيراً وزارة الدفاع قائلاً إنَّ غارة ١٤ نيسان/أبريل كانت معبّرة ومؤثرة من الناحية التقنية، وأنّها ردعت الإرهاب وأضعفت القذافي في وطنه وساهمت في تعزيز صورة أميركا وهيبتها في العالم. وقد حان الوقت لدعم هذا ببرنامج كثيف من المعلومات الخادعة التي تؤدي إلى سقوط القذافي.

بدت إمارات الانزعاج ظاهرة على الأميرال كراو وقال: هل من المناسب الطيران على ارتفاع منخفض بهدف التأثير النفسي؟ هل يعتبر فعالاً أنك ستقوم بعمل دراماتيكي ثمّ تعدل عن ذلك؟ ألا تؤدي هذه الخطة إلى التقليل من قيمة الردع التي سببتها غارة ١٤ نيسان/أبريل وتجعل الولايات المتحدة مرة ثانية نمراً من ورق؟

لكنَّ العجلات كانت تدور وكانت وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية جاهزتين. الرئيس كان مرتاحاً ولاحظ أنَّ القذافي كان يميل إلى ارتداء الألبسة الغربية. وسخر ريغان وقال: «لماذا لا ندعو القذافي إلى سان فرانسيسكو. إنّه يحب أن يلبس كثيراً.

رد شولتز: لماذا لا نعطيه جرثومة الأيدز؟

وضحك الآخرون وهز ريغان رأسه. لقد تمّ صنع القرار وصنع السياسة.

قال أحد المشتركين فيما بعد: لقد وقعوا على أفكار مجوفة وتمّ اقتباس جميع تقنيات الإرباك ولم يعتمد الاجتماع لا العمل العسكري ولا العمل الخفي.

في ١٦ آب/أغسطس عرضت على الرئيس توجيهات قرار أمني قومي لتوقيعها. حددت هذه التوجيهات أنّه يمكن أن يتم تنفيذ برنامج الخداع والتضليل بموجب المذكرة السابقة حول ليبيا وكانت الأهداف: منع القذافي من الاشتراك في الإرهاب وتغيير القيادة والتقليل من احتمال النجاح السوفياتي في ليبيا.

وقع ريغان هذه المذكرة وكان تصنيفها «سري جداً» واسمها بالشيفرة «ڤيل» أي «الحجاب».

بعد تسعة أيام قالت صحيفة وول ستريت جورنال في افتتاحيتها الرئيسية: الولايات المتحدة وليبيا على طريق الصدام مرة أخرى. وجاء في المقالة أنَّ ليبيا كانت تخطط لإرهاب جديد وأنَّ الولايات المتحدة تعد لغارة جديدة على ليبيا. وعرضت المقالة المعلومات الخاطئة حول تشاد وكأنها واقعية. في اليوم التالي تقبل بواندكستر مقالة وول ستريت جورنال علناً وسماها الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض «موثوقة».

كذلك أقدمت بعض وسائل الإعلام ومن ضمنها الواشنطن بوست بالضرب على وتر الأخبار المضللة للإدارة ونشرت مقالات تفيد بأنَّ مواجهات جديدة كانت على وشك أن تبدأ. وفي الأيام اللاحقة أكد مسؤولو الإدارة الأخبار التي نشرت وحاولوا التقليل من قيمتها.

ذهل بعض الخبراء في الشؤون الليبية في وزارة الدفاع وفي وكالة المخابرات المركزية. لقد كانت الإدارة تدخل العصا إلى قفص القذافي وتحركه وتثيره وتضعه في مركز الأحداث العالمية. وكان البيت الأبيض يسرب الأنباء المضللة، وحتى إن لم يفعل فإنَّ معلومات كهذه ستسرب حتماً، وصُعق الخبراء لأنَّ البيت الأبيض فشل في توقع النتائج. سرعان ما وردت تقارير تفيد بأنَّ القذافي كان يخطط لمزيد من الهجمات الإرهابية كرد فعل على المواجهة العلنية مع الولايات المتحدة. لقد أُحبط هجومٌ على إحدى القواعد الأميركية بسرية تامة. ولكن في ٥ أيلول/سبتمبر أطلق أربعة رجال النار على طائرة بان أميركان في مطار كراتشي وقتلوا ٢١ شخصاً.

التقطت مكالمة لعربي بجواز سفر ليبي يدعى سليمان التريكي مع المكتب الشعبي الليبي في العاصمة الباكستانية يقول إنَّه في مهمة خاصة من الاستخبارات الليبية، واعتقل فيما بعد وتعرض مع الخاطفين الأربعة إلى استجواب مكثف.

كان كايسي يفرح عندما يشهد تجمعاً لقدامى مكتب الخدمات الاستراتيجية. في ١٩ أيلول/سبتمبر توجه إلى فندق ماي فلور في واشنطن لحضور مؤتمرهم. قال لهم: «أيها الرفاق الطائشون. شكراً للّه أننا جميعاً هنا. وكان عدد الحاضرين قليلاً ومعظمهم من المسنّين. وكان هلمز وكولبي حاضرين. كانت صوفيا تجلس في الصف الأمامي وتصغي بعناية إلى الخطاب الذي استغرق ساعة، وكانت تشير إلى أحد الجالسين على المنصّة الرئيسية ليجعل زوجها يقترب أكثر من الميكروفون أثناء إلقاء خطابه. حدد كايسي نقطتين مركزيتين: إنَّ نظرة مؤسسهم الجنرال دونوڤان كانت ترى بأنَّ الحرب النفسية وغير النظامية هي طليعة الحرب الخفية. إنَّ أكثر المشاكل إرباكاً وإزعاجاً لمكتب الخدمات الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية كانت تأتي من أركان البيت الأبيض. «كل من يحق له دخول مكتب الرئيس

يمكن أن يحصل على امتياز خاص لنفسه»!

بعد خمسة أيام أخبرت كايسي أننا رأينا بعض المذكرات السرية جداً واسمها بالشيفرة ڤكتور وڤيل «الحجاب» وتتعلق بمعلومات مضللة ضد القذافي. حدّق بي بقساوة وقال: «أنا لا أعلم عما تتكلم» ثمّ ذهب بعيداً عني.

في ٢ تشرين الأول/أوكتوبر نشرنا مقالة طويلة حول المذكرات بعنوان: «القذافي هدف لخطّة خداع سرية أميركية. حملة مدروسة تضمنت معلومات مضللة ظهرت كوقائع في الأوساط الصحافية الأميركية».

اجتمع الرئيس ريغان وبواندكستر بمحرري الأخبار في ذلك النهار الساعة ١١،٠٠ قبل الظهر في المسرح العائلي في البيت الأبيض. قال الرئيس: «لقد قرأت تلك المقالة في هذا الصباح، وصدمت، وأنا أشك في صحّتها». نعم، هناك مذكرات حول ذلك وحول المعلومات، وهكذا فعندما أشك في صحة المقالة لا أستطيع أن أنكر أنَّ هنا وهناك شيئاً يتعلقون به».

«قريباً سيذهب القذافي كل ليلة إلى فراشه وهو يتساءل عما بإمكانه أن يفعله». وأضاف الرئيس: «توصلت إلى استنتاج أنَّ السيد وودورد قد يكون حنجرةً عميقة».

ذلك المساء أخذ شولتز اتجاهاً آخر وقال: «بصراحة ليس لدي مشكلة مع الحرب النفسية ضد القذافي» وأضاف في مؤتمر صحافي: «إذا كنت مواطناً عادياً أقرأ ذلك وأقرأ أنَّ حكومتي كانت تحاول إرباك من يدير الأعمال الإرهابية ويقتل الأميركيين، عندها أتأمل في أن يكون ذلك صحيحاً». «وإذا كانت هناك أساليب تجعل القذافي عصبياً فلم لا نعتمدها؟

«هناك كتاب رائع حول الحرب العالمية الثانية عنوانه مقتطف من كلام ونستون تشرشل: في وقت الحرب نجد الحقيقة غالية جداً ويجب أن تنتقل في حراسةٍ من الأكاذيب».

في اليوم التالي نشرت النيويورك تايمز خمس مقالات حول عملية المعلومات المضللة منها ثلاث في الصفحة الأولى طرحت أسئلة حول مصداقية الولايات المتحدة.

أراد نورث أن يخضع لاختبار كشف الكذب على آلة البوليغراف ليثبت أنّه لم يسرب أي شيء حول حملة المعلومات المضللة ضد ليبيا. وقال في رسالة كومبيوتر لبواندكستر: رجاء اسمحوا لي بالخضوع إلى اختبار كشف الكذب حول ورطة وودورد. أنت والرئيس بحاجة لإيجاد الشخص الذي يفعل ذلك.

يوم السبت في ٤ تشرين الأول/أوكتوبر طلبني معاون بواندكستر التون كيل إلى البيت الأبيض ليشرح لي أنّه لا توجد نيّة للكذب على الأوساط الصحافية ولم تحصل تسريبات مأمور بها، ولا زرع أخبار أو قصص، وأنَّ استعمال كلمة اغتيال في مذكرة وزارة الخارجية كان لسوء الحظ خطأً لغوياً ولكنَّ السبب يعود إلى أنَّ الاغتيال عن طريق الآخرين في ليبيا لا يمكن استبعاده.

كان لكايسي مزيد من المشاكل الهامة مع لجنة استخبارات مجلس الشيوخ التي كانت على مدار السنة تحقق في مختلف قضايا التجسس. وكان كايسي قد حصل على تقرير اللجنة السري جداً والذي طلبت اللجنة إعادة تصنيفه ليصبح علنياً. وكان يركز على أربع قضايا رئيسية. جاء في التقرير: كان هناك تجسس قليل في جميع وكالات الاستخبارات، والسلوك الشخصي الشاذ لأولئك الذين قبض عليهم بتهمة التجسس يجب أن يطلق مزيداً من التحقيقات.

ـ إنَّ إفلاس بيلتون عندما كان في وكالة الأمن القومي والمشكلة الانضباطية الأخرى عندما كان في القوات الجوية، كان يجب أن ينذرا رؤساءه. كان هناك دليل على أنّه قد ترك وكالة الأمن القومي رغماً عنه عام ١٩٧٩. لقد سافر إلى ڤيينا عدة مرات. وكانت مكالماته الهاتفية مع السفارة السوڤياتية قد سجلت عدة مرات من قبل مكتب التحقيق الفدرالي. ولكن أكثر الأمور إنذاراً كان تقرير مشفر سري جداً وضع عام ١٩٨٢ حول الاشتباه بعملية ايڤي بلز. استنتج التقرير أنَّ السوڤيات قد اكتشفوا الكابل وآلة التسجيل عام ١٩٨١ بواسطة جاسوس. وقد استبعدت المصادفة أو الحظ لأنَّ السوڤيات كانوا يعرفون ماذا يفعلون. هذا التقرير قد بقي سرياً على لجنتي الاستخبارات في مجلس الشيوخ ومجلس النواب لأنَّ وكالة الأمن القومي والبحرية لم ترغبا في الإجابة عن الأسئلة تخوفاً من أن يوقف الكونغرس تمويل غواصات التجسس التي يكون العمل فيها خطراً.

ـ كان رجل وكالة المخابرات المركزية هوارد معروفاً بسلوكه غير المعتدل، ولكنَّ برقية رئيس محطة موسكو التي تقول إنَّ انكشاف مصادر الاستخبارات وعملياتها كان من مصدر بشري، قد أُنكرت. وكانت اللجنة قد استجوبت رئيس محطة موسكو الذي قال إنَّ موسكو كانت بيئة صعبة، وإنَّ جميع العمليات البشرية والتقنية كانت خطرة بنسبة ٥٠ ـ ٥٠، وقال من الممكن أن يكون حظنا عاطلاً. كان عناصر الوكالة يخافون من أن يقال عنهم إنَّهم «أشخاص غير مرغوب فيهم» وأن يبعدوا بسبب التجسس.

بالنسبة إلى رجال المخابرات أن يقال عنك إنك «شخص غير مرغوب فيه» فهذا يعادل: «اذهب إلى السجن» أي أنّه نوع من الفشل المهني. لقد حدثت عمليات إبعاد كثيرة في السنين العشر الماضية. لذلك كان رجال المخابرات يُفضلون أن يعيشوا مع احتمال الاشتباه بهم دائماً.

ـ جوناثان بولارد وهو محلل استخبارات مدني في جهاز تحقيقات البحرية وكان خبيراً في الإرهاب أوقف عام ١٩٨٥ بتهمة التجسس لصالح إسرائيل بينما كان يهرّب حقائب مليئة بالمستندات. كان بولارد قد صرح مراراً لأصدقائه العاديين ومن ضمنهم أحد كبار مساعدي رئيس الجهاز الذي كان يعمل فيه أنّه يعمل لصالح الموساد الإسرائيلي لكن لم يصدقه أحد ولم يسأله أحد عن الموضوع. كان الإسرائيليون يطلعون على نشرات الاستخبارات الأميركية

وأعطوا لبولارد لوائح بتقديرات الاستخبارات القومية وطلبوا بموجبها أحدث المعلومات. وكان بولارد قد أخبر الإسرائيليين بأنَّ له حق الدخول والإطلاع على كومبيوتر البحرية. مع أنَّه لم يكن هناك دليل واضح على صحة هذا، فإنَّ محتويات كومبيوتر البحرية اعتبرت مكشوفة بكاملها.

- كان تجسس عنصري البحرية جون واكر وجيري وايتورث يعادل بيلتون في مجال الضرر الذي سبباه. لقد دفع السوفيات مبلغ ٣٠٠ ألف دولار لرئيس أجهزة الراديو وايتورث وذلك لقاء تسليم ما بين ٢٥ و٥٠ لفة من أفلام مينوكس ما بين مرتين وأربع مرات في السنة. استأجر وايتورث مرة سيارة رولز رويس بيضاء. قال يورتشنكو إنَّ المخابرات السوفياتية نظرت إلى عملية واكر /وايتورث على أنَّها الأهم في تاريخ المخابرات السوفياتية. حاز ضباط المخابرات الذين أداروا العملية على مكافآت، أحدهم حاز على وسام بطل الاتحاد السوفياتي، واثنان آخران حازا على وسام العلم الأحمر. قال يورتشنكو إنَّ العملية أعطت معلومات كان من الممكن أن تكون مدمرة للولايات المتحدة في زمن الحرب. كان وايتورث ضابط نظام تسجيل المنشورات في حاملة الطائرات النووية انتر برايز وكان مسؤولاً عن الوثائق السرية والحساسة ومن ضمنها كتيبات التصليح ومخططات الاتّصالات والشيفرة اليومية. لقد سمح تجسسه للسوفيات بأن يطلعوا على الرسائل العملانية للانتر برايز على مدى سنة كاملة. كان السوفيات قادرين على حل أكثر من مليون رسالة مشفرة وعلى أن يعلموا الشيفرة المتطورة التي كانت تستخدمها أجهزة عسكرية أخرى ووكالات استخبارات.

- عودة إلى السبعينات عندما كان الأميرال إسحق كيد قائد أسطول الأطلسي ينذر حول ما كان السوفيات يفعلون بغواصاتهم ويردون على مناورات الولايات المتحدة في البحر كأنما كانوا يقرأون رسالة. وضع كيد وضباط استخباراته تقريراً. استنتج أنَّ هناك تسريباً، وأنَّه من المحتمل أن يكون المسرب أحد عمال الراديو الذي له حق الإطلاع على الشيفرة. تفحصت وكالة الأمن القومي التقرير ولكنَّها لم تتابعه. ولم ينكشف ذلك إلاَّ بعد سبع سنوات عام ١٩٨٥ عندما وشت زوجة واكر به إلى مكتب التحقيق الفدرالي.

عرض تقرير لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ بالتفصيل مشاكل الأمن في السفارة الأميركية في موسكو. لقد عُثر على آلات تسجيل صغيرة في داخل الآلات الكاتبة، كما أنَّ البناء الجديد للسفارة قد ثقب بكل معدات استراق السمع. وقد ألغيت جميع المراجع لموسكو لأنَّ كايسي لم يشأ أن يعطي السوفيات فكرة عما تعرفه الولايات المتحدة.

لم يكن كايسي سعيداً، وأرسل رسالة إلى السناتور دورنبرغر يقول فيها إنَّه يوافق على أنَّه لا يوجد شيء مصنف (أي سري وما فوق) في التقرير لكنه بالإجمال كان مصنفاً. وتبادل الاثنان كلمات قاسية. لقد اقتصر ذكر هوارد وبيلتون على جملتين قصيرتين تلخصان ما كان قد أعلن من قبل. مع ذلك رفض كايسي وتساءل: لماذا يرسم هذا الدم في العلن! قال

دورنبرغر إنّه يجب أن نواجه المشكلة وإذا أراد كايسي أن يحصل على ميزانيّة من خلال مجلس الشيوخ فمن الأفضل له أن يدع النص غير المصنف ينشر علناً.

في تشرين الأول/أوكتوبر ١٩٨٦ نشر التقرير المؤلف من ١٥٦ صفحة وعنوانه: «في مواجهة تحدي التجسس: مراجعة لبرامج الأمن ومكافحة التجسس في الولايات المتحدة» ويعالج مواضيع عامة، وعندما يصل إلى موضوع حساس لا يأتي بشيء جديد.

ما زال كايسي مصمماً على أن يحقق بعض الاختراقات في إيران. وهذا لا يشمل بيع الأسلحة فقط أو إطلاق سراح الرهائن الأميركية، بل يتعدى ذلك إلى فتح صفحة مع الخميني، وإلى حرمان الاتحاد السوفياتي من النفوذ. كانت هناك عمليات خفيّة طويلة الأمد وطموحة لوكالة المخابرات المركزية في دعم الجهود للإطاحة بنظام الخميني، وإلى إنهاء الحرب مع العراق بهزيمةٍ لإيران.

منذ عام ١٩٨٢ كانت الولايات المتحدة تدعم المبعدين الإيرانيين المعادين للخميني، فكانت تدعم الجبهة الشعبية لتحرير إيران ومركزها في باريس بمبلغ ١٠٠ ألف دولار شهرياً. لم يكن كايسي يتوقع من هذه الجبهة أن تقوم بانقلاب ولكنّ اتّصالاتهم كانت تجلب بعض المعلومات.

كذلك دفع مبلغ من ٢٠ إلى ٣٠ ألف دولار لدعم إذاعة التحرير التي تبث برامج معادية للخميني من القاهرة إلى إيران لمدة ٤ ساعات يومياً.

منذ شهرين أي في آب/أغسطس ١٩٨٦ أنشأت الوكالة خطاً سرياً مباشراً بين واشنطن وبغداد لتزويد العراقيين بأفضل وأسرع المعلومات من الأقمار الاصطناعية الأميركية.

اجتمع كايسي مع مسؤولين عراقيين كبار ليتأكد من أنّ القناة الجديدة كانت تعمل وليشجع على مزيد من الهجمات على إيران وخصوصاً على الأهداف الاقتصادية.

في منتصف آب/أغسطس نفذ العراق هجوماً مفاجئاً بالقنابل على محطة نفط إيرانية في جزيرة سيري والتي كانت تعتبر محمية من الغارات الجوية العراقية بسبب بعدها.

في أيلول/سبتمبر بث رضا بهلوي ابن الشاه أو «الشاه الطفل» كما كان يعرف، إذاعة سرية لمدة ١١ دقيقة قال فيها «سأعود» وذلك بواسطة جهاز صغير ومعقد قدمته وكالة المخابرات المركزية.

فيما يتعلق بمعلومات الاستخبارات التي أعطيت لإيران في الاجتماعات السرية لمبادلة الرهائن بالأسلحة، وافق كايسي على أنّ قليلاً من المعلومات المضللة يمكن أن ينفع. قال نورث في مذكرة إلى بواندكستر إنّ كايسي وتويتن وكاف «أدركوا أنّ المعلومات يجب أن لا تكون دقيقة... نحن نعتقد بأنّ خليطاً من المعلومات الحقيقية والوهمية يمكن تمريرها في الاجتماعات».

كان كايسي متأثراً بتطور القنوات السرية الجديدة مع إيران، من هذه القنوات كان ابن

أخت رئيس مجلس الشورى رفسنجاني، ومدير استخبارات الحرس الثوري في مكتب رئيس الوزراء.

عندما زار ابن أخت رفسنجاني واشنطن سراً ليجتمع بنورث وضعت آلة مراقبة الكترونية لتسجيل الاجتماعات بشكل سري.

أفاد نورث بواندكستر على الكومبيوتر: المحادثات تجري بشكل ممتاز. أنا أعتقد بأنّ رونالد ريغان يمكن أن يكون معنياً بالوصول إلى نهاية للحرب العراقية الإيرانية كما فعل روزفلت في الحرب الروسية اليابانية عام ١٩٠٤.

- ٢٥ -

شارلي آلين وهو كبير المحللين في وكالة المخابرات المركزية حول مشروع إيران وضابط أمن قومي في مكافحة الإرهاب، اضطرب كثيراً عندما تحول سير العملية وفقدت السيطرة عليها. كانت وكالة الأمن القومي تقوم بتغطية شاملة وكاملة، بحيث إنَّ غوربانيفار والإسرائيليين ووسيطاً آخر لم يستطيعوا الاتيان بأية حركة دون أن تلتقطها. بدأ آلين يلاحظ أسعاراً غير معقولة للسلاح الذاهب إلى إيران. كانت ملايين الدولارات تضيع أو لا تحسب. مثلاً: لقد تُرِك مبلغ ٣،٥ مليون دولار من حساب شحنة سلاح عام ١٩٨٥ كما ترك مبلغ ٢٤ مليون دولار في حساب في سويسرا في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٥، وأودع مبلغ ٣ ملايين دولار في حساب بالفائدة لمدة ثلاثين يوماً. وكان من عادة العمليات الخفية أن تضبط حساباتها حتى الـ ٥٠ سنتاً، أما في هذه العملية فقد كان هناك مال زائد. تفحص آلين الالتقاطات. كانت هناك شكاوى كثيرة من الإيرانيين ومن الذين وضعوا بعض الأموال مثل خاشقجي. تبين لآلين أنَّ نفس الأشخاص الجنرال سكورد وفريقه كانوا يمونون الإيرانيين والكونترا بصورة مباشرة. ذهب آلين لمقابلة غايتس.

قال آلين لنائب مدير المخابرات المركزية: «إن قلقي عميق» وأضاف «إنَّ أصحاب الاعتمادات يطلبون أموالهم وهذا قد ينكشف إذا لم نقم بعمل ما. يُحتمل أن يكون المال قد حُوِّل إلى الكونترا. أنا لا أستطيع إثبات ذلك»

قال غايتس إنَّه لا يريد أن يستمع إلى المزيد. إنَّه لا يريد أن يعرف عن تمويل الكونترا. لم يكن من الجائز أن تتورط الوكالة والأفضل لنا أن لا نعلم كثيراً.

قال آلين: «إني أقول كلامي بناء على تحليل مبني على مواد ملتقطة وليس على إشاعات».

قال غايتس منزعجاً: إنَّه من الأفضل أن تعطى هذه المعلومات لكايسي.

في ٧ تشرين الأول/أوكتوبر أخبر آلين كايسي عن احتمال تحويل الأموال إلى الكونترا.

قال كايسي إنَّه تكلم مع صديق قديم يدعى روي فورمارك، وهو رجل أعمال من

نيويورك ومحامٍ للخاشقجي. قال فورمارك إنَّ المودعين الذين ساعدوا الخاشقجي في تأمين القرض البالغ حوالى ١٠ ملايين دولار كانوا غير سعداء. لقد شعروا بأنَّهم خُدعوا، وهددوا بإقامة دعاوى قضائية وبكشف الموضوع.

وافق آلين على أن يضع كل ما يقلقه في مذكرة.

في ٩ تشرين الأول/أوكتوبر توجه نورث إلى لانغلي لتناول طعام الغداء مع كايسي وغايتس، وفي الطابق السابع لخص نورث اللقاءات السابقة التي أجراها مع الوسطاء الإيرانيين. كان متفائلاً كعادته. يمكن أن يحصلوا على رهينة واحدة، ليس بكل أسف جثة رئيس محطة بيروت وليم بكلي الذي يعتقد بأنَّه مات. قال الوسطاء الإيرانيون إنَّ هناك استجواباً من ٤٠٠ صفحة لوليم بكلي أجري تحت التعذيب ويمكن أن يحصلوا على نسخة منه.

عبّر كايسي عن قلقه حول أمن العملية. كان غوربانيفار قناة اتّصالهم القديمة غير سعيد وعلى وشك أن يثور.

قال غايتس إنَّه ربما كان يقرأ روايات كثيرة والحقيقة أنَّ هناك قطعة واحدة من الورق وهي مذكرة ١٧ كانون الثاني/يناير حول إيران وبالتحديد عمليات بيع الأسلحة مقابل إطلاق سراح الرهائن. إنَّها كانت في جارور بواندكستر وهذا ما جعله عصبياً. وإذا اختفت هذه المذكرة الرئاسية فإنَّ عدداً كبيراً من الأشخاص سيتعرض لمشاكل كبيرة.

وافق كايسي وقال إنَّه سيطلب من بواندكستر أن يُعطيه نسخة عن المذكرة وقال نورث أنَّه سيسهّل ذلك، ثمّ تحول البحث نحو أميركا الوسطى. منذ أربعة أيام أُسقطت طائرة تموين للكونترا ووقع المسؤول عن الشحنة يوجين هاسفنس أسيراً في أيدي الساندينيين. وظهر في ذلك الصباح في مؤتمر صحافي على التلفزيون وقال إنَّه كان يعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية.

سأل غايتس ما إذا كان رجال الوكالة (أو أملاكها أو أي شيء مباشر أو غير مباشر تابع لها) متورطين في التمويل الخاص وفي عمليات التموين للكونترا.

قال نورث: «هناك نظافة تامة». وعمل جاهداً لفصل موضوع إيران عن الكونترا. وفي نهاية الغداء ذكر نورث شيئاً عن حسابات البنك السويسري والكونترا. لم يحدد شيئاً ما ولم يلاحق هذه المسألة معه لا كايسي ولا غايتس ولكن بعد الغداء ذهب غايتس ليرى كايسي وقال له: هل يمكنك أن تصنع رؤوساً أو أذناباً؟. كان يتكلم نورث بحق الجحيم؟ قال كايسي إنَّه لا يستطيع.

سأل غايتس: هل يجب أن نقلق حول هذا؟

أومأ كايسي: لا.

بعد ساعتين ذهب كايسي وغايتس إلى الكونغرس ليؤكدا لرئيس ونائب رئيس كلٍّ من

لجنة استخبارات مجلس الشيوخ ولجنة استخبارات مجلس النواب أنَّ وكالة المخابرات المركزية لم تكن متورطة في قضية طائرة هاسفنس أو في أية عملية تموين بالأسلحة.

عودة إلى جهاز كومبيوتر البيت الأبيض. أرسل نورث رسالة إلى مكفرلين: «نحن بحاجة ماسة إلى محامٍ نافذ وإلى متبرع يمكن أن يرفع دعوى للدفاع عن هاسفنس... هناك ضربة قوية تاريخية ستوجه خلال الأسابيع القادمة... بحلول نهار الثلاثاء يجب أن يكون محامٍ سويسري من شركة الخدمات الجوية في ماناغوا. يجب أن لا نتكل على هذا الشخص ليرافع في الدعوى بكاملها لأنَّه مدعوم بوسائل خفيَّة. قال نورث إنَّه حصل على مبلغ ١٠٠ ألف دولار من متبرع إلى محامٍ آخر لهاسفنس. «ثق بأنَّ هذه ستكون مسألة سريعة لجمع الأشياء».

تكلم نورث مع كايسي. قال كايسي: «تخلص من بعض الأشياء ونظف كل شيء». عندها بدأ نورث بحملة تنظيف بيتيّة مكثفة محاولاً أن يمزق جميع المذكرات التي تتعلق بتحويلات الكونترا. قال كايسي إنَّ أحداً يجب أن يكون جاهزاً لتلقي السقطة، ولكنَّ نورث لم يكن كبير الشأن ليكون ضحية ذات شأن. ربما يجب أن يكون بواندكستر.

في ١٤ تشرين الأول/أوكتوبر قدم شارل آلين لغايتس مذكرة من سبع صفحات تضمنت ثلاث توصيات.

أولاً: الحث على إنشاء خلية تخطيط في مجلس الأمن القومي فوراً وتسليم مسؤوليتها إلى شخص مثل كيسنجر أو هلمز كي يقوم ببرنامج مراجعة من الخارج ويُخضع المبادرات السرية لأسئلة حقيقية. ما الأهداف الحقيقية؟ ما الاختيارات؟ ما دوافع اللاعبين؟

ثانياً: قال آلين إنَّ على البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية أن يستعدا للانكشاف أمام الرأي العام. كان غوربانيفار على وشك اللجوء إلى الصحافة أو إلى القضاء. لقد ادعى بأنَّ حكومة الولايات المتحدة قد فشلت في المحافظة على عدة وعود.

ثالثاً: على الجميع أن يقرروا أفضل طريقة لإقفال قناة غوربانيفار بطريقة صحيحة ومنظمة. وقال آلين في الصفحة السادسة: «أحرزت حكومة الولايات المتحدة بالاشتراك مع حكومة إسرائيل ربحاً مادياً من هذه الصفقات وأُعيد توزيع بعض هذا الربح على مشاريع أخرى للولايات المتحدة ولإسرائيل». قرأ غايتس المذكرة ثمّ اتجه إلى مكتب كايسي من الباب الفاصل وقال: «انظر». وقرأ كايسي ثمّ قال غايتس: «هنا ديناميت». ووافق كايسي. اتّصل ببواندكستر لإعداد اجتماع في الحال. تبين أنَّه لا يمكن ترتيب اجتماع حتى اليوم التالي.

في ١٥ تشرين الأول/أوكتوبر ذهب كايسي وغايتس إلى مكتب في البناية التنفيذية بالقرب من البيت الأبيض. لقد حشر مستشار شؤون الأمن القومي مدير المخابرات المركزية ونائبه لمدة نصف ساعة ثمّ قدم له كايسي مذكرة آلين.

نصحه كايسي: «اجعل البيت الأبيض متورطاً في الحال». إنَّه كشفٌ للغز وادعاءات

غير لائقة. يجب على بواندكستر أن يدرس إمكانية إعلان الرئيس عن المشروع بشكل واضح أمام الرأي العام قبل أن يتسرّب نتفاً نتفاً. إلاَّ أنَّ بواندكستر صدَّهم ولم يوافق.

عودة إلى لانغلي. استدعى كايسي وغايتس آلين. طلب كايسي من آلين أن يتكلم مع روي فورمارك في الحال ويجمع التفاصيل كافة ويكتب مذكرة كاملة.

اتّصل فورمارك مرة ثانية في ذلك النهار بكايسي للتركيز على السرعة في تلبية طلبات زبائنه المالية.

بعدما اجتمع آلين مع فورمارك أفاد في اليوم التالي بموجب مذكرة أنَّ فورمارك أوصاه بشحنة أسلحة جديدة لإيران «ليحافظ على بعض المصداقية مع الإيرانيين. . . . ولتزويد غوربانيفار برأسمال يمكنه من إعادة المال للمودعين بشكل جزئي ومن استدانة المال لتموين شحنات إضافيّة».

أراد فورمارك أن يُبقي العملية تسير، وكان يعتقد بأنَّها يمكن أن تؤدي إلى إطلاق سراح مزيد من الرهائن وأضاف أنَّ غوربانيفار قال له إنَّ نورث أوضح أنَّ مبلغ الـ ١٠ ملايين دولار يمكن أن يدفع من الـ ١٠٠ مليون دولار المخصصة كمساعدة للكونترا والتي هي متوفرة الآن من التمويل الأميركي.

قال آلين إنَّهم على وشك أن يقعوا في مأزق كبير.

في ٢٢ تشرين الأول/أوكتوبر ذهب آلين إلى نيويورك واجتمع مرة ثانية بفورمارك الذي أخبره أنَّ غوربانيفار سيدعي بأنَّ معظم الـ ١٥ مليون دولار الآتية من شحنة الأسلحة التي أرسلت في أيار الماضي قد حول إلى الكونترا.

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ٢٢ تشرين الأول/أوكتوبر أحال آلين الموضوع على كايسي. أمر كايسي بإعداد مذكرة إلى بواندكستر تعكس هذا الادعاء ليوقع عليها. أُعدّت مسودة المذكرة ووُضعت في خزانة كايسي.

تابع نورث بيع الأسلحة. مستخدماً القناة الجديدة، ابن أخت رفسنجاني. دفعت إيران ٧ مليون دولار في الحساب السويسري وسُحب منها مليونا دولار لدفع ثمن ٥٠٠ صاروخ تاو التي سلمت إلى إيران في نهاية شهر تشرين الأول/أوكتوبر. وبذلك بقي ٥ ملايين دولار. أفاد نورث بواندكستر بأنَّه متأكد من إطلاق سراح رهينتين في الأيام القليلة المقبلة.

في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر أطلق سراح ديفيد جاكوبسون. في اليوم التالي ذكرت مجلة الشراع اللبنانية أنَّ الولايات المتحدة تزود إيران سراً بالأسلحة وأنَّ مكفرلين قد زار طهران سراً في مطلع هذه السنة. كان شولتز في طريقه إلى فيينا لإجراء محادثات حول نزع السلاح مع السوفيات عندما انتشر الخبر. أرسل برقية إلى بواندكستر يوصي فيها باللجوء إلى الإعلان عن كل شيء بشرح الموضوع. أجاب بواندكستر ببرقية أنَّ بوش ووينبرغر وكايسي اتفقوا على

أن يبقوا صامتين.

يوم الجمعة في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر استقبل الرئيس جاكوبسون في البيت الأبيض وقال للصحافيين بعد الاجتماع إنّ الخبر الذي نشر في بيروت ليس له أي أساس من الصحة. وكان جاكوبسون قد أطلق بعد سبعة عشر شهراً من احتجازه وحشره الصحافيون بالأسئلة حول طريقة إطلاق سراحه، فرفع ذراعه لتحذير الصحافيين وقال: «باسم اللّه هل تتفضلون وبكل روح من المسؤولية بأن تتوقفوا عن هذا».

ومع هذا فقد بدأ كل شيء ينكشف. قال فورمارك لآلين مرة ثانية في ذلك النهار إنّ زبائنه مستعجلون وسوف يكشفون عن تحويل مبالغ مبيعات أسلحة إيران إلى الكونترا.

ذهب كايسي وغايتس مرة ثانية لمقابلة بواندكستر وأوصى كايسي بأن يتولى مستشار البيت الأبيض بيتر واليسون النظر في القضية. أجاب بواندكستر: «أنا لا أثق بواليسون لأنّه لن يبقي فمه مغلقاً».

يئس كايسي من العثور على طريقة لإبقاء الغطاء، وتفاقم الموقف بعد أن اختلفت آراء كبار المساعدين أما الحزازات الشخصية التي تراكمت منذ سنوات داخل الإدارة فأصبحت على شفا الانطلاق. شولتز الذي عارض طويلاً مبادرة إيران وكان ممتعضاً من إقدام مجلس الأمن القومي على إدارتها بدأ يشير في العلن إلى عدم موافقته عليها. كما سربت وزارة الدفاع رأي وينبرغر حول بيع الأسلحة إلى إيران الذي اعتبره عملاً «سخيفاً». أما دونالد ريغان وبواندكستر فقد تنازعا بشكل عنيف أمام الرئيس حول ما إذا كان يجب إعلان شيء ما. ووقف الرئيس إلى جانب بواندكستر الذي كان يعتقد بأنّه يمكنهم إطلاق المزيد من الرهائن إذا تمت المحافظة على السرية.

يوم الاثنين في ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ذهب كايسي إلى البيت الأبيض ليجتمع مع الرئيس وبوش وشولتز ووينبرغر وميز وبواندكستر. قال لهم الرئيس إنّ الشائعات وتقارير الصحافة كانت تعرض ما يقومون به للخطر. وأضاف أنّه لا يتعامل مع الإرهابيين في إيران بل مع الأجنحة المعتدلة وأنّ شحن الأسلحة إلى إيران ليس دفعاً لفدية، وأضاف أنّ هناك حاجة لتنظيم بيان شامل يتجنب تفاصيل العملية وخصوصياتها. وعلم شولتز للمرة الأولى أنّ الرئيس كان قد وقع مذكرة في ١٧ كانون الثاني/يناير حول شحن الأسلحة إلى إيران. وعلى الرغم من صعوبته، فقد أذيع بيان يقول إنّ جميع المستشارين الكبار أجمعوا على دعم الرئيس ولام البيان القصص الخيالية وقال إنّ سياسة الولايات المتحدة بعدم تقديم تنازلات للإرهابيين بقيت سليمة.

بدأ الكلام ينتشر بين وكالات الاستخبارات الأميركية حول وجود مشكلة كبرى في أموال مبيعات الأسلحة لإيران. في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر توجه محققو لجنة استخبارات مجلس الشيوخ إلى وكالة المخابرات المركزية وحاولوا الحصول على التقاطات وكالة الأمن

القومي حول مشروع إيران. تصدى كايسي لهذا وادعى بأنَّ المشروع ما يزال مقفلاً.

أدرك البيت الأبيض أنَّ الرئيس سيلجأ إلى العلن ليظهر الوجه الجيد لمشروع إيران ولذلك وضع على الجدول خطاب متلفز في مساء ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر. قبل الخطاب دُعي زعماء الكونغرس وأعضاء لجنتي الاستخبارات إلى البيت الأبيض للاستماع إلى إيجاز من كايسي وبواندكستر.

قرأ مستشار شؤون الأمن القومي مذكرة ١٧ كانون الثاني/يناير التي أمرت كايسي بأن لا يكشف العملية للجان وأُصيب زعماء الكونغرس بغضب وحيرة.

بعد ذلك طلب كايسي من بات ليهي أن يذهب معه في السيارة. قال ليهي إنَّه كان ذاهباً إلى جورجتاون ليلتقي بعائلته على العشاء، ووافق. كان الاثنان يتبادلان الاتهامات منذ أكثر من سنة. بالعودة إلى تشرين الأول/أوكتوبر ١٩٨٥ بعد خطف الباخرة أكيلي لاورو مباشرة قال ليهي على التلفزيون «إنَّ الاستخبارات الأميركية كانت تعرف أنَّ الرئيس مبارك يكذب». وقال أيضاً «عندما قال مبارك في الأخبار أن الخاطفين قد غادروا مصر علمنا أنَّ ذلك لم يكن صحيحاً وأن استخباراتنا كانت جيدة جداً جداً». عندها ساد انطباع بأنَّ الاتّصالات الهاتفية للرئيس مبارك كانت قد التقطت. أرسل كايسي للسناتور رسالة عنيفة متهماً أياه بتعريض الأمن لخطر جسيم وبالخيانة. وفي الحقيقة لم يقل ليهي ما قاله المتحدث باسم الإدارة ولكنَّ كايسي اعتبر أنَّ التصريح من نائب رئيس لجنة استخبارات مجلس الشيوخ يحمل وزناً كبيراً.

كان ليهي قد كسب إعادة انتخابه بتفوق ثلاثين نقطة في الأسبوع الماضي ولكن لا فضل لكايسي في ذلك. وقبل أيام من الانتخابات نشرت مجلة ريدرز دايجست مقالاً بعنوان: «الكونغرس يشل عمل وكالة المخابرات المركزية» وذكرت ما زعم عن خرق السناتور ليهي للأمن القومي بطريقة استنتج ليهي أنَّها بإيحاء من كايسي.

قال كايسي لليهي عندما جلسا في المقعد الخلفي من السيارة: «أنا أعلم أننا قد تجاوزناك!».

قال ليهي إنَّه لا يجوز لمدير المخابرات المركزية أن يتدخل في العملية السياسية وفي محاولات هزيمة شيوخ غير أصدقاء. وقال إنَّ الجحيم الحقيقي كان مسلطاً على مشروع إيران وستقوم لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ بإجراء تحقيق واسع يشمل قسم اليمين واستدعاءات وشهادات، وليس حديثاً غير رسمي. إنَّ عدم إعلام اللجنة أو استشارتها قد خالف كل التعهدات والوعود.

كان الديموقراطيون قد كسبوا السيطرة على مجلس الشيوخ في الأسبوع الفائت وقال ليهي إنَّه يمكن أن يبقى في اللجنة وأن ينتقل إلى رئاستها. قال كايسي عندما خففت السيارة سرعتها باتجاه جورجتاون: علينا أن نعمل معاً. وبعدما توقفت وثب ليهي إلى الخارج ولحقه

كايسي وانتزع يده وكان ذلك في أقصى أوقات زحمة المساء وكانت السيارة قد توقفت في منتصف الشارع معرقلة السير.

قال كايسي: نحن نؤمن بنفس الشيء ثمّ ربت على يده (ضربات خفيفة) وألمح إلى أنَّ وكالة المخابرات المركزية كانت تريد إعطاءه وساماً تقديراً لعمله في لجنة الاستخبارات. بعد ساعة أذاع الرئيس خطابه المتلفز وقال إنَّه لم يدفع فدية لإطلاق سراح الرهائن بل كان يسعى إلى دخول إيران والتأثير فيها. لقد كانت الأسلحة دفاعية، وشبّه مبادرة إيران بانفتاح نيكسون وكيسنجر على الصين عام ١٩٧١: قال: «نحن لم نتاجر بالأسلحة أو بأي شيء آخر من أجل إطلاق سراح الرهائن ولا ننوي ذلك». وأضاف أنَّ كل شيء كان قانونياً وأنَّ لجان الكونغرس المختصة قد أُخبرت وسوف تعلم تماماً.

أخذ بواندكستر مذكرة ١٧ كانون الثاني/يناير حول إيران من خزانته واستنسخ نسخة عنها وأرسلها إلى لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ. السناتور دورنبرغر والسناتور ليهي لم يتخيلا ولم يصدقا أنَّ الرئيس قد أمر كايسي بأن يتريث في إعلام الكونغرس حول هذه المذكرة. إنَّها كانت منذ عشرة أشهر. لكنَّ كايسي كان نظيفاً بالمقارنة. كان يتقيد بالأوامر. لقد صعق دورنبرغر وليهي بفداحة الخطأ. لقد انتهكت الفكرة العامة والهدف العام لمراقبة الكونغرس وعادت عقارب الساعة إلى الوراء عقداً من الزمن أو أكثر. قال الرئيس ببساطة إنَّه يتعامل معهم برغبة. وأكثر ما كان ظاهراً في المذكرة هو السطر الذي يقول بالامتناع عن إعلام اللجان «بسبب أخطار الأمن والحساسية الشديدة».

لقد عرف الخدم في فندق هيلتون طهران حيث نزل مكفرلين ونورث منذ ستة أشهر أنَّ شيئاً ما كان على وشك الظهور. كذلك عرف المسؤولون الإسرائيليون المهمون. وعرف تاجر السلاح السعودي خاشقجي والوسيط الإيراني غوربانيفار. يمكن الوثوق بهؤلاء الناس ولا يمكن الوثوق بشيوخ الولايات المتحدة الذين ساهموا في المحافظة على بقية أسرار المخابرات! ما الذي لم يعرفوه أيضاً؟

يوم الجمعة في ١٤ تشرين الثاني/نوفمبر زار بواندكستر الواشنطن بوست لتناول طعام الغداء وأخذ ينفث الدخان من غليونه ويقول: «إنَّ العملية كانت مخاطرة معقولة ولم يتلق الرئيس ملاحظات تقليدية، ماذا يفعل وماذا لا يفعل في السياسة الخارجية؟.».

بعد يومين ظهر بواندكستر على شاشة التلفزيون في برنامج «التق الصحافة» مع شبكة ان بي سي. وبينما كان ينتظر ليبدأ العرض سألته عن الثمانية والعشرين عاماً التي أمضاها في البحرية وخاصة عندما كان قائداً لمدمرة في السبعينات. قال وهو يخرج غليونه من جيبه: «الضباط البحريون مهيأون أكثر لأنَّهم يأمرون في البحر. هناك عليك أن تتخذ قرارات وأنت تعلم أنَّه لا يوجد أحد آخر في تلك الأوقات العصيبة. كما تتعلم أن تكون بارداً سواء كنت على سطح المدمرة أو هنا».

قال بوانا؟ستر على الهواء: كانت الإدارة بصدد الإعلان عن مبادرة إيران بسبب جميع التسريبات والتخيلات. قال إنَّ المبادرة كانت في الأساس عملية استخبارات وطبقاً لذلك فإنَّ كايسي، وليس هو، سيقدم الحقائق إلى الكونغرس.

في ذلك النهار غادر كايسي إلى أميركا الوسطى، وليس وجوده خارج البلاد مُضِرًّا عندما تندلع المناقشات. لكنه أراد أن يبقي عينيه على الكُرة والتي كانت ما تزال حرب الكونترا. لقد استعاد رخصة الصيد عندما أقر الكونغرس ١٠٠ مليون دولار مساعدة للكونترا. وسيكون مبلغ ٧٠ مليون دولار من الـ ١٠٠ مليون تحت تصرف وكالة المخابرات المركزية أي ثلاثة أضعاف ما كان يخصص عادة في كل سنة.

يوم الاثنين ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر تلقى كايسي مكالمة من غايتس يحثه فيها على العودة للإدلاء بشهادته أمام لجنتي الاستخبارات في نهاية الأسبوع. في اليوم التالي اتّصل بواندكستر بكايسي على الهاتف الآمن وقال: أنا أفكر في جلسة يوم الجمعة للجنتي الكونغرس، وفي التنسيق الذي يجب أن نقوم به. إذا استطعت العودة يوم الخميس بحيث تستطيع أن نلتقي... أظن أنَّ ذلك سيكون مفيداً، وبهذا سنقدم أفضل الشروحات يوم الجمعة وسنحاول أن نهدئ من الأسئلة قدر الإمكان».

قال كايسي: هل سيكون هناك العديد من المسؤولين في الاجتماع أي من الخارجية أو من الدفاع؟

قال بواندكستر: «أود أن نجتمع فقط نحن. أنا وأنت» وأضاف أنَّ ميز عرض مساعدته ورغب في أن يجتمع معنا. أجاب كايسي: «آه حدد الوقت الذي يناسبك لاجتماعنا وأنا سأحضر في أي وقت تريده».

انقطعت العلاقات بين كايسي وشولتز. نهار الأحد تحدث وزير الخارجية على التلفزيون ولم يُخفِ عدم موافقته على سياسة تسليح إيران. وقال إنَّ بواندكستر هو مخطط العملية. وجواباً عن سؤالٍ عما إذا كان مخولاً من قبل الإدارة بالتحدث حول القضية قال بشدة: لا.

كان شولتز مشمئزاً من كايسي. لقد كان واضحاً أنَّ مدير المخابرات المركزية كان قد أعَدَّ سياسة خارجية بديلة ليس في إيران فقط بل في سائر أنحاء العالم وكان نفوذه كبيراً جداً وكان يستعمل محلليه وبعض مسؤولي الوكالة لجمع المعلومات ليتبين ما كان يجري حوله. واعتبر الوكالة على أنَّها جهاز تخطيط سياسي للمدير ثمّ تحولت إلى وكالة تنفيذية من خلال ضباط العمليات والآن من خلال البيت الأبيض. وأكبر دليل على ذلك تسويقه ورقة غراهام فولر الأولى حول إيران السنة الماضية، والتي باعها للبيت الأبيض بعدما رفضتها وزارة الخارجيّة، ووزارة الدفاع!

أدرك شولتز أنَّ كايسي قد خرّب اتفاقيات نزع السلاح في السنين الماضية. كان كايسي

متحالفاً مع مساعد وزير الدفاع ريتشارد بيرل المعروف بتشدده. وكان واضحاً لشولتز أنَّ وكالات الاستخبارات أصدرت سيلاً من التقارير التي أعاقت عملية نزع السلاح. كان كايسي يقول إنَّ محادثات نزع السلاح كانت بكل بساطة أداة أخرى للسوفيات الذين اتخذوا مواقفهم على قاعدتين: الأولى قرارهم حول الأسلحة الجديدة التي أرادوا المضي في صنعها، والثانية علمهم بما كانت الولايات المتحدة تصنعه وخاصة الأسلحة التي تشكل خطراً كبيراً عليهم. كان السوفيات يحسبون بدقة حتى نوع الأجنحة التي يضعونها على صواريخهم. كما أنَّ الولايات المتحدة كانت قد قامت بحسابات مشابهة. ولكنَّ كايسي كان يعتقد بأنَّ السوفيات لم يكونوا جادين وبأنَّهم كانوا يفاوضون ببراعة.

أدى تدخل كايسي في نزع السلاح إلى زيادة تردد البيت الأبيض حول هذا الموضوع الحساس، وشعر شولتز بأنَّ وظيفة مدير المخابرات المركزية أصبحت كبيرة جداً ولديها موازنة كبيرة، وتتحكم في أعمال التحليل وإصدار التقديرات. كما تتحكم في الأعمال الخفية ومكافحة التجسس وكان لمديرها يدٌ في اتخاذ القرارات حول الأقمار الاصطناعية التي تبلغ تكاليفها مليارات الدولارات وكان يضع لها أولويات العمل. وبوجود مدير نشيط مثل كايسي كان للمخابرات دور في السياسة. كانت هذه المسؤوليات كبيرة جداً وشعر شولتز بوجوب تجزئتها.

كان كايسي كبير السن وربما كانت هذه آخر وظيفة له. لقد كان غنياً. وكان قد خلق جواً من عدم الثقة بالوكالة ليس فقط في الكونغرس بل في الإدارة. شعر شولتز بأنَّ كايسي قد فقد تكامله. لقد كان وزير خارجية الظل.

مساء ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر حوالى الساعة السادسة ذهبت إلى البيت الأبيض للاجتماع بأحد مساعدي بواندكستر آل كيل. رأى كيل أننا يجب أن لا ننشر أي مقال أو خبر حول الجهود الخفية لدعم المبعدين المعادين للخميني، وأيّد المضيّ في بيع السلاح لحكومة الخميني. وقال كيل بانفعال: «هناك مجرد هياج أو نوبة في الصحافة حول هذا الموضوع».

قال كيل أيضاً وهو شاب ذو لحية يتكلم بلهجة الواثق ويلهو بقلم الرصاص بين يديه إنَّه لم يكن لديهم خيار سوى الاتجار بالسلاح الذي اعتبره: «العملة الرئيسية في الشرق الأوسط» وأضاف: «نريد أن نبني ثقة، ونحن بصراحة لا نثق فيهم، لا نثق بإيران ولا نثق بالأقنية التي نتعامل معها. وهم لا يثقون بنا أيضاً. لم يكن هناك ثقة متبادلة. نحن الشيطان الأكبر. وهكذا كيف تبني ثقتك معهم؟ هل تقدم لهم مسحوق الحليب؟ أم الضمادات الطبية؟ هذا شيء يمكن أن يحصلوا عليه من الدكاكين المحلية. عليك أن تجرب السلاح».

قال إنَّه سيكون مضراً جداً أن ينشر أي خبر يعطي انطباعاً بأنَّ الولايات المتحدة كانت تتعامل ليس مع المبعدين المعتدلين بل مع أولئك الذين يرتبطون بالنظام القديم للشاه. أجبته أنَّ الحكومة الإيرانية كانت تتهم بشكل منتظم وكالة المخابرات المركزية بدعم المبعدين

وأنصار الشاه. لقد قالوا ذلك في صحفهم وفي إذاعاتهم. وكان المبعدون يعلمون أنّهم يتلقون المال من وكالة المخابرات المركزية واعترفوا بذلك أمام الصحافة في باريس.

وافق كيل على أنَّ هذه الأخبار لست للنشر في الصفحة الأولى! وأضاف: «إذا نشرت هذه الأخبار سيكون هناك تهديد حقيقي لحياة الناس وستكون حياة بعضهم في خطر. إنّها تجعل من الصعب على قنوات اتّصالنا أن يعملوا. أعطنا ٢٤ ساعة أو ٧٢ ساعة بحيث يمكننا أن نتصل بقنواتنا في طهران، أي بالمعتدلين لنقول لهم إنَّ مقالاً رديئاً سوف ينشر، وبصراحة لنقول لهم «غطوا أنفسكم».

في الواشنطن بوست رأينا أنَّ هذا الادعاء ليس صادقاً. إنَّ تقويم البيت الأبيض لم يعد له أي وزن. كان من المقرر أن يظهر الرئيس في مؤتمر صحافي في اليوم التالي. وكنا نشك في أنَّ البيت الأبيض لم يُرد نشر أي خبر حول احتضان الخميني عن طريق تقديم السلاح بينما كانت وكالة المخابرات المركزية تدعم المبعدين الإيرانيين وأتباع «الشاه الطفل» الذي كان يريد الإطاحة بالخميني. لذلك قررنا نشر المقالة.

في تلك الليلة حاول مكفرلين ونورث وبعض المساعدين في مجلس الأمن القومي أن يضعوا معاً تسلسلاً زمنياً للأحداث يبعد الرئيس ويجعل دوره غير واضح وخصوصاً لجهة موافقته المبدئية حول الشحنة الإسرائيلية الأولى عام ١٩٨٥. استدعى نورث مساعده المقدم روبرت ايرل إلى المكتب بواسطة رسالة كومبيوتر: «دعنا نحضر كماشتنا الصغيرة إلى هنا ونتبين ماذا يجري».

دافع الرئيس في مؤتمره الصحافي عن مشروع إيران وقال: «لا أظن أنني ارتكبت غلطة، ولا أظن أنّه قد حصل فشل ذريع من أي نوع» وأنكر أربع مرات أنّه تغاضى عن الشحنات الإسرائيلية، وأنكر تورط أي بلد آخر. وبعد ٢٥ دقيقة من انتهاء المؤتمر الصحافي أصدر ريغان تصحيحاً غير عادي يقول: «في الواقع إنّه تغاضى عن هذه الشحنة عن طريق بلد آخر!»

ذهب كايسي وغاتس إلى البيت الأبيض ليحاولا حل النزاع مع نورث الذي ادعى بأنّه لم يكن هو الذي طلب مساعدة وكالة المخابرات المركزية في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥ في تأمين الشحنة الإسرائيلية. وأخيراً اتفق بواندكستر ونورث على أنَّ نورث هو الذي طلب. في تلك الليلة عاد كايسي إلى البيت الأبيض ليعد شهادته أمام لجنتي الاستخبارات التي سيقدمها في اليوم التالي، واجتمع مع بواندكستر وشولتز وميز. كان يخطط لأن يقول في شهادته إنَّ وكالة المخابرات المركزية ظنت أنَّ الشحنة الإسرائيلية عام ١٩٨٥ كانت معدات لضخ النفط لا أسلحة!

في نفس الليلة ذهب شولتز لمقابلة الرئيس في البيت الأبيض. أخبر شولتز الرئيس في لقاء متوتر أنَّ مدير المخابرات المركزية كان على وشك أن يكذب على لجنتي الاستخبارات

وأنّه يجب أن نفعل شيئاً ما. لقد أُعِدّت الشهادات بحيث لا يقتنع بها حتى أكثر المدققين سطحية. كان شولتز يغلي. لم يفكر في أنّه سيجري محادثة كهذه، لقد كان يبدو وكأنه يوبخ رئيس الولايات المتحدة. لكنّه قال لريغان إنَّ عليه أن يواجه الحقائق لأنَّ أي شخص يتاح له الاطلاع على السجلات يرى رهائن مقابل أسلحة. بعد برهة ترأس كايسي اجتماعاً في لانغلي لمجموعة كبيرة من ضباط وكالة المخابرات المركزية الذين كانوا على علاقة بالقضية وكان قد اجتمع مع نورث وألغى وصف الشحنة الإسرائيلية عام ١٩٨٥ بأنّها معدات لضخ النفط.

في اليوم التالي استيقظ باكراً وأخذ يقلّب المعلومات ليرى ما أعلن منها وما لا يمكن أن يبقى سرياً. في الساعة ٩،٣٠ ظهر كايسي في جلسة سرية جداً ومقفلة وذلك أمام جميع أعضاء لجنة استخبارات مجلس النواب الخمسة عشر. لقد كان تعيساً. قرأ كايسي ملخصاً لمدة عشر دقائق، عندها تحدى رئيس اللجنة لي هاملتون رأي كايسي من أنّه يمكن بموجب قانون، التأخر في إعلام اللجنة لمدة عشرة أشهر.

أجاب كايسي: «أنا أتكلم عن امتياز دستوري أعطي للرؤساء» وأضاف أنَّ «الحيطة والحذر أوجب ذلك وأنَّ الوقت بدأ يضيع بينما كان الإيرانيون يحاولون فرض نفوذهم المحدود على الذين يحتجزون الرهائن الأميركية في لبنان. إنّها كانت محاولة ثقة لأنَّ الأشياء التي التزمنا بها كانت قليلة جداً وبالتأكيد متناسبة مع قيمة الأشياء التي نحاول التوصل إليها. لقد كانت الأسلحة التي أرسلناها غير مهمة. كان علينا إمّا أن نركب هذه المخاطر وإما أن نجلس وندع العالم يجري على هواه وأنا شخصياً أحبذ ركوب المخاطر بطريقة حذرة» وأضاف: «أنا أرغب في أن أركب المخاطر إذا استطعت ذلك مرة ثانية».

عندها قفز بعض الجمهوريين وأخذوا يدافعون عن قرار الرئيس ويقولون إنَّ اللجنة كانت تسرب.

سأل ديف مكردي الديموقراطي من ولاية أوكلاهوما: «من كان يدير العملية يا سيد كايسي»؟

قال كايسي: «أظن أننا كلنا كنا فيها. لقد كان فريقاً».

قال مكردي: «من كان يترأس ذلك الفريق؟ من اتخذ القرارات؟ هل هو بواندكستر أم كايسي؟»

أجاب كايسي: «أظن أنّه كان الرئيس».

في الساعة ١١ قبل الظهر كان من المقرر أن يمثل كايسي أمام لجنة استخبارات مجلس الشيوخ، ولكنّه غادر وقال إنّه سيعود إلى لجنة استخبارات مجلس النواب الساعة ١،٣٠.

ذهب كايسي إلى غرفة استماع لجنة مجلس الشيوخ الآمنة وجلس إلى طاولة الشهود الطويلة حيث كان هناك ميكروفون خاص يساعد الشيوخ على حل شيفرة تمتمة كايسي غير

الواضحة! جلس كلير جورج إلى جانبه. بعد ست سنوات من المراوغة كانت هذه لحظة استحقاق. جلس جميع أعضاء اللجنة إلى طاولة على شكل حافر الحصان. حضر أيضاً زعيم الديموقراطيين في مجلس الشيوخ روبيرت بيرد وهو من وست فيرجينيا وعضو سابق في اللجنة.

قال بيرد: «عن إذنك أيها الرئيس هل أقسم هذا الشاهد اليمين؟»

كانت لحظة حرجة. أجاب دورنبرغر أنّه لم تجر العادة على تحليف اليمين للشهود إلاّ في جلسات التثبيت. وهذا ما يعطي جواً من المناقشة الحرة لكن إذا أراد أحد الشيوخ أن يرغم الشاهد على قسم اليمين فيمكنه ذلك طبعاً. لم يتكلم أحد.

جلس كايسي ثمّ بدأ يقرأ بيانه. حاول أن يظهر العملية على أنّها خفية روتينية. لم يذكر شيئاً عن مساعدة وكالة المخابرات المركزية للشحنة الإسرائيلية عام ١٩٨٥ من دون مذكرة، كما لم يذكر شيئاً عن المذكرة التي أعدها سبوركين والتي صادق عليها الرئيس وفيها إعطاء دور للوكالة في الشحنة الإسرائيلية: وقال عن الوسيط الإيراني غوربانيفار إنّه ممثل إيران ولم يذكر اسمه. ضغط عدد من الشيوخ لمعرفة هوية هذا الممثل ومدى علاقته بوكالة المخابرات المركزية. تهرب كايسي من السؤال ثمّ أعيد السؤال على كلير جورج الذي قال عن غوربانيفار أنّه مصدر حساس ويجب أن لا نذكر اسمه.

سأل أحد الشيوخ: أليس هو غوربانيفار؟

أجاب جورج: «حسناً. نعم أيها السناتور ولكننا سنكون قلقين جداً على حياته إذا تسرب ذلك».

لم يكن قد كشف النقاب عن فشل غوربانيفار في سلسلة اختبارات كشف الكذب على آلة البوليغراف.

عندما سئل كايسي عما إذا كان الجنرال سكورد قد لعب أي دور في شحن الأسلحة إلى إيران قال إنّه سمع ذلك من التقارير الصحافية وحاول إبقاءها عند هذا الحد.

قال كايسي: «نحن ندرك ما هي نشاطات السيد سكورد ولكننا لا نوافق عليها».

وفي حديثه عن اجتماعه مع الإيرانيين رجع كايسي إلى مسؤول في مجلس الأمن القومي، وعندما سئل من هذا، قال: «أنا لست متأكداً»، ومرر السؤال إلى جورج. أما مدير العمليات فقد أجاب أيضاً بأنّه غير متأكد، ثمّ أدار كايسي ظهره وأعاد السؤال على مساعده التنفيذي الذي كان يجلس وراءهما، قال المساعد إنّه بالتأكيد لا يعرف.

لم يذكر اسم المقدم أوليفر نورث.

لقد حاك كايسي كلامه ليمد غصن الزيتون دون أن يظهر حقائق جديدة. لم يأت على ذكر مشاكل المال ولا على العشرة ملايين دولار المفقودة أو على احتمال أنّ بعض المال قد حوّل إلى الكونترا.

في الساعة ١،٥٠ عاد كايسي إلى لجنة استخبارات مجلس النواب ليقول إنّه لم ينكر أن

تولي مجلس الأمن القومي إدارة العملية كان فكرة ممتازة. وكان ذلك قد حصل في أميركا الوسطى. لقد أصبح مجلس الأمن القومي عملانياً لأنَّ الكونغرس فرض قيوداً على عمل الوكالة في نيكاراغوا. وبهذا اعترف بما كانت الإدارة قد نفته سابقاً من «أنَّ مجلس الأمن القومي كان يدير عملية تزويد الكونترا بالأسلحة من مصادر خاصة» ثمّ قال كايسي: «أنا لا أعرف جميع التفاصيل لقد أُبعدت عن التفاصيل لأنَّه حُظِّر علي القيام بأي شيء. وعلمت أنَّ الآخرين كانوا يعملون».

سئل عن «البطل غير المسمى» (غوربانيفار). قال كايسي إنَّه كان غير جدير بالثقة وهو مريب ثمّ قال: «في هذه الحالات أنت لا تواجه نفوساً صافية بل تتعامل مع أولئك الأشخاص الذين يسعون وراء هدف مهني».

قال أحد الديموقراطيين: أي أنها مسألة كم هو نذل فقط؟

قال كايسي. «نعَم أظن أنَّ هذا صحيح».

وجواباً عن سؤال صعب قال كايسي: «إنَّه من الصعب التدقيق في ذلك» و«أنا لا أحمله على بصمات أصابعي» أو «هذا أعلى من درجة راتبي». كان كل ذلك صحيحاً ولكن لم يلاحقه أي عضو بينما كان ينزلق عن الأسئلة. وأمضى أعضاء الكونغرس معظم الوقت يناقشون بعضهم وأظهرت السجلات أنَّ كايسي لم يتفوه بأية كلمة. وذكرهم كايسي بأنَّ المشروع أدى إلى إطلاق سراح ثلاث رهائن.

قال هاميلتون: «أظن أنك ستواجه متاعب كثيرة في شرح سياستك حول الإرهاب الآن».

أجاب كايسي: «لا يتوجب عليك أن تكون نبياً عظيماً لتتخيل ذلك».

انتهى الاستجواب الساعة ٣،٠٥.

ذهب وزير العدل ميز إلى الرئيس في ذلك الصباح وقال له إنَّ أحداً لا يروي القصة بشكل مستقيم. كان هناك تناقضات كثيرة وأشياء عديدة لا يعرفونها وثغرات كثيرة وسرد غير متماسك. قد يبدون جميعاً تافهين عندما ينظر الكونغرس في القضية. عندها سمح الرئيس لوزير العدل بالبدء بتحقيقه.

اتّصل ميز ببواندكستر وطلب منه أن يجمع الوثائق التي تتعلق بالموضوع. في الجناح الغربي طلب بواندكستر من مساعده العسكري الكوماندر البحري بول تومبسون الذي كان أيضاً محامياً أن يحضر له مذكرات الأعمال الخفية من خزانته. وكانت أول مذكرة حول إيران مؤرخة في ٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٥، وأظهرت مبادرة إيران على أنَّها اتفاقية أسلحة مقابل رهائن، وكان هذا ما نفاه ريغان تماماً.

قال تومبسون وهو يسلم المذكرة إلى الأميرال: «سيكون لهم يوم ميداني كامل حول هذه».

رأى بواندكستر أنها ستكون إرباكاً سياسياً. ثمّ قرر أن يبدأ العمل، وكربان على سطح مدمرة مزق المذكرة وأدار كرسيه ورماها في سلة المهملات وراء مقعده. كانت أكياس المهملات تحرق يومياً للتخلص من المواد السرية الفائضة! وجد بواندكستر أيضاً ملاحظات كومبيوتر أخرى ووثائق غير كاملة، واتّصالات خاصة لم يعد بحاجة إليها، مزقها جميعها ووضعها في سلة المهملات أيضاً.

بعد الظهر اتّصل ميز بمكفرلين في منزله قال: «بد(*)، لقد كلفني الرئيس بوضع تسجيل دقيق للأحداث في هذه القضية التي أود التحدث معك بشأنها».

قال مكفرلين: «انتظر دقيقة. أنا أريد أن أتكلم معك حول هذا. أنت تعلم وكما رأيت في جرائد الصباح، لقد ألقيت خطاباً الليلة الماضية وتحملت مسؤولية كل شيء في هذا لدرجة أني أتابع ذلك أيضاً».

قال ميز: «نعم لقد ذُكر ذلك في الصحف».

قال مكفرلين: «أريدك أن تعرف من البداية أنَّ الرئيس كان وراءها لدرجة أنّه لم يتحفظ على المصادقة على أي شيء يريد الإسرائيليون فعله هناك».

قال ميز: «أنا أعرف ذلك وأنا مسرور لأنَّك قلت لي ذلك لأنَّ وضعه(*) القانوني يكون أفضل كلما كان قراره أبكر» وقال إنَّه إذا كان الرئيس قد أصدر مذكرة شفهية بدلاً من المذكرة الخطية العادية التي توضح لهم كل شيء فهذا من صلب صلاحياته، لأنَّ صلاحياته تشمل إعطاء الأوامر للأعمال الخفية. وأضاف: «بد.. مهما فعلت لا تحاول أن تحرّف الحقيقة أو تعتقد بأن ما تفكر فيه هو الأفضل لك وللرئيس. فقط قل الحقيقة. لا تتخيل أنَّ هذا يساعد الرئيس أو ذلك يؤذيه».

عندها تكلم ميز مع مدير مكتب التحقيق الفدرالي وليم وبستر الذي وضع إمكانيات المكتب تحت تصرف ميز. قال ميز إنَّه لم يجد أي جناية أو جرم وأن تدخل مكتب التحقيق الفدرالي يعرضهم للانتقاد لأنَّه لا يجوز استعمال المكتب لأهداف سياسية.

حوالى الساعة ٦،٣٠ من ذلك المساء ذهب نورث إلى مكتبه. لقد تردد في سحق نفسه! طلب من سكرتيره منذ أربع سنوات فون هول أن يساعده. بدأ يزيل المستندات والمذكرات والرسائل من خزانته وملفاته ووضعها في كومة كبيرة. كل شيء كان معداً للتمزيق. طلب مساعده هول في تبديل أربع مذكرات وأزال بعض المراجع التي قد تثير المشاكل. واستغرق كل ذلك مدة ساعة.

كان السبت ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر يوماً ساخناً. وبدا أنَّ عطلة نهاية الأسبوع

(*) بد اسم الدلع لروبرت.

(*) وضع الرئيس.

ستكون حافلة بالعمل. اصطحب ميز بعض معاونيه في وزارة العدل إلى البيت الأبيض. اجتمع أولاً مع شولتز ثمّ مع سبوركين بينما كان معاونوه يعملون في الملفات وقد عثروا في مكتب نورث على مذكرة غير مؤرخة ودون عنوان وتتصلق بإيران ورد فيها: «١٢ مليون دولار سوف تستعمل لشراء الإمدادات المطلوبة لقوى المقاومة الديموقراطية النيكاراغوية». وفيما بعد اصطحب ميز معاونيه لتناول طعام الغداء في مطعم أولدبيت غريل على بعد بنايتين من البيت الأبيض. أخبره معاونوه عن مذكرة التمويل التي عثروا عليها في مكتب نورث. عبّر ميز عن تعجبه وشعر بأنّها يمكن أن تكون شرعية أو ربما كانت تعكس حلماً من أحلام نورث.

كان كايسي في مكتبه في البناية التنفيذية، واتّصل ببواندكستر وقال: «سأحضر إليك لنأكل سندويشاتٍ معاً». أكل الرجلان وتحدثا حوالى ساعتين وانضمّ إليهما نورث فيما بعد. المسرحية الكبيرة ما تزال اختياراً بل أملاً. وكان كايسي يعتقد بأنّ أفضل تكتيك هو أن تغطى المشكلة بتحقيق نجاح منظور في مكان آخر. كان لديهم الآن قناة مباشرة من خلال علي هاشمي بهرماني وهو ابن أخت رئيس مجلس الشورى الإيراني رفسنجاني، ومدير استخبارات الحرس الثوري في مكتب رئيس الوزراء ويُدعى سامئي بدلاً من غوربانيفار المريب. كان بهرماني وسامئي يرسلان الرسائل بواسطة جهاز اتّصال آمن إسرائيلي الصنع، ولكن في آخر الأسبوع قال بهرماني إنّه يشعر بأنّه مهدد وأنّه سيرسل رسائله من خلال مرافقه.

انتهى الغداء الساعة ٣،٢٠. في الساعة ٣،٤٠ اتّصل نورث بميز للاعداد لمقابلة في اليوم التالي. الساعة ٣،٤٦ اتّصل كايسي بميز وقال إنّ لديه شيئاً يريد أن يخبره لوزير العدل. قال ميز: «لماذا لا أعرج عليك في طريقي إلى المنزل هذا المساء»؟ قال كايسي إنّ صديقه القديم روي فورمارك كان يمرر الرسائل من أولئك الذين وضعوا أموالهم في عملية بيع الأسلحة إلى إيران. كانوا يقولون إما أن تدفع لنا المال الذي استدنته أو نقوم بتصرف سيء.

أدرك معاونو ميز الابتزاز لكنه لم يؤيدهم في ذلك. لم يذكر كايسي اتهام فورمارك بأنّ المال قد ذهب إلى الكونترا كما لم يذكر ميز شيئاً عن مذكرة نورث التي كان قد عثر عليها منذ بضع ساعات والتي تذكر تحويل المال إلى الكونترا.

عيّن ميز موعداً مبكراً لنورث في اليوم التالي أي الأحد. إلاّ أنّ نورث: طلب تأجيله إلى الساعة ٢،٠٠ بعد الظهر لأنّه يريد أن يذهب إلى الكنيسة مع عائلته!. اتّصل نورث بمكفرلين ليلتقيه في مكتب للأخير في البناية التنفيذية الساعة ١٢،٣٠. تحدثا لمدة ١٥ دقيقة. قال نورث إنّه سيكشف لميز الحقائق حول تحويل أموال بيع السلاح لإيران إلى الكونترا. وكما علم مكفرلين فإنّ نورث لم يقم بأي عمل دون مصادقة من بواندكستر. إنّها كانت مسألة سجلات، وهناك مذكرة أعدها نورث لبواندكستر.

الساعة ٢،٠٠ بعد الظهر وصل ميز مع معاونيه. قال نورث نعم لقد تمّ تحويل المال وقد فتحت ثلاثة حسابات في سويسرا وأعطيت أرقامها للإسرائيليين وأودع المال في هذه الحسابات وكان الكونترا ممنونين لذلك. لقد ذهب حوالى ٣ إلى ٤ ملايين دولار من إحدى صفقات البيع في ذلك الاتجاه. إنَّ مبلغ الـ١٢ مليون دولار المدوّن في المذكرة لم يكن من أموال الولايات المتحدة أو من أموال إسرائيل.

ثمّ سأل نورث: هل عثرت على مذكرة تغطية؟

قال ميز: هل علينا أن نقوم بذلك؟

قال نورث: لا. أنا أتعجب.

بعد برهة كتب كايسي رسالة سرية إلى الرئيس يقترح فيها إقالة شولتز مستخدماً تعابير كرة المضرب. قال كايسي إنَّ الرئيس يحتاج إلى «هداف» جديد.

يوم الاثنين الساعة ١١ قبل الظهر شرح ميز للرئيس ولدونالد ريغان أنَّه كشف تحويل مبالغ مالية للكونترا. وذهب ميز بعد ذلك إلى مكتب بواندكستر وقال له: «أنا افترض أنك تعلم عن المذكرة التي عثرنا عليها في ملفات نورث». قال بواندكستر إنَّه يعلم وأنَّه يحتمل أن يقدم استقالته.

قبل الغداء وجد بواندكستر رسالة كومبيوتر من نورث: «هناك كلام قديم أنك لا تستطيع أن تطردني. أنا أترك وأنا جاهز لأن أستقيل في أي وقت تقرره أنت والرئيس. نحن تقريباً تجحنا. بكل أخلاص. نورث»

طبع بواندكستر: «شكراً أولي، لقد تكلمت مع ميز مرتين هذا اليوم حول هذا وهو ما يزال يتخيل ويفكر في ما سيفعل. لقد قلت له إنني جاهز للاستقالة وقلت إنني أنتظر تلميحاً منه. إنَّه واحد من القليلين الموجودين حول الرئيس الذين أستطيع أن أثق بهم. إذا لم نترك، ما رأيك في الانتقال إلى وكالة المخابرات المركزية وفي أن تعمل مساعداً لكايسي، وهذا سيضعك في الجو العملاني رسمياً. لا تقل شيئاً لكايسي أنا أريد أن أعرف رد فعلك فقط».

خلال جلسة مصورة في البيت الأبيض سئل الرئيس عما إذا كان يعترف بأخطاء حول شحن السلاح لإيران. قال الرئيس: «أنا لا أريد الكذب حول ذلك. أنا لم أرتكب أية غلطة» ثمّ أضاف: «أنا لا أريد أن أطرد أحداً».

اصطحب كايسي فورمارك إلى لانغلي وحاول أن يعرف منه عن المال المستعمل في عملية إيران. اتّصل بنورث وقال له: «هناك رجل يقول إنك مدين له بعشرة ملايين دولار».

قال نورث إنَّ هناك ٣٠ ألف دولار باقية في الحساب السويسري وأضاف: «قل له إنَّ الإسرائيليين والإيرانيين مدينون له بهذا المبلغ».

حاول كايسي أن يتصل بميز لكنَّه لم يعثر عليه، وحاول الاتّصال بدونالد ريغان لكنَّه لم

يجده وترك له رسالة يقول فيهـا إنَّه بحـاجة إلى أن يتكلم معـه بشكل فـوري ولا يمكنه الانتظار. وافق دونالد ريغان على أن يتوقف في لانغلي في طريقه إلى منزله. وصل إلى الطابق السابع وسأله كايسي: ماذا في عقل الرئيس؟

قال دونالد ريغان: إنَّ تحويل المال إلى الكونترا قد انكشف.

سأل كايسي: ماذا تريد أن تفعل حول ذلك؟

قال ريغان: لقد ظن الجميع أن صفقة الأسلحة مع إيران كانت كما يقال في وول ستريت «غير مربحة». ثمّ تحدث عن التحويل وقال هناك خطة لإعلان كل شيء غداً.

سأل كايسي: «حسناً هل تدرك عواقب هذا؟» لقد حددوا تأثير هذا الكشف. إنَّه سينسف كل الموضوع الإيراني ويحتمل أن ينسف حياة الرهائن. سوف تغضب إيران ويحتمل أن يقطع الكونغرس اعتمادات الكونترا.

أجاب دونالد ريغان: يمكن أن يحصل هذا. كيف نستطيع بحق الجحيم أن نسكت على هذا الهراء.. أعني أنَّ هذا الشيء هو إهانة... هل قمنا بعمل إجرامي؟

قال كايسي: آمل أن تدرك ذلك، وهذا سيسبب بعض خيبة الأمل وسيكون موضوعاً رئيسياً.

أوضح دونالد ريغان أنَّ قرارات قد اتخذت ولا رجوع عنها. لن تكون هناك عودة إلى الوراء، ولا مجال لذلك.

ذهب كايسي في وقت متأخر للعشاء في نادي مترو بوليتان حيث كان عليه أن يلتقي ابنته برناديت وأدوارد هيموف وهو من قدامى مكتب الخدمات الاستراتيجية، وهو كاتب كان يريد أن يكتب قصة حياة كايسي. تصافحا واتفقا على أن يؤمن له كايسي الإذن بالدخول إلى وكالة المخابرات المركزية وإلى الهيئات الكبرى في الإدارة ومن ضمنها الرئيس.

عندما وصل كايسي إلى النادي كان هيموف وبرناديت وزوجها بـالانتظار. قـال له هيموف وهو يعرف عن الضجة الحالية: «أنت تعرف أنَّ الهراء سينتشر». قال له كايسي «نستطيع الإمساك به». وقال إنَّه سيبقى إلى آخر ولاية الرئيس. وسوف يقوم بتدبيرٍ ما بحيث يستطيع هيموف أن يمضي آخر ستة أشهر من عام ١٩٨٨ في وكالة المخابرات المركزية يجمع المعلومات. وحتى ذلك الـوقت سيتم التركيـز على بقيـة فترات حيـاته: مكتب الخـدمات الاستراتيجية، موظف أموال، مؤلف، جهاز أمن التبادل. كـان تواقـاً لمباشرة العمـل في الكتاب وكان من المقرر أن يمضي عطلة عيد الميلاد في منزله في بالم بيتش واتفقا على أنَّه يمكن لهيموف أن يحضر ويجري بعض المقابلات.

سأله: ماذا ستفعل بعد انتهاء ولاية الإدارة؟

قال كايسي: أنا لن أعود إلى المحاماة. أنا رأسمالي مغامر. لقد اقتنع بعد عمله في الحكومة بأنَّ أي مشروع تجاري صغير يمكن أن يتحرك بشكلٍ أسرع وأفضل. وقال إنَّه يفكر في كتابة قصة حياته.

قالت برناديت: أبي يجب أن تؤلف كتاباً.

الساعة ٦،٣٠ من اليوم التالي الثلاثاء ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر اتّصل كايسي بميز وطلب منه أن يعرج عليه في طريقه إلى عمله. وصلت سيارة وزير العدل إلى فوكسهال كرستش الساعة السابعة صباحاً. أراد كايسي أن يعرف ماذا يجري.

قال ميز إنَّ بواندكستر سيعلن كل شيء.

قال كايسي إنَّه سيسحب كل المذكرات ويرسلها إلى ميز. وبعدها اتّصل ميز ببواندكستر في السيارة وطلب منه أن يوافيه إلى مكتبه في وزارة العدل. عندما وصل بواندكستر إلى وزارة العدل كان لميز كلام واضح: «يجب أن تستقيل اليوم» ثمّ قال ميز إنّه لم يفكر في أنَّ نورث قد قام بأي عمل غير قانوني. عاد بواندكستر إلى مكتب الجناح الغربي وطلب إحضار طعام الفطور له على صينية وجلس إلى طرف طاولة الاجتماعات وقال لمساعده العسكري الكوماندر ثومبسون بهدوء إنَّه سيطلب إعادته إلى البحرية في ذلك النهار. لم تبدر عنه أية ثورة عصبية أو هياج أو انفعال.

سرعان ما وصل دونالد ريغان إلى مكتب بواندكستر وكان على نار وسأل: ماذا حدث بحق الجحيم؟

أصلح بواندكستر وضع نظاراته، ووضع منديله على فمه ثمّ أزاحه جانباً وقال: «حسناً أظن أنّه كان يجب علي أن أدرسها أكثر لكني لم أفعل، كنت أعلم أنَّ أولي بصدد أن يقوم بشيء ما، أنا فقط لم أدرس الموضوع».

قال دونالد ريغان: ماذا بحق الجحيم، أنت نائب أميرال ماذا يجري؟ قال بواندكستر: «ذلك الملعون تيب أونيل. الطريقة التي كان يحرك فيها موضوع الكونترا... لقد كنت مشمئزاً تماماً»

قال دونالد ريغان: «حسناً جون عندما تذهب لمقابلة الرئيس تأكد من أنَّ استقالتك ستكون معك».

قال بواندكستر: «سأفعل».

في لانغلي استدعى كايسي شارلي آلين. أين كانت المذكرة الملعونة القديمة التي أرسلها لبواندكستر حول احتمال تحويل الأموال. لقد عثروا عليها في خزانة كايسي الخاصة. كتب كايسي بشكل هستيري رسالة فورية وسرية إلى ميز يشرح فيها ما حدث. هو وغاتس أخبرا بواندكستر عدة مرات عن هذه الادعاءات وقدّما له مذكرة في منتصف شهر تشرين الأول/أوكتوبر ولكنَّ المذكرة التي تحدثت بوضوح عن احتمال تحويل الأموال لم تذهب إلى البيت الأبيض.

في ذلك الصباح أعطى الرئيس زعماء الكونغرس معلومات عن التحويل واستدعاهم إلى البيت الأبيض وقال لهم إنَّ بواندكستر لم يكن مشاركاً بل استقال بشكل اختياري طبقاً

لتقاليد البحرية التي تقول إنَّ ربّان السفينة مسؤول عن كل شيء يحصل في نطاق إمرته. ودافع ريغان عن نظام العمل في مجلس الأمن القومي وقال إنّه خدم البلاد كثيراً. ودون أن يغفل مشروع التحويل قال الرئيس إنّه لم يكن مناقضاً للسياسة المتبعة.

وعند الظهر عقد الرئيس مؤتمراً صحافياً، وتلا بياناً موجزاً، ثمّ قدّم وزير العدل ميز. أعلن ميز أنَّ ما بين ١٠ و٣٠ مليون دولار قد حولت إلى الكونترا، ثمّ أضاف وهو متجهم وعابس، إنَّ الرئيس لم يكن على علم بذلك، وأعلن أنَّ بواندكستر قد استقال وأنَّ نورث قد طرد.

فيما بعد، وفي ذلك النهار هرّب فون هول سكرتير نورث رزمة مستندات بسماكة نصف إنش من مكتب نورث وذلك بأن أخفاها في داخل ثيابه وفي حذائه، وأخذها إلى نورث. وفي المساء أقفل ضابط الأمن المكتب.

في اليوم التالي اتّصلت بكايسي هاتفياً وسألته: كيف توصلت الإدارة إلى صفقة بيع الأسلحة لإيران؟

قال كايسي: «قال لنا الإسرائيليون عام ١٩٨١ بأن نعمل مع الإيرانيين بهدف توثيق العلاقة مع العسكريين وبدا ذلك معقولاً بالنسبة إلينا وخاصة بالنسبة إلى عهد ما بعد الخميني». قلت: لماذا كانت هناك أرباح بحيث أمكن تحويلها للكونترا؟

قال: «إيران كانت ترغب في أن تدفع المزيد» وأضاف أنَّ أي عمل غير قانوني يكون من الآخرين. وتوقف ثمّ قال: «لقد اكتشفوا بواندكستر».

قلت: هل كنت تعرف عن تحويل الأموال للكونترا؟

أجاب كايسي: «حسب القانون علي أن أبقى بعيداً». ثمّ أعاد ما قاله ميز في المؤتمر الصحافي: إنَّ أحداً في الوكالة لم يعرف عن التحويل حتى المدير.

قلت: الكونترا هم أبناؤكم ويجب أن تعرفوا أنّهم تلقوا من ١٠ إلى ٣٠ مليون دولار.

قال بشكل لاذع: «إشاعات. لقد علمتها البارحة من ميز».

قلت: ألم تكن تعلم بما كان يفعله نورث؟

قال: «أيها الملعون، لن يذهب أحد إلى السجن...» ثمّ أقفل الخط.

بعد عدة أيام عُين النائب السابق لستانسفيلد تورنر في وكالة المخابرات المركزية فرانك كارلوتشي مستشاراً لشؤون الأمن القومي. وتمّ السعي لتشكيل لجنة مستقلة لإجراء التحقيقات الجنائية حول قضية إيران ـ الكونترا. كما عيّن الرئيس لجنة من ثلاثة أعضاء برئاسة السناتور السابق جون تاور للتحقيق في أوضاع مجلس الأمن القومي. كما بدأت لجنة استخبارات مجلس الشيوخ تحقيقاً شاملاً. في آخر حديث لبواندكستر مع كايسي طلب الأول نصيحة المدير حول اختيار محامٍ.

حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر في ٣ كانون الأول/ديسمبر اتّصلت بكايسي مرة

ثانية. كان عدد من زعماء الكونغرس وكبار المسؤولين في الإدارة يقولون إنَّه انتهى في وكالة المخابرات المركزية. كان يتناول الطعام وتحدثنا من دون كلفة.

قلت إنَّ رئيس ونائب رئيس لجنة استخبارات مجلس الشيوخ يقولان إنَّهما سيخرجان بنتيجة هامة من التحقيق.

قال وهو يمضغ طعامه «لقد منعنا بموجب القانون من مساعدة الكونترا ولم نفعل ذلك» ثمّ أضاف: ارتكبت وكالة المخابرات المركزية غلطتين تافهتين حول بيع الأسلحة إلى إيران. الأولى هي المساعدة التي قدمت للبيت الأبيض حول الشحنة الإسرائيلية من السلاح في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٥ إلى إيران قبل أن يوقع ريغان المذكرة. وكانت المساعدة بهدف وضع نورث على اتّصال حيث يمكن أن يتوصل إلى إجراء عمل تجاري روتيني. والثانية أنَّ بعض العاملين الأغبياء على مستوى منخفض استخدموا نفس الحساب المصرفي السويسري لبيع الأسلحة إلى إيران ولعملية الدعم الخفي السعودي الأميركي المشترك للثوار الأفغان. لذلك فقد اختلطت أموال إيران بمبلغ الـ ٥٠٠ مليون دولار المخصص لعملية أفغانستان، لكن أعيد حساب المبلغ بأكمله.

هل كان ذلك عملية لسع كبيرة من قبل الإيرانيين للحصول على أسلحة أميركية؟

قال: هراء. «الرئيس تودد إليهم ونحن فعلنا ذلك أيضاً» ثمّ سألت سؤالاً آخر.

قال: «أيها الملعون لا تخزني بالإبرة، أنا لا أعلم لماذا أتلقى مكالماتك».

قلت: هناك عدد من الأسئلة لم تجب عليها.

قال: أنا أتوقع منك أن تختبر سلوكك كرجل ناضج!

قلت: حسناً، كثير منهم يقولون إنك تعرف أكثر وأنك ستتورط.

قال: «هذا لأني لا أقوم بعملك مقابل كل مال العالم. إنَّ قَدَرك أن تكون على حق في بعض الأحيان فقط».

ما زال القسم القانوني في وكالة المخابرات المركزية يحاول بيأس أن يحفظ نشاط الوكالة ضمن الحدود القانونية ويحدد بدقة ما إذا كان الاتّصال بين ضباط الوكالة والشركة الخاصة بنقل الأسلحة إلى الكونترا ومع المتبرعين للكونترا قانونياً أم لا. وأصدر هذا القسم رأياً في ٥ كانون الأول/ديسمبر وسلمه لكلير جورج يقول «إنَّ الاتّصال مع المتبرعين هو عمل ضد السياسة ولكن ليس ضد القانون».

مع رحيل بواندكستر ونورث كان على كايسي لوحده أن ينتشل شيئاً مما غرق من مبادرة إيران. أما بالنسبة إلى الاجتماعات المقبلة مع القناة الثانية للاتّصال الإيراني فكان من المقرر أن تجري في فرانكفورت ـ ألمانيا الغربية. يوم السبت في ١٣ كانون الأول/ديسمبر. كان شولتز قد حاز على موافقة البيت الأبيض على أن لا يكون هناك المزيد من بيع الأسلحة لإيران وأن لا يتحدث ممثل وكالة المخابرات المركزية خلال الاجتماع في السياسة. اتّصل

كايسي بدونالد ريغان ليقنع الرئيس بأن يغير قراره، وأرسلت رسالة سرية جداً إلى فرانكفورت تسمح لممثلي وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية بإجراء محادثات سياسية واستخبارية.

بعد اجتماع فرانكفورت الذي جرى في فندق بارك تلقى شولتز اتّصالاً هاتفياً آمناً من ممثل وزارة الخارجية. لقد صُعق الوزير بعد ما سمع التقرير، ثمّ اتّصل بالرئيس وطلب مقابلته في الحال. دعا الرئيس شولتز إلى البيت الأبيض صباح اليوم التالي.

صباح الأحد وفي البيت الأبيض قال شولتز للرئيس إنّ اجتماع فرانكفورت أظهر كيف فُقدت السيطرة على كل شيء. كان بواندكستر ونورث وكايسي ووكالة المخابرات المركزية يتفاوضون حول قضايا لا يمكن تقديم تنازلات فيها. لقد عاد ممثل إيران في فرانكفورت إلى مفكرة من تسع نقاط كان قد وافق عليها نورث ووكالة المخابرات المركزية ومن ضمنها أنّ الولايات المتحدة كانت تعمل لإطلاق سراح ١٧ سجيناً كانوا قد أدينوا بتهمة الهجوم على السفارة الأميركية في الكويت بشاحنة مليئة بالمتفجرات وذلك عام ١٩٨٣. كانت الولايات المتحدة في معركتها الطويلة ضد الإرهاب تدعم رفض الكويت إطلاق سراح السجناء السبعة عشر. وكان هؤلاء السجناء اعضاء في حزب الدعوة وهي مجموعة أصولية راديكالية متعصبة على صلة بأولئك الذين قتلوا ٢٤١ عسكرياً أميركياً في بيروت عام ١٩٨٣ ونفذوا عمليات إرهابية أخرى. كانوا مجموعات انتحارية وبعضهم على علاقة وثيقة بالجناح اللبناني حزب الله. إنّ صمود الكويت أصبح علامة الصلابة ضد الإرهاب. لكنّ وكالة المخابرات المركزية كانت تقول في ألمانيا إنّ هذه المسألة قابلة للتفاوض. كانت الوكالة تهزأ من مبادئ وعقائد الرئيس وتنكث تعهد الرئيس الشخصي بأنّ الإرهابيين يستطيعون الهرب لكن لا يمكنهم الاختباء، وذلك لأنّها كانت متعودة على عمليات ترتكز على الحيلة والخداع والنفعية. أضاف شولتز أنّ موقف وكالة المخابرات المركزية ومجلس الأمن القومي كان أساس الورطة الحالية.

انبهرت عينا الرئيس وانقبض فكه. لقد انتهت مناقشة إيران التي كان شولتز يخوضها ويخسرها منذ أواسط عام ١٩٨٥.

في صباح اليوم التالي الاثنين ١٥ كانون الأول/ديسمبر كان كايسي في مكتبه في الطابق السابع في لانغلي يجهز نفسه للمثول أمام لجنة استخبارات مجلس الشيوخ وفجأة بدأ يعاني من انقباض. استدعيت سيارة إسعاف على وجه السرعة، ونقل إلى مستشفى جورجتاون، ثمّ عانى من انقباض آخر، لكنه كان يتكلم ويتحرك بشكل عادي. يوم الخميس الساعة ٧،٤٠ صباحاً أدخل إلى غرفة الجراحة وقام فريق من ثلاثة جراحين باستئصال ورم سرطاني يدعى ليمفوما، وانتهت الجراحة الساعة الواحدة بعد الظهر. وقد استؤصل الورم من القسم الداخلي للجانب الأيسر للدماغ وهي المنطقة التي تتحكم بحركة الجانب الأيمن للجسم.

أصدر الأطباء بياناً جاء فيه أنَّهم يتوقعون أنَّ كايسي الذي كان قد بلغ ٧٣ سنة، سيكون قادراً على استئناف نشاطاته المعتادة.

حل غاتس مكانه كمدير مخابرات مركزية بالوكالة، وأمضى معظم شهر كانون الثاني يقاوم ضغط البيت الأبيض لتعيين بديل لكايسي الذي كان مريضاً وفي حالة الخطر وعملياً لا يستطيع الكلام. وطُلب منه اقتراح بعض الأسماء فاقترح غاتس الشيوخ السابقين: جون تاور وبول لاكسالت وهوارد باكر. وكان يأمل أن لا يأتي أحد منهم.

بعد ستة أسابيع تحسن كايسي، وفي يوم الأربعاء ٢٨ كانون الثاني/يناير سمح لغاتس بزيارته في المستشفى. كان يجلس قرب النافذة ولم يكن شعره كثيفاً، كما أن نقص الشعر الناتج عن التعرض للإشعاع واستعمال الأدوية لم يكن ملفتاً للنظر. وكان لغاتس لائحة من عدة مواضيع يريد طرحها عليه، وكان كايسي صافياً يعطي تعليقات قصيرة أو يتمتم كلما انتقل غاتس من بندٍ إلى بندٍ آخر من بنود اللائحة.

قال كايسي: «لقد حان الوقت لكي أحيد من الطريق»، ثمّ حرّك ذراعيه في الهواء وقال: «أخلق فراغاً».

في اليوم التالي رتب غاتس زيارة لدونالد ريغان وميز إلى المستشفى. لم يستطع كايسي الكتابة ولذلك وقعت عنه صوفيا كتاب الاستقالة. لقد خدم ست سنوات ويوماً واحداً. أما أنا(*) فقد أخذت لائحة من الأسئلة الدائمة والمتراكمة وذهبت إلى مستشفى جورجتاون. كانت الثلوج الكثيفة قد غمرت واشنطن بشكل غير عادي، وكان السير خفيفاً. لم يكن علي أن أنتظر طويلاً في الردهة وسرعان ما رأيت أحد حراس وكالة المخابرات المركزية ومعه جهاز واكي توكي، وقد سار في ممر طويل ثمّ انحرف يساراً إلى جناح جديد واستقل المصعد وتوقف في الطابق السادس. عندها صعدت إلى الطابق السادس. وكان هناك أربعة حراس في غرفة صغيرة يشاهدون التلفزيون بعد الظهر.

كان كايسي في الغرفة ٢٦٣١٦ ومسجلاً تحت اسم مستعار «لاسي» وكان الباب مغلقاً. بعدما عرفت عن نفسي رفض الحارس الوحيد أن يدعني أدخل.

في كل مرة كنت أقابل فيها كايسي في السنوات الثلاث الماضية كنت أكتب أسئلتي على أوراق صفراء والآن لدي رزمة سميكة من أوراق قديمة. بعض الأسئلة سألتها وأجاب عنها كايسي وتحققت منها في أماكن أخرى. والآن زاد فضولي. أمضيت بضع ساعات أراجع ما يمكنني أن أسأل عنه، وحاولت أن أكثّف ذلك كله وأختصره إلى صفحة واحدة. هناك أسئلة هامة لم يجب عنها كايسي. لقد بدا واضحاً كيف كان هذا الرجل متفوقاً بالنسبة إلى تطلعات الإدارة. وكانت قناعات كايسي وإخلاصه وولاؤه القوي وراء عملية الكونترا ومبادرة إيران

(*) المؤلف.

وعدد من الإجراءات والعلاقات السرية. كان طموحه يهدف إلى أن يثبت أنَّ هذه البلاد بإمكانها أن تفعل هذه الأشياء. وقد اهتم بالأعمال الخفية ونفذها بسرية. كان ذلك نوعاً من حب الوطن وإظهاراً للإرادة القوية لأبنائه.

قال مرة لأحد مساعديه: «نستطيع أن نربح». كان يشعر بأنَّ إنجازه الكبير هو منع أميركا الوسطى من أن تصبح شيوعية، وهذا يشبه ما حققته أميركا بعد الحرب العالمية الثانية بتخليص أوروبا الغربية من الشيوعية. قالت لي صوفيا مرة في حديث هاتفي: «ولد بيل وهو وطني بقلبه وبعقله» هل كان كذلك؟ هل كان ذلك ما سعى إليه؟ بلده بأي ثمن؟ ما الثمن الذي دفعه؟ الآن وقد شارفت اللعبة على الانتهاء أدركت أنني لا أستطيع أن أهرب من الحكم. لقد تجنبت ذلك بحذر خلال الثلاث سنوات ونصف التي عرفته فيها. كان ذلك أسهل بالنسبة إلي. ولبعض الاسباب فقد كنت شريكه في حفظ بعض الأسرار. وكنا نهجس كلانا بالأسرار كل بطريقة مختلفة عن طريقة الآخر. ما كانت هذه الأسرار؟ وما كانت قيمتها؟ وما كان نفعها؟

في السنة الفائتة أخبرني كايسي أنَّه قرأ مراجعة كنت قد أعددتها حول كتاب جون لوكاريه «جاسوس مثالي». قال إنَّه وافق على تفسيري لوجهة نظر لوكاريه حول التجسس وهو أنَّه كلما كان التجسس أفضل كان الخداع أفضل. لقد اقتطفت له أحد سطوري المحببة من الكتاب: «في أية عملية هناك فوق الخط وتحت الخط. أما فوق الخط فهو ما تفعله بواسطة الكتاب وأما تحت الخط فهو كيف تمارس وظيفتك عملياً. أخذها كايسي بنظرة حادة وشاحبة. كان يفكر بعيداً. سألت: فيمَ يفكر؟ لا جواب، هل يوافق على هذا؟ لا شيء.

كان كايسي شخصية جذابة بالنسبة إلي لأنَّه كان مفيداً ولأنَّه لم يتجنب المواجهة أبداً. يمكن أن يصرخ ويتحدى ويهدد ولكنه لا يقطع الحوار ولا العلاقة.

في العام ١٩٨٥ عندما كشفنا عن فرق الضرب الخفية المخصصة لضرب الإرهابيين، قال لي: «ربما تكون هناك دماء على يديك». وهكذا كان. علمت فيما بعد عن الدور الذي كان لكايسي في السيارة المفخخة في ضاحية بيروت والتي تسببت بقتل ٨٠ شخصاً على الأقل معظمهم من الأبرياء.

كيف يمكنه أن يسوي ذلك؟ تخيلت وتأملت أنه يشعر بأزمة أخلاقية. كيف لا يشعر؟ لقد كان رشيقاً جداً حتى إنَّه لم يرَ أنَّه هو والبيت الأبيض قد خرقا القوانين. إنَّه كايسي الذي كانت الدماء على يديه.

الأسئلة المطروحة حول مؤسسات البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية والكونغرس والأعمال الخفية وسلطة شن الحرب والتلفيق المخيف سوف تتعرض لها التحقيقات. أما أنا فقد عدتُ إلى السؤال عن المسؤولية الشخصية، مسؤولية كايسي. الأحداث والانكشافات لن تبعده عن الصنارة، ولكن ربما تجعله يعلق فيها بشكل ثابت.

في بعض اللحظات كنت آمل أن يخرج من الصنارة. وكانت الطريقة الوحيدة هي الإقرار بنوع من الاعتذار لزملائه. وتحت آخر سؤال من «أسئلة هامة لم يجب عليها كايسي» كتبت: هل ترى الآن أن ذلك كان خطأً؟

بعد عدة أيام عدت إلى غرفة كايسي في المستشفى وكان الباب مفتوحاً. كانت آثار الجراح من العملية الجراحية التي أجريت في الدماغ قد بدأت تشفى. سألت كايسي كيف صارت أحواله. بثت عيناه إشعاعاً من الأمل وقال: «أفضل... لا». أخذت يده لأصافحها فقبض على يدي وضغط عليها، وساد السلام ونور الشمس في الغرفة لبعض الوقت.

سألني: «هل انتهيت؟» وهو يقصد الكتاب.

قلت إنني لم أنته بعد، كانت هناك أسئلة عديدة، لم أتبين كل أعماله بعد.

حرك الجانب الأيسر من فمه ببطء وابتسم قليلاً وتمتم.

قلت: انظر إلى المشاكل التي سببتها. كل الإدارة الآن تحت التحقيق. لم يظهر لي أنه سمع، ولذلك أعدت كلامي، وفي لحظةٍ نظر بعجز ورفع رأسه وقال: «إنها تؤذي». وفكرت في أنه يتألم جسدياً.

قلت: ماذا تؤذي يا سيدي؟

قال: أوه، ثمّ توقف، ثمّ تكلم فجأة وقال كما قال كلمته عن الايذاء: ماذا لا تعرف؟

في النهاية أدركت أنَّ المخفيَّ هو الأعظم. بدا وكأنه يقول إنَّ مجهولاً كان يتحكم بالسلطة. لم يكن سهل الانقياد حتى في نهاية حياته، وكان يعرف ذلك. قال:

ـ «أنا راحل». قلت: لا.

ثمّ قلت: كنت تعلم أليس كذلك؟ إنَّ تحويل الأموال للكونترا كان السؤال الأول. كنت تعلم كل ذلك.

هز رأسه بصعوبة وحدق بي وهز رأسه، أخيراً وقال: نعم.

سألته: لماذا؟

قال: «أنا اعتقدت»

ـ ماذا؟

ـ «أنا اعتقدت».

ثمّ نام ولم أستطع أن أسأله أي سؤال آخر.

بعد أسابيع أخذته صوفيا إلى منزله ولكن سرعان ما عاد إلى المستشفى. وأخيراً أخذته إلىماينول ليموت هناك. تعرض لالتهاب في الرئتين ونقل للمعالجة في لونغ أيلاند. وهناك في ٦ أيار/مايو وبعد يوم واحد من بدء الكونغرس باستجواباته العلنيّة حول قضية إيران ـ الكونترا توفي كايسي.